

تأليف

مصطفى صادق الرافعي

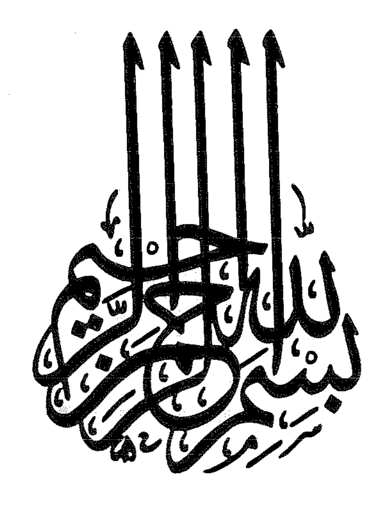
راجعه واعتنى به

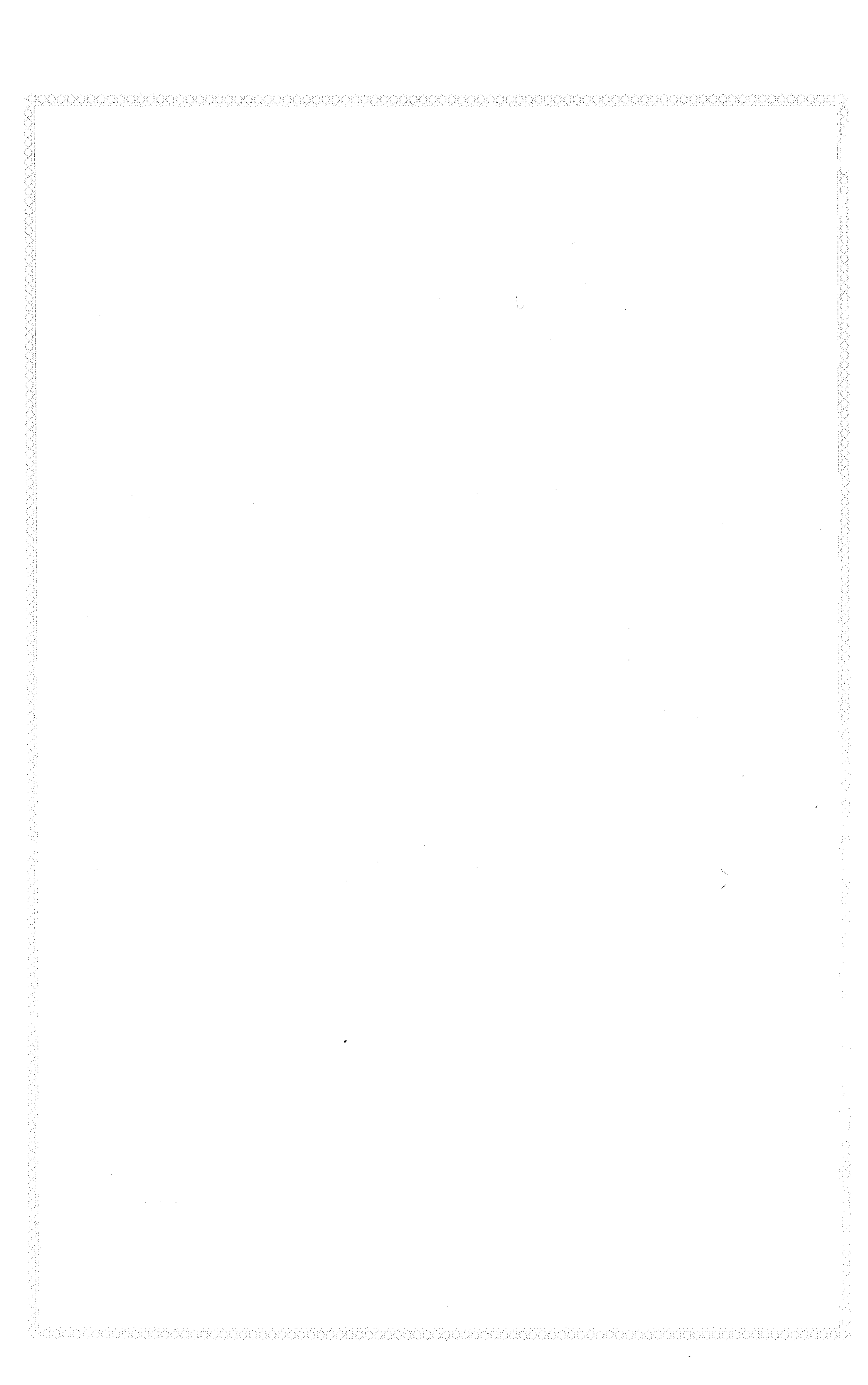
د. درويش الجويدي

الجزء الثالث




وحي القلم





السمُّو الروحيُّ الأعظمُ
والجمالُ الفنيُّ في البلاغةِ النبويّة

لَمّا أردتُ أنْ أكتبَ هذا الفصلَ وهمّمتُ به، عرضَتْ لي مسألةٌ نظرْتُ فيها جوابَها، ثُمَّ قدرْتُ أنْ يكونَ أبلغَ فلاسفةِ البيانِ في أوربا لِعهدِنا هذا رجلاً يُحسنُ العربيَّةَ المُبينة، وقد بلغَ فيها مبلغَ أئمتِها عِلْماً وذَوْقاً، ودرسَ تاريخَ النبيِّ ﷺ درسَ الروح لِأعمالِ الروح، وتفقَّهَ في شريعتِهِ فِقْهَ الحِكمةِ لِأسرارِ الحِكْمة، واستوعبَ أحادَيثَهُ واعتبَرها بفنِّ النقدِ البيانيِّ الذي يبحثُ في خصائصِ الكلام عن خصائصِ النفس؛ وتمثلتُ أنّي لقيْتُ هذا الرجلَ فسألْتُهُ: ما هو الجمالُ الفَنيُّ عندَكَ في بلَاغةِ محمدٍ ﷺ؟ وماذا تستخرجُ لك فلسفةُ البيانِ منه؟ وما سِرّهُ الذي يجتمعُ فيه؟

ولم يكدْ يخطرُ[1] لي ذلك حتى انكشفَ الخاطرُ[2] عن وجهٍ آخر، وذلك أنْ يكونَ معنى هذا السؤالِ بعينِهِ قد وقعَ في شيءٍ من حديثِ النفس لِأبلغِ أولئك العربِ الذين رأَوْا النبيَّ ﷺ، وآمنوا به، واتَّبعوا النورَ الذي أُنزلَ معَه، وقد صحِبَهُ فطالَتْ صُحبتُه، لا يفوُتهُ من كلامِهِ في الملأِ شيء، وخالطَهُ حتى كانَ لَهُ في الإحاطةِ بأحوالِ نفسِهِ كبعضِ التاريخ، فتدبَّرَ ما عسى أنْ يكونَ سرُّ الجمالِ في بلاغتِهِ ﷺ، وما مرجُعه الذي يردُ إليه؟

لو دارَ السؤالُ دورتيهِ في هذه السليقةِ[3] العربيَّةِ المُحكمةِ التي رجعَتْ أنْ تكونَ فلسفةً تشعرُ وتُحسّ، وفي تلك الفلسفةِ البيانيَّةِ الملهمةِ التي بلغَتْ أنْ تكونَ سليقةً تدرسُ وتفكرُ لَمَا خَلُصَ من كلتيهما إلّا برأيٍ واحدٍ تلتقي عليهِ حقيقةُ البيانِ من طرفيها: وهو أنَّ ذلكَ الجمالَ الفنيَّ في بلاغتِهِ ﷺ إنّما هو أثرٌ على الكلامِ من روحِهِ النبويَّةِ الجديدةِ على الدنيا وتاريخِها.

---

(١) يخطر لي: يطرأ على بالي.

(٢) انكشف الخاطر: ظهر وبان.

(٣) السليقة: الموهبة اللغوية.

وبعدُ، فأنا في هذه ٱلصفحات لا أصنعُ شيئاً غيرَ تفصيلِ هذا الجوابِ وشرحِه، بِٱستخراجِ معانيه، وٱستنباطِ[1] أدلَّتِه، وٱلكشفِ عن أسرارِهِ وحقائقِه؛ ولقد درسْتُ كلامَهُ ﷺ، وقضيْتُ في ذلك أياماً أتتبعُ ٱلسِّرَّ ٱلذي وقعَ في ٱلتاريخ ٱلقفرِ ٱلمُجدِبِ فأخصبَ بِهِ وأنبْتِ لِلدنيا أزهارَهُ ٱلإنسانيَّةَ ٱلجميلة، فكانوا ناساً إنْ عِبتَهم بشيءٍ لم تَعبْهُم إلّا أنهم دونَ ٱلملائكة؛ وكانوا ناساً، دارَتِ ٱلكرةُ ٱلأَرضيَّةُ في عدِّهِم ثلاثَ دورات: واحدةٌ حولَ ٱلشمس، وثانيةٌ حولَ نفسِها، وثالثةٌ حولَ أصحابِ ٱلنبيِّ ﷺ.

ثُمَّ تركْتُ ٱلكلامُ ٱلنبويَّ يتكلَّمُ في نفسي ويُلهِمُني ما أفصحَ بِهِ عنه، فلَكأنِّي بِهِ يقولُ في صِفةِ نفسِه: إنِّي أصنعُ أُمَّةً لها تاريخُ ٱلأرضِ من بعد، فأنا أُقبِلُ من هنا وهناك، وأذهبُ هناك وهنا، معَ ٱلقلوبِ وٱلأنفسِ وٱلحقائق، لا معَ ٱلكلامِ وٱلناسِ وٱلوقت.

إنَّ هٰهنا دنيا ٱلصحراءِ ستَلِدُ ٱلدنيا ٱلمتحضرةَ ٱلتي من ذُريَّتِها أوربا وأمريكا؛ فالقرآنُ وٱلحديثُ يعملانِ في حياةِ أهلِ ٱلأرضِ بنورٍ مُتممٍ لِمَا يعملُهُ نورُ ٱلشمسِ وٱلقمر.

وقدْ كانَ ٱلمسلمون يغزون ٱلدنيا بأسلحةٍ هي في ظاهرِها أسلحةُ ٱلمقاتلين، ولكنَّها في معانيها أسلحةُ ٱلأَطباء؛ وكانوا يحملون ٱلكتابَ وٱلسُّنَّة، ثُمَّ مَضَوا إلى سبيلِهِم وبقيَ ٱلكلامُ من بعدِهِم غازياً مُحارِباً في ٱلعالَمِ كلِّهِ حرْبَ تغييرٍ وتحويلٍ إلى أنْ يدخلَ ٱلإسلامُ على ما دخلَ عليهِ ٱلليل.

هذا منطقُ ٱلحديثِ في نفسي، وقد كنْتُ أقرؤه وأنا أتمثلُهُ مرسَلاً بتلك ٱلفصاحةِ ٱلعاليةِ من فمِ ٱلنبيِّ ﷺ حيثُ يمرُّ إعجازُ ٱلوحيِّ أولَ ما يخرجُ بِهِ ٱلصوتُ ٱلبشريُّ إلى ٱلعالم، فَلا أرى ثَمَّ إلَّا أنَّ شيئاً إلٰهيًّا عظيماً مُتصِلاً بروحِ ٱلكوْنِ كلِّهِ ٱتصالَ بعضِ ٱلسرِّ ببعضِ ٱلسرّ، يتكلَّمُ بكلام إنسانيٍّ هو هذا الحديثُ ٱلذي يجيءُ في كلماتٍ قويةٍ رائعةٍ، فنُها في بلاغتِها كَٱلشبابِ ٱلدائم.

كنْتُ أتأملُهُ قِطَعاً مِنَ ٱلبيانِ فأراهُ ينقلُني إلى مثلِ ٱلحالةِ ٱلتي أتأملُ فيها رَوْضةً تتنفسُ على ٱلقلب، أو منظراً يهزُّ جَمَالُهُ ٱلنفس، أو عاطفةً تزيدُ بها ٱلحياةُ في ٱلدم، على هدوءٍ ورَوحٍ وإحساس ولذَّة؛ ثُمَّ يزيدُ على ذلك أنَّهُ يُصْلِحُ مِنَ ٱلجهاتِ

(١) استنباط: استخراج.

ٱلإنسانيَّةِ في نفسي، ثُمَّ يرزقُ ٱللَّهُ منه رِزْقَ ٱلنورِ فإذا أنا في ذوقِ ٱلبيانِ كأنّما أرى ٱلمتكلمَ ﷺ وراءَ كلامِه.

وأعجبُ من ذلك أنّي كثيراً ما أقِفُ عندَ ٱلحديثِ ٱلدقيقِ أتعرَّفُ أسرارَهُ، فإذا هو يشرحُ لي ويهديني بِهديه؛ ثُمَّ أُحِسُّهُ كأنَّما يقولُ لي ما يقولُ المعلِّمُ لِتلميذِه: أفهِمت؟

وقفْتُ عندَ قولِهِ ﷺ: إنَّ قوماً رَكِبوا في سفنيةٍ، فَٱقتسموا، فصارَ لِكُلِّ رجلٍ منهم موضع، فنقرَ رجلٌ منهم موضِعَهُ بفأس، فقالوا له: ما تصنع؟ قال: هو مكاني أصنعُ فيهِ ما شِئْت! فإنْ أخذوا على يدِهِ نجا ونجَوْا، وإنْ تركوهُ هلكَ وهلكوا.

فكانَ لِهذا ٱلحديثِ في نفسي كلامٌ طويلٌ عن هؤلاءِ ٱلذين يخوضونَ[١] مَعنا ٱلبحرَ ويسمّون أنفسَهُم بِٱلمجددين، وينتحلون ضروباً مِنَ ٱلأوصاف: كحريَّةِ ٱلفِكْر، وٱلغَيرةِ، وٱلإصلاحِ؛ ولا يزالُ أحدُهم ينقرُ موضعَهُ من سفينةِ دينِنا وأخلاقِنا وآدابِنا بفأسِه، أي بقلمِه... زاعماً أنّهُ موضُعُهُ مِنَ ٱلحَياةِ ٱلاجتماعيَّةِ يصنعُ فيهِ ما يشاء، ويتولّاهُ كيفَ أراد، موجِّهاً لِحماقتِهِ وجوهاً مِنَ ٱلمعاذيرِ وٱلحُجَج، مِنَ ٱلمدنيَّةِ وٱلفلسفة، جاهلاً أنَّ ٱلقانونَ في ٱلعاقبةِ دون غيرِها، فَٱلحُكْمُ لا يكونُ على العملِ بعدَ وقوعِهِ كما يُحكَمُ على ٱلأعمالِ ٱلأخرى؛ بلْ قبلَ وقوعِه؛ وٱلعِقابُ لا يكونُ على ٱلجُرْمِ يقترفُهُ ٱلمُجرمُ كما يُعاقَبُ ٱللصُّ وٱلقاتلُ وغيرُهما، بلْ على ٱلشروعِ فيه، بلْ على توجُّهِ ٱلنيَّةِ إليه؛ فلا حريَّةَ هنا في عملٍ يُفسدُ خشبَ ٱلسفينةِ أو يمسُّهُ من قربٍ أو بعدٍ ما دامَتْ مُلَجِّجةً في بحرِها، سائرةً إلى غايتِها؛ إذْ كلمةُ (ٱلخَرْق) لا تحملُ في ٱلسفينةِ معناها ٱلأرضيَّ، وهناك لفظةُ (أصغرُ خرقٍ) ليسَ لها إلّا معنًى واحدٌ وهو (أوسعُ قبر)...

ففكِّرْ في أعظمِ فلاسفةِ ٱلدنيا مهما يكنْ من حريتِهِ وٱنطلاقِه، فهو هٰهنا محدودٌ على رغمِ أنفِهِ بحدودٍ مِنَ ٱلخشبِ وٱلحديدِ تفسيرُها في لغةِ ٱلبحرِ حدودُ ٱلحياةِ وٱلمصلحةِ وكما أنّ لَفظةَ (ٱلخَرْقِ) يكونُ من معانيها في ٱلبحرِ ٱلقبرُ وٱلغرقُ وٱلهلاك، فكلمةُ (الفلسفة) يكونُ من بعضِ معانيها في ٱلاجتماعِ ٱلحماقةُ وٱلغَفْلةُ وٱلبلاهة، وكلمةُ ٱلحريَّةِ يكونُ من معانيها ٱلجنايةُ وٱلزيغُ وٱلفسادُ وعلى هذا القِياسِ

(١) خاض البحر: ركب متنه مغامراً.

اللغويّ فالقلمُ في أيدي بعضِ ٱلكُتَّابِ من معانيهِ ٱلفأس، وٱلكاتبُ من معانيهِ ٱلمخرِّب، وٱلكِتابةُ من معانيها ٱلخِيانة؛ قالَ ليَ ٱلحديثُ: أفهْمت؟

هكذا يجبُ تأمُّلُ ٱلجمالِ ٱلفنيِّ في كلامِهِ ﷺ، فهو كلامٌ كلَّما زِدْتَهُ فِكْراً زادَكَ معنًى، وتفسيرُهُ قريب، قَريبٌ كَٱلروحِ في جسمِها ٱلبشريّ، ولكنَّهُ بعيدٌ بعيدٌ كَٱلروحِ في سِرِّها ٱلإلهيّ، فهو معكَ على قدرِ ما أنت معَه، إنْ وقفْتَ على حدٍّ وقف، وإنْ مددْتَ مدّ، وما أديْتَ بِهِ تأدّى[1]، وليسَ فيه، شيءٌ مِمَّا تراهُ لِكُلِّ بلغاءِ ٱلدنيا من صِناعةِ عبثِ ٱلقول، وطريقةِ تأليفِ ٱلكلام، وٱستخراجِ وضعٍ من وضع، وٱلقيامِ على ٱلكلمةِ حتى تُبيِّضَ كلمةً أخرى. . . والرغبةُ في تكثيرِ سوادِ ٱلمعاني، وتركِ ٱللسانِ يطيشُ طيْشَهُ ٱللغويَّ يتعلَّقُ بكلِّ ما عرضَ له، ويحذو ٱلكلامَ على معاني ألفاظِه، ويجتلبُ لَهُ منها ويستكرهُها على أغراضِه، ويطلبُ لِصناعتِهِ من حيثُ أدركَ وعجز، ومن حيثُ كانَ ولم يكن؛ إنّما هو كلامٌ قِيلَ لِتصِيرَ بِهِ ٱلمعاني إلى حقائقِها، فهو من لِسانٍ وراءَهُ قلْب، ووراءَهُ نور، ووراءَهُ ٱللَّهُ ـ جلّ جلَالُهُ ـ؛ وهو كلامٌ في مجموعِهِ كأنَّهُ دنيا أصدَرَها ﷺ عن نفسِهِ ٱلعظيمة، لا تبرحُ ماضيةً في طريقِها ٱلسويِّ على دينِ ٱلفِطْرة؛ فلا تتَّسعُ لِخِلاف، ولا يقعُ بها ٱلتنافر؛ وٱلخِلافُ وٱلتنافرُ إنَّما يكونانِ مِنَ ٱلحيوانيَّةِ ٱلمختلفةِ بطبيعتِها، لِقيامِها على قانونِ ٱلتنازعِ تعدو بِهِ وتجترمُ[2] وتأْثم، فهي نازلةٌ إلى ٱلشرِّ، والشرُّ بعضُهُ أسفلُ من بعض؛ أمّا روحانيَّةُ ٱلفِطْرةِ فمتَّسِقةٌ[3] بطبيعتِها، لا تقبلُ في ذاتِها ٱفتراقاً ولا ٱختلافاً؛ إذْ كانَ أولُها ٱلعلوَّ فوقَ ٱلذاتيَّة، وقانونُها ٱلتعاونَ على ٱلبِرِّ وٱلتقوى؛ فهي صاعدةٌ إلى الجهير، والخيرُ بعضُهُ أعلى من بعض.

فكلامُهُ ﷺ يجري مجرى عملِه: كلُّهُ دِينٌ وتقوًى وتعليم، وكلُّهُ روحانيَّةٌ وقوَّةٌ وحياة؛ وإنَّهُ يُخيَّلُ إليَّ وقد أُخذْتُ بِطُهرِهِ وجمالِهِ أنَّ مِنَ الفنِّ ٱلعجيبِ أنْ يكونَ هذا الكلامُ صلاةً وصِياماً في ٱلألفاظ.

أمَّا أسلوبُهُ ﷺ فأجدُ لَهُ في نفسي روحَ ٱلشريعةِ ونِظامَها وعزيمتَها، فليسَ لَهُ إلّا قوةُ قوةِ أمرٍ نافذٍ لا يتخلّف، وأنَّ لَهُ مع ذلك نَسَقاً هادئاً هدوءَ ٱليقين، مُبيناً بيانَ ٱلحِكْمة، خالِصاً خلُوصَ ٱلسرّ، واقعاً مِنَ ٱلنفس ٱلمؤمنةِ موقعَ ٱلنعمةِ من شاكرِها؛

---

(١) تأدى: وصل إلى الغاية المرجوّة منه.

(٢) تجترم: تقع في الجريمة.

(٣) متسقة: متجانسة.

وكيفَ لا يكونُ كذلك وهو أمرُ ٱلروحِ ٱلعظيمةِ ٱلموجهةِ بكلمات ربِّها ووحيه، لِيتوجَّهَ بها ٱلعالمُ كأنَّهُ منه مكانَ ٱلمِحْوَر: دورتُهُ بنفسِهِ هي دورتُهُ بنفسِهِ وبِمَا حولَه، روحُ نبيٍّ مُصْلِحٍ رحيم، هو بإصلاحِهِ ورحمتِهِ في ٱلإنسانيَّة، وهو بِٱلنبوَّةِ فوقَها، وهو بهذه وتلك في شمائلِهِ وطباعِهِ مجموعٌ إنسانيٌّ عظيمٌ لو شُبِّهَ بشيءٍ لَقيلَ فيه: إنَّه كمجموعِ ٱلقاراتِ ٱلخمسِ لِعمرانِ ٱلدنيا.

ومَنْ درسَ تاريخَهُ ﷺ وأعطاهُ حقَّهُ مِنَ ٱلنَظَرِ وٱلفِكْرِ وٱلتحقيق، رأى نَسَقاً مِنَ ٱلتاريخِ ٱلعجيبِ كنظامِ فَلَكٍ مِنَ ٱلأفلاكِ موجَّةٍ بِٱلنورِ في ٱلنورِ من حيثُ يبدأُ إلى حيثُ ينتهي، فليسَ يمتري عاقلٌ مميِّزٌ أنّ هذه ٱلحياةَ ٱلشريفة، بذلك ٱلنظامِ ٱلدقِيق، في ذلك ٱلتوجُّهِ ٱلمحكم ـ لا يُطيقُها بشرٌ من لحمٍ ودمٍ على ناموسِ ٱلحياةِ إلّا إذا كانَ في لحمِهِ ودمِهِ معنى ٱلنورِ وٱلكهرباءِ على ناموسٍ أقوى مِنَ ٱلحياة.

ولم يكنْ مثلُهُ ﷺ في الصبرِ وٱلثباتِ وٱستقرارِ ٱلنفسِ وٱطمئنانِها على زلازلِ ٱلدنيا، ولا في ٱلرحمةِ ورقَّةِ ٱلقلْبِ وٱلسموِّ فوقَ معاني ٱلبقاءِ ٱلأرضيّ؛ فهو قد خُلِقَ كذلك لِيغلبَ ٱلحوادثَ ويتسلَّطَ على ٱلمادَّة؛ فلا يكونُ شأنُهُ شأنَ غيرِه مِنَ ٱلناس: تدفنهُم معاني ٱلترابِ وهم أحياءٌ فوقَ ٱلتراب، أو يحدُّهُم ٱلجسمُ ٱلإنسانيُّ من جميعِ جِهاتِهِم بحدودِ طِباعِهِ ونَزعاتِه؛ وبذلك فقدْ كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ منبعَ تاريخٍ في ٱلإنسانيَّةِ كلِّها دائماً، ولِرأسِ ٱلدنيا نظامُ أفكارِهِ ٱلصحيحة.

* * *

عن عبدِ ٱللَّهِ بنِ عمرُ ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعْتُ رسولَ ٱللَّهِ ﷺ يقول: انطلقَ ثَلاثةُ رَهْطٍ[1] مِمَنْ كانَ قبلَكم حتى أَوَوا ٱلمبيتَ إلى غارٍ فدخلُوه، فٱنحدرَتْ صخرةٌ مِنَ ٱلجبلِ فَسدَّتْ عليهِمُ الغار، فقالوا: إنَّهُ لا يُنجيكُم من هذه الصخرةِ إلّا أن نَدْعُوا اللَّهَ بصالحِ أعمالِكم! فقالَ رجلٌ منهم: اللَّهُمَّ كانَ لي أبوانِ شيخانِ كبيران، وكنْتُ لا أغبقُ قبلَهُما أهلاً ولا[2] مالاً فنأَى[3] بي في طلبِ شيءٍ يوماً فلم أُرِحْ عليهما حتى ناما، فحلبْتُ لهما غبوقَهُما فوجدْتُهُما نائمين، فكرهْتُ أنْ أغبقَ قبلَهما أهلاً أو مالاً، فلبثْتُ وٱلقَدَحُ على يديّ أنتظرُ ٱستيقاظَهما حتى برقَ

(١) رهط: أفراد.

(٢) يقصد أنه كان لا يسقى أحداً من عائلته قبل والديه. والغبوق ما يشرب في العشي.

(٣) نأى: بعُد.

ٱلفجر[1]، فٱستيقظا فشربا غبوقَهما، اللهمَّ إنْ كنتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ ففرِّجْ عنّا[2] ما نحن فيهِ من هذه ٱلصخرة! فٱنفرجَتْ شيئاً لا يستطيعونَ ٱلخروج.

قالَ النبيُّ ﷺ: وقالَ ٱلآخر: اللهمَّ كانَتْ لي بنتُ عمٍّ كانَتْ أحبَّ ٱلناسِ إليَّ، فأردْتُها عن نفسِها[3] فٱمتنعَتْ منّي، حتى ألَمَّتْ بها سَنَةٌ منَ ٱلسنينَ فجاءَتْني فأعطَيتُها عشرينَ ومائةَ دِينارٍ على أنْ تُخليَ بيني وبينَ نفسِها! ففعلَتْ، حتى إذا قدرْتُ عليها قالَت: لا أُحلّ لك أنْ تفضَ[4] ٱلخاتمَ إلّا بحقِّه! فتحرَّجْتُ[5] مِنَ ٱلوقوعِ عليها، فٱنصرفْتُ عنها وهي أحبُّ ٱلناسِ إليّ، وتركْتُ ٱلذهبَ ٱلذي أعطيْتُها. اللهمَّ إنْ كنتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ فٱفرجْ عنّا ما نحنُ فيه! فٱنفرجَتِ ٱلصخرةُ غيرَ أنَّهم لا يستطيعون ٱلخروجَ منها.

قالَ ٱلنبيُّ ﷺ: وقالَ ٱلثالثُ: اللهمَّ إنّي ٱستأجرْتُ أُجراءَ فأعطيتُهُم أجرَهم غيرَ رجلٍ واحدٍ تركَ ٱلذي لَهُ وذهب، فثمَّرْتُ[6] أجرَهُ حتى كثُرَتْ منهُ ٱلأموال، فجاءَني بعدَ حِينٍ فقال: يا عبدَ ٱلله، أدِّ إليَّ أجري. فقلْتُ لَه: كلُّ ما ترى من أجرِك، مِنَ ٱلإبلِ وٱلبقرِ وٱلغنمِ وٱلرقيق! فقال: يا عبدَ ٱللَّهِ لا تستهزِئْ بِي! فقلْتُ: إنيّ لا أستهزِئُ بك! فأخذَهُ كلَّهُ فٱستاقَهُ فلم يتركْ شيئاً. اللهمَّ فإنْ كنْتُ فعلْتُ ذلك ٱبتغاءَ وجهِكَ فٱفرجْ عنَّا ما نحن فيه! فٱنفرجَتِ الصخرةُ فخرجوا يمشونَ. ٱنتهى ٱلحديث.

وأنا فلسْتُ أدري، أهذا هو النبيُّ ﷺ يتكلَّمُ في ٱلإنسانيةِ وحقوقِها بِكلامٍ بَيِّنٍ صريحٍ لا فلسفةَ فيه، يجعلُ ما بينَ ٱلإنسانِ وٱلإنسانِ مِنَ ٱلنيّةِ هو ما بينَ ٱلإنسانِ وربِّه مِنَ ٱلدين؛ أمْ هيَ الإنسانيَّةُ تنطِقُ على لِسانِهِ بهذا ٱلبيانِ ٱلعالي، في شِعرٍ من شِعرِها ضاربةً فيهِ ٱلأمثال، مشيرةً فيهِ إلى ٱلرموز، واضعةً إنسانَها بينَ شِدَّةِ ٱلطبيعةِ ورحمةِ ٱلله، مُحْكِمةً عناصرَ روايتِها ٱلشِّعريَّة، مُحَقِّقةً في بيانِها ٱلمكشوفِ أغمضَ معانيها في فلسفةِ ٱلحاسَّةِ ٱلإنسانيَّةِ حينَ تتَّصلُ بأشيائِها فتظهرُ ٱلضرورةُ ٱلبشريَّةُ وتختفي ٱلحِكْمة، وفلسفةُ ٱلروح حينَ تتَّصِلُ بهذِهِ ٱلأشياء ذاتِها فتظهرُ ٱلحِكْمةُ وتختفي ٱلضرورة ـ مبيِّنةً أثرَ هذه وتلكَ في طبيعةِ ٱلكوْن، مقرِّرَةً أنَّ ٱلحقيقة

(١) برق الفجر: انبلج، وأشرقت الشمس.
(٢) فرِّجْ عنا: اكشفْ عنا.
(٣) أردتها عن نفسها: راودتها.
(٤) تفضّ: تفتح.
(٥) تحرّج: احترس وخشي.
(٦) ثمّرت: جعلته ينمو.

ٱلإنسانيَّةَ ٱلعاليةَ لنْ تكونَ فيما ينالُ ٱلإنسانُ من لذَّتِه، ولا فيما ينجحُ من أغراضِه، ولا فيما يُقنعُهُ من منطقِه، ولا فيما يلوحُ من خيالِه، ولا فيما ينتظمُ من قوانينِه؛ بلْ هيَ ٱلسموُّ على هذه ٱلحقائقِ ٱلكاذبةِ كلِّها، وهيَ ٱلرحمةُ ٱلتي تغلبُ على ٱلأَثَرةِ فيُسميها ٱلناسُ بِرًّا، وٱلرحمةُ التي تغلبُ على ٱلشهوةِ فيُسميها ٱلناسُ عِفَّة، وٱلرحمةُ ٱلتي تغلبُ على ٱلطمع فيُسميها ٱلناسُ أمانة؛ وهيَ في ضبطِ ٱلروح لثلاثٍ مِنَ ٱلحَواسّ: حاسةُ ٱلدَّعةِ ٱلتي يقومُ بها حظُّ ٱلخمول، وحاسَّةُ ٱللذةِ التي يقومُ بها حظُّ الهوى، وحاسَّةُ ٱلتملُّكِ ٱلتي يقومُ بها حظُّ ٱلقُوّة.

وتزيدُ ٱلإنسانيَّةُ على ذلك في نسقِ شِعرِها أنَّها تُثْبتُ أنَّ ٱلبرَّ مِنَ ٱلعِفَّة وَٱلأمانةِ هو على إطلاقِهِ كَٱلأساس لَهُما؛ فمَنْ نشأَ على برِّ أبويهِ كانَ خليقاً أنْ يتحققَّ بِٱلعِفَّةِ وٱلأَمانة، وأنَّ ٱلعِفَّةَ مِنَ ٱلأَمانةِ وَٱلبرِّ هي مِساكُهُما وجامعتُهُما في ٱلنفس، وَأنَّ ٱلأَمانةَ مِنَ ٱلبرِّ وَٱلعِفَّةِ هي كمالُ هذه ٱلفضائل، وكلُّهُنَّ درجاتٌ لِحقيقةٍ واحدة، غيرَ أنَّ بعضَها أسمى من بعضٍ في ٱلشأْنِ وَٱلمنزلة، وبعضَها طريقٌ لِبعضٍ يجرُّ سببٌ منها سبباً منها، وأنَّ ٱلرحمةَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلتي هيَ وحْدَها ٱلحقيقةُ ٱلكبرى إنَّما هيَ هذا ٱلحُبُّ، بادئاً مِنَ ٱلولدِ لِأبويه، وهو ٱلحُبُّ ٱلخاصُّ؛ ثُمَّ مِنَ ٱلمُحِبِّ لِحبيبتِه، وهو ٱلحُبُّ ٱلأخصّ، ثُمَّ منَ ٱلإنسانِ لِلإنسانيَّة، وهوَ ٱلحُبُّ مُطْلَقاً بعمومِهِ وبغيرِ أسبابِهِ ٱلمُلْجئةِ مِنَ ٱلحاجةِ وٱلغَريزة؛ وهي درجاتٌ كَدرجاتِ ٱلحياةِ نفسِها من طُفُولَتِها إلى شبابِها إلى ٱلشيخوخة، ومِنَ ٱلعاطفةِ إلى ٱلرغبةِ إلى ٱلعقْل.

ثُمَّ إنَّهُ ما دامَ كمالُ ٱلفضيلةِ هوَ ٱلأمانة، فما قبلَها أنواعٌ منها؛ فبرُّ ٱلولدِ أمانةُ ٱلطبع ٱلمتأدِّبِ، وعِفَّةُ ٱلمُحِبِّ أمانةُ ٱلكريم، والثالثةُ أمانةُ ٱلخُلُقِ ٱلعالي، وهي أسماهُنّ، لِأنَّها لَنْ تكونَ خُلُقاً ثابتاً إلَّا وقد خضعَ لِقانونِها ٱلطبعُ وَٱلقَلْب، ودخلَ في أسبابِها ٱلأدبُ وَٱلكَرَم؛ فالأمانةُ ٱلكَاملةُ في هذه ٱلفلسلفةِ هيَ ٱلأمانةُ لِلإنسانيَّةِ ٱلعامَّةِ ٱلمتَّصِلةِ بِٱلمرءِ من أبعدِ جِهاتِه، دونَ ٱلإنسانيَّةِ ٱلخاصَّةِ بكلِّ شخصٍ من أب، أو أمّ، أو قريب؛ ودونَ ٱلتي هي أخصُّ وهي إنسانيَّةُ ٱلحُبُّ.

ونرى في لفظِ ٱلحديثِ أنَّ كلَّ رجلٍ من هؤلاءِ ٱلذين مثَّلُوا رِوايةَ ٱلإنسانيَّةِ ٱلفاضلةِ في فُصولِها ٱلثلاثة، لا يقولُ إنَّهُ فعلَ ما فعلَ من صالح أعمالِهِ إلَّا (ابتغاءَ وجهِ ٱلله)، وقد تطابقوا[١] جميعاً على هذه ٱلكلمة، وهي من أدَقِّ ما في فلسفةِ

(١) تطابقوا: توافقوا.

ٱلإنسانيَّةِ في شِعْرِها ذلك، فإنَّ معناها أنَّ ٱلرجلَ في صالح عملِهِ إنّما كانَ مُجاهداً نفسَه، يمنعُها ما تحرصُ عليهِ من حظِّها أو لذّتِها أو منفعتِهَا، أي منخلعاً من طبيعتِهِ ٱلأرضيَّةِ ٱلمنازعةِ لِسواها، ٱلمنفردةِ بِذاتِها، متحقِّقاً بِٱلطبيعةِ ٱلسماويَّةِ ٱلتي لا يرحمُ ٱللَّهُ عبداً أَلّا بها، وهي رحمةُ ٱلإنسانِ غيْرَهُ، أي ٱندماجُهُ بِٱستطاعتِهِ وقوَّتِه، وإعطاؤُهُ من ذاتِ نفسِه، ومعاونتُه كُفُّ أذاه.

وَٱلحديثُ كَٱلنصِّ على أنَّ هذهِ ٱلرحمةَ في ٱلنفسِ هيَ ٱلدينُ عندَ ٱلله، لا يصلحُ دِينٌ بغيرِها، ولا يقبلُ ٱللَّهُ صَرْفاً ولا عَدْلاً من نفسٍ تخلو منها؛ وإذا كانَتْ بهذهِ ٱلمنزلَة، وكَانَتْ أساسَ ما يُفوِّضُ على ٱلإنسانِ مِنَ ٱلخيرِ وَٱلحقّ، فهي من ذلك في معنى ٱلحَديثِ أساسُ ما يُصْلِحُ هذه ٱلإنسانيَّةَ مِنَ ٱلشرِّ وَٱلبَاطِلِ؛ وبهذا كلِّهِ تكونُ ٱلغايةُ ٱلفلسفيَّةُ ٱلتي ينتهي إليها كلامُهُ ﷺ، أَنَّ تَنشِئَةَ ٱلناسِ على ٱلبرِّ وَٱلعِفَّةِ وَٱلأمانةِ لِلإنسانيَّةِ هِيَ وحدَها ٱلطريقةُ ٱلعمليَّةُ ٱلمُمْكِنةُ لِحلِّ معضلةِ ٱلشرِّ وَٱلجريمةِ في ٱلاجتماع ٱلبشريّ. وَٱنظُرْ كيف جعلَ نهايةَ ٱلسموِّ في رحمةِ ٱلمالِ ٱلذي يَصِفُونَهُ بأنَّهُ شقيقُ ٱلروح، فكأَنَّ ٱلإنسانَ لا يخرجُ فيها لِغيرِهِ من بعضِ مالِه، بل ينخلعُ من بعضِ روحِه؛ وهذا يُقرِّرُ لك فلسفةً أخرى: أنَّ ٱلسعادةَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلصحيحةَ في ٱلعطاءِ دونَ ٱلأخذ، وأنّ ٱلزائفةَ هي في ٱلأخذِ دونَ ٱلعطاء؛ وذلك آخرُ ما ٱنتهَتْ إليهِ فلسفةُ ٱلأَخلاق؛ فما ٱلمرءُ إلّا ثمرةٌ تنضجُ بموادِّها، حتى إذا نضجَتْ وٱحْلَوْلَتْ كانَ مظهرُ كمالِها ومنفعتِها في ٱلوجودِ أنْ تهبَ حلاوَتها فإذا هي أمسكتِ ٱلحلاوةَ على نفسِها لم يكنْ إلّا هذه الحلاوةُ بعينِها سببٌ في عَفَنِها وفسادِها من بعد. أَفهِمت؟..

وما دُمْنَا قد وصفْنَا رحمةَ ٱلمال، فإنَّا نُتِمُّ ٱلكلامَ فيها بهذا ٱلحديثِ ٱلعجيبِ في فنِّ تمثيلِهِ وبلاغةِ فنِّه: عن أبي هريرةَ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ أنَّه سُمعَ رسولَ ٱللَّهِ ﷺ يقول: مثلُ ٱلبخِيل وَٱلمُنْفِقِ كمثلِ رجلينِ عليهما جُبتانِ من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما؛ فأمَّا ٱلمُنفِقُ فلا يُنفقُ إلَا سبغَتْ[1] أو وَفَرَتْ على جلدِهِ حتى تُخفِيَ بنانَهُ[2] وتعفُوَ أثرَهُ، وأمَّا البخيلُ فلا يُريدُ أنْ يُنفقَ شيئاً إلَّا لزقَتْ كلُّ حلقةٍ مكانَها، فهو يُوسِعُها فلا تتسع. انتهى.

فأنت ترى ظاهرَ ٱلحديث، ولكنَّ فَنَّهُ ٱلعجيبَ في هذا الحديدِ ٱلذي يُرادُ به

---

(١) سبغت النعجة: اتّسعت.
(٢) بنانه: أصبعه.

طبيعةُ ٱلخيرِ وٱلرحمةِ في ٱلإنسان، فهي من أشدِّ ٱلطبائعِ جموداً وصلابةً وٱستعصاءً متى ٱعترضَتْها حظوظُ ٱلنفسِ ٱلحريصةِ وأهواءُها، ومع ذلك فإنّ ٱلسخاءَ بٱلمالِ يبسطُ منها وينتهي في ٱلطبعِ إلى أنْ يجعلَها ليِّنةَ، فلا تزالُ تمتدُّ وتسبغُ حتى يكونَ كمالُ طبعِ ٱلسخاءِ هو كمالَ طبعِ ٱلخيرِ في ٱلنفسِ ٱلكريمة، فمَنْ ألزمَ[1] نفسَهُ ٱلجُودَ وٱلإنفاقَ راضَهَا[2] رياضةً عمليَّةً كرياضةِ ٱلعَضلِ بأثقالِ ٱلحديدِ ومعاناةِ ٱلقوَّةِ في ٱلصِّراعِ ونحوِه؛ أمّا ٱلشُّحُّ[3] فلا يُناقِضُ تلك ٱلطبيعةَ ولكنَّهُ يدعُها جامدةً مستعصيةً لَا تلينُ ولا تستجيبُ ولا تتيَسر.

وقد جعلَ ٱلجُبَّةَ مِنَ ٱلثدي إلى ٱلتراقي، وهذا من أبدعِ ما في ٱلحديث؛ لأن كلَّ إنسانٍ فهو منفقٌ على ضروراتِه، يستوي في ذلك ٱلكريمُ وٱلبخيل، فهما على قدرٍ سواءٍ من هذه ٱلناحية؛ وإنَّما ٱلتفاوتُ فيما زادَ وسبغَ من وراءِ هذا ٱلحدّ، فههنا[4] يبسطُ ٱلكريمُ بسطَهُ ٱلإنسانيَ، أمَّا ٱلبخيلُ فهو «يُريدُ» لأنَّهُ إنسان، وٱلإرادةُ علمٌ عقليٌّ لا أكثر، فإذا هو حاولَ تحقيقَ هذه ٱلإرادةِ وقعَ من طبيعةِ نفسِهِ ٱلكزَّةِ فيما يُعانيهِ مَنْ يُوسِّعُ جُبَّةً مِنَ ٱلحديدِ لزقَتْ كلُّ حَلْقةٍ من حلقاتِها في مكانِها، فهي مستعصيةٌ متماسِكة، فهو يُوسِّعُها فلا تتسع.

ألا ترى كيف تتوجَّهُ ٱلحُجَّة، وكيف تدقُّ ٱلفلسفةُ وهيَ في أظهرِ ٱلبيانِ وأوضحِه؟ وهلْ تحسبُ طبيعةُ ٱلبخيلِ في دقائقِها ٱلنفسيَّةِ لو هي نطقَتْ ـ بالِغَةً من وصفِ نفسِها هذا ٱلمبلغَ من جمالِ ٱلفَنِّ وإبداعِه؟ وهو بعدُ وصفٌ لو نُقِلَ إلى كلِّ لغاتِ ٱلأرضِ لَزانَها جميعاً، ولَكانَ في جميعِها كَٱلإنسانِ نفسِه: لا يختلفُ تركيبُه، فلنْ يكونَ بثلاثةِ أعين، لا في بلادِ شكسبيرَ ولا في بلادِ ٱلزنوج.

إنَّ كلامَ نبيِّنا ﷺ يجبُ أنْ يُترجَمَ بفلسفةِ عصرِنا وآدابِه، فستراهُ حينئذٍ كأنَّما قيلَ مرةً أخرى من فمِ ٱلنبوَّة، وستراهُ في شرحِهِ ٱلفلسلفيِّ كَٱلأزهارِ ٱلناضرة: حياتُها بَشاشتُها في ٱلنور؛ وتعرفُهُ إنسانيَّةً قائمةً تُصحّحُ بها أغلاطُ ٱلزمنِ في أهلِه، وأغلاطُ ٱلناسِ في زمنِهم؛ وتجدُهُ يرفُّ على ٱلبشريَّةِ ٱلمسكينةِ بحنانٍ كحنانِ ٱلأمِّ على أطفالِها، وٱلناسُ ٱلآنَ كَالأطفالِ غابَتْ أمُّهم، فهم في تنافرٍ صِبيانيّ. . . وما ٱلأمُّ بطبيعتِها إلَّا ٱلمِيزانُ لٱستبدادِهم، وٱلحِكْمةُ لِطيشِهِم، وَٱلائتلافُ لِتنافُرِهم[5]، وٱلنظامُ لِعبَثِهم[6]؛

---

(١) ألزم: أجبر.
(٢) راضها: مرّنها وعوّدها.
(٣) الشحّ: البخل.
(٤) يبسط الكريم: يمدّ يد المساعدة.
(٥) تنافرهم: تنابذهم واختلافهم.
(٦) عبثهم: لعبهم.

وبِالجملةِ فحنانُ قلبِها الكبيرِ هوَ القانونُ لِكلِّ قضايا هذه القلوبِ الصغيرة.

وقد كتبْنا في فلسفةِ الأدبِ وحقيقتِه، ومعانيهِ الإنسانيَّة، وأنَّ الأديبَ التامَّ الأداةِ هوَ الإنسانُ الكونيُّ، وغيرُهُ هوَ الإنسانُ فقط، وَأنَّ عِلْمَ الأديبِ هوَ النفسُ الإنسانيَّةُ بأسرارِها المتجهةِ إلى الطبيعةِ، والطبيعةُ بِأسرارِها المتجهةِ إلى النفس؛ ولِذلكَ فموضعُهُ مِنَ الحياةِ موضعُ فكرةٍ حدودُها من كلِّ نواحيها الأسرارُ - وأنَّ الأديبَ مكلَّفٌ تصحيحَ النفسِ الإنسانيةِ ونفي التزويرِ عنها، وإخلاصِها مِمَّا يلتبسُ بها على تتابعِ الضرورات، ثُمَّ تصحيحَ الفكرةِ الإنسانيَّةِ في الوجود، ونفيَ الوثنيَّةِ عن هذه الفِكرةِ، والسموِّ بها إلى فوق، ثُمَّ إلى فوق، ودائماً إلى فوق.

فإذا تدبَّرْتَ هذا المقال، وَاعتبَرْتَ كلامَ النبيِّ ﷺ على ما بيَّنا وشرحْنا، وأخذْتَهُ من عصرِهِ ومِنَ العصرِ الذي نعيشُ فيه، ونظرْتَ إلى ألفاظِهِ ومعانيه، واستبْرَأْتَ[1] ما بينَها من خواصِّ الفنِّ بمثلِ ما نبَّهناك إليهِ مِنَ التأويلِ الذي مرَّ بك، وعلمْتَ أنّ كلَّ حقيقةٍ فنيَّةٍ لا تكونُ كذلك ألّا بخاصةٍ فيها، وأنَّ سرَّ جمالِها في خاصَّتِها - إذا جمعْتَ ذلك لم ترَ مذهباً عنِ الإقرارِ بأنَّ النبيَّ ﷺ كما هو أعظمُ نبيٍّ وأعظمُ مُصْلِح، فهو أعظمُ أديب؛ لِأنَّ فنَّهُ الأدبيَّ أعظمُ فمنَ يُحققُ لِلإنسانيَّةِ حياةَ أخلاقِها، وهو بِكلِّ ذلك أعظمُ إنسان. ﷺ.

* * *

فَالفنُّ في هذه البلاغةِ هو في دقائقِهِ أثرُ تلكَ الرُّوح العُلْيا بِكُلِّ خصائِصِها العظيمةِ التي يحتاجُ إليها الوجودُ الروحانيُّ على هذه الأرضَ، ولذا ترى كلامَهُ ﷺ يخرجُ من حدودِ الزمان، فكلُّ عصرٍ واجدٌ فيهِ ما يُقالُ له، وهو بذلك نبوَّةٌ لا تنقضي، وهو حيٌّ بِالحياةِ ذاتها، وكأنَّما هو لونٌ على وجهٍ منها كما ترى البياضَ مثلاً هو اللونَ على وجهِ طائفةٍ مِنَ الجنسِ البشريّ...

فإذا نظرْتَ في هذا الفَنِّ فانظرْهُ في حديثِه، وفي عملِه، وفي الدنيا التي ألَّفَها مِنَ التاريخ تأليفَ القطعةِ البليغةِ النادرةِ مِنَ الكلام، وردَّ كلَّ ما تدَبَّرتَهُ[2] من ذلك إلى تلك الروحِ الجديدةِ على تاريخِ الأرض؛ فلتَعْلَمَنَّ حينئذٍ أنَّ كلَّ بليغٍ هو شمعةٌ مُضيئةٌ صُنِعَتْ لها مادةُ النورِ نوراً وجمالا، بجانبِ هذه الشمس التي خُلِقَتْ فيها مادةُ النورِ نوراً وجمالاً وحياةً وقوَّة؛ هناك نورٌ لِذي عينين، وهنا النورُ لِكُلِّ ذي

---

(١) استبرأت: خلصت. (٢) تدبرته: تدارسته.

عينين؛ وذاكَ يتخايلُ كَٱلحُلُم، وهذا يُفصِحُ كَٱلحقيقة؛ وذلك ضوءٌ من حولِهِ ٱلظلمةُ دانية، وهذا قدْ طردَ ٱلظُّلمةَ عن نصفِ ٱلدنيا إلى نصفِ ٱلدنيا؛ وٱلأولُ نورٌ بلا روح، وٱلثاني هو روحُ ٱلنور.

تلك في رأْينا هيَ ٱلطريقةُ ٱلتي كانَ يفهمُهُ بها أصحابُهُ ﷺ، كما يفهمُ ٱلشاعرُ نورَ ٱلقمرِ في ليلةِ صيفٍ بِمعانٍ منَ ٱلزمانِ وٱلمكان، ومِنَ ٱلنفس وٱلحالة، ومنَ ٱلهيئةِ وٱلشَّكْل، ومِنَ ٱلعينِ وٱلفِكْر، ومنَ ٱلسماءِ وٱلأرض؛ ففيهِ ٱلنورُ وزيادة، أي ٱلحقيقةُ وما ترتفعُ بِهِ على نفسِها؛ وبهذه ٱلطريقةِ كانوا معَهُ كأعظم فلاسفةِ ٱلفنِّ مَعَ ٱلفن إعجاباً وحُبًّا وٱنقياداً وطاعةً حتى ٱنخلعوا[1] من عصرِهِمْ ودُنياهم، وخرجوا من أحوالِهم وطبائعِهم، وٱنجذبوا إليهِ أشدَّ ٱنجذابِ عرفَهُ ٱلتاريخ، وأصبحوا مصرَّفينَ مَعهُ تصريفَ الحوادثِ لا تصريفَ ٱلأشخاص، وعادَتْ أنفسُهُم وكأنَّ تأثيرَ ٱلأرضِ يلتقى فيها بتأثيرِ ٱلسماءِ فيُغسَلُ في سُحُبٍ عاليةٍ فلا يكونُ فيها كما يُريدُهُ ٱلناس، بلْ كما يُريدُ ٱللهُ؛ ورجعَتْ قلوبُهم لا تلبسُ على دينِها رأياً ولا هوًى، وكأنَّما وُضِعَ لها هذا ٱلدينُ حرساً على كلِّ سمعٍ وعلى كلِّ بصر؛ وبٱلجملةِ فأولئك قومٌ كأنَّما تناولَهُم ٱلنبيُّ ﷺ فأَفرَغَهم ثُمَّ ملأَهم، وما ٱنتقلوا إلى منزلتِهِمُ ٱلعاليةِ في ٱلتاريخِ إِلَّا بعدَ أنْ نقلَهم هو إلى منزلةٍ من منازلِ نفسِهِ ٱلشريفة.

وناهيك من رجالٍ يُمثِّلُ لهم بهذا ٱلمثلِ ٱلذي يضربُهُ لهم في ٱلإيمانِ لِيبلغوه أو يُقاربوه؛ فعن خبابِ بْنِ ٱلأرتِ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ قال: شكَوْنا إلى رسولِ ٱللَّهِ ﷺ وهو متوسِّدٌ بُردةً لَهُ في ظِلِّ ٱلكعبة، قلْنَا: أَلَا تستنصرُ لنا؟ ألا تدعو ٱللَّهَ لنا؟ قال: كانَ ٱلرجلُ فيمَنْ قبلَكُم يُحفرُ لَهُ في ٱلأرضِ فيُجعلُ فيه فيُجاءُ بِٱلمنشارِ فيُوضعُ على رأسِهِ فيُشقُّ بِٱثنينِ وما يصدُّهُ ذلك عن دينِه، ويُمَشَّطُ بأَمشاطِ ٱلحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عَصَبٍ وما يصدُّهُ ذلك عن دينِه!

فانظرْ يا هذا، فإِنَّهُ لوِ ٱجتمعَتْ قوى ٱلكونِ فجاءَتْ يشدُّ بعضُها بعضاً فنزلَتْ في عبارةٍ مِنَ ٱلكلام لِتمَلأَ نفوسَ ٱلمؤمنينَ بقوَّتِها لَمَا وُضِعَتْ إِلَّا هذا ٱلوضعَ من هذا التمثيلِ بِأمشاطِ ٱلمساميرِ وأسنانِ ٱلمنشارِ في عظمِ ٱلإنسانِ ٱلحيِّ ولحمِه. وظاهرُ ٱلتمثيلِ على ما رأيْتَ مِنَ ٱلعجب، ولكنَّ لَهُ باطناً أعجبَ من ظاهرِه، وهو ٱلبلاغةُ كلُّ ٱلبلاغةِ وٱلبيانُ حقِّ البيان، فإِنَّما يُريدُ ﷺ أنَّ ٱلحديدَ لا يأكلُ ولا يمزعُ

(١) انخلعوا: خرجوا.

من أولئك ٱلأقوياءِ بإيمانِهم عَظْماً ولَحْماً وعَصَباً، بلْ هو حديدٌ يأكلُ حديداً مثلَهُ أو أشدَّ منه، فإنَّ لِلروحِ ٱلمؤمنةِ ٱلمسلَّطةِ على جِسمِها قوةً تصنعُ هذه ٱلمعجزة، فيمرُّ ٱلحديدُ في ٱلعظمِ وَٱللحمِ وٱلعَصَبِ يسلبُها ٱلحياة، ولكنّها تسلبُهُ شِدَّتَهُ وجَلَدَهُ وصبرَه!

* * *

وكلُّ ما جاءَ مِنَ ٱلتمثيلِ في كلامِهِ ﷺ ينطوي فيهِ من إبداعِ ٱلفنِّ ٱلبيانيِّ وإعجازِهِ ما يفوتُ حدودَ ٱلبلغاء، حتى لا تشكُّ إذا أنت تدبَّرْتَهُ بحقِّهِ مِنَ ٱلنظرِ وَٱلعِلْم أنَّ بلاغتَهُ إنَّما هي شيءٌ كبلاغةِ ٱلحياةِ في ٱلحيِّ: هي ٱلبلاغةُ ولكنَّها أبدعُ مِمَّا هي، لِأنَّها ٱلحياةُ أيضاً.

وأنت خبيرٌ أنَّ هذا ٱلنبيَّ ٱلكريمَ ﷺ كانَتْ تأخذُهُ عندَ نزولِ ٱلوحي عليهِ أحوالٌ وُصِفَتْ في كتبِ ٱلحديث: قالَتْ عائشةُ ـ رضيَ اللّهُ عنها ـ: ولقد رأيْتُهُ ينزلُ عليهِ ٱلوحيُ في ٱليومِ ٱلشديدِ البردِ فيُفصَمُ[1] عنهُ وإنَّ جبينَهُ لَيتفصَّدُ[2] عَرَقاً وفي حديثٍ آخرَ عنها قالَت: فَأخذَهُ ما كانَ يأخذُهُ من ٱلبُرَحاءِ[3] حتى إنَّهُ ليتحدَّرُ[4] عنهُ مثلُ ٱلجُمَانِ[5] مِنَ ٱلعرقِ في يوم شاتٍ. وفي حديثِ زيد بْنِ ثابت: فأنزلَ ٱللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسولِهِ ﷺ، وفخذُهُ على فخذي، فثُقلَتْ عليَّ حتى خِفْتُ أنْ تُرضَّ[6] فخذي. وفي حديثِ يعلى بْنِ أميَّةَ حينَ قالَ لِعمر: أرني ٱلنبيَّ ﷺ حينَ يُوحى إليهِ ـ: فأشارَ عمرُ إليّ، فجِئْتُ وعلى رأسِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ثوبٌ قد أُظلَّ بهِ فأدخلْتُ رأسي، فإذا رسولُ ٱللَّهِ ﷺ محمرُ ٱلوجهِ وهو يغطُّ[7]، أي يُرَدِّدُ نَفَسَهُ من شدَّةِ ثقلِ ٱلوحي. فهذه كلُّها أحوالٌ تصفُ عملَ ٱلدِّماغ بكلِّ ما فيهِ من جهدِ ٱلقُوى ٱلعصبيَّة؛ لِيرتفعَ بِٱلحياةِ إلى ما فوقَها ويتركَها لِوعي ٱلروح وحدَها، لا يُشاركُها في هذا ٱلوعي فكرٌ ولا هاجس[8]، ولا يتَّصِلُ بهِ شيءٌ من حياةِ ٱلحيّ، فيتحققُ لِلنبيِّ ﷺ وجودٌ آخرُ غيرُ وجودِهِ ٱلمحدودِ بجسمِهِ وطِباعِهِ ودُنياه؛ ويخرجُ بِوَعْيِهِ من هذه ٱلجاذبيَّةِ ٱلأرضيَّةِ إلى ما وراءِ حدودِ ٱلطبيعةِ من قوى ٱلغيب؛ وبذلك يتلقّى عن روح ٱلكوْن، ثُمَّ يُفصَمُ عنه وقد وعى ما أُوحِيَ إليه. وما وصفَهُ زيدُ بْنُ ثابتٍ من أنَ فَخذَهُ كادَتْ تُرضُّ ـ بُرهانٌ قاطعٌ على أنَّ روحَهُ ﷺ تنسرِحُ من جسمِهِ ساعةَ

(١) يفصم البرد: يُقلع.
(٢) يتفصّد عرقاً: يجري عرقه.
(٣) بُرحاء الحمى: شدّتها.
(٤) يتحدّر: ينهمر.
(٥) الجمان: اللؤلؤ.
(٦) تُرضن: تحطم.
(٧) يغطّ: يغيب عن عالم المحسوسات.
(٨) هاجس: فكر طارىء.

ٱلْوحي فيقلُّ ٱلجسم، لِأنّهُ إنّما يخفُّ بِٱلروحِ وتبقى وظائفُ ٱلحياةِ عاملةً أعمالَها بعُسرٍ وبُطْء، لاتصالِها بشعاعٍ مِنَ ٱلروحِ دون ٱلروحِ بجملتِها؛ ولسْنا هنا بصددِ ٱلكلامِ عنِ ٱلوحي، فلَهُ موضعٌ إنْ شاءَ ٱللّٰهُ في كتابِنا (أسرارُ ٱلإعجاز) وإنّما نُريدُ أنْ ندلَّ على أن هذه ٱلتهيئةَ ٱلإلَهيَّةَ لذلك ٱلجهازِ العصبيِّ لها أثرُها العظيمُ في فنِّ بلاغتِهِ ﷺ، وبها ٱمتازَ عن كلِّ بُلغاءِ ٱلدنيا؛ فإنّ ٱلمُلهَمَ[1] مِنْ أفذاذِ العبقريينَ على هذه ٱلأرضِ إنّما يُبلِّغُ ما يبلِّغُهُ ببعضِ هذا ٱلذي رَأيت، وفي بعض هذا أبدعُ ما ورثَتِ ٱلدنيا من فنونِ ٱلبيان، وكأنّ في ٱلدماغ مادةً في موضع منه يُميِّزُ بها مَنْ تختارُهُمُ ٱلسماءُ لِحكمتِها وإلهامِها، وإذا كانَ فَنُّ ٱلعبقريينَ هو أسمى ٱلكلامِ ٱلإنسانيّ، لِمَا خُصُّوا بِهِ من هذه ٱلتهيئة، فإنَّ فنَّهُ ﷺ يكونُ ولا جرمَ من بابِ ٱلأكبرِ مِمّا هو أكبرُ في إلهامِ ٱلإنسانيَّةِ كلِّها.

ولهذه ٱلقوةِ ٱلنادرةِ كانَ بيانُهُ قوياً على مزجِ معانيهِ بِٱلنفسِ بما فيهِ من صنعةِ ٱلحياة، وإنّما فلسفةُ ٱلبيانِ[2] ٱلفنيِّ أنّ تمتدَ ٱلحياةُ مِنَ ٱلنفسِ إلى ٱللفظ، فتَصنعُ فيهِ صُنعَها، فتنفصلُ ٱلعبارةُ ٱلفنيَّةَ عنْ كاتبِها أو قائلِها وهي قِطعةٌ من كلامِه، لِتستحيلَ عندَ قارئِها أو سامِعِها قطعةً مِنَ ٱلحياةِ في صورةٍ من صورِ ٱلإدراك؛ فَٱلبيانُ ٱلفنيُّ هوَ ٱلوسيلةُ لحملِ ٱلوجودِ وبعثرتِهِ في مواضعَ غيرِ مواضعِه، وخلْقِهِ خلْقاً آخرَ في ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةَ؛ وبذَلك يؤوَّلُ[3] قولُهُ ﷺ: إنَّ مِنَ ٱلبيانِ لَسحراً. جعلَ نوعاً مِنَ ٱلبيانِ هُوَ ٱلسحر، لا ٱلبيانَ كُلَّه، فَٱلحديثُ كٱلنصِّ على ما تُسميهِ ٱلفلسفةُ ٱلأوربيَّةُ ٱليومَ (بِٱلبيانِ ٱلفنيّ)، كأنَّهُ قال: إنَّ مِنَ ٱلبيانِ فنًّا هو سحرٌ من عمل ٱلنفسِ في ٱللغةِ تُغيِّرُ بِهِ ٱلأشياء، ولَهُ عجبُ ٱلسحرِ وتأثيرُهُ وتصرُّفُه؛ وهذا معنًى لم يتنبهْ إليهِ أحد، ولا يُذكرُ معَهُ كلُّ ما قالوه في تفسيرِ ٱلحديث، وبذلك التأويلِ يكونُ هذا ٱلحديثُ قدِ ٱحتوى أسمى حقيقةٍ فلسفيةٍ لِلْفنّ.

ومن أثرِ تلك ٱلقوَّةِ أيضاً ما تراهُ من شِدَّةِ ٱلوضوحِ في كلامِهِ ﷺ، ولقد رأيْنا هذه ٱلبلاغةَ ٱلنبويَّةَ ٱلعجيبةَ قائمةَ على أنَّ كلَّ لفظٍ هو لفظُ ٱلحقيقةِ لا لفظُ ٱللغة، فَٱلعِنايةُ فيها بِٱلحقائق، ثُمّ ٱلحقائقُ هيَ تختارُ ألفاظَها ٱللغويَّةَ على منازلِها؛ وبذلك يأتي ٱلكلامُ كأنَّه نُطْقٌ لِلحقيقةِ ٱلمعبَرِ عنها، وٱلكلمةُ ٱلصادقةُ تُنطقُ مرةً واحدة؛ فصورتُها

---

(١) تنسرح: تنفلت.

(٢) الملهم: الموهوب.

(٣) يؤوّل: يفسّر ويتحوّل.

ٱللغويَّةُ لا تكونُ إِلَّا صريحةً منكشِفةً عن معناها ٱلمضيءِ كأنَّما أُلقيَ فيها ٱلنور.

وهو معلومٌ أنَّهُ ﷺ لا يتكلَّفُ ولا يتعمَّل، ولم يكتبْ ولم يؤلِّف، ومع هذا لا تجدُ في بَلاغتِهِ مَوْضِعاً يقبلُ ٱلتنقيح[1]، أو تعرفُ لَهُ رقةً مِنَ الشأنِ كأنَّما بينَ ٱلألفاظِ ومعانيها في كلِّ بلاغتِهِ مقياسٌ ومِيزان، أو كأَنَّ هذه ٱلبلاغةَ تنبثِقُ بِٱلكلامِ على طبيعةٍ عاملةٍ فيهِ بقواها ٱلدائبةِ ٱلثابتة، ففنُّها ٱلجميلُ هو ٱلتركيبُ ٱلذي تجيءُ فيهِ كما ترى الشجرَ مثلاً كاسياً من ورقِهِ وزهرِهِ؛ فأنت منه بإزاءِ عملٍ جميلٍ لِأنَّك بإزاءِ حقيقةٍ طبيعيَّةٍ قدِ ٱنفردَتْ في ذاتِها، ومعنى ٱنفرادِها في ذاتِها أنَّها كذلك هي، فليسَ فيها موضعٌ لِشيءٍ غيرِ ما هو فيها؛ ثُمَّ لا تنسَ أنَّ النبوَّةَ أكبرُ ٱلسببِ في ذلك ٱلوضوحِ ٱلبيانيِّ ٱلعجيب؛ فإنَّ الحياةَ لا تستغلِقُ في ٱلبلاغةِ بإنسانٍ إِلَّا وهي غنيةٌ عنه؛ ولَعلَّ غموضَ بعضِ ٱلفلاسفةِ وبعضِ ٱلشعراءِ هو من دليلِ ٱلطبيعةِ على أنَّهم زائدونَ في ٱلطبيعة... ألا ترى أنَّ من أساليبِهمُ ٱلفلسفيةِ وٱلشعريةِ ما يجعلُ معنى ٱلكلمةِ أحياناً هو نقضَ معناها إذْ يتصنعون لِلْفكرِ ويستجلبون لَهُ ويُشقِّقون فيهِ كما يفعلُ أهلُ صِناعةِ ٱلألفاظِ بِالألفاظ، فهٰهنا ٱلبديعُ ٱللفظيُّ؛ وهناك «ٱلبديعُ ٱلفكريُّ»، ولا طائلَ وراءَهما إِلَّا صِناعةٌ وبهرجة.

ومتى كانَ النبيُّ قسماً مِنَ ٱلحياة، بل مادةً لِمعانيها ٱلجديدة، فلنْ يكونَ بيانُهُ إِلَّا على ما وصفْنَا لَكَ جمالا، ووضُوحاً ومنفعةً ودِقَّةً وسُمُوّاً بقدرِ ذلك كلِّه.

***

وهنا معنًى نُريدُ أنْ نُنبِّهَ إليهِ ونتكلَّمَ في سِرِّهِ وحقيقتِه، فإنَّك تقرأُ ما جُمِعَ مِنَ ٱلكلامِ النبويِّ فلا تُصيبُ فيهِ ما تُصيبُهُ في بلاغةِ أدباءِ العالمِ مِمَّا فنُّهُ ٱلكلامُ في ٱلمرأة، وَٱلحُبّ، وجمالِ ٱلطبيعة، وهو في بلاغةِ ٱلناسِ كَٱلقَلْبِ في ٱلجِسْم: لا تخلو منه ولا تقومُ إِلَّا بِه، حتى تَجِدُ ٱلكلامَ في ٱلمرأةِ وحدَها شطْرَ ٱلأدبِ ٱلإنسانيّ، كما أنَّ ٱلمرأةَ هيَ شَطْرُ ٱلإنسانيَّة، ولا يُعرفُ لَهُ ﷺ في هذه ٱلأغراضِ إِلَّا كلماتٌ بيانيَّةٌ جاءَتْ بِمَا يفوتُ ٱلوصفَ مِنَ ٱلجمالِ وٱلدِّقَّة، متناهيةً في ٱلحُسْن، طاهرةً في ٱلدلالة، يظهرُ في وجهِ بلاغتِها ما يظهرُ في وجهِ ٱلعذراءِ من طبيعةِ ٱلحياءِ وٱلخَفرَ: كقولِهِ في ٱلنساء: «رفقاً بِٱلقوارير»، وقولِهِ لِأُسامةَ بْنِ زيد، وقد كساهُ قُبطيَّةً[2] فكساها ٱمرأتهُ «أخافُ أنْ تَصِفَ حجمَ عِظامِها». قالَ ٱلشريفُ ٱلرضيُّ في

---

(١) التنقيح: التصحيح.

(٢) ضرب من الأردية المصرية.

شرحِ هذه ٱلكلمة: وهذه ٱستعارة، وَٱلمرادُ أنَّ القُبطيَّةَ بِرقتِها تلصقُ بِٱلجسم، فتُبينُ حجمَ ٱلثديين، وٱلرادفتين، وما يشتدُّ من لحمِ ٱلعضدينِ وَٱلفخذين، فيعرفُ ٱلناظرُ إليها مقاديرَ هذه ٱلأعضاء، حتى تكونَ كَٱلظاهرةِ لِلَحظِه، وَٱلمُمْكِنةِ لِلَمسِه، فجعلَها عليه الصلاة والسلام لِهذه ٱلمحالِّ كالواصفةِ لِمَا خلفَها، وٱلمخبرةِ عَمَّا ٱستترَ بها؛ وهذه من أحسنِ ٱلعِباراتِ عن هذا ٱلمعنى، ولهذا ٱلغرضِ رمى عمرُ بْنُ ٱلخطابِ في قوله: «إيَّاكم ولَبسَ ٱلقُباطيّ، فإنَّها إلَّا تشفَّ تصف». فكانَ رسولُ الله ﷺ أبا عذرةِ هذا ٱلمعنى، ومَنْ تبعَهُ فإنَّما سلكَ فجَّه.

قلْنا: وهذا كلامٌ حسن، ولكنَّ في عبارةِ ٱلحديثِ سرّا هو من مُعجزاتِ ٱلبلاغةِ ٱلنبويَّةِ لم يهتدِ إليهِ ٱلشريف، على أنَّهُ هو حقيقةُ ٱلفنِّ في هذه ٱلكلمةِ بخاصتِها، ولا نظنُّ أنَّ بَليغاً من بُلغاءِ ٱلعالمِ يتأتَّى لِمِثلِه، فإنَّهُ عليهُ ٱلصلاةُ وٱلسلامُ لم يقل: أخافُ أنْ تصِفَ حجمَ أعضائِها، بلْ قال: حجمَ عظامِها، مَعَ أنَّ ٱلمُرادَ لحمُ ٱلأعضاءِ في حجمِه وتكوينِه، وذلك منتهى ٱلسموِّ بِٱلأدب، إذ ذكرَ «أعضاءَ» ٱلمرأةِ في هذا ٱلسياق، وبهذا ٱلمعرض، هو في ٱلأدبِ ٱلكاملِ أشبهُ بِٱلرفث[1]، ولفظةُ «الأعضاءِ» تحتَ ٱلثوبِ ٱلرقيقِ ٱلأبيضِ تُنبِّهُ إلى صورِ ذِهنيَّةٍ كثيرةٍ هيَ ٱلتي عدَّها ٱلرضيُّ في شرحِهِ، وهي تُومىءُ إلى صُوَرٍ أخرى من ورائِها، فتنزهَ ٱلنبيُّ ﷺ عن كلِّ ذلك، وضربَ ٱلحِجابَ ٱللغويَّ على هذه ٱلمعاني ٱلسافرة... وجاءَ بِكلمةِ «العِظام»، لِأنَّها ٱللفظةُ ٱلطبيعيَّةُ ٱلمبرَّأةُ من كلِّ نزغة، لا تقبلُ أنْ تلتويَ، ولا تُثيرُ معنًى، ولا تحملُ غَرَضاً؛ إذْ تكونُ في ٱلحيِّ وَٱلميت، بلْ هي بهذا أخصّ؛ وفي ٱلجميلِ وَٱلقبيح، بلْ هي هنا أليق؛ وفي ٱلشبابِ وَٱلهرم، بلْ هي في هذا أوضح. والأعضاءُ لا تقومُ إلَّا بِٱلعظام، فالمجازُ على ما ترى، وٱلحقيقةُ هي ما علمْت.

ومن كلماتِهِ في ٱلوصفِ ٱلطبيعيِّ قولُهُ ﷺ وهو يذكُر أوقاتَ ٱلصلاة: «العصرُ إذا كانَ ظلُّ كلِّ شيءٍ مثلَه، وكذلك ما دامَتِ ٱلشمسُ حيَّة، وٱلعِشاءُ إذا غابَ ٱلشفقُ إلى أنْ تمضيَ كواهلُ ٱلليل» وكواهلُ ٱلليل: أوائلُهُ وفروعُهُ ٱلمتقدِّمةُ منه، كَٱلذي يتقدَّمُ ٱلمَطايا من أعناقِها ٱلمُمْتدَّةِ بعضَ ٱلامتداد؛ وقولُهُ وقد سألَهُ رجلٌ متى يصلّى ٱلعِشاءَ ٱلآخرة، فقالَ عليهِ ٱلصلاةُ وٱلسلام: «إذا ملأَ ٱلليلُ بطنَ كلِّ واد»؛ وقولُه: «إذا طلعَ حاجبُ ٱلشمسِ فأخِّروا ٱلصلاةَ حتى ترتفع»؛ وقولُه: «إنَّ رجلاً من أهلِ

---

(١) الرفث: هو ما بذؤ من الكلام.

ٱلجنةِ ٱستأذنَ ربَّهُ في ٱلزرع، فقالَ له: ألسْتَ فيما شِئْت؟ قال: بلى، ولكنّي أُحِبُّ أنْ أزرع. قال: فَبَذَرَ فبادرَ ٱلطرفَ نباتُهُ وٱستواؤُهُ وٱستحصادُهُ فكانَ أمثالَ ٱلجبال».

وقولُه: «بينا رجلٌ يمشي فٱشتدَّ عليهِ ٱلعطشُ، فنزلَ بئْراً، فشربَ منها ثُمَّ خرج، فإذا بِكلْبٍ يلهثُ يأكلُ ٱلثرى مِنَ ٱلعَطَش، فقال: لقد بلغَ هذا مثلُ ٱلذي بلغَ بي! فملأَ خُفَّهُ ثُمَّ أمسكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ[1] فسقى ٱلكلْبَ فشكرَ ٱللَّهُ لَه، فغفرَ لَه. قالوا: يا رسولَ ٱلله، وإنَّ لنا في ٱلبَهائمِ أجراً؟ قال: «في كلِّ كَبِدٍ رطْبَةٍ أجر».

فهذا ونحوُهُ مِنَ ٱلفنِّ ٱلبديعِ ٱلنادر، وهو مع ذلك لا يأْتي في كلامِهِ ﷺ إلَّا في مثلِ ما رأيْت، فَلا يُرادُ منهُ ٱستجلابُ ٱلعِبارة، ولا صِناعةُ ٱلخَيال، فيَظنُّ مَنْ لا يُميزُ ولا يُحقِّقُ أنَّ خُلُوَّ ٱلبلاغةِ النبويَّةِ من فنِّ وصفِ ٱلطبيعةِ وٱلجمالِ وَٱلحُبّ، دليلٌ على ما يُنكِرُهُ أو يستجفيه[2]، ويقول: بداوةٌ وسذاجةٌ ونحوُ ذلك مِمَّا تُشبِّهُهُ ٱلغفلةُ على جهلةِ ٱلمستشرقينَ ومَنْ في حُكمِهم من ضِعافِ أدبائِنا وجهلةِ كُتَّابِنا؛ وإنَّما ٱنتفى ذلك عنِ ٱلنبيِّ ﷺ لأنتفاءِ ٱلشعْرِ عنهُ وكونِهِ لا ينبغِي لَهُ كما بسطْنَاهُ في موضعِه؛ فعملُهُ أنْ يهديَ ٱلإنسانيَّةَ لا أنْ يُزيِّنَ لَها، وأنْ يدُلَّها على ما يجبُ في ٱلعمل، لا ما يَحسُنُ في صِناعةِ ٱلكلام، وأنْ يهدِيها إلى ما تفعلُهُ لِتسموَ به، لا إلى ما تتخيلُهُ لِتلهوَ بهِ. وَٱلخيالُ هوَ ٱلشيءُ ٱلحقيقيُّ عندَ ٱلنفسِ في ساعةِ ٱلانفعالِ وَٱلتأثُرِ بهِ فقط، ومعنى هذا أنَّهُ لا يكونُ أبداً حقيقةً ثابتة، فلا يكونُ إلَّا كَذِباً على ٱلحقيقة.

ثُمَّ هو ﷺ ليسَ كَغيرِهِ من بُلَغاءِ ٱلناس: يتَّصلُ بِٱلطبيعةِ لِيستملِيَ منها؛ بلْ هو نبيٌّ مُرْسَلٌ مُتَّصِلٌ بمصدرِها ٱلأزليِّ لِيُمليَ فيها، وقد كانَتْ آخرَ ٱبتسامةٍ لَهُ في ٱلدنيا ٱبتسامتُهُ لِلصلاة يتهلَّلُ لِطهارةِ ٱلنفسِ ٱلمؤمنةِ وجَمالِها قائمةً بينَ يدي خالقِها، منسكِباً في طهارتِها روحُ ٱلنور، وكلُّ إنسان إنَّما يبدو ٱلكونُ في عينِهِ على ما يرى مِمَّا يُشبهُ ما في نفسِه، فكلُّ ما رآهُ ٱلمصلي ٱلخاشعُ في صلاتِه يبدو لَهُ كأنَّهُ يُصلِّي في ضربٍ مِنَ ٱلعِبادةِ على نحوٍ مِنَ ٱلدين، وكلُّ ما رآهُ ٱلسكرانُ في سُكْرِهِ يكادُ يراهُ متخبِّطاً يُعربِدُ ما يتماسك!

ثُمَّ إنَّ ٱلكلامَ في وصفِ ٱلطبيعةِ وَٱلجمالِ وَٱلحُبِّ على طريقةِ ٱلأساليبِ ٱلبيانيَّة، إنَّما هو بابٌ مِنَ ٱلأحلام؛ إذْ لا بُدَّ فيهِ من عيني شاعر، أو نظرةِ عاشق؛ وهنا نَبيٌّ يُوحَى إليه، فلا موضعَ لِلْخيالِ في أمرِه، إلَّا ما كانَ تمثيلاً يُرادُ بِهِ تقويةُ

---

(١) رقي: صعد.

(٢) يستجفيه: يجده قاسياً جافياً.

ٱلشعورِ ٱلإنسانيِّ بحقيقةِ ما في بعضِ ما يُعرضُ من بابِ ٱلإرشادِ وَٱلموْعِظة، كما مرَّ بكَ من أمثلتِه، وكقولِهِ ﷺ: «إنَّ ٱلمؤمنَ يرى ذنوبَهُ كأنَّهُ قاعدٌ تحتَ جبلٍ يخافُ أنْ يقعَ عليه، وإنَّ ٱلفاجرَ يرى ذنوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ على أنفِه!» وهذا كلامٌ أبلغُ ما أنت واجدٌ من تفسيرِهِ تلك ٱلنفسَ ٱلمؤمنةَ بإحساسِها ٱلرقيق، كأنَّهُ حاسَّةٌ مِنَ ٱلنورِ كُبِتَتْ في شعورِها، وتلك ٱلنفسُ ٱلفاجرةُ بإحساسِها ٱلغليظ، كأنَّهُ حاسةٌ مِنَ ٱلتراب. . .

ويكادُ ٱلمؤمنُ ٱلذي يسمعُ هذا ٱلوصفَ يذكِّرُهُ ذنوبَه ـ أنْ يُحسَّ بحركةِ جبلٍ يهمُّ أنْ ينقلعَ فيميلُ عليه، أمَّا ٱلفاجرُ فيسمعُهُ يُذَكِّرُهُ ذنوبَهُ فإذا هيَ في خيالِهِ نقطٌ سودٌ تمرُّ مرورَ ٱلذباب، ليسَ منهُ ٱلحِسُّ به، كما يُحِسُّ مَنْ يُضربُ على أنفِهِ برجلِ ذبابة. . . وجعلَ ٱلذبابَ يمرُّ على أنفِهِ دونَ عينِهِ أو فمِه، وذلك منتهى ٱلجمالِ في ٱلتصوير، لِأنَّ ٱلذبابَ إذا وقعَ على الفمِ أوِ ٱلعينِ ثبتَ وألحّ، فإذا وقعَ على قصبةِ الأنفِ لم يكدْ يقفُ ومرَّ مرورَه.

ٱلكونُ في نظرِ ٱلنبيِّ ﷺ آيةُ ٱلحِكْمةِ لا آيةُ ٱلفنّ، ومنظرُ ٱلمسْتَيْقِنِ لا منظرُ ٱلمتخيِّل، ومادةُ ٱلعبوديَّةِ لِلَّهِ لا مادةُ التألُّهِ لِلإنسان، وبذلك حرَّمَ ٱلإسلامُ أشياءَ وكرهَ أشياءَ لا يكونُ ٱلفنُّ بغيرِها فنّاً، في ضروبٍ مِنَ ٱلشعرِ وٱلتصويرِ وٱلموسيقى وٱلحُبّ، لِأنَّهُ إنَّما ينظرُ لِلإنسانِ واحداً وجمعاً، وحاضراً وآتياً؛ وواجباً ومنفعة، ولذةً وألماً؛ وهذه كلُّها لا إطلاقَ فيها إلَّا من أجلِ ٱلقيْد، على حينِ أنَّ ٱلفنَّ لا قَيْدَ فيهِ إلَّا من أجلِ ٱلإطلاق، وأساسُ ٱلدينِ حظُّ ٱلجماعةِ وقيودُها، وأساسُ الفنِّ ٱلفردُ وحريَّتُه؛ وهذه ٱلحياةُ لا تبدو في حالةِ تركيبٍ وٱنتظامٍ إلَّا إذا كانَتْ لِلْكُلّ، فإذا كانَتْ لِفردٍ ظهَرَتْ في هيئةِ ٱنحلالٍ وٱنتفاض، وأصبحَتْ في ٱلكَوْنِ كلِّهِ كأنَّها عمرُ إنسانٍ واحد.

ثُمَّ إنَّ لِلْفنِّ ألواناً لا بُدَّ منها لِتصويرِهِ ٱلجميلِ ٱلذي تُعجبُ بِهِ ٱلنفس، وٱلشيطانُ هو ٱللونُ ٱلأحمرُ فيها. . . أي هو أشدُّها زهواً وإشراقاً وجمالاً في ٱلتصويرِ ٱلفنيِّ لِكلِّ ما في ٱلمرأةِ وٱلحُبِّ وَٱلجمالِ وشهواتِ ٱلنفس، ولسْنَا نُنكِرُ أنَّ ٱلحياةَ ٱلقويَّةَ حينَ تُمازجُها هذه ٱلفنونُ تكسبُ مَرَحاً ونشاطاً ويكونُ لها رونق، وفيها متاع؛ ولكنَّ ٱلحياةَ لا تكونُ بها كذلك إلَّا من أنَّها تحتسي[1] خمرَها. . . فَلَها بعدُ من عاقبةِ هذه ٱلفنونِ شبيهٌ بما يكونُ لِلْجسمِ ٱلقويِّ من عاقبةِ ٱلخمر إذا

(١) تحتسي: تشرب قليلاً قليلاً.

تغلغلَتِ ٱلخمرُ في شِعَابِ كبدِهِ وأحاطَتْ رطوبتَها يابسة، كما وقعَ في أطوارٍ كثيرةٍ من تاريخِ ٱلأُمم؛ فليسَ ٱلاعتبارُ في هذا ٱلتشبيهِ بما يعرضُ من تأثيرِ ٱلساعةِ ٱلزائلةِ بأفراحِها وفنِّ حياتِها، بلِ ٱلشأنُ لِلْعاقبةِ ٱلمحتومةِ متى جاءَتْ ساعتُها ٱلباقيةُ بأحزانِها وفنِّ هلاكِها، فَالإسلامُ فيما حرَّمَ وكرَّهَ من ذلك لم يزدْ على أنْ أرادَ لِلْحياةِ أنْ تحيا، لِأنَّهُ لا يُقرُّ صورةً من صُوَرِ ٱنتحارِها.

ومَنْ كانَ أكبرَ عملِهِ إنشاءُ ٱلحقائقِ ٱلإنسانيَّةِ وتقريرُها شريعةً وعاطفةً وأعمالاً، فلا جرمَ كانَ فنُّهُ غيرَ ٱلذي أكبرُ عملِهِ تمويهُ تلك ٱلحقائقِ وزخرفتُها لِيقعَ ٱلإحساسُ بِها على غيرِ وجهِها، فتخفَّ بالواقعِ منها على ٱلنفسِ خِفةَ ٱلكذبِ في ساعةِ تصديقِهِ وهذا هو أكبرُ عملِ ٱلشعر.

وهٰهنا سِرٌّ دقيقٌ لا يَتِمُّ كلامُنا إلَّا بشرحِه، لِنقطعَ ٱلقولَ في هذا ٱلمعنى، فيظهرَ حقُّهُ من باطلِهِ قُلْنا آنفاً إنَّ ٱلنبيَّ ﷺ ليسَ كَغيرِهِ من بُلَغاءِ ٱلناس: يَتَّصِلُ بِٱلطبيعةِ يستملي منها، بلْ هو نبيٌّ مرسلٌ مُتَّصلٌ بِمَصْدرِها الأزليِّ لِيُمليَ فِيها. ومعنى هذا أنَّهُ لا يعرضُ لَهُ من زيغِ ٱلنفسِ ما يعرضُ لِغيرِهِ مِنَ الناس، فأَحكمُ حُكَماءِ ٱلدنيا لا يستطيعُ أنْ يتبيَّنَ جزءاً صغيراً مِنَ ٱلكَوْنِ على حقيقتِهِ؛ إذْ كانَتْ حواسُّ ٱلجسم غيرَ مُهيأةٍ لذلك، ففهْمُ جزءٍ مِنَ ٱلكونِ فَهْماً صادقاً جزماً لا يتمُّ إلَّا بفهمِ ٱلكونِ بأجمعِه، فهو كلُّهُ ذرةٌ مكبرةٌ إلى ما لا ينتهي ولا يُحدّ، وليسَتِ ٱلنبوَّةُ شيئاً غيرَ ٱلاتصالِ بِٱلسِرّ.

وَٱلحاضرُ ٱلذي يكونُ في إنسانٍ مِنَ ٱلناس، هو حاضرٌ ليسَ غير، لِأنَّهُ يتحوَّلُ ويفنى، فهو مِنَ ٱلزيغِ ٱلذي يعتري ٱلنفس، ومنهُ كلُّ أغراضِ ٱلحياةِ ٱلبشريَّةِ ٱلفانية، ولهذا كانَ طابعُ ٱللَّهِ على نبيِّنا ﷺ هو تجريدَهُ من زَيْغِ ٱلهوى[1] وسَرَفِ ٱلطبيعة، فهو مِنَ ٱلناسِ ولكنَّهُ متخلِّقٌ بأخلاقِ ٱللَّهِ ـ سبحانَه ـ، ولهُ في هذا ٱلبابِ ما ليسَ لِأحدٍ ولا يُطيقُهُ أحد، ويجبُ على مَنْ يقرأُ سِيرتَهُ وشَمائلَهُ وحديثَهُ أنْ يبحثَ دائماً عن طابعِ ٱللَّهِ في كلِّ شيءٍ منها، فإنَّهُ سيرى حينئذٍ كأنَّهُ يدرسُها معَ ٱلملائكةِ لا معَ ٱلناس، وسيظهرُ لَهُ من تفسيرِها أنَّ ٱلدنيا لم تستطعْ تحقيقَ غايتِها ٱلأخلاقيَّةِ ٱلعُلْيا إلَّا فيها، وأنَّهُ ﷺ كَانَ إنساناً، وكانَ أيضاً حركةً في تقدُّمِ ٱلإنسانيَّة؛ وأنَّ مِنْ معجزاتِهِ أنَّهُ أطاقَ في تاريخِهِ ما عجزَتْ عنهُ ٱلبشريَّةُ في تاريخِها، وأنَّ كلَّ أمورِهِ

---

(١) زيغ الهوى: ميله.

ﷺ موضوعةٌ وضْعاً إلٰهيّاً كأنَّها صفاتٌ كوَّنَها ٱللهُ وعلَّقَهَا في ٱلتاريخِ لِمعاني ٱلحياة، تعليقَ ٱلشمسِ في ٱلسماءِ لموادِّ ٱلحياة.

إنَّ ٱلشهواتِ وَٱلمصالحَ إنَّما هيَ حصرُ ٱلنفسِ في جانبٍ مِنَ ٱلشعورِ محدودٍ بلذاتٍ وهمومٍ وأحاسيسَ تجعلُ غرضَ ٱلإنسانِ في ٱلإنسانِ نفسِه، فهو كما يملأُ مَعِدتَهُ ويتأنَّقُ في ٱلاختيارِ لَها، يُريدُ من كلِّ ذلك أنْ يملأَ شخصَهُ على هذه ٱلطريقةِ بِعينِها، طريقةِ إشباعِ مَعِدَتِه... وبهذا تسخرُ منه حقائقُ ٱلكوْن، لِأنَّها لا تُحَدُّ بشخص، ولا تنحصِرُ في أحد، وكلُّ مَنْ كانَتْ حدُودهُ ٱلإنسانيَّةُ جسمَهُ ولذاتِ جسمِه، فهو في مقدارِ هذا ٱلكَوْنِ كالميتِ ٱلمحدودِ مِنَ الأرضِ كلِّها بِقبرِهِ وترابِ قبرِه؛ وإنَّه لَيجدُ جِسْمَهُ وأكاذيبَ ٱلطبيعةِ عليه، ولكنَّهُ لن يجدَ ٱلروحَ وحقائقَها؛ وإذا لم يجدْ هذه فلنْ يعرفَ ٱلكونَ وأسرارَه؛ وإذا فقدَ هذا فهوَ ٱلحاضرُ ٱلضيِّقُ ٱلمشوهُ ٱلمكذوب، ومن ثَمَّ ففنُّهْ شهوةُ إحساسِهِ وإنْ كانَ مخدوعاً، وشهوةُ نظرِهِ وإنْ كان ملبَّساً عليه، وشهوةُ خيالِه، وإنْ كانَ ٱلتمويهُ وٱلمزورُ وَٱلحاضرُ ٱلضيِّقُ ٱلمشوهُ ٱلمكذوبُ ٱلخادعُ هوَ ٱلمسمَّى في لغةِ ٱلقرآنِ وَٱلحديث «بالدنيا»؛ فإذا ٱتسعَ ٱلإنسانُ لِروحِهِ وأدركَ حقيقتَها، ووعى ما بينَها وبينَ ٱلكَوْن؛ وأخذَ يُحقِّقُ هذه ٱلروحَ ٱلسماويَّةَ في أعمالِه، وتخطَّى حدودَ جسمِهِ إلى فكرةِ ٱلخلود؛ فهذا كلُّه هوَ ٱلمسمَّى في لغةِ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ «بالآخرة»؛ فهما كلمتانِ في منتهى ٱلإبداعِ مِنَ ٱلفنِّ وٱلفلسفة؛ وعلى ذلك يُؤَوَّلُ قولُهُ ﷺ في خطبتِه: مَنْ كانَ همُّهُ ٱلآخرةَ جمعَ ٱللَّهُ شملَه، وجعلَ غِناهُ في قلبِه، وأتتْهُ ٱلدنيا وهيَ راغمة[1]؛ ومَنْ كانَ همُّهُ ٱلدنيا فرقَ ٱللهُ أمْرَهُ وجعلَ فقرَهُ بينَ عينيه، ولم يأتِهِ مِنَ ٱلدنيا إلَّا ما كُتِبَ لَه.

وأنت إذا فَسَّرْتَ هذه ٱلكلماتِ بما وصفْنَا لك ووجهْتَها على ذلك التأويل، رأيْتَ عجائبَ معانيها لا تنقضي، وأدركْتَ سِرَّ قولِهِ ﷺ: «إنِّي على عِلْمٍ مِنَ ٱللَّهِ علمَّنيه» فٱتِّساعُ ٱلذاتِ ٱلإنسانيَّةِ ومُمادَّتُها لِحقائقِ ٱلكَوْن، يجعلُ الإنسانَ كٱلكوْنِ نفسِه، مجتمعاً غيرَ مفرَّقٍ على همومِ ٱلحياة؛ ويجعلُ ٱلغنى معنًى لا مادة؛ ولو ٱمتلكَ إنسانٌ مِنَ ٱلناسِ كلَّ ما طلعَتْ عليهِ ٱلشمس، وكانَ لهُ كنزٌ في ٱلمشرقِ وكنزٌ في ٱلمغرب، لمَا بلغَ شيئاً قليلاً مِنْ لذةِ هذا ٱلمعنى في قلبِه؛ وفي هذه ٱلحالةِ تُصبحُ ٱلدنيا العريضةُ التي يهلكُ ٱلناسُ في تحصيلِها وليسَتْ إلَّا ضرورةً صغيرة، قد

---

(١) راغمة: ذليلة، خاضعة.

تكونُ في ثوبٍ ولُقيماتٍ ونحوِها مِمَّا لا خطرَ لَه، وهذا هو إرغامُها وهي مالكةُ ٱلملوك، فإذا ضاقَ ٱلإنسانُ عن روحِهِ أصبحَتِ ٱلنفسُ كَٱلمُنْخُلِ يُوضَعُ ٱلدقيقُ الناعمُ فيهِ لِيخرجَ منهُ فيُمْسكُهُ كلَّهُ ولا يُمسكُ منه شيئاً، وُضِعَ بين عينيها معنى ٱلفقر، فهي تعملُ أبداً لِتمتلىء، ولا تمتلىءُ أبداً؛ وإذا كانَ ٱلمنخلُ متخذاً على ٱلطريقةِ ٱلتي صُنِعَ بها، ففقرُهُ ولا جرمَ معلقٌ عليهِ من ذاتِ تركيبِه. «أفهمْت»؟

وَلمَّا كانَ ٱلنبيُّ ﷺ متساوِقاً[1] مَعَ ٱلحقيقة، متَّصِلاً بها، محدوداً بربِّهِ لا بنفسِه، كانَ لِذلكَ خارجاً من حاضرِ ما نحن فيه، مُمْتداً بِمَعْناهُ ٱلإنسانيِّ ٱلكاملِ إلى ٱلمستقبلِ ٱلذي وراءَ ٱلحياة، فما نحصرُهُ نحن بطبيعتِنا في بعضِ ٱلأسماءِ لا يلتفِتُ هو إليهِ بطبيعتِه؛ ومن ذلك أوصافُ ٱلغِنى وٱلحِلْيَةِ وٱلنعيمِ وٱلمَتَاعِ وٱلجمالِ وٱلمطعمِ وٱلمشرب، وما داخلَ ٱلطبيعةَ من مثلِ معانيها، وما جرى هذا ٱلمجرى، فهذا كلُّهُ يرآهُ ٱلناسُ من جِهةِ ٱلحاجةِ إليهِ وٱلمطمعِ فيه؛ إذْ كانَ ضعفُ إدراكِهم وضِيقُ وعيِهِم مِمَّا يُبدِعُ لهم أكاذيبَ ٱلخيال، فَتَجِيءُ من ذلك أوصافُهم وفنونُ أوصافِهِم؛ أمَّا ٱلنبيُّ ﷺ فيرى ذلك من ناحيةِ ٱلغِنَى عنه وٱلسموِّ عليه؛ إذْ كانَ لا ينظرُ بطبيعةِ روحِهِ ٱلعظيمةِ إلَّا أعلى ٱلنظرَيْنِ وأطهرَهما، فآخرُ إدراكِنا لِلْحقيقةِ وٱلطبيعةِ أولُ إدراكِهِ هو الطبيعةَ وٱلحقيقة، وما تعجزُ عنهُ ٱلإنسانيَّةُ تبدأُ منهُ ٱلنبوَّة.

وعلى هذا فإنَّ من أقوى ٱلبراهين على كمالِهِ ﷺ ونبوَّتِهِ وٱتساعِ روحِهِ ونفاذِ إدراكِهِ لِحقائقِ ٱلكوْنِ ـ أنَّهُ لم يتبسَّطْ في تلك ٱلفنونِ كما يصنعُ ٱلبُلغاءَ، ولم يأخذْ مأخذَهم فيها؛ إذْ كانَتْ كلُّها من أكاذيبِ ٱلقلْبِ وٱلفكرِ وَٱلعين.

وفي قانونِ ٱلحقيقةِ أنَّ ٱلاشياءَ هي كلُّ ٱلأشياءِ وهي كما هي، أمَّا في قانونِ ٱلكذبِ فَٱلأشياءُ كلُّها هي ما تختارُهُ أنت منها، وكما تختارُه.

بحسْبِ ٱلدنيا من جمالِ فنِّهِ ﷺ ما يُضيفُ إلى ٱلحياةِ عظمةَ ٱلأشياءِ ٱلعظيمة، ويدفعُ ٱلإنسانيَّةَ في طريقِها ٱلواحِدِ ٱلذي هو بينَ ٱلأبِ وَٱلأمّ، طريقِ ٱلأخِ إلى أخيه، يكونُ في ٱلدنيا بين ٱلرجلينِ كما هو في ٱلدَّمِ بين ٱلقلبينِ رحمةً ومودة؛ وبحسبِنا من جمالِ هذا ٱلفنِّ ما يهدي الإنسانَ إلى حقيقةِ نفسِه؛ فيُقرُّهُ في ٱلحقيقيِّ من وجودِهِ ٱلإنسانيّ؛ ويجعلُ ٱلفضائلَ كلّها تربيةً لِلْقلب؛ يكبرُ بها، ثُمَّ يكبرُ، ثُمَّ لا يزالُ يكبرُ حتى يَتَّسعَ لِحقيقةِ هذه ٱلكلمةِ ٱلكبرى: اللَّهُ أكبر.

---

(١) متساوِقاً: منسجماً.

قرآن الفجر

كنْتُ في ٱلعاشرةِ من سِنّي وقد جمعْتُ ٱلقرآنَ كلَّهُ حِفْظاً وجَوَّدْتُهُ بأَحكام ٱلقِراءةِ؛ ونحن يومئذٍ في مدينةِ (دمنهور) عاصمةِ ٱلبحيرة؛ وكانَ أبي ـ رحمَهُ ٱلله ـ كبيرَ ٱلقضاةِ ٱلشرعيِّينَ في هذا ٱلإقليم، ومن عادتِهِ أنَّهُ كانَ يعتكِفُ كلَّ سنةٍ في أحدِ ٱلمساجدِ عشْرةَ ٱلأيام ٱلأخيرةِ من شهرِ رمضان؛ يدخلُ ٱلمسجدَ فلا يبَرحُهُ[1] إلَّا ليلةَ عيدِ ٱلفِطْرِ بعدَ ٱنقضاءِ[2] ٱلصوْم؛ فهناك يتأمَّلُ ويتعبَّدُ ويتَّصِلُ بمعناهُ ٱلحقّ، وينظرُ إلى ٱلزائلِ بمعنى ٱلخالد، ويُطِلُّ على ٱلدنيا إطلالَ ٱلواقفِ على ٱلأيام ٱلسائرةِ ويغيرُ ٱلحياةَ في عملِهِ وفِكْرِه، ويهجرُ ترابَ ٱلأرضِ فلا يمشي عليه، وترابَ ٱلمعاني ٱلأرضيَّةِ فلا يتعرَّضُ لَه، ويدخلُ في ٱلزمنِ ٱلمتحرِّرِ من أكثرِ قيودِ ٱلنفس، ويستقرُّ في ٱلمكانِ ٱلمملوءِ لِلْجميعِ بفِكْرةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر؛ ثُمَّ لا يرى مِنَ ٱلناسِ إلَّا هذا ٱلنوعَ ٱلمرطَّبَ ٱلروح بِٱلوضوء، ٱلمدعوَّ إلى دخولِ ٱلمسجدِ بدعوةِ ٱلقوَّةِ ٱلسامية، ٱلمنحنِيَ في ركوعِهِ لِيَخضعَ لِغيرِ ٱلمعاني ٱلذليلة، ٱلساجدَ بين يدي ربِّهِ لِيدرِكَ مَعنى ٱلجلالِ ٱلأعظم.

وما هي حِكْمةُ هذه ٱلأمكنةِ ٱلتي تُقامُ لِعبادةِ ٱلله؟ إنَّها أمكنةٌ قائمةٌ في ٱلحياة، تُشعِرُ ٱلقلبَ ٱلبشريَّ في نِزاعِ ٱلدنيا أنَّهُ في إنسانٍ لا في بهيمة...

***

وذهبْتُ ليلةً فَبِتُّ عندَ أبي في ٱلمسجد؛ فلمَّا كُنَّا في جَوْفِ ٱلليلِ ٱلأخيرِ أيقظني لِلسَّحور، ثُمَّ أمرَني فتوضَّأْتُ لِصلاةِ ٱلفجرِ وأقبلَ هو على قراءتِه؛ فلمَّا كانَ ٱلسَّحَرُ الأعلى هتف بِٱلدعاءِ ٱلمأثور: اللهم لك ٱلحمد؛ أنت نورُ ٱلسمواتِ وَٱلأرض، ولك ٱلحمد؛ أنت بهاءُ ٱلسموات وَٱلأرض، ولك ٱلحمد؛ أنت زينُ ٱلسمواتِ والأرض، ولكَ ٱلحمد؛ أنت قَيَّامُ ٱلسمواتِ وَٱلأرضِ ومَنْ فيهنَّ ومَنْ عليهِنّ؛ أنت الحقُّ ومنك ٱلحق... إلى آخرِ ٱلدعاء.

وأقبلَ ٱلناسُ ينتابونَ[3] ٱلمسجد، فَٱنحدْرنا من تلك ٱلعلْيَةِ ٱلتي يسمونها الدِّكة)

---

(١) يبرحه: يخرج منه. (٢) انقضاء: انتهاء. (٣) ينتابون: يدخلون.

وجلسْنَا ننتظرُ ٱلصلاة. وكانَتِ ٱلمساجدُ في ذلك ٱلعهد تُضاءُ بقناديلِ ٱلزيت، في كلِّ قنديلٍ ذُبالةٌ يرتعشُ ٱلنورُ فيها خافتاً ضئيلاً يبصُّ[1] بصيصاً كأنَّهُ بعضُ معاني ٱلضوءِ لا ٱلضوءُ نفسُهُ؛ فكانَتْ هذه ٱلقناديلُ وٱلظلامُ يرتجُّ حولَها، تلوحُ كأنها شُقوقٌ مضيئةٌ في ٱلجوّ، فلا تكشفُ ٱلليلَ ولكنْ تكشفُ أسرارَهُ ٱلجميلة، وتبدو في ٱلظلمةِ كأنَّها تفسيرٌ ضعيفٌ لِمعنًى غامضٍ يُومىءُ إليهِ ولا يُبَيِّنُه، فما تشعرُ ٱلنفسُ إلَّا أنَّ ٱلعينَ تمتدُّ في ضوئِها مِنَ ٱلمنظورِ إلى غيرِ ٱلمنظورِ كأنَّها سِرٌّ يشفُّ عن سِرّ.

وكانَ لها منظرٌ كمنظرِ ٱلنجوم يُتِمُّ جمالَ ٱلليل بإلقائِهِ ٱلشُّعَلَ في أطرافِهِ ٱلعُلْيا وإلباسِ ٱلظلام زِينتَهُ ٱلنورانيَّة؛ فكانَ ٱلجالسُ في ٱلمسجدِ وقتَ ٱلسَّحَرِ يشعرُ بٱلحياةِ كأنَّها مخبوءَة، ويُحسُّ في ٱلمكانِ بقايا أحلام، ويسري حولَهُ ذلك ٱلمجهولُ ٱلذي سيخرجُ منهُ ٱلغد؛ وفي هذا ٱلظلام ٱلنورانيِّ تنكشفُ لَهُ أعماقُهُ منسكباً فيها روحُ ٱلمسجد، فتعتريهِ حالةٌ روحانيَّةٌ يستكينُ فيها لِلْقَدَرِ هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسِه، مجتمعاً في حواسِّه، منفرداً بصفاتِه، منعكِساً عليهِ نورُ قلبِه؛ كأنَّهُ خرجَ من سلطانِ ما يُضيءُ عليهِ ٱلنهار، أو كأنَّ ٱلظلمةَ قد طمسَتْ فيهِ على ألوانِ ٱلأرض.

ثُمَّ يشعرُ بٱلفجرِ في ذلك ٱلغَبَشِ عندَ ٱختلاطِ آخرِ ٱلظلام بأولِ ٱلضوْء، شعوراً نديّاً كأنَّ ٱلملائكةَ قد هبطَتْ تحملُ سحابةً رقيقةً تمسحُ بها على قلبِهِ لِيتنضَّرَ من يُبْس، ويرقَّ من غِلْظة. وكأنَّما جاؤُوهُ مَعَ ٱلفجرِ لِيتناولَ ٱلنهارَ من أيديهم مبدوءاً بٱلرحمةِ مفتتَحاً بٱلجمال؛ فإذا كانَ شاعرَ ٱلنفسِ التقى فيهِ ٱلنورُ السماويُّ بٱلنورِ ٱلإنسانيِّ فإذا هو يتلألأُ في روحِهِ تحتَ ٱلفجر.

* * *

لا أنسى أبداً تلك ٱلساعةَ ونحن في جوِّ ٱلمسجد، وَٱلقناديلُ معلقةٌ كَٱلنجوم في مناطِها مِنَ ٱلفَلَك، وتلك ٱلسّرجُ[2] ترتعشُ فيها ٱرتعاشَ خواطرِ ٱلحُبّ، وَٱلنَّاسُ جالسون عليهم وقارُ أرواحِهِم، ومن حولِ كلِّ إنسانٍ هدوءُ قلبِهِ وقدِ ٱستبهمَتِ ٱلأشياءُ في نظرِ ٱلعينِ لِيلبَسها ٱلإحساسُ ٱلروحانيُّ في ٱلنفس، فيكونَ لِكُلِّ شيءٍ معناهُ ٱلذي هو منه ومعناهُ ٱلذي ليسَ منه، فيُخلقُ فيهِ ٱلجمالُ ٱلشعريُّ كما يُخلقُ لِلنظرِ ٱلمتخيَّل.

لا أنسى أبداً تلك ٱلساعةَ. وقدِ ٱنبعثَ في جوِّ ٱلمسجدِ صوتٌ غردٌ رخيم، يشقُّ سُدْفةَ[3] ٱلليلِ في مثلِ رنينِ ٱلجرسِ تحتَ ٱلأفقِ ٱلعالي وهو يرتِّلُ هذه الآياتِ من آخرِ سورةِ ٱلنحل:

---

(١) يبصّ: ينير. (٢) السّرج: مفرّده سراح وهو القنديل. (٣) سُدفة: ظلمة

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾.

* * *

وكانَ هذا القارئُ يملكُ صوتَهُ أتمَّ ما يملكُ ذو ٱلصوت ٱلمُطْرِب؛ فكانَ يتصرَّفُ بهِ أحلى مِمَّا يتصرّفُ ٱلقُمْريُّ وهو ينوحُ في أنغامِهِ، وبلغَ في ٱلتطريبِ كلَّ مبلغٍ يقدرُ عليهِ ٱلقادر، حتى لا تفسِّرُ ٱللذةُ ٱلموسيقيةُ بأبدعَ مِمَّا فسَّرها هذا ٱلصوت؛ وما كانَ إلَّا كَٱلبلبلِ هزَّتْهُ ٱلطبيعةُ بأسلوبِها في جمالِ ٱلقمر، فٱهتزَّ يُجاوبُها بأسلوبِهِ في جمالِ ٱلتغريد.

كانَ صوتُهُ على ترتيبٍ عجيبٍ في نغماتِهِ، يجمعُ بينَ قوةِ ٱلرِّقةِ وبين رقةِ ٱلقوَّة، ويضطربُ ٱضطراباً روحانياً كَٱلحُزْنِ ٱعتراهُ ٱلفرحُ على فجأة؛ يصيحُ ٱلصيحةَ تترجَّحُ في ٱلجوِّ وفي ٱلنفس، وتتردَّدُ في ٱلمكانِ وفي ٱلقلْب، ويتحوَّلُ بها ٱلكلامُ ٱلإلهيُّ إلى شيءٍ حقيقي، يلمسُ ٱلروحَ فيَرْفضُّ عليها بمثلِ ٱلندى، فإذا هي ترفُّ رفيفاً، وإذا هي كٱلزهرةِ التي مسحَها ٱلطَّلّ.

وسَمِعْنا ٱلقرآنَ غَضّاً طرياً كأولِ ما نزلَ بِهِ ٱلوحيّ، فكانَ هذا ٱلصوتُ ٱلجميلُ يدورُ في ٱلنفسِ كَأَنَّهُ بعضُ ٱلسِّرِّ ٱلذي يدورُ في نِظامِ ٱلعالم، وكانَ ٱلقلبُ وهو يتلقَّى ٱلآياتِ كَقلبِ ٱلشجرةِ يتناولُ ٱلماءَ ويكسوها منه.

وٱهتزَّ ٱلمكانُ وٱلزمانُ كأنَّما تجلَّى ٱلمتكلمُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ في كلامِه، وبدا ٱلفجرُ كأنَّهُ واقفٌ يستأذِنُ ٱللَّهَ أنْ يُضيءَ من هذا ٱلنور!

وكنَّا نسمعُ قرآنَ ٱلفجرِ وكأنَّما مُحِيَتِ ٱلدنيا ٱلتي في ٱلخارجِ مِنَ ٱلمسجدِ وبطلَ باطلُها، فلم يبقَ على ٱلأرضِ إلَّا ٱلإنسانيَّةُ ٱلطاهرةُ ومكانُ ٱلعِبادة؛ وهذه هي معجزةُ ٱلروحِ متى كانَ الإنسانُ في لذَّةِ روحِهِ مرتفعاً على طبيعتِهِ ٱلأرضيَّة.

أمَّا ٱلطفلُ ٱلذي كانَ فيَّ يومئذٍ فكأنَّما دُعِيَ بكلِّ ذلك لِيحملَ هذه ٱلرسالةَ ويُؤدِّيها إلى ٱلرجلِ ٱلذي يجيءُ فيه من بعد؛ فأنا في كلِّ حالةٍ أخضعُ لِهذا ٱلصوت: ادعُ إلى سبيلِ ربِّك؛ وأنا في كلِّ ضائقةٍ أخشعُ لِهذا ٱلصوْت: وَٱصبرْ وما صبرُك إلَّا بٱلله!

اللغةُ وٱلدينُ وٱلعاداتُ بِٱعتبارِها من مقوّماتِ ٱلاستقلال

ليسَتْ حقيقةُ ٱلأُمّةِ في هذا ٱلظاهرِ ٱلذي يبدو من شعبٍ مجتمعٍ محكومٍ بقونينِهِ وأوضاعِهِ؛ ولكنْ تلكَ ٱلحقيقةُ هيَ ٱلكائنُ ٱلروحيُّ ٱلمكْتَنُّ في ٱلشعبِ، الخالصُ لَهُ من طبيعتهِ، ٱلمقصورُ عليهِ في تركيبِهِ كعَصيرِ ٱلشجرة: لا يُرى عملُهُ وٱلشجرةُ كلّها هي عملُهُ.

وهذا ٱلكائنُ ٱلروحيُّ هوَ ٱلصورةُ ٱلكُبرى لِلنّسبِ في ذوي ٱلوشيجةِ مِنَ ٱلأفراد، بَيْدَ أنَّهُ يُحقّقُ في ٱلشعبِ قَرابةَ ٱلصفاتِ بعضِها من بعض؛ فيجعلُ لِلأُمّةِ شأنَ ٱلأُسرةِ، ويخلقُ في ٱلوطنِ معنى ٱلدار، ويُوجِدُ في ٱلاخْتلافِ نزعةَ ٱلتشابُهِ، ويَردُّ ٱلمتعدِّدَ إلى طبيعةِ ٱلوحدة، ويُبدعُ لِلأُمّةِ شخصيّتَها ٱلمتميِّزة، ويُوجبُ لِهذه ٱلشخصيّةِ بإزاءِ غيرِها قانونَ ٱلتناصرِ وٱلحمِيّة؛ إذْ يجعلُ ٱلخواطرَ مشتركة، وٱلدواعي مستَويَة، وٱلنوازعَ متآزِرَة؛ فتجتمعُ الأُمّةُ كلُّها على ٱلرأي: تتَسانَدُ لَهُ بِقُواها ويشدُّ بعضُها بَعضاً فيه؛ وبهذا كلِّهِ يكونُ رُوحُ ٱلأُمّةِ قد وضَع في كلمةِ ٱلأُمّةِ معناها.

وٱلخُلُقُ ٱلقويُّ ٱلذي يُنشئُهُ لِلأُمّةِ كائنُها ٱلروحيُّ، هو ٱلمبادىءُ ٱلمنتزعةُ من أثر ٱلدينِ وٱللغةِ وَٱلعادات، وهو قانونٌ نافذٌ يستمدُّ قوّتَهُ من نفسِه، إذْ يعملُ في ٱلحيِّزِ ٱلباطنِ من وراءِ ٱلشعور، متسلّطاً على ٱلفِكْر، مُصَرّفاً لِبواعثِ النفسِ؛ فهو وحَدهُ ٱلذي يملأُ ٱلحيَّ بنوعِ حياتهِ، وهو طابَعُ ٱلزمنِ على الأُمم، وكأنَّهُ على ٱلتحقيقِ وَضْعُ ٱلأجدادِ علامتَهُمُ ٱلخاصةَ على ذُرّيّتِهم.

أمّا ٱللغةُ فهي صورةُ وجودِ ٱلأُمّةِ بِأفكارِها ومعانيها وحقائقِ نفوسِها، وجوداً متميِّزاً قائماً بِخصائصِه؛ فهي قوميّةُ ٱلفِكْر، تتّحدُ بها ٱلأُمّةُ في صُوَرِ ٱلتفكيرِ وأساليبِ أخْذِ ٱلمعنى مِنَ ٱلمادة؛ وٱلدِّقّةُ في تركيبِ ٱللغةِ دليلٌ على دِقّةِ ٱلملَكاتِ في أهلِها، وعمقُها هو عُمقُ ٱلروح ودليلُ ٱلحِسّ على ميلِ ٱلأُمّةِ إلى ٱلتفكيرِ وٱلبحثِ في ٱلأسبابِ وٱلعِلَلِ، وكثرةُ مشتقّاتِها برهانٌ على نَزْعةِ ٱلحريّةِ وطموحِها،

فإنَّ رُوحَ ٱلاستعبادِ ضيِّقٌ لا يتَّسع، ودأبُهُ[1] لزومُ ٱلكلمةِ وٱلكلماتِ ٱلقليلة.

وإذا كانَتِ ٱللغةُ بهذه ٱلمنزلة، وكانَتْ أُمَّتُها حريصةً عليها، ناهضةً بها، مُتَّسِعةً فيها، مُكَبِّرةً شأنَها، فما يأتي ذلك إلَّا من رُوح ٱلتسلُّطِ في شعبِها وَٱلمطابقةِ بينَ طبيعتهِ وعملِ طبيعتِه، وكونِهِ سيدَ أمِره؛ ومُحقِّقَ وُجودِه، ومستعمِلَ قوَّتِه، والآخِذَ بحقُّه؛ فأمَّا إذا كانَ منهُ ٱلتراخي وٱلإهمالُ وتركُ ٱللغةِ للطبيعةِ ٱلسوقيَّة، وإصغَارُ أمرِها، وتهوينُ خَطَرِها[2]، وآيثارُ[3] غيرِها بِٱلحُبِّ وٱلإكبار؛ فهذا شعبٌ خادمٌ لا مخدوم، تابعٌ لا متبوع، ضعيفٌ عن تكاليفِ ٱلسيادة، لا يُطيقُ أنْ يحملَ عظَمَةَ ميراثِهِ، مُجْتزِىءٌ ببعضِ حقِّه، مُكْتَفٍ بِضروراتِ ٱلعيش، يُوضَعُ لِحكمِهِ ٱلقانونُ ٱلذي أكثرُهُ لِلحِرمانِ وأقلُّهُ لِلفائدةِ ٱلتي هي كَٱلحِرمان.

لا جَرَمَ كانَتْ لُغةُ ٱلأمةِ هيَ ٱلهدَفَ ٱلأولَ لِلْمستعمِرين؛ فلَنْ يتحوَّلَ ٱلشعبُ أوّلَ ما يتحوَّلُ إلَّا من لُغتِه؛ إذْ يكونُ منْشَأُ ٱلتحوُّلِ من أفكارِهِ وعواطفِهِ وآمالِه، وهو إذا ٱنقطَع من نَسَبِ لُغتِهِ ٱنقطعَ من نَسبِ ماضيه، ورجعَتْ قوْميَّتُهُ صورةً محفوظةً في ٱلتاريخ، لا صورةً محقَّقَةً في وجودِهِ؛ فليسَ كَٱللغةِ نَسَبٌ لِلْعاطفةِ وَٱلفكر؛ حتى إنَّ أبناءَ ٱلأبِ ٱلواحدِ لوِ ٱختلفَتْ ألسنَتُهُم فنشأَ منهم ناشيءٌ على لُغة، ونشأَ ٱلثاني على أخرى، وٱلثالثُ على لُغةٍ ثالثة، لَكانوا في ٱلعاطفةِ كأبناءِ ثلاثةِ آباء.

وما ذلَّتْ لُغةُ شعبٍ إلَّا ذَلَّ، ولا ٱنحطَّتْ إلَّا كانَ أمرُهُ في ذهابٍ وإدْبار؛ ومن هذا يفْرِضُ ٱلأجنبيُّ ٱلمستعمرُ لُغتَهُ فرضاً على ٱلأُمَّةِ ٱلمستعمرَة، ويركَبُهُم بها، ويُشعرُهم عَظَمَتهُ فيها، ويَسْتَلْحِقُهُم من ناحيتِها؛ فيحكمُ عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحد: أمَّا الأولُ فحبْسُ لُغتِهِم في لُغتِهِ سِجْناً مُؤَبَّداً؛ وأَمَّا ٱلثاني فَٱلحُكْمُ على ماضيهم بِٱلقتلِ مَحواً ونِسياناً؛ وأمَّا الثالثُ فتقييدُ مستقبَلِهِم في ٱلأغلالِ[4] ٱلتي يصنعُها؛ فأمرُهُمْ من بعدِها لِأمرِهِ تَبَع.

وٱلذين يتعلَّقون ٱللغاتِ ٱلأجنبيَّةَ ينزِعونَ إلى أهلِها بطبيعةِ هذا ٱلتعلُّق، إنْ لم تكنْ عصبيتُهُم، لِلغتِهم قويَّةً مُسْتَحكِمةً من قِبَلِ ٱلدينِ أوِ ٱلقوميَّة؛ فتراهُم إذا وهَنَتْ فيهم هذهِ ٱلعصبيَّةُ يخجلونَ من قوميَّتِهِم، ويتبرؤون من سَلَفِهِم وينسلِخون من تاريخِهم، وتقومُ بأنفسِهمُ ٱلكراهةُ لِلُغتِهم وآدابِ لُغتِهِم، ولِقومِهِم وأشياءِ قومِهِم؛

(١) دأبه: عادته.
(٢) خطرها: أمرها وأهميتها.
(٣) إيثار: تفضيل.
(٤) الأغلال: السلاسل.

فلا يستطيعُ وطنُهم أنْ يُوحِيَ أليهم أسرارَ روحِه؛ إذ لا يُوافقُ منهمُ أستجابةً في الطبيعة، وينقادون بالحُبِّ لِغيره، فيَتَجاوَزونَهُ وهم فيه، ويَرثونَ دِماءَهم من أهلِهم، ثُمَّ تكونُ العواطفُ في هذه الدماءِ لِلأجنبيّ؛ ومن ثَمَّ تُصْبحُ عندَهم قِيمةُ الأشياءِ بِمصدرِها لا بنفسِها، وبالخيالِ المتوهَّم فيها لا بالحقيقةِ التي تحملُها؛ فيكونُ شيءٌ الأجنبيِّ في مذهبِهم أجملَ وأثمَنَ، لِأنَّ إليهِ الميلَ وفيهِ الإكبارُ والإعظام؛ وقد يكونُ الوطنيُّ مثلَهُ أو أجملَ منه، بَيْدَ أنَّهُ فَقَدَ الميل، فَضَعُفَتْ صِلتُهُ بِالنفس، فعادَتْ كلُّ مُمَيِّزاتِهِ فضعُفَتْ لا تميزُه.

وأعجبُ من هذا في أمرِهم، أنَّ أشياءَ الأجنبيِّ لا تحمِلُ معانيَها الساحرةَ في نفوسِهم إلَّا إذا بَقيتْ حاملةً أسماءَها الأجنبيَّة، فإنْ سُمِّيَ الأجنبيُّ بلغتِهِمُ القوميَّةِ نقَصَ معناهُ عندَهم وتَصَاغَرَ وظهرَتْ فيه ذِلة... وما ذاك إلَّا صِغَرُ نفوسِهم وذِلتُها، إذْ يَنْتَخُون لِقَوْمِيَّهِم فلا يُلهمُهُمُ الحرفُ من لُغتِهم ما يُلهِمهمُ الحرفُ الأجنبيّ.

والشرقُ مبتلًى بهذه العلَّة، ومنها جاءَتْ مَشَاكلُهُ أو أكثرُها؛ وليسَ في العالمِ أُمَّةٌ عزيزةُ الجانبِ تُقدِّمُ لُغةَ غيرِها على لُغةِ نفسِها، وبهذا لا يعرفون لِلأشياءِ الأجنبيَّةِ مَوْضِعاً إلَّا من وراءِ حُدودِ الأشياءِ الوطنيَّة؛ ولو أخذْنا ـ نحن الشرقيين ـ بهذا، لَكانَ هذا وحدَهُ عِلاجاً حاسماً لِأكثرِ مشاكلِنا.

فاللغاتُ تتنازَعُ القوميَّةَ، ولَهِيَ ـ والله ـ احتلالٌ عقليٌّ في الشعوبِ التي ضَعُفَتْ عصبيتُها؛ وإذا هانَتِ اللغةُ القوميَّةُ على أهلِها، أثَّرَتِ اللغةُ الأجنبيَّةُ في الخُلُقِ القوميِّ ما يُؤثِّرُ الجوُّ الأجنبيُّ في الجِسْمِ الذي انتقلَ إليهِ وأقامَ فيه.

أمَّا إذا قَوِيَتِ العصبية، وعزَّتِ اللغة، وثارَتْ لَهَا الحميَّة؛ فلنْ تكونَ اللغاتُ الأجنبيةُ إلَّا خادمةً يُرتَفَقُ بها[1]، ويرجعُ شِبْرُ الأجنبيِّ شبراً لا متراً... وتكونُ تلك العصبيَّةُ لِلُغةِ القوميَّةِ مادةً وعَوْناً لِكُلِّ ما هو قوميٌّ؛ فيُصبحُ كلُّ شيءٍ أجنبيٍّ قد خضعَ لِقوَّةٍ قاهرةٍ غالبة، هي قوّةُ الإيمانِ بالمجدِ الوطنيِّ واستقلالِ الوطن؛ ومتى تعَيَّنَ الأولُ أنَّهُ الأولُ، فكلُّ قُوى الوجودِ لا تجعلُ الذي بعدَهُ شيئاً إلَّا أنَّهُ الثاني.

* * *

والدينُ هو حقيقةُ الخُلُقِ الاجتماعيِّ في الأُمَّة، وهو الذي يجعلُ القلوبَ كلَّها طبقةً واحدةً على اختلافِ المظاهرِ الاجتماعيَّةِ عاليةً ونازلةً وما بينَهما؛ فهو بذلك

---

(١) يرتفق بها: تصبح رديفة.

ٱلضميرُ ٱلقانونيُّ لِلشَّعْب، وبِهِ لا بغيرِهِ ثَبَاتُ ٱلأُمَّةِ على فضائِلِها ٱلنفسيَّة، وفيهِ لا في سِواهُ معنى إنسانيَّة ٱلقلْب.

ولِهذا كانَ ٱلدينُ من أقوى ٱلوسائلِ ٱلتي يُعَوَّلُ[1] عليها في إيقاظِ ضميرِ ٱلأُمَّة، وتنبيهِ رُوحِها، وٱهتياجِ خيَالِها؛ إذْ فيهِ أعظمُ ٱلسُّلْطةِ ٱلتي لها وحدَها قوَّةُ ٱلغلبَةِ على ٱلماديَّات؛ فسلطانُ ٱلدينِ هو سلطانُ كُلِّ فردٍ على ذاتِهِ وطبيعتِه؛ ومتى قَوِيَ هذا السلطانُ في شعْب، كانَ حَمِيّاً أبيّاً، لا تُرغمُهُ قوَّة، ولا يعنُو لِلْقَهْر.

ولولا ٱلتدينُ بِٱلشريعة؛ لَمَا ٱستقامَتِ ٱلطاعةِ لِلْقانونِ في ٱلنفس؛ ولولا ٱلطاعةُ ٱلنفسيَّة لِلْقوانين؛ لَمَا ٱنتظمَتْ أُمَّة؛ فليسَ عملُ ٱلدينِ إلَّا تحديدَ مكانِ ٱلحيِّ في فضائلِ ٱلحياة؛ وتعيينَ تَبِعَتِهِ في حُقُوقِها وواجِباتِها، وجعْلَ ذلك كلَّهُ نِظاماً مستقرّاً فيهِ لا يتغيَّر، ودَفْعَ ٱلإنسانِ بهذا ٱلنظامِ نحوَ ٱلأكمل، ودائماً نحوَ ٱلأكمل.

وكلُّ أُمَّةٍ ضَعُفَ ٱلدينُ فيها ٱختلَّتْ هندستُها ٱلاجتماعيَّةُ وماجَ بعضُها في بعض؛ فإنَّ من دقيقِ ٱلحِكْمةِ في هذا ٱلدينِ أنَّهُ لم يجعلِ ٱلغايةَ ٱلأخيرةَ مِنَ ٱلحياةِ غايةً في هذه ٱلأرض، وذلك لِتنتظِمَ ٱلغاياتُ ٱلأرضيَّةُ في ٱلناسِ فلا يأكلُ بعضُهُم بعضاً؛ فيغتني ٱلغنيُّ وهو آمن، ويفتقرُ ٱلفقيرُ وهو قانع، ويكونُ ثوابُ ٱلأعلى في أن يعودَ على ٱلأسفلِ بِٱلمبَرَّة، وثوابُ ٱلأسفلِ في أنْ يصبرَ على تركِ ٱلأعلى في منزلتِهِ؛ ثُمَّ ينصرفُ ٱلجميعُ بفضائِلِهِم إلى تحقيقِ ٱلغايةِ ٱلإلهيَّةِ ٱلواحدة، التي لا يكبرُ عليها ٱلكبير، ولا يصغُرُ عنها ٱلصغير؛ وهيَ ٱلحقّ، وٱلصَّلاح، وٱلخير، وٱلتَّعاونُ على ٱلبرِّ وٱلتقوى.

وما دامَ عملُ ٱلدينِ هو تكوينَ ٱلخُلُقِ ٱلثابتِ ٱلدائبِ في عملِهِ، ٱلمعتزِّ بقوَّتِه، ٱلمطمئنِّ إلى صبرِه، ٱلنافرِ منَ ٱلضعف، ٱلأبِيِّ على ٱلذلِّ، ٱلكافِرِ بِٱلاستعباد، ٱلمؤمنِ بِٱلموتِ في ٱلمدافعةِ عن حَوْزتِه، ٱلمجَزْيِّ بتساميهِ وبَذْلِهِ وعطفِهِ وإيثارِهِ ومُفاداتِه، ٱلعاملِ في مصلحةِ ٱلجماعة، ٱلمقيَّدِ في منافعِهِ بواجباتِهِ نحوَ ٱلناس ـ ما دامَ عملُ ٱلدينِ هو تكوينَ هذا ٱلخُلُق ـ فيكونُ ٱلدينُ في حقيقتِهِ هو جعْلَ ٱلحِسِّ بِٱلشرعيَّةِ أقوى مِنَ ٱلحسِّ بِٱلمادة؛ ولَعمري ما يجدُ ٱلاستقلالُ قوَّةً هي أقوى لَهُ وأردُّ عليهِ من هذا ٱلمعنى إذا تقرَّر في نفوسِ ٱلأُمَّةِ وٱنطبعَتْ عليه.

وهذه ٱلأُمَّةُ ٱلدينيَّةُ ٱلتي يكونُ واجبُها أنْ تَشرُفَ وتسودَ وتَعْتَزّ، يكونُ واجبُ هذا الواجِبِ فيها ألّا تسقطَ ولا تخضَعَ ولا تذلّ.

---

(١) يعوّل: يعتمد عليها.

وبتلكَ ٱلأصولِ ٱلعظيمةِ ٱلتي يُنشئِها ٱلدينُ ٱلصحيحُ ٱلقويُ في ٱلنفس، يتهيَّأُ ٱلنجاحُ ٱلسياسيُ لِلشَّعْبِ ٱلمُحافِظِ عليهِ ٱلمنتصِرِ لَه؛ إذْ يكونُ مِنَ ٱلخِلالِ ٱلطبيعيَّةِ في زُعمائِهِ ورجالِهِ ٱلثباتُ على ٱلنزعةِ ٱلسياسيَّةِ، وٱلصلابةُ في ٱلحقِّ، وٱلإيمانُ بمجدِ ٱلعمل، وتغليبُ ذلك على ٱلأحوالِ ٱلماديَّةِ ٱلتي تعترضُ ذا ٱلرأي لِتَفتِنَهُ عن رأيِهِ ومذهبِهِ: من مالٍ، أو جاهٍ، أو منصبٍ، أو مُوافَقةِ ٱلهوى، أو خشيةِ ٱلنِّقمة، أو خوفِ ٱلوعيد[1]، إلى غيرِها من كلِّ ما يستميلُ ٱلباطلُ أو يُرْهِبُ[2] بِهِ ٱلظلم.

ولا يذهبَنَّ عنك أنَّ الرجلَ ٱلمؤمنَ ٱلقويَّ ٱلإيمانِ ٱلممتلِىءَ ثِقَةً ويَقِيناً ووفاءً وصِدْقاً وعَزْماً وإصراراً على فضيلتِهِ وثَباتاً على ما يلقَى في سبيلِها ـ لا يكونُ رجلاً كَٱلناس، بل هو رجلُ ٱلاستقلالِ ٱلذي واجبُهُ جزءٌ من طبيعتِهِ، وغايتُهُ ٱلساميةُ لا تنفصلُ عنه، هو رجلُ صِدْقِ ٱلمبدإ، وصِدقِ ٱلكلمة، وصِدقِ ٱلأمل، وصِدقِ ٱلنَّزعة؛ وهوَ ٱلرجلُ ٱلذي ينفجرُ في ٱلتاريخِ كَلَّما ٱحتاجتِ ٱلحياةُ ٱلوطنيَّةُ إلى إطلاقِ قنابلِها للِنَّصر.

* * *

وَٱلعاداتُ هي ٱلماضي ٱلذي يعيشُ في ٱلحاضر، وهي وحْدةٌ تاريخيَّةٌ في ٱلشعْب، تجمعُهُ كما يجمعُهُ ٱلأصلُ ٱلواحد؛ ثُمَّ هي كٱلدينِ في قِيامِهَا على أساسٍ أدبيٍّ في ٱلنفس، وفي ٱشتمالِها على ٱلتحريم وٱلتحليل؛ وتكادُ عاداتُ ٱلشعْبِ تكونُ دِيناً ضيقاً خاصّاً بِهِ، يَحصرُهُ في قَبِيلِهِ ووطَنِه، ويُحَقِّقُ في أفرادِهِ ٱلأُلْفَةَ وٱلتَّشابُك، ويأخذُهُم جميعاً بمذهبٍ واحد؛ هو إجلالُ ٱلماضي.

وإجلالُ ٱلماضي في كلِّ شَعْبٍ تاريخيٍّ هوَ ٱلوسيلةُ ٱلروحيَّةُ ٱلتي يَستوحي بها ٱلشعبُ أبطالَه، وفلاسِفَتَه، وعُلَمَاءَه، وأُدَباءَه، وأهلَ ٱلفنِّ منه؛ فيُحونَ إليهِ وَحْيَ عَظائمَهُمُ ٱلتي لم يغلبْها ٱلموت؛ وبهذا تكونُ صُوَرُهُمُ ٱلعظيمةُ حيَّةً في تاريخِه، وحيَّةً في آمالِهِ وأعصابِه.

وَٱلعاداتُ هيَ وحدَها ٱلتي تجعلُ ٱلوطنَ شيئاً نفسيًّا حقيقيًّا؛ حتى لَيشعرُ ٱلإنسانُ أنَّ لِأَرضِهِ أُمومةَ ٱلأُمِّ ٱلتي وَلَدَتْه، ولِقَوْمِهِ أبوَّةَ ٱلأبِ ٱلذي جاءَ بِهِ إلى ٱلحياة: وليسَ يَعرفُ هذا إلَّا مَنِ ٱغتربَ عن وطنِه، وخالَطَ غيرَ قومِه، وٱستَوْحَشَ من غيرِ عاداتِه؛ فهناك يُثبتُ ٱلوطنُ نفسَهُ بِعَظَمةٍ وجَبَروتٍ كَأَنّهُ وحدَهُ هو ٱلدنيا.

---

(١) الوعيد: التهديد. (٢) يرهب: يخيف.

وهذه ٱلطبيعةُ ٱلناشئةُ في ٱلنفسِ من أثرِ ٱلعاداتِ هيَ ٱلتي تُنَبِّهُ في ٱلوطني رُوحَ ٱلتميُّزِ عنِ ٱلأجنبيّ، وتُوحِشُ نفسَهُ منه كأنّها حاسَّةُ ٱلأرض تنبِّهُ أهلَها وتُنذِرُهُمُ ٱلخَطرَ.

ومتى صدقَتِ ٱلوطنيَّةُ في ٱلنفسِ أقرَّتْ كلَّ شيءٍ أجنبيٍّ في حقيقتِهِ ٱلأجنبيَّة؛ فكانَ هذا هوَ أولَ مَظاهرِ ٱلاستقلال، وكانَ أقوى ٱلذرائعِ إلى ٱلمجدِ ٱلوطنيِّ.

* * *

وبِٱللغةِ وَٱلدينِ وَٱلعادات، ينحصرُ ٱلشعْبُ في ذاتِهِ ٱلساميةِ بِخَصائصِها ومقوّماتِها، فلا يَسْهُلُ ٱنتزاعُهُ منها ولا ٱنتساقُهُ من تاريخِه؛ وإذا أُلجِىءَ إلى حالٍ مِنَ ٱلقهرِ لم يَنْخَذِلْ[١] ولم يَتَضَعْضَع[٢]، وٱستمرَّ يعملُ ما تعملُهُ ٱلشَّوكةُ ٱلحادَّة: إنْ لم تُترَكْ لِنفسِها، لم تُعطِ من نفسِها ألَّا ٱلوَخْزَ........

(١) ينخذل: ينهزم.

(٢) يتضعضع: يتخلخل.

تجديدُ ٱلإسلام
رسالةُ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين

(الأزهر)، هذه هيَ ٱلكلمةُ ٱلتي لا يُقابلُها في خيَالِ ٱلأُمَّةِ ٱلمِصريَّةِ إلَّا كلمةُ (الهَرَم)؛ وفي كِلْتا ٱللفظتينِ يَكْمُنُ سرٌّ خَفِيٌّ من أسرارِ ٱلتاريخِ ٱلتي تجعلُ بعضَ ٱلكلماتِ مِيراثاً عقْليًّا لِلأُمَّة، يُنْسي مادةَ ٱللغةِ فيها ولا يُبْقِي منها إلَّا مادةَ ٱلنفس؛ إذْ تكونُ هذه ٱلكلماتُ تعبيراً عن شيءٍ ثابتٍ ثباتَ ٱلفِكْرةِ ٱلتي لا تتغيَّر، مستقِرٌّ في ٱلروحِ ٱلقوميَّةِ ٱستقرارَهُ في ٱلزمن، متجسِّمٌ من معناهُ كأنَّ ٱلطبيعةَ قد أَفردَتْهُ بِمادَّتِهِ دونَ ما يُشاركُهُ في هذه ٱلمادَّة؛ فٱلحجرُ في ٱلهَرمِ ٱلأكبرِ يكادُ يكونُ في ٱلعقلِ زماناً لا حجَراً وفنًّا لا جِسْماً؛ وَٱلمكانُ في ٱلأزهرِ يَغيبُ فيهِ معنى ٱلمكانِ وينقلِبُ إلى قوَّةٍ عقليَّةٍ ساحرةٍ تُوجِدُ في ٱلمنظورِ غيرَ ٱلمنظور.

وعندي أنَّ ٱلأزهرَ في زمانِنا هذا يكادُ يكونُ تفسيراً جديداً لِلحديث: «مِصْرُ كِنانةُ ٱللَّهِ في أرضِه»، فعلماؤُهُ ٱليومَ أَسْهُمٌ نافذةٌ من أَسْهُم ٱللَّهِ يَرمي بها مَنْ أرادَ دينَهُ بِٱلسوء، فيُمْسِكُها لِلْهَيْبةِ ويَرمي بها لِلنصر؛ ويجبُ أنَ يكونَ هذا المعنى أولَ معانِيهِم في هذا القرن العشرينَ الذي ٱبتُليَ بمِلْءِ عشرينَ قرناً مِنَ ٱلجُرْأةِ على ٱلأديان وإهمالِها والإلحادِ فيها.

أولُ شيءٍ في رسالةِ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، أنْ يكونَ أهلُهُ قوَّةً إلهيَّةً مُعَدَّةً للنصر، مُهيَّأةً لِلنِّضال، مسدَّدةً لِلإصابة، مُقدَّرَةً في طبيعتِها أحسنَ تقدير، تُشْعِرُ ٱلناسَ بِٱلاطمئنانِ إلى عملِها، وتُوحي إلى كلِّ مَنْ يراها ٱلإيمانَ ٱلثابتَ بمعناها؛ ولنْ يأتيَ لهم هذا إلَّا إذا ٱنقلبوا إلى طبيعتِهِمُ ٱلصحيحة، فلا يكون ٱلعِلْمُ تحرُّفاً ولا مِهْنةً ولا مَكْسَبة، ولا يكونُ في أوراقِ ٱلكتُبِ خيالُ (أوراقِ ٱلبنك)... بلْ تظهرُ فيهِمُ ٱلعظَمةُ ٱلروحانيَّةُ آمرةً ناهيةً في ٱلمادَّة، لا مأمورةً منهيةً بها؛ ويرتفعُ كلٌّ منهم بنفسِه، فيكونُ مُقرِّرَ خُلُقٍ في ٱلحياةِ قبلَ أنْ يكونَ معلِّمَ عِلْمٍ في ٱلحياة، لِينبثَّ منهم مغناطيسُ ٱلنبوَّةِ يجذِبُ ٱلنفوسَ بِهِم أقوى مِمَّا تَجذبُها ضَلالاتُ ٱلعصر؛ فما

يحتاجُ ٱلناسُ في هذا ٱلزمَنِ إلى ٱلعالِم - وإنَّ ٱلكُتُبَ وٱلعلومَ لتَملأ ٱلدنيا - وإنَّما يحتاجونَ إلى ضميرِ ٱلعالِم.

وقد عجَزتِ ٱلمدنيَّةُ أنْ تُوجِدَ هذا ٱلضمير، معَ أنَّ ٱلإسلامَ في حقيقتِهِ ليسَ شيئاً إلّا قانونَ هذا ٱلضمير، إذْ هو دينٌ قائمٌ على أنَّ ٱللّهَ لا ينظرُ مِنَ ٱلإنسانِ إلى صورتِهِ ولكنْ إلى عملِه؛ فأولُ ما ينبغي أنْ يحمَلهُ ٱلأزهرُ من رسالتِه، ضمائرُ أهلِه.

وٱلناسُ خاضعونَ لِلمادةِ بقانونِ حياتِهم، وبقانونٍ آخرَ هوَ قانونُ ٱلقرنِ ٱلعشرين. . . فهم من ثَمَّ في أشدِّ ٱلحاجةِ إلى أنْ يجدوا بينَهُمُ ٱلمتسلِّطَ على ٱلمادةِ بقانونِ حياتِه؛ لِيرَوْا بأعينِهِمُ ٱلقُوَى ٱلدنيئةَ مغلوبة، ثُمَّ لِيجدوا في هذا ٱلإنسانِ أساسَ ٱلقُدْوة وٱلاحتذاء، فيتَّصلوا منه بقوَّتينِ: قوَّةِ ٱلتعليم، وقوَّةِ ٱلتحويل.

وهذا هوَ سِرُّ ٱلإسلامِ ٱلأولُ ٱلذي نَفَذَ بِهِ من أُمَّةٍ إلى أُمَّةٍ ولم يقمْ لَهُ شيءٌ يَصدُّه، إذْ كانَ ينفُذُ في ٱلطبيعةِ ٱلإنسانيَّةِ نفسِها.

* * *

ومن أخصِّ واجباتِ ٱلأزهرِ في هذا ٱلقرنِ ٱلعشرين، أنْ يعملَ أولَ شيءٍ لإقرارِ معنى ٱلإسلامِ ٱلصحيحِ في ٱلمسلمينَ أنفسِهِم، فإنَّ أكثرَهُمُ ٱليومَ قد أصبحوا مسلمينَ بِٱلنَّسبِ لا غير. . . وما منهم إلَّا مَنْ هو في حاجةٍ إلى تجديدِ إسلامِه.

وَٱلحكوماتُ ٱلإسلاميَّةُ عاجزةٌ في هذا، بلْ هي من أسبابِ هذا ٱلشرِّ؛ لِأَنَّ لها وجوداً سِياسيًّا ووجوداً مدنيًّا؛ أمَّا ٱلأزهرُ فهو وحدَهُ ٱلذي يصلُحُ لإتمامِ نقصِ ٱلحكومةِ في هذا ٱلبابِ، وهو وحَدَه ٱلذي يَسَعُهُ ما تَعجزُ عنه؛ وأسبابُ نجاحِهِ مُهيَّأَةٌ ثابتةٌ إذْ كانَ لَهُ بِقوَّةِ ٱلتاريخِ حكمُ ٱلزَّعامةِ ٱلإسلاميَّة، وكانَتْ فيهِ عندَ ٱلمسلمينَ بقيَّةُ ٱلوحْيِ على ٱلأرضِ، ثُمَّ كانَ هو صورةَ ٱلمِزاجِ ٱلنفسيِّ ٱلإسلاميِّ ٱلمحض؛ بَيْدَ أنَّه فُرِّطَ في واجبِ هذه ٱلزعامة، وفقدَ ٱلقوَّةَ ٱلتي كانَ يحكمُ بها، وهيَ قوةُ ٱلمثَلِ ٱلأعلى ٱلتي كانَتْ تجعلُ ٱلرجلَ من علمائِهِ كما قلْنا مرة: إنساناً تتخيَّرُهُ ٱلمعاني ٱلسياسيَّةُ تَظهرُ فيهِ بأسلوبٍ عمليّ، فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً مِنَ ٱلتربيةِ وٱلتعليمِ بقاعدةٍ مُنتزَعةٍ من مِثالِها، مشروحةٍ بهذا ٱلمِثالِ نفسِه.

وٱلعقيدةُ في سوادِ ٱلناسِ بغيرِ هذا ٱلمثَلِ ٱلأعلى هيَ أولُ مغلوبٍ في صراعِ قُوى ٱلحياة.

لقدِ ٱعتادَ ٱلمسلمونَ من قديمٍ أنْ يجعلوا أبصارَهم إلى عُلماءِ ٱلأزهر، فهم

يتبّعونَهم، ويتأسَّوْنَ[1] بهم، ويمنحونَهمُ ٱلطاعةَ، وينزلونَ على حكمِهم، ويلتمسونَ في سيرتِهِمُ ٱلتفسيرَ لمِشكِلاتِ ٱلنفس، ويعرفونَ بهم معنى صِغَرِ ٱلدنيا ومعنى كِبَرِ ٱلأعمالِ ٱلعظيمةِ؛ وكانَ غِنى ٱلعالِم ٱلدينيِّ شيئاً غيرَ ٱلمال، بلْ شيئاً أعظمَ مِنَ ٱلمال؛ إذْ كانَ يجدُ حقيقةَ ٱلغِنى في إجلالِ ٱلناسِ لِفقرِهِ كأنَّهُ مُلْكٌ لا فقر؛ وكانَ زُهدُهُ قوةً حاكمةً فيها ٱلصلابةُ وٱلشِّدَّةُ وٱلهيبةُ وٱلسموُّ، وفيها كلُّ سُلْطانِ ٱلخيرِ وٱلشرّ، لِأنَّ فيها كلَّ ٱلنزَعاتِ ٱلاستقلاليّة؛ ويكادُ ٱلزّهدُ ٱلصحيحُ يكونُ هو وحدهُ ٱلقوَّةَ التي تجعلُ عُلماءَ ٱلدينِ حقائقَ مؤثِّرةً عامِلةً في حياةِ ٱلناسِ أغنيائِهِم وفقرائِهِم، لا حقائقَ متروكةً لِنفسِها يُوحِشُ ٱلناسَ منها أنّها متروكةٌ لِنفسِها.

❊ ❊ ❊

وعلماءُ ٱلأزهرِ في ٱلحقيقةِ هم قوانينُ نفسيَّةٌ نافذةٌ على ٱلشَّعب، وعملُهُم أرَدُّ على ٱلناسِ من قوانينِ ٱلحكومةِ، بلْ همُ ٱلتصحيحُ لِهذهِ ٱلقوانينِ إذا جَرَتِ ٱلأمورُ على عِلَلِها وأسبابِها؛ فيجبُ عليهم أنْ يُحقِّقوا وجودَهم، وأنْ يتناولوا ٱلأُمَّةَ من ناحيةِ قلوبِها وأروَاحِها، وأنْ يُعِدُّوا تلاميذَهم في ٱلأزهرِ كما يُعِدُّون ٱلقوانينَ ٱلدقيقةَ، لا طَلَّاباً يرتزقونَ بِٱلعلم.

أين صوتُ ٱلأزهرِ وعملُهُ في هذه ٱلحياةِ ٱلمائجةِ بما في ٱلسَّطْحِ وما في ٱلقاع... وأين وحْيُ هذه ٱلقوَّةِ ٱلتي مِيثاقُها أَنْ تجعلَ ٱلنبوَّةَ كأنَّها شيءٌ واقعٌ في ٱلحياةِ ٱلعصريَّةِ لا خبَرٌ تاريخيٌّ فِيها؟

لقدْ أصبحَ إيمانُ ٱلمسلمينَ كأنَّهُ عادةُ ٱلإيمانِ لا ٱلإيمانُ نفسُه؛ ورجعَ ٱلإسلامُ في كتبِهِ ٱلفقهيَّةِ وكأنَّهُ أديانٌ مختلِفةٌ متناقِضَةٌ لا دينٌ واحد. فرسالةُ ٱلأزهرِ أنْ يُجدِّدَ عملَ ٱلنبُّوةِ في ٱلشعب، وأنْ يُنَقّيَ عملَ ٱلتاريخ في ٱلكتُب، وأنْ يُبطِلَ عملَ ٱلوثنيَّةِ في ٱلعادات، وأنْ يُعطيَ ٱلأُمَّةَ دِينَها ٱلواضحَ ٱلسمْحَ[2] ٱلميسَّرَ، وقانونَها ٱلعمليّ ٱلذي فيهِ سعادتُها وقُوَّتُها.

ولا وسيلةَ إلى ذلك إلَّا أنْ يكونَ ٱلأزهرُ جريئاً في قِيادةِ ٱلحركةِ ٱلروحيَّةِ ٱلإسلاميَّة، جريئاً في عملِهِ لِهذه ٱلقِيادة، آخذاً بأسبابِ هذا ٱلعمل، مُلِحًّا في طلبِ هذه ٱلأسباب، مُصِرًّا على هذا ٱلطلَب؛ وكلُّ هذا يكونُ عبثاً إنْ لم يكنْ رجالُ ٱلأزهرِ وطلبَتُهُ أمثلةً مِنَ ٱلأمثلةِ ٱلقويَّةِ في ٱلدين وٱلخُلُقِ وٱلصلابة، لِتبدأَ ٱلحياةُ

---

(١) يتأسون: يتّخذونهم قدوة حسنة.

(٢) السمح: السهل الناتج عن طيب الخاطر.

ٱلنفسيَّةُ فيهم، فإنَّها إنْ بدأَتْ لا تقِف؛ وٱلمثَلُ ٱلأعلى حاكمٌ بطبيعتِهِ على ٱلإنسانيّة، مُطاعٌ بحكمِهِ فيها، محبوبٌ بِطاعتِها لَه.

وَٱلمادةُ ٱلمطهِّرةُ لِلدينِ وٱلأخلاقِ لا تجدُها ٱلأُمَّةُ إلَّا في ٱلأزهر، فعلى ٱلأزهرِ أنْ يُثبِتَ أنَّ فيهِ تلك ٱلمادةَ بإظهارِ عملِها لا بِإلصاقِ ٱلورقةِ ٱلمكتوبِ فيها ٱلاسمُ على ٱلزجاجة...

ومِنْ ثَمَّ يكونُ واجبُ ٱلأزهر أنْ يطلُبَ ٱلإشرافَ على ٱلتعليم ٱلإسلاميِّ في ٱلمدارس، وأنْ يدفعَ ٱلحركةَ ٱلدينيَّةَ دفعاً بوسائلَ مختلفة، أولُها أنَ يحملَ وزارة، ٱلمعارفِ على إقامةِ فرضِ ٱلصلاةِ في جميعِ مدارسِها، من مدرسةِ حريَّةِ ٱلفكر.. فنازلاً: وَٱلأمةُ ٱلإسلاميَّةُ كُلُّهَا تَشُدُّ رأيَ ٱلأزهرِ في هذا.

وإذا نحن ٱستخرجْنا ٱلتفسيرَ ٱلعمليَّ لهذه ٱلآية ٱلكريمة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾، دلَّتنا ٱلآيةُ بنفسِها على كلِّ تلكَ ٱلوسائل، فما ٱلحكمةُ هنا الَّا ٱلسياسةُ ٱلاجتماعيَّةُ في ٱلعمل، وليسَتِ ٱلموعظةُ ٱلحسنةُ إلَّا ٱلطريقةَ ٱلنفسيَّةَ في ٱلدعوة.

العلماءُ ورثةُ ٱلأنبياء؛ وليسَ ٱلنبيُّ منَ ٱلأنبياءِ إلَّا تاريخَ شدائدَ ومِحَن، ومجاهَدةٍ في هِدايةِ ٱلناس، ومُراغَمَةٍ[1] لِلوجودِ ٱلفاسد، ومُكابَدةٍ[2] ٱلتصحيح لِلْحالةِ ٱلنفسيَّةِ لِلأُمَّة؛ فهذا كلُّهُ هوَ ٱلذي يُورَثُ عنِ ٱلأنبياءِ لا ٱلعِلْمُ وتعليمُهُ فقط.

❊ ❊ ❊

وإذا قامَتْ رسالةُ ٱلأزهرِ على هذِهِ ٱلحقائق، وأصبحَ وجودُهُ هُوَ ٱلمعنى ٱلمتمِّمَ لِلْحكومة، ٱلمعاوِنِ لها في ضبطِ ٱلحياةِ ٱلنفسيَّة لِلشعبِ وحِياطَتِها وأمنِها ورَفاهتِها وَٱستقرارِها ـ ٱتَّجهَتْ طبيعتُهُ إلى أداءِ رِسالتِهِ ٱلكبرى لِلقرْنِ ٱلعشرين، بعدَ أنْ يكونَ قد حقَّقَ ٱلذرائعَ إلى هذه ٱلرسالة، مِنْ فتحِ بابِ ٱلاجتهاد، وتنقيةِ ٱلتاريخ ٱلفِقْهيّ، وتهذيبِ ٱلروح ٱلإسلاميِّ وٱلسموِّ بِهِ عن ٱلمعاني ٱلكلاميَّةِ ٱلجدَليَّةِ ٱلسخيفةِ؛ ثُمَّ ٱستخراجِ أسرارِ ٱلقرآنِ ٱلكريم ٱلكامنةِ فيه، لِهذه العصورِ ٱلعِلْميَّةِ ٱلأخيرة؛ وبعدَ أنْ يكونَ قدِ ٱجتمعَتْ فيهِ ٱلقوَّةُ ٱلتي تُمسِكُ ٱلإسلامَ على سُنَّتِهِ بينَ ٱلقديمِ وٱلجديد، لا يُنكرُهُ هذا ولا يُغيِّرُهُ ذاك، وبعدَ أنْ يكونَ ٱلأزهرُ قدِ ٱستفاضَ على ٱلعَالَمِ ٱلعربيِّ بِكتُبِهِ ودُعاتِهِ ومَبعوثيهِ من حاملي عِلْمِهِ ورُسُلِ إلهامِه.

---

(١) مراغمة: مصراعة ومقاومة. (٢) مكابدة: معاناة.

أمَّا تلك ٱلرسالةُ ٱلكبرى فهي بثُّ ٱلدعوةِ ٱلإسلاميَّةِ في أوربا وأمريكا وٱليابان، بلغاتِ ٱلأوربيّينَ وٱلأمريكيّينَ وٱليابانيّين، في ألسنةٍ أزهريةٍ مُرْهَفةٍ مصقولة، لها بيانُ ٱلأدب، ودِقَّةُ ٱلعِلْم، وإحاطةُ ٱلفلسفة، وإلهامُ ٱلشعر، وبصيرةُ ٱلحِكْمة، وقُدرةُ ٱلسياسة؛ ألسنةٌ أزهريَّةٌ لا يُوجَدُ ٱلآنَ منها لِسانٌ واحدٌ في ٱلأزهر، ولكنَّها لن تُوْجَدَ إلَّا في ٱلأزهر؛ ولا قِيمةَ لِرسالتِهِ في ٱلقرنِ ٱلعشرينَ إذا هو لم يُوجْدها فتكونَ ٱلمتكلِّمة عنه، وٱلحامِلة لِرسالتِه، وما هذه ٱلبعثاتُ ٱلتي قرَّرَ ٱلأزهرُ ٱبتعاثَها إلى أوربا إلَّا أولُ تاريخِ تلك ٱلألْسنة.

إنَّ ٱلوسيلةَ ٱلتي نَشَرتِ ٱلإسلامَ من قبلُ لم تكنْ أَجنحةَ ٱلملائكة، ولا كانَتْ قوَّةً من جهنَّم؛ ولا تزالُ هي ٱلتي تنشرُه؛ فليسَ مُستحيلاً ولا متعذِّراً أنْ يَغزُوَ هذا ٱلدينُ أوربا وأمريكا وٱليابانَ كما غزا ٱلعالَمَ ٱلقديم، ولم يكنِ ٱلسلاحُ من قبلُ إلَّا طريقَةً لإيجادِ إسلام في ٱلأُمَّةِ ٱلغريبَةِ عنه، حتى إذا وُجِدَ تولَّى هو ٱلدعوَةَ لِنفسِهِ بقوَّةِ ٱلناموسِ ٱلطبيعيِّ ٱلقائمِ على أنَّ ٱلأصلحَ هُوَ ٱلأبقى، وَٱنحازَتْ إليهِ ٱلإنسانيَّةُ لإنَّهُ قانونُ طبيعتِها ٱلسليمة، ودينُ فِطْرتِها ٱلقويَّة؛ وقد ظلَّ ٱلإسلامُ ينتشرُ ولم يكنْ يحملُهُ إلَّا ٱلتاجر، كما كانَ ينتشرُ وحاملُهُ ٱلجيش؛ فليسَ علينا إلَّا تغييرُ ٱلسلاحِ في هذا ٱلعصر وجعلُهُ سِلاحاً من فلسفةِ ٱلدينِ وأسرارِ حِكمتِه؛ فهذا ٱلدينُ كما قلْنا في بعضِ كَلامِنا: أعمالٌ مفصَّلةٌ على ٱلنفسِ أدَقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بِمصلحتِها، فهو يُعطي ٱلحياةَ في كلِّ عصْرٍ عقلَها ٱلعَمَليَّ ٱلثابتَ ٱلمستقرَّ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ ٱلنفسِ على مَيْزةٍ وبصيرة، ويَدَعُ لِلحياةِ عقلَها ٱلعِلْميَّ ٱلمتجدِّدَ ٱلمتغيرَ تُنظِّمُ بِهِ أحوالَ ٱلطبيعةِ على قَصْدٍ وهُدًى؛ وهذه هيَ حقيقةُ ٱلإسلامِ في أخصِّ معانيه: لا يُغني عنْهُ في ذلك دِينٌ آخر، ولا يؤدّي تأديتَهُ في هذه ٱلحاجةِ أدبٌ ولا عِلْمٌ ولا فلسفة، كأنَّما هو نَبْعٌ في ٱلأرضِ لِمعاني ٱلنور، بإزاءِ ٱلشمسِ نبعِ ٱلنورِ في ٱلسماء.

ليسَ على ٱلأزهرِ إلَّا أنْ يُوجِدَ مِنَ ٱلإسلامِ في تلكَ ٱلأُمَمِ ما يستمرّ، ثُمَّ ٱلاستمرارُ هو يُوجِدُ ما يَثبت، وٱلثباتُ يُوجِدُ ما يدوم؛ وكأَنَّ النبيَّ ﷺ قد أشارَ إلى هذا في قولِهِ: نَضَّرَ ٱللَّهُ ٱمرأً سمعَ منِّي شيئاً فبلَّغَهُ كما سمعَهُ، فربَّ مُبلَّغٍ أوعى لَهُ من سامع.

أَمَا وَٱللَّهِ إنَّ هذا ٱلمبلَّغَ ٱلذي هو أوعى لَهُ مِنَ ٱلسامع لَنْ يكونَ في ٱلتاريخ بأدقِّ ٱلمعنى إلَّا أوربا وأمريكا في هذا ٱلزمنِ ٱلعِلْميِّ إذا نحن عَرفْنا كيف نُبلّغ.

أنا مستيقنٌ أنَّ فيلسوفَ ٱلإسلام ٱلذي سيَنتشرُ ٱلدينُ على يدِهِ في أوربا وأمريكا لن يخرجَ إلَّا مِنَ ٱلأزهر، وما كانَ ٱلأستاذُ الإمامُ ٱلشيخُ محمدُ عبده ـ رحمه اللّهَ ـ أَلّا أولَ ٱلتطَوُّرِ ٱلمنتهي إلى هذه ٱلغاية، وسيكونُ عملُ فلاسفةِ ٱلأزهرِ ٱستخراجَ قانونِ ٱلسعادةِ لِتلللكِ ٱلأُممِ من آدابِ ٱلإسلامِ وأعمالِه؛ ثُمَّ مُخاطبةِ ٱلأُمَمِ بأفكارِها وعواطفِها، وٱلإفضاءَ[1] من ذلك إلى ضميرِها ٱلاجتماعيِّ فإنَّ أولَ ٱلدينَ هناك أسلوبُهُ ٱلذي يظهرُ بهِ.

* * *

هذه هي رسالةُ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، ويجبُ أنْ يتحقَّقَ بوسائلِها منَ ٱلآن؛ ومن وسائِلها أنْ يُعالِنَ بها لِتكونَ مَوْثِقاً عليه. ويحسنُ بِٱلأزهرِ في سبيلِ ذلك أنْ يضمَّ إليهِ كلَّ مفكرٍ إسلاميٍّ ذي إلهامٍ أو بحثٍ دقيقٍ أو إحاطة شاملة؛ فتكونُ لَهُ ألقابٌ عِلْمِيَّةٌ يمنحُهُم إيَّاها وإنْ لم يَتخرجوا فيه، ثُمَّ يستعينُ بِعِلْمِهم وإلهامِهم وآرائهم.

وبهذِهِ ٱلألقابِ يمتدّ ٱلأزهرُ إلى حدودٍ فكريَّةٍ بعيدة، ويُصبحُ أوسعَ في أثرِهِ على ٱلحياةِ ٱلإسلاميَّة، ويُحقِّقُ لِنفسِهِ ٱلمعنى ٱلجامعيّ.

وفي تلك ٱلسبيلِ يجبُ على ٱلأزهرِ أنْ يختارَ أياماً في كلِّ سنةٍ يجمعُ فيها مِنَ ٱلمسلمينَ (قِرْشَ الإسلام)؛ لِيَجدَ مادةَ ٱلنفقةِ ٱلواسعةِ في نشرِ دينِ ٱلله، وليسَ على ٱلأرضِ مسلمٌ ولا مسلمةٌ لا يبسُطُ يدَه، فما يحتاجُ هذا ٱلتدبيرُ لِأكثرَ من إقرارِهِ وتنظيمِهِ وإعلانِهِ في ٱلأُمَمِ ٱلإسلاميَّةِ ومواسِمِها ٱلكبرى، وخاصةً موسمَ ٱلحجّ.

وهذا ٱلعملُ هو نفسُهُ وسيلةٌ من أقوى ٱلوسائلِ في تنبيهِ ٱلشعورِ ٱلإسلاميّ، وتحقيقِ ٱلمعاونةِ في نشرِ ٱلدين وحِياطتِه؛ وعسى أنْ تكونَ لَهُ نتائجُ ٱجتماعيَّةٌ لا مَوْضِعَ لِتفصيلِها هنا، وعسى أنْ يكونَ (قِرْشُ ٱلإسلام) مادةً لِأعمالٍ إسلاميَّةٍ ذاتِ بال، وهو على أيِّ ٱلأحوالِ صلةٌ روحيَّةٌ تجعلُ ٱلأزهرَ كأنَّهُ مُعْطِيهِ لِكُلِّ مسلم لا آخِذُه.

وٱلخُلاصةُ أنَّ أولَ رسالةِ ٱلأزهرِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين، ٱهتداءُ ٱلأزهرِ إلى حقيقةِ موضعِهِ في ٱلقرنِ ٱلعشرين: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) الإفضاء: الوصول والانتهاء.

الأسـد

جلسَ أبو علي أحمدُ بْنُ محمدٍ ٱلرُّوذَبَاديُّ ٱلبغداديُّ في مجلسِ وعظِهِ بمصرَ بعدَ وفاةِ شيخِهِ أبي الحسنِ بُنَانِ ٱلحمالِ ٱلزاهدِ ٱلواسطيِّ شيخ ٱلديارِ ٱلمصرية وكانَ يُضربُ ٱلمثلُ بعبادتِهِ وزُهدِه، وقد خرجَ أكثرُ أهلِ مِصرَ في جنازتِهِ، فكانَ يومُهُ يوماً كَٱلبرهانِ مِنَ ٱلعالـم ٱلآخرِ لِأهلِ هذه ٱلدنيا؛ ما بقيَ أحدٌ إلَّا ٱقتنعَ أنَّهُ في شهواتِ ٱلحياةِ وأباطيلِها كَٱلأَعمى في سُوءِ تمييزِه بينَ لَوْنِ ٱلترابِ ولَوْنِ ٱلدقيق؛ إذْ ينظرُ كلُّ ٱمرىءٍ في مصالحِهِ ومنافعِهِ مثلَ هذه ٱلنظرة، بِٱللمسِ لا بِٱلبصر، وبِٱلتوهُّم لا بِٱلتحقيق، وعلى دليلِ نفسِهِ في ٱلشيءِ لا على دليلِ ٱلشيءِ في نفسِه، وبِٱلإدراكِ من جِهَةٍ واحدةٍ دونَ ٱلإدراكِ من كلِّ جِهَة؛ ثُمَّ يأتي ٱلموتُ فيكونُ كَٱلماءِ صُبَّ على ٱلدقيقِ وٱلترابِ جميعاً، فلا يرتابُ مُبصرٌ ولا أعمى، ويبطلُ ما هو باطلٌ ويحقُّ ٱلذي هو حقّ.

وتكلمَ أبو علي فقال: كنْتُ ذاتَ يوم عندَ شيخِنا ٱلجُنيدِ في بغداد، فجاءَهُ كتابٌ من يوسفَ بْنِ ٱلحسنِ شيخِ ٱلريِّ وٱلجِبالِ في وقتِهِ يقولُ فيه: لا أذاقَكَ ٱللَّهُ طعمَ نفَسِك، فَإنَّكَ إنْ ذُقْتَها لم تذقْ بعدَها خيراً أبداً! قال: فجعلْتُ أفكرُ في طعم ٱلنفسِ ما هو، وجاءَني ما لم أرْضَهُ مِنَ ٱلرأي، حتى سمعْتُ بخبرِ بُنانٍ ـ رحمهُ ٱللَّهُ ـ مع أحمدَ بْنِ طُولونَ أميرِ مِصر، فهوَ ٱلذي كانَ سببَ قدومي إلى هنا لِأرى ٱلشيخَ لِأصحَبُه وأنتفعَ به.

وٱلبلدُ ٱلذي ليسَ فيهِ شيخٌ من أهلِ ٱلدينِ ٱلصحيح وٱلنفسِ ٱلكاملةِ وٱلأخلاقِ ٱلإلهيَّة، هو في ٱلجهلِ كَٱلبلدِ ٱلذي ليسَ فيهِ كِتابٌ مِنَ ٱلكتبِ ألبتةَ وإنْ كانَ كلُّ أهلِهِ علماء، وإنْ كانَ في كلِّ محلةٍ منه مدرسة، وفي كلِّ دارٍ من دورِهِ خزانةُ كتب؛ فلا تُغني هذه ٱلكتبُ عن ٱلرجال؛ فإنَّما هيَ صوابٌ أو خطأٌ ينتهي إلى ٱلعقل، ولكنَّ ٱلرجلَ ٱلكاملَ صوابٌ ينتهي إلى ٱلروح، وهو في تأثيرِهِ على ٱلناسِ أقوى مِنَ ٱلعِلْم، إذْ هو تفسيرُ ٱلحقائقِ في ٱلعملِ ٱلواقعِ وحياتِها عاملةً مرئيةً داعيةً إلى نفسِها؛ ولو أقامَ ٱلناسُ عشَرَ سنينَ يتناظَرون في معاني ٱلفضائلِ ووسائلِها،

ووضعوا في ذلك مائةَ كتاب، ثُمَّ رأَوْا رجلًا فاضلاً بأصدقِ معاني ٱلفضيلة، وخالطُوهُ وصحبُوهُ ـ لَكانَ ٱلرجلُ وحدَهُ أكبرَ فائدةٍ من تلك ٱلمناظرةِ وأجدى[1] على ٱلناسِ منها وأدلَّ على الفضيلةِ من مائةِ كتابٍ ومن ألفِ كتاب؛ ولِهذا يُرسِلُ ٱللَّهُ ٱلنبيَّ مع كلِّ كتابٍ مُنَزَّلٍ لِيعطيَ ٱلكلمةَ قوَّةَ وجودِها، ويُخرجَ ٱلحالةَ ٱلنفسيَّةَ مِنَ ٱلمعنى ٱلمعقول، ويُنشيءَ ٱلفضائلَ ٱلإنسانيَّةَ على طريقةِ ٱلنسلِ من إنسانِها ٱلكبير.

وما مثلُ ٱلكتابِ يتعلَّمُ ٱلمرءُ منه حقائقَ ٱلأخلاق ٱلعالية، إلَّا كوضعِ ٱلإنسانِ يدَهُ تحتَ إبطِهِ لِيرفعَ جِسمَهُ عنِ ٱلأرض؛ فقد أنشأ يعمل، ولكنَّهُ لن يرتفع؛ ومن ذلك كانَ شرُّ ٱلناسِ همُ ٱلعلماءَ وٱلمعلِّمين إذا لم تكنْ أخلاقُهم دروساً أخرى تعملُ عملاً آخرَ غيرَ ٱلكلام؛ فإنَّ أحدَهم لَيجلسُ مجلِسَ ٱلمعلِّم، ثُمَّ تكونُ حولَهُ رذائلُهُ تُعلِّمُ تعليماً آخرَ من حيثُ يدري ولا يدري، ويكونُ كِتابُ ٱللَّهِ مَعَ ٱلإنسانِ ٱلظاهرِ منه، وكتابُ ٱلشيطانِ مَعَ ٱلإنسانِ ٱلخفيِّ فيه.

* * *

قال أبو علي: وقدمْتُ إلى مصرَ لِأرى أبا الحسن وآخذَ عنهُ وأحقِّقَ ما سمعْتُ من خيرِهِ مَعَ ٱبنِ طُولون؛ فلمَّا لقيْتُهُ لقيْتُ رجلاً من تلاميذِ شيخِنا ٱلجنيد، يتلألأُ فيهِ نورُهُ ويعملُ فيهِ سِرُّه؛ وهما كَٱلشمعةِ، وٱلشمعةُ في ٱلضوءِ وإنْ صَغُرَتْ واحدةٌ وكبُرَتْ واحدة؛ وعلامةُ ٱلرجلِ من هؤلاءِ أنْ يعملَ وجودُهُ فيمَنْ حولَهُ أكثرَ مِمَّا يعملُ هو بنفسِه، كأنَّ بينَ ٱلأرواحِ وبينَهُ نسباً[2] شابكاً، فلَهُ معنى أبوةِ الأَبِ في أبنائِهِ: لا يراهُ مَنْ يراهُ منهم إلَّا أحسَّ أنَّهُ شخصُهُ ٱلأكبر؛ فهذا هو ٱلذي تكونُ فيهِ ٱلتكملةُ ٱلإنسانيَّةُ لِلناس، وكأنَّهُ مخلوقٌ خاصَّةً لِإثباتِ أنَّ غيرَ ٱلمستطاعِ مستطاع.

ومن عجيبِ حِكمةِ ٱللَّهِ أنَّ ٱلأمراضَ ٱلشديدةَ تعملُ بِٱلعدوَى فيمَنْ قارَبها أو لامسَها، وأنَّ القُوى ٱلشديدةَ تعملُ كذلك بِٱلعدوى فيمَنِ ٱتَّصلَ بها أو صاحبَها ولهذا يخلقُ ٱللَّهُ ٱلصالحينَ ويجعلُ ٱلتقوى فيهم إصابةً كإصابةِ ٱلمرض: تصرِفُ عن شهواتِ ٱلدنيا كما يصرِفُ ٱلمرضُ عنها، وتكسرُ ٱلنفسَ كما يكسرُها ذاك، وتُفقِدُ ٱلشيءَ ما هو بِهِ شيء، فتتحوَّلُ قِيمتُه، فلا يكونُ بِما فيهِ منَ ٱلوهمِ بلْ بما فيهِ منَ ٱلحق.

وإذا عدِمَ ٱلناسُ هذا ٱلرجلَ ٱلذي يُعدِّيهم بِقوتِهِ ٱلعجيبةِ فقلَّما يصلحونَ لِلقوَّة، فكِبارُ ٱلصالحينَ وكِبارُ ٱلزعماءِ وكِبارُ ٱلقوَّادِ وكِبارُ ٱلشجعانِ وكِبارُ ٱلعلماءِ

(١) أجدى: أنفع. (٢) نسباً: قرابة.

وأمثالُهم ـ كلُّ هؤلاءِ من بابٍ واحد، وكلُّهم في ٱلحِكمةِ كَكِبارِ ٱلمرضى.

* * *

قالَ أبو علي: وهممْتُ مرةً أنْ أسألَ ٱلشيخَ عن خبرِهِ مَعَ ٱبن طُولون، فقطعتْني هيبتُه، فقلْت: أحتالُ بسؤالِهِ عن كلمةِ شيخِ ٱلرّي: «لا أذاقكَ ٱللّهُ طعمَ نفسِك»؛ وبينما أُهيِّىءُ في نفسي كلاماً أُجري فيهِ هذه ٱلعِبارة، جاءَ رجلٌ فقالَ لِلشيخ: لي على فلانٍ مائةُ دينار، وقد ذهبَتِ ٱلوثيقةُ التي كُتِبَ فيها ٱلدَّين، وأخشى أنْ يُنكرَ إذا هو علِمَ بِضياعِها؛ فٱدعُ ٱللّهَ لي ولَهُ أنْ يُظفرني[1] بِدَيني وأن يُثبّتَهُ على ٱلحقّ. فقالَ ٱلشيخ: إنّي رجلٌ قد كَبِرْتُ وأنا أُحبُّ ٱلحلوى، فٱذهبْ فٱشترِ رطلاً منها وٱئتني بهِ حتى أدعُو لك!

فذهبَ ٱلرجلُ فٱشترى ٱلحلوى ووضعَها لَهُ ٱلبائعُ في ورقةٍ فإذا هي ٱلوثيقةُ ٱلضائعةِ، وجاءَ إلى ٱلشيخِ فأخبرَه، فقالَ له: خذِ ٱلحلوى فأطعِمْها صِبيانَك لا أذاقَنا ٱللّهُ طعمَ أنفسِنا فيما نشتهي! ثُمَّ إنَّهُ ٱلتفتَ إليَّ وقال: لو أنَّ شجرةً ٱشتهَتْ غيرَ ما بِهِ صحةُ وجودِها وكمالُ منفعتِها فأُذيقَتْ طعمَ نفسِها لأكَلَتْ نفسَها وذوَتْ.

* * *

قالَ أبو علي: والمعجزاتُ ٱلتي تحدثُ لِلأنبياء، وَٱلكراماتُ ٱلتي تكونُ لِلأتقياء، وما يخرقُ ٱلعادةَ ويخرجُ عنِ ٱلنسق ـ كلُّ ذلك كقولِ ٱلقدَرةِ عنِ ٱلرجلِ ٱلشاذ: هو هذا. فلم تبقَ بي حاجةٌ إلى سؤالِ ٱلشيخ عن خبرِهِ معَ ٱبْنِ طُولون، وكنْتُ كأنّي أرى بعينَي رأسي كلَّ ما سمِعْت، بيدَ أنّي لم أنصرفُ حتى لقيْتُ أبا جعفرِ ٱلقاضي أحمدَ بْنَ عبدِ ٱللّهِ بْنِ مُسلم بْنِ قتيبةَ ٱلدِّينوري ذاك ٱلذي يُحدّثُ بكتبِ أبيه كلِّها من حفظِهِ وهي واحدٌ وعشرون مصنفاً فيها ٱلكبيرُ وٱلصغير؛ فقال لي: لعلَّك ٱشتفيْتَ من خبرِ بُنانٍ معَ ٱبن طُولون، فمِنْ أجلِهِ زعمَّتَ جئْتَ إلى مِصر. قلْت: إنَّهُ تواضَعَ فلم يُخبرْني وهِبْتُهُ[2] فلم أسألْه. قال: تعالَ أحدِّثْكَ ٱلحديث.

كانَ أحمدُ بْنُ طولون من جاريةٍ تركيَّة، وكانَ طُولونُ أبوهُ مملوكاً حملَهُ نوحُ بْنُ أسدٍ عاملُ بُخارى إلى ٱلمأمونِ فيما كانَ موظَّفاً عليهِ مِنَ ٱلمالِ وَٱلرقيقِ

(١) يُظفرني: يُعطيني، يمنحني.

(٢) وهبته: خفته.

وٱلبراذينِ[١] وغيرِ ذلك؛ فولِدَ أحمدُ في منصبِ ذلَّةٍ تستظهرُ بِٱلطغيان، وكانَتْ هاتان طبيعتيهِ إلى آخرِ عمرِه، فذهبَ بِهِمَّتِهِ مذهباً بعيداً، ونشأ من أولِ أمرِهِ على أنْ يُتمَّ هذا ٱلنقصَ ويكونَ أكبرَ من أصلِه، فطلبَ ٱلفروسيَّةَ وٱلعِلْمَ وٱلحديث، وصَحِبَ ٱلزهادَ وأهلَ ٱلورع، وتميّزَ على ٱلأتراكِ وطَمِحَ إلى ٱلمعالي، وظلَّ يرمي بنفسِه، وهو في ذلك يكبرُ ولا يزالُ يكبر، كأنّما يُريدُ أنْ ينقطِعَ من أصلِهِ ويلتحِقَ بِٱلأمراء، فلمّا ٱلتحقَ بِهِمْ ظلّ يكبرُ لِيلحقَ بِٱلملوك، فلمّا بلغَ هؤلاءِ كانَتْ نيَّتُهُ على ما يعلمُ ٱللهُ.

قال: وكانَ عقلُهُ من أثرِ طبيعتيهِ كٱلعقلينِ لرجلينِ مُختلِفينِ فَلهُ يدٌ معَ ٱلملائكةِ ويدُهُ ٱلأخرى مَعَ ٱلشياطين، فهو ٱلذي بنى ٱلمارستانَ وأنفقَ عليهِ وأقامَ فيهِ ٱلأطباء، وشرطَ إذْ جِيءَ بِٱلعليل[٢] أنْ تُنزَعَ ثيابُهُ وتُحفظَ عندَ أمينِ ٱلمارستان، ثُمَّ يُلبسَ ثِياباً ويُفرشَ لَهُ ويُغدَّى عليهِ ويُراحَ بِٱلأدويةِ وٱلأغذيةِ وٱلأَطبَّاءِ حتى يبرأ، ولم يكن هذا قبلَ إمارتِه؛ وهو أولُ مَنْ نظرِ في ٱلمظالم من أمراءِ مِصر؛ وهو صاحبُ يوم ٱلصدقة: يكثرُ من صدقاتِهِ كلّما كَثُرَتْ نِعَمةُ ٱللَّهِ عليه، ومراتبُهُ لذلك وغيرِها، يذبحُ فيها ٱلبقرَ وٱلكِباشَ ويغرفُ لِلناس، ولِكُلِّ مِسكينٍ أربعةَ أرغفةٍ يكونُ في ٱثنينِ منها فالوذجُ[٣] وفي ٱلآخرينِ مِنَ ٱلقدور، ويُنادي: مَنْ أحبَّ أنْ يحضُرَ دارَ ٱلأميرِ فَلْيحضُر! وتُفتحُ ٱلأبوابُ ويدخلُ ٱلناسُ وهو في ٱلمجلسِ ينظرُ إلى ٱلمساكينِ ويتأمَّلُ فرحَهم بِما يأكلونَ ويحملون، فيَسُرهُ ذلك ويحمدُ ٱللَّهَ على نِعمتِه؛ وكانَ راتبُ مطبخِهِ في كلِّ يوم ألفَ دينار؛ وٱقتدى[٤] بِهِ ٱبنُهُ خُمارويهِ، فأنشأ بعدَهُ مطبخَ ٱلعامَّةِ يُنفِقُ عليهِ ثلاثةً وعشرينَ ألفَ دينارِ كلَّ شهر.

وقد بلغَ ما أرسَلهُ ٱبنُ طُولونَ إلى فقراءِ بغدادَ وعلمائِها في مدةِ ولايتِهِ ألفي ألفِ ومائتي ألفِ دينارِ وكانَ كثيرَ ٱلتلاوةِ لِلقرآن، وقدِ ٱتخذَ حُجرةً بقربهِ في ٱلقصرِ وضعَ فيها رِجالاً سمَّاهم بِٱلمكبِّرينِ، يتعاقبونَ ٱلليلَ نوباً يُكبّرون ويُسبّحون، ويحمدون ويهلّلون، ويقرءُون ٱلقرآنَ تطريباً، ويُنشدون قصائدَ ٱلزهد، ويُؤذنون أوقاتَ ٱلأذان؛ وهو ٱلذي فتحَ أنطاكيةَ في سنةِ خمس وستينَ ومائتين، ثُمَّ مضى إلى طرسوسَ كأنَّهُ يُريدُ فتحَها، فلّما نابذهُ[٥] أهلُها وقاتلهم أمرَ أصحابَهُ أنْ ينهزموا

---

(١) البراذين، مفردة برذون، وهو نوع من البغال.
(٢) العليل: المريض.
(٣) الفالوذج: ضرب من الحلوى.
(٤) اقتدى: سيره.
(٥) نابذه: ناجزه وقاتله.

عنها، لِيبلغَ ذلك طاغيةَ ٱلرومِ فيعْلَمَ أنَّ جيوشَ ٱبنِ طُولون على كثرتِها وشدَّتِها لم تقمْ لِأهلِ طرسوس، فيكونَ بهذا كأنّه قاتَلَهُ وصدَّهُ عن بلدٍ من بلادِ ٱلإسلام، ويجعلَ هذا ٱلخبرَ كَٱلجيشِ في تلك ٱلناحية!

ومعَ كلِّ ذلك فإنَّهُ كانَ رجلاً طائشَ ٱلسيف، يجورُ ويعسف[1]، وقد أُحصيَ مَنْ قتلَهُم صَبْراً[2] أو ماتوا في سِجنِهِ فكانوا ثمانيةَ عَشَرَ ألفاً؛ وأمرَ بسجنِ قاضيهِ بكارِ بْنِ قتيبةَ في حادثةٍ معروفة. وقالَ له: غرَّكَ قولُ ٱلناسِ ما في ٱلدنيا مثلُ بكار؟ أنت شيخٌ قد خَرِفْتَ! ثُمّ حبسَهُ وقيَّدَهُ وأخذَ منه جميعَ عطاياهُ مدةَ وِلَايتِهِ ٱلقضاء، فكانَتْ عشرةَ آلافِ دينار، قيلَ إنّها وُجِدَتْ في بيتِ بكارٍ بِخَتْمِها لم يمسَّها زهداً وتورُّعاً.

وَلمَّا ذهبَ شيخُكَ أبو ٱلحسنِ يُعنِّفُهُ ويأمرُهُ بِٱلمعروفِ وينهاهُ عنِ ٱلمنكر، طاشَ عقلُهُ[3] فأمرَ بإلقائِهِ إلى الأسد، وهوَ ٱلخبرُ ٱلذي طارَ في ٱلدنيا حتى بَلَغَكَ في بغداد...

* * *

قال: وكنْتُ حاضرَ أمرِهِم ذلك ٱليوم، فجِيءَ بِالأسدِ من قصرِ ٱبنِهِ خُمارويهِ وكانَ خُمارويهِ هذا مشغوفاً[4] بِٱلصيد، لا يكادُ يسمعُ بِسبعٍ في غيضةٍ أو بطنِ وادٍ إلَّا قصدَهُ ومعه رجالٌ عليهم لُبود، فيدخلونَ إلى ٱلأسدِ ويتناولُونه بأيديهم من غَابِهِ عُنْوَةً وهو سليم، فيضعونهُ في أقفاصٍ من خشبٍ محكمةِ ٱلصنعةِ يسعُ ٱلوَاحدُ منها ٱلسبعَ وهو قائم.

وكانَ ٱلأسدُ ٱلذي ٱختاروه لِلشيخ أغلَظَ ما عندَهم، جسيماً، ضارياً[5]، عارمَ ٱلوحشيَّة[6]، متزيِّلَ ٱلعضل، شديدَ عصبِ ٱلخُلُق، هرَّاساً[7]، فرَّاساً، أهرتَ ٱلشدقِ[8] يلوحُ شدْقُهُ من سعتِهِ وروعتِهِ كفتحةِ ٱلقبرِ يُنبِيءُ أنَّ جوفَهُ مقبرة، ويظهرُ وجْهُهُ خارجاً من لِبدتِه، يهمُّ أنْ ينقذِفَ على مَنْ يراهُ فيأكلَه!

وأجلسوا ٱلشيخَ في قاعةٍ وأشرفوا عليهِ ينظرون، ثُمَّ فتحوا بابَ ٱلقفصِ من أعلاهُ فجذبوه فٱرتفع؛ وهجهجوا[9] بٱلأسدِ يزجرونه، فٱنطلقَ يُزمْجِرُ ويزأرُ زئيراً تنشقُّ لَهُ ٱلمرائر، ويتوهَّمُ مَنْ يسمَعُهُ أنَّه ٱلرعدُ وراءَهُ ٱلصاعقة!

---

(١) يعسف: يظلم.
(٢) قتلهم صبراً: ظلماً دون ذنب.
(٣) طاش عقله: فقد عقله من الغضب.
(٤) مشغوفاً: مولعاً، محبّاً.
(٥) ضارياً: شديد العنف.
(٦) عارم الوحشية: في أقصى حالات التوحش.
(٧) هراساً: يحطم فريسته فيسحقها.
(٨) هرت الشدق: واسعه بشدّة.
(٩) هجهج بالسبع: صاح.

ثُمَّ ٱجتمعَ ٱلوحشُ في نفسِهِ وٱقشعرّ، ثُمَّ تمطّى[1] كَٱلمنجنيقِ يقذِفُ ٱلصخرة، فما بقيَ من أجَلِ ٱلشيخِ إلّا طرْفةُ عين؛ ورأيناهُ على ذلك ساكِناً مُطرِقاً لا ينظرُ إلى الأسدِ ولا يحفلُ[2] بِهِ، وما مِنَّا إلّا مَنْ كادَ ينهتكُ[3] حِجابُ قلبِهِ مِنَ ٱلفزعِ وٱلرعبِ وٱلإشفاقِ[4] على ٱلرجل.

ولم يَرُعْنا[5] إلا ذهولُ[6] الأسدِ عن وحشيَّته، فأقعى[7] على ذنبِهِ، ثُمَّ لصقَ بِٱلأرضِ هُنَيْهةً يفترِشُ ذِراعيه، ثُمَّ نهضَ نهضةً أخرى كأنَّهُ غيرُ ٱلأَسد، فمشى مترفِّقاً[8] ثقيلَ ٱلخطْوِ تُسمعُ لِمفاصلِهِ قعقعةٌ من شِدَّتِهِ وجَسامتِه[9]، وأقبلَ على ٱلشيخِ وطفِقَ يحتكُّ بِهِ ويلحظُهُ ويشمُّهُ كما يصنعُ ٱلكلبُ مَعَ صاحبِهِ الذي يأنسُ به، وكأنَّهُ يُعلِنُ أنَّ هذه ليسَتْ مصاوَلةً[10] بين ٱلرجلِ ٱلتقيِّ وَٱلأسد، ولكنَّها مُبارزةٌ بينَ إرادةِ ٱبْنِ طُولونَ وإرادةِ ٱللهِ!

وضربتْهُ روحُ ٱلشيخِ فلم يبقَ بيَنهُ وبينَ ٱلآدميّ عمل، ولم يكنْ منه بإزاءِ لحم ودم، فلو أكلَ ٱلضوءَ وٱلهَواءَ وٱلحجَرَ وٱلحديد، كانَ ذلك أقربَ وأيسرَ من أنْ يأكلَ هذا ٱلرجلَ ٱلمتمثِّلَ في روحانيَّتِهِ لا يُحِسُّ لِصورةِ ٱلأسدِ معنًى من معانيها ٱلفاتكة، ولا يَرَى فيهِ إلَّا حياةً خاضِعةً مسخَّرةً لِلْقوةِ ٱلعظمى ٱلتي هوَ مؤمِنٌ بها ومتوكِّلٌ عليها، كحياةِ ٱلدودةِ وٱلنملةِ وما دوَنها مِنَ ٱلهوامِّ وٱلذر!

ووردَ ٱلنورُ على هذا ٱلقلبِ ٱلمؤمنِ يكشفُ لَهُ عن قُرْبِ ٱلحقِّ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ، فهو ليسَ بين يدي ٱلأسدِ ولكنَّهُ هو والأسدُ بينَ يدي ٱللهِ، وكانَ مندمِجاً في يقين هذه الآية: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾!

ورأى ٱلأسدُ رجلاً هو خوفَ ٱللهِ، فخافَ منه، وكما خرجَ ٱلشيخُ من ذاتِهِ ومعانيها ٱلناقصة، خرجَ ٱلوحشُ من ذاتِهِ ومعانيها ٱلوحشيَّة؛ فليسَ في ٱلرجلِ خوفٌ ولا همٌّ ولا جزعٌ ولا تعلُّقٌ برغبة، ومن ذلك ليسَ في ٱلأسدِ فتكٌ ولا ضراوةٌ[11] ولا جوعٌ ولا تعلُّقٌ برغبة.

---

(١) تمطّى: تمدّد.
(٢) يحفل: يهتمّ.
(٣) ينتهك: يتمزّق.
(٤) الإشفاق: الخوف.
(٥) يرعنا: يدهشنا.
(٦) ذهول: ترك وحشيته ونسيانه لها.
(٧) أقعى: جلس على مؤخرته.
(٨) مترفقاً: متمهلاً.
(٩) جسامته: ضخامته.
(١٠) مصاولة: مجاولة.
(١١) ضراوة: شدّة قتل.

ونسيَ ٱلشيخُ نفسَهُ فكأنَّما رآهُ ٱلأسدُ ميتاً ولم يجدْ فيهِ (أنا) ٱلتي يأكُلها، ولو أنَّ خطرةً من هَمِّ ٱلدنيا خطرَتْ على قلبِهِ في تلك ٱلساعة أوِ ٱختلجَتْ في نفسِهِ خالِجةٌ مِنَ ٱلشَّكِّ، لفاحَتْ رائحةُ لَحمِهِ في خياشيمِ ٱلأسدِ فتمزَّقَ في أنيابِهِ ومخالبِه.

* * *

قال: وَانصَرفْنا عنِ ٱلنظرِ في ٱلسبع إلى ٱلنظرِ في وجهِ ٱلشيخ، فإذا هو ساهمٌ[1] مفكِّر، ثُمَّ رفعوهُ وجعلَ كلٌّ مِنَّا يظنُّ ظَنّاً في تفكيرِه، فمِنْ قائلٍ إنَّهُ الخوفُ أذهلَهُ عن نفسِه، وقائلٍ إنَّهُ الانصرافُ بعقلِهِ إلى ٱلموت، وثالثٍ يقولُ إنَّهُ سكونُ ٱلفكرةِ لِمنعِ ٱلحركةِ عنِ ٱلجَسمِ فلا يضطرب، وزعمَ جماعةٌ أنَّ هذه حالةٌ مِنَ ٱلاستغراقِ يسحرُ بها ٱلأسد؛ وأكثَرْنا في ذلك وتجارَيْنا فيه، حتى سألَهُ ٱبنُ طُولون: ما الذي كانَ في قلبِكَ وفيمَ كنْتُ تفكر؟

فقالَ الشيخ: لم يكنْ عليَّ بأس، وإنَّما كنْتُ أفكُر في لُعابِ ٱلأسد، أهو طاهرٌ أمْ نجِس...

---

(١) ساهم: مطرق مفكر.

أمراء للبيع

قالَ ٱلشيخُ تاجُ ٱلدينِ محمدُ بْنُ عليَ المُلقَّبُ طُويْرَ ٱلليل، أحدُ أئمةِ ٱلفقهاءِ بِٱلمدرسةِ ٱلظاهريَّةِ بِٱلقاهرة:

كان شيخُنا ٱلإمامُ ٱلعظيمُ شِيخُ ٱلإسلام تقيُّ ٱلدينِ بْنُ مجدِ ٱلدينِ بْنِ دقيقِ ٱلعيدِ لا يُخاطبُ ٱلسلطانَ إِلَّا بقولِه: (يا إنسانُ)! فما يخشاهُ ولا يتعبَّدُ[1] لَهُ ولا يَنْحَلُهُ[2] ألقابَ ٱلجبروتِ وٱلعَظمةِ ولا يُزيِّنُهُ بِٱلنِّفاقِ ولا يُداجيهِ كما يصنعُ غيرُهُ مِنَ ٱلعلماء؛ وكانَ هذا عجيباً؛ غيرَ أنَّ تمامَ ٱلعجبِ أنَّ ٱلشيخَ لم يكنْ يُخاطِبُ أحداً قطُّ من عامَّةِ ٱلناس إِلَّا بهذا ٱللفظ عينِهِ (يا إنسانُ)؛ فما يعلو بِٱلسلطانِ وَٱلأمراءِ ولا ينزِلُ بِٱلضعفاءِ وٱلمساكين، ولا يرى أحسنَ ما في هؤلاءِ وهؤلاءِ إِلَّا ٱلحقيقةَ ٱلإنسانيَّة!

ثُمَّ كانَ لا يُعظِّمُ في ٱلخِطابِ إِلَّا أئمةَ ٱلفقهاءِ فإذا خاطبَ منهم أحداً قَالَ لَه: (يا فقيه)؛ على أنَّهُ لم يكنْ يسمحُ بهذا إِلَّا لِمثلِ شيخِ ٱلإسلام نجم ٱلدينِ ٱبنِ ٱلرقعة، ثُمَّ يخصُّ علاء ٱلدينِ بْنَ ٱلباجي وحدَهُ بقولِه: (يا إمام)؛ إِذْ كانَ آيةً من آياتِ ٱللَّهِ في صِناعةِ ٱلحُجَّة، لا يكادُ يقطعُهُ[3] أحدٌ في ٱلمناظرةِ وٱلمُباحثة؛ فهو كَٱلبرهان. إجلالُهُ إجلالُ ٱلحقِ، لِأنَّ فيهِ ٱلمعنى وتثبيتَ ٱلمعنى.

وقلْتُ له يوماً: يا سيدي، أراكَ تُخاطبُ ٱلسلطانَ بِخطابِ ٱلعامَّة؛ فإنْ علوْتَ قلْت: (يا إنسان) وإن نزلْتَ قلْت: يا إنسان؛ أفلا يُسخطُهُ هذا منك وقد تذوَّقَ حلاوةَ أَلفاظِ ٱلطاعةِ وٱلخضوع، وخصَّهُ ٱلنِّفاقُ بكلماتٍ هي ظِلُّ ٱلكلماتِ ٱلتي يُوصفُ ٱللَّهُ بها، ثُمَّ جعلَهُ المُلكُ إنساناً بِذاتِهِ في وجودِ ذاتِه، حتى أصبحَ من غيرِهِ كَٱلحبلِ وٱلحصاة: يستويانِ في ٱلعنصرِ ويتباينانِ في ٱلقدْر، وأقلُّهُ مهما قلَّ هو أكثرُها مهما عظُمَت، ووجودُهُ شيءٌ ووجودُها شيءٌ آخر؟

---

(١) يتعبّد: يستذلّ له.

(٢) ينحله: يعطيه.

(٣) يقطعه: يفحمه ويسكته.

فتبسَّمَ ٱلشيخُ وقالَ: يا ولدي، إيش هذا؟ إنّنا نفوسُ ألفاظ، وٱلكلمةُ من قائلِها هي بمعناها في نفسِهِ لا بمعناها في نفسِها؛ فما يحسنُ بحاملِ ٱلشريعةِ أنْ ينطِقَ بكلام يردُّهُ ٱلشرعُ عليه؛ ولو نافقَ ٱلدينُ لَبطلَ أنْ يكونَ دِيناً، ولو نافقَ ٱلعالمُ ٱلدينيُّ لَكانَ كلُّ منافقٍ أشرفَ منه؛ فلطخةٌ في ٱلثوبِ ٱلأبيضِ ليَستْ كَلَطخةٍ في ٱلثوبِ ٱلأسود، وَٱلمنافقُ رجلٌ مغطًى في حياتِه، ولكنَّ عالم ٱلدينِ رجلٌ مكشوفٌ في حياتِهِ لا مغطًى؛ فهو لِلهدايةِ لا لِلتلبيس، وفيهِ معاني ٱلنورِ لا معاني ٱلظلمة؛ وذاك يتَّصلُ بِٱلدينِ من ناحيةِ ٱلعمل، فإذا نافقَ فقدْ كذب؛ وٱلعالمُ يتَّصلُ بِٱلدين من ناحيةِ ٱلعملِ وناحيةِ ٱلتبيّين، فإذا نافقَ فقدْ كذبَ وغشَّ وخان.

وما معنى ٱلعلماءِ بِٱلشرعِ إلَّا أنَّهُمُ ٱمتدادٌ لِعملِ ٱلنبَّوةِ في ٱلناسِ دهْراً بعدَ دهْر، ينطقونَ بكلمتِها، ويقومونَ بِحُجَّتِها، ويأخذونَ من أخلاقِها كما تأخذُ ٱلمرآةُ ٱلنور: تحويهِ في نفسِها وتُلقيهِ على غيرِها، فهي أداةٌ لإظهارِهِ وإظهارِ جمالِهِ معاً.

أتدري يا ولدي ما ٱلفرقُ بينَ علماءِ ٱلحقِّ وعلماءِ ٱلسُّوءِ وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلف؟ إنَّ أولئكَ في أخلاقِهِمْ كَٱللوحِ مِنَ ٱلبلور: يُظهرُ ٱلنورُ نفسَهُ فيهِ ويظهرُ حقيقتَهُ ٱلبلورية؛ وهؤلاءِ بأخلاقِهِم كَٱللوحِ مِنَ ٱلخشبِ يُظهِرُ ٱلنورُ حقيقتهُ ٱلخشبيَّةَ لا غير!

وعالمُ ٱلسوءِ يُفكرُ في كتبِ ٱلشريعةِ وحدَها؛ فيسهلُ عليهِ أنْ يتأوَّلَ ويحتالَ ويُغيِّرَ ويُبدِّلَ ويُظهِرَ ويُخفي؛ ولكنَّ ٱلعالِمَ ٱلحقَّ يُفكرُ مع كتبِ ٱلشريعةِ في صاحبِ ٱلشريعة، فهو معَهُ في كلِّ حالةٍ يسألُهُ ماذا تفعلُ وماذا تقول؟

وٱلرجلُ ٱلدينيُّ لا تتحوَّلُ أخلاقُهُ ولا تتفاوتُ ولا يجيءُ كلَّ يومٍ من حوادثِ ٱليوم، فهو بأخلاقِهِ كلِّها، لا يكونُ مرةً ببعضِها ومرةً ببعضِها، ولن تراهُ معَ ذوي ٱلسلطانِ وأهلِ ٱلحُكْم وٱلنعمةِ كعالمِ ٱلسوءِ هذا ٱلذي لو نطقَتْ أفعالُهُ لقالَتْ لِلَّهِ بِلسانِهِ: هم يُعطونني ٱلدراهِمَ وٱلدنانيرَ فأين دراهِمُك أنت ودنانيرُك؟

إنَّ ٱلدينارَ يا ولدي إذا كانَ صحيحاً في أحدِ وجهيهِ دونَ ٱلآخر، أو في بعضِهِ دونَ بعضِه، فهو زائفٌ كلُّه؛ وأهلُ ٱلحُكْمِ وٱلجاهِ حينَ يتعاملون مَعَ هؤلاءِ يتعاملونَ مع قوَّةِ ٱلهضْمِ فيهم. . . فينزلون بذلك منزلةَ ٱلبهائم: تقدِّمُ أعمالها لِتأخذَ لِبطونِها: وٱلبطنُ ٱلآكلُ في ٱلعالمِ السوءِ يأكلُ دِينَ ٱلعالم فيما يأكلُه. . .

فإذا رأيْتَ لِعلماءِ ٱلسوءِ وَقاراً فهوَ ٱلبَلادة، أو رِقَّةً فسمِّها ٱلضعف، أو

مُحَاسنةَ فَقلْ إنَّها ٱلنفاق، أو سكوتاً عنِ ٱلظلمِ فتلك رِشوةٌ يأكلون بها!

* * *

قالَ ٱلإمام: وما رأيْتُ مثلَ شيخي سلطانِ ٱلعلماءِ عزِّ ٱلدين بْنِ عبد ٱلسلام فلقد كانَ ٱلأمرُ بِٱلمعروفِ وَٱلنَّهيُ عنِ ٱلمنكرِ شيئاً تصنعُهُ طبيعتُهُ كما يصنعُ جِسمُهُ ٱلحياة، فلا يُبالي هلكَ فيهِ أو عاش، إذْ هو في ٱلدم كَٱلقلب: لا تنالُهُ يدُ صاحبِهِ ولا يدُ غيره؛ ولم يتعلَّقْ بمالٍ ولا جاهٍ ولا ترفٍ ولا نعيم، فكانَ تَجرّدُهُ من أوهام ٱلقوَّةِ لا تَغلب؛ وٱنتزعَ خوفَ ٱلدنيا من قلبِهِ فعمرتْهُ ٱلروحُ ٱلسماويَّةُ التي تُخيفُ كلَّ شيءٍ ولا تَخاف؛ وكانَ بهذهِ ٱلروحِ كأنَّهُ تحويلٌ وتبديلٌ في طِباعِ ٱلناس، حتى قالَ ٱلملكُ الظاهرُ بيبرسُ وقد رأى كثرةَ الخَلْقِ في جنازتِهِ حينَ مرَّتْ تحتَ ٱلقلعة: ٱلآنَ ٱستقرَّ أمري في ٱلمُلْكِ فيّ، فلو أنَّ هذا ٱلشيخَ دعا الناسَ إلى ٱلخروجِ عليَّ لا نتزعَ مِنِّي ٱلمملكة!

وكانَ سُلطانُهُ في دمشقَ ٱلصالحَ إسماعيل، فٱستنجدَ[1] بِٱلإفرنجِ على ٱلملكِ نجمِ ٱلدينِ أيوبَ سلطانِ مِصر؛ فغضِبَ ٱلشيخُ وأسقطَ ٱسمَ ٱلصالحِ مِنَ ٱلخُطْبةِ وخرجَ مُهاجراً، فأتْبعَهُ ٱلصالحُ بعضَ خواصِّهِ يتلطَّفُ[2] بِهِ ويقولُ لَه: ما بينَكَ وبينَ أنْ تعودَ إلى مناصبك وما كنْتَ عليهِ وأكثرَ مِمَّا كنتَ عليهِ إلَّا أنْ تتخشَّعَ[3] لِلسلطانِ وتُقبِّلَ يدَه. فقالَ لَهُ ٱلشيخ: يا مسكين! أنا لا أرضى أنْ يقبِّلَ ٱلسلطانُ يدي! أنتم في وادٍ وأنا واد!

ثُمَّ قدِمَ إلى مصرَ في سنة ٦٣٩، فأقبلَ عليهِ ٱلسلطانُ نجمُ ٱلدينِ أيوبُ وتَحَفَّى[4] بِهِ وولَّاهُ خَطابةَ مِصرَ وقَضاءَها، وكانَ أيوبُ مَلِكاً شديدَ ٱلبأْس، لا يَجسُر[5] أحدٌ أَنْ يُخاطبَهُ إلَّا مُجيباً، ولا يتكلَّمُ أحدٌ بِحضرتِهِ ٱبتداء؛ وقد جمَع مِنَ ٱلمماليكِ ٱلتركِ ما لم يجتمعْ مثلُهُ لِغيرِهِ من أهلِ بيتِه، حتى كانَ أكثرُ أمراءِ عسكرِهِ منهم، وهم معروفون بِٱلخشونةِ وٱلبأْسِ وٱلفظاظةِ وٱلاستهانةِ بكلِّ أمر؛ فلمَّا كانَ يومُ ٱلعيدِ صَعِدَ إليهِ ٱلشيخُ وهو يعرضُ ٱلجندَ ويُظهِرُ مُلكَهُ وسطوتَهُ والأمراءُ يُقبِّلُون الأرضَ بينَ يديه؛ فناداهُ ٱلشيخُ بأعلى صوتِهِ لِيسمعَ هذا ٱلملأُ ٱلعظيم: يا أيوب! ثُمَّ

---

(١) استنجد: طلب المعونة والنجدة.
(٢) يتلطّف: يستميل.
(٣) تتخشّع: تخضع.
(٤) تحفى: استقبل بحفاوة.
(٥) لا يجسر: لا يجرؤ.

أَمَرهُ بإبطالِ منكرٍ انتهى إلى عِلْمِهِ في حانةٍ تُباعُ فيها الخمر؛ فرسمَ السلطانُ لِوَقتِهِ بإبطالِ الحانةِ واعتذرَ إليه.

فحدَّثني الباجيُّ قالَ: سألْتُ الشيخَ بعدَ رجوعِهِ مِنَ القلعةِ وقد شاعَ الخبر، فقلْت: يا سيدي، كيف كانَتِ الحال؟

قال: يا بُنيّ، رأيْتُهُ في تلك العظمةِ فخشيْتُ على نفسِهِ أنْ يدخلَها الغرورُ فتبطرَهُ[1] فكانَ ما باديْتُهُ بِه.

قلْت: أمَا خِفْتَه؟

قال: يا بُنيّ، استحضرْتُ هيبةَ الله ـ تعالى ـ فكانَ السلطانُ أمامي كالقِطِّ ولو أنَّ حاجةً مِنَ الدنيا كانَتْ في نفسي لَرَأَيْتُهُ الدنيا كلَّها؛ بيدَ أنّي نظرْتُ بالآخرةِ فامتدَّتْ عيني فيهِ إلى غيرِ المنظورِ لِلناس، فلا عظمةَ ولا سُلْطانَ ولا بَقاءَ ولا دنيا، بلْ هو لا شيءَ في صورةِ شيء.

نحن ـ يا ولدي ـ معَ هؤلاءِ كَالمعنى الذي يُصحِّحُ معنًى آخر، فإذا أمرْناهم، فالذي يأمرُهم فينا هوَ الشرعُ لا الإنسان: وهم قومٌ يرونَ لأنفسِهِمُ الحقَّ في إسكاتِ الكلمةِ الصحيحةِ أو طمسِها أو تحريفِها؛ فما بدٌّ أنْ يُقابَلوا مِنَ العلماءِ والصالحين بِمَنْ يَرَوْنَ لأنفسِهِمُ الحقَّ في إنطاقِ هذهِ الكلمةِ وبَيانِها وتَوضيحِها؛ فإذا كانَ ذلك فهٰهنا المعنى بإزاءِ المعنى؛ فلا خوفَ ولا مُبالاةَ ولا شأنَ لِلْحياةِ وَالموت.

وإنَّما الشرُّ كلُّ الشرِّ أنْ يتقدمَ إليهِمُ العالمُ لِحُظوظِ نفسِهِ ومَنافِعِها، فيكونَ باطلاً مزوَّراً في صورةِ الحقِّ؛ وهٰهنا تكونُ الذاتُ معَ الذات، فيخشعُ الضعفُ أمامَ القوَّة، ويذلُّ الفقرُ بينَ يدي الغِنى، وترجو الحياةُ لِنفسِها وتخشى على نفسِها؛ فإذا العالمُ مِنَ السلطانِ كَالخشبةِ الباليةِ النخِرةِ حاولَتْ أنْ تُقارِعَ[2] السيف!

كلَّا ـ يا ولدي ـ! إنَّ السلطانَ وَالحكَّامَ أدواتٌ يجبُ تعيينُ عملِها قبلَ إقامتِها، فإذا تفكَّكَتْ وَاحتاجَتْ إلى مساميرَ دُقَتْ فيها المسامير؛ وإذا انفتقَ الثوبُ فمِنْ أين لِلإبرةِ أنْ تسلُكَ بالخيطِ الذي فيها إذا هي لم تخزْه؟

---

(١) تبطره: تغطيه.

(٢) تقارع: تصارع.

إنَّ ٱلعالمَ ٱلحقَّ كالمسمار؛ إذا أوجدَ ٱلمسمارُ لَذَّاتِهِ دونَ عملِهِ كَفرَتْ بِهِ كلُّ خشبة . . .

* * *

قالَ ٱلإمامُ تقي ٱلدين: وطغى[1] ٱلأمراءُ مِنَ ٱلمماليكِ وثُقلَتْ وطأتُهم على ٱلناس؛ وحيثما وُجِدَتِ ٱلقوَّةُ ٱلمسلَّطةُ ٱلمستبدَّةُ جَعَلَتْ طُغيانَها وٱستبدادَها أدباً وشريعة؛ إلَّا أنْ تقومَ بإزائِها قوَّةٌ معنويَّةٌ أقوى منها؛ ففكَّرَ شيخُنا في هؤلاءِ ٱلأمراءِ وقال: إنَّ خِداعَ ٱلقوَّةِ ٱلكاذبةِ لِشعورِ ٱلناسِ بابٌ مِنَ ٱلفساد؛ إذْ يحسبون كلَّ حَسَنٍ منها هو ٱلحسَن، وإنْ كانَ قبيحاً في ذاتِهِ ولا أقبَحَ منه؛ ويَرْونَ كلَّ قبيحٍ عندَها هوَ ٱلقبيح، وإنْ كَانَ حَسناً ولا أحسنَ منه.

وقال: ما معنى ٱلإمارةِ وٱلأمراء؟ وإنَّما قوَّةُ ٱلكلِّ ٱلكبيرِ هي عِمادُ ٱلفردِ ٱلكبير، فلكِلِّ جُزْءٍ من هذا ٱلكلِّ حقُّهُ وعملُه؛ وكانَ ينبغي أنْ تكونَ هذه ٱلإمارةُ أعمالاً نافعةً قد كبُرَتْ وعظُمَتْ فٱستحقَّتْ هذا ٱللقبَ بِطبيعةٍ فيها كَطبيعةِ أنَّ ٱلعشرةَ أكثرُ مِنَ ٱلواحد، لا أهواءَ وشهواتٍ ورذائلَ ومفاسدَ تَتَّخِذُ لقبَها في ٱلضعفاءِ بطبيعةٍ كطبيعةِ أنَّ ٱلوحشَ مفترِس.

وفكَّرَ ٱلشيخُ فهداهُ تفكيرُهُ إلى أنَّ هؤلاءِ ٱلأمراءَ مماليك، فحُكمُ ٱلرِّقِّ مُسْتصْحَبٌ عليهم لِبيتِ مالِ ٱلمسلمين، ويجبُ شرْعاً بيعُهُمْ كما يُباعُ ٱلرقيق!

وبلغَهُم ذلك فجزعوا لَهُ وعظُمَ فيهِ ٱلخَطْبُ عليهم؛ ثُمَّ ٱحتدمَ[2] ٱلأمراءُ وأيقنوا أنَّهم بِإزاءِ ٱلشرْعِ لا بإزاءِ ٱلقاضي ابنِ عبدِ ٱلسلام.

وأفتى ٱلشيخُ أنَّهُ لا يصحُّ لهم بيعٌ ولا شِراءٌ ولا زواجٌ ولا طلاقٌ ولا مُعاملة، وأنَّهُ لا يصححُ لهم شيئاً من هذا حتى يُبَاعوا ويحصلَ عِتقُهُم بطريقٍ شرعيّ!

ثُمَّ جعلوا يتسببونَ[3] إلى رِضاه، ويتحمَّلونَ عليهِ بٱلشفاعات، وهو مُصِرٌّ لا يعبأُ بِجلالةِ أخطارِهم، ولا يخشى ٱتِّسامَهُ بِعداوتِهم، فرفعوا ٱلأمرَ إلى ٱلسلطان، فأرسلَ إليه فلم يتحوَّلْ عن رأيِهِ وحُكمِهِ.

وٱستشنعَ[4] ٱلسلطانُ فِعْلَهُ وَحنِقَ[5] عليهِ وأنكرَ منه دخولَهُ فيما لا يعنيه،

---

(١) طغى: تجبّر.

(٢) احتدم: غضب.

(٣) يتسببون: يسعَوْن.

(٤) استشنع: استقبح.

(٥) حنق: حقد.

وقبَّحَ عملَهُ وسياستَهُ وما تطاولَ إليه، وهو رجلٌ ليسَ لَهُ إلا نفسُهُ وما تكادُ تَصِلُ يدُهُ إلى ما يُقيمُهُ وهم وافرونَ وفي أيديهِمُ ٱلقوَّةُ ولهمُ ٱلأمرُ وٱلنهيُ.

وٱنتهى ذلك إلى ٱلشيخِ ٱلإمامِ فغَضِبَ ولم يُبالِ بِٱلسلطانِ ولا كبُرَ عليهِ إعراضُه[1]، وأزمعَ ٱلهِجْرةَ من مِصر، فٱكترى حميراً أركبَ أهلَهُ وولدَهُ عليها ومشى هو خلفَهُم يُريدُ ٱلخروجَ إلى الشام؛ فلم يبعُدْ إلَّا قليلاً نحوَ نصفِ بريدٍ حتى طارَ ٱلخبرُ في ٱلقاهرةِ ففزعَ الناسُ وتبعُوه لا يتخلَّفُ منهم رجلٌ ولا ٱمرأةٌ ولا صَبِيّ، وصارَ فيهمُ ٱلعلماءُ وٱلصلحاءُ وٱلتجارُ وٱلمحترفون[2] كأَنَّ خروجَهُ خُروجُ نبيٍّ من بينِ ٱلمؤمنين بِه؛ وَٱستعَلنَتْ قوَّةُ ٱلشرعِ في مظهرِها ٱلحاكمِ ٱلآمرِ من هذهِ ٱلجماهير، فقيلَ لِلسلطان: إنْ ذهبَ هذا ٱلرجلُ ذَهبَ مُلكُك!

فٱرتاعَ[3] ٱلسلطان، فركبَ بِنفسِهِ ولَحِقَ بٱلشيخِ يترضَّاهُ ويستدفعُ بِهِ غضبَ ٱلأُمَّة، وأطلقَ لَهُ أنْ يأمُرَ بِما شاء، وقد أَيقنَ أنَّهُ ليسَ رجلَ ٱلدينارِ وٱلدرهمِ وٱلعيشِ وٱلجاهِ ولُبْسِ طيلسانِ ٱلعلماءِ كما يلصقُ ٱلريشُ على حجرٍ في صورةِ ٱلطائر.

ورجعَ ٱلشيخُ وأمَرَ أنْ يُعقدَ ٱلمجلسُ ويُجمعَ ٱلأمراءُ ويُنادى عليهم لِلْمساومةِ[4] في بيعِهِم، وضربَ لذلك أجلاً بعدَ أنْ يكونَ ٱلأمرُ قد تَعالَمَهُ كُلُّ ٱلقاهرة، لِيتهيأَ مَنْ ينهيأُ لِلشراءِ وٱلسَّومِ في هذا ٱلرقيقِ الغالي!

* * *

وكانَ مِنَ ٱلأمراءِ ٱلمماليكِ نائبُ ٱلسلطنة، فبعثَ إلى الشيخِ يُلاطِفُهُ ويسترضيه، فلمْ يعبأ ٱلشيخُ بِهِ؛ فهاجَ هائجَهُ وقال: كيف يبيعُنا هذا ٱلشيخُ ويُنادي علينا ويُنزلُنا منزلةَ ٱلعبيدِ ويُفسدُ محلَّنا مِنَ ٱلناس ويبتذِلُ أقدارنَا ونحن ملوكُ ٱلأرض؟ وما ٱلذي يَفقدُ هذا ٱلشيخُ مِنَ ٱلدنيا فيُدركَ ما نحن فيه؟ إنَّهُ يفقدُ ما لا يملك، ويفقدُ غيرَ ٱلموجود، فلا جَرَمَ لا يُبالي ولا يرجعُ عن رأيِهِ ما دامَ هذا ٱلرأيُ لا يمرُّ في منافعِهِ، ولا في شهواتِهِ ولا في أطماعِهِ، كَٱلذين نراهم من علماءِ ٱلدنيا؛ أمَا ـ واللَّهِ ـ لأَضربنَّهُ بسيفي هذا، فما يموتُ رأيُهُ وهو حيّ.

ثُمَّ رَكِبَ ٱلنائبُ في عسكرِه وجاءَ إلى دارِ ٱلشيخِ وٱستلَّ سيفَهُ وطرقَ ٱلباب،

---

(1) إعراضه: بعده عنه.

(2) المحترفون: أصحاب الحرف.

(3) ارتاع: خاف.

(4) المساومة: المناداة بالمزاد.

فخرجَ ٱبنُهُ عبدُ ٱللطيف ورأى ما رأى، فٱنقلبَ إلى أبيهِ وقالَ لَه: انجُ بنفسِك، إنَّهُ ٱلموت، وإنَّهُ ٱلسيف، وإنَّه وإنَّه...

فما ٱكترَثَ[1] ٱلشيخُ لِذلك ولا جَزِعَ ولا تغيَّرَ، بلْ قالَ لَهُ: يا ولدي! أبوك أقلُّ من أنْ يُقْتَلَ في سبيلِ ٱلله!

وخرجَ لا يعرفُ ٱلحياةَ ولا ٱلموت، فليسَ فيهِ ٱلإنسانيُّ بلِ ٱلإلهيّ؛ ونظرَ إلى نائبِ ٱلسلطنةِ وفي يدِهِ ٱلسيف، فٱنطلقَتْ أشعةُ عينيهِ في أعصابِ هذه اليدِ فيَبِسَتْ ووقعَ ٱلسيفُ منها.

وتناولَهُ بروحِهِ ٱلقويَّة، فٱضطربَ ٱلرجلُ وتزلزلَ وكأنَّما تكسَّرَ من أعصابِهِ فهو يُرعَدُ ولا يستقرُّ ولا يهدأ.

وأخذَ ٱلنائبُ يبكي ويسألُ ٱلشيخَ أنْ يدعُوَ لَه؛ ثُمَّ قال: يا سيدي، ما تصنعُ بنا؟

قالَ ٱلشيخ: أُنادي عليكم وأبيعُكم!

ـ وفيم تصرفُ ثمنَنا؟

ـ في مصالحِ ٱلمسلمين.

ـ ومَنْ يقبضُه؟

ـ أنا.

وكانَ ٱلشرعُ هو ٱلذي يقولُ (أنا)، فتمَّ لِلشيخِ ما أراد، ونادى على ٱلأمراءِ واحداً واحداً، وٱشتطَّ[2] في ثمنِهم، لا يبيعُ ٱلواحدَ منهم حتى يبلغَ ٱلثمنُ آخرَ ما يبلغ؛ وكانَ كُلُّ أميرٍ قد أعدَّ من شيعتِهِ جماعةً يستامونَهُ لِيشتروه...

ودُمغَ[3] ٱلظُّلْمُ وٱلنِّفاقُ وٱلطغيانُ وٱلتكبرُ وٱلاستطالةُ على ٱلناسِ بهذهِ ٱلكلمةِ ٱلتي أعلنَها ٱلشرع:

أمراءُ لِلْبيع!. أمراءُ لِلْبيع...

---

(١) اكترث: اهتمّ.

(٢) اشتطّ: بالغ.

(٣) دُمِغ: طبع.

العجوزان

١

قال محدِّثي: التقى هذانِ ٱلشيخانِ بعدَ فِراقِ أربعينَ سنة، وكانَتْ مَثَابتُهما[١] ذلك ٱلمكانَ ٱلقائمَ على شاطىءِ ٱلبحرِ في إسكندريةَ في جِهةِ كذا؛ وهما صديقانِ كانا في صدرِ أيَّامِهما ـ حينَ كانَتْ لهما أيام . . . ـ رَجُلي حكومةٍ يعملانِ في ديوانٍ واحد، وكانا في عيشِهما أخَوَيْ جِدٍّ وهزْل[٢]، وفضائلَ ورذائل، يجتمعانِ دائماً ٱجتماعَ ٱلسؤالِ وَٱلجواب، فلا تنقطِعُ وسيلةُ أحدِهما مِنَ ٱلآخر؛ وكأَنَّ بينَهما في ٱلحياةِ قرابةَ ٱلابتسامةِ مِنَ ٱلدمعةِ وَٱلدمعةِ مِنَ ٱلدمعة.

ولبثا كذلك ما شاءَ ٱلله، ثُمَّ تبَّددا وأخذَتْهُما ٱلآفاقُ كدأْبِ «ٱلموظفين»: ينتظِمون وينتثِرون، ولا يزالُ أحدُهم ترفعُهُ أرضٌ وتخفضُهُ أخرى، وكأَنَّ «ٱلموظف» من تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾!

وٱفترقَ ٱلصديقانِ على مضض[٣]، وكثيراً ما يكونُ أمرُ ٱلحكومةِ بنقلِ بعضِ «موظفيها» هو أمرَها بتمزيقِ بعضِهم من بعض؛ ثُمَّ تصرَّفَتْ بِهِما ٱلدنيا فذهبا على طرفي طريقٍ لا يلتقيان، وأصبحَ كِلاهما مِنَ ٱلآخرِ كيومِهِ ٱلذي مضى: يُحفَظُ ولا يُري.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وكنْتَ مَعَ ٱلأستاذُ (م)، وهو رجلٌ في ٱلسبعينَ من عمرِه، غيرَ أنَّهُ يقولُ عن نفسِهِ إنَّهُ شابٌ لن يبلغَ مِنَ ٱلعمرِ إلَّا سبعينَ سنة . . . ويزعمُ أنَّ في جسمِهِ ٱلناموسَ ٱلأخضرَ ٱلذي يُحيي ٱلشجرةَ حياةً واحدةً إلى ٱلآخرِ.

رجلٌ فارِهٌ[٤]، متأنِّق، فاخرُ ٱلبِزَّة، جميلُ ٱلسَّمْت، فارعُ ٱلشَّطاط[٥]

---

(١) مثابتهما: مكان لقائهما.
(٢) هزل: مزاح.
(٣) مضض: كره، بالرغم عنهما.
(٤) فاره: ممتشق القامة.
(٥) فارع الشطط: ممشوق القامة.

كَٱلمصبوبِ في قالبٍ لا عِوَجَ فيهِ ولا ٱنحناء، مجتمعٌ كلُّهُ لم يذهبْ منه شيء، قد حفظتْهُ أساليبُ ٱلقوَّةِ ٱلتي يُعانيها في رياضتِهِ ٱليوميَّة؛ وهو منذُ كانَ في آنفتِهِ[1] وشبابِهِ لا يمشي إلَّا مستأخِرَ ٱلصدرِ[2] مشدودَ ٱلظهر، مرتَفِعَ ٱلعنق، مسنداً قفاهُ إلى طوقِهِ؛ وبذلك شبَّ وشابَ على ٱستواءٍ واحد، وكلَّما سُئِلَ عن سرِّ قامتِهِ وعُودِهِ لم يزِدْ على قولِه: أنَّ هذا من عملِ إسنادِ ٱلقفا[3].

وهو دائماً عَطِرٌ عَبِق، ثُمَّ لا يمسُّ إلَّا عِطْراً واحداً لا يُغيِّرُه، يرى أنَّ هذا ٱلطِّيْبَ يحفظُ خَيالَ ٱلصَّبيِّ، وأنَّهُ يُبقي لِلأيام رائحتَها.

ولَهُ فلسفةٌ من حِسِّهِ لا من عقلِه، ولِفلسفتِهِ قواعدُ وأصولٌ ثابتةٌ لا تتغيَّر، ومن بعضِ قواعدِها ٱلزهر، ومن بعضِها ٱلموسيقى، ومن بعضِها ٱلصلاةُ أيضاً؛ وكلُّ تلك هي عندَهُ قواعدُ لِحفظِ ٱلشباب. ومن فلسفتِهِ أنَّ مبادىءَ ٱلشباب وعاداتِهِ إذا هيَ لم تتغيَّرِ ٱتصلَ ٱلشبابُ فيها وٱطَّردَ[4] في ٱلروح، فتكونُ من ذلك قوَّةٌ تحرسُ قوَّةَ ٱللحمِ وَٱلدم، وتُمسِكُ على ٱلجسمِ حالتَهُ ٱلنفسيَّةَ ٱلأولى.

وهو يزيدُ في حِكمةِ ٱلصلاةِ فِكرةَ رياضيَّةَ عمليَّةَ لم ينتبهْ إليها أحد، هي رياضةُ ٱلبطنِ وَٱلأَمْعاءِ بِٱلركوعِ وٱلسجودِ وٱلقِيام؛ ويقولُ إنَّ ثروةَ ٱلصلاةِ تُكْنَزُ في صندوقين: أحدُهما ٱلروحُ لِمَا بعدَ ٱلموت، وٱلآخرُ ٱلبطنُ لِمَا قبلَ ٱلموت؛ ويرى أنَّ ٱلإسلامَ لم يفرضْ صلاةَ ٱلصبحِ قبلَ ٱلشمسِ إلَّا ليجعلَ ٱلفجرَ ينصبُّ في ٱلروحِ كلَّ يوم.

* * *

قالَ ٱلمحدّث: وبينما نحنُ جالسانِ مرّ بنا شيخٌ أعجفُ[5] مهزولٌ مَوْهونٌ في جِسمِهِ، يَدْلُفُ[6] متقاصِرَ ٱلخطْوِ كأَنَّ حِمْلَ ٱلسنينَ على ظهرِه، مُرْعشٌ[7] من ٱلكُبْرَ، مستقدِمُ ٱلصدرِ منحنٍ يتوكَّأُ على عصاً، ويدلُّ ٱنحناؤُهُ على أنَّ عمْرَهُ قدِ ٱعوجَّ أيضاً، وهو يبدو في ضَعفِهِ وهُزالِهِ كأنَّ ثِيابَهُ مُلِئَتْ عِظاماً لا إنساناً، وكأنَّها ما خِيْطَتْ إلَّا لِتمسِكَ عظماً على عظم...

---

(١) آنفته: سالف أيامه.

(٢) مستأخر الصدر: بارز الصدر دلالة على الشباب وتفتحه.

(٣) إسناد القفا: كناية عن انتصاب القامة.

(٤) اطرد: استمرّ.

(٥) أعجف: هزيل جفَّت عروقه.

(٦) يدلف: يمشي.

(٧) مرعش: مرتجف.

قال: فحملقَ[1] إليهِ (م) ثُمَّ صاحَ: رِينا! رِينا. فٱلتفتَ ٱلعجوز، وما كادَ يأخذُنا بَصَرُهُ حتى ٱنفتلَ إلينا وأقبلَ ضاحكاً يقول: أوَّه!. رِيت، رِيت!

ونهض (م) فٱحتضَنهُ وتلازما طويلاً، وجعلَ رأساهما يدورانِ ويتطوَّحان، وكلاهما يُقبِّلُ صاحبَهُ قُبَلاً ظامئةً لا عهدَ لي بِمثلِها في صديقين، حتى يتخيَّلُ إليَّ أنَّهما لا يتعانقانِ ولا يتلاثمان، ولكنَّ بينَهما فكرةً يعتنقانِها ويقبلانِها معاً...

وقلْت: ما هذا أيُّها ٱلعجوزان؟

فضحكَ (م) وقال: هذا صديقي ٱلقديمُ (ن)، تركْتُهُ منذُ أربعينَ سنةً معجزةً من معجزاتِ ٱلشبابِ، فها هو ذا معجزةٌ أخرى من معجزاتِ ٱلهرم، ولم يبقَ منه كاملاً إلَّا اسمُهُ...

ثُمَّ ٱلتفتَ إليه وقال: كيف أنت يا رينا؟

قالَ ٱلعجوزُ (ن): لقد أصبحْتُ كما ترى: زادَ ٱلعمرُ في رجليَّ رجلاً من هذه ٱلعصا. ورجعَ مصدرُ ٱلحياةِ فِيَّ مصدراً لِلآلامِ وَٱلأوجاعِ ودخلَتْ في طبيعَتي عادةٌ رابعةٌ من تعاطي ٱلدواء.

فضحك (م) وقال: قبحَ ٱللهُ هذه ٱلدخيلة، فما هيَ ٱلعاداتُ ٱلثلاثُ ٱلأصليَّة؟

قالَ ٱلعجوز: هي ٱلأكلُ وٱلشربُ وٱلنوم... ثُمَّ أنت يا رِيت كيف تقرأُ ٱلصحفَ ٱلآن؟

قال (م): أقرؤُها كما يقرؤُها ٱلناس، فما سؤالُكَ عن هذا؟ وهل تقرأُ ٱلصحفَ يوماً غيرَ ما تقرأُ في يوم؟

قال: آه! أَنَّ أولَ شيءٍ أقرأُ في ٱلصحفِ أخبارُ ٱلوفَيَات، لِأرى بقايا ٱلدنيا، ثُمَّ (إعلاناتِ ٱلأدوية)... ولكن كيف أنت يا ريت؟ إنِّي لَأراكَ ما تزالُ من وراءِ أربعينَ سنةً في ذلك ٱلعيشِ ٱلرَّخيّ، وأراك تحملُ شيخوختَكَ بقوَّةٍ كأَنَّ ٱلدهْرَ لم يَخْرُمْك[2] من هنا ولا من هنا، وكأنَّهُ يلمُسكَ بِأصابعِهِ لا بِمساميرِهِ، فهل أصبْتَ مُعجِزةً من مُعجزاتِ ٱلعِلْم ٱلحديث؟

قال: نعم.

قال: ناشدْتُكَ ٱلله، أفي معجزاتِ ٱلعِلْمِ ٱلحديثِ معجزةٌ لِعظمي؟

---

(١) حملق: نظر باستغراب وإمعان.

(٢) يخرمك: ينِدّ منك وينقصك.

قال (م): ويحك يا رينا! إنَّك على ٱلعهْدِ لم تبرحْ كما كنْتَ مزبلةَ أفكار . . . ماذا يصنعُ فيك ٱلعِلْمُ ٱلحديثُ وأنت كما أرى بمنزلةٍ بينَ ٱلعظمِ وٱلخشب . . .؟

* * *

قالَ ٱلمحدّث: وضحكْنَا جميعاً، ثُمَّ قلْتُ لِلأستاذِ (م): ولكنْ ما (رينا وريت)؟. وما هذه اللغة؟. وفي أي مُعْجمٍ تفسيرُها؟

قال: فتغَامزَ ٱلشيخان، ثُمَّ قال (م): يا بُنيَّ، هذه لُغةٌ ماتَتْ معانيها وبقيَتْ ألفاظُها، فهي كتلك ٱلألفاظِ ٱلأثريَّةِ ٱلباقيةِ مِنَ ٱلجاهليَّةِ ٱلأولى.

قلْت: ولكنَّ ٱلجاهليَّةَ ٱلأولى لم تنقضْ إلَّا فيكما . . . ولا يزالُ كلُّ شابٍّ في هذه ٱلجاهليَّة ٱلأولى، وما أحسبُ (رينا، وريت) في لغتِكُما ٱلقديمةِ إلَّا بمعنى (سوسو، وزوزو) في ٱللغة الحديثة؟

فقالَ (م): اسِمعْ يا بُنيّ: إنَّ رجلَ سنة ١٩٣٥ متى سألَ فيَّ رجلَ سنة ١٨٩٥: ما معنى رينا وريت؟ فردَّ عليه: إنَّ (رينا) معناها (كاترينا)؛ وكانَ (ن) بها صبّاً[1] مغرَماً، وكانَ مُقْتَتَلاً قتَّلهُ حبُّها. أما (ريت) فهو لا يعرفُ معناها.

فٱمتعضَ ٱلعجوزُ (ن)، وقال: سبحانَ ٱللهِ! اسِمعْ يا بُنيّ: أَنَّ رجلَ سنة ١٨٩٥ فيَّ يقولُ لك: إن (ريت) معناها (مرغريت)، وكانَتِ ٱلجوى ٱلباطنَ وكانَتِ ٱللوعةَ وٱلحريقَ ٱلذي لا ينطفِىءُ في قلْبِ ٱلأستاذ (م).

قلْت؛ فأنتما أيها العجوزانِ من عُشاقِ سنة ١٨٩٥، فكيف تَريانِ ٱلحُبَّ ٱلآن؟

قالَ ٱلعجوزُ (ن): يا بُنيّ، إنَّ أواخَر ٱلعمرِ كَٱلمنفَى . . . ونحن نتكلَّمُ بِٱلألفاظِ ٱلتي تتكلَّمُ بها أنت وأنتما وأنتم . . . غيرَ أنَّ ٱلمعاني تختلفُ ٱختلافاً بعيداً.

قلْت: وٱضْرِبْ لهم مثلاً.

قال: وٱضربْ لهم مثلاً كلمة (الأكل)، فَلَها عندنَنا ثلاثةُ معانٍ: الأكل، وسُوءُ ٱلهضم، ووجعُ ٱلمَعِدة؛ وكلمةُ (ٱلمشي) فلها أيضاً ثلاثةُ معانٍ: ٱلمشيُ، وٱلتعبُ، وغمزاتُ ٱلعظم . . . وكلمةُ (النسيم)، ٱلنسيمُ ٱلعليلُ يا بُنيّ: زِيدَ لنا في معناها: تحرُّك (الروماتزم) . . .

فضحكَ (م) وقال: يا «شيخ» . . .

---

(١) صبّاً: عاشقاً.

قالَ ٱلعجوزُ: وتلك الزيادةُ يا بُنيَّ لا تَجِيءُ إلَّا من نقْص، فهنا بقيَّةٌ من يدَين، وبقيَّةٌ من رِجلين، وبقيَّةٌ من بطن، وبقيَّةٌ من ومن ومن، ومجموعُ كلِّ ذلك بقيَّةٌ من إنسان.

قالَ الأستاذ (م): والبقيَّةُ في حياتِك.

قال (ن): وبِٱلجملةِ يا بُنيَّ فإنَّ حركةَ ٱلحياةِ في ٱلرجلِ ٱلهرِم تكونُ حَوْلَ ذاتِها لا حولَ ٱلأشياء؛ وما أعجبَ أنْ تكونَ أقصرَ حركتَي الأرضِ حولَ نفسِها كذلك، وإذا قالَ ٱلشابُ في مغامرتِه: لِيمضِ الزمنُ ولْتتصرَّم ٱلأيامُ! فإنَّ ٱلأيامَ هيَ ٱلتي تتصرَّمُ وٱلزمنُ هو ٱلذي يمرّ؛ أمَّا ٱلشيوخُ فلن يتمنَّوهُ أبداً؛ فمَنْ قالَ منهم: ليمضِ ٱلزمن، فكأنَّما قال: فلْأمضِ أنا...

فصاحَ (م): يا شيخ يا شيخ...

ثُمَّ قالَ ٱلعجوز: وٱعلمْ يا بُنيَّ أنَّ العِلْمَ نفسَهُ يهرمُ مَعَ ٱلرجلِ ٱلهرِم، فيُصبحُ مثلَهُ ضعيفاً لاغَنَاءَ عندَهُ ولا حِيلةَ لَه؛ وكلُّ مصانعِ لنكشيرَ ومصانعِ بنكِ مصرَ وَٱليابانِ وٱلأمريكتين، وما بقيَ من مصانعِ ٱلدنيا، لا فائدةَ من جميعِها؛ فهيَ عاجزةٌ أنْ تكسوَ عِظامي...

* * *

قالَ ٱلمحدّث: فقهقَهَ ٱلأستاذ (م)، وقال: كِدْتُ ـ وٱللَّهِ ـ أتخشَّبُ من هذا ٱلكلام، وكادَتْ معاني ٱلعَظْم تخرجُ من عِظامي؛ لقد كانَ ٱلمتوحشونَ حُكماءَ في أمرِ شيوخِهِم، فإذا علَتِ ٱلسنُّ بِجماعةٍ منهم لم يتركوهم أحياءً إلَّا بِٱمتحان، فهم يجمعونهم ويُلجئونهم إلى شجرةٍ غَضَّةٍ لَيِّنةِ ٱلمهزَّة، فيُكرهونهم أنَّ يصعدوا فيها ثُمَّ يتدلَّوْا منها وقد عَلِقَتْ أيديهم بأغصانِها؛ فإذا صاروا على هذه ٱلهيئةِ اجتمعَ ٱلأشداءُ من فِتيانِ ٱلقبيلةِ فيأخذونَ بِجذْع ٱلشجرةِ يرجُونها وينفضونها ساعةً من نهار؛ فمَنْ ضعُفَتْ يداهُ من أولئك ٱلشيوخ أو كلَّتْ حواملُ ذراعيهِ فأفلَتَ ٱلغصنَ ٱلذي يتعلَّقُ بِهِ فوقع، أخذوه فأكلُوه؛ ومَنِ ٱستمسكَ أنزلوه فأمهلوهُ إلى حين!

فٱقشعرَّ ٱلعجوز (ن)، وقال: أعوذُ بِٱلله! هذه شجرةٌ تخرجُ في أصلِ ٱلجحيم، ولعنَها ٱللَّهُ من حِكمة، فإنَّما يطبخونَهم في ٱلشجرةِ قبلَ ٱلأكل، أو هم يجعلونهم كذلك لِيتوهموهُم طُيوراً فيكونَ لحمُهم أطيبَ وألذّ، ويتساقطون عليهم منَ ٱلشجرةِ حمائمَ وعصافير.

قال (م): إنْ كانَ في ٱلوحشيَّةِ منطقٌ فليسَ في هذا ٱلمنطقِ (بابُ لمَ)، ولا «باب كيف»، ولو كانَ بِهِمْ أنْ يأكلوهم لأكلوهم، غيرَ أنَّها تربيةُ ٱلطبيعةِ لِأهلِ ٱلطبيعة؛ فإنَّ رؤيةَ ٱلرجلِ هذه الشجرةَ وهزَّها وعاقبتَها يُبعدُ عنه ٱلضعفَ وَٱلتخَلْخُلِ، ويدفعُهُ إلى مُعاناةِ ٱلقوَّة، ويزيدُ نفسَهُ ٱنتشاراً على ٱلحياةِ وطَمَعاً فيها وتنشّطاً لِأَسبابِها، فيكونُ ساعِدهُ آخرَ شيءٍ يهرم، ولا يزالُ في ٱلحِدَّةِ وٱلنشاطِ وَٱلوثَبَان؛ فلا يعجزُ قبلَ يومِهِ ٱلطبيعيّ، ويكونُ ٱلمتوحشون بهذا قدِ ٱحتالوا على ٱلطبيعةِ ٱلبشريَّةِ فَٱضطروها إلى مجهودِها، وأكرهوها على أنْ تبذلَ مِنَ ٱلقوةِ آخرَ ما يسعُ ٱلجِسم.

قال (ن): فنَعم إذَنْ، ولعنَ ٱللَّهُ معانيَ ٱلضعْف؛ كِدْتُ ـ وٱللَّهِ ـ أظنُّ أنّي لم أكنْ يوماً شابّاً، وما أراكَ إلَّا متوحِّشاً تَخافُ أنْ تُؤْكل، فتظلَّ شيْخاً رجلاً لا شيخاً طِفْلاً، وترى العمرَ كما يرى ٱلبخيلُ ذهبَهُ: مهما يبلغْ فكثرتُهُ غيرُ كثيرة.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وأضجرني حوارُهما، إذْ لم يعدْ فيهِ إلَّا أنَّ جسمَ هذا يردُ على جسم هذا؛ وإنَّما ٱلشيخُ من أمثالِ هؤلاءِ زمانٌ يتكلَّمُ ويقصُّ ويعظُ وينتقِد، ولن يكونَ ٱلشيخُ معك في حقيقتِهِ إنْ لم ترحلْ أنت فيهِ إلى دنيا قديمة؛ فقُلتُ لهما: أيها العجوزان! أُريدُ أنْ أسافرَ إلى سنةِ ١٨٩٥...

العجوزان

٢

قالَ محدِّثي: ولَمَّا قلْتُ لهما: أيُّها ٱلعجوزانِ، أُريدُ أنْ أسافِرَ إلى سنةِ ١٨٩٥ نظرَ إليَّ ٱلعجوزُ ٱلظريفُ (ن)، وقال: يا بُنيَّ، أحسبُ رؤيتَكَ إيايَ قد دَنَتْ بِكَ مِنَ ٱلآخرة... فتُريدُ أنْ نلوذَ بأخبارِ شبابِنا لِتنظرَ إلينا وفينا روحُ ٱلدنيا.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وكيف لا تُريهِ ٱلآخرةَ وأكثُركَ ٱلآنَ في «ٱلمجهول»؟.

قال: ويحكَ يا (م)! لا تزالُ على وجهِكَ مِسحةٌ مِنَ ٱلشيطانِ هنا وهنا؛ كأَنَّ ٱلشيطانَ هو ٱلذي يُصلِحُ في داخلِك ما ٱختلَّ من قوانينِ ٱلطبيعة، فلا تَسْتَبِينُ فيك ٱلسِّنُّ وقد نيَّفتَ[1] على ٱلسبعين، وما أحسبُ ٱلشيطانَ في تنظيفِك إلّا كَٱلذي يكنسُ بيتَه...

قال (م): فأنت أيُّها ٱلعجوزُ ٱلصالِحُ بيتٌ قد تركَهُ ٱلشيطانُ وعلَّقَ عليهِ كلمةَ (لِلإيجار)..

فضحكَ (ن)، وقال: تاللّٰهِ إنَّ ٱلهرَمَ لَهُوَ إعادةُ درسِ ٱلدنيا، وفهمُها مرةً أخرى فَهْماً لا خطأَ فيه؛ إذْ ينظرُ ٱلشيخُ بِٱلعينِ ٱلطاهرة، ويسمعُ بِٱلأذنِ ٱلطاهرة، ويلمسُ بِٱليدِ ٱلطاهرة... وتَاللّٰهِ إنَّ ٱلشيطانَ لَا معنى لَهُ إلَّا أنَّهُ وقاحةُ ٱلأعصاب.

قالَ (م): فأنت أَيها ٱلعجوزُ ٱلصالحُ إنَّما أصبحْتَ بِلا شيطانٍ لأَن ٱلهرَمَ قد أدَّبَ أعصابَك...

قالَ ٱلعجوزُ ٱلظريف: وعندَ مَنْ غيرِنا ـ نحن ٱلشيوخَ ـ تُطاعُ ٱلأوامرُ وٱلنواهي ٱلأدبيَّةُ حقَّ طاعتِها؟ عندَ مَنْ غيرِ ٱلشيوخِ تقدَّسُ مثلُ هذه ٱلحِكمِ ٱلعالية: لا تعتدِ على أحد... لا تُفسدِ ٱمرأةً على زوجِها...

* * *

---

(١) نيَّفت: زادت.

قالَ ٱلمحدِّث: وضحكْنا جميعاً، وكانَ ٱلعجوزُ (ن) مِنَ ٱلآياتِ في ٱلظرفِ وَٱلنكتة، فقال: تظنُّني يا بُنيَّ في ٱلسبعين؟ فَواللَّهِ ما أنا بجملتي في ٱلسبعين، وَاللَّهِ والله.

قال (م): لقد أهترَ ٱلشيخُ يا بَنيَ، فإنَّ هذا من خَرِفِهِ فلا تصدقْه.

قال (ن): واللَّهِ ما خَرِفْتُ وما قلْتُ إلا حقًّا، فهٰهنا ما عمرُهُ خمسُ سنوات فقط، وهو أسناني...

قلْت: «ورينا وريت» وسنة ١٨٩٥؟

قالَ ٱلأستاذ (م): أنت يا بُنيَّ مِنَ ٱلمجدِّدين، فما هواكَ في ٱلقديمِ وما شأنُك به؟

وما كادَ ٱلعجوزُ (ن) يسمعُ هذا حتى طَرَفَ بعينيهِ وحدَّدَ بَصرَهُ إليَّ وقال: أئنَّك لَأَنت هو؟ لَعمري إنّ في عينيكَ لَضجيجاً وكَذِباً وجِدالاً وٱحْتيالاً وزَعْماً ودعوى وكفراً وإلحاداً؛ ولَعمري...

فقطعْتُ عليهِ وقلْتُ: «لَعمُركَ إنَّهم لفي سكرتهِم يعمهون»، لقد وقعَ ٱلتجديدُ في كلِّ شيءٍ إلَّا في ٱلشيوخِ أجساماً وٱلشيوخِ عقولاً؛ فهؤلاءِ وهؤلاءِ عندَ ٱلنهاية، وغيرُ مستنكَرٍ من ضَعفِهِم أنْ يدينوا بالْماضي، فإنَّ حياتَهم لا تلمسُ ٱلحاضِرَ إلّا بضَعف!

قالَ ٱلعجوز: رحمَ ٱللَّهُ ٱلشيخَ (ع)؛ كانَ هذا يا بُنيَّ رجلاً ينسخُ لِلْعلماءِ في زمنِنا ٱلقديم، وكانَ يأخذُ عشرةَ قروشٍ أجراً على ٱلكراسةِ[1] ٱلواحدة، وهو رديءُ ٱلخطّ، فإذا ورَّقَ لِأديب، ولم يُعجِبْهُ خطُّهُ فكلَّمَهُ في ذلك تعلَّقَ ٱلشيخُ بِهِ وطالبَهُ بِعِشرينَ قِرشاً عنِ ٱلكراسة؛ منها عشرةٌ لِلكتابة، وعشرةٌ غرامةٌ لإهانةِ ٱلكتابة...

نعمْ يا بُنيَّ، إنَّ لِلماضي في قلوبِنا مواقعَ ينزلُ فيها فيتمكَّن، ولكنَّ قاعدةَ (اثنان واثنان أربعة)، لا تُعدُّ في ٱلماضي ولا في ٱلحاضرِ ولا في ٱلمستقبل، وَٱلحقيقةُ بِنفسِها لا بأسمِها؛ وليَستْ تحتاجُ ٱلنارُ إلى ثوبِ ٱلمرأةِ إلّا في رأيِ ٱلمغفل.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وكيف ذلك؟

قالَ ٱلعجوز: زعموا أنَّ مغفلاً كانَ يرى ٱمرأتَهُ تُضرِمُ ٱلحطبَ فتنفخُ فيهِ حتى يشتعل، فٱحتاجَ يوماً في بعضِ شأنِهِ إلى نار، ولم تكنِ ٱمرأتُهُ في دارِها فجاءَ

---

(١) الكراسة: الدفتر.

بِٱلحطبِ وأضرمَ فيهِ وجعل ينفخ، وكانَ ٱلحطبُ رَطْباً فدخَّنَ ولم يشتعل، ففكَّرَ ٱلمغفلُ قليلاً ثُمَّ ذهبَ فلَبِسَ ثوبَ ٱمرأتِهِ وعادَ إلى ٱلنار، وكانَ ٱلحطبُ قد جفَّ فلم يكدْ ينفخُ حتى ٱشتعلَ وتضرَّم؛ فأيقنَ ٱلمغفلُ أنَّ ٱلنارَ تخافُ ٱمرأتَه. . . وأنَّها لا تتضرَّمُ إلَّا إذا رأَتْ ثوبَها!

* * *

قالَ الأستاذُ (م): إنَّ ٱلكلامَ في ٱلقديمِ وَٱلجديدِ أصبحَ عندَنا كفنونِ ٱلحربِ تُبدعُ ما تُبدعُ لِتغييرِ ما لا يتغيَّرُ في ذاتِ نفسِه، وعلى ما بلغَتْ وسائلُ ٱلموتِ في ٱلقديمِ وٱلجديدِ فإنَّها لم تستطعْ أنْ تُمِيتَ أحداً مرتين.

لقد قرأْتُ يا بُنيَّ كثيراً فلم أرَ إلى ٱلآنَ من آثارِ ٱلمجدِّدينَ عندَنا شيئاً ذا قيمة؛ ما كانَ من هُراءٍ وتقليدٍ فهو من عندِهم، وما كانَ جيِّداً فهو كَٱلنفائسِ في مِلكِ ٱللصّ: لها اعتباران، إنْ كانَ أحدُهما عندَ مقتنيها. . . فالآخرُ عندَ ٱلقاضيْ.

كلَّا أيُّها ٱللصّ، لن تسمَّى مالكاً بهذا ٱلأسلوب؛ إنَّما هِيَ كلمةٌ تسخرُ بها مِنَ ٱلناسِ ومِنَ ٱلحقِّ ومن نفسِك.

يقولون: العِلْمُ وَٱلفنُّ وٱلغريزةُ وٱلشهوةُ وٱلعاطفةُ وٱلمرأةُ وحريَّةُ ٱلفكْرِ وٱستقلالُ ٱلرأي ونبذُ ٱلتقاليدِ وكسرُ ٱلقيود، إلى آخرِهِ وإلى آخرِها. . . فهذا كلُّهُ حسنٌ مقبولٌ سائغٌ[1] في ٱلورقِ إنْ كانَ في مقالةٍ أو قصة، وهو سائغٌ كذلك حينَ ينحصرُ في حدودِهِ ٱلتي تصلُحُ لَهُ من ثيابُ ٱلممثلينَ أو من بعضِ ٱلنفوسِ ٱلتي يمثِّلُ بها ٱلقدرُ فصولَهُ ٱلساخرةَ أو فصولَهُ ٱلمُبكية، ولكنَّهم حين يُخرجونَ هذا كلَّهُ لِلحياةِ على أنَّهُ من قوَّتِها ٱلموجبة، تردُّهُ ٱلحياةُ عليهم بِٱلقوةِ ٱلسالبة، إذْ لا تزالُ تخلُقُ خَلْقَها وتعملُ أعمالَها بِهِم وبِغيرِهِم، وإذا كانَ في ٱلإنسانيَّةِ هذا ٱلقانونُ ٱلذي يجعلُ ٱلفِكْرَ ٱلمريضَ حينَ يهدمُ من صاحبِه - يهدمُ في ٱلكونِ بِصاحبِه؛ ففيها أيضاً ٱلقانونُ الآخرُ ٱلذي يجعلُ ٱلفكرَ ٱلصحيحَ ٱلساميَ حين يُبنى من أهلِه - يُبنى في ٱلكوْنِ بِأهلِه.

* * *

قالَ ٱلعجوز (ن): زعموا أنَّ أحدَ سلكي ٱلكهرباءِ كانَ فيلسوفاً مجدِّداً، فقالَ لِلآخر: ما أراكَ إلَّا رجعيًّا، إذْ كُنْتَ لا تتبعُني أبداً ولا تتَّصِلُ بي ولا تجري في طريقتي؛ ولن تُفْلِحَ[2] أبداً إلَّا أنْ تأخذَ مأخذي وتترُكَ مذهَبَك إلى مذهبي. فقالَ لَهُ

(١) سائغ: مقبول.

(٢) تفلح: تنجح.

صاحبُه: أيُّها ٱلفيلسوفُ ٱلعظيم، لو أنيَّ ٱتبعْتُكَ لَبَطَلْنا معاً فما أذهبُ فيك ولا تذهبُ فيّ؛ وما عَلِمْتُكَ تشتمُني في رأيكَ إلَّا بِمَا تمدحُني بِهِ في رأيي.

قالَ ٱلعجوزُ: وهذا هو جوابُنا إذا كُنَّا رجعيينَ عندَهم من أجلِ ٱلدينِ أوِ ٱلفضيلةِ أوِ ٱلحياةِ أوِ ٱلعِفَّةِ إلى آخرِها وإلى آخرِه؛ ونحن لا نرى هؤلاءِ ٱلمجدِّدينَ عندَ ٱلتحقيقِ إلَّا ضروراتٍ، من مذاهبِ ٱلحياةِ وشهواتِها وحماقاتِها تلبَّسَتْ بعضَ ٱلعقولِ كما يتلبَّسُ أمثالُها بعضَ ٱلطباعِ فتزيغُ بها؛ ولِلْحياةِ في لُغتِها ٱلعمليَّةِ مترادفاتٌ كَٱلمترادفاتِ ٱللفظية: تكونُ ٱلكَلمتانِ وَٱلكلماتُ بمعنًى واحد، فَٱلمخرِّبُ وٱلمخرِّف وٱلمجدِّد بمعنى!

كلُّ مجدِّدٍ يُريدُ أنْ يضعَ في كلِّ شيءٍ قاعدةَ نفسِهِ هو، فلو أطعْناهم لم تبقَ لِشيءٍ قاعدة.

قالَ ٱلأستاذُ (م) إنَّ هذه ٱلحياةَ ٱلواحدةَ على هذه الأرضِ يجبُ أنْ تكونَ على سُنَّتِها وما تصلُحُ بِهِ مِنَ ٱلضبطِ وَٱلإحكام، وَٱلجلْبِ لها وَٱلدفعِ عنها وٱلمحافظةِ عليها بِوَسائِلها ٱلدقيقةِ ٱلموزونةِ ٱلمقدَّرة، وَٱلسهْلَةِ في عملِها ٱلصعبةِ في تدبيرِها؛ فعلى نحوٍ مِمَّا كانَتِ ٱلحياةُ في بطنِ ٱلأمِّ يجبُ أنْ نعيشَ في بطنِ ٱلكوْنِ بحدودٍ مرسومةٍ وقواعدَ مهيَّأةٍ وحيِّزٍ معروف؛ وإلَّا بقيَتْ حركاتُ هذا ٱلإنسانِ في معناها كحَركاتِ ٱلجنين؛ يَرْتكَضُ لِيخرجَ عن قانونِه، فإنِ ٱستمرَّ عملُهُ ألقى بِهِ مَسْخاً مشوَّهاً من جسدٍ كان يَعملُ في تنظيمِه، أو قَذَفَ بِهِ مَيْتاً من جسمٍ كانَ كلُّ ما فيهِ يعملُ لِحياتِهِ وصِيانتِه.

هذا ٱلجسمُ كلُّهُ يَشرعُ لِلجنينِ ما دامَ فيه، وهذا ٱلاجتماعُ كُلُّهُ يشرعُ لِلْفردِ ما دامَ فيه؛ فكيف يكونُ أمرٌ من أمرٍ إذا كانَ ٱلجنينُ مُجدِّداً لا يُعجبُهُ مثلاً وضعُ ٱلقلبِ ولا يُرضيهِ عملُ ٱلدمِ ولا يُريدُ أنْ يكونَ مُقيَّداً لِأنَّهُ حرّ.

ٱنظرْ إلى هذا ٱلشرطيِّ في هذا ٱلشارعِ يضرِبُ مُقبلاً لَيُدْبر، ومُدبراً لِيُقبل، وقد ألبستْهُ ٱلحكومةُ ثِياباً يتمَيَّزُ بِها، وهي تتكلَمُ لغةً غيرَ لُغةِ ٱلثياب، وكأنَّها تقول: أيُّها ٱلناس، إنَّ هٰهَنا ٱلإنسانَ ٱلذي هو قانونٌ دائماً، وَٱلذي هو قوَّةٌ أبداً، وَٱلذي هو سِجْنٌ حِيناً، وٱلذي هوَ ٱلموْتُ إذا ٱقتضى ٱلحال.

أتحسبُ يا بُنيَّ هذا ٱلشرطيَّ قائماً في هذا ٱلشارعِ كجدرانِ هذه ٱلمنازل؟ كلَّا يا بُنيَّ؛ إنَّهُ واقفٌ أيضاً في ٱلإرادة ٱلإنسانيَّةِ وفي ٱلحسِّ ٱلبشريِّ وفي ٱلعاطفةِ

ٱلحيَّة؛ فكيفَ لا يمحُوهُ ٱلمجدِّدون مَعَ أنَّهُ في ذاتِهِ إرْغامٌ بمعنًى، وإكراهٌ بمعنًى غيرِه، وقيدٌ في حالة، وبَلاءٌ في حالةٍ أخرى؟

لكنَّهُ إرغامٌ لِيقعَ بِهِ ٱلتيسير، وإكراهٌ لِتنطلِقَ بِهِ ٱلرغبة، وقيدٌ لِتتمجَّدَ بِهِ ٱلحريَّة؛ وكانَ هو نفسُهُ بلاءً من ناحيةٍ لِيكونَ هو نفسُهُ عِصمةً مِنَ ٱلناحية ٱلتي تُقابلُها.

يا بُنيَّ، كلُّ دِينٍ صالح، وكلُّ فضيلةٍ كريمة، وكلُّ خُلُقٍ طيب - كلُّ شيءٍ من ذلك إنَّما هو على طريقِ ٱلمصالحِ ٱلإنسانيَّةِ كهذا ٱلشرطيِّ بعينِه: فإمَّا تخريبُ ٱلعالَم أيُّها ٱلمجدّدون، وإمَّا تخريبُ مذهبِكم...

* * *

قالَ ٱلعجوزُ (ن): أنبحَثُ عمَّا نتسلَّطُ بِهِ أمْ نبحثُ عمَّا يَتسلَّطُ علينا؟ وهلْ نُريدُ أنْ تكونَ غرائزُنا أقوى مِنَّا وأشدّ، أو نكونُ نحن أشدَّ منها وأقوى؟ هذه هي ٱلمسألةُ لا مسألةُ ٱلجديدِ وٱلقديم.

فإنْ لم يكنْ هناك ٱلمثلُ ٱلأعلى ٱلذي يَعظُمُ بنا ونَعظُمُ به، فسَدَ ٱلحِسُّ وفسدَتِ ٱلحياة؛ وكلُّ ٱلأديانِ ٱلصحيحةِ وَٱلأخلاقِ ٱلفاضلةِ إنْ هيَ إلَّا وسائلُ هذا ٱلمثلِ ٱلأعلى لِلسمو بِٱلحياةِ في آمالِها وغاياتِها عنِ ٱلحياةِ نفسِها في وقائعِها ومعانِيها.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: ورأيْتُني بينَ ٱلعجوزينِ كأنِّي بينَ نابَينِ؛ ولم أكنْ مجدِّداً على مذهبِ إبليسَ ٱلذي ردَّ على ٱللَّهِ وَٱلملائكةِ وظنَّ لِحمقِهِ أنَّ قوَّةَ ٱلمنطقِ تغيِّرُ ما لا يتغيَّرُ؛ فسكتُّ، حتى إذا فرغا من هذه ٱلفلسفةِ قلْتُ: وٱلرحلةُ إلى سنة ١٨٩٥؟

العجوزان

٣

قالَ ٱلمحدِّث: وتبيَّنَ في ٱلعجوزِ (ن) أثرُ ٱلتعب، فتوجَّعَ وأخذَ يَئِنُّ كأَنَّ بعضَهُ قد ماتَ لِوقتِه. . . أو وقعَ فيهِ ٱختلالٌ جديد، أو نالتْهُ ضربةُ ٱليوم؛ وٱلشيخُ متى دخلَ في ٱلهرَمِ دخلَ في ٱلمعركةِ ٱلفاصلةِ بينَهُ وبينَ أيَّامِه.

ثُمَّ تأفَّفَ وتملْملَ(١) وقال: إنَّ أولَ ما يظهرُ على مَنْ شاخَ وهرِمَ، هو أنَّ ٱلطبيعةَ قد غيَّرَتِ ٱلقانونَ ٱلذي كانَتْ تحكمُهُ به.

قالَ ٱلأستاذُ (م): إنَّ صاحبَنا كانَ قاضياً يحكمُ في ٱلمحاكم، وأرى ٱلمحاكمَ قد حكمَتْ عليهِ بهذه ٱلشيخوخةِ (مُطبِّقةً فيها) بعضَ ٱلموادِّ من قانونِ ٱلعقوباتِ فما خرجَ مِنَ ٱلمحكمةِ إلَّا إلى الحبسِ ٱلثالث.

فضحكَ (ن) وقال: قد عرفْنا «ٱلحبسَ ٱلبسيط» و «ٱلحبسَ مَعَ ٱلشغلِ» فما هو هذا ٱلحبسُ ٱلثالث؟

قال: هو «ٱلحبسُ مَعَ ٱلمرض». . .

قال (ن): صدقْتَ لَعمري، فإنَّ آخرَ أجسامِنا لا يكونُ إلَّا بِحِسابٍ من صَنعةِ أعمالِنا: وكأَنَّ كرسيَّ ٱلوظيفةِ ٱلحكوميَّةِ قد عرفَ أنَّهُ كرسيُّ ٱلحكومة، فهو يضربُ ٱلضرائبَ على عِظامِ ٱلموظفين. . . أتدري معنى قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ ولِمَ سمَّاهُ ٱلأرذل؟

قلْنا: فلِمَ سمَّاهُ كذلك؟

قال: لِأَنَّهُ خَلْطُ ٱلإنسانِ بعضِهِ ببعض، ومسخُهُ من أولهِ إلى آخرِه، فلا هو رجلٌ ولا شابٌّ ولا طفل، فهو أردأُ وأرذلُ ما في ٱلبضاعة. . .

---

(١) تململ: أظهر ضجره.

فٱستضحكَ ٱلأستاذ (م) وقال: أمَّا أنا فقد كنْتُ شيخاً حينَ كنْتُ في ٱلثلاثينَ من عمري، وهذا هو ٱلذي جعلَني فتًى حين بلغْتُ ٱلسبعين.

قال (ن): كأنَّ ٱلحياةَ تُصحِّحُ نفسَها فيك.

قال: بلْ أنا كَرِهْتُها أنْ تُصحِّحَ نفسَها؛ فقد عرفْتُ من قبلِ أنَّ سَعَةَ ٱلإنفاقِ في ٱلشبابِ هيَ ضائقةُ ٱلإفلاسِ في ٱلهرَم، وأيقنْتُ أنَّ لِلطبيعةِ (عدَّاداً) لا يُخطِىءُ ٱلحِساب، فإذا أنا ٱقتصدْتُ عدَّتْ لي، وإذا أسرفْتُ عدَّتْ عليَّ؛ ولَنْ تُعطيَني ٱلدنيا بعدَ ٱلشبابِ أَلّا مِمَّا في جِسمي، إذْ لا يُعطِي ٱلكونُ حيًّا أرادَ أنْ ينتهيَ منه، فكنْتُ أجعلُ نفسي كَٱلشيخِ ٱلذي تقولُ لَهُ ٱلمَلذاتُ ٱلكثيرة: لسْتُ لَك؛ ومن ثَمَّ كانَتْ لذَّاتي كلُّها في قيودِ ٱلشَّريعتين: شريعةِ ٱلدينِ وشريعةِ ٱلحياة.

قالَ: وعرفْتُ أنَّ ما يُسميهِ ٱلناسُ وَهَنَ[1] ٱلشيخوخةِ لا يكونُ مِنَ ٱلشيخوخةِ ولكنْ مِنَ ٱلشبابِ؛ فما هو إلا عملُ ٱلإنسانِ في تَسميم جِسمِهِ ثلاثينَ أو أربعينَ سنةً بِٱلطعامِ وَٱلشرابِ وَٱلإغفالِ وَٱلإرهاقِ وَٱلسرورِ وَٱلحُزْنِ وٱللذةِ وَٱلألَم، فكنْتُ مَعَ ٱلجِسْمِ في شبابِهِ لِيكونَ مَعي بعدَ شبابِه، ولم أبرحْ أتعاهدُهُ[2] كما يتعاهَدُ ٱلرجلُ دارَه: يزيدُ محاسنَها وينفي عيوبَها، ويحفَظُ قوَّتَها ويتَّقي ضعفَها؛ ويجعلُها دائماً بالَهُ وهمَّهُ، وينظرُ في يومِها ٱلقريبِ لِغدِها ٱلبعيد، فلا ينقطعُ حِسابُ آخرِها وإنْ بَعُدَ هذا ٱلآخر، ولا يزالُ أبداً يحتَاطُ لِمَا يخشى وقوعَهُ وإنْ لم يقع.

قالَ ٱلعجوزُ (ن): صدقَتْ ـ واللَّهِ ـ؛ فما أفلحَ إلَّا مَن ٱغتنمَ ٱلإمكان؛ وما نوعُ ٱلشيخوخةِ إلَّا من نوع ٱلشباب؛ وهذا ٱلجسمُ ٱلإنسانيُّ كَٱلمدينةِ ٱلكبيرةِ فيها (مجلسُها ٱلبلديُّ) ٱلقائمُ على صِيانتِها ونِظامِها وتقويتِها؛ ورئيسُ هذا ٱلمجلس ٱلإرادة، وقانونُهُ كلُّهُ واجباتٌ ثقيلة، وهو كغيرِهِ مِنَ ٱلقوانين: إذا لم ينفذْ مِنَ ٱلأوَلِ لم يُغنِ في ٱلآخر.

قالَ ٱلأستاذ (م): وكلُّ جِهازٍ في ٱلجسم هو عضوٌ من أعضاءِ ذلك (ٱلمجلسِ ٱلبلديّ)؛ فجِهازُ ٱلتنفسِ وجهازُ ٱلهَضْم وٱلجِهازُ ٱلعضليُّ وَٱلجِهازُ ٱلعصبيُّ وٱلدورةُ ٱلدمويَّة، هذه كلُّها يجبُ أنْ تُتركَ على حرِّيَّتِها ٱلطبيعيَّةِ وأنْ تُعانَ على سُنَّتِها، فلا يُحالُ بينَها وبينَ أعمالِها بِرشوةٍ من لذَّة، أو مَفسدةٍ من زِينة، أو مطمعةٍ في رَفاهية، أو دَعوةٍ إلى مدنيَّة، أو شيءٍ مِمَّا يُفسِدُ حُكمَها أو يُعطِّلُ عملَها ويُضعِفُ طبيعَتَها.

---

(١) وهن: ضعف.

(٢) أتعاهده: أعتني به.

وَٱلقاعدةُ في ٱلعمرِ أَنَّهُ إذا كانَ ٱلشبابُ هو ٱلطفولةَ ٱلثانيةَ في براءتِهِ وطهارتِه، كانَتِ ٱلشيخوخةُ هيَ ٱلشبابَ ٱلثاني في قُوّتِها ونَشاطُها؛ وما رأيْتُ كَٱلدينِ وسيلةً تجعلُ ٱلطفولةَ مُمْتدَّةً بِحقائِقها إلى آخرِ ٱلعمرِ في هذا ٱلإنسان؛ فسرُّ ٱلطفولةِ إنَّما هو في قُوَّتِها على حذْفِ ٱلفضولِ وَٱلزوَائدِ من هذهِ ٱلحياة، فلا يُطغيها[1] ٱلغِنى، ولا يكسرُها ٱلفقر، ولا تذلُّها ٱلشهْوَة، ولا يُفزعُها ٱلطمع، ولَا يهولُها[2] ٱلإخفاق، ولا يتعاظمُها ٱلضرّ، ولا يُخيفُها ٱلموت؛ ثُمَّ لَا تملُّ وهي ٱلصابرة، ولا تُبَالِغُ وهي ٱلراضية، ولا تشكُّ وهيَ ٱلمُوقِنة، ولا تُسْرِفُ وهيَ ٱلقانِعة، ولا تتبلَّدُ وهيَ ٱلعاملة، ولا تجمدُ وهيَ ٱلمتجولة؛ ثُمَّ هيَ لا تُكلِّفُ ٱلإنسانيَّةَ إلَا ٱلعطفَ وَٱلحُبَّ وٱلبشاشةَ وطبائعَ ٱلخيرِ ٱلتي يملكُها كلُّ قلب؛ ولا تُوجِبُ شريعتُهَا في ٱلمعاملةِ إلَّا قاعدةَ ٱلرحمة، ولا تُقَرِّرُ فلسفتُها لِلْحياةِ أَلَّا طهارةَ ٱلنظر؛ ثُمَّ تتهكَّمُ بِٱلدنيا أكثَرَ مِمَّا تهتمُّ لها، وتستغني فيها أكثرَ مِمَّا تحتاج، وتستخرِجُ ٱلسعادةَ لِنفسِها دائماً مِمَّا أمكنَ، قلَّ أو كثُر.

وبكلِّ هذا تعملُ ٱلطفولةُ في حراسةِ ٱلحياةِ ٱلغَضَّةِ وَٱستمرارِها ونموِّها، ولولا ذلك لَمَا زها طفلٌ ولا شبَّ غلامٌ ولا رأَتِ ٱلعيونُ بين هموم ٱلدنيا ذلك ٱلرُّواءَ وذلك ٱلمنظرَ على وجوهِ ٱلأطفال يُثبتانِ أنَّ ٱلبراءةَ في ٱلنفس أقوى مِنَ ٱلطبيعة.

وكلُّ ذلك هو أيضاً من خصائصِ ٱلدينِ وبِهِ يعملُ ٱلدينُ في تهذيبِ ٱلحياةِ وَٱطِّرادِها على أصولِها ٱلقويَّةِ ٱلسليمةِ، ومتى قَوِيَ هذا ٱلدينُ في إنسانٍ لم تكنْ مفاسدُ ٱلدنيا إلَّا من وراءِ حدودِهِ، حتى كأنَّهُ في أرضٍ وهيَ في أرضٍ أخرى، وأصبحَتِ ٱلبراءةُ في نفسِهِ أقوى مِنَ ٱلطبيعة.

ثُمَّ قال: وَٱلعجيبُ أنَّ ٱعتقادَ ٱلمساواةِ بينَ ٱلناسِ لا يتحقَّقُ أبداً بأحسنِ معانيهِ وأكملِها إلَّا في قلبين: قلبِ ٱلطفلِ لِأنَّهُ طفل، وقلبِ ٱلمؤمنِ لِأنَّهُ مؤمن.

فقالَ ٱلعجوزُ (ن): إنَّهُ لَكَمَا قلْت، ولعنةُ ٱللَّهِ على هذه ٱلشهواتِ ٱلآدميَّةِ ٱلباطِلَة، فإِنَّ ٱلشهوةَ ٱلواحدةَ في ٱلفِ نفسٍ لتَجعلُ ٱلحقيقةَ ٱلواحدةَ كأنَّها ألفُ حقيقةٍ متعاديةٍ متنازعة؛ وٱلطامعانِ في ٱمرأةٍ واحدةٍ قد تكونُ شهوةُ أحدِهما هيَ ٱلشهوةَ وهيَ القتل؛ ولعنةُ ٱللَّهِ على ٱلمُلْحدينَ وإلحادِهِم، يُزْرُونَ على ٱلأديانِ بأنَّها تكاليفُ وقيودٌ وصِناعةٌ لِلحياة، ثُمَّ لا يعلمونَ أنَّ كلَّ ذلك لِصناعةِ ٱلآلةِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي

---

(١) يطغيها: يحملها على التجبّر.　　(٢) يهولها: يرهبها.

تستطيعُ أنْ تحَرِّكَ ٱلمختلفينَ حركةً واحدة، فما ٱبتُلِيَتِ ٱلإنسانيَّةُ بشيءٍ كما ٱبتليَتْ بهذا ٱلخِلافِ ٱلذي يفتحُ من كلِّ نفسٍ على كلِّ نفس أبوابَ ٱلتَّجني، ويجعلُ ٱلنَّفرةَ وسُوءَ ٱلظَّنِّ أقربَ إلى ٱلطبيعةِ ٱلبشريَّةِ مِنَ ٱلألفةِ وَٱلثقةِ.

لقد جاءَ ٱلعِلْمُ بِٱلمعجزات، ولكنْ فيما بينَ ٱلإنسانِ وَٱلطبيعة، وبيَن ٱلإنسانِ ومنافعِه، وبينَ ٱلإنسانِ وشهواتِه؛ فهل غيرُ ٱلدينِ يجيءُ بِٱلمعجزاتِ ٱلعمليَّةِ فيما بينَ ٱلنفسِ وٱلنفس، وبينَ ٱلنفسِ وهمومِها، وبينَ ما هو حقٌّ وما هو واجب؟

* * *

قالَ ٱلمحدّث: ثُمَّ نظرَ إليَّ ٱلعجوزُ (ن) وقال: صِلْ عمَّكَ يا بُنيَّ بِٱلحديثِ ٱلذي مضى، فأين بلَغْنا آنفاً من أمرِ ٱلتجديدِ وٱلمجدِّدين؟ وماذا قلْنَا وماذا قلْت؟ أمَا إنَّ ٱلحماقةَ ٱلجديدةَ وٱلرذيلةَ ٱلجديدةَ وَٱلخطأَ ٱلجديد، كلُّ ذلك إنْ كانَ جديداً من صاحبِهِ فهو قديمٌ في ٱلدنيا؛ وليسَ عندَنا أبداً من جديدٍ إلَّا إطلاقُ ٱلحريَّةِ في ٱستعمالِ كلِّ أديبٍ حقَّهُ في ٱلوقاحةِ وَٱلجهلِ وَٱلخطأِ وَٱلغرورِ وَٱلمُكابرة.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وليسَ ٱلظاهرُ بِمَا يظهرُ لَك منه، ولكنْ بِٱلباطنِ ٱلذي هو فيه، فمستشفى ٱلمجاذيبِ قصرٌ مِنَ ٱلقصورِ في ظاهرِه، ولكنَّ ٱلمجاذيبَ هم حقيقتُهُ لا ٱلبناء، وكلُّ مجدِّدٍ عندَنا يزعمُ لك أنَّهُ قصرٌ عظيم، وهو في ٱلحقيقةِ مستشفى مجانين، غيرَ أنَّ ٱلمجانينَ فيهِم طِباعٌ وشهواتٌ ونَزوات؛ وعلى هذا ما ٱلذي يمنعُ ٱلفجورَ ٱلمتوقِّحَ أنْ يسمِّي نفسَهُ ٱلأدبَ ٱلمكشوف؟

قالَ (ن): وإذَا أنت ذهبْتَ تعترِضُ على هذه ٱلتسميةِ زعموا لك أنَّ لِلفنِّ وقاحةً مقدّسة. . . وأنَّ (لا أدبية) رجلِ ٱلفنِّ هيَ (اللا أخلاقيةُ ٱلعالية). . .

قالَ ٱلأستاذُ (م): فوقاحةُ ٱلشهْوةِ إذا ٱستعلنَتْ بينَ أهلِ ٱلحياءِ وأهلِ ٱلفضيلةِ ودعَتْ إلى مذهبِها، كانَتْ تجديداً ما في ذلك ريب؛ ولكنَّ هذا ٱلمذهبَ هو أقدمُ ما في ٱلأرض، إذْ هو بِعينِهِ مذهبُ كلِّ زوجينِ ٱجتمعا مِنَ ٱلبهائم منذُ خلَقَ ٱللَّهُ ٱلبهائم. . .

قالَ (ن): وقُلْ مثلَ ذلك في مُتسخِّطٍ على ٱللَّهِ وعلى ٱلناسِ يُخرجُ من كفرِهِ بينَ أهلِ ٱلأديان جديداً، وفي مغرورٍ يتغفَّلُ ٱلناس، وفي لِصِّ آراء، وفي مُقلِّدٍ أعورَ ـ كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ وأشباهِهِم مبتلًى بعِلَّة، فمذهبُهُ رسالةُ عِلَّتِه؛ وأكثرُهُم لا يكونُ ثباتُهُ على ٱلرأيِ ٱلفاسدِ إلَّا من ثباتِ ٱلعِلَّةِ فيه.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وكنْتُ مِنَ ٱلمجدِّدين، فأرمضَني[١] ذلك وقلْتُ لِلْعجوزين: إنَّ هذا نصفُ ٱلصحيح، أمَّا ٱلنصفُ الآخرُ فهو في كثيرٍ من هؤلاءِ ٱلذينَ ينتحلَونَ ٱلدفاعَ عنِ ٱلدينِ وَٱلفضيلة؛ نعم إنَّهم لا يستعملونَ حقَّهم في ٱلوقاحة، ولكنَّ ٱلقُروشَ تستعملُ حَقَّها...

فضحِكَ ٱلعجوزُ (ن)، وقال: يا بُنيَّ، إنَّ ٱلجديدَ في كلِّ حِمارٍ هو أنْ يزعُمَ أنَّ نهيقَهُ موسيقى... فَٱلحِمارُ وٱلنهيقُ وٱلموسيقى كلُّ ذلك لا جديدَ فيه، ولكنَّ ٱلتسميةَ وحدَها هيَ ٱلجديدة؛ ولو كانَ ٱلبرهانُ في حَلْقِ ٱلحِمارِ لَصَحَّ هذا ٱلجديد، غيرَ أنَّ ٱلتصديقَ وٱلتكذيبَ هنا في آذانِ ٱلموسيقيينَ لا في حَلْقِ حِمارِنا ٱلمحترم...

قالَ (م) وزعموا أنَّ رجلاً نصبَ فخًّا لِصيدِ ٱلعصافير، فجاءَ عُصفورٌ فنظرَ من هذا ٱلفخِّ إلى شيءٍ جديد، فقالَ: يا هذا، مالَكَ مطموراً[٢] في ٱلتراب؟ قال ٱلفخّ: ذلك مِنَ ٱلتواضُعِ لِخلْقِ ٱلله! قال: فممَّ كانَ ٱنحناؤك؟ قالَ ٱلفخّ: ذلك من طولِ عِبادتي لِلَّه! قال: فما هذه ٱلحبَّةُ عندَك؟ قالَ ٱلفخ: أعدَدتُها لِطيورِ ٱللَّهِ ٱلصائمينَ يفطرونَ عليها! قالَ ٱلعصفور: فتُبيحُها[٣] لِي؟ قال: نعم.

فتقدمَ ٱلمكسينُ إليها، فلمَّا ٱلتقطَها وقعَ ٱلفخُّ في عنقِه، فقالَ وهو يختنق: إنْ كانَ ٱلعُبَّادُ يَخنقون مثلَ هذا ٱلخنقِ فقد خُلِقَ إبليسُ جديد...

قالَ (ن): فٱلحقيقةُ أنَّ إبليسَ هوَ ٱلذي تجدَّدَ لِيَصْلُحَ لِزمنِ ٱلآلاتِ وٱلمخترعاتِ وَٱلعلوم وٱلفنونِ وعصرِ ٱلسرعةِ وَٱلتحوّل؛ وما دامَ ٱلرقيُّ مُطَّرِداً وهذا ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ لا يقفُ عندَ غايةٍ في تسخيرِ ٱلطبيعة، فسينتهي ٱلأمرُ بتسخيرِ إبليسَ نفسَهُ مَعَ ٱلطبيعة... لاستخراج كلِّ ما فيهِ مِنَ ٱلشرّ.

قالَ (م): ولكنَّ ٱلعجبَ من إبليسَ هذا؛ أتُراهُ ٱنقلبَ أوربيًّا لِلأوربيين؟ وإلَّا فما بالُهُ يخرجُ مجدِّدينَ من جبابرةِ ٱلعقلِ وَٱلخيال، ثُمَّ لا يُؤتينا نحن إلَّا مجدِّدينَ من جبابرةِ ٱلتقليدِ وَٱلحماقة؟

قالَ ٱلمحدِّثُ: فقلْتُ لهما: أيُّها ٱلعجوزانِ ٱلقديمان، سأنشرُ قولَكُما هذا ليقرأَهُ ٱلمجدِّدون.

---

(١) أرمضني: آلمني.
(٢) مطموراً: مغطى.
(٣) تبيحها: تسمحها.

قالَ ٱلأستاذُ (م): وَٱنشرْ يا بُنيَّ أنَّ الربيعَ صاحبَ ٱلإمامِ ٱلشافعيّ، مرّ يوماً في أزقَّةِ مِصرَ فنُثِرتْ على رأسِهِ إجانة[1] مملوءةٌ رماداً، فنزلَ عن دابتِهِ وأخذَ ينفضُ ثِيابَهُ ورأسَه، فقيلَ له: ألَا تزجرُهم؟ قال: مَنِ ٱستحقَّ ٱلنارَ وصُولِحَ بِٱلرمادِ فليسَ لهُ أنْ يغضب!...

* * *

ثُمَّ قالَ محدِّثُنا: وَٱستولى عليَّ ٱلعجوزان، ورأيْتُ قولَهما يعلو قولي، وكنْتُ في ٱلسابعةِ وَٱلعشرين، وهي سِنُّ ٱلحِدَّةِ ٱلعقليَّة، فما حسبتُني معَهما إلا ثُلثَ عجوز... مِمَّا أثَّرا عليَّ، وَٱنقلبْتُ لا أرى في ٱلمجدِّدينَ إلَّا كلَّ سقيم[2] فاسد، وٱعتبَرَتُ كلَّ واحدٍ منهم بِعِلَّتِه، فإذا ٱلقولُ ما قالَ ٱلشيخان، وإذا تحتَ كلِّ رأيِ مريضٍ مرضٌ، ووراءَ كلِّ ٱتجاهٍ إبرةٌ مغناطيسيّةٌ طرقُها إلى ٱلشيطان...

وفرغْنا من هذا، فقلْتُ لِلشيخين: لقد حانَ وقتُ نزولِكُما من بينِ ٱلغيومِ أيُّها ٱلفيلسوفانِ، أمَا كُنتُما في سنة ١٨٩٥ مِنَ ٱلجنسِ ٱلبشريّ...؟

---

(١) إجانة: قصعة.

(٢) سقيم: مريض.

العـجـوزان

٤

قالَ محدِّثُنا: وكنتُ قد ضِقْتُ بهذه اللجاجة الفلسفيَّة، ورأيتُني مُضْطَغِناً[1] على الشيخينِ معاً؛ فقلْتُ لِلعجوز (ن): حدِّثني (رحمَكَ اللَّهُ) بشيءٍ من قديمِكما، فأنتما اختصارٌ لِكُلِّ ما مَنَّ مِنَ الحياةِ يُسْتَدَلُّ بهِ على أصلِهِ المطَوَّلِ إلَّا في الحُبّ... وما زِلْتُما في جِدِّ الحديثِ تعبثانِ بي منذُ اليوم، فقد عَدَلْتُما بي إلى شأنِكما ورأيكما في القديم وَالجديد، وبقيَ أنْ أميلَ بِكما مَيْلةً إلى سنة ١٨٩٥، وقد - واللَّهِ - كادَ ينتحرُ قلبي يأساً من خبرِ (كاترينا ومرغريت)؛ ولَكأنَّكَ تخشى إذْ أعلمتني خبرَ صاحبتِك هذه وهي من وراءِ أربعينَ سنة - ما تخافُهُ من رجلٍ سيَفْجَؤُك معها في الخلوةِ على حالٍ مِنَ الريبةِ فيأخذُك «متلبِّساً بالجريمة» كما تقولون في لغة المحاكم...

قالَ: فضحكَ العجوزانِ وقال (ن): لا - واللَّهِ - يا بُنيَّ، ولكنِّي أقولُ ما قالَ ذلك الحكيمُ العربيُّ لِقومِهِ وقد بلغَ مائتي سنة: «قلبي مُضْغةٌ من جسدي، ولا أظنُّهُ إلَّا قد نحلَ كما نحلَ سائرُ جسدي» وَاعلَمْ يا بُنيَّ أنَّهُ إذا ذهبَ الحُبُّ عنِ الشيخ بقيَ منهُ الحَنانُ يعملُ مثلَ عملِه؛ فيُحِبُّ العجوزُ مكاناً أو شيئاً أو معنًى أيَّ ذلكَ كان، لِيُعيدَهُ ذلك إلى الدنيا أو يُبقِيهُ فيها (بقدرِ الإمكان)...

فضحكَ الأستاذُ (م) وقال: ولعلَّ ثرثرةَ العجوزِ (ن) هيَ الآنَ معشوقةُ العجوزِ (ن).

ثُمَّ قالَ: وكلُّ شيءٍ يَرِقُّ في قلبِ الرجلِ الهرمِ ويحوِّلُ وجهَهُ كأنَّهُ لا يُطيقُ أنْ ينظرَ إلى معناهُ الغليظ؛ ولا بدَّ أنْ يخرجَ العجوزُ مَن معاني الدنيا قبلَ أنْ يخرجَ منَ الدنيا؛ ولهذا لا يهنأُ الشيخُ إلَّا إذا عاشَ بِأفكارِ جسمِهِ الحاضر، وقدَّرَ الأمورَ على ما هو فيهِ لا على ما كانَ فيه؛ وَالفرقُ بين جسمِهِ الحاضرِ وبينَ جسمِهِ الماضي أنَّ

---

(١) مضطغناً: حاقداً وغاضباً.

هذا ٱلماضي كانَتْ تحملُهُ أعضاؤه، فهو مجتمعٌ من أعمالِها وشهواتِها، ماضٍ في تحقيقِ وجودِها ومعانِيها؛ أمَّا ٱلحاضرُ، أمَّا ٱلجِسْمُ ٱلهرم، فهو يُشعِرُ أنَّهُ يحملُ أعضاءَهُ كلَّها وكأنَّها ملفوفةٌ في ثيابِهِ كمتاعِ ٱلمسافِرِ قبلَ ٱلسفر... وكأَنَّ بعضَها يُسَلِّمُ على بعضٍ سلامَ ٱلوداعِ يقول: تُفَارِقُني وأفارِقُك.

فتململ ٱلأستاذُ (م) وقال: أُفٍّ لَكَ ولِمَا تقول! لا جَرمَ أنَّ هذه لغةُ عِظامِكَ ٱلتي لا صلابةَ فيها، فمن ذلك لا تجيءُ معانيك في ٱلحياةِ إلَّا واهِنةً[1] ناحلةً فقدَتْ أكثرَها وبقيَ من كلِّ شيءٍ منها شيءٌ عندَ ٱلنهاية؛ أليسَ في ٱلهرَمِ إلَّا أنْ يبقى ٱلجسمُ لِيكونَ ظاهراً فقطْ كعُمْشُوشِ ٱلعنقودِ[2] بعدَ ذهابِ ٱلحَبِّ منه، يقولُ: كانَ هنا وكانَ هنا؟

ألا فَٱعلمْ يا (ن) أنَّ هذه ٱلشيخوخةَ إنَّما هيَ غلبةُ روحانيَّةِ ٱلجسمِ على بشريتِهِ، فهذا طورٌ من أطوارِ ٱلحياةِ لا تدعُهُ ٱلحياةُ إلَّا وفيهِ لذَّتُهُ وسرورُهُ كما تصنعُ بسائرِ أطوارِها؛ غيرَ أنَّ لذَّاتِهِ بينَ ٱلروحِ وَٱلجمال، ومسراتِهِ بينَ ٱلعقلِ وٱلطبيعة، وكلُّ ما نقصَ مِنَ ٱلعمرِ وجبَ أنْ يكونَ زيادةً في إدراكِ ٱلروحِ وقُوَّتِها وشِدَّتِها ونورِها؛ وقد قِيلَ لِبعضِ أهلِ هذا ٱلشأنِ وكان في مرضِ موتِهِ: كيف تجد ٱلعِلَّة؟ فقال: سلوا ٱلعِلَّة عَنِّي كيف تجدُني؟

وإنَّما تثقلُ ٱلشيخوخةُ على صاحبِها إذا هيَ ٱنتكسَتْ فيهِ وكانَتْ مُراغمَةً بينَهُ وبينَ ٱلحياة، فيطمعُ ٱلشيخُ فيما مضى ولا يزالُ يتعلَّقُ بِهِ ويتسخَّطُ[3] على ذهابِهِ ويتصنَّعُ لَهُ ويتكلَّفُ أسبابَه، وقد نسيَ أنَّ ٱلحياةَ ردَّتْهُ طفلاً كَٱلطفل، أكبرُ سعادتِهِ في ٱلتوفيقِ بينَ نفسِهِ وبينَ ٱلأشياءِ ٱلصغيرةِ ٱلبريئة، وأقوى لذَّتِهِ أنْ يتَّفِقَ ٱلجمالُ ٱلذي في خيالِهِ وٱلجمالُ ٱلذي في ٱلكون، وإنَّه لَكَما قلْتَ أنت: لا يهنأُ ٱلشيخُ إلَّا إذا عاشَ بِأفكارِ جسمِهِ ٱلحاضر.

وما أصدقَ وأحكمَ هذا ٱلحديثَ ٱلشريف: «إنَّ ٱللهَ تعالى بِعدلِهِ وقِسطِهِ[4] جعلَ ٱلرَّوْحَ وَٱلفرَحَ في ٱلرضى وَٱليقين، وجعلَ ٱلهمَّ وَٱلحزنَ في ٱلشَّكِّ وٱلسُّخْط». فهذه هيَ قاعدةُ ٱلحياة: لا تعاملُكَ ٱلحياةُ بِما تملِكُ مِنَ ٱلدنيا، ولكنْ بِما تملِكُ من

(١) واهنة: ضعيفة.
(٢) عُمشوش العنقود: هو ما يبقى منه بعد أكل العنب.
(٣) يتسخط: يظهر غضبه.
(٤) قسطه: عدله.

نفسِك، وبذلك تكونُ ٱلسعادةُ في أشياءَ حقيقةٍ ممكنةٍ موجودة، بلْ تكونُ في كلِّ ما أمكنَ وكلِّ ما وُجِدَ؛ وإذا كانَ ٱلرضى هُوَ ٱلاتفاقَ بينَ ٱلنفسِ وصاحبِها، وكانَ ٱليقينُ هوَ ٱلاتفاق بينَ ٱلنفسِ وخالقِها، فقد أصبحَ قانونُ ٱلسعادةِ شيئاً معنوياً من فضيلةِ ٱلنفسِ وإيمانِها وعقلِها، ومنَ ٱلأسرارِ ٱلتي فيها، لا شيئاً مادياً من أعضائِها ومتاعِها ودنياها وٱلأخيلةِ ٱلمتقلبةِ عليها.

* * *

فأطرقَ ٱلعجوزُ (ن) قليلاً ثُمَّ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، ألا ما أحكمَ هذه ٱلآية! فوَٱللّهِ إنْ قرأْتُ ولا قرأَ الناسُ في تصويرِ ٱلهرمِ ٱلفاني أبدعَ منها ولا أدقَّ ولا أوفى؛ ألَا تُحِسُّ أنَّ قائلَها يكادُ يسقطُ مِنَ عَجَفٍ وهُزَالٍ وإعياء؛ وأنَّه ليسَ قائماً في ٱلحياةِ قيامَهُ فيها من قبل، وأن تناقُضَ هذه ٱلحياةِ قد وقعَ في جسمِهِ فأخلَّ بهِ، وأنَّ معاني ٱلترابِ قد تعلَّقَتْ بهذا ٱلجسم تعملُ فيهِ عملَها، فأخذَ يتفتَّتُ كأنَّما لَمَسَ ٱلقبرُ عِظامَهُ وهو حيٌّ، وأنَّهُ بهذا كلِّهِ أَوْشَكَ أن ينكسرَ ٱنكسارَ ٱلعظمِ بلغَ ٱلمِبْردُ فيهِ آخرَ طبقاتِه؟

قالَ محدِّثُنا: قُلْتُ له: تُرى لو أنَّ نابغةً من نوابغ ٱلتصويرِ في زمنِنا هذا تناولَ بِفنِّهِ ذلك ٱلمعنى ٱلعجيبَ فكتبَهُ صورةً وألواناً، لا أحرفاً وكلمات، فكيف تُراهُ كانَ يصنع؟

قال: كانَ يصنعُ هكذا: يرسمُ منظرَ ٱلشتاءِ في سماءٍ تَعلَّقَ سحابُها كثيفاً متراكباً بعضُهُ على بعضٍ يُخيِّلُ أنَّ ٱلسماءَ تدنو مِنَ ٱلأرض، وقد سَدَّتِ ٱلسحُبُ ٱلآفاقَ وأظلَمَ ٱلجوُّ ظلَامَهُ تحتَ ٱلنهارِ ٱلمغطَّى، وَٱستطارَتْ بينَها وشائعُ مِنَ ٱلبرق، ثمَّ يتركُ مِنَ ٱلشمسِ جانب ٱلأفقِ لُمعةً كَضوءِ ٱلشعمةِ في فَتْقٍ من فُتوقِ ٱلسحاب، ثُمَّ يُرسلُ في ٱلصورةِ رِيحاً باردةً هوجَاءَ يدلُّ عليها ٱنحناءُ ٱلشجرِ وتقلُّبُ ٱلنبات، ثُمَّ يرسمُ رِجالاً ونِساءً يغلي ٱلشبابُ فيهم غليانَهُ من قوَّةٍ وعافية، وحُبٌّ وصَبابة، وتغلي فيهم أفكارٌ أخرى... وهم جميعاً في هيئةِ ٱلمسرعينَ إلى مرقص؛ وهم جميعاً مِنَ ٱلمجدِّدين...

ثم يرسمُ يا بُنيَّ في آخِرهم (على بعْدٍ منهم) عمَّكَ ٱلعجوز (ن)، يرسمُهُ كما تراه، منحلَّ ٱلقوَّة، منحنيَ ٱلصُّلب، مُرْعَشاً مُتزلزلاً متضعضَعاً؛ قد زعزعتْهُ ٱلريح، وضرَبهُ ٱلبرد، وخنقَتْهُ ٱلسُّحُب؛ وله وجهٌ عليهِ ذبولُ ٱلدنيا، يُنبىءُ أنَّ دمَهُ قد وُضِعَ من جسمِهِ في برَّادَةٍ، وٱلكونُ كلُّهُ من حولِهِ ومن فوقِهِ أسبابُ روماتزم...

ثُمَّ يُصورُهُ وقد وقفَ هناك ساهِماً كئيباً، رافعاً رأسَهُ ينظرُ إلى السماء.

* * *

قالَ ٱلمحدِّث: وضحكْنا جميعاً، ثم قالَ ٱلأستاذُ (م): لَعمري إنَّ هذه ٱلحياةَ ٱلآدميَّةَ كَٱلآلةِ صاحبُها مهندسُها؛ فإنْ صَلُحَتْ وٱستقامَتْ فمِنْ علمِهِ بها وحِياطتِهِ لها، وإنْ فسدَتْ وٱختلَّتْ فمِنْ عبثِهِ فيها وإهمالِهِ إيَّاها، وليسَ على ٱلطبيعةِ في ذلك سبيلٌ لائمة؛ وٱلشيخُ ٱلضعيفُ ليسَ في هذه ٱلدنيا إلَّا الصورةُ ٱلهزليةُ لِمفاسدِ شبابِهِ وضعفِهِ ولينِهِ ودَعتِه، تُظهرُها ٱلدنيا لِيسخرَ مَنْ يسخرُ ويتَّعِظَ مَنْ يَتَّعِظُ.

قالَ (ن): أكذلك هو يا أستاذ؟

قالَ ٱلأستاذُ: بلْ هيَ ٱلصورةُ ٱلجِدِّيَّةُ من هذه ٱلباطلةِ ٱلتي دأبُها[1] أَلَّا تُصرِّحَ عن حقيقتِها إلَّا في ٱلآخر، فتُظهرُها ٱلدنيا لِيُجِلَّ ٱلحقيقةَ مَنْ يُجلُّها؛ وليسَ إلَّا بهذه ٱلطريقةِ يُعرفُ من خرابِ ٱلصورةِ خرابُ ٱلمعنى.

قالَ ٱلعجوزُ (ن): آهِ من إجلالِ ٱلشيخوخةِ وَٱحترامِ ٱلناسِ إيَّاها! إنَّهم يَرَوْنَهُ ٱحتراماً لِلشيخِ وَٱلشيخُ لا يراهُ إلَّا تعزية. وما ٱلأشياخُ ٱلهَرْمَى إلَّا جِنازاتٌ قبلَ وقتِها، لا تُوحي إلى ٱلناسِ شيئاً غيرَ وحي ٱلجنازةِ من مهابةٍ وخُشوع.

قالَ ٱلأستاذ: إنَّما أنت دائماً في حديثِ نفسِكَ، ولو كُنْتَ نهراً يا مُسْتنقعُ لَما كانَ في لغتِكَ هذه ٱلأحرفُ مِنَ ٱلبعوض.

قالَ ٱلعجوزُ ٱلظريف: إنَّ هذا ليسَ من كلامِ ٱلفلسفةِ ٱلتي نتنازعُها بينَنا، تَرُدُّ عليَّ وأردُّ عليك، ولكنَّهُ كلامُ القانونِ ٱلذي لك وحدَكَ أنْ تتكلَّمَ بِهِ أيُّها ٱلقاضي.

قال (م): صرِّحْ وبيِّنْ فما فِهَمْنا شيئاً.

قالَ ٱلعجوز: هذا كلامٌ قُلتُهُ قديماً في حادثةٍ عجيبة؛ فقد رُفعَتْ إليَّ ذاتَ يومٍ قضيةُ شيخٍ هرِمٍ كانَ قد سرقَ دجاجة؛ وتوسَّمْتُهُ فإذا هو من أذكى ٱلناس، وإذا هو يجلُّ عن موضعِهِ مِنَ ٱلتهمة، ولكنْ صحَّ عندي أنَّهُ قد سرقَ، وقامَتِ ٱلبيِّنةُ عليهِ ووجبَ ٱلحُكم؛ فقلْتُ له: أيُّها ٱلشيخ، ما تستحي وأنت شائبٌ أنْ تكونَ لصّاً؟

قال: يا سيدي ٱلقاضي، كأنَّكَ تقولُ لي: ما تستحي أنْ تجوع؟

فوَرَدَ عليَّ من جوابِهِ ما حيَّرني، فقلْتُ لَه: وإذا جُعْتَ أما تستحي أنْ تسرِقَ؟

(١) دأبها: عادتها.

قال: يا سيّدي القاضي، كأنّكَ تقولُ لي: وإذا جُعْتَ أما تستحي أنْ تأكل؟

فكانَتْ هذه أشدَّ عليَّ، فقُلتُ لَه: وإذا أكلْتَ أما تأكلُ إلَّا حراماً؟

فقال: يا سيدي ٱلقاضي، إنَّكَ إذا نظرْتَ إليَّ محتاجاً لا أجدُ شيئاً، لم ترني سارقاً حينَ وجدْتُ شيئاً.

فأفحَمني ٱلرجلُ على جهلِهِ وسذاجتِه، وقلْتُ في نفسي: لو سرقَ أفلاطونُ لكانَ مثلَ هذا؟ فتركْتُ ٱلكلامَ بٱلفلسفةِ وتكلمْتُ بٱلقانون ٱلذي لا يملكُ ٱلرجلُ معه قوْلاً يُراجعني بهِ، فقلْت: ولكنَّكَ جِئْتَ إلى هذه ٱلمحكمةِ بٱلسرقة، فلا تذهبْ من هذه ٱلمحكمةِ إلَّا بٱلحبسِ سنتين.

* * *

قالَ محدِّثُنا: وأرمضَني هذا ٱلعجوزُ ٱلثرثارُ وملأَ صدري، إذْ ما بَرِحَ يُديرُني وأُديرُهُ عن (كاترينا ومرغريت)، ورأيْتُ كلَّ شيءٍ قد هرِمَ فيهِ إلَّا لِسانَهُ، فحملَني ٱلضجرُ وٱلطيشُ على أنْ قلْتُ لَه: وهَبِ[1] ٱلقضيةَ كانَتْ هي قضيةَ (كاترينا) وقد رُفِعَتْ إليك مُتَّهمة، أفكُنْتَ قائلاً لها: جِئْتِ إلى ٱلمحكمةِ بٱلسرقةِ فلا تذهبينَ مِنَ ٱلمحكمةِ إلَّا بٱلحبسِ سنتين؟

وَجَرَتِ ٱلكلمةُ على لِساني وما ألقيْتُ لها بالاً ولا عرفْتُ لها خطراً؛ فٱكفهرَّ ٱلقاضي ٱلعجوزُ وتربَّدَ وجهُهُ غضَباً، وقال: يا بغيض! أحسْبَتني كُنْتُ قائلاً لها: جِئْتِ إلى المحكمةِ بٱلسرقةِ فلا تذهبي مِنَ ٱلمحكمةِ إلَّا بٱلقاضي. . .؟

وغضِبَ ٱلأستاذُ (م)، وقال: ويحكَ! أهذا من أدبِكُمُ ٱلجديدِ ٱلذي تأدَّبْتُم بِهِ على أساتذةٍ منهمُ ٱلفَجرةُ ٱلذين يُكذِّبون ٱلأنبياءَ ولا يُؤْمنونَ إلَّا بدينِ ٱلغريزةِ ويسوِّغونَكم مذاهبَ ٱلحميرِ وٱلبِغالِ في حريَّةِ ٱلدم. . .؟ أما إنِّي لَأَعلمُ أنَّكُم نشأْتُم على حريَّةِ ٱلرأي، ولكنَّ ٱلكلمةَ بينَ ٱثنينِ لا تكونُ حرةً كلَّ ٱلحريَّةِ إلَّا وهيَ أحياناً سفيهةٌ كلَّ ٱلسفاهة، كهذِهِ ٱلقَوْلةِ ٱلتي نطقَتَ بها.

لقد كانَ ٱلناسُ في زمنِنَا ٱلماضي أناساً على حدة، وكانَتِ ٱلآدابُ حالاتٍ عقليةً ثابتةً لا تتغيَّرُ ولا يجوز أنْ تتغيَّر، وكان الأستاذُ الكافرُ بينَه وبينَ نفسِهِ لا يكونُ معَ تلاميذِهِ إلَّا كَٱلمومس: تجهدُ أنْ تربِّيَ بنتَها على غيرِ طريقتِها!

---

(١) هب: افترض.

قالَ ٱلحدث: فَلجلْجْتُ وذهبْتُ أعتذر، ولكنَّ ٱلعجوزَ (ن) قطعَ عليَّ وأنشأَ يقولُ وقدِ ٱنفجرَ غيظُهُ: لقد تمَّتْ في هؤلاءِ صنعةُ حريَّةِ ٱلفكرِ، كما تمَّتْ من قبلُ في ذلك ٱلواعظِ ٱلمعلِّم ٱلقديم ٱلذي حدَّثوا عنهُ أنَّهُ كانَ يقصُّ على ٱلناسِ في ٱلمسجدِ كلَّ أربعاء فيُعلِّمُهُم أمورَ دينِهم ويعظُهُم ويُحذِّرُهُم ويُذكرُهُمُ ٱللَّهَ وجنتَهُ ونارَه؛ قالوا: فٱحتبسَ عليهم في بعضِ ٱلأيام وطالَ ٱنتظارُهُم لَه، فبينما هم كذلك إذْ جاءَهُم رسولُهُ فقال: يقولُ لكم أبو كعب: انصرفوا فإنِّي قد أصبحْتُ مخموراً...

هذا ٱلقاصُّ ٱلمخمورُ هو عندَ هؤلاءِ ٱلسخفاءِ إمامٌ في مذهبِ حريَّةِ ٱلفِكْر، وفضليتُهُ عندَهم أنَّهُ صريحٌ غيرُ مُنافق... وكانَ يكونُ هذا قوْلاً في إمامِ ٱلمسجدِ لولا أنَّهُ إمامُ ٱلمسجد؛ غيرَ أنَّ حريَّةَ ٱلفِكْرِ تبني دائماً في كلِّ ما تبني على غيرِ ٱلأصل، وعندَها أنَّ ٱلمنطقَ ٱلذي موضوعُه ما يجب، ليسَ بِٱلمنطقِ ٱلصحيحِ؛ إذْ لا يجبُ شيءٌ ما دامَ مذهبُها ٱلإطلاقَ وَٱلحريَّة.

كلُّ مفتونٍ من هؤلاءِ يتوهَّمُ أنَّ ٱلعالَمَ لا بُدَّ أنْ يمرَّ من تفكيرِهِ كما مرَّ من إرادةِ ٱلخالق، وأنَّهُ لا بُدَّ لَهُ أنْ يحكمَ على ٱلأشياءِ ولو بكلمةٍ سخيفةٍ تجعلُهُ يحكمُ، ولا بُدَّ أنْ يقولَ (كُنْ وإنْ لم يَكُنْ إلَّا جهلُه؛ ومذهبُهُ ٱلأخلاقيّ: اطلبْ أنت ٱلقوةَ لِلْمجموع، أمَّا أنا فألتمسُ لِنفسيَ ٱلمنفعةَ وٱللذَّة! ويحسبونَ أنَّهم يحملونَ ٱلمجتمع؛ فإنَّهم لَيحملونَه، ولكنْ على طريقةِ ٱلبراغيثِ في جناحِ ٱلنسر.

قال (م): وكيف ذلك؟

قال: زعموا أنَّ طائفةً مِنَ ٱلبراغيثِ ٱتصَّلَتْ بجناحِ نسرٍ وَٱستمرَأَتْهُ ورَتَعَتْ[1] فيهِ، فصابرَها ٱلنسرُ زمناً، ثُمَّ تأذَّى بِها وأرادَ أنْ يرمِيَها عنُه، فطفِقَ يخفقُ بجناحيهِ يُريدُ نفضَها، فقالَتْ لَهُ ٱلبراغيث: أيَّها ٱلنسرُ ٱلأحمق! أمَا تعلمُ أنَّنا في جناحيك لِنحملَكَ في ٱلجو؟...

أمَّا أساتذةُ هذهِ ٱلحريَّةِ ٱلدينيَّةِ ٱلفكريَّةِ ٱلأدبيَّة، فقدْ قالَ ٱلحكماء: إنَّ بَعْرةً مِنَ ٱلبَعْرِ كانَتْ معلِّمةً في مدرسة.

قال (م): وكيفَ ذلك؟

(١) رتعت فيه: عاشت ترعى في جناحه.

قال: زعموا أنَّ بعرةَ كِبشٍ كانَتْ معلِّمةً في مدرسةِ ٱلحصى، فألَّفَتْ لِتلاميذِها كتاباً أحكَمَتْهُ وأطالَتْ لَهُ ٱلفِكْرة، وبلغَتْ فيهِ جهدَ ما تقدِرُ عليهِ لِتُظهرَ عبقريَّتَها ٱلجبَّارة؛ فكانَ ٱلبابُ ٱلأكبرُ فيهِ أنَّ ٱلجبلَ خُرافةٌ مِنَ ٱلخُرافات، لا يسوغُ في ٱلعقلِ ٱلحرِّ أَلَّا هذا، ولا يصحُّ غيرُ هذا في ٱلمنطق؛ قالَتْ: وَٱلبُرهانُ على ذلك أنَّهُمْ يزعمونَ أنَّ ٱلجبلَ شيءٌ عظيم، يكونُ في قدْرِ ٱلكِبشِ ٱلكبيرِ ٱلفَ ألفِ مرَّة؛ فإذا كانَ ٱلجبلُ في قدْرِ ٱلكِبشِ ٱلفَ ألفِ مرةٍ فكيف يُمكنُ أنْ يبعْرَهُ ٱلكِبش؟ . . .

قالَ الأستاذ (م): هذا منطقٌ جديدٌ سديدٌ أنَّهُ منطقُ بعرة!

قال (ن): وكلُّ قديم لَهُ عندَهم جديد، فكلمةُ (رجل) قد تخنَّثَتْ، وكلمةُ (شاب) قد تأنَّثَتْ، وكلمةُ (عفيفةٍ) قد تدنَّست، وكلمةُ (حيَاءٍ) قد تنجَّسَت؛ وَٱلزمنُ ٱلجديدُ ألَّا يعرفَ ٱلطالبُ في هذا ٱلعام ماذا تكونُ أخلاقُهُ في ٱلعامِ ٱلقادم. . . وَٱلحياةُ ٱلجديدةُ أنْ تُتقِنَ ٱلغشَّ أكثرَ مِمَّا تُتقِنُ ٱلعمل. . . وَٱلذمَّةُ ٱلجديدةُ أنَّ مالَ غيرِكَ لا يُسمَّى مالاً إِلَّا حينَ يصيرُ في يدِك. . . وَٱلصِّدقُ ٱلجديدُ أنْ تكذِبَ مائةَ مرَّة، فعسى أنْ يُصدِّقَ ٱلناسُ منها مرَّة. . . ثُمَّ ٱلإنسانُ ٱلجديد، وَٱلحُبُّ ٱلجديد، وٱلمرأةُ ٱلجديدة، وٱلأدبُ ٱلجديد، وٱلدينُ ٱلجديد، وَٱلأبُ ٱلجديد، وَٱلابنُ ٱلجديد، وما أدري وما لا أدري.

قالوا: (السوبرمان)، وتنطَّعوا[1] في إخراجِ ٱلمخلوقِ ٱلكاملِ بغيرِ دينِهِ وأخلاقِه، فسخِرَتْ منهمُ ٱلطبيعةُ فلم تُخرجْ إِلَّا ٱلناقصَ أفحشَ ٱلنقص، وتركَتْهُم يعملون في ٱلنظريَّةِ وعمِلَتْ هيَ ٱلحقيقة.

* * *

قالَ محدِّثُنا: ونهضَ ٱلعجوزُ (ن)، وهو يقول: تباركْتَ وتعالَيْتَ يا خالقَ هذا ٱلخلق! لو فهِمُوا عنك لَفَهِموا ٱلحِكْمةَ في أنَّكَ قد فتحْتَ على ٱلعِلْمِ ٱلجديدِ بِٱلغازاتِ ٱلسامَّةِ. . .

قال: ولمَّا ٱنصرفَ ٱلعجوز، قلْتُ لِلأُستاذ (م): ولكنْ ما خبرُ (كاترينا) و(مرغريت) وسنة ١٨٩٥؟

فقال: أيَّها ٱلأبلهُ، أمَا أدركْتَ بعدُ أنَّ ٱلعجوزينِ قد سخرا منكَ بأسلوبٍ جديد. . .

---

(١) تنطّعوا في الكلام: تعمّقوا وغالوا وتأنّقوا وفي العمل تحذّقوا.

السطر ٱلأخيرُ مِنَ ٱلقصة

رجعْتُ إلى أوراقٍ لي قديمةٍ يبلغ عمرُها ثلاثينَ سنةً أو لِواذَها، تزيدُ قليلاً أو تنقصُ قليلاً، وجعلْتُ أُفلِّي هذه الأوراقَ واحدةً واحدة، فإذا أنا على أطلالِ ٱلأيام في مدينةٍ قائمةٍ من تاريخيَ ٱلقديم، نائمةٍ تَحْتَ ظُلُماتِها ٱلتي كانَتْ أنوارَ عهدٍ مَضَى؛ وإذا أنا منها عهدٌ في أيام حِدْثانِهِ ونشاطِهِ إلَّا ٱتَّصلَ بينَهما سِرّ؛ ومن طبيعةِ ٱلقلْبِ ٱلعاشقِ في حنينِهِ أنْ يَجْعَلَ كلَّ شيءٍ يَتَّصلُ بِهِ كأنَّهُ ذو قلْبٍ مثلِهِ لَهُ حنينٌ ونجْوى!

وذلك ٱلتَّلاشي ٱلمحفوظُ في هذه ٱلأوراق، يَحفظُ لي فيها وفيما تحتويهِ نفْساً وطبيعةً كانَتْ نفسَ شاعرٍ وطبيعةَ روْضة، في عهدٍ مِنَ ٱلصِّبَى كنْتُ فيهِ أتقدَّمُ في ٱلشبابِ وفي ٱلكوْنِ معاً كأنّ ٱلأشياءَ تُخْلَقُ فيَّ خَلْقاً آخر؛ فإذا قَرَضْتُ[1] شِعْراً وٱستوى لي على ما أُحِبُّ، أحسسْتُ إحساسَ ٱلملِكِ ٱلذي يَضُمّ إلى مملكتِهِ مدينةً جديدة؛ وإذا تناولْتُ طاقةً مِنَ ٱلزهر وتأمَّلتُها على ما أُحِبُّ، شَعرْتُ بها كأجملِ غانيةٍ[2] مِنَ ٱلنساءِ تُوحِي إليَّ وحيَ ٱلجمالِ كلِّه؛ وإذا وقفْتُ على شاطىءِ ٱلبحر، تَرَجْرجَ ٱلبحرُ بأمواجِهِ في نفسي، فكنْتُ معَهُ أكبرَ مِنَ ٱلأرضِ وأوسعَ مِنَ ٱلسماء. أمَّا ٱلحُبُّ... أمَّا ٱلحُبُّ فكانَتْ لَهُ معانيهِ ٱلصغيرةُ ٱلتي هيَ كَضروراتِ ٱلطفلِ لِلطفلِ: ليسَ فيها كبيرُ شيءٍ، ولكنَّ فيها أكبرَ ٱلسعادة، وفيها نَضْرَةَ ٱلقَلْبِ.

عهدٌ مِنَ ٱلصِّبى كانَتْ فيهِ طريقةُ ٱلعقلِ من طريقةِ ٱلحُلْم؛ وكانَتِ ٱلعاطفةُ هيَ عاطفةً في ٱلنفس، وهيَ في وقتٍ معاً خُدْعَةٌ مِنَ ٱلطبيعة؛ وكانَ ما يأتي يُنْسي دائماً ما مضى ولا يُذَكِّرُ به؛ وكانَتِ ٱلأيامُ كَالأطفالِ ٱلسعداء: لا ينامُ أحُدُهم إلَّا على فكرةِ لَعِبٍ ولَهْو، ولا يستيقظُ إلَّا على فِكْرةِ لَهْوٍ ولعب: وكانَتِ ٱللُّغةُ نفسُها كأنَّ فيها ألفاظاً مِنَ ٱلحلْوى؛ وكانَتِ ٱلآلامُ ـ عاى قلتِها ـ كَٱلمريضِ ٱلذي معَهُ دواؤهُ ٱلمجرَّب، وكانَتْ فلسفةُ ٱلجمالِ تضحكُ من فيلسوفِها ٱلصغير، ٱلواضحِ كُلَّ

---

(١) قرضت الشعر: أنشدته.

(٢) الغانية: الشابة اغتنت بجمالها عن الزينة.

ٱلوضوح، ٱلمقتصرِ بكلِّ لفظٍ على ما يُعرفُ من معناه، ٱلمتفَلْسِفِ في تحقيقِ ٱلرغبةِ أكثرَ مِمَّا يتفلسفُ في تخيُّلِ ٱلفِكْرة!

هُوَ ٱلعهدُ ٱلذي مِنْ أخصِّ خصائصِهِ أنْ تعملَ، فيكونَ ٱلعملُ في نفسِهِ عملاً ويكونَ في نفسِكَ لذة.

* * *

في أوراقي تلك بحثْتُ عَنْ قصّةٍ عُنوانُها «ٱلدّرسُ ٱلأوّلُ في علبَةِ كبريت» كتبْتُها في سنةِ ١٩٠٥، وأنا لا أدري يومئذٍ أنّها قصّةٌ يَسْبَحُ في جوِّها قَدْرٌ روائيٌّ عجيب، سيأتي بعدَ ثلاثينَ سنةً فيكتبُ فيها ٱلسطرَ ٱلأخيرَ ٱلذي تَتِمُّ بِهِ فلسفةُ معناها.

وهأنذا أنشرُها كما كتبْتُها؛ وكانَ هذا ٱلقلمُ إذ ذاك غَضّاً لم يَصْلُبْ، وكان كَٱلغصنِ تميلُ بِهِ ٱلنّسمة، على أنَّ أساسَ بلاغتِهِ قد كانَ ولم يزلْ، بلاغةَ فرحِهِ أو بلاغةَ حزنِه؛ وهذه هيَ ٱلقصة:

«عبدُ ٱلرحمنِ عبدِ ٱلرحيم» غلامٌ فلّاح، قد شهِدَ من هذه ٱلدنيا تسعةَ أعوام، مرّتْ بِهِ كما يمرّ ٱلزمنُ على ميت: لا تزيدُهُ حياةُ ٱلأحياءِ إلّا إهمالاً. فنشأَ مَنْشَأَ أمثالِهِ مِمَنْ فقدوا ٱلوالدينِ وَٱنْتُزِعوا من شَمْلِهم[1] فتُركوا لِلْطبيعةِ تَفْصِلُهُم وتَصلُهُم بِٱلحياة، وتُضيِّقُ لهم فيها وتوَسِّع.

وهيَّأتِ ٱلطبيعةُ منه إنساناً حيوانيّاً، لا يبلغُ أشُدَّهُ حتى يُغالبَ على ٱلرزقِ بِٱلحيلةِ أوِ ٱلجريمة، ويستخلصَ قُوتَهُ كما يرتزقُ ٱلوحْشُ بِٱلمِخْلَبِ وٱلنّاب؛ ولن يكونَ بعدُ إلّا مجموعةً مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلحيوانيَّةِ ٱلفاتكةِ ٱلجريئة، فإنَّ ٱلطبيعةَ متى ٱبتدأتْ عملها في تحويلِ ٱلإنسانِ عن إنسانيَّتِه، نزلَتْ بِهِ إلى ٱلعالَمِ ٱلحيوانيّ، ووصلَتْهُ بِما فيهِ مِنَ ٱلشرِّ وٱلدناءة، ثُمَّ لا تتركُ عملَها حتى يتحوّلَ هو إليها.

وألِفَ «عبدُ ٱلرحمن» في بلدِهِ حانوتَ رجلٍ فقير، يستغني بِٱلبيعِ عنِ ٱلتكففِ[2] وعنِ ٱلمسألة؛ فكانَ ٱلغلامُ يُكْثِرُ ٱلوقوفَ عندَه، وكانَ يُطْعَمُ من صاحبِهِ أحياناً كرزقِ ٱلطير، فُتَاتاً وبقايا؛ إذْ كانَ ٱلغلامُ شحَّاذاً، وكانَ صاحبُ ٱلحانوتِ لا يرتفعُ عنِ ٱلشِّحاذةِ إلّا بمنزلةٍ تجعلُ ٱلناسَ يتصدَّقون عليهِ بِٱلشراءِ من هَنَاتِهِ[3] ٱلتي يُسميها بِضاعة: كَٱلخيطِ، وَٱلإبرة، وَٱلكِبريتِ وٱلمِلْح، وغزالٍ لِلولد، وكُحْلٍ

---

(١) شملهم: الجمع العائلي.

(٢) التكفف: التسوّل والمسألة.

(٣) هناته: التافه من البضائع.

لِلصَّبَايا، ونشوقٍ لِلعجائز، ونُسْخَةِ ٱلشيخِ ٱلشَّعراني، وما لفَّ لفَّها[1] مِمَّا يصعدُ ثمنُهُ من كسورِ ٱلمليم، إلى ٱلمليم وكسورةٍ!

وتَغَفَّلَهُ[2] ٱلغلامُ مرّةً وأهوى بيدِهِ إلى ذخائرِ ٱلحانوت، فٱلتقطَتْ «علبةَ كبريتٍ» كانَ ٱلفَرْقُ كلُّ ٱلفرقِ بينَ أنْ يسرقَها وأنْ يشتريَها ـ نصفَ مليم؛ ولكنْ مَنْ لَهُ «بالعشرينَ ٱلخُرْدة» وهيَ عندَ مثلِهِ دينارٌ منَ ٱلذهبِ يرنّ رنيناً ويرقصُ على ٱلظُّفرِ رقْصةً إنجليزيَّة؟

وماذا يصنعُ بِٱلعُلْبة؟ همَّتْ نفسُهُ أنْ تُجادِلَهُ وَلمَّا تَسكُنْ رَعْشَةُ يدِهِ من هَوْلِ ٱلإثم[3]، ولكنَّ ٱلغلامَ كانَ طبيعيّاً ولم يكنْ فيلسوفاً، ولذلك رأى أنْ يُحْرِزَ ٱلحقيقةَ بعدَ أنْ وقعَتْ يدُهُ عليها. وقدِ ٱصطلحَ ٱلناسُ على أنَّ مادّةَ ٱلسرقةِ هيَ «مدُّ ٱليد» أخطأَتْ أم أصابَتْ، وجاءَتْ بِٱلغالي أو جاءَتْ بِٱلرخيصِ؛ فضمَّ أصابعَهُ على ٱلعلبةِ وَٱنتزعَها، وتركَ في مكانِها فضيلةَ ٱلأَمانةِ ٱلتي لم يعرفْ لَهُ ٱلناسُ قِيمتَها فهانَتْ كذلك على نفسِهِ وٱنطلقَ وهيَ تُناديه:

أيُّها ٱلغلام، أتدفعُ ثمنَ علبةِ ٱلكبريتِ سنَتينِ من عمرِك؟ وهل خلا ٱلناسُ مِمَنْ يعرفون لِعُمركَ قِيمة؟

وٱرتدَّ رجْعُ ٱلصوتِ[4] ٱلخفيّ إلى قلبِهِ من حيثُ لا يشعر، فَضَربَ قلبُهُ ضَرباتٍ مِنَ ٱلخوْف، ونزا نزْوةً مضطربة؛ فٱلتفتَ ٱلغلامُ مرَّةً أخرى، ثُمَّ أمْعنَ[5] في ٱلفِرارِ وتركَ ٱلأمانةَ تُناديه:

أيُّها ٱلغلام، إنَّ لَكَ في ٱلآخرةِ ناراً لا تُوقدُ بهذا ٱلكبريت، ولك في ٱلدنيا سجنٌ كهذهِ ٱلعلبةِ، فَٱلْعبِ العَبْ ما دامَ ٱلناسُ قد أهملوك! العبْ بِٱلثّقابِ ٱلذي في يدِك فسيمتدُّ فيك معنى ٱللهَّبِ حتى يجعلَ حياتَكَ في أعمارِ ٱلناسِ دُخاناً وناراً؛ وستكونُ أيَّامُك أعواداً كهذا ٱلكبريت: تشتعِلُ في ٱلدنيا وتُحرق.

وكأَنّ أذنابَ ٱلسِّياطِ كانَتْ تُلْهِبُ ظهرَ ٱلغلام ٱلمسكين، ولكنَّه ما كادَ يلتفتُ هذهِ ٱلمرةَ حتى كانَ في قبضةِ صاحبِ ٱلحانوت، وإذا هو بِكلمةٍ من لغةِ كَفِّهِ ٱلغليظة، خَيَّلَتْ لَهُ في شعرِها أنَّ جِداراً ٱنقضَّ عليهِ، وتَلَتْها جملةٌ من قوافي ٱلصَّفْعِ جَلْجَلَتْ في أذنيهِ كَٱلرعد، وأعقبَ ذلك مثلُ ٱلموْجِ من جماعاتِ ٱلأطفالِ أحاطَ بِهِ

---

(١) ما لفّ لفّها: ما شاكلها وشابهها.

(٢) تغفله: غافله: انتهز فرصة غفلته.

(٣) هول الإثم: فظاعة الجريمة.

(٤) رجع الصوت: الصدى.

(٥) أمعن: زاد.

فتركَ هذا ٱلزَّورقَ ٱلإنسانيَّ ٱلصغيرَ يتَكفأُ على صَدَماتِ ٱلأيدي، فما أحَسَّ ٱلغلامُ ٱلتَّعِسُ إلّا أنَّ ٱلكبريتَ ٱلذي في يدِهِ قدِ ٱنقدحَ في رأسِهِ، وكانَتْ أناملُ صاحبِ ٱلحانوتِ كأنَّما تحكُّ أعوادَهُ في جِلدِ وجهِهِ ٱلخَشِنِ!

* * *

وذهبوا به إلى (دَوَّارِ) ٱلعُمْدةِ يقضي فيهِ ٱلليلَ ثُمَّ يُصبحُ على رحْلةٍ إلى ٱلمركزِ وَٱلنيابة؛ وَٱنطرحَ ٱلمسكينُ منتظراً حُكْمَ ٱلصباح، مُؤمِّلاً في عقلِهِ ٱلصغيرِ ألا يُفْصِحَ ٱلنهارُ حتى يكونَ «سيدُنا عزرائيل» قد طمسَ[1] ٱلجريمةَ وشهودَها، ثُمَّ أغفى مطمئنّاً إلى ملكِ ٱلموتِ وأنَّهُ قد أخذَ في عملِهِ بجدّ، وأيقنَ عندَ نفسِهِ أنْ سيشحذُ في ٱلخميسِ مِمَّا يُوزعُ في ٱلمقبرةِ صدقةً على أرواحِ ٱلعمدة، وصاحبِ ٱلحانوت، وٱلخفيرِ ٱلذي عهدوا إليهِ جَرَّهُ إلى المركز!... وكيفَ يشكُّ في أنَّ هذا واقعٌ بهم وهو قد توسَّلَ بِٱلوليِّ فلانٍ ونذَرَ لَهُ شمعةً يسرقُها من حانوتٍ آخر...!

هكذا عرفَ ٱلشرَّ قلْبُ هذا ٱلصبي، وَٱنتهى بِهِ عدلُ ٱلناسِ إلى أفظعَ من ظُلم نفسِهِ، وكأنَّهم بذلك ٱلقانونِ ٱلذي يُصلحونَهُ بِهِ على زعمِهم، قد ناولوه سُبْحةً لِيظهَرَ بها مظهرَ ٱلصالحين؛ ولم يُفهِمُوه شيئاً ففهِمَ أنَّهم يقولون له: هذه ٱلجريمةُ واحدة، فعُدَّ جرائمَك على هذه ٱلسبحةِ لتِعرفَ كم تبلغ!

كانَتْ في ٱلحقيقةِ لُعبةً لا سَرِقة، وكانَتْ يدُ ٱلغلام فيما فعلَتْ مُستجيبةً لِلقانونِ ٱلمرحِ وَٱلنشاطِ وَٱلحركة، كما تكونُ أعضاءُ ٱلطفلِ لا كما تكونُ يدُ ٱللصِّ؛ وكانَ أشبهَ بِٱلرضيعِ يمدُّ يدَهُ لِكُلِّ ما يَراه، لا يميِّزُ ضارّةً ولا نافعةً، وإنَّما يُريدُ أنْ يشعرَ ويُحقِّقَ طبيعتَه؛ وكانَ كلُّ ما في ٱلأمر وقُصَارَى ما بَلَغ ـ أنَّ خيالَ هذا الغلام ألَّفَ قصَّةً من قصصِ ٱللَّهو، وأنَّ ٱلكِبارَ أخطئوا في فهمِها وتوجيهِها...! ليسَتْ سرقةُ ٱلطفلِ سرقة، ولكنَّها حقٌّ من حقوقِ ذكائِهِ يُريدُ أنْ يظهر.

* * *

وَٱنتهى «عبدُ ٱلرحمن» إلى ٱلمحكمة، فقضَتْ بسجنِهِ في (إصلاحيةِ ٱلأحداث) مدَّة سنتين، وٱستأنفَ لَهُ بعضُ أهلِ ٱلخيرِ في بلدَة؛ صدقةً وٱحتساباً... إذا لم يكلِّفِ ٱلاستئنافُ إلّا كتابةَ ورقة؛ فلمَّا مَثَلَ ٱلصغيرُ أمامَ رئيسِ ٱلمحكمةِ لم يكنْ معَهُ لِفقرِهِ محامٍ يدفعُ عنه، ولكنِ ٱنطلقَ من داخلِهِ مُحامٍ شيطانيٌّ يتكلمُ بِكلامٍ عجيب،

---

(١) طمس: غطّى.

هو سخريةُ ٱلجريمةِ مِنَ ٱلمحكمة، وسخريةُ عملِ ٱلشيطانِ من عَمَلِ ٱلقاضي. . !

سألَهُ الرئيس: «ما ٱسمُك؟».

ـ: «اسمي عبده، ولكنَّ ٱلعُمدةَ يسميني: يأبن ٱلكلب!».

ـ: «ما سنك؟».

ـ: «أبُويا هُوَ اللي كان سَنَّان».

ـ: «عُمْرك إيه؟».

ـ: «عُمْري؟ عُمْرِي ما عَمَلت شَقَاوة!».

النيابة لِلْمحكمة: «ذكاءٌ مخيف يا حضرات القضاة! عُمرُهُ تِسْعُ سنوات!»

الرئيس: «صنَعتك إيْه؟».

ـ: «صنَعتي ألْعَب مع محمود ومريم، وأضْرَب اللي يِضْرَبْني!».

ـ: «تعيش فينْ؟».

ـ: «في البلد!».

ـ: «تاكل منين؟».

ـ: «آكل مِنَ الأكل!».

ٱلنيابة لِلمحكمة: «يا حضراتِ ٱلقضاة، مثلُ هذا لا يسرقُ علبةَ كبريتٍ إلَّا لِيُحرِقَ بها البلد. . . !».

الرئيس: «أَلَكَ أمّ؟».

ـ: «أمي غضِبتْ على أبويا، وراحَتْ قعدَتْ في ٱلتُّرْبة؛ مارِضْيِتْش تِرْجَع!».

ـ: «وأبوك؟».

ـ: «أبُويا لآخَرْ غِضبْ وراحْ لها».

الرئيسُ ضاحكاً: «وأنتَ؟».

ـ: «وٱللَّهِ يا أفندي عاوِزا غَضب، مُشْ عارِف أغضب ازَّاي!».

ـ: «إنتَ سرقْتَ علبةَ الكبريت؟».

ـ: «دِي هيَّ طارت من الدكان، حسبتها عصفورة ومْسِكْتها. . .».

النيابة: «وليه ما طارتْشِ العلب اللي مَعاها في الدكان؟».

ـ: «أنا عارف؟ يمْكِن خافت مني!».

النيابةُ لِلمحكمة: «جراءةٌ مخيفةٌ يا حضراتِ القضاة، المتهمُ وهو في هذه السنّ، يشعرُ في ذاتِ نفسِهِ أنَّ ٱلأشياءَ تخافُه!».

فصاحَ ٱلغلامُ مسروراً من هذا الثناء. . . «واللّهِ يا أفندي إنتَ راجِل طيب! أديكْ عِرِفْتني، ربنا يكفيك شرّ العُمدة والغفير!».

* * *

وأُمضى ٱلحُكْمُ في ٱلاستئناف، وخرجَ ٱلصغيرُ معَ رجالٍ مِنَ ٱلمجرمينَ يسوقُهمُ ٱلجند، ثمَّ ٱحْتَبَسوا ٱلجميعَ فترةً مِنَ ٱلوقتِ عندَ كاتبِ ٱلمحكمة، لِيستوفيَ أعمالَهُ ٱلكتابيَّة؛ ثُمَّ يُساقوا من بعدُ إلى ٱلسجن.

وجلسَ «عبدُ ٱلرحمن» على الأرض، وقدِ ٱكتنفَهُ عن جانبيهِ طائفةٌ مِنَ ٱلمجرمينَ يتحادثون ويتغامزون، وكلُّهم رِجالٌ ولكنَّه وحَدهُ ٱلصغيرُ بينهم؛ فٱطمأنَّ شيئاً قليلاً، إذْ قدَّرَ في نفسِهِ أنَّهُ لو كانَ هؤلاءِ قد أُريدَ بهم شرٌّ لَمَا سكنوا هذا ٱلسكون، وأنَّ ٱلذي يُرادُ بهم لا ينالُهُ هو إلَّا أصغرُ منه، كصفْعةٍ أو صفعتينِ مثلاً. . . وهو يسمعُ أنَّ الرجالَ يُقَتلون ويُحَرّقون ويَسمُّون ويعتدُون وينهبون؛ وما تكونُ (علبةُ ٱلكبريت) في جنبِ ذلك؟ وخاصةً بعدَ أنِ ٱستردَّها صاحبُها، وقد نال هو ما كفاهُ قبلَ الحكم!

وما لبِثَ بعدَ هذا ٱلخاطرِ ٱلجميل أنْ ردَّ ٱلاطمئنانُ في عينيهِ دموعاً كادَ يُريقُها الجزَع[1]، غيرَ أنَّ ٱلقلقَ ٱعتادهُ، فٱلتفتَ إلى كتَّابِ ٱلمحكمة مرَّةً وإلى ٱلجندِ مرَّة، ثُمَّ لوى وجهَهُ ولم يَستبحْ لِنفسِهِ أنْ يتجرَّأَ على ٱلفِكْرِ فيهم، لِأنَّهُ قابَلَ مهابتَهم بألهةِ بلدِه: ٱلعُمدةِ وَٱلمشايخ وٱلخفراء؛ فأدركَ أنَّ ٱلجنودَ هُمُ ٱلحكومةُ القادرة، وٱستدلَّ على ذلك بأزرارِهمُ ٱللَّامعة، وخناجرِهمُ ٱلصقيلة: وتمشَّتْ في قلبِهِ رهبةُ هذه ٱلخناجر، فٱضطربَ خشيةَ أنْ يكونوا قد أسلمُوه مَنْ يذبحُهُ، فنظرَ إلى ٱلذي يليه مِنَ ٱلمجرمينَ وسأله: «راحْ ياخْدُوني فينْ؟»، فأجابَتْهُ لكمةٌ خفيَّةٌ ٱنطلقَ لها دمعُه، حتى أسكَتَهُ ٱلذي يليه مِنَ ٱلجانبِ ٱلآخر، وكانَ في رأيه مِنَ ٱلصالحين؟

ثُمَّ ٱتصلَ ٱلجزَعُ بينَ قلبِهِ وعينيه، فهما تضطربانِ إلى ٱلجهاتِ ٱلأربع، وكأنَّما يُحاولُ أنْ يستشفَّ[2] من أيِّها سيأتيهِ ٱلموْتُ ذَبحاً؛ ولم يكنْ فَهِمَ معنى (الإصلاحيَّة)، وحَكَمَ ٱلقضاةُ عليهِ كأنَّهُ رجلٌ يفهمُ كلَّ شيء، ولم يرحموا هذه ٱلطفولةَ بِكلمةٍ مُفسرة. وعَدْلُ ٱلتربيَّةِ غيرُ عدلِ ٱلقانون، فكانَ ٱلواجبُ على القاضي ٱلذي يحكمُ على ٱلطفل، أنْ يجعلَ حُكْمَهُ أشْبَهَ بِصيغةِ ٱلقصةِ منه بصيغةِ ٱلحكْم، وأنْ يَدَعَ ٱلجريمةَ تنطلقُ وتذهبُ فلا يقولُ لها ٱمكُثي. . .

---

(١) الجزع: الخوف.

(٢) يستشفّ: يستطلع.

وبقيَ لِلخناخرِ رَهبتُها في نفسِ هذا ٱلمسكين، فلو أنَّهم قادوه إلى حبلِ ٱلشنَّاقةِ[1] لأفْهَمهُ (ٱلْحَبْلُ) معنى ٱلعقوبة، أمَّا وهو بين هذه ٱلخناجرِ ٱلمُغْمدةِ ـ وفي ٱلخناجرِ معنى ٱلذبح ـ فإنَّما هوَ ٱلذبحُ لا غيرُه.

وطرقَتْ أذنيهِ قهقهةُ ٱلمجرم عن يمينِهِ فٱستنقذتْهُ من هذا ٱلخاطر، فثبَّتَ عينيَهِ في ٱلرجل، فإذا هو يرى وجهاً متلألِئاً، وجِسْماً رابطَ ٱلجأش، وهُزُؤاً وسخريةً بِهؤلاءِ ٱلجنودِ وخناجرِهم.

وٱستراحَ ٱلغلامُ إلى صاحبِهِ هذا، وألحّ بنظرِهِ عليه، وٱبتدأ يتعلَّمُ في وجهِهِ ٱلفلسفة؛ وليسَتِ ٱلفلسفةُ مقصورةً على ٱلكتب، بلْ إنَّ لِكُلِّ إنسانٍ حالةً تشغلُه، فَنَظَرُهُ في ٱعتبارِ دقائقِها وكشفِ مستورِها هَو ٱلفلسفةُ بعينِها.

وقالَ ٱلغلامُ لِنفسِه: «هذا ٱلرجلُ أقوى من كلِّ قوَّة؛ فهو محكومٌ عليهِ ولا يُبالي، بلْ يقهقِهُ ضحكاً؛ فهذا ٱلحكمُ إذن لا يُخيفُ؛ لا، بلْ هو تعوّدَ ٱلأحكام؛ إذن فمَنْ تعودَ ٱلأحكامَ لم يَخَفِ ٱلأحكام؛ إذن يا عبدَ ٱلرحمنِ ستتعوَّد، فإنَّ ٱلخوفَ هذه ٱلمرَةَ غطَّك من (علبةِ ٱلكبريت) في حريقٍ متسعِر، وما قَدْرُ (علبةِ ٱلكبريت)؟ فلو كانَتِ ٱلسرقةُ جاموسةً ما لقيْتُ أكثرَ من ذلك؛ يا ليتني إذن... ولكنِّي لا أزالُ صغيراً، فمتى كبِرْت... آه متى كبِرْت...».

وبدأ ٱلقانونُ عملَهُ في ٱلغلام؛ فَطردَ منهُ ٱلطفلَ وأقرّ فيهِ ٱلمجرم.

وأطرقَ «عبدُ ٱلرحمن» هادئاً ساكناً. وقامَتْ في نفسِهِ محكمةٌ مِنَ ٱلأبالسةِ بِقُضاتِها ونِيابتِها؛ يُجادِلُ بعضُهُم بعضاً، ويُداولون بينَهم أمرَ هذا ٱلغلامِ على وجهٍ آخر.

وقالَ شيطانٌ منهم: «ولكنَّا نخشى أمرين: أحَدهما أنَّ (ٱلإصلاحيَّة) ستُخرجُهُ بعدَ سنتينِ شريفاً يحترفُ؛ وٱلثاني أنَّ الناسَ ربَّما تولَّوه بِٱلتربيةِ وٱلتعليمِ في ٱلمدارسِ رحمةً وشفقة؛ فيخرجُ شريفاً يحترف».

وما أسرعَ ما نفى ٱلخوفَ عنهم قولُ ٱلغلامِ نفسِهِ بلهجةٍ فيها ٱلحِقْدُ وَٱلغيْظُ وقد صفَعُه ٱلجنديُّ ٱلذي يقودُهُ إلى السجن ـ: «وِداكله على شَانْ علبة كبريت؟...».

في سنة ١٩٣٤ قَضتْ محكمةُ ٱلجناياتِ بِٱلموتِ شنقاً على قاتلِ مجرمٍ خبيثٍ عيَّارٍ مُتَشطرٍ؛ اسمهُ «عبد الرحمن عبد الرحيم».

---

(١) الشنَّاقة: المشنقة.

عاصفةُ القدَر

على شاطىءِ ٱلنيلِ في إقليم (ٱلغربيةِ) من هذا ٱلبرّ، قريةٌ ليسَ فيها من جبل، ولكنْ روحُ ٱلجبلِ في رجلٍ من أَهلِها، فإذا أنت ٱعتبرْتَهُ بِٱلرجالِ قوَّةً وضعفاً رأيْتَهُ ينهضُ فيهم بمنكبيهِ نهضةَ ٱلجبلِ فيما حولَه؛ وهو بطلُ ٱلقريةِ ولواءُ كلِّ معركةٍ تنشبُ فيها بينَ فتيانِها وبينَ فِتيان ٱلقرى ٱلمتناثرةِ حوْلَها؛ ولا تزالُ هذه ٱلمعاركُ بينَ شُبَّانِ ٱلقُرى كأنَّها من حركةِ ٱلدمِ ٱلحرِّ ٱلفاتح ٱلمتوارثِ فيهم من أجيالٍ بعيدة، ينحدرُ من جيلٍ إلى جيلٍ وفيهِ تلكَ ٱلقطراتُ ٱلثائرةُ ٱلتي كانَتْ تغلي وتفور، وهيَ كعهدِها لا تزالُ تفورُ وتغلي، ويلقبون هذا ٱلرجلَ ٱلشديدَ (بالجمل)، لِمَا يعرفونه من جَسامةِ خُلُقِهِ وصبرِهِ على ٱلشدائد، وٱحتمالِهِ فيها، وكونُهُ مع ذلك سَلِسَ ٱلقِيادِ سليمَ ٱلفِطْرةِ رقيقَ ٱلطبْع؛ على أنَّهُ أبطشُ ذي يدينِ إنْ ثارَ ثائرُهُ، وله إيمانٌ قويٌّ يستمسكُ بِهِ كما يتماسكُ ٱلجبلُ بعنصرِهِ ٱلصخري، إلَّا أنَّهُ يخلطُهُ ببعضِ ٱلخرافات؛ إذْ لا بُدَّ له من بعضِ ٱلجرائمِ ٱلشريفةِ ٱلتي يحملُ عليها فرْطُ ٱلقوَّةِ وَٱلمروءَةِ في مثلِهِ مَعَ مثلِه.

وليسَ في تلكَ ٱلقريةِ من بحر، غيرَ أَنَّ فيها شابّاً أعنفَ طيشاً وعُتُواً مِنَ ٱلموجةِ على بحرِها في يومِ ريح عاتية، حلوَ ٱلمنظرِ لكنَّهُ مرُّ ٱلطعم، صافي ٱلوجهِ لكنَّ لَهُ غوْراً بعيداً مِنَ ٱلدهاءِ وٱلْخبث، وهوَ ٱبنُ عُمدةِ ٱلبلدةِ وواحدُ أبويه وٱلوارثُ من دُنياهما ٱلعريضة، يبسطُ يديهِ على خمسمائةِ فدان، وقد أفسَدتْهُ ٱلنعمةُ وأهانَتْهُ عِزَّتُهُ على أهلِه؛ ولو ٱجتمعَتْ حسنتانِ لِتخرجَ منهما سيئةٌ مِنَ ٱلسيئاتِ بأسلوب مِنَ ٱلأساليب، لمَّا وَسِعَها إلَّا أسلوبُ نشأتِهِ من أبويهِ ٱلطيبين. تعلَّمَ وهو يعرفُ أَنَّهُ لا حاجةَ بِهِ إلى ٱلعِلْم، فجعلَتْ تلفظُهُ ٱلمدارسُ واحدةً بعدَ واحدةٍ كأَنَّهُ نواةُ ثمرةٍ إنسانيَّةٍ فإذا قِيلَ لَهُ في ذلك قال: إنَّ خمسمائةِ فدانٍ لا تسعُها مدرسة... وذهبَ إلى فرنسا يطلبُ ٱلعِلْمَ ٱلذي ٱستعصى عليهِ في مِصرٍ، فأرهفَ ذلك ٱلعِلْم... خيالَه وصقلَ حِسَّهُ، ورجعَ من باريسَ رقيقَ ٱلحاشيةِ خَنِثاً مُتظرِّفاً لا يصلحُ شرقيّاً ولا غربيّاً!

وليسَ في تلك ٱلقريةِ غابةٌ لكنْ فيها عذراءُ تلتفُّ من جسمِها في رِداءِ ٱلجمالِ ٱلطبيعيِّ ٱلرائع، ولها نفسٌ أشدُّ وُعورةً مِمَّا تنطوي ٱلغابةُ عليه؛ ففي ظاهرِها ٱلرونقُ ٱلذي يفتنُ فيجذُب إليها، وفي باطنِها ٱلقوَّةُ ٱلتي تلتوي فتدفعُ عنها؛ وهيَ ٱبنةُ عمِّ (ٱلجمل) وٱسمها (خضراء)، وكأنَّ فيها زهْوَ خضرةِ ٱلربيع، ولم تكنْ تعَشقُ إلَّا ٱلقوَّة، فما يُزيِّنُ لها مِنَ ٱلرجالِ إلَّا ٱبْنُ عمِّها، وهيَ شديدةُ ٱلإعجابِ بِهِ؛ وإنَّما إعجابُ ٱلمرأةِ برجلٍ مِنَ ٱلرجالِ مِفتاحٌ من مفاتيحِ قلبِها.

وكانَتْ (خضراءُ) جاهلةً كنِساءِ ٱلقُرى، بَيْدَ أنَّها تلميذةٌ بارعةٌ لِلطبيعةِ ٱلتي نشأَتْ فيها وزاولتْ أعمالَها؛ فهيَ بذلك أقوى نفساً وأشدُّ مِراساً مِنَ ٱلفتياتِ ٱلمتعلِّمات؛ إذ ٱتخذَتْ شكْلاً ثابتاً من أشكالِ ٱلحياة، وَٱلحياةُ هيَ صَنعَتْها هذه ٱلصنعةَ أو أقامَتْها على هذه ٱلهيئة، على حينِ أنَّ ٱلمتعلِّماتِ يُمضينَ أيامَ ٱلنشأةِ وسنَّ ٱلغريزةِ في ٱلتلقي عنِ ٱلألفاظِ وٱلكتب، وفي توهُّم ٱلصوَرِ ٱلمختلفةِ لِلٱجتماع دون مباشرتِها وفي توقّي أعمالِ ٱلحياةِ بدلاً من مُخالطتها؛ فيئُولُ ذلك منهنَّ إلى قوَّةٍ في ٱلتخيّلِ قلَّما ترضى ٱلحقيقةُ ٱلإنسانيَّةُ ٱلمؤلِمةُ حينَ تُصادمُها يوماً ما؛ وتَتِمُّ ٱلواحدةُ منهنّ، ولكنْ بِٱعتبارِ أنَّها تمَّتْ تلميذةً لِلمدرسةِ لا ٱمرأةً لِلْحياةِ بما فيها مِمَّا يُعجِبُ وما لا يُعجِبُ.

وكانَتْ خضراءُ أشبهَ بدورةِ ٱلنهار: تفتحُ أجفانَها على أشعةِ ٱلفجرِ كلَّ يوم، ولا تزالُ نهارَها في دأْبٍ وعمل، فنفى ذلك عن أخلاقِها ما يجلبُهُ ٱلسكونُ مِنَ ٱلخمولِ وَٱلميلِ إلى ٱلعبثِ وَٱلدُّعابة، وحصلَتْ لها مِنَ ٱلحياةِ حقيقةٌ عرفَتْ منها أنَّ ٱلمرأةَ عاملٌ من أكبرِ ٱلعواملِ في ٱلنظامِ ٱلإنسانيّ؛ عليهِ أنْ يصبرَ على ٱلكدِّ وَٱلتعبِ إذا أرادَ أنْ يظهرَ بِطبيعتِهِ ٱلحقيقيَّةِ لا بطبيعتِهِ ٱلمزوَّرةِ ٱلمصنوعة؛ ورأَتِ ٱلرجلَ يستأثرُ بجلائلِ ٱلأعمالِ ولا يتركُ لِلْمرأةِ إلَّا كما يتركُ عقربُ ٱلساعاتِ لِعقربِ ٱلثواني في ٱلرقعةِ ٱلتي تجمعُها؛ فهذا ٱلصغيرُ لا يبرحُ يضطربُ في «دائرتِهِ ٱلضيقة» يهتزُّ من جزءٍ إلى جزء، حتى إذا أتمَّ ٱلدقيقةَ في ستينَ هزةً كاملةً ذهبَ ٱلأولُ بفضلِها كلِّها وخطابِها خُطوةً واحدة: ثُمَّ يعودُ ٱلمستضعَفُ ٱلمِسكينُ إلى مثلِ عملِهِ ولا يزالُ دأبُهُما وإنَّ أكثرَهُما عملاً وتبعاً هو أقلُّهما قِيمةً وظُهوراً؛ ولكنَّ هذا ٱلضعيفَ ٱلمغبونَ[1] لم ينلْهُ ما نالَهُ إلَّا من كونِهِ هو وحدَهُ ٱلذي بُنِيَ في هذا ٱلنظامِ

(١) المغبون: المظلوم.

على فضيلةِ ٱلصبرِ وٱلدقة، لِيكونَ أساساً للآخرِ؛ فعرفَتْ (خضراءُ) كيف تُقَيِّدُ طبيعتَها من تِلْقاءِ نفسِها، وتُقرُّها على ٱلصبرِ وَٱلرضا وٱلسكونِ إلى حظِّها ٱلطبيعيِّ وَٱلاغتباطِ[1] بهِ؛ إذْ كان فضلُ ٱلرجلِ على ٱلمرأةِ ليسَ في كونِهِ أكثرَ منها فضلاً أو أسبابَ فضل، بلْ في كونِها هيَ أكثرَ منه حُبّاً وتسامحاً وصبراً وإيثاراً؛ ففضائلُها ٱلحقيقيةُ هيَ ٱلتي جعلتْهُ الأفضل، كما تجوعُ ٱلأمُّ لِتُطعمَ ٱبنَها!.

* * *

ورآها (ٱبنُ ٱلعُمدةِ) ولَمَّا تمضِ أيامٌ على رجوعِهِ من أوروبا، وقد لَبِثَ هناك بِضْعَ سِنين، وكانَ عهدُه بِٱلفتاةِ صغيرة، فَوثبَتْ إلى نفسِهِ في وثبةٍ واحدة، ورأى شباباً وجمالاً وروعةَ زينتِها في قلبِهِ وسوَّلتْ لَهُ مطمعاً مِنَ ٱلمطامع، وجعلتْهُ يرى ما يرى بمعنًى ويفهمُ منه ما يفهمُ بمعنًى غيرِهِ.

وكانَتْ حينَ رآها واقفةً على ٱلنيلِ تملأُ جرَّتها معَ نِساءٍ من قومِها وهُنَّ يتعابثْنَ[2] ويتضاحكْن، كأنَّ لِخصْبِ ٱلأرضِ في أرواحِهِنَّ أثراً بادياً، فإذا ما أقبلْنَ على ٱلنهرِ لِشأنٍ من شؤونهِنَّ تندَّتْ روحُ ٱلماءِ على ذلك ٱلأثرِ فٱهتزَّ وَٱهتزَّتِ ٱلمرأةُ بهِ، فإنْ كانَتْ ذاتَ مسحةٍ من جمالٍ رأيْتَ لها رفيفاً كرفيفِ ٱلزهرةِ حينَ يمسحُها ٱلندى، وذهبَتْ تتموَّجُ في جِسمِها، وقد حسرتْ[3] عن ذراعيها، ولمسَ ٱلماءُ دمَها ٱلجذَّابَ فأرسلَ فيه تيَّاراً مِنَ ٱلعافيةِ وَٱلنشاطِ يتَّصلُ منها بقلبِ مَنْ يراها إنْ هو كانَ شاعراً يُحسّ؛ فإنْ كانَتْ روحُ ٱلرجلِ ظمأَى ورأَى ٱلمرأةَ على هذه ٱلهيئة، فما أحسبُهُ إلَّا يشربُ منها بِعينيهِ شرباً يجدُ لَهُ في قلبِهِ نشوةً كنشوةِ ٱلخمرِ؛ وكذلك وقعَت ٱلفتاةُ من نفسِ هذا الفتى فزينَها لَهُ ٱلخُبثُ ٱلذي فيهِ أضعافَ ما زينَها لَهُ ٱلجمالُ ٱلذي فيها، وقذفَها ٱلقدرُ إلى قلبِهِ لِيُخرجَ من هذا ٱلقلبِ تاريخَ جريمة؛ فوقفَ يتأمَّلُها بعينٍ أحدَّ من آلةِ ٱلتصويرِ لا تفوتُها حركة، وسلَّطَ عليها فِكْرَهُ وذوقَه، وأيقظَ لها في نفسِهِ ٱلمعانيَ ٱلراقدة، فنصبَتْ في قلبِهِ عِدَّةً من تماثيلِ ٱلجمالِ تجسَّدتْ في كلِّ واحدٍ منها على شكلٍ كأنَّما أُفرغَتْ فيهِ إفراغاً.

* * *

وكانَتْ نفسُ ٱبنِ ٱلعُمدةِ مِنَ ٱلنفوسِ ٱلخياليَّةِ ٱلمتوثبة؛ إذْ قامَتْ من نشأتِها

---

(١) الاغتباط: الشعور بالسعادة.
(٢) يتعابثن: يتلاعبن ويمزحن. (٣) حسرت: كشفت.

على أنْ تطلبَ فتُجاب، وتأمرَ فتُطاع، وتشتهي فتجد؛ وكأنَّهُ ما خُلقَ إلَّا لِيستعبِدَ قلبي والديه، وكانا ساذجينِ لا يعرفانِ من عِلْم ٱلتربيةِ إلَّا أنَّ لِلْحكومةِ مدارسَ لِلتربية، ومُوسَرَينِ[1] لا يفهمانِ من معنى ٱلحاجةِ في هذه ٱلدنيا إلَّا أنَّها ٱلحاجةُ إلى ٱلمال، ومنقطعينِ مِنَ ٱلنسلِ إلَّا منه، فكأنَّهُ لم يُولدْ لهما، بلْ قد وُلدا له. . . فلهُ ٱلأمرُ عليهما من كونِهِ لا أمرَ لهما عليه؛ وبذلك أسرفَ لَهُ من فضائلِ ٱلرقةِ وٱلحنانِ وٱلإشفاقِ وما إليها، وهيَ في نفسِها فضائل، ولكنْ متى أسرفَ بها ٱلآباءُ على أولادِهِم لم تُنشىءْ في أولادِهم إلَّا ما يكونُ مِن أضدادِها، كَٱلشجرِ تُفرطُ عليهِ ٱلريَّ فلا يحدثُ فيهِ إلَّا ٱليبسُ وَٱلذَّوى، وإنَّما أنت تَسقيهِ ٱلموتَ ما دُمْتَ تَرويهِ بِمقدارٍ من هواكَ لا بِمقدارِ حاجتِهِ.

ونشأَ ٱلفتى في أحوالٍ ٱجتماعيَّةٍ مختلفةٍ جعلَتْ من أخصِّ طِباعِهِ تمويهَ نفسِهِ على ٱلناس، وٱلتباهِي بِٱلغِنى، وٱلتنبُّل بالأصدقاءِ وٱلحاشيةِ من وزرائِهِ وعُمالِهِ، وٱلتهيؤِ بِٱلثيابِ وَٱلأزياء؛ فٱنصرفَ باطنُهُ إلى تجميلِ ظاهرِهِ، وردَّ ظاهرُهُ على باطنِهِ بِٱلشهواتِ وَٱلدنايا، وأعانَهُ على ذلك أنَّهُ جميلٌ فاتنٌ كأنَّما خُلِقَتْ صورتُهُ «لِلصفحةِ ٱلحساسةِ» من قلوبِ ٱلنساءِ؛ وذلك ملكٌ عظيمٌ لم يكنْ أبوهُ ٱلرجلُ ٱلطيبُ منهُ إلَّا كما يكونُ وزيرُ ماليةِ ٱلدولة. . . ولَمَّا أُرسلَ إلى باريسَ وقعَ منها في بلدٍ عجيبٍ كأنَّهُ خيالٌ متخيلٌ لا يؤُمُّهُ رجلٌ في ٱلدنيا من كاملٍ أو ناقصٍ أو عالمٍ أو جاهلٍ وشريفٍ أو ساقطٍ إلَّا رأى ما يملأُ كلَّ مداخلِ نفسِهِ ومخارجِها، فلو قامَتْ مدينةٌ من أحلامِ ٱلنفوسِ ٱلإنسانيَّةِ في خيرِها وشرِّها وطُهرِها وفجورِها وٱختلالِها ونِظامِها لَكانَتْ هيَ باريس؛ وٱنقطعَ ٱلشابُّ هناك إلى نفسِهِ وإلى صورِ نفسِهِ من أصدقاءِ ٱلسوء، فلا أهلٌ فيُلزموهُ ٱلفضيلة، ولا إخوانٌ فيردُّوهُ إلى ٱلرأي، ولا خُلُقٌ متينٌ فيعتصمُ[2] به، ولا نفسٌ مُرَّةٌ فيفيءَ إليها، ولا فقر. . . فيحدَّ لَهُ حدوداً في ٱلشهواتِ يقفُ عندَها؛ وما هو إلا خيالٌ متوقِّدٌ ومزاجٌ مشبوبٌ وتربيةٌ مدلَّلةٌ وطبعٌ جريءٌ ومالٌ يمرُّ في إنفاقهِ، ومن ورائِهِ أبٌ غنيٌّ مخدوعٌ كأنَّهُ في يدِ ٱبنِهِ كرةُ ٱلخيط: كلَّما جذبَ منها مدَّتْ لَهُ مدّاً، ثُمَّ ما هنالك من فنون ٱلجمالِ ومُتَعِ ٱللذاتِ وأسبابِ ٱللهو، ممّا يتناهى إليه فسادُ ٱلفاسد، وما هو في ذاتِهِ كأنَّهُ عُقوبةٌ مستأصِّلةٌ للأخلاقِ ٱلطيبة؛ فكانَ ٱلشيطانُ ٱلباريسيُّ من هذا ٱلمسكينِ في سمعِهِ وبصرِهِ ورجلِهِ

---

(١) موسرين: أغنياء.

(٢) يعتصم: يتمسّك.

ويدِه، يُوجِّهُهُ حيثُ شاء؛ وبِٱلجملةِ فقد ذهبَ لِيدرسَ فدرسَ ما شاءَ ورجعَ أستاذاً في كلِّ علومِ ٱلنفسِ ٱلمختلَّةِ ٱلطائشةِ وفنونِها، وأضافَ إلى هذه وتلك كلماتٍ يلوي بِهَا لِسانَهُ من علومٍ وَأقاويلَ ليسَ فيها إلَّا ما ما يدلُّ ٱلحاذقَ على أنَّ هذا ٱلشابَّ لم يُفلِحْ قطُّ في مدرسةٍ.

فلمَّا وقعَتْ (خضراءُ) منه ذلك ٱلموقِعَ وأخذَتْ مأخذَها في نفسِهِ، اعتدَّها[1] نزوةً من نزواتِه؛ فما بمثلِهِ أنْ يُحِبَّ مثلَها، ولا هيَ كِفايتُهُ في شيءٍ إلَّا أنْ تكونَ لَهْوَ ساعةٍ من ساعاتِه، أَو حادثةً تجري فيها حالٌ من أحوالِهِ ٱلغراميَّة؛ وحسبَها ٱمرأةً ليسَ لِقلبِها أبوابٌ تمتنعُ على مثلِه، فقدَّرَ أنَّ غِناهُ وفقرَها يقتلعانِ باباً، وعلمُهُ وجهلُها يُحطِّمانِ باباً آخر، وجمالُهُ وحدَهُ يَضَعُ ما بقيَ مِنَ ٱلأقفالِ عمَّا بقيَ مِنَ ٱلأبواب! وكانَ يحسبُ أنَّ جمالَ ٱلمرأةِ مِنَ ٱلمرأةِ كَٱلحليةِ من بائعِها؛ فكلُّ مَنْ ملكَ ثمنَها فليسَ بينَهُ وبينَها إلَّا هذا ٱلثمن؛ ولكنَّ ٱلأيامَ جعلَتْ تأتي وتمرُّ وهو لا يزيدُ على أنْ يعرضَ لها وهيَ ترميهِ من صدودِها كلَّ يوم بداعيةٍ من دواعي ٱلهوى؛ وكانَ لا يجدُ بنفسِهِ قوَّةً أَنْ يزيدَها على ٱلنظرِ شيئاً، وتَرَكَ لِوجهِهِ وثِيابِهِ ونظراتِهِ وغِناهُ أنْ تَصِلَ بينَ قلبِهِ وقلبِها بسبب، فلم ينلْ طائلاً؛ وتمادى في حُبِّهِ، وٱستولَتْ عليهِ فِكرةٌ غمرَتْهُ بهذه ٱلمرأة؛ أمَّا هي فأشعَرَتْها غريزتُها بِمَا في قلبِهِ منها، وكانَتْ مُسمَّاة لأبنِ عمِّها[2] فكانَتْ تتحاشى[3] هذا ٱلشابَّ وتحذرُهُ حذراً شديداً، وتتوهَّمُ أنَّ ٱلناسَ يُحصونَ عليها ٱلنظرةَ وٱلالتفاتةَ ويُحصونَ عليهِ من مثلِهما، ووقعَ في نفسِها أنَّ لِهذا الرجلِ شأناً غيرَ شأنِ ٱلرجالِ ٱلآخرين، فهم لا يستطيعونَ معَها حَيلةً وهو يستطيعُها بِغِناهُ ومنزلتِه.

وكانَ لِلرجلِ خادمٌ داهيةٌ قد تخرَّجَ في مجالسِ ٱلقضاءِ... من كثرةِ ما حُكِمَ عليهِ في تزويرٍ وٱحتيالٍ وغِشٍّ وَٱدعاءٍ وإنكارٍ ونحوِها، وقدِ ٱستخلصَهُ لِنفسِهِ وٱتَّخَذَهُ مؤانساً ورفيقاً؛ وجعلَهُ دسيساً[4] إلى شهواتِهِ ٱلسافلةِ وكانَ يُسميه فيما بينهما (إبليس)؛ فلما أرادَ أن يرميَها بِهِ قال: يا سيدي، هذه قضيةُ ٱحتيالٍ عليها، فإذا دخلَ ٱبْنُ عمِّها خَصْماً في ٱلدعوى كانَتْ قِضيةَ ٱحتيالٍ على عمري أنا! قال: ويحكَ أيُّها ٱلأبلهُ! فأين دهاؤُك ومكرُك؟ وإنَّما أُرسلُكَ إلى ٱمرأةٍ فقيرةٍ عيشُها كفافُها،

---

(١) اعتدّها: حسبها.
(٢) أي مخطوبة.
(٣) تتحاشى: تتجنّب.
(٤) دسيساً: جاسوساً.

وأنت تَعدُها وتُمنِّيها وتبذلُ عنِّي ما شِئْت، ومتى أطمَعْتَها في ٱلمالِ فإنَّ هذا ٱلمالَ سَيُوجِدُ ما يُوجِدُهُ في كلِّ مكان، فيشري ما لا يُشرى، ويبيعُ ما لا يُباع! قال (إبليس): نعم يا سيدي، وكذلك هو ولكنَّ خوْفَ ٱلعارِ يطردُ حُبَّ ٱلمال! قال: فأنت إذن لا تقبل؟ قال: ولا أرفض. . . قالَ ٱلشابُّ: قاتلكَ ٱللهُ! لقد فهمْت! سأشتريها منك بثمنين: أحدُهما لك وٱلآخرُ لها؛ ولكنْ أخبرْني كيف تصنعُ معَها ومن أينَ تبلغُ إليها؟ قال (إبليس) لَمَّا كنْتُ في ٱلسجنِ عرفْتُ لِصّاً فاتكاً أعيَا قومَهُ خُبثاً وشرّاً؛ وهذا ٱلسجنُ يحسبُه عِقاباً وردعاً ومنهاةً عنِ ٱلإثم، على أنَّهُ ٱلمدرسةُ ٱلتي تُنشئُها ٱلحكومةُ بِنفسِها لِتلقِّي علومِ ٱلجريمةِ عن كِبارِ أساتذتِها؛ إذْ لا يُمكنُ أنْ يجتمعَ كِبارُهم في مكانٍ مِنَ ٱلأرضِ إلَّاَ فيه؛ فٱلسجنُ طريقةٌ من طرقِ حلِّ ٱلمشكلةِ ٱلإنسانيَّة، ولكنَّهُ هو نفسُهُ يُحدِثُ لِلإنسانيَّةِ مُشكلةً لا تُحَلّ! قالَ الفتى: ويحك! أينَ يُذْهَبُ بك؟ إنَّما أُرسلُكَ إلى ٱلمرأةِ لا إلى ٱلسجن! قال: تُرسلُني أنت إليها ولكنْ لا يعلمُ إلَّا اللَّهُ أين يُرسلُني ٱبْنُ عمِّها: إلى ٱلسجنِ أم إلى ٱلمستشفى. . . ! فٱسمعْ يا سيدي: كانَ من نصائحِ أستاذي في ذلك ٱلسجن: أنَّ ٱلحِيلةَ على رجلٍ ينبغي لإِحكامِها أنْ يكونَ في بعضِ أسبابِها ٱمرأة، وَٱلكيدُ لِٱمرأةٍ يجبُ أنْ يكونَ في بعضِ وسائلِهِ رجل. . . صَهْ! انظرْ ٱنظر! فالتفَتَ ٱلشابُّ، فإذا (الجمل) مُقبلٌ يتكفَّأُ في مِشيتِه، وكانَ غليظاً، فإذا خطا شدَّ على ٱلأرضِ بِقدميهِ وتكدَّسَ[1] بعضُهُ في بعض؛ وكانَ منطلِقاً وقتئذٍ إلى بعضِ مذاهبه، فلمَّا حاذاهما قال: ٱلسلامُ عليكم! فردَّا جميعاً، ورمى ٱبْنَ ٱلعُمدةِ بنظرة، ثُمَّ مضى لِوجهِهِ فلم يُجاوزْ غيرَ بعيدٍ حتى بلغَهُ صوتُ ٱلشابِّ يُناديه: يا فلان! فٱنكفأَ إليهِ، فقالَ لَهُ ٱلشابُّ: لقد بعُدَ عهدُكَ بِٱلقوَّةِ على ما أرى. قال: فما ذاك؟ قالَ أَما بلغَكَ أنَّ فلاناً في هذه ٱلقريةِ ٱلتي تُجاورُنا سيقترنُ بزوجتِهِ بعدَ أيام، وأنت تعرِفُ ٱلموقعةَ ٱلتي كانتَ بينَ بلدِنا وتلك ٱلبلدةِ يومَ عرْسِ فلانٍ في ٱلسنةِ ٱلماضيةِ، وكيف ٱندفعوا على أهل بلدِنا وحطَّموا فيهم تلك ٱلحطمةَ ٱلشديدةَ ولولا أنت أدركْتَهُم ورمَيْتَهم بِنفسِكَ حتى دفَعتَهم عنِ ٱلناسِ وسُقْتَهم أمامَك سَوقَ ٱلنِّعاج، لكانَتْ بلدُنا ٱليومَ أذلَّ ٱلبلاد، ولٱستطالوا علينا بأنَّهم غلبونا؛ ولقد حدَّثني صاحبي هذا كيف تلقيْتَ بِهراوتِك يومئذٍ خمساً وعشرينَ هراوة، فأطْرَتها كلَّها في جولتِك، وهزمْتَ أصحابَها بعدَ أنْ أحاطوا بِكَ وتكلبُّوا

(١) تكدّس: اجتمع.

عليك[1]؛ فأنت فخرُ بلدِنا وصاحبُ زعامتِها، وما أرى لك إلّا أنْ تنتهزَ هذه الفرصةَ وتُسرعَ ٱلوثبةَ إليهم برجالِك، فتجزيَهم في أرضِهم صنيعاً بصنيعِ مثلِه!

فهزَّ ٱلجملُ كتفيهِ ٱلعريضتينِ وقال: بل سأنتظرُهَم في يوم عرسي بٱبنةِ عمِّي...! قالَ ٱلشابُّ: أبلغْتَ ما أرى؟ فإنَّكَ لَتخافُهم! قال: لا أَخافُهم وَلكنْ أخافُ ٱلحكومةَ أنْ تُؤخِّرَ يومَ زواجي... سنةً أو سنتين! قالَ ٱلفتى: فإنَّ عمَلَك هذا لا يشدُّ من نفوسِ رجالِنا، ولا بُدَّ أنَّ أولئك سينتظرونكم ويعُدُّونَ لكم، فإذا لم تُناجزوهم[2] في بلدِهم عدُّوها عليكم هزيمةً مِنَ ٱلهزائم، وكأنَّهم ضربوكم بلا ضرب!

قالَ ٱلجمل: هم لا يعرفون معنى ٱلضرب بِلا ضرب؛ لأنَّهم رجال؛ وٱلذي يُضربُ بِلا ضرْبٍ لا يكونُ رجلاً... وَٱلسلامُ عليكم! ثُمَّ ٱنطلق، فلمَّا أبعدَ قالَ ٱلشابّ: لقد بدأتِ ٱلحربُ ولا بُدَّ لي أنْ أحطِّمَ هذا ٱلفلاحَ ٱللعين! ولقد عرفْتُ ٱلآنَ من وجهِهِ أنَّ عينَهُ عليَّ، ولسْتُ أشكُّ في أنَّ بنتَ عمِّهِ لا تمتنعُ بقوَّتِها بلْ بِقوَّتِه، ولولا معرفتي أنَّهُ مِن ٱنحطاطِ ٱلغريزةِ كَٱلوحشِ في ٱلدفاعِ عن أنثاهُ لـ...

قال (إبليس): لقد تأَملْتُ ٱلقصةَ فرأَيْتُ أنَّهُ لا سبيلَ لَكَ إلى ٱلفتاةِ وهي بعدُ فتاة، فإذا هو وصلَ إلى ٱمرأتِهِ قطعْتَ أنت بِهذهِ ٱلخُطوةِ نِصْفَ ٱلطريقِ إليها... وستبلو هي من غِلْظتِهِ وخُشونةِ طبعِهِ ما يسهلُ لَكَ أن تُعلِّمَها قيمةَ ظرفِك ورقتِك، وستجدُ من سُوءِ مُعاملتِهِ وقُبحِ تسلُّطِهِ ما يفتحُ قلبَها لِمَنْ يأتيها قِبلَ ٱلرفقِ وٱللين، وستُصيبُ عندَهُ من ضِيْقِ ٱلمَعيشةِ وقِلَّتِها ويبسِها ما يُفهمُها معنى ذلك ٱلعيشِ ٱلحلو ٱلخضِرِ ٱلذي تعرضُهُ عليها؛ ثُمَّ إنَّهُ لا بُدَّ مبتليها بِغَيرتِهِ ٱلعمياءِ بعدَ ما عرفَ من حُبِّكَ إيَّاها، وٱلغيرةُ منك هي تُوجِدُك بينهما دائماً وتنبِّهُ ٱلمرأةَ إليك كلَّما كَرِهَتْ من رجلِها شيئاً لا ترضاهُ.

ولم تكنْ إلّا مدةٌ يسيرةٌ حتى أُهديَتِ[3] المرأةُ إلى زوجِها، وإنَّما تعجَّلَ الزِّفافَ لِيأتيَ لَهُ أنْ ينصبَ يدَهُ ٱلقويَّةَ حِجاباً بينَها وبينَ هذا ٱلمفتون، ولِيكتسبَ مِنَ ٱلقانونِ حقّاً لم يكنْ لَهُ من قَبْلُ إذا هو مدَّ ٱليدَ وعصرَ في قبضتِها تلك ٱلرقبةَ ٱلتي تتطلَّعُ إلى ٱمرأتِهِ؛ ورأى ٱلشابُّ أنَّ هذه ٱلحالَ لا تعتدلُ بِهِ وبخصمِهِ معاً، وكانَتِ ٱلغيرةُ تأكلُ من قلبِهِ أكْلاً، وكانَ يعرضُ لِلْمرأةِ كلَّما خرجَتْ بِمِكْتلِها[4] إلى ٱلسوقِ

---

(1) تكلَّبوا عليك: تجرّؤا عليك.
(2) تناجزوهم: تقاتلوهم.
(3) أُهديت: زُفّت.
(4) المكتلّ: الغلق.

أو بِجرَّتِها إلى ٱلماءِ لِأنَّهُ حينئذٍ يكونُ في ٱلطريقِ ٱلذي لا يملكُهُ أحد. . . فكانَتْ إذا رأتْهُ لم تزدْ على ما يكونُ منها إذا هي أَبصرَتْ حِماراً يمدُّ عينَهُ إليها! . فعمدَ إلى ٱمرأةٍ مقيِّنةٍ تَزفُ ٱلعرائس، وهيَ ٱلتي زَفَّتْ (خضراءَ) فأكرمَها وأتحفَها وسألَها أنْ تُسعفَهُ[1] ببعضِ ما تحتالُ بِه، وأنْ تكونَ سبيلَهُ إلى ٱلمرأة؛ وتحمَّلَ عليها (بإبليسهِ) حتى ٱستوثقَ[2] منها، فكانَتْ تتحدَّثُ عنه أمامَ (خضراء)؛ تستجرُّ بذلك أنْ تلفتَها إلى نِعمتِهِ وجمالِهِ، ولكنَّ ٱلمرأةَ أغلظَت لها وسبَّتْها وحذَّرتْها أنْ تعودَ إلى مثلِ كلامِها، وقالَتْ لها آخِرَ ما قالت: وَٱعلمي أنَّني لو دُفعْتُ إلى طريقينِ وكانَ لا بُدَّ من أحدِهِما، ثُمَّ كانَ أحدُهما حصاهُ ٱلدنانير وهو طريقُ ٱلعار، والآخرُ حصباؤُهُ ٱلجمرُ ويُفضي إلى ٱلشرف، إذن لَتنزَّهْتُ أنْ أدنِّسَ نعلي بِٱلذهبِ ولنثرْتُ لحمَ قدميَّ على ٱلجمرِ نثراً.

وَٱلحُبُّ لا يبقى حُبّاً أبداً، فإما فازَ فبردَ ورجعَ سَلْوّاً، وإمَّا خابَ فٱضطرمَ وتحوَّلَ إلى حِقْدٍ ونِقْمة؛ وكذلك ٱنفجرَ ٱلشابُّ غيظاً، ووجدَ على ٱلخيبةِ مَوْجدةً شديدة، وأخذ يُديرُ رأيَهُ، ففتقَتْ لَهُ ٱلحيلةُ أنْ يقتلَ ٱلرجلَ ٱلشهمَ بشهامتِه، وٱلمرأةَ ٱلعفيفةَ بِعفَّتِها؛ فواطأَ[3] إبليسَهُ على أنْ يدفعَ إلى تلك المقيِّنةِ مِنديلاً مِنَ ٱلحريرِ عقدَ طرفَهُ على دينارٍ مِنَ ٱلذهب، تُلقيهِ في صندوقِ (خضراءَ) وتدُسُّهُ[4] في طيٍّ من أطواءِ ثِيابِها؛ فذهبتِ ٱلمرأة، وما زالَتْ بِخضراءَ تستصلِحُها وتعتذرُ إليها حتى ٱستلَّتْ[5] ضغينةَ قلبِها، ثُمَّ سايلَتها أنْ تأتيَها (بِالعيشِ وَٱلملح) لِتُصيبَ كلتاهما منه وتتحرَّمَ بِحُرْمَتهِ؛ فلمَّا نهضَتْ تأتيها أسرعَت ٱلخبيثةُ إلى ٱلصندوقِ فدسَّتِ ٱلمنديلَ في أبعدِ مواضعِهِ وأخفاها؛ وكانَ مندًى بِٱلعطْرِ لِينمَّ[6] على نفسِهِ إذا لم يَنمَّ أحدٌ عليه، ثُمَّ رجعَتْ بِمَا فعلَتْ إلى ٱلشابِّ، فأطلقَ خادمَهُ يهمسُ لِبعضِ أصدقاءِ ٱلجملِ أنَّهُ رأى ٱليومَ في يدِ (خضراءَ) ديناراً ذهباً على نُدرةِ ٱلذهبِ وعِزتِه[7]؛ فجعلَ هذا ٱلدنيارُ يطيرُ من نفسٍ إلى نفسٍ بقوَّةِ ٱلذهبِ ٱلذي فيه، وٱلحُبُّ ٱلذي أعطاهُ، وٱلجمالِ ٱلذي أخذهُ؛ ثُمَّ ٱنتهى إلى ٱلجمل، فكأنَّما حمَلَهُ وطارَ بِهِ إلى دارِهِ كَٱلمجنونِ وقد حميَ دمُهُ ٱلحرُّ، وجاشَ[8] جأْشُهُ ٱلعنيفُ ولم تكنِ ٱمرأتُهُ في ٱلدار،

(١) تسعفه: تساعده.
(٢) استوثق: تأكدَ.
(٣) تواطأ، تآمر.
(٤) تدسّه: تضعه خفية.
(٥) استلتْ: استخرجت.
(٦) ينمّ: يكشف.
(٧) عزّته: ندرته.
(٨) جاش: فار.

فنثرَ ما في ٱلصندوق، وما كادَتْ تَفغَمُهُ رائحةُ ٱلعِطْرِ حتى نفخَ ٱلشيطانُ بها نفخةَ ٱلغضبِ ٱلكافر، ثُمَّ عثرَ على ٱلمنديلِ، ورأى بصيصَ ٱلدنيار، فدارَتْ بِهِ ٱلأرض، وأيقنَ أَنَّ ٱلعارَ قد طرقَ بابَهُ، وأنَّ ٱلبابَ قد فُتحَ لَهُ؛ ثُمَّ ردَّ نفسَهُ على مكروهِها وردَّ مَعَها كلَّ شيءٍ إلى موضعه، وتلففَ رأيَهُ على جريمتين، وخرجَ وروحُهُ تصرخُ من ضربةٍ بِمنديل، وهو ٱلذي كانَتْ تتهاوىٰ عليهِ ٱلضرباتُ ٱلقاتلةُ تهشمُ[1] منه ولا يتأوَّهُ!

وذكرَ أنَّ (حماتهُ) أثنت من عهدٍ قريبٍ على ٱبنِ ٱلعُمدةِ ووصفَتْهُ بِٱلرقةِ وٱلغِنى، فوجَّهَ إليها أنْ تأتيَ فتبِيْتَ عندَ ٱمرأتِهِ لِأنَّهُ على سفر، وكانَ كَٱلأعمى في ضلالتِه: لا يرى ٱلأشياءَ إِلَّا كما يتخيَّلُها في نفسِهِ دون ما هيَ في نفسِها، فسألتْهُ زوجتُه: أين أزمعْتَ وما تبغي مِنْ سَفرِكَ وكم تلبثُ عنا؟ فكأَنَّهُ سمِعَها تقول: اِرحلْ إلى مكانٍ بعيدٍ وغِبْ زمناً طويلا، فبنا إلى غيابِكَ حاجةٌ شديدة! وكادَ يبطِشُ بها، ولكنَّهُ كاتَمَ صدَرهُ ٱللوعةَ ٱسمَ جهةٍ بعيدةٍ ومضىَ وٱلانكسارُ يُعرفُ فيه!

* * *

فزعَ ٱلناسُ بعدَ أيام في جوْفِ ٱلليل، فإذا بيتُ ٱلجملِ يحترقُ من أرضِهِ وسمائِهِ، وٱقتحمُوه فإذا ٱلمرأةُ وأمُّها فحمتان: وَٱنطلقَتْ أسرارُ ٱلألسنة، وقُبضَ على ٱلرجلِ في بلدٍ آخر، وتولّى ٱبنُ ٱلعُمدةِ توجيهَ ٱلبيِّنةِ عليه، وشهِدَ ٱلشهودُ على ٱلدينار، وشهِدَ ٱلدينارُ على ٱلنار، وأنكرَ «ٱلجملُ» ولم يقصِّرْ في إقامةِ ٱلحُجَّةِ ودافعَ عَنِ ٱمرأتِهِ وبالغَ في أمانتِها وعِفَّتِها وشهدَ أنَّهُ لا يعلمُ عليها من سُوء، وأنَّها أطهرُ ٱلنساءِ وأبرُّهنَّ، ثُمَّ كانَ ٱلحكْمُ أنْ قضيَ عليهِ بِٱلموتِ شنقاً!

* * *

فلمَّا كانَ يومُ إنفاذِ ٱلحُكْم سُئِلَ ٱلرجلِ) هلْ من شيءٍ تُريدُهُ؟ فطلبَ دخينةً[2] فقدَّمَها لَهُ قَيِّمُ ٱلسجنَ، فأشعلَها ونفخَ من دُخانِها نفخةً. ثُمَّ أخذَ يتكلَّمُ وعمرُهُ يفنى مَعَ ٱلدخينةِ نَفَساً في نفس، وعادَ هذا ٱلدخانُ ٱلمتطايرُ كأنَّهُ سحابٌ يسبحُ فيهِ ٱلوحيُ بينَ حدودِ ٱلدنيا وحدودِ ٱلآخرة؛ قالَ ٱلمِسكين: لم أتعلَّم، ولو تعلَّمْتُ ما وقفْتُ هنا؛ ولكنْ ربَّما كنْتُ خرجْتُ نذْلاً كبعضِ ٱلمتعلِّمينَ الذين يعيشون أشرافاً وفيهم أرواحُ ٱلقتلةِ وٱللصوص!

---

(١) تهشم: تحطَّم.

(٢) دخينة: سجارة.

لم أُقرّ لِأحدٍ بجريمتي خشيةَ أنْ تُذكرَ كلمةُ ٱلعارِ معَ ٱسمي، وآثرْتُ أنْ أموتَ بِٱلشنقِ على أنْ أحيا ويموتَ ٱسمي بِٱلعار!

ولكنِّي سأعترِفُ ٱلآنَ أمامَكم وأنتمُ ٱلساعةَ على قبري، فكونوا كَٱلملائكةِ لا يشهدون بما عرفوا إِلَّا عندَ ٱللَّهِ وحدَه.

أعترِفُ أني قتلْتُ زوجتي وأمَّها؛ وقد تقولون: إنَّه ليسَ من عملِ ٱلرجلِ أنْ يقتلَ ٱمرأةً فضلاً عنِ ٱثنتين؛ إِنَّني رجلٌ سأُشنق، أمَّا النساءُ فلا يُشنقْنَ وإنَّما يُرسِلْنَ ٱلرجالَ إلى ٱلمشنقة... لم أَرَ أبي؛ إذْ تركني طفلاً، ولكنْ يُقالُ: إنَّهُ كانَ رجلاً، فأنا رجل وٱبنُ رجل، ولم يُذلَّني رجلٌ قطُّ، ولكن لو خلقَ ٱللَّهُ قوَّةَ مائةِ جبَّارٍ في جسمِ رجلٍ واحدٍ لَأذلَّتْهُ ٱمرأة!

إِنَّهُ ليسَ من شيمةِ ٱلرجلِ أنْ يقتلَ ٱلنساء، ولكنَّ ٱلمرأةَ تُذلُّ ٱلرجلَ ذُلّاً يُهوِّنُ عليهِ قتلَ نفسِه، فكيف لا يهوّنُ عليهِ قتلَها؟

علّموا ٱلمتعلِّمين لِيصيروا في ٱلشرفِ وٱلأَمانةِ وَٱلعِفَّةِ كرجلٍ جاهلٍ مثلي: لا يرى لِلْحياةِ كلِّها قِيمةً إذا كانَ فيها معنى ٱلعار، ويُقدِّمُ عُنقَهُ لِلْمشنقةِ حتى لا يُنكِّسَ رأسَهُ للذُّل!

أصلِحوا ٱلقانونَ ٱلذي يحكمُ بِٱلموتِ شنقاً ويُزهِقُ ٱلأرواحَ ٱلكبيرة، في حينِ تغلبُهُ ٱلأرواحُ ٱلصغيرةُ بِحيلِها ٱلدنيئة!

ومع ذلك سألقى ٱللَّهَ وهو يعلمُ سريرتي إنْ كُنْتُ بريئاً أو مجرماً!

قيِّمُ السجن: ستلقاهُ طاهراً.

السجين: أرأيْتُم مِنِّي خُلُقَ سوء؟ أتعتقدُ عليَّ ذنباً مدةَ سجني؟

القيِّم: كلُّنَا راضونَ عنك.

السجين: هذا مثلٌ من أخلاقي، وَٱلحمدُ لِلَّهِ على أنَّ آخرَ كلمةٍ أسمعُها من إنسانٍ على ٱلأرض ـ كلمة الرضا.

....

....

أشهدُ أنْ لا إلَه إِلَّا ٱلله وأنص محمداً رسولُ ٱلله!

* * *

نظرَتْ ريشةٌ من زغبِ ٱلعصفورِ إلى ٱلنجوم فَحسَبتْها ريشاً متناثراً، فأمتطتِ ٱلعاصفةَ وقالَت: إلى ٱلسماء! ودارتْ بها ٱلعَاصفةُ ما شاءَ ٱلله أنْ تدور، ثُمَّ رَمَتْ بها حيثُ وقَعَتْ لم تبالِ في موضعِ نفعٍ أم ضُرّ؛ فأقبلَتِ ٱلريشةُ تتسخَّطُ وتزعمُ أنَّها فوضى ثائرةٌ لا حِكمةَ في خَلْقِهَا، وأَنَّ ٱلرياحَ بعثرةٌ في نظام ٱلعالم... وكانَ إلى جانبِها شجرةٌ تهتزُّ ولا تطير... فلمَّا وَعَتْ مقالتَها أقبَلَتْ عليها فقالَت: أيَّتُها ٱلريشة! إنَّ ٱلرياحَ لا تكونُ بعثرةً في نظامِ ٱلعالمِ إلَّا إذا كانَ ٱلعالمُ ريشاً كلُّهُ!.

القلبُ ٱلمسكين

١

أقبلَ عليَّ صاحبي ٱلأديبُ وقال: أُنظر، هذه هي، وقد حلَّتْ بهذا ٱلبلدِ ومالي عهدٌ بها منذُ سنة. ومدَّ إليَّ يدَهُ فنظَرْتُ إلى صورةِ امرأةٍ كأحسنِ ٱلنساءِ وجهاً وجِسماً، تتأوَّدُ[1] في غلالةٍ[2] مِنَ ٱللّاد[3].

وَكأنَّ شُعاعَ ٱلضُّحى[4] في وجهِها، وكأنَّها ٱلقمرُ طالعاً من غيمة، ويكادُ صدرُها يتنهَّدُ وهيَ صورة، وتبدو هيئةُ فَمِها كأنَّها وعدٌ بِقبلة، وفي عينيها نظرةٌ كَٱلسكوتِ بعدَ ٱلكَلمةِ ٱلتي قِيلَتْ هَمْساً بينَها وبينَ مُحِبِّها...

فقلْت: هذه صورةٌ ما أراها قد رسمَها إِلَّا ٱثنان: ٱلمصوِّرُ وإبليس؛ فمَنْ هي؟

قال: سَلْها، أمَا تراها تكادُ تثِبُ مِنَ ٱلورقة؟ إنَّها إِلَّا تخبرْك بشيءٍ أخبرْك عنها، وجهُها أنَّها أجملُ ٱلنساءِ وأَظرفُهُنَّ وأحسنُ من شاهدْتَ وجهاً وأعيناً، وثغراً وجِيداً وٱلذي بعدَ ذلك...

قلْت: ويحك، لقد شَعُرْتَ بعدي، إنَّ هذا شعرٌ موزون:

وأحسنُ من شاهدْتَ وجهاً وأعيناً ... وثغراً وجِيداً وٱلذي بعد ذلكا...

قال: إنَّ شيطانَ هذه لا يكونُ إِلَّا شاعراً؛ ألسْتَ تَراهُ ناظماً من فنونِها على ٱلرسمِ شِعْراً معجزاً كلَّ شاعر؟

قَلْت: وهذا أيضاً شعرٌ موزون:

ألسْتَ تَراهُ ناظِماً من فنونِها ... على ٱلرسمِ شِعْراً معجِزاً كلَّ شاعر

---

(١) تتأوّد: تتمايل في مشيتها.

(٢) غلالة: قميص رقيق يلبس تحت الثياب.

(٣) اللّاذ: الحرير الصيني الرقيق الناعم.

(٤) الضحى: الفجر.

قال: بلى وَٱللَّهِ إنَّهُ ٱلشيطان، إنَّهُ شيطانُها، يُريكَ لِهذا ٱلجِسمِ روحاً رشيقَة، تلين كلينِ ٱلجسم. بلْ هيَ أرشق.

قلْت: وهذا أيضاً، وٱلقافيةُ ٱلتي بعدَ هذا ٱلبيت: وبها شَقُوا...

فضحكَ صاحبُنا وقال: حرِّكِ ٱلصورةَ في يدكِ، فإنَّكَ ستراها وما تشكُّ أنَّها ترقص.

قلْت: الآنَ ٱنقطعَ شيطانُك، فهذا ليسَ شِعْراً ولا يجيءُ منه وزن.

وتضاحكْنَا وضحكَ ٱلشيطان، وظهرَ ٱلوجهُ ٱلجميلُ في ٱلرسمِ كأنَّهُ يضحك.

* * *

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: ٱنظرْ إلى هاتينِ ٱلعينين، إنَّهُما مِنَ ٱلعيون ٱلتي تفتنُ ٱلرجلَ وتسحرُهُ متى نظَرتْ إليه، وتُعذِّبهِ وتُضنيهِ متى غابَتْ عنه؛ إنَّ في شُعاعِهِما قُدرةً على وضعِ ٱلنورِ في ٱلقلْبِ ٱلسعيد، كما أنَّ في سوادِهِما ٱلقدرةَ على وضعِ ٱلظلمةِ في ٱلقلْبِ ٱلمهجور.

وَٱنظرْ إلى هذا ٱلفم، إلى هذا الفمِ ٱلذي تعجزُ كلُّ حدائقِ ٱلأرضِ أنْ تُخرِجَ وردةً حمراءَ تُشبِهُه.

وَٱنظرْ إلى هذا ٱلجِيدِ تحَتهُ ذلك ٱلصدرُ ٱلعاري، فوقَهُ ذلك ٱلوجهُ ٱلمشرق؛ تلك ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ ٱلضوء: أمَّا ٱلوجهُ ففيهِ روحُ ٱلشمس، وأمَّا ٱلجِيدُ ففيهِ روحُ ٱلنجم، وأمَّا ٱلصدرُ ففيهِ روحُ ٱلقمرِ ٱلضاحي[1].

ٱنظرْ إلى هذه ٱلمسافةِ ٱلبيضاءِ من أعلى جبينِها إلى أسفلِ نهدَيها، تلك مَنطقةُ ٱلقُبلاتِ في جغرافيا هذا ٱلجمال...

وَٱنظرْ إلى ٱلصدرِ يحملُ ذينِكَ ٱلثديينِ ٱلناهدين؛ إنَّهُ ٱلمعرضُ ٱلذي ٱختارَتْهُ ٱلطبيعةُ من جِسمِ ٱلمرأةِ ٱلجميلةِ لِلإعلانِ عن ثِمارِ ٱلبستانِ...

ٱنظرْ إلى ٱلنهدينِ لِمَ بَرَزَا في صدرِ ٱلمرأةِ إلَّا إذا كانا يتحدّيانِ ٱلصدرَ ٱلآخر...؟!

وَٱنظرْ لهذا ٱلخصرِ ٱلدقيقِ وما فوقَهُ وما تحتَه، ألا تراهُ فِتنةً متواضعةً بين فتنتينِ متكبِّرتين...؟

---

(١) الضاحي: السافر.

ٱنظرْ إليها كلِّها، ٱنظرْ إلى كلِّ هذا ٱلجمال، وهذا ٱلسحر، وهذا ٱلإغراء؛ ألا ترى ٱلكنزَ ٱلذي يحوِّلُ ٱلقلبَ إلى لصّ. . .؟

هذه مخلوقةٌ مرتين: إحداهما مِنَ ٱللَّهِ في ٱلعالم، وَٱلأخرى من حُبِّي أنا في نفسي أنا: فكلمةُ «جميلة» ٱلتي تَصِفُ ٱلمرأةَ ٱلتامَّة، لا تصفُها هيَ بعضَ ٱلوصف؛ ورسمُها هذا ٱلذي تراهُ إنَّما هو حدودٌ لتلكَ ٱلروحِ ٱلتي فيها قوَّةُ ٱلتسلُّط، وهيهاتَ يُظهرُ من تلكَ ٱلروحِ إلَّا ما يظهرُ مِنَ ٱلجمرةِ ٱلمشتعلةِ رسمُ هذه الجمرةِ في ورقة.

أشهدُ ما نظَرْتُ مرَّةً إلى هذا ٱلرسم ثُمَّ نظَرْتُ إليها إلَّا وجْدتُ ٱلفرقَ بينَها في نفسِها وبينَها في ٱلصورة، كأنَّهُ ٱعتذارٌ ناطقٌ من آلةِ ٱلتصويرِ بأنَّها ليَستْ إلَّا أداة.

* * *

قلْتُ: ٱللهمَّ غفرا؛ ثُمَّ ماذا يا صديقي ٱلمجنون؟

فأطرقَ ٱلأديبُ مهموماً، وكانَتْ أَفكارُهُ تتفجَّرُ في دِماغِهِ ٱنفجاراً هنا وٱنفجاراً هناك؛ ثُمَّ رفعَ إليَّ رأسَه، وقال:

هذه ٱلغانيةُ قد حبسَتْ أفكاري كلَّها في فكرةٍ واحدةٍ منها هِي؛ وأغلقَتْ أبوابَ نفسي ومنافذَها إلى ٱلدنيا، وألهبَتْ في دمي جمرةً من جهنَّمَ فيها عذابُ ٱلإحراقِ وليسَ فيها الإحراقُ نفسُهُ كيلا ينتهيَ منها ٱلعذاب!

وبينَنَا حُبٌّ بغيرِ طريقةِ ٱلحُبّ، فإنَّ طبيعتي ٱلروحانيَّة ٱلكاملةَ تهوي فيها طبيعتُها ٱلبشريَّةُ ٱلناقصة، فأنا أُمازجُها بروحي فأتألمُ لها، وأتجنَّبُها بِجِسمي فأتألمُ بها.

حُبٌّ عقيمٌ مهما يكَنْ من شيءٍ فيهِ لا يكُنْ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلواقع. . .

حُبٌّ عجيبٌ لا تنتفي منهُ آلامُهُ ولا تكونُ فيه لِذّاته. . .

حُبٌّ معقَّدٌ لا يزالُ يلقي ٱلمسألةَ بعدَ ٱلمسألة، ثُمَّ يرفضُ ٱلحلَّ ٱلذِي لا تُحلُّ ٱلمسألةُ إلَّا بِه. . .

حُبٌّ أحمقُ يعشقُ ٱلمرأةَ ٱلمرأةَ ٱلمبذولةَ لِلناس، ولا يراها لِنفسِهِ إلَّا قِدِّيسةً لا مطمعَ فيها. . .

حُبٌّ أبلهُ لا يزالُ في حقائقِ ٱلدنيا كَٱلمنتظرِ أنْ تقعَ على شفتيهِ قُبلةٌ مِنَ ٱلفمِ ٱلذي في ٱلصورة. . .

حُبٌّ مجنونٌ كَالّذي يرى الحسناءَ أمامَ مِرآتِها فيقولُ لها اِذهبي أنتِ وستبقى في هذه الّتي في المرأة. . .

❊ ❊ ❊

قلْت: اَللهمَّ رحمة؛ ثُمَّ ماذا يا صاحبي المسكين؟

قال: ثُمَّ هذه الّتي أُحِبُّها هيَ الّتي لا أُريدُ الاستمتاعَ بِها ولا أُطيقُهُ ولا أجدُ في طبيعتي جرأةً عليه، فكأنّها الذهبُ وكأنّي الفقيرُ الّذي لا يُريدُ أنْ يكونَ لِصًّا؛ يقولُ لَهُ شيطانُ المال: تَستطيعُ أنْ تطمعَ؛ ويقولُ لَهُ شيطانُ الحاجة: وتستطيعُ أنْ تفعل؛ ويقولُ هو لِنفسِه: لا أستطيعُ إلّا الفضيلة!

إنَّ عذابَ هذا بِشيطانينِ لا بشيطانٍ واحد، غيرَ أنَّ لذّتَهُ في انتصارِهِ كَلَذَّةِ مَنْ يقهرُ بطلينِ كِلاهما أقوى منه وأشدّ.

❊ ❊ ❊

قلْت: اَللهمَّ عفواً؛ ثُمَّ ماذا يا قاهرَ الشيطانين؟

فأطرقَ مَلِيًّا كَالّذي ينظرُ في أمرٍ قد حيَّرهُ لا يتوجَّهُ لَهُ في أمرِهِ وجه، ثُمَّ تنهَّدَ وقال: يا طولَ عِلَّةِ قلبي! من أينَ أجيءُ لِأحلامي بِغيرِ ما تجيءُ الأحلامُ بِه، وإنَّما هي تحتَ النوم ووراءَ العقْل، وفوقَ الإرادة؟ لقد بلغَ بين هواها أنَّ كلَّ كلمةٍ مِنْ كلامِ الحُبِّ في كِتابٍ أو رِوايةٍ أو شِعْرٍ أو حديث ـ أراها موجَّهةً إليَّ أنا. . .

ثُمَّ قال: اِنطلقْ بِنا فتراها حتى تعلمَ مَنها عِلْما، فهيَ في ذلك المسرح، هيَ في ذلك الشرّ، هيَ في تلكَ الظلمات، هيَ كَاللؤلؤةِ لا تتربَّى لؤلؤةٌ إلّا في أعماقِ بحر.

وذهبْنَا إلى مسرح يقومُ في حديقةٍ غنَّاءَ مترامِيةِ الجهاتِ بعيدةِ الأطراف، تظهرُ تحتَ الليلِ من ظلماتِها وأنوارِها كأنَّها مُثْقَلَةٌ بمعاني الهجر وَالعشق.

وتقدَّمْنَا نسيرُ في الغَبَش[1]، فقالَ صاحبُنا المُحبّ: إنِّي لَأَشعرُ أنَّ الظلامَ هنا حيٌّ كأَنَّ فيهِ غوامضَ قلْبٍ كبير، فما أرى فرْقاً بينَ أنْ أجلِسَ فيهِ وبينَ الجلوسِ إلى فيلسوفٍ عظيم مهموم بِهَمِّ اللانهاية، فتعالَ نبرزْ إلى ذلك النورِ حولَ المسرح لِنراها وهيَ مقبلة، فإنَّ رؤيَتها سيدةً غيرُ رؤيتِها راقصة، ولِهذه جمالُ فنٍّ ولتِلك فنُّ جمال.

---

(١) الغبش: العتمة.

ولم نلبثْ إلَّا يسيراً حتى وافتْ[1]، ورأيْتُها تمشي مِشيَةَ ٱلخفِراتِ[2] كأنَّما تحترمُ أفكارَ ٱلناس، يزهوها على ذلك إحساسٌ نبيلٌ كإحساسِ ٱلملكةِ ٱلشاعرةِ بمحبَّةِ شعْبِها؛ وٱنتفضَ مجنونُنا وأغمضَ عينيهِ كأنَّها تمرُّ بين ذراعيهِ لا في طريقِها، وكأنَّ لذةَ قُربِها منه هيَ ٱلممكنُ ٱلذي لا يُمكنُ غيرُه. . .

وكانَ عجباً مِنَ ٱلعجبِ أنْ تحَرَّكَ ٱلهواءُ في ٱلحديقةِ وَٱضطربَتْ أشجارُها، فقال: أنت ترى؛ فهذا ٱحتجاجٌ من راقصاتِ ٱلطبيعةِ على دخولِ هذه ٱلراقصة! قلْت: آهِ يا صديقي! إنَّ ٱلمرأةَ لا تكونُ ٱمرأةً بِمعانيها إلَّا إذا وُجدَتْ في جوِّ قلْبٍ يعشقُها.

ونفذْنا إلى ٱلمسرح، وتحرّى[3] صاحبُنا موضِعاً يكونُ فيهِ منظرَ ٱلعينِ من صاحبتِهِ ويكونُ مستخفياً منها، ثُمَّ رُفِعَ ٱلستارُ عنها بينَ ٱثنتينِ يكتنفانِها، وقد لبِسْنَ ثلاثتُهُنَّ أثوابَ ٱلريفيات، وظهْرنَ كهيئتِهِنَّ حين يجنينَ ٱلقطن.

وبرزَتْ (تلك) في ثوبٍ مِنَ ٱلحرير ٱلأسود، وهيَ بيضاءُ بياضَ ٱلقمرِ حينَ يَتِمُّ وقد شدَّتْ وسطَها بِمشَدَّةٍ مِنَ ٱلحريرِ ٱلأحمر، فتَحبَّكَتْ بها وظهرَتْ شيئين: أعلى وأسفل؛ ثُمَّ ألقَتْ على شعرِها ٱلذهبيِّ قَلنسوةً حمراءَ من ذلك ٱلحريرِ أمالَتْها جانباً فحبسَتْ شيئاً منهُ وأظهرَتْ سائرَه، وأخذَتْ بيديها صفَّاقتينِ[4] وأقبلَ ٱلثلاثُ يرقصْنَ ويُغنِّين نشيدَ ٱلفلاحة.

لم أنظرْ إلى غيرِها، فقد كانَتْ صاحبتاها دليلين على جمالِها لا أكثرَ ولا أقلّ، وما أحسَبُ ٱلحريرَ ٱلأحمرَ، كانَ معَها أحمرَ ولا ٱلأسودَ كانَ عليها أسود، ولا لونَ ٱلذهبِ في مِعْصمِها كانَ لونَ ٱلذهب؛ كلَّا كلَّا، هذه ألوانٌ فوقَ ٱلطبيعة، لِأنَّ ٱلوجْهَ يُشرِقُ عليها بِٱلجمالِ وَٱلحياة، وذلك ٱلجسمَ يَفيضُ لها بِالخفَّةِ وٱلطربِ وتلك ٱلروحَ تبعثُ فيها ٱلمرحَ وَٱلنشوة؛ هذا مزيجٌ من خمرِ ٱلألوانِ لا مِنَ ٱلألوان نفسِها.

وقالَ مجنونُنا: إنَّ أجملَ ٱلجمالِ في ٱلمرأةِ ٱلفاتنةِ هُوَ ذاك ٱلذي يجعلُ لِكُلِّ إنسانٍ نوعَ شعورِهِ بها، وأنا أشعرُ ٱلساعةَ أنَّ قلبي نِصْفُ قلْبٍ فقط، وأنَّ نِصْفَهُ ٱلآخَرَ في هذه وحدَها؛ فما شعورُك أنت؟

---

(١) وافت: جاءت.

(٢) الخفرات: الحييات.

(٣) تحرّي: فتش.

(٤) صفاقتين: هما ما تضع الراقصات في أصابعهن، ويقال لهن الساجات.

قلْت: يا صديقي. إنَّ ٱللَّهَ رحيم، ومن رحمتِهِ أنَّهُ أخفى ٱلقلْبَ وأخفى بَواعثَهُ ليِظلَّ كلُّ إنسانٍ مخبوءًا عن كلِّ إنسانٍ؛ فدعْني مخبوءاً عنك!

قال: لا بُد!

قلْت: إنَّ ٱلمِصباحَ في ٱلموضعِ ٱلنجسِ لا يبعثُ ٱلنورَ نَجِساً، وما أشعرُ إلَّا أنَّ ٱلنورَ ٱلذي في قلبي قدِ ٱمتزجَ بِٱلنورِ ٱلذي في عينيها.

ثُمَّ كأنَّها أحسَّتْ بأنَّ إنساناً قدِ ٱمتلأ بها، فأدارَتْ وجهَها وهيَ ترقص، فتلمَّحَتْ صاحِبَنا، وجعلَتْ تُقطِّعُ ٱلطَّرفَ بينهَا وبينَهُ كأنَّها تعرفُهُ وتجهلُه، ثُمَّ تبيَّنَتْ إلحاحَ نظرِهِ فضحكَتْ لِأنَّها تعرفُهُ ولا تجهلُه!

أمَّا هو، أمَّا ٱلمجنون، أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين!...

* * *

القلبُ ٱلمسكين

٢

. . . أمّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فرأى ٱلضحكةَ ٱلتي ألقَتْ بها صاحبتُهُ وهيَ ترقصُ حينَ عرفَتْهُ ـ غيرَ ما رأيْتُها أنا وغيرَ ما رأى ٱلناس: كانَتْ لنا نحنُ ٱبتساماً عذْباً من فم جميلٍ يَتِمُّ جمالُهُ بهذه ٱلصورة، وكانَتْ لَهُ هو لغةً من هذا ٱلفم ٱلجميلِ يُتِمُّ بها حديثاً قديماً كانَ بينهما؛ وَٱعترانا منها ٱلطربُ وَٱعتراهُ منها ٱلفِكْرُ، ووصفَتْ لنا نوعاً مِنَ ٱلحُسْنِ ووصفَتْ لَهُ نَوْعاً مِنَ ٱلشوق، ومرَّتْ علينا شُعاعاً في ٱلضوءِ ووقعَتْ في يدِهِ هو كَبطاقةِ ٱلزيارةِ عليها ٱسمٌ مكتوب. . .

وقويَ إحساسُ ٱلراقصةِ ٱلجميلةِ بعدَ ذلك فٱنبعَثَ يدلُّ على نفسِهِ ضروباً مِنَ ٱلدلالةِ ٱلخفية، ورجعَتْ بهذا ٱلإحساسِ كَٱلحقيقةِ ٱلشعريَّةِ ٱلغامضةِ ٱلمملوءَةِ بِفنونِ ٱلرمزِ وَٱلإيماء، وكأنَّها زادَتْ بهذا ٱلغموضِ زيادةً ظاهرة؛ ولِلمَرأةِ لَحظاتٌ تكونُ فيها بِفكرينِ حينما يكونُ أحدُ ٱلفكرينِ ماثلاً أمامَها في رجلٍ تهواه؛ ففي هذه ٱلساعةِ تتحدّثُ ٱلمرأةُ بكلام فيهِ صمتٌ يشرحُ ويُفسِّر، وتَضطربُ بِحركةٍ فيها ٱسترخاءٌ يميلُ ويعتنِق، وتنظرُ بألحاظٍ فيها ٱنكسارٌ يأمرُ ويتوسَّل؛ وكانَتْ هِي في هذه ٱلساعة. . . فغلبَتْ ـ وٱللّهِ ـ على صاحبِها ٱلمسكينِ وتركَتْ نفسَهُ كأنَّها تتقطَّعُ فيهِ من أسفٍ وحسرة؛ ثُمَّ كانَتْ لَهُ كَٱلزهرةِ ٱلعبقة: بينَهُ وبينَها جمالُها وعِطْرُها هواؤها وٱلحاسةُ التي فيه.

وجعلَ يستشِفُّها من خِلالِ أعضائِها، ثُمَّ قالَ لي: أُنظرْ ـ ويحك ـ! لَكأَنَّ ثيابَها تضُمُّها وتلتصِقُ بها ضمَّ ذي ٱلهوى لِمَنْ يهوى.

قلْت: ما هي إِلّا كهاتينِ ٱللتينِ ترقصانِ معها: ٱمرأةٌ بينَ ٱمرأتينِ وإنْ كانَتْ أحسنَ ٱلثلاث.

قال: كلا، هذه وحدَها قصيدةٌ من أروعِ ٱلشعر، تتحَركُ بدلاً من أنْ تُقرأَ

وتُرى بدلاً من أنْ تُسمع؛ قصيدةٌ بلا ألفاظ، ولكنَّ مَنْ شاءَ وضَعَ لها ألفاظاً من دمِهِ إذا هو فهمَها بِحواسِّهِ وفِكْرِهِ وشعورِهِ.

قلْت: والأُخْرَيَان؟

قال: كلا كلا، هذا فنٌّ آخر، فٱلواحدةُ من هؤلاءِ ٱلمسكيناتِ إنَّما ترقصُ بمعدِتِها... ترقصُ لِلْخبزِ لا غَيرَ؛ أما (تلك) فرقصُها ٱلطربُ مصنوعاً على جسمِها ومصنوعاً من جسمِها؛ إنَّها كَٱلطاووسِ يتبخترُ في أصباغِه. في ريشِه، في خُيَلائِه، بَخترةٌ يُضاعِفُها ٱلحُسنُ ثلاثَ مراتَ؛ ولو خلقَ ٱللَّهُ جِسمينِ أحدَهما مِنَ ٱلجواهرِ أحمرِها وأخضرِها وأصفرِها وأزرقِها، والآخرَ مِنَ ٱلأزهارِ في ألوانِها ووشْيها، ثُمَّ ٱختالَ ٱلطاووسُ بينَهما ناشراً ذيلَهُ في كِبرياءِ روحِهِ ٱلملوَّنة ـ لَظَهَرَ فيهِ وحدَهُ ٱللونُ ٱلملِكُ بينَ ٱلوانِ هي رَعيَّتُهُ ٱلخاضعة.

* * *

وَٱنتهى رقصُ ٱلحسناءِ ٱلفاتنةِ وغابَتْ وراءَ ٱلستارةِ بعدَ أنْ أرسلَتْ قُبلةً في ٱلهواء... فقالَ صاحِبُنا: آهِ! لو أنَّ هذه ٱلحسناءَ تصدَّقَتْ بدرهمٍ على فقير، لَجعلَتْهُ لمسةُ يدِها درهماً وقُبلة...

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! هذه قبلةٌ مُحرَّرةٌ مسددةٌ وقد رأيْتُها وقعَتْ هنا... ولكنَّك دائماً في خِصامٍ بينَ نفسِكَ وبينَ حقائقِ ٱلحياة؛ تعشقُ ٱلقُبلةَ وتُخاصِمُ ٱلفَمَ ٱلذي يُلقيها، وتبني ٱلعُشَّ وتتركُهُ فارغاً من طيره؛ إنَّ ٱمْرأةً تُحبُّكَ لا بُدَّ منتهيةٌ إلى ٱلجنونِ ما دامَتْ معَك في غيرِ ٱلمفهومِ وغير ٱلمعقولِ وغيرِ ٱلمُمْكِن.

ثُمَّ بدأَ فصلٌ آخرُ على ٱلمسرح، وظهرَ رجالٌ ونساءٌ وقصة؛ وكانَ من هؤلاءِ ٱلرجالِ شيخٌ يمثل فقيهاً، وآخرُ يُمثِّل شُرطيًّا؛ فقالَ صاحبُنا ٱلفيلسوف: لقد جاءَتْ هذه ٱلثيابُ فارغةً وَكأنَّها ٱلآن تنطِقُ أنَّ صحةَ أكثرِ ٱلأشياءِ في هذه ٱلحياةِ صحةُ ٱلظاهرِ فقط، ما دامَ ٱلظاهرُ يُخلعُ ويُلبسُ بهذِهِ ٱلسهولةِ؛ فكم في هذه ٱلدنيا مِنْ شُرفاءَ لو حقَّقْتَ أمرَهم وبلوْتَ[1] ٱلباطنَ منهم ـ إنّما يُشرِّفون ٱلرذائلَ لِأنَّهم يرتكبونَها بشرفٍ ظاهر... وكم من أغنياءَ ليسَ بينَهم وبينَ ٱللصوصِ إلَّا أنَّهم يَسرقون بقانون... وكم من فُقهاءَ ليسَ بينَهم وبينَ ٱلفَجَرةِ إلَّا أنّهم يَفجُرون بِمنطقٍ وحُجَّة... ليسَتِ ٱلإنسانيَّةُ بهذه ٱلسهولةِ ٱلتي يظُنَها من

---

(١) بلوت: اختبرت.

يظنّ، وإلّا ففيمَ كانَ تعبُ ٱلأنبياءِ وشَقاءُ ٱلحُكماءِ وجِهادُ أهلِ ٱلنفوس؟

العقدةُ ٱلسماويّةُ في هذه ٱلأرضِ أنّ ٱللّهَ ـ سبحانه وتعالى ـ لم يخلقِ ٱلإنسانَ إلّا حيواناً مُلَطَّفاً تلْطِيفاً إنسانيًّا، ثُمَّ أراهُ ٱلخيرَ وَٱلشَّرَّ وقالَ لَهُ إجعلْ نفسَكَ بنفسِكَ إنساناً وجِئْني.

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! فما تقولُ في حُبِّكَ هذه ٱلرقصةَ وأنت حيوانٌ ملطَّفٌ تَلْطِيفاً إنسانيًّا؟

قال: ويحَك! وهلِ ٱلعقدةُ إلّا هنا؟ فهذه مبذولةٌ مُمْكِنة، ثُمَّ هيَ لي كَٱلضرورةِ ٱلقاهرة، فلا يكونُ حُبُّها إلّا إغراءً بِنَيْلها، ولا تكونُ سُهولةُ نيلِها إلّا إغراءً لِذلك ٱلإغراء؛ فأنا منها لسْتُ في ٱمرأةٍ وحُبّ، ولكنّي في ٱمتحانٍ شديدٍ عَسِر؛ أُغالِبُ ناموساً من نواميسِ ٱلكوْن، وأُدافِعُ قانوناً من قوانينِ ٱلغريزةِ وأُظهرُ قوتي على قوةِ ٱلضرورة ٱلميسرةِ بأسبابِها، وهيَ أشدُّ ٱلضروراتِ عُنْفاً وإلْحاحاً وقَهْراً لِلنفس، من قِبَلِ أنّها ضرورةٌ لازمة، وأنّها مُهيَّأةٌ سهْلة؛ فلو أنَّ هذه ٱلمرأةَ ٱلمحبوبةَ كانَتْ مُمنَّعةً بعيدةَ ٱلمنال، لَمَا كانَتْ لي فضيلةٌ في هذا ٱلحُبِّ ٱلعنيف، ولكنّها دانيةٌ ميسرةٌ على ٱلشغفِ[1] وٱلهوى؛ فهذا هُوَ ٱلامتحانُ لِأصنعَ أنا بنفسي فضيلةَ نفسي!

* * *

ومرَّ ٱلفصلُ ٱلذي مثّلُوهُ وما نشعرُ منه بتمثيل، فقد كانَ كَٱلصورةِ ٱلعقليَّةِ ٱلمعترضةِ لِلْعقلِ وهو يفكّرُ في غيرِها، وكانَتِ (الحقيقةُ) في شيءٍ آخرَ غيرِ هذا؛ ومتى لم يتعلّقِ ٱلشعورُ بِٱلفنِّ لم يكنْ فيهِ فنّ؛ وهذا هو سرُّ كلِّ ٱمرأةٍ محبوبة، فهيَ وحدَها ٱلتي تُثيرُ ٱلمُحِبَّ في نفسِهِ فيشعرُ من حُسنِها بحقيقةِ ٱلحُسْنِ ٱلمُطْلَق، ويجدُ في معانيها جوابَ معانيه، وتأتيهِ كأنّها صُنِعَتْ لَهُ وحدَه، وتجعلُ لَهُ في ٱلزمانِ زمناً قلبيًّا يحصرُ وجودَهُ في وجودِها.

وليسَ فنُّ ٱلحُبِّ شيئاً إلّا ٱستطاعةَ ٱلحبيبِ أنْ يجعلَ شهواتِ ٱلمُحِبِّ شاعرةً بِهِ ممتلِئةً منه متعلّقةً عليه، كأَنَّ بِهِ وحدَهُ ظهورَ جَسَدِيَّةِ هذا ٱلجسدِ ورُوحانيةِ هذا ٱلروح؛ وكلُّ ما يتزيَّنُ بِهِ ٱلمحبوبُ لِلْمُحِبّ، فإنّما هو وسائلُ مِنَ ٱلمبالغةِ لإظهارِ تلك ٱلمعاني ٱلتي فيه، كيما تكبُرَ فيُدرِكَها ٱلمُحِبُّ بِدِقّة، وتثورَ فيُحسَّها ٱلعاشقُ بِعُنفٍ وتستبدَ فيخضعَ لها ٱلمسكينُ بقوَّة.

(١) الشغف: شدّة الحبّ.

وَٱلشهواتُ كَٱلطبيعةِ ٱلواحدةِ في أعصابِ ٱلإنسان، وهي تتبع فِكَرهُ وخيالَهُ؛ ولا تَفاوُتَ بينَهما إلَّا بِٱلقوَّةِ وَٱلضعف، أو ٱلتنبُّهِ وَٱلخمود[1]، أوِ ٱلحدَّةِ وٱلسكون؛ غيرَ أنَّها في ٱلحبِّ تَجِدُ لها فِكْراً وخَيالاً مِنَ ٱلمحبوب، فتكونُ كأنَّها قد غيَّرَتْ طبيعتَها بِسرٍ مجهولٍ من أسرارِ ٱلألوهيَّة؛ ومن هنا يتألَّهُ ٱلحبيبُ وهو هو لم يزِدْ ولم ينقُصْ ولم تيغيَّرْ ولم يتبدل، وتراهُ في وهمِ مُحِبِّهِ يفرضُ فروضاً ويشرعُ شريعةً من حيثُ لا قِيمةَ لِفروضِهِ وشريعتِهِ إلَّا في ٱلشهوةِ ٱلمؤمنةِ بِهِ وحدَها.

ومن ثَمَّ لا عِصْمةَ على ٱلمُحِبِّ إلَّا إذا وُجِدَ بينَ إيمانين، أقواهما ٱلإيمانُ بِٱلحلالِ وَٱلحرام؛ وبينَ خوفين، أشدُّهما ٱلخوفُ مِنَ الله؛ وبينَ رغبتين، أعظمُهُما ٱلرغبةُ في السموّ.

فإنْ لم يكنِ ٱلعاشقُ ذا دِيْنٍ وفضيلةٍ فلا عِصمةَ على ٱلحُبِّ إلَّا أنْ يكونَ أقوى الإيمانينِ الحرصَ على مكانةِ المَحبوبِ في الناس، وأشدُّ الخوفين الخوفَ من القانون.. وأعظمُ ٱلرغبتينِ ٱلرغبةَ في نتيجةٍ مشروعةٍ كَٱلزواج.

فإنَّ لم يكُنْ شيءٌ من هذا أو ذاك فقلَّما تَجِدُ ٱلحُبَّ إلَّا وهو في جراءَةِ كُفرين، وحماقةِ جُنُونين، وَٱنحطاطِ سفالتين؛ وبهذا لا يكونُ في ٱلإنسانينِ إلَّا دونَ ما هو في بهيمتين!

* * *

ثُمَّ جاءَ ٱلفصلُ ٱلثالثُ وظهَرتْ هي على ٱلمسرح، ظهَرتْ هذهِ ٱلمرةَ في ثوبٍ مركيزةٍ أوربيةٍ تُخاصِرُ[2] عشيقاً لها، فيرقصانِ في أدبٍ أوربيٍّ متمدِّن... متمدِّنٍ بِنصفِ وقاحة؛ متأدِّب... متأدِّبٍ بِنِصفِ تسفّلٍ؛ مشروع... مشروع بنصفِ كُفْر؛ هو على ٱلنصفِ في كلِّ شيء، حتى ليجعلُ ٱلعذارءَ نِصْفَ عذراء، وٱلزوجةَ نصفَ زوجة...!

وكانَ ٱلذي يمثِّلُ دورَ ٱلعشيقِ فتاةً أخرى غُلاميَّةً مَجمَّمَةَ الشعْرِ[3] ممسوخةً بينَ ٱلمرأةِ وٱلرجل؛ فلمَّا رآها صاحبُنا قال: هذا أفضل...

وهشَّتِ[4] ٱلحسناءُ وتبسَّمَتْ وأخذَتْ في رقصِها ٱلبديع، فٱنفصلَ عنِّي

---

(١) الخمود: السكون.
(٢) تخاصر: تمسك بخصره.
(٣) مجمّمة الشعر: أي قاصّة شعرها تشبهاً بالرجال.
(٤) هشّت: ابتسمت.

ٱلصديقُ وأهلمني وأقبلَ عليها بِٱلنظرةِ بعدَ ٱلنظرةِ بعدَ ٱلنظرة، كأَنَّهُ يُكرِّرُ غيرَ ٱلمفهومِ لِيفهمَهُ ورجعَ وإيَّاها كأنَهُ في عالمٍ من غيرِ زمنِنا تُقدِّمُهُ عن عالمِنَا ساعةً أو تُؤخِرُهُ ساعة؛ وكانَتْ جملةُ حالِهِ كأنَّها تَقولُ لي: إنَّ ٱلدنيا ٱلآنَ ٱمرأة! وكانَ منَ ٱلسرورِ كأنَّما نقلَهُ ٱلحُبُّ إلى رُتبةِ آدم، ونَقَلَ صاحبَتَهُ إلى رُتبةِ حوَّاء، ونقلَ ٱلمسرحَ إلى رُتبةِ ٱلجنة!

وَٱلعجيبُ أنَّ ٱلقمَر طلعَ في هذه ٱلساعةِ وأفاضَ نوراً جديداً على ٱلمسرحِ ٱلمكشوفِ في ٱلحديقة، فكأَنهُ فعلَ هذا لِيُتِمّ ٱلحُسْنَ وٱلحُبّ؛ وأخذَ شُعاعُ ٱلقمرِ ٱلسماويّ يرقصُ حولَ هذا ٱلقمرِ ٱلأرضيّ، فكانَتِ ٱلصِّلَةُ تامَّةً وثيقةً بينَ نفسِ صاحبِنا وبينَ ٱلأرضِ وَٱلسماءِ وَٱلقَمرين.

ما هذا ٱلوجْهُ لِهذهِ ٱلمرأة؟ إنَّهُ بَينَ ٱللحظةِ وَٱللحظةِ يعبِّرُ تعبيراً جديداً بِقسماتِهِ وَمَلامِحِهِ ٱلفَتَّانة؛ كلُّ ٱلبياضِ ٱلخاطفِ في نجومِ ٱلسماءِ يجولُ في أديمِهِ ٱلمشرق، وكلُّ ٱلسوادِ ٱلذي في عيونِ ٱلمَهَا يجتمعُ في عينيه، وكلُّ ٱلحُمرةِ ٱلتي في ٱلوردِ هيَ في حُمرةِ هاتينِ ٱلشفتين.

ما هذا ٱلجسمُ ٱلمتَّزنُ ٱلمتموِّجُ ٱلمُفرَغُ كأنَّهُ يندفِقُ هنا وهنا؟ إنَّهُ جِسمٌ كاملُ ٱلأُنوثة، إنَّهُ صارخٌ صارخ، إنَّهُ عالَمُ جمالٍ كما تقولُ ٱلفلسفةُ حينَ تَصِفُ ٱلعالم: فيهِ «جِهةُ فوق» و «جِهة تحت»؛ لوِ ٱمتدَّتْ لَهُ يدُ عاشقِهِ لَجعلَ في خمسِ أصابِعِها خمسَ حواس. . .

ما هذا؟ لقد خُتِمَ ٱلرقصُ بِقبلةٍ ألقاها ٱلخليلُ على شفتي ٱلخليلة، وكانَتْ تركَتْ خصرَها في يديهِ وٱنفلتَتْ تميلُ بأعلاها راجعةً بِرأْسِها إلى خَلْف، نازلةً بِهِ رُوَيداً رُويداً إلى ٱلأرض، هاربةً بِشفتيها مِنَ ٱلفمِ ٱلمُطِلِّ عليها وكانَ هذا ٱلفمُ ينزِّلُ رُويداً رويداً لِيُدرِكَ ٱلهارب. . .

وقبلَ أنْ تقعَ ٱلقُبْلَةُ ٱلتفتَتْ لَفتةً إلى. . . ثُمَّ تلقَّتِ ٱلقبلة، أمَّا هو، أمَّا مجنونُنا، أمَّا صاحبُ ٱلقلْب ٱلمسكين؟. . .

القلب المسكين

٣

أمّا صاحبُ ٱلقلب ٱلمسكينِ فرَمقَها[١] وهيَ تلتفِتُ إليه ٱلتفاتَ ٱلظبيةِ بِسوادِ عينيها: يجعلُ سوادَهُما ٱلجميلَ في ٱلنظرةِ ٱلواحدةِ نظرتينِ لِعاشقِ ٱلجمال، تقولُ إحداهما أنت، وتقولُ ٱلأخرى: أنا، ثُمَّ رآها وقد كَسَرتْ أجفانَها وتفتَّرتْ في يدي ٱلمُمثلِ ٱلعشيقِ وأفصحَ منظرُها بِبلاغة... بِبلاغةِ جسمِ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبةِ بين ذراعيْ مَنْ تُحبُّه؛ ثُمَّ ٱختَلجَتْ وصوَّبتْ وجهَها، وأَهدفَتْ شفتيها. وتلقَّتِ ٱلقُبلة.

وكانَ بِهِ منها ما اللّٰهُ عليمٌ بِهِ، فَٱنبعثَتْ من صدرِهِ آهةٌ مُعْوِلةٌ تَئِنُّ أنيناً، غيرَ أنَّها كَلَّمَتْهُ بِعينيها أنَّها تُقبِّلُهُ هو؛ فلا ريبَ قد حملَتْ إليهِ إحدى ٱلنسماتِ شيئاً جميلاً عن ذلك ٱلفَم، لَمسَتْ بِهِ ٱلنفسُ ٱلنفس، وَٱلقُبلةُ هي هي ولكن وقعَ خطأٌ في طريقة إرسالِها...

وليسَ تحتَ ٱلخيالِ شيءٌ موجود، ولكنَّ ٱلخيالَ ٱلمتسرِّحَ بينِ ٱلحبيبينِ تكونُ فيهِ أشياءُ كثيرةٌ واجبةُ ٱلوجود؛ إذْ هو بطبيعتِهِ مجرى أحلام من فِكْر إلى فِكْر، ومسرحُ شعورٍ يصدرُ ويردُ بينَ ٱلقلْبينِ في حياةٍ كاملةِ ٱلإحساسِ مُتجاورةِ ٱلمعاني؛ وبهذا ٱلخيالِ يكونُ مَعَ ٱلقلبين ٱلمتحابَّينِ روحٌ طبيعيٌّ كأنَّهُ قلبٌ ثالثٌ ينقلُ لِلواحدِ عنِ ٱلآخر، ويصلُ ٱلسرَّ بِٱلسر، ويزيدُ في ٱلأشياءِ ويُنقصُ منها، ويَدخلُ في غيرِ ٱلحقيقيِّ فيجعلُهُ أكثرَ مِنَ ٱلحقيقيّ؛ ومن هنا لم يكنْ فرحٌ ولا حزنٌ، ولا أملٌ ولا يأس، ولا سعادةٌ ولا شَقاء، إلَّا وكلُّ ذلك مضاعَفٌ لِلمُحِبِّ ٱلصادقِ ٱلحُبِّ بِقدرِ قلبين؛ وٱلذين يعرفونَ قُبلةَ ٱلشغفِ وَٱلهوى، يعرفون أنَّ ٱلعاشقَ يُقبِّلُ بِلَذَّةِ أربعِ شِفاه.

* * *

(١) رمقها: نظر إليها بطرف عينيه متأملاً.

وَٱنسدلَتْ[1] بعدَ هذه ٱلقُبلةِ سِتارةُ ٱلمسرح، وغابَتِ ٱلجميلةُ ٱلمعشوقةِ غيبةَ ٱلتمثيلِ فقلْتُ لِصاحبِ ٱلقلْبِ ٱلمسكين: إنَّ روحيكُما متزوجتان. . . قال: آه! ومدَّها من قلْبِهِ كأنَّهُ دَنِفٌ سقيم.

قلْت: وماذا بعدَ آه؟

قال: وماذا كانَ قبلَها؟ إنَّهُ ٱلحُبّ: فيهِ مثلُ ما في (عمليَّةٍ جراحيَّةٍ) من تنهداتِ ٱلألم ولذعاتِه، غيرَ أنَّها مفرَّقةٌ على ٱلأوقاتِ وَٱلأسباب، مبعثَرَةٌ غيرُ مجموعة! «آه» هذه هيَ ٱلكلمةُ التي لا تفرغُ منها ٱلقلوبُ ٱلإنسانيَّة، وهيَ تُقالُ بلهفةٍ واحدةٍ في ٱلمصيبةِ ٱلداهمة، والألم ٱلبالغ، وَٱلمرضِ ٱلمدنفِ[2] وٱلحُبِّ ٱلشديد؛ الشديد؛ فحينما تُوْشِكُ ٱلنفسُ أنْ تَختَنِقَ تتنفَّسُ «بآه»!.

قلْت: أمَا رأيْتَها مرَّةً وقد أوشكَتْ نفسُها أنْ تختنِق. . .؟

قال: لقد هِجْتَ لي داءً قديماً؛ إنَّ لِهذه ٱلحبيبةِ ساعاتٍ مغروسةً في زمني غرسَ ٱلشجر، فبينَ ٱلحِينِ وَٱلحِينِ تُثمرُ هذه ٱلساعاتُ مُرَّها وحُلْوَها في نفسي كما يُثمرُ ٱلشجرُ ٱلمختلِف؛ ولقدْ رأيْتُها ذاتَ مرةٍ في ساعةِ همِّها! ثُمَّ ضحكَ وسكَت.

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! ماذا رأيْتَ منها؟ وكيف أراكَ ٱلوَجْدُ ما رأيْتَ منها؟

قال: أتصدِّقني؟ قلت: نعم.

قال: رأيْتُ ٱلهمَّ على وجهِ هذه ٱلجميلةِ كأنَّهُ همٌّ مؤنَّثٌ يعشَقُهُ همٌّ مذكَّر؛ فلَهُ جمالٌ ودلالٌ وفِتنةٌ وجاذبيَّة، وكأنَّ وجهَها يصنعُ من حُزنِها حُزنين: أحدُهما بمعنى ٱلهَمِّ لِقلبِها، وٱلآخرُ بمعنى ٱلثورةِ لِقلبي!

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! هذا كلامٌ آخر؛ فهذه ٱمرأةٌ ناعمةٌ بَضَّةٌ مطويٌّ بعضُها على بعضِها، لفَّاءُ من جِهةٍ هيفاءُ من جِهة، ثقيلةُ شيءٍ وخفيفةُ شيء، جمعَتِ ٱلحُسْنَ وٱلجسمَ وفنًّا بارعاً في هذا وفنًّا مُفْرداً في ذاك؛ وهيَ جميلةُ كلِّ ما تتأمَّلُ منها، ساحرةُ كلِّ ما تتخيَّلُ فيها، وهيَ مَزَّاحةٌ دَحْدَاحةٌ[3] وهي تُطالِعُك وتُطعِمُك؛ وأنت ٱمرُؤٌ عاشِقٌ ورجلٌ قويُّ ٱلرجولة؛ فٱلجميلةُ وٱلمرأَةُ هما لَكَ في هذا ٱلجسمِ ٱلواحد، إنْ ذهبْتَ تفصِلُهُما في خيالِك ٱمتزجَتا في دمِك؛ ولو أمسكَتْ آلةُ ٱلتصويرِ نظراتِكَ إليها لَبانَتْ فيها أطرافُ ٱللَّهَبِ الأحمرِ مِمَّا في نفسِكَ منها؛ ولَعَمري لو

---

(١) انسدلت: تدلّت.

(٢) المرض المدنف: المرض المميت. (٣) دحداحة: خفيفة الظلّ ومرحة.

مرَّتْ عربةٌ تَدْرجُ[1] في ٱلطريقِ ونظرْتَ إليها نظرتَكَ لِهذهِ ٱلمرأةِ بهذِهِ ٱلغريزةِ ٱلمحتبَسَةِ ٱلمكفوفةِ[2] لَظنَنْتُك سترى ٱلعجلةَ ٱلحلفيَّةَ عاشقاً مهتاجاً يُطاردُ ٱلعجلةَ ٱلأماميةَ وهيَ تفرُّ منه فِرارَ ٱلعذراء!

* * *

فضحكَ وقال: لا، لا؛ إنَّ نوعَ ٱلتصويرِ لإنسانٍ هو نوعُ ٱلمعرفةِ لِهذا ٱلإنسان، ومِنْ كُلِّ حبيبٍ وحبيبِهِ تجتمعُ مقدمةٌ وَنتيجةٌ بينَهما تلازمٌ في ٱلمعنى، وٱلمقدمةُ عندي أن إبليسَ هنا في غير إبليسيَّته، فلا يُمكنُ أنْ تكونَ ٱلنتيجةُ وضْعَهُ في إبليسيَّته؛ وما أتصورُ في هذه ٱلجميلةِ إلَّا ٱلفنَّ ٱلذي أَسبغَهُ ٱلجمالُ عليها، فهي معرفتي وخيالي كَٱلتمثالِ ٱلمبدَعِ إبداعَهُ: لا يستطيعُ أَنْ يعملَ عملاً إلَّا إظهارَ شكلِهِ ٱلجميلِ ٱلتامِّ حافلاً بِمعانيه.

وليسَتْ هذه ٱلمرأةُ هيَ ٱلأولى ولا ٱلثانيةَ ولا ٱلثالثةَ فيمَنْ أحبْبتُ؛ إنَّها تكرارٌ وإيضاحٌ وتكملةٌ لِشيءٍ لا يكملُ أبداً، وهو هذه ٱلمعاني ٱلنسويَّةُ ٱلجميلةُ ٱلتي يزيدُ ٱلشيطانُ فيها من عِشقِ كلِّ عاشق؛ إنَّ بطنَ ٱلمرأةِ يلد، ووجهَ ٱلمرأةِ يلِد!

قلْت: هذا إنْ كانَ وجهُها كوجهِ صاحِبتِك، ولكنْ ما بالُ ٱلدميمة؟

قال: لا، هذا وجهٌ عاقر...

* * *

قلْت: ولكنَّ ٱلخطأَ في فلسفتِك هذه أنَّكَ تنظرُ إلى ٱلمرأةِ نظرةً عمليَّةً تُريدُ أنْ تعمل، ثُمَّ تمنعُها أنْ تعمل؛ فتأتي فلسفتُك بعيدةً مِنَ ٱلفلسفة، وكأنَّكَ تغذو ٱلمعِدةَ ٱلجائعةَ برائحةِ ٱلخبزِ فقط.

قال: نعم هذا خطأ، ولكنَّهُ ٱلخطأُ ٱلذي يُخرجُ ٱلحقائقَ ٱلخياليَّةَ من هذا ٱلجمالِ؛ فإذا سخِرْتَ مِنَ ٱلحقيقةِ ٱلماديَّةِ بأسلوبٍ فبِهذا ٱلأسلوبِ عينِهِ تُثْبتُ ٱلحقيقةُ نفسَها في شكلٍ آخرَ قد يكونُ أجملَ من شكلِها ٱلأول.

أتعلمُ كيف كانَتْ نظرتي إلى نورِ ٱلقمرِ على هذه وإلى حُسْنِ هذه على ٱلقمر؟ إنَّ ٱلقمرَ كانَ يُنسيني بشريَّتَها فأراها مُتمِّمَةً لَهُ كأنَّهُ ينظرُ وجهَهُ في مرآة، فهيَ خيالُ وجهِهِ؛ وكانَتْ هيَ تُنسيني مادِّيَةَ ٱلقمرِ فأراهُ مُتمِّماً لها كأنَّهُ خيالُ وجهِها.

أتدري ما نظرةُ ٱلحُبّ؟ إنَّ في هذا ٱلقلبِ ٱلإنسانيِّ شرارةً كهربائيَّةً متى

---

(١) تدرج: تمشي وتسير.
(٢) المكفوفة: المكبوتة والمحبوسة.

ٱنقدحَتْ زادَتْ في ٱلعينِ ألحاظاً كشَّافة، وزادَتْ في ٱلحواسِّ أضواءَ مُدركة؛ فينفذُ ٱلعاشقُ بِنظرِهِ وحواسِّهِ جميعاً في حقائقِ ٱلأشياء، فتكونُ لَهُ على ٱلناسِ زيادةٌ في ٱلرؤيةِ وزِيادةٌ في ٱلإدراكِ يعملُ بِها عملاً فيما يراهُ وما يُدركُه؛ وبهذه ٱلزيادةِ ٱلجديدةِ على ٱلنفسِ لِلدنيا حالةٌ جديدةٌ في هذه ٱلنفس؛ ويأتي ٱلسرورُ جديداً ويأتي ٱلحزنُ جديداً أيضاً؛ فألفُ قُبلةٍ يتناولُها ألفُ عاشقٍ من ألفِ حبيب، هي ألفُ نوعٍ مِنَ ٱللذةِ ولو كانَتْ كلُّها في صورةٍ واحدة؛ ولو بكى ألفُ عاشقٍ من هَجْرِ ألفِ معشوقٍ لكَانَ في كلِّ دمعٍ نوعٌ مِنَ ٱلحزنِ ليسَ في ٱلآخر!

* * *

قلْت: فنوعُ تصوُّركِ لِهذه ٱلراقصِة ٱلتي تُحبُّها، أنَّ إبليسَ هنا في غير إبليسيَّتِه!

قال: هكذا هيَ عندي، وبهذا أسخرُ مِنَ ٱلحقيقةِ ٱلإبليسيَّة.

قلْت: أوَ تسخرُ ٱلحقيقةُ ٱلإبليسيَّةُ منك، وهو ٱلأصَحُّ وعليهِ ٱلفتوى...؟

فضحكَ طويلاً، وقال: سأحدِّثُكَ بغريبة: أنت تعرفُ أنَّ هذه ٱلغادةَ لا تظهرُ أبداً إلَّا في ٱلحريرِ ٱلأسود؛ وهيَ رقيقةُ ٱلبَشرةِ ناصعةُ ٱللون، فيكونُ لها من سوادِ ٱلحريرِ بياضُ ٱلبياضِ وجمالُ ٱلجمال؛ فلقد كنْتُ أمسِ بعدَ ٱلعِشاءِ في طريقي إلى هذا ٱلمكانِ لِأَراها، وكانَ ٱلليلُ مظلماً يتدجَّى، وقد لبسَ وتلبَّسَ وغلبَ على مصابيحِ ٱلطريقِ فحصرَ أنوارَها حتى بينَ كلِّ مِصباحينِ ظلمةٌ قائمةٌ كَٱلرقيبِ بين ٱلحبيبينِ يمنعُهما أنْ يلتقيا؛ فبينا أقلِّبُ عيني في ٱلنورِ وٱلغسَقِ وأنا في مثل ٱلحالةِ ٱلتي تكونُ فيها ٱلأفكارُ ٱلمحزِنةُ أشدَّ حُزْناً ـ إذْ رفَع لي من بعيدٍ شبحٌ أسودُ يمشي مِشيْتَهُ متفتِّراً قصيرَ ٱلخَطْوِ يهتزُّ ويتبختر؛ فتبصَّرْتُهُ في هيئتِهِ فما شككْتُ أنَّها هي، وفُتحْتِ ٱلجنَّةُ ٱلتي في خيالي وبرزَتِ ٱلحقائقُ ٱلكثيرةُ تلتمسُ معانيَها من لذةِ ٱلحُبّ؛ وكانَ ٱلطريقُ خالياً، فأحسسْتُ بِهِ لنا وحدَنا كَالمسافةِ ٱلمحصورةِ بين ثغرينِ مُتعاشقينِ يدنو أحدُهما مِنَ ٱلآخر، وأسرعْتُ إسراعَ ٱلقلْبِ إلى ٱلفرصةِ حينَ تُمكن؛ فلمَّا صِرْتُ بحيثُ أتبيَّنُ ذلك ٱلشبحَ إذا هو... إذا هو قسِّيس...

* * *

فقلْت: يا عجباً!. ما أظرفَ ما داعبَك إبليسُ هذه ٱلمرَّة! وكأنَّهُ يقولُ لك: إيهِ يا صاحبَ ٱلفضيلة...

وكانَ ٱلممثلونَ يتناوبونَ ٱلمسرحَ ونحن عنهم في شُغْل؛ إذْ لم تكنْ نوبتُها قد جاءَتْ بعد؛ وألقى ٱلشيطانُ على لساني فقلْتُ لِصاحبِنا: ما يمنعُكَ أنْ تبعثَ إليها فُلاناً يستفتحُ كلامَها ثُمَّ يدعوها، فليسَ بينَكَ وبينَها إلَّا كلمةُ «تعالَيْ» أو تفضَّلي؟

قال: كلا، يجبُ أنْ تنفصلَ عنِّي لِأَراها في نفسي أشكالاً وأشكالاً؛ ويجبُ أنْ تبتعدَ لِأَلمسَها لَمساتٍ روحيَّة؛ ويجبُ أنْ أجهلَ منها أشياءَ لِأُحقِّقَ فيها عِلْمَ قلْبي؛ ويجبُ أنْ تدعَ جسمَها وأدَعَ جسمي وهناك نلتقي رجلاً وَٱمرأةً ولكنْ على فَهْمٍ جديدٍ وطبيعةٍ جديدة. بهذا ٱلفَهْمِ أنا أكتب، وبهذه ٱلطبيعةِ أنا أُحِبّ!

ما هو ٱلجزءُ ٱلذي يفتنني منها؟ هو هذا ٱلكلُّ بِجميعِ أجزائِه.

وما هو هذا ٱلكلّ؟ هوَ ٱلذي يفسِّرُ نفسَهُ في قلبي بِهذا ٱلحُبّ.

وما هو هذا ٱلحُبّ؟ هو أنا وهي على هذه ٱلحالةِ مِنَ ٱليأس.

نعم أنا بائس، ولكنَّ شعورَ ٱلبؤسِ هو نوعٌ مِنَ ٱلغِنى في ٱلفنّ: لا يكونُ هذا ٱلغِنى إلَّا من هذا ٱلشعورِ ٱلمُؤلِم، وٱلحبيبُ ٱلذي لا تنالُهُ هو وحدَهُ ٱلقادرُ قُدرةَ ٱلجمالِ وَٱلسحر؛ يجعلكَ لا تدري أين يختبىءُ منه جمالُهُ فيدعُكَ تبحثُ عنه بلذَّة؛ ولا تدري أين يُسفِرُ[1] جمالُهُ منه فيدعُكَ تراهُ بلذَّةٍ أخرى؛ أنا أُنضجُ هذه ٱلحلوى على نارٍ مشبوبة، على نارٍ مشبوبةٍ في قلبي!

قلْت: يا صديقيَ ٱلمسكين! هذه مشلكةٌ عرضَتْ بها ٱلمُصادفةُ وستَحلُّها ٱلمُصادفةُ أيضاً. وما كانَ أشدَّ عجبي إذْ لم أفرغْ مِنَ ٱلكلمةِ حتى رأينا (المشكلة) مُقبلةً علينا.

أمَّا هو: أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين...؟

(١) يُسفر: يكشف.

القلب المسكين

٤

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فما كادَ يرى ٱلحبيبةَ وهي مُقبْلةٌ تَتيَّممُنا[١] حتى بَغَتهُ[٢] ذلك، فساوَرَهُ[٣] ٱلقلق، وَٱعتراهُ ما يعتري ٱلمُحِبَّ ٱلمهجورَ إذا فاجأهُ في ٱلطريقِ هاجِرُه؛ أرأيْتَ مرَّةً عاشقاً جفاهُ ٱلحبيبُ وَٱمتنعَ عليهِ دهْراً لا يراه، وصارمَهُ[٤] مدَّةً لا يكلمُه، فنزعَ نومَهُ من ليلِه، وراحتَهُ من نهارِه، ودُنياهُ من يدِه، وبلغَ بِهِ ما بلغَ مِنَ ٱلسقمِ[٥] وَٱلضنَى، ثُمَّ بينا هو يمشي إذْ باغتَهُ ذلك ٱلحبيبُ مُنحدِراً في ٱلطريق؟

إنَّكَ لو أبصَرْتَ حينئذٍ قلْبَ هذا ٱلمسكينِ لرَأيْتَهُ على زلزلةٍ من شِدَّةِ ٱلخفقان، وكأنَّهُ في ضرباتِهِ متلعْثِمٌ يكرِّرُ كلمةً واحدة: هي هي هي...

ولو نفذْتَ إلى حِسِّ هذا ٱلبائسِ لرأيْتَهُ يَشعرُ مثلَ شعورِ ٱلمحْتَضَرِ[٦] أنَّ هذه ٱلدنيا قد نفتْهُ منها!

ولو ٱطلعْتَ على دمِهِ في عروقِهِ لأَبصَرْتَهُ مخذولاً يتراجعُ كأنَّ ٱلدمَ ٱلآخرَ يطردهُ.

إنَّها لحظةٌ يرى فيها ٱلمهجورُ بعينيهِ أنَّ كلَّ شهواتِهِ في خيبة، فيردُّ عليهِ ٱلحبُّ معَ كلِّ شهوةٍ نوعاً مِنَ ٱلذل، فيكونُ بإزاءِ ٱلحبيبِ كَالمنهزمِ مائةَ مرَّةٍ أمامَ ٱلذي هزمَهُ مائةَ مرَّة.

لحظةٌ لا يشعرُ ٱلمسكينُ فيها مِنَ ٱلبغتةِ وٱلتخاذلِ وَٱلاضطرابِ وَٱلخوْفِ إلَّا أنَّ روحَهُ وثبَتْ إلى رأسِهِ ثُمَّ هَوَتْ فجأةً إلى قدميه!

* * *

---

(١) تتيممنا: تتجه نحونا.
(٢) بغته: فاجأه.
(٣) ساوره: انتابه، داخله.
(٤) صارمه: قاطعه.
(٥) السقم: المرض.
(٦) المحتضر: المنازع في اللحظات الأخيرة من حياته.

غيرَ أنَّ صاحبَنَا نحنُ لم يكنْ مهجوراً مِنْ صاحبتِهِ، ولكنْ من عجائبِ ٱلحُبِّ أنَّهُ يعملُ أحياناً عملاً واحداً بِٱلعاطفتينِ ٱلمختلفتين، إذْ كانَ دائماً على حدودِ ٱلإسرافِ ما دامَ حُبّاً، فكلُّ شيءٍ فيهِ قريبٌ من ضِدِّهِ، وَٱلصِّدْقُ فيهِ من ناحيةٍ مهيَّأٌ دائماً لِأنَّ يُقابَلَ بتهمةِ ٱلكذبِ مِنَ ٱلناحيةِ ٱلأخرى، وَٱليقينُ مُعَدٌ لهُ ٱلشَّكُّ بِٱلطبيعة؛ وَٱلحُبُّ نفسُهُ قضاءٌ على ٱلعدْل، فإنَّهُ لا يخضعُ لِقانونٍ مِنَ ٱلقوانين، وَٱلحبيب ـ معَ أنَّهُ حبيبٌ ـ يخافُهُ عاشِقُهُ من أجلِ أنَّهُ حبيب!

وقد يَصفرُّ ٱلعاشقُ لِمباغتةِ ٱللقاءِ كما يصفَرُّ لِمباغتةِ ٱلهجر، وهذه كانَتْ حالَ صاحبِنا عندَ ما رآها مُقبلةً عليه؛ وكانَ مع ذلك يخشى إلمامتَها بِه، توَقِّياً على نفسِهِ من ظنونِ ٱلناس؛ وأكثرَ ما يُحسنُهُ ٱلناسُ هو أنْ يُسيئوا ٱلظَنّ؛ وهو رجلٌ ذو شأنٍ ضَخْم، ومقالةُ ٱلسوءِ إلى مثلِهِ سريعةٌ إذا رُؤِيَ مع مِثلِها، وكأنَّها هيَ ألَمَّتْ[1] بِكُلِّ هذا أو طالَعَها بِهِ وجهُهُ ٱلمتوقِّرُ ٱلمترمِّت[2]؛ فعدلَتْ عن طريقِها إلينا ووقفَتْ على رئيسِ فرقةِ ٱلموسيقى، وما بيَننَا وبينَها إلَّا خُطوات؛ ورأيْتُها قد هيَّأَتْ في عينيها نظرةً غاضبَتْنا بها، ثُمَّ لم تلبثْ أنْ صالحتْنا بأخرى!

وكأنَّها ألقَتْ لِرئيس ٱلموسيقى أمراً لِيتأهَّبَ أُهبتَهُ لِدورِها، ثُمَّ همَّتْ أنْ ترجع، ثُمَّ عادَتْ إليهِ فجعَلتْ تُكَلِّمُهُ وعيناها إلينا؛ فقالَ صاحبُنا وأعجبَهُ ذلك من فِعْلها: إنَّها نبيلةٌ حتى في سقوطِها!

ولا أدري ماذا كانَتْ تقولُ لِرئيسِ ٱلموسيقى، ولكنَّ هذا ٱلرجلَ لم يَظهرْ لي وقتئذٍ إلَّا كأنَّهُ تُليفونٌ مُعَلَّق!

* * *

كانَتْ عيناها إلى صاحبِها لا تنزلانِ عنهُ ولا تتحوَّلانِ إلى غيرِهِ، ولا تُسارقُهُ ٱلنظر بلْ تغلبُهُ عليهِ مُغالبة؛ ورأيتُهُ كذلك قد ثبتَتْ عيناه عليها فخُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱلوجودَ قدِ ٱنحصرَ جمالُهُ بينَ أربعةِ أعينٍ عاشقة؛ وكانَتْ تُطارِحُهُ[3] ويُطارحُها كلاماً مخبوءاً تحتَ هذه ٱلنظرات، وقد نسياً ما حولَهما، وشعرا بما يشعرُ بِهِ كلُّ حبيبينِ إذا ٱلتقيا في بعضِ لَحظاتِ ٱلروحِ ٱلسامية: أنَّ هذا ٱلعالمَ ٱلعظيمَ لا يعملُ إلَّا لاثْنينِ فقط: هو وهي..

---

(١) ألمّت: عرفت.

(٢) المترمت: المتربد.

(٣) تطارحه: تبادله.

وكانَ فمُها ٱلجميلُ لا يزالُ يُساقِطُ ألفاظَهُ لِرئيسِ ٱلموسيقى، وكأنَّها تَسرُدُ لَهُ حِكايةً مرويَّةً، أو تُعارِضُ بِحافظتِهِ كلاماً تحفظُهُ من كلامِ ٱلتمثيلِ أوِ ٱلغناء؛ فهي تتحدَّثُ وعيناها مفكِّرتانِ شاخصتان، فلم يُنكرِ ٱلرجل هيئَتَها هذه؛ ولكنْ كيفَ كانَتْ عيناها؟

لقدْ أرادَتْ في ٱلبدءِ أنْ تجعلَ قوَّةَ نظراتِها كلاماً، حتى لَحسِبَتْ أنَّ هذه ٱلنظراتِ ٱلأولى تهتفُ من بعيد: أنتَ يا أنتَ!

ثُمَّ بدا في عينيها فتورُ ٱلظمأ، ظمإِ ٱلحُبِّ ٱلمتكبِّرِ ٱلمتمَرِّد، لِأنَّهُ حُبُّ ٱلمرأةِ ٱلمعشوقة، ولِأنَّ لَهُ لذتين، إحداهما في أنْ يبقى ظمأً إلى حين...

ثُمَّ أرسَلتِ ٱلألحاظَ ٱلتي تتوهَّجُ أحياناً فوقَ كلام ٱلمرأة ٱلجميلةِ في بعضِ حالاتِها ٱلنفسيَّة، فتُضرمُ في كلامِها شرارةً مِنَ ٱلروحِ تُظهِرُ ٱلكلَامَ كأنَّهُ يُحرقُ ويحترق...

ثُمَّ توجَّعَتِ ٱلنظراتُ لِأنَّها تَصِلُها بِٱلرجلِ ٱلذي لا يُشبهُ ٱلرجالَ، فلا يستوهِبُ[1] خُضوعَها ولا يشتريهِ؛ وَٱلرجلُ كلُّ ٱلرجل عندَ هذه ٱلمرأةِ هَو ٱلذي لا يُشبِهُ ٱلباقينَ مِمَنْ تعرفُهُم، فإذا أحبَّها فكأنَّما أحبَّها عذراءَ خَفِرَةً[2] لم تُمسّ، وكأنَّهُ من ذلك يَصِلُها بِماضيها وطهارتِها وحيائِها وما لا يُمكنُ أنْ تتمثَّلَهُ إلَّا في مثلِ حبِّه.

ثُمَّ ذبُلَتْ عيناها ٱلجميلتان، وما هو ذبولُ عيني ٱمرأةٍ تنظرُ إلى مُحِبِّها؛ إنَّهُ هَو ٱستسلامُ فِكْرِها لِفكرة، أو عنادُ معنًى فيها لِمعنًى فيه، أو توكيدُ خاطرةٍ تحتاجُ إلى ٱلتوكيد؛ ومرَّةً هو كقولِها: لماذا؟ وتارةً هو كقولِها: أفهِمْت؟ وأحياناً، وأحياناً هو ٱنتهاءُ مُقاومة.

* * *

وتمَّتِ ٱلحِكايةُ ٱلمرويَّةُ ٱلتي كانَتْ تُلقِيها لِلتليفونِ... فكرَّتْ[3] راجعةً إلى ٱلمسرحِ بعدَ أنْ صاحَتْ نظراتُها مرَّةً أخرى كما بدأَت: أنت يا أنت... فقلْتُ لِصاحبِنا: ويحكَ يا عدوَّ نفسِه! لوِ ٱختارَ ٱلشيطانُ عينينِ ساحرتينِ ينظرُ بهما إليكَ نظرَ ٱلفِتنة، لَمَا ٱختارَ إلَّا عينيها، في وجهِها، في هيئتِها، في موقفِها؛ وأراكَ معَ هذا كمنتظرِ ما لا يُوجدُ ولا يُمكنُ أنْ يُوجد؛ وأراها معكَ في حُبِّها كَٱلحيوانِ ٱلأليفِ إذا طمِعَ في ٱلمستحيل.

---

(١) يستوهب: يطلب الحصول عليه.

(٢) خفرة: حيِيّة.

(٣) كرَّت راجعة: عادت.

قال: وما هوَ ٱلمستحيلُ ٱلذي يطمعُ فيهِ ٱلحيوانُ ٱلأليف؟

قلْت: ذلك يطمعُ في أنْ تكونَ لَهُ حقوقٌ على صاحبِهِ فوقَ ٱلألفةِ وَٱلمنفعة.

قال: لقد أغمضْتَ في ٱلعبارةِ فبيِّنْ لي شيئاً مِنَ ٱلبيان.

قلْت: هبْ كلبةً تألفُ صاحبَها وتُحِبُّهُ فهي لَهُ ذليلةٌ مطِواع، ثُمَّ يبلغُ بها ٱلحُبُّ أنْ تطمعَ في أنْ يكونَ لها تمامُ ٱلشرف، فلا يقولُ صاحبُها عنها: هذه كلبتي، بلْ يقول: هذه زوجتي...

قال: ويْ منك! ويْ منك[1]! لقد ضرَبْتَ على رأسِ ٱلمسمارِ كما يقولونَ هذا هوَ ٱلمستحيلُ ٱلذي بيني وبينَها، هذا هو ٱلمثل. يا لفظَ ٱلحلوى! يا لفظَ ٱلحلوى! لو كرّرْتُكَ بِلساني ألفَ مرةً فهلْ تضعُ في لِساني طعمَها...؟

قُلْتُ: خفِّضْ[2] عليكَ يا صاحبَ ٱلقلبِ ٱلمسكين، فلسْتَ أكثرَ من عاشق.

قال: بلْ أنا مع هذه أكثرُ من عاشق؛ لِأَنَّ في ٱلعاشقِ راغباً وفيَّ أنا راهب، وفيهِ ٱلجريءَ وفيَّ ٱلمنكمِش، ويغترفُ ٱلغُرْفةَ مِنَ ٱلشلَّالِ ٱلمتحدِّرِ فيحسوها فيرتوي وأغترفُ أنا ٱلغُرْفةَ بيدي، وأُبقيها في يدي، وأطمعُ أنْ تهْدِرَ في يدِي كَٱلشلالِ أنا أكثرُ من عاشق؛ فأنَّهُ يعشقُ لِينتهيَ من ألمِ ٱلجمال، وأعشقُ أنا لِأستمِرَّ في هذا ٱلألم!

هذه هذه؛ ٱلعجيبُ يا صديقي أنَّ خيالَ ٱلإنسانِ يلتقِطُ صُوَراً كثيرةً من صُوَرِ ٱلجمالِ تجيءُ كما يتَّفق، ولكنَّهُ يلتقِطُ صورةً واحدةً بِإتقانٍ عجيب، هي صورةُ ٱلحُبّ؛ فهذه هذه.

ألم أقلْ لك إنَّ إبليسَ هنا في غير حقيقتِهِ ٱلإبليسيَّةِ ولم تفهمْ عنِّي؟ فأفهم ٱلآن أنَّنا إنْ كنَّا لا نرى ٱلملائكةَ فإنَّهُ لَيُخيَّلُ إلينا أنَّنا نراها فيمَنْ نُحبُّهم؛ وما دامَ سرُّ ٱلحُبِّ يُبدِّلُ ٱلزمنَ وَٱلنفسَ ويأتي بأشياءَ من خارجِ ٱلحياة، فكلُّ حقائقِ هذا ٱلحبِّ في غيرِ حقيقتِها..

هذه هذه؛ لا أطلبُ في غيرِها ٱمرأةً أجملَ منها، فهذا كَٱلمستحيل، ولكنِّي ألتمسُ[3] فيها هيَ ٱمرأةً أطهرَ منها، وهذا كَٱلمستحيلِ أيضاً؛ إنَّها أجملُ جسم، ولكنْ وَاأسفاه! إنَّها أجملُ جسمٍ لِلْمعاني ٱلتي يجبُ أنْ أبتعدَ عنها!

* * *

---

(١) وي: اسم فعل مضارع بمعنى أتعجب.

(٢) خفِّض: هوّن.

(٣) ألتمس: أفتش وأطلب.

وسكَتَ صاحبُنا، إذْ رُفِعَتْ ستارةُ ٱلمسرحِ وظهَرتْ هيَ مرَّةً أخرى، ظهَرتْ في زِينةٍ لا غايةَ بعدَها، تمثِّلُ ٱلعروسَ ليلةَ جَلوتِها[1]؛ ألا ما أمرَّها سخريةً منكِ أيَّتُها ٱلمِسكينة! عروسٌ ولكنْ لِمَنْ؟

كانَتْ تَبرُق على ٱلمسرحِ كأنَّها كوكبٌ دُرِّيٌّ نُورُهُ نورٌ وجمالٌ وعواطفُ شعر.

وأقبلَتْ تتمايلُ بِجسمٍ رَخْصٍ ليِّنٍ مسترسلِ ٱلأعطافِ يتدفَّقُ ٱلجمالُ وٱلشبابُ فيهِ من أعلاهُ إلى أسفَلِهِ.

وأظهرَ وجهُها حُسْناً وأبدى جِسْمُها حُسْناً آخر، فَتمَّ ٱلحُسْنُ بِٱلحُسْن.

واقفةً كَٱلنائمة، فَٱلجوُّ جوُّ ٱلأحلام، وكانَ الحُبُّ يحلُمُ، وكانَ ٱلسرورُ يحلُم!

مهتزةً كَٱلمَوْج في ٱلمَوْج. هلْ خُلِقَتْ روحُ ٱلبحرِ في جِسْمِها ٱلمترجرجِ فشيءٌ يعلو وشيءٌ يهبِطُ وشيءٌ يثورُ ويضطرب؟

ثُمَّ دقَّتِ ٱلموسيقى بألحانِها ٱلمتكلِّمة، ودقَتْ أعضاءُ هذا ٱلجسمِ بألحانِها ٱلمتحرِّكة، وأحسَسْنا كأنَّ روحَ ٱلحديقةِ جالسةٌ بينَنا تنظرُ إليها وتتعجَّب. تتعجَّبُ من قَوامِها لِلْغصنِ ٱلحيّ، ومن بدنِها للزهرِ ٱلحيّ، ومن عِطرِها لِلنسيمِ ٱلحيّ.

أمَّا صاحبُ القلبِ ٱلمِسكين...

---

(١) ليلة جلوتها: ليلة زفافها وعرسها.

القلبُ ٱلمسكين

٥

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فتزعزعَتْ كبدُهُ مِمَّا رأى؛ وجعلَ ينظرُ إلى هذه ٱلفتَّانةِ تُمثِّلُ ٱلعروس وقد أشرقَ فيها رَوْنقُها وسطعَتْ ولمعَت، فبدَتْ لَهُ مُفسِّرَةً في هذه ٱلغلائلِ غلائلِ ٱلعُرْس؛ وما غلائلُ ٱلعُرْس؟

إنَّها تلك ٱلثيابُ ٱلتي تكسو لابستَها إلى ساعةٍ فقط... ثيابٌ أجملُ ما فيها أنَّها تُقدِّمُ الجمالَ إلى الحُبّ، فأزهى ألوانها اللونُ المُشرِقُ من روح لابستِها، وأسطعُ ٱلأنوارِ عليها، ٱلنورُ ٱلمنبعِثُ من فرحِ قلبين.

تلك ٱلثيابُ ٱلتي تكونُ سَكْباً من خالصِ ٱلحريرِ ورفيعِ ٱلخزّ، وحينَ تلبسُها مثلُ هذه ٱلفاتنةِ تكادُ تنطِقُ أنها ليسَتْ مِنَ ٱلحرير، إذْ تعلمُ أنَّ ٱلحريرَ ما تحتَها.

ثُمَّ تنهَّدَ ٱلمِسْكِينُ وقال: أفهِمْت؟

قلْت: فهِمْت ماذا؟

قال. هذا هوَ ٱنتقامُها.

قلْت: يا عجباً! أتُريدُها في ثِيابِ راهبةٍ مُكبكبَةٍ فيها كما أُلقيَتِ ٱلبِضاعةُ في غَرارة[1]، بينَ سوادٍ هو شعارُ ٱلحِدادِ على ٱلأنوثةِ ٱلهالكة، وبياضٍ هو شِعارُ ٱلكفنِ لِهذه ٱلأنوثة؟

قال: أنت لا تعرفُها؛ إنَّ ٱلروايةَ ٱلتي تُمَثِّلُ فيها بينَ ٱلروحِ وَٱلجِسم، هيَ ٱلتي أحتاجَتْ إلى هذا ٱلفصل يقوَى بِهِ ٱلمعنى؛ وكلُّ عاشقةٍ فعِشْقُها هوَ ٱلروايةُ ٱلتي تُمثِّلُ فيها، يُؤلِّفها هذا ٱلمؤلفُ ٱلذي ٱسمُهُ ٱلحُبّ، ولا تدري هيَ ماذا يصنعُ وماذا يُؤلِّف، غيرَ أنَّهُ لا يفتأُ يُؤلِّفُ ويصنعُ وينقّحُ كما تتنزلُ بِهِ ٱلحالُ بعدَ ٱلحال، وكما تعرضُ بِهِ ٱلمُصادَفةُ بعدَ ٱلمُصادَفة؛ وعليها هيَ أنْ تمثِّلَ..

---

(١) غرارة، بالفتح: صار ذاعرّة.

قلْت: فهذا؛ ولكنْ كيف يكونُ هذا ٱنتقاماً؟

قال: إنَّ ٱلأفكارَ أشياءُ حقيقيَّة، ولو كشفَ لك ٱلجوُّ هذه ٱلساعةَ لَرَأَيْتَهُ مسطوراً عباراتٍ عباراتٍ كأنَّهُ مقالةُ جريدة.

هذا ٱلفصلُ حِوارٌ طويلٌ في ٱلهمومِ وَٱلآلامِ ورقةِ ٱلشوْقِ وتهالُكِ ٱلصبْوة، لو كُتبَ لَهُ عنوانٌ لَكَانَ عُنوانُهُ هكذا: ما أشهاها وما أحظاها! إنَّ ٱلهواءَ بينَ كلِّ عاشقينِ متقاتلينِ يأخذُ ويُعطي...

قلْت: يا عدوَّ نفسِه! ما أعجَبَ ما تُدقِّق! لقد أدركْتُ ٱلآنَ أنَّ ٱلمرأةَ تتسلَّحُ بِما شاءَت، لا من أجلِ أنْ تُدافع، ولكن لِتزيدَ أسلحتَها في سلاحِ مَنْ تُحبُّه، فتُريدُهُ قوَّةً على قَهْرِها وإِخضاعِها...

***

أمَّا هذه (ٱلعروسُ) فكانَتْ أفكارُها لا تجِدُ ألفاظاً تحدُّها فهيَ تظهرُ كيفما ٱتَّفق، مرسَلةً إرسالاً في ٱللَّفتَةِ وَٱلحركةِ وَٱلهيئةِ وَٱلقَوْمَةِ وٱلقَعدة: وهيَ مَنْ عَلِمْتَ: ٱمرأةٌ تعيشُ لِلْحقائق، وبينَ ٱلحقائق، كَكُلِّ ذي صنعةٍ في صنعتِهِ فكانَتْ في تماديها خطراً أيَّ خطرٍ على صاحبِ ٱلقلبِ ٱلمسكين، تُمثِّلُ شيئاً لا أدري أهو ظاهرٌ بِخفائِهِ أمْ هو خافٍ بِظهورِه؛ وقد وقعَ صاحبُنا منها فيما لم يدخلْ في حِسابِه، فكانَتِ ٱلخبيثةُ ٱلماجنة كأنَّها تُسكرُهُ بِمُسْكرٍ حقيقيّ، غيرَ أنَّهُ من جسمِها لا من زجاجةِ خمر.

وكانَتْ لِذهنِهِ ٱلمتخيِّل كَٱلسحابةِ ٱلممتلئةِ بِٱلبرق؛ تُومِضُ كلَّ لحظةٍ بأنوارٍ بعدَ أنوار، وبينَ ٱلفترةِ وَٱلفترةِ ترمي ٱلصاعقة.

وظهَرتْ كأنَّها ٱمرأةٌ مخلوقةٌ من دَم ولَهَب؛ فلقد أيقنْتُ حينئذٍ أنَّ ٱلحبَّ إنْ هوَ إلَّا ٱلغريزةُ ٱلبهيميَّةُ بِعينِها محاوِلةً أنْ تكونَ شيئاً لَهُ وجودٌ فنِّي إلى وجودِهِ ٱلطبيعيّ، فهو مصيبتانِ في واحدة، وكلُّ عملِهِ أنْ يجعلَ ٱللذَّةَ ألذَّ، وَٱلألمَ أشدَّ، وَٱلقِلَّةَ كثرة، وٱلكثرةَ أكثر، وما هو نهايةٌ كأنَّهُ لا نهاية...

هذه (ٱلعروسُ) كانَتْ قبلَ ٱلآنِ واقفةً على حدودِ صاحبِها، أمَّا ٱلآنَ فإنَّها تقتحِمُ ٱلحدودَ وتغزو غزوَها وتمتِلك...

يا لَسحرِ ٱلحُبِّ من سِحْر! كلُّ ما في ٱلطبيعةِ من جمالٍ تُظهرُهُ ٱلطبيعةُ لِعاشقِها في إحدى صورِ ٱلفهم، أمَّا ٱلحبيبُ ٱلجميلُ فهو وحدَهُ ٱلذي يَظهرُ لعاشقِهِ في كلِّ

صُوَرِ ٱلفهْم، وبهذا يكونُ ٱلوقتُ معَهُ أوقاتاً مختلِفةً متناقِضة، ففي ساعةٍ يكونُ ٱلعقلُ وفي ساعةٍ يكونُ ٱلجنون.

يا لَسحرِ ٱلحُبِّ! لقد أرادَتْ هذه ٱلمرأةُ أنْ تَذهبَ بعقلِ صاحبِها، وأنْ تنقُلهُ إلى وحشيَّةِ ٱلإنسانِ ٱلأولِ ٱلكامنِ فيه، وأنْ تقذِفَ بِهِ إلى بعيدٍ بعيدٍ وراءَ فضائلِهِ وعِصمتِه؛ فسَنَحتْ لَهُ كما يسنحُ ٱلصيدُ لِلصائدِ يحملُ في جِسمِهِ لحمَهُ ٱلشهيّ... وتركَتْ شعورَهُ جائعاً إلى محاسنِها بِمثلِ جوعِ ٱلمعِدة... وبرزَتْ لَهُ صريحةً كما هيَ، ولِمَا هي؛ ومن حيثُ إنَّها هيَ هي؛ وكلُّ ذلك حينَ ألبسَتْ جِسمَها ثيابَ ٱلحقيقةِ ٱلمؤنَّثة.

آهِ مِن (هي) إذا امتلأَتِ ٱلهاءُ وٱلياءُ من قلْبِ رجلٍ يُحبُّ! وآهِ من (هيَ) إذا خرجَتْ هذه ٱلكلمةُ من لغةِ ٱلناسِ إلى لغةِ رجلٍ واحد!

إنَّ في كلِّ ٱمرأة... ٱمرأةً يُقالُ لها (هي) بٱعتبارِ ٱلضميرِ لِلتأْنيثِ فقط، كما يُعتبرُ في ٱلدابَّةِ وٱلحشرَةِ وَٱلأَداةِ ونحوِها من هذهِ ٱلمؤنثاتِ ٱلتي يرجعُ عليها هذا ٱلضمير؛ ولكنْ (هي) ٱلمفردةُ في ٱلكونِ كلِّهِ لا تُوجدُ في ٱلنساءِ إلَّا حينَ يُوجدُ لها (هو)...

* * *

أنا أنا ٱلذي يقصُّ لِلْقراءِ هذه القصة، قد كابَدْتُ[1] من شِدَّةِ ٱلحُبِّ وإفراطِ ٱلوجدِ[2] ما يُفْعِمُ قلبينِ مسكينينِ لا قلباً واحداً؛ وكانَتْ لي (هيِ) مِنَ ٱلْهِيَاتِ عانيْتُ فيها ٱلحُبَّ وٱلأَلَمَ دهْراً طويلاً؛ وقد ذهبَتْ بي في هواها كلَّ مذهبٍ إلَّا مذهباً يُحلُّ حراماً، أو مذهباً يُخلُّ بِمُروءَة؛ ولقد عَلِمْتُ أنَّ ٱلشيءَ ٱلسامي في ٱلحُبِّ هو ألَّا يخرجَ مِنَ ٱلعاشقِ مجرم.

فَٱلشأنُ كلُّ ٱلشأنِ أنْ يستطيعَ ٱلرجلُ ٱلفصلَ بين ٱلحُبِّ من أجلِ جمالِ ٱلأنثى يَظهرُ عليها، وبينَ ٱلحُبِّ من أجْلِ ٱلأنثى تظهرُ في جمالِها؛ فهو في ٱلأولى يشهدُ ٱلإلاهيةَ في إبداعِها ٱلسامي ٱلجميل، وفي ٱلأخرى لا يرى غيرَ ٱلبشريةِ في حيوانيتِها ٱلمتجمِّلة...

وقد أدركْتُ من فلسفةِ ٱلحُبِّ أنَّ ٱلحقيقةَ ٱلكبرى لِهذا ٱلجمالِ ٱلأزليِّ ٱلذي يملأُ ٱلعالم ـ قد جعلَتْ حنينَ ٱلعِشقِ في قلْبِ ٱلإنسانِ هو أولَ أمثلتِها ٱلعمليَّةِ في تعليمِهِ ٱلحنينَ إليها إنْ شاءَ أنْ يتعلّم، فكما يُحبُّ إنسانٌ بروحِ ٱلشهْوَةِ يُحِبُّ إنسانٌ

---

(١) كابدت: عانيت. (٢) الوجد: شدّة احبّ.

آخرُ بُروحِ ٱلعِبادة؛ وهذا هوَ ٱلذي يُسميهِ ٱلفلاسفة: (تلطيف ٱلسرّ)، أيْ جعلَهُ مستعداً لِلتوجُّهِ إلى ٱلنورِ وٱلحقِّ وَٱلخير، وقد عدُّوا فيما يُعينُ عليه، ٱلفكرَ ٱلدقيقَ وٱلعِشْقَ ٱلعنيف.

وكذلك تبينْتُ مِمَّا علَّمَني ٱلحُبُّ أنَّ طرْدَ آدمَ وحواءَ مِنَ ٱلفِرْدوس، كانَ معناهُ ثِقْلَ معاني ٱلفردوسِ وعرْضَها لِكلٍّ آدمٍ وحواءَ يُمثِّلانِ ٱلرواية. . . فإذا (قطفا ٱلثمرة) طُرِدا من معاني ٱلجنة، وهبطا بعدَ ذلكَ من أخيلةِ ٱلسماءِ إلى حقائقِ ٱلأرض.

نعم هوَ ٱلحُبُّ شيءٌ واحدٌ في كلِّ عاشقٍ لِكُلِّ جميل، غيرَ أنَّ ٱلفرْقَ بينَ أهلِهِ يكونُ في جمالِ ٱلعملِ أو قُبحِ ٱلعمل؛ وهذه ٱلنفوسُ مصانعُ مختلفةٌ لِهذه ٱلمادَّةِ ٱلواحدة؛ فَٱلحُبُّ في بعضِها يكونُ قوَّةً وفي بعضِها يكونُ ضَعْفاً؛ وفي نفسٍ يكونُ ٱلهوى حيوانِياً يُراكِمُ ٱلظلْمةَ على ٱلظلْمةِ في ٱلحياة، وفي أخرى يكونُ روحانيّاً يكشفُ ٱلظلامَ عنِ ٱلحياة.

وَٱلمُعجزةُ في هذا ٱلإنسانِ ٱلضعيفِ أنَّهُ لَهُ معَ طبيعةِ كلِّ شيءٍ طبيعةَ ٱلإحساسِ بِه، فهو مُستطيعٌ أنْ يجدَ لَذَّةَ نفسِهِ في ٱلألم، قادرٌ على أنْ يأخذَ هِبَةً من معاني ٱلحرمان؛ وبهذه ٱلطبيعةِ يسمو مَنْ يسمو، وهيَ على أتَمِّها وأقواها في عُظماءِ ٱلنفوس، حتى لَكأنَّ ٱلأشياءَ تأتي هؤلاءِ ٱلعظماءَ سائلةً: ماذا يُريدون منها؟

فمَنْ أرادَ أنْ يسموَ بِٱلحُبِّ فلْيضعْهُ في نفسِهِ بين شيئين: ٱلخُلُقِ ٱلرفيع، وَٱلحِكْمةِ ٱلناضجة؛ فإنْ لَمْ يستطعْ فلا أقلَّ من شيئين: الحلال، والحرام.

* * *

أنا أنا ٱلذي يقصُّ لِلْقراءِ هذه ٱلقصة، أعرفُ هذا كلَّه، وبهذا كلِّهِ فهمْتُ قولَ صاحبِ ٱلقلبِ ٱلمِسكين: إنَّ ظهورَ صاحبتِهِ في فصلِ ٱلعروسِ هوَ ٱنتقامُها، حاصرَتْ عيناها عينَه، وزحَفتْ معانيها على معانيه، وقاتَلَتْ قِتالَ جِسمِ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبةِ في معركةِ حُبِّها، وبِكلمةٍ واحدة: كأنَّما لَبِسَتْ هذه ٱلثيابَ لِتظهرَ لَهُ بلا ثياب. . .

وأردْتُ أنْ أعيبَها بِما صنَعتْ نفسُها له، وأنْ أعيبَهُ هو بِدُخولِهِ فيما لا يُشبهُه، وقلْتُ في غيرِ طائلٍ ولا جِدوى[١]، فما كنتُ إلَّا كَٱلذي يَعيبُ ٱلوردَ بِقولِهِ: يا عطرَ ٱلشذى[٢]، ويا أحمرَ ٱلخدَّين!

---

(١) جدوى: فائدة ونتيجة. (٢) الشذى: العبير.

وقد أمسكَ عن جوابي، وكانَتْ محاسِنُها تجعلُ كلماتي شَوْهاء[1]، وكانَ وضوحُها يجعلُ معانيَّ غامضة، وكانَتْ حلاوتُها تجعلُ أقوالي مُرَّة، وكانَتْ ثِيابُ ٱلعروسِ وهيَ تُزَفُّ تُريدِ ٱلفاظي في ثِيابِ ٱلعجوزِ ٱلمطلَّقة؛ وكلّما غاضبَتْهُ معَ نفسِهِ أوقعَتْ هيَ ٱلصلْحَ بينَهُ وبينَ نفسِه.

وَٱلعجيبُ ٱلعجيبُ في هذا ٱلحُبِّ أنْ فتحَ ٱلعينينِ على ٱلجميلِ ٱلمحبوبِ هو نوعٌ من تغميضِهِما لِلنومِ ورؤيا ٱلأحلام؛ ليسَ إلَّا هذا، ولا يكونُ أبداً إلَّا هذا؛ فمهما أُعطيْتَ من جَدَلٍ فإقناعُكَ ٱلمُحِبَّ ٱلمستهامَ كإقناعِكَ ٱلنائمَ ٱلمستَثْقَلِ؛ وكيف ولَهُ ألفاظٌ من عقلِهِ لا من عقلِك، وبينَكَ وبينَهُ نِسيانُهُ إيَّاك، وقد تركَكَ على ظاهرِ ٱلدنيا وغاصَ هو في دنيا باطِنِهِ لا يملكُ فيها أخذاً ولا ردّاً إلَّا ما تُعطي وما تمنع.

* * *

ثم... ثُمَّ غابَتِ (ٱلعروسُ) بعدَ أنْ نظرَتْ لَهُ وضحكَت.

ضحكَتْ بحزنِ حُزنِ ٱلذي يسخرُ من حقيقةٍ لِأنَّهُ يتألَّمَ من حقيقةٍ غيرِها؛ وكانَ منظرُها ٱلجميلُ ٱلمنكسِرُ فلسفةً تامَّةً مُصَوَّرةً لِلْخير ٱلذي إعتدى عليهِ ٱلشرُّ فأحالُهُ، وَٱلإرادةِ ٱلتي أكرهَها ٱلقدرُ فأخضعَها، وَٱلعِفَّةِ ٱلمِسكينةِ ٱلتي أذَلَّتْها ضرورةُ ٱلحياة، وَٱلفضيلةِ ٱلمغلوبةِ ٱلتي حِيلَ بينَها وبينَ أنْ تكونَ فضيلة!

ويا ما كانَ أجمَلَها ناظرةً بِمعاني ٱلبُكاءِ ضاحكةً بِغيرِ معاني ٱلضحك؛ تتنهَّدُ ملامحُ وجهِها وفمُها يبتسم!

كانَ منظرُها ناطقاً بِأنَّ قلبَها ٱلحزينَ يسألُ سؤالاً أبداهُ على وجهِها بِلُطْفٍ ورِقَّة؛ كانَ يسألُ إنساناً: ألا تُحلُّ هذه ٱلعقدة؟...

وٱنقضى ٱلتمثيلُ وتناهضَ ٱلناس.

أمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين؟...

* * *

---

(١) شوهاء: بشعة.

القلب المسكين

٦

أمَّا صاحبُ القلب ٱلمسكينِ فقامَ لِيخرَجَ وقد تفارَطتْهُ[١] ٱلهمومُ وتسابَقَتْ إليهِ فٱنكسرَ وتفتَّر؛ وكأنَّما هو قد فارقَ صاحبتَهُ باكياً وباكيةً من حيثُ لا يَرى بُكاءَهُ غيرُها ولا يرى بكاءَها غيرُه!

ورأيْتُهُ ينظرُ إلى ما حولَهُ كأنَّما تَغَشَّى ٱلدنيا لونُ نفسِهِ ٱلحزينة؛ إذْ كانَتْ نفسُهُ ألقَتْ ظِلَّها على كلِّ شيءٍ يراه؛ وجعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنَّهُ مثْقلٌ بحملٍ يحملُهُ على قلبِهِ.

إنَّهُ ليس أخفّ وزناً مِنَ ٱلدمع، ولكنَّ ٱلنفوسَ ٱلمتألِّمةَ لا تحملُ أثقلَ منه، حتى لَينتثرُ على ٱلنفسِ أحياناً وكأنَّهُ وكأنَّها بِناءٌ قائمٌ يتهدَّمُ على جِسم؛ وبعضُ ٱلتنهداتِ على رِقَّتِها وخِفَّتِها، قد تَشعرُ بها ٱلنفسُ في بعضِ همِّها كأنَّها جبلٌ مِنَ ٱلأحزانِ أخَذْتهُ ٱلرَّجفةُ فمادَتْ بِهِ، فتقلْقل، فهو يتفلَّقُ ويتهاوَى عليها.

آهِ حينَ يتغيَّرُ ٱلقلبُ فيتغيَّرُ كلُّ شيءٍ في رَأْيِ ٱلعين! لقد كانَ صاحبُنا منذُ قليلٍ وكأنَّ كلَّ سرورٍ في ٱلدنيا يقولُ لَهُ: أنا لك! فعادَ ٱلآنَ وما يقولُ لَهُ «أنا لك» إلَّا ٱلهمُّ؛ وَٱلتقى هوَ والظلامُ وٱلعالمُ ٱلصامت!

جعلَ يَدْلِفُ ولا يمشي كأنَّهُ مُثْقَلٌ بِحملٍ يحملُهُ على قلبِه؛ ومتى وقعَ ٱلطائرُ مِنَ الجوِّ مكسورَ الجناح، انقلبت النواميسُ كلُّها مُعطَّلةً فيه، وظهرَ الجوُّ نفسُهُ مكسوراً في عينِ ٱلطائرِ ٱلمسكين؛ وتنفصِلُ روحُهُ عنِ ٱلسماءِ وأنوارِها، حتى لو غمرَهُ ٱلنورُ وهوَ ملقًى في ٱلترابِ لأحسَّهُ على ٱلترابِ وحدَهُ لا على جِسمِه. . .

ثُمَّ خرَجنا، فٱنتبهَ صاحبُنا مِمَّا كانَ فيهِ؛ وبهذه ٱلانتباهةِ ٱلمُؤلِمة أدركَ ما كانَ

---

(١) تفارطته: توزّعته وانتابته.

فيهِ على وجهٍ آخر، فتعذَّبَ بِهِ عذابين: أمّا واحدٌ فلأنَّهُ كانَ ولم يَدُمْ وأمَّا ٱلآخرُ فلأنَّهُ زالَ ولم يعدْ؛ والسرورُ في ٱلحُبِّ شيءٌ غيرُ ٱلسرورِ ٱلذي يعرفُهُ ٱلناس؛ إذْ هو في ٱلأولِ روحٌ تتضاعفُ بِهِ ٱلروح: فكلُّ ما سرَّكَ وٱنتهى شعرْتَ أنَّهُ ٱنتهى؛ ولكنْ ما ينتهي من سرورِ ٱلعاشقِ ٱلمستهامِ يُشعرُهُ أنَّهُ مات، فلَهُ في نفسِهِ حزنُ ٱلموتِ وهمُّ ٱلثكْل، ولَهُ في نفسِهِ همُّ ٱلثكْلِ وحزنُ ٱلموت!

* * *

وينظرُ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فإذا ٱلأنوارُ قدِ ٱنطفأَتْ في ٱلحديقة، وإذا ٱلقمرُ أيضاً كأنَّما كانَ فيهِ مسرحٌ وأخذوا يُطفئونَ أنوارَه.

كانَ وجهُ ٱلقمر في مثلِ حزنِ وجهِ ٱلعاشقِ ٱلمبتعدِ عن حبيبتِهِ إلى أطرافِ ٱلدنيا، فكانَ أبيضَ أصفرَ مُكمداً، تتخايلُ فيهِ معاني ٱلدموعِ ٱلتي يُمسكُها ٱلتجلُّدُ أنْ تتساقط.

كانَ في وجهِ ٱلقمرِ وفي وجهِ صاحبِنا معاً مظهرُ تأثيرِ ٱلقدَرِ ٱلمفاجىءِ بِٱلنكبة.

وبدَتْ لنا ٱلحياةُ تحتَ ٱلظلْمةِ مُقْفِرَةً خاويةً على أطلالِها، فارغةً كُفراغِ نصفِ ٱلليلِ من كلِّ ما كانَ مُشْرِقاً في نصفِ ٱلنهارِ؛ يا لكَ من ساحرٍ أيُّها ٱلحُبُّ؛ إذْ تجعلُ في ليلِ ٱلعاشقِ ونهارِهِ ظلاماً وضوءاً ليسا في الأيّامِ وَٱلليالي!

أمَّا ٱلحديقةُ فلبسَها معنى ٱلفراق، وما أسرعَ ما ظهَرتْ كأنَّما يبِسَتْ كلُّها لِتوّها وساعتِها، وأنكرَها ٱلنسيمُ فهربَ منها فهيَ ساكنة، وتحوَّلَتْ روحُها خشبيَّةً جافَّة، فلا نُضرةَ فيها على ٱلنفس؛ وبدَتْ أشجارُها في ٱلظلام، قائمةً في سوادِها كَٱلنائحاتِ يَلْطُمْنَ ويُوَلْوِلْنَ، وتنكَّرَ فيها مشهدُ ٱلطبيعةِ كما يقعُ دائماً حينَ تنبَتُّ ٱلصِّلةُ بينَ ٱلمكانِ ونفسِ ٱلكائن.

ماذا حدث؟

لا شيءَ إلَّا ما حدَثَ في ٱلنفس، فقد تغيَّرَتْ طريقةُ ٱلفهْم، وكانَ لِلحديقةِ معنًى من نفسِهِ فسُلِبَ ٱلمعنى، وكانَ لَهَا فيضٌ من قلبِهِ فٱنحبسَ عنها ٱلفيْض؛ وبهذا وهذا بدَتْ في ٱلسلْبِ وَٱلعدَمِ وَٱلتنكُّر، فلم يبقَ إبداعٌ في شيءٍ مُبدَع، ولا جمالٌ في منظرٍ جميل.

أكذا يفعلُ ٱلحُبُّ حينَ يضعُ في ٱلنفسِ ٱلعاشقةِ معنًى ضئيلاً من معاني ٱلفناءِ كهذا ٱلفراق؟

أكذا يتركُ ٱلروحَ إذا فقدَتْ شيئاً محبوباً، تتوهَّمُ كأنَّها ماتَتْ بِمقدارِ هذا ٱلشيء؟

مسكينٌ أنت أيُّها ٱلقلبُ ٱلعاشق! مسكينٌ أنت!

* * *

ومضيْنا فمِلْنا إلى نديٍّ نجلسُ فيه، وأردتُ معابثةَ صاحِبنا ٱلمتألِّم بِٱلحُبِّ وَٱلمتألِّم بِأنَّهُ متألِّم، فقلْتُ لَهُ: ما أراكَ إلَّا كأنَّك تزوجّتَهَا وطلقْتَها فتبعَتْها نفسُك!

قالَ: آه! مَنْ أنا ٱلآن؟ وما بالُ ذلك ٱلخيالِ ٱلذي نسَّقَ لِيَ ٱلدنيا في أجملِ أشكالِها قد عادَ فبعثرَهَا؟ أتدري أنَّ ٱلعَالمَ كانَ فيَّ ثُمَّ أُخذَ منِّي فأنا ٱلآنَ فضاءٌ فضاء.

قلْت: أعرفُ أنَّ كلَّ حبيبٍ هوَ ٱلعالمُ ٱلشخصيُّ لِمُحِبِّه.

قال: ولذلك يعِيشُ ٱلمُحِبُّ ٱلمهجور، أوِ ٱلمُفارق، أوِ ٱلمُنْتَظِر، وكأنَّهُ في أيَّام خلَت، وتَراهُ كأنَّما يجيءُ إلى الدنيا كلَّ يومٍ ويرجع.

قلْت: إنَّ من بعضِ ما يكونُ بِهِ ٱلجمالُ جمالاً أنَّهُ ظالِمٌ قاهِرٌ عنيف، كَٱلملكِ يستبدُّ لِيتحقَّقَ من نفاذِ أمرِه، وكأنَّ ٱلجميلَ لا يَتِمُّ جمالُهُ إلَّا إذا كانَ أحياناً غيرَ جميلٍ في ٱلمعاملة!

قال. ولكنَّ ٱلأمرَ مع هذه ٱلحبيبةِ بِٱلخِلافِ؛ فهيَ تطلبني وأتنكَّبُها[1]، وهيَ مُقبلةٌ لكنَّها مُقبلةٌ على ٱمتناعي؛ وكأنَّها طالِبٌ يعدو وراءَ مطلوبٍ يفرّ، فلا هذا يقفُ ولا ذلك يُدرك.

قلْت: فإنَّ هذه هيَ ٱلمشكلة، ومتى كانَتِ ٱلحبيبةُ مثلَها، وكانَ ٱلمُحِبُّ مثلَك، فقد جاءَتِ ٱلعقدةُ بينهما معقودةً من تِلْقاءِ نفسِها فلا حلَّ لها.

قال: كذلك هو، فهل تعرفُ في ٱلبؤْسِ وٱلهمِّ كبؤْسِ ٱلعاشقِ ٱلذي لا يتدَّبرُ كيفَ يأخذُ حبيبتَهُ، ولكنْ كيف يتركُها؟ ما هيَ ٱلمسافةُ بيني وبينَها؟ خطوة، خطوتان؟ كلا، كلا؛ بلْ فضائلُ وفضائلُ تملأُ ٱلدنيا كُلَّها، إنَّ مسافةَ ما بينَ ٱلحلالِ وَٱلحرام متراخيةٌ ممتدةٌ ذاهبةٌ إلى غير نهاية؛ وإذا كانَ ٱلحُبُّ ٱلفاسدُ لا يقبلُ مِنَ ٱلحبيبِ إلَّا (نعم) بِلا شرطٍ ولا قَيْدٍ لِأنَّهُ فاسد، فَٱلحُبُّ ٱلطاهرُ يقبلُ (لا) لِأنَّهُ طاهر! ثُمَّ هو لا يرضى (نعم) إلَّا بشرطِها وقيدِها مِنَ ٱلأدبِ وٱلشريعةِ وكرامةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلمرأةِ وَٱلرجل.

---

(١) أتنكبّها: أتجنَّبها وأُنحيها.

وإذا لم ينتهِ ٱلحُبُّ بِٱلإثمِ وَٱلرذيلة، فقد أثبَتَ أنَّهُ حبٌّ؛ وشرفُهُ حينئذٍ هو سِرُّ قوَّتِهِ وعنصرُ دوامِه.

أتعرفُ أنَّ بعضَ عُشَّاقِ ٱلعربِ تمنَّى لو كانَ جملاً وكانَتْ حبيبتُهُ ناقة... إنَّه بهذا يودُّ أَلَّا يكونَ بينهَما ٱلعقلُ وٱلقانونُ وهذا ٱلحِرْمانُ ٱلذي يُسمَّى ٱلشرف، وأَلَّا يكونَ بينهَما إلَّا قيدُ غريزتِها ٱلذي ينحلُّ من تِلْقاءِ نفسِهِ في لحظةٍ ما، وأنْ يُتركَ لِقوَّتِهِ وتُتركَ هيَ لِضعفِها؛ وَٱلقوَّةُ وٱلضعفُ في قانونِ ٱلطبيعةِ هما مِلْكٌ وتمليكٌ وٱغتصابٌ وتسليم.

قلْت: وهذا ما يفعلُهُ كُلُّ عاشقٍ لِمثلِ هذه ٱلراقصةِ إذا لم يكنْ فيهِ إلَّا ٱلحيوان؛ فإنَّ بينهَما قوةً وضعفاً من نوعٍ آخر، فمعهُ ٱلثمنُ وبها ٱلحاجة، وهما في قانون ٱلضرورةِ مِلْكٌ وتمليكٌ.

قال: وهذا مِمَّا يقطعُ في قلبي؛ فلو أنَّ لِلأُمَّةِ دِيناً وشرفاً لَمَا بَقِيَ موْضعُ ٱلزوجةِ فارغاً من رجل، وإنَّ هذه وأمثالَها إنَّما ينزلْنَ في تلك ٱلمواضعِ ٱلخاليةِ أولَ ما ينزلْن، فكلُّ بَغِيٍّ هي في ٱلمعنى دينٌ متروكٌ وشرفٌ مبتذلٌ في ٱلأُمَّة.

قلْت: فحدِّثْني عنكَ ما هذا ٱلوَجْدُ بها وما هذا ٱلاحتراقُ فيها، وأنت قَدْ كنْتَ بين يديها خياليًّا محْضاً كأنَّما جمعْتَها في حواسِّكَ فأخذْتَها وتركْتَهَا في وقتٍ معاً، وحواسُّك هذه لا تزالُ كما هيَ، بلْ هيَ قد زادَتْ حِدَّة، فكما صنعَتْ لك من قُرْبٍ تصنعُ لك من بُعْد؟

قال: أنا في محضرِها أُحِبُّها كما رأيْتَ بِٱلقَدْرِ ٱلذي تقولُ هيَ فيهِ إنَّكَ لا تُحبُّني، إذْ كانَ بينَنا آخَرُ ٱسمُهُ ٱلخُلُق؛ ولكنِّي في غِيابِها أفقدُ هذا ٱلميزانَ ٱلذي يزنُ ٱلمِقْدارَ ويُحدِّدُهُ، وإذا كنْتَ لم تعلمْ كيف يصنعُ ٱلعاشقُ في غيبةِ ٱلمعشوق، فٱعلمْ أنَّ كِبرياءَهُ حينئذٍ لا ترى بإزائِها ما تُقاومُه، فتتخلَّى عنْهُ وتخذلُه؛ وفضيلتُهُ لا تجدُ ما تستَعْلِنُ فيه، فتتوارى وتدعُهُ؛ وشخصيتُهُ لا تجدُ ما تبرزُ لَهُ، فتختفي وتُهمِلُه؛ فما يكونُ من كلِّ ذلك إلَّا أنْ يظهرَ ٱلمسكينُ وحدَهُ بكلِّ ما فيهِ مِنَ ٱلوهَنِ وَٱلنقصِ وحِدَّةِ ٱلشوْق؛ وهنا ينتقمُ ٱلحُبُّ مِمَّا زوَّرتْ عليهِ ٱلكبرياءُ وَٱلفضيلةُ وٱلشخصية، فيضربُ بحقائقِهِ ضرباتٍ مؤلمةً لا تقومُ لها ٱلقوة، ويجعلُ غِيابَ ٱلحبيبِ كأنَّهُ حضورُهُ مستخفياً لِرؤيةِ ٱلحقيقةِ ٱلتي كُتِمَتْ عنه؛ وكم من عاشقةٍ متكبِّرةٍ على مَنْ تهواهُ تصدُّهُ وتُباعدُه، وهيَ في خلوتِها ساجدةٌ على أقدامِ خيالِهِ تُمرِّغُ وجهَها هنا وهنا على هذه ٱلقَدَمِ وعلى هذه ٱلقدم!

لا إِنَّهُ لا بُدَّ في ٱلحُبِّ من تمثيلِ روايةِ ٱلامتناعِ أوِ ٱلصدِّ أوِ ٱلتهاونِ أو أي ٱلرواياتِ من مثلِها؛ ولكنَّ ثيابَ ٱلمسرحِ هيَ دائماً ثِيابُ ٱستعارةٍ ما دامَ لا بسُها في دورِهِ مِنَ ٱلقصة.

* * *

ثُمَّ وضعَ ٱلمسكينُ يدَهُ على قلبِهِ وقال: آه! إنَّ هذا ٱلقلبَ يُغاضِبُ ٱلحياةَ كلَّها متى أرادَ أَنْ يشعرَ صاحبُهُ أنَّه غضبان.

مَنْ مِنَ ٱلناسِ لا يعرفُ أحزانَه؟ ولكنْ مَنْ منهُمُ ٱلذي يعرفُ أسرارَ أحزانِهِ وحِكْمتَها؟ أمَا إِنَّهُ لو كشفَ ٱلسرَّ لَرأَيْنا ٱلأفراحَ وٱلأحزانَ عمَلا في ٱلنفسِ من أعمالِ تنازعِ ٱلبقاء؛ فهذا ٱلناموسُ يعملُ في إيجادِ ٱلأصلح وَٱلأقوى، ثُمَّ يعملُ كذلك لإيجادِ ٱلأفضلِ وَٱلأرقّ، ومن ثُمَّ كانَتِ آلامُ ٱلحُبِّ قويَّةً حتى لَكأنَّها في ٱلرجلِ وَٱلمرأةِ تُهيِّءُ أحدَ ٱلقلبينِ لِيستحقَّ ٱلقلبَ ٱلآخر.

آهِ من هذه ٱللواعج! إنَّها ما تكادُ تضطرمُ حتى ترجعَ ٱلنفسُ وكأنَّها مَوْقِدٌ يشتعلُ بِٱلجمر، وبذلك يُصْهَرُ ٱلمعدِنُ ٱلإنسانيُّ ويُصنعُ صنعةً جديدة؛ وإلى أنْ ينصهرَ ويتصفَّى ويُصنع، ماذا يكونُ لِلإنسانِ في كلِّ شيءٍ من حبيبِه؟

يكونُ لَهُ في كلِّ شيءٍ روحُهُ ٱلناريّ.

* * *

قلْتُ: بَخٍ بَخٍ[1]! هكذا فَلْيكنِ ٱلحُبّ؛ إِنَّها حينَ تُهيجُ في نفسِكَ ٱلحنينَ إليها تُعطيك ما هو أجمَلُ من جمالِها وما هو أبدعُ من جِسْمِها، إذْ تُعطيك أقوى ٱلشعرِ وأحسنَ ٱلحِكْمة.

قال: وأقوى الألم وأشدَّ ٱللوعة! يا عجباً! كأَنَّ ٱلحياةَ لا تقدمُ في عِشْقِ ٱلمحبوبِ إلَّا عِشقَها هي؛ فإذا وقعَتِ ٱلجفوة، أو حُمَّ ٱلبيْنُ[2]، أوِ ٱعترى ٱليأسُ ـ قدَّمَ ٱلموتُ نفسَهُ فكلُّ ذلك شبَهُ ٱلموت.

إنَّ ٱلحزنَ ٱلذي يجيءُ من قِبلِ ٱلعدوِّ يجيءُ مَعهُ بِقوَّةٍ تحملُهُ وتتجلَّدُ لَهُ وتُكابرُ فيه؛ ولكن أين ذلك في حزنٍ مبعثُهُ ٱلحبيب؟ ومن أين ٱلقوَّةُ إذا ضعُفَ ٱلقلْب؟

* * *

---

(١) بخٍ بخٍ: تعبير إعجاب يقال في حالتي الرضى والمدح.

(٢) البين: الفراق.

قلْت: لا يصنعُ ٱللَّهُ بك إلَّا خيراً؛ فإذا كانَ غدٌ وَٱنسلخَ ٱلنهارُ مِنَ ٱلليلِ جِئْنا إليها فرأيْنَاها في ٱلمسرح، ولعلَّ ٱلأمرَ يصدرُ مصدراً آخر، قال: أرجو...

ولـم يكدْ ينطقُ بهذه ٱلرجيَّةِ حتى مرَّ بنا سَبعةُ رجالٍ يقهقهون، ثُمَّ تلاقينا وجئْنا؛ ويا ويلتَنا على ٱلمسكينِ حينَ عَلِمَ أنها رحلَتْ؛ لقد أدركَ أنَّ ٱلشيطانَ كانَ يضحكُ بِسبعةِ أفواه... من قولِه: أرجو...

ولماذا رحلَتْ؟ لماذا؟

وأمَّا هو...؟

القلبُ ٱلمسكين

٧

وأمَّا صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ فما عَلِمَ أنَّها قد رحلَتْ عن ليلتِهِ حتى أظلمَ ٱلظلامُ عليه، كأنَّها إذا كانَتْ حاضرةً أضاءَ شيءٌ لا يُرى، فإذا غابتِ ٱنطفأَ هذا الضوْء؛ ورأيْتُهُ واجماً[1] كاسفَ ٱلبالِ[2] يتنازعُهُ في نفسِهِ ما لا أدري، كأنَّ غِيابَها وقعَ في نفسِهِ إنذارَ حرب.

لِماذا كانَ ٱلشعراءُ ينوحون على ٱلأطلالِ ويلْتاعُون[3] بِها ويرتمضون[4] منها وهيَ أحجارٌ وآثارٌ وبقايا؟ وما ٱلذي يتلقَّاهم بِهِ ٱلمكانُ بعدَ رحيلِ ٱلأحبَّة؟ يتلقَّاهُمْ بِٱلفراغِ ٱلقلبيِّ ٱلذي لا يملؤُهُ مِنَ ٱلوجودِ كلِّهُ إلَّا وجودُ شخصٍ واحد؛ وعندَ هذا ٱلفراغِ تقفُ ٱلدنيا مَلِيًّا كأنَّها ٱنتَهَتْ إلى نِهايةٍ في ٱلنفس ٱلعاشقة، فتبطلُ حينئذٍ ٱلمُبادلَةُ بينَ معاني ٱلحياةِ وبينَ شعورِ ٱلحيِّ؛ ويكونُ ٱلعاشقُ موجوداً في موضعِهِ ولا تَجِدُهُ ٱلمعاني ٱلتي تمرُّ بِهِ، فترجعُ منه كَٱلحقائقِ تُلِمُّ بِٱلفراغِ ٱلعقليِّ من وعي سكران.

يا أثرَ ٱلحبيبِ حينَ يُفارِقُ ٱلحبيب! ما ٱلذي يجعلُ فيك تلك ٱلقُدرةَ ٱلساحرة؟ أهو فصلُك بين زمنٍ وزمن، أمْ جمعُك ٱلماضيَ في لحظة؛ أمْ تحويلُكَ ٱلحياةَ إلى فكرة، أمْ تكبيرُك ٱلحقيقةَ إلى أضعافِ حقيقتِها، أمْ تصويرُك روحيَّةَ ٱلدنيا في ٱلمِثالِ ٱلذي تُحسُّهُ ٱلروح، أمْ إشعارُك ٱلنفسَ كَٱلموْتِ أنَّ ٱلحياةَ مبنيَّةٌ على ٱلانقلاب، أمْ قدرَتُك على زِيادةِ حالةٍ جديدةٍ لِلْهمِّ وَٱلحزن، أمْ رجوعُك بِٱللذَّةِ تُرى ولا تُمكن، أمْ أنت كُلُّ ذلك لِأنَّ ٱلقَلْبَ يفرغُ ساعةً مِنَ ٱلدنيا ويمتلئُ بك وحدَك؟

يا أثرَ ٱلحبيبِ حين يُفارِقُ ٱلحبيب! ما هذه ٱلقوَّةُ ٱلسحريَّةُ فيك تجتذِبُ بها

---

(١) واجماً: مطرقاً.
(٢) كاسف البال: حزيناً.
(٣) يلتاعون: يتألمون.
(٤) يرتمضون: يتلذّعون من حرّها.

ٱلصدرَ لِيضمَّك، وتستهويَ بها ٱلفمَ لِيقبلَك، وتستدعي ٱلدمعَ لينفرَ لك، وتهتاجُ ٱلحنينَ لِينَبعثَ فيك؟ أكلُّ ذلك لِأنَكَّ أثرُ ٱلحبيب، أمْ لِأنَّ ٱلقلْبَ يفرُغُ ساعةً مِنَ ٱلدنيا ولا يجِدُ ما يخفقُ عليهِ سِواك؟

* * *

ووقفَ صاحبُنا ٱلمِسكينُ محزوناً كأنَّ شيئاً يصِلُهُ بِكُلِّ هموم ٱلعالم؛ وتلك هيَ طبيعةُ ٱلألم ٱلذي يُفاجىءُ ٱلإنسانَ من مكمنِ لذَّتِهِ وموضِعِ سُرورِه، فيسلُبُهُ نوعاً مِنَ ٱلحياةِ بِطريقةِ سلْبِ ٱلحياةِ نفسِها، ويأخذُ من قلبِهِ شيئاً ماتَ فيدفنُهُ في قبرِ ٱلماضي، يكونُ ألَماً لِأنَّ فيهِ ٱلمضض، وكآبةً لِأنَّ فيهِ ٱلخيبةَ، وذُهولاً لِأنَّ فيهِ ٱلحسْرة؛ وتَتِمُّ هذه ٱلثلاثةُ ٱلهمومُ بِٱلضيق ٱلشديدِ في ٱلنفس، لٱجتماع ثلاثتِها على ٱلنفس؛ فإذا ٱلمسكينُ مبغوتٌ كأنَّ ٱلآلامَ أطبقَتْ عليهِ مِنَ ٱلجهاتِ ٱلأربع، فقلبُهُ منها صُدُوعٌ صُدوع...

وجعلْتُ أعذِلُ صاحبَنا فلا يعتذِل، وكلَّما حاوْلتُ أنْ أُثبتَ لَهُ وجودَ ٱلصبرِ كنْتُ كأنَّما أثبِتُ لَهُ أنَّهُ غيرُ موجود؛ ثُمَّ تنفسَ وهو يكادُ ينشقُّ غيظاً وقال: لماذا رحلَتْ؟ لماذا؟

قلْت: أنت أذلَلْتَ جمالَها بهذا ٱلأسلوبِ ٱلذي ترى أنك تُعِزُّ جمالَها به، وقدِ ٱشتددْتَ عليها وعلى نفسِك، وتعنَّتَّ على قلبِكَ وقلبِها؛ كانَتْ طريقةَ ٱلمذهَبِ في عِشقِها وكنْتَ خَشِناً في حُبِّك، وسَّوغتْكَ حقًّا فردْدتَهُ عليها، وتهالكَتْ وٱنقبضْتَ أنت، ورفعَتْ قدرَك عن نفسِها تَحَبُّباً وتَوَدُّداً فخفضْتَ قَدْرها عن نفسِك مِنِ ٱطراحٍ وجفاء، وٱستفرَغَتْ وسعَها في رِضاكَ فتغاضبْت، ونَضَتْ عن محاسنِها شيئاً شيئاً تسألُ بكلِّ شيءٍ سؤَالا فلَمْ تكنْ أنت من جوابِها في شيء...

ومن طبعِ ٱلمرأةِ أنَّها إذا أحبَّتِ ٱمتنعتْ أنْ تكونَ ٱلبادئة، فٱلتوَتْ على صاحبِها وهي عاشقة، وجاحَدَتْ[1] وهيَ مُقرَّة؛ إذْ تُريدُ في ٱلأوَّلةِ أنْ تتحقَّقَ أنَّها محبوبة، وفي ٱلثانيةِ أنْ يُقدَّمَ لها ٱلبرهانُ على أنَّها تستحقُّ ٱلمهاجمة، وفي ٱلثالثةِ هيَ تُريدُ ألَّا تأخذَها إلَّا قوَّةٌ قويَّةٌ فتمتحِنُ هذه ٱلقوَّة، ومعَ هذه ٱلثلاثِ تأبى طبيعةُ ٱلسرورِ فيها وَٱلاستمتاع بها إلَّا أنْ يكونَ لِهذا ٱلسرورِ وهذا السرورِ وهذا ٱلإمتاعِ شأنٌ وقِيمة، فتُذيقُ صاحبَها ٱلمرَّ قبلَ ٱلحلْوِ لِيكبرَ هذا بهذا.

---

(١) جاحدت: أنكرت.

غيرَ أنَّها إذا غلبَها ٱلوَجْدُ وأكرهَها ٱلحبُ على أنْ تبتدىءَ صاحبَها، ثُمَّ ٱبتدأَتْ ولم تجدِ ٱلجوابَ منه، أو لم يأتِ ٱلأمرُ فيما بينَها وبينَهُ على ما تُحبّ، فإنَّ ٱلابتداءَ حينئذٍ يكونُ هوَ ٱلنهاية، وينقلِبُ ٱلحُبُّ عدوَّ ٱلحُبِّ؛ وأنا أعرفُ ٱمرأةً وضعَتْها كِبرياؤها في مثلِ هذه ٱلحالةِ وقالَتْ لِصاحبِها: سأتألَّمُ ولكنْ لن أُغلب، فكانَ ٱلذي وقع واأسفاه ـ أنها تألَمَتْ حتى جُنَّت، ولكنْ لَمْ تُغلب. . .

قال: فما بالُ هذه؟ أمَا تراها تبتدىءُ كلَّ يومٍ رجلا؟

قلْت: إنَّها تبتدىءُ متكسِّبةً لا عاشِقة، فإذا أحبَّتِ ٱلحُبَّ ٱلصحيحَ أرادَتْ قِيمَتها فيما هو قِيمتُها؛ وأنا أحسبُها تُحِبُّ فيك هذا ٱلعُنْفَ وهذه ٱلقسْوةَ وهذه ٱلروحيَّةَ ٱلجبارة؛ فإنَّها لذّاتٌ جديدةٌ لِلْمرأةِ ٱلتي لا تجدُ من يُخضِعُها؛ وفي طبيعةِ كلِّ ٱمرأةٍ شيءٌ لا يجدُ تمامَهُ إلَّا في عُنْفِ ٱلرجل، غيرَ أنَّهُ ٱلعُنْفُ ٱلذي أولُهُ رِقَّةٌ وآخرُهُ رِقَّة؟

* * *

أمَا وَٱللَّهِ إنَّ عجائبَ ٱلحُبِّ أكثرُ من أنْ تكونَ عجيبة؛ وَٱلشيءُ ٱلغريبُ يُسمَّى غريباً فيكفى ذلك بياناً في تعريفِه، غيرَ أنَّهُ إذا وقعَ في ٱلحُبِّ سُمِّيَ غريباً فلا تكفيهِ ٱلتسمية، فيُوصفُ مَعَ ٱلتسميةِ بأنَّهُ غريبٌ فلا يبلغُ فيهِ ٱلوصف، فيقعُ ٱلتعجُّبُ مَعَ ٱلوصفِ وٱلتسميةِ من أنَّهُ شيءٌ غريب، ثُمَّ تبقى وراءَ ذلك منزِلةٌ لِلإغراقِ في ٱلتعجبِ بينَ ٱلعاشقِ وبينَ نفسِه؛ وهكذا يشعرون.

فكلُّ أسرارِ ٱلحُبِّ من أسرارِ ٱلروحِ ومن عالم ٱلغيْب؛ وكأنَّ ٱلنبُوَّةَ نبُوتان: كبيرةٌ وصغيرة، وعامَّةٌ وخاصَّة. فإحداهما بِٱلنفسِ ٱلعظيمةِ في ٱلأنبياء، وٱلأخرى بِٱلقلْبِ ٱلرقيقِ في ٱلعُشاق؛ وفي هذه من هذه شبهٌ، لوجودِ العظمةِ الروحيَّةِ في كلتيهما غالبةً على المادَّةِ، مجرِّدةً من إنسانِ ٱلطينِ إنساناً مِنَ ٱلنور، محرِّكةً هذه ٱلطبيعةَ ٱلآدميَّةَ حركةً جديدةً في ٱلسموِّ، ذاهبةً بِٱلمعرفةِ ٱلإنسانيَّةِ إلى ما هو ٱلأحسنُ وٱلأجمل، واضعةً مبدأَ ٱلتجديدِ في كلِّ شيءٍ يمرُّ بِٱلنفس، منبعِثةً بِٱلأفراحِ من مصدرِها ٱلعلويّ ٱلسماويّ.

بيدَ أنَّ في ٱلعِشْقِ أنبياءَ كذبة؛ فإذا تسفَّلَ ٱلحُبُّ في جلال، وَٱستعلنَتِ ٱلبهيميَّةُ في عظمة، وتجرَّدَ من إنسانِ ٱلطينِ إنسانُ ٱلحجر، وتحرَّكَتِ ٱلطبيعةُ ٱلآدميَّةُ حركةً جديدةً في ٱلسقوط، وذهبَتِ ٱلمعرفةُ ٱلإنسانيَّةُ إلى ما هو ٱلأقبحُ. وَٱلأسوأ،

وتجدَّدَ لِكلِّ شيءٍ في ٱلنفسِ معنًى فاسد، وَٱنبعثَتِ ٱلأفراحُ من مصدرِها ٱلسُّفْلِيِّ ـ إذا وقعَ كلُّ هذا مِنَ ٱلحُبِّ فما عساهُ يكون؟

لا يكونُ إلَّا أنَّ ٱلشيطانَ يُقلِّدُ ٱلنبوَّةَ ٱلصغيرةَ في بعضِ ٱلعُشاق، كما يُقلِّدُ ٱلنبوَّةَ ٱلكبيرةَ في بعضِ ٱلدَّجالين.

* * *

هكذا قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ وقد تكلَّمَ عنِ ٱلحُبِّ ونحن جالسانِ في ٱلحديقة، وكنَّا دخلْناها لِيُجدّدَ عهداً بمجلسِهِ فلعلَّهُ يسكنُ بعضُ ما به؛ وَٱستفاضَ كلامُنا في وصفِ تلك ٱلعبهرَةِ[1] ٱلفتَّانةِ ٱلتي أحلَّتْهُ هذا ٱلمحلَّ وبلغَتْ بِهِ ما بلغَتْ وكانَ في رِقَّةٍ لا رِقَّةَ بعدَها، وفي حُبٍّ لا نِهايةَ وراءَهُ لِمُحِبٍّ؛ وخُيِّلَ إِليّ أنَّهُ يرى ٱلحديثَ عنها كأنَّهُ إحضارُها بصورةٍ ما!

وأنفعُ ما في حديثِ ٱلعاشقِ عن حُبِّهِ وأَلمِهِ أنَّ ٱلكلامَ يُخرجُهُ من حالةِ ٱلفِكْر، ويؤْنِسُ قلبَهُ بِٱلألفاظ، ويُخفِّفُ من حركةِ نفسِهِ بِحركةِ لِسانِه، ويُوجِّهُ حواسَّهُ إلى ٱلظاهرِ ٱلمتحرِّك؛ فتسلبُهُ ٱلفاظُهُ أكثرَ معانيهِ ٱلوهميَّة، وتأتيهِ بِٱلحقائقِ على قدرِها في ٱللغةِ لا في ٱلنفس؛ وفي كلِّ ذلك حِيلةٌ على ٱلنسيان، وتُعلِّلُ إلى ساعة؛ وهو تدبيرٌ مِنَ ٱلرحمةِ بِٱلعاشقينِ في هذا ٱلبلاءِ ٱلذي يُسمَّى ٱلفِراقَ أوِ ٱلهجر.

وكانَ من أعجبِ ما عجِبْتُ لَهُ أنَّ صديقاً مرَّ بنا فدعاهُ صاحبُنا وقالَ وهو يومىءُ إليّ: أنا وفلانٌ هذا مختلفانِ منذُ ٱليوم: لا هو يُقيمُ عُذْراً ولا أنا أُقيمُ حُجَّة، وأحسبُ أنَّ عندَك رأياً فٱقضِ بيَننا...

ويسألُهُ ٱلصديق: ما ٱلقضيَّة؟ فيقولُ وهو يُشيرُ إليّ:

إنَّ هذا قد تخرَّقَ قلبُهُ مِنَ ٱلحُبِّ فلا يدري من أين يجىءُ لِقلبِهِ بِرُقعة... وإنَّهُ يعشقُ فلانةَ ٱلراقصة ٱلتي كانَتْ في هذا ٱلمسرح، ويزعمُ لي... أنَّها أجملُ وأفتنُ وأحلى مَنْ طَلعتْ عليهِ ٱلشمس، وأنَّهُ ليسَ بين وجهِها وبينَ ٱلقمرِ وجهُ ٱمرأةٍ أخرى في كلِّ ما يُضيءُ ٱلقمرُ عليه، وأنَّ عينيها مِمَّا لا يُنسى أبداً أبداً أبدا... لِأنَّ ألحاظَها تذوبُ في ٱلدم وتجري فيه، وأنَّ ٱلشيطانَ لو أرادَ مُناجزَةَ[2] ٱلعِفَّةِ وَٱلزهدِ في حرْبٍ حاسِمةٍ بينَهُ وبينَ أزهدِ ٱلعِبادِ لَترِكَ كلَّ حِيَلهِ وأساليبِهِ وقدَّمَ جِسمَها وفنَّها...

فيقولُ لَهُ ٱلمسؤول: وما رأيُك أنت؟

---

(١) العبهرة: التامة الخلقة والجمال.

(٢) مناجزة: منازلة ومصارعة.

فيُجيبُه: لو كانَ عنها صاحياً لقد صحا: إنَّ ٱلمشكلةَ في ٱلحُبِّ أنَّ كلَّ عاشقٍ لَهُ قلبُهُ ٱلذي هو قلبُه، وحسْبُها أنَّ مثلَ هذا هو يصفُها؛ وما يُدرينا من تَصاريفِ ٱلقَدَرِ بهذه ٱلمسكينةِ ما عليها مِمَّا لها، فلَعلَّها ٱلجمالُ حُكِمَ عليهِ أنْ يعُذَّبَ بِقبحِ ٱلناس، ولعلَّها ٱلسرورُ قضى عليهِ أنْ يُسْجَنَ في أحزان!

* * *

وقلْتُ لَهُ: يا صديقي ٱلمسكين! أوَ كلُّ هذا لها في قلبِك؟ فما هذا لها في قلبِك؟ فما هذا ٱلقلبُ ٱلذي تحملُهُ وتتعذَّبُ بِه؟

قال: إنَّه ـ وَٱللَّهِ ـ قلَبُ طفل، وما حُبُّهُ إلَّا ٱلتماسُهُ ٱلحنانَ ٱلثاني مِنَ ٱلحبيبة، بعدَ ذلك ٱلحنانِ ٱلأولِ مِنَ ٱلأُمّ؛ وكلُّ كلامي في ٱلحُبِّ إنَّما هو إملاءُ هذا ٱلقلْبِ على فكرِهِ كأنَّهُ يخلقُ بِهِ خَلقَ تفكيره.

آه يا صديقي! إنَّ مِنَ ٱلسخريةِ بهذه ٱلدنيا وما فيها أنَّ ٱلقلبَ لا يستمرُّ طِفلاً بعدَ زمنِ ٱلطفولةِ إلَّا في ٱثنين: مَنْ كانَ فيلسوفاً عظيماً، ومَنْ كانَ مغفَّلاً عظيماً!

* * *

وٱفترقْنا؛ ثُمَّ أردْتُ أنْ أتعرَّفَ خبرَهُ فلقيتُهُ مِنَ ٱلغد، وكانَ لي في أحلامي تلك ٱلليلةَ شأنٌ عجيب، وكانَ لَهُ شأنٌ أعجب؛ أمَّا أنا فلا يعني ٱلقراءَ شأني وقصتي.

وأمَّا هو؟...

القلبُ ٱلمسكين

٨

وأمّا هو فحدَّثني بهذا ٱلحديثِ ٱلعجيبِ من لَطائفِ إلهامِهِ وفنِّه، قال: أنصرفْتُ إلى داري وقد عزَّ عليَّ أنْ يكونَ هذا منها وأنْ يكونَ هذا منّي، وهيَ إنْ غابَتْ أو حضَرتْ فإنّها لي كٱلشمسِ للدنيا: لا تُظلِمُ ٱلدنيا في ناحيةٍ إلّا من أنّها تُضِيء في ناحية؛ فظُلْمَتُها من عملِ نورِها؛ وكانَتْ ليلتي فارغةً مِنَ ٱلنوم فبتُّ أتملْملُ، وجعلَ ٱلقلْبُ في جنبيَّ كأنَّهُ آلةٌ في ساعةٍ لا قلبُ إنسان؛ وكانَ في ٱلدنيا من حوْلي صَمْتٌ كصمتِ ٱلذي سكتَ بعدَ خُطبةٍ طويلة، وفيَّ أنا صَمْتٌ آخرُ كصمْتِ ٱلذي سكتَ بعدَ سؤالٍ لا جوابَ عليه؛ وكانَ ٱلهواءُ راكداً كَٱلسكرانِ ٱلذي أنطرحَ من ثِقْلَةِ ٱلسكْرِ بعدَ أنْ هذى[1] طويلاً وعرْبد؛ وَٱلوجدُ كلَّهُ يبدو كَٱلمختنِق، لِأنَّ معنى ٱلاختناقِ في قلبي وأفكاري؛ ونظرْتُ نظرةً في ٱلنجوم فإذا هيَ تتغوَّرُ نجماً بعدَ نجم، كأنَّ معنى ٱلرحيلِ أنتشرَ في ٱلأرضِ وَٱلسماءِ إذْ رحلَتِ ٱلحبيبة؛ وكأنَّ كلَّ وجهٍ مضيءٍ يقولُ لي كلمة: لا تنتظر!

فلمّا عسعسَ[2] ٱلليلُ رميْتُ بنفسي فنِمْتُ وٱلعقلُ يقظان، وصنعَتِ ٱلأحلامُ ما تصنع، فرأيْتُها هي في تلك ٱلشُفوفِ[3] ٱلتي ظهَرتْ فيها عروساً؛ وما أعجبَ كِبرياءَ ٱلمرأةِ ٱلمحبوبة! إنَّها لَتبدو لِعيني مُحِبِّها كَٱلعاريةِ وراءَ سِتْرٍ رقيقٍ يَشِفُّ عنها كَٱلضوء، ثُمَّ تُدِلُّ بِنفَسِها أنْ ترفَعَ هذا ٱلسِّتْر، فإنْ لم يتجرَّأْ هو لم تتجرأْ هي؛ وكأنَّها تقولُ لَهُ: قد رفعتُهُ بطريقتي فَٱرفعْهُ أنت بِطريقتِك...

وكانَتْ مصوَّرةً في ٱلحُلُمِ تصويراً آخر؛ فلا ينسكِبُ من جسمِها معنى ٱلحُسْنِ

---

(١) هذى: تلفَّظ بما لا يفهم في حالة الجنون.
(٢) عسعس الليل: أقبل ظلامه أو أدبر.
(٣) الشفوف: الأردية الرقيقة التي تنمّ عمّا تحتها.

ٱلذي أتأملُهُ وأعقلُه، ولكنْ معنى ٱلسكْرِ ٱلذي يتركُ ٱلمرءَ بِلا عقل؛ ولم تكنْ غلائلُها عليها كَٱلثيابِ على ٱلمرأة، ولكنَّها ظهَرتْ لي كَٱللونِ على ٱلوردةِ ٱلزاهية: تُظهرُ فِتنةً وتُتِمُّ فِتنة.

أيتُّها ٱلأحلام، ماذا تُبدعينَ إلَّا مخلوقاتِ ٱلدمِ ٱلإنسانيّ، ماذا تُبدعين؟

قلْت: يا صديقي دعِ ٱلآن هذه ٱلفلسفةَ وخذْ في قصِّ ما رأيْت، ثُمَّ ماذا بعدَ ٱلوردةِ ولونِ ٱلوردة؟

قال: إنَّهُ ٱلقلبُ ٱلمسكينُ دائماً، إنَّهُ ٱلقلبُ ٱلمسكين؛ لقد ضحكَتْ لي وقالت: هأنذي قد جِئت! وأقبلَتْ تُرائيني بوجهِها، وتتغزَّلُ بِعينيها، وتتنهَّدُ بِصدرِها، وألقَتْ يدَها في يدي، فأحسَسْتُ ٱليدينِ تتعانقانِ ولا تتصافحانِ؛ ثُمَّ تركناهُما نائمتينِ إحداهما على ٱلأخرى، وسكتنا هُنيهةً وقد خُيِّلَ إلينا أنَّنا إذا تكلَّمْنا ٱستيقَظتْ يدانا!

أمَا صافحَتْكَ ٱمرأةٌ تُحبُّها وتُحبُّك؟ أمَا أحسسْتَ بِيدِها قد نامتْ في يدِك ولو لحظة؟ أمَا رأيْتَ بِعينيكَ نُعاسَ يدِها وهو ينتقلُ إلى عينيها فإذا هما فاترتانِ ذابلتان، وتحتَ أجفانِهما حُلمٌ قصير؟

قلْت: يا صديقي دَعِ ٱلفلسفة؛ ثُمَّ كانَ ماذا بعدَ أنْ نامَتْ يدٌ على يد؟

قال: ثُمَّ كانَتْ سُخريةٌ منَ ٱلشيطانِ أقبحُ سخريةٍ قطُّ.

قلْتُ: حسبي لَكأنَّكَ شرحْتَ لي ما بقي...

فضحكَ طويلاً وقال: إنَّ ٱلشيطانَ يسخرُ ٱلآنَ منك أيضاً، وكأنِّي بهِ يقولُ لك: وكانَ ما كانَ مِمَّا لسْتُ أذكُره... أفتدري ما ٱلذي كانَ وما بقيةُ ٱلخبر؟

لقد كنْتُ مُولَعاً بِٱمتحانِ قوَّتي في ٱلضغطِ بيدي على أعوادٍ منصوبةٍ مِنَ ٱلحديد، أو على أيدي ٱلأقوياءِ إذا سلَّمْتُ عليهم؛ فلمَّا صافحتْني لبثَتْ مُدَّةً مِنَ ٱلزمنِ ثُمَّ شددْتُ على يدِها قليلاً قليلاً، فتنبهَتْ فيَّ هذه ٱلعادة، فمسخْتِ ٱلحُلْمَ وٱنصرفَ وهمِّي إلى أقبحِ صورةٍ وأشنعِها وأبعدِها مِمَّا أنا فيهِ مِنَ ٱلحُبِّ ولذاتِ ٱلحُبّ؛ فإذا بإزائي وجهٌ، وجهُ مَنْ؟ وجهُ مصارعٍ ٱلمانيٍّ كنْتُ أعرفُهُ من عشرينَ سنة وأضغطُ على يدِه...

* * *

قلْت: إنَّما هذه كِبرياؤك أو عِفَّتُكَ تنبَّهَتْ في تلك ٱلشدَّةِ من يدِك، ولا يزالُ أمْرُك عجيباً؛ فهلْ معك أنت ملائكةٌ ومعَ ٱلناسِ شياطين؟

قال: والّذي هوَ أعجبُ أنّي رأيتُ في أضغاثِ أحلامي كأنَّ قلبي المسكينَ يُخاصِمُني وأُخاصِمُه؛ وقد خرجَ من أحناءِ الضلوعِ كأنَّهُ مخلوقٌ منَ الظلِّ يُرى ولا يُرى إذْ لا شكلَ لَه؛ وسبَّني وسببتُه، وقلْتُ لَهُ وقالَ لي، وتغالظْنا كأنَّنا عدوَّان؛ فهو يرى أنّي أنا أمنعُهُ لذَّتَه، وأرى أنَّهُ هو يمنعني، وأنَّهُ أشقى بي على ما أشقى؛ وقلْتُ لَهُ فيما قلْت: لا قَرارَ على جِنايتِك، فَاذهبْ عنّي ولا تتسمَّ بِاسمي فإنَّهُ لا فلانَ لَكَ بعدَ اليوم؛ ولولا أنَّكَ مخذولٌ[1] في الحُبّ لَعَلِمْتَ أنَّ لمسةَ يدِ الرجلِ لِيدِ المرأةِ الجميلةِ نوعٌ مُخفَّفٌ مِنَ التقبيل، فإذا هيَ تركتْهُ يرتفعُ في الدمِ انتهى يوماً إلى تقبيلِ فمِهِ لِفمِها؛ ولولا أنَّكَ مخذولٌ في الحُبِّ لعلمْتَ أنَّ هذا الضمَّ بينَ اليدينِ نوعٌ مخفَّفٌ مِنَ العِناق، فإذا هيَ تركَتْهُ يشتدُّ في الدمِ انتهى يوماً إلى ضمِّ الصدْرِ لِلصدْر؛ ولكنَّكَ مخذولٌ في الحُبّ، ولكنَّك مخذول!.

وقالَ لي فيما قال: وأنت أيُّها الخائب؟ أمَا علِمْتَ أنَّ أناملَها الرَّخْصةَ[2] هي أناملُها، لا أعوادُك مِنَ الحديد؟ فكيف شدَدْتَ عليها ـ وَيحكَ ـ تلكَ الشدَّةَ الّتي أخرجَتْ لك وجْهَ المصارع؟ ولكِنَّك خائبٌ في الحُبّ، ولكنَّكَ خائب!

قلْت: فهذه قضيَّةٌ بيني وبينَك أيُّها القلْبُ العدوّ؛ لقد تركْتني مِنَ الهموم كَالشجرةِ المُنَخْرِبَةِ قد بليَتْ وصارَتْ فيها التخاريب؛ فلا حياتُها بِالحياةِ ولا موتُها بِالموت، وكم علَّقْتَني بفاتنةٍ بعدَ فاتنةٍ لا عنها إقصارٌ ينتهي ولا فيها مطمعٌ يبتدىء؛ ما أنت فيَّ إلَّا وحشٌ أكبرُ لذَّتِه لِطْعُ الدم!

* * *

واستدارَ الحُلُمُ فلم ألبثْ أنْ رأيتُني في محكمةِ الجِنايات، وكأنّي شكَوْتُ قلبي إليها فهو جالسٌ في القفصِ الحديديِّ بين المجرمينَ ينتظِرُ ما ينتظرون مِنَ الفصلِ[3] في أمرِهم؛ وقدِ ارتفعَ المستشارون الثلاثةُ إلى مِنَصَّةِ الحُكْم، وجلسَ النائبُ العامُّ في مجلسِهِ يتولّى إقامةَ الدعوى وبينَ يديهِ أوراقُهُ ينظرُ فيها، ورأيْتُ منها غِلافاً كُتِبَ على ظاهره: قضيةُ القلْبِ المسكين.

وتكلَّمَ رئيسُ المحكمةِ أوّلَ مَنْ تكلَّمَ فقال: ليس في قضيَّةِ القلْبِ مُحامٍ، فَابْغُوهُ مَنْ يُدافعُ عنه؛ ثُمَّ التَفتَ إليهِ وقال: مَنْ عسى تختارُ لِلدفاعِ عنك؟

---

(١) مخذول: مهزوم لا يفتر لك.

(٢) الرخصة: الطريئة اللدنه.

(٣) الفصل في أمرهم: البتّ في مصيرهم.

قالَ ٱلقلْب: أوَ هنا موضِعٌ لِلاَختيارِ يا حضرةَ ٱلرئيس؟ إنَّهُ ليسَ تحتَ هذه ـ وأومأ إلى ٱلسماء ـ ولا فوقَ هذه ـ وأومأ إلى ٱلأرض ـ إلَّا . . .

فبَدَرَ ٱلنائبُ ٱلعامُّ وقال: إلَّا ٱلحبيبة؟ أكذلك؟ غيرَ أنَّها أستاذةٌ في ٱلرقصِ لا في ٱلقانون!

ـ القلْب: ولكنَّني لا أختارُ غيرَها محكوماً لي أو محكوماً عليّ؛ أنا أُريدُ أنْ أنظرَ فيها وَٱنْظُروا أنتم في ٱلقضيَّة. . .

ـ الرئيس: فلْيكن؛ فهذه جريمةُ عواطِفَ إيذَنْ لها أيُّها الآذِن.

فنادى ٱلمحْضِر: الأستاذة! الأستاذة!

وجاءَتْ مبادرة، ودخَلَتْ تمشي مِشيتَها وقدِ ٱفترَّ ثغرُها[1] عنِ ٱلنورِ ٱلذي يسطعُ في ٱلنفس؛ وأومَضَتْ بِوجهِها يميناً وشِمالاً، فصرَفَ ٱلناسُ جميعاً أبصارَهم إليها وقد نظروا إلى فِتنةٍ مِنَ ٱلفِتن؛ وثارَتْ في كلِّ قلبٍ نزعة، وغلبَتِ ٱلحقيقةُ ٱلبشريَّةُ فَٱنتقضَتْ طِباعُ ٱلموجودين في قاعةِ ٱلجلسة، وأبطلَ قانونُ جمالِها قانونَ ٱلمحكمة، فوقَعتِ ٱلضجَّةُ وعلَتِ ٱلأصواتُ وٱختلطَت؛ وتردَّدَتْ بين جُدرانِ ٱلمكانِ صَدًى في صدًى كأنَّ ٱلجدرانَ تتكلَّمُ مَعَ ٱلمتكلمين.

أصواتٌ أصوات: سبحانَ ٱلله! سبحانَ ٱلله! تباركَ ٱلله! تباركَ ٱلله! آه آه! آه آه! وسُمِعَ صوتٌ يقول: ٱتَّهِمُوني أنا أيضاً. . . فَنَفَرتِ ٱلكلمات: وأنا، وأنا، وأنا! وٱختفتِ ٱلمحكمةُ وٱنبعثَ ٱلمسرحُ بدخولِ فاتنتِهِ ٱلراقصة؛ وكانَ ٱلمستشارونَ وٱلنائبُ ٱلعامُّ في أعينِ ٱلناسِ كأنَّهم صورٌ معلَّقةٌ على ٱلحائط: لا يخشاها أحدٌ أنْ تنظرَ إلى ما يصنع!

فصاحَ ٱلرئيس: هنا ٱلمحكمة! هنا ٱلمحكمة! سبحانَ ٱلله. . . المحكمة المحكمة!

ـ النائب العام: هذا بَدْرٌ لا تَرضاهُ النيابةُ ولا تقبلُ أنْ تنسحِبَ عليه، نعمْ إنَّ هذا ٱلوجهَ ٱلجميلَ أبرعُ محامٍ في هذه ٱلقضيَّة، ونعمْ إنَّ جسمَها. . . آهِ ماذا؟ إنَّكم تأتونَ بِٱلشهوةِ ٱلغالبةِ ٱلقاهرةِ لِتُدافعَ عنِ ٱلمشتهي. . . عنِ ٱلمتَّهم، هذا وضعٌ كوضعِ ٱلعذرِ إلى جانبِ ٱلذنب، وكأنَّكم يا حضراتِ ٱلمستشارين. . .

---

(١) افترّ ثغرها: ابتسمت.

فَبَدَرتَ ٱلمحاميةُ تقولُ في نغمةِ دلالٍ وفتور: وكأنّكم يا حضراتِ ٱلمستشارينَ قد نسيتُم أنَّ ٱلنائبَ ٱلعامَّ لَهُ قلبٌ أيضاً. . .

وٱشتدَّ ذلك على ٱلنائب، وتبينَ ٱلغضبُ في وجهِه؛ فقالَ: يا حضرةَ ٱلرئيس. . .

ـ الرئيسُ مبتسماً: واحدةٌ بواحدة، وأرجو ألّا تكونَ لها ثانية، ومعنى هذا كما هو ظاهرٌ ألا تكونَ لها ثالثة. . . (ضحك).

* * *

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: وكنْتُ بلا قلب. . . فلم ألتفِتْ لِلجمال، بلْ راعني ذكاءُ ٱلمحاميةِ ونفاذُها وحُسْنُ ٱهتدائها إلى ٱلحُجَّةِ في أولِ ضرباتِها، وتعجبْتُ من ذلك أشدَّ ٱلتعجُب، وأيقنتُ أنَّ ٱلنائبَ ٱلعامَّ سيقعُ في لِسانِها، لا كما يقعُ مثْلُهُ في لِسانِ ٱلمحامي ٱلقدير، ولكن كما يقعُ زوجٌ في لِسانِ زوجةٍ معشوقةٍ متدلِّلَةٍ تُجادِلُهُ بِحُجج كثيرةٍ بعضُها ٱلكلام. . . وقلْتُ في نفسي: يا رحمةَ ٱللَّهِ لا تجعلي مِنَ ٱلنساءِ ٱلجميلاتِ ٱلفاتناتِ محامياتٍ في هذه ٱلمحاكم، فلو ألبسوهُنَّ لحًى مستعارةً لَكانَ ٱلصوتُ ٱلرخيمُ وحَدهُ من تلك ٱلأفواهِ ٱلجميلةِ ٱلعذبة، نداءً قانونياً لِلْقُبلات. . .

ونهضَتِ ٱلمحاميةُ ٱلعجيبةُ فسلطَتْ عينيها ٱلساحرتينِ على ٱلنائب، ثُمَّ قالَتْ تُخاطِبُ ٱلمحكمة: قبلَ ٱلنظرِ في هذه ٱلقضيةِ قضيةِ ٱلحُبِّ وَٱلجمال، قضيةِ قلْبيَ ٱلمسكين. . . أُريدُ أنْ أتعرَّفَ ٱلرأيَ ٱلقانونيَّ في ٱعتبارِ ٱلجريمة. أهي شخصيَّة، فتقصرَ على صاحبِها؛ أو خاصة، فتضرَّ غيرَ جانبِها؛ أو عامة، فيتناولَها ٱلعمومُ ٱلمحدودُ لِمَنْ تجمعُهُم جامعةُ ٱلحُبّ؛ أو هي أعمُّ، فيتناولَها ٱلعمومُ ٱلمطلَقُ لِلْهيئةِ ٱلاجتماعيَّة؛ ما هيَ جريمةُ قلبي؟. . .

ـ الرئيس: ما رأيُ ٱلنيابة؟

ٱلنائبُ ضاحكاً: (غزالتها رايقة) كما يقولُ ٱلراقصاتُ وٱلممثلات. . . أرى أنَّها جريمةٌ آتيةٌ من ضرْبِ ٱلخاصِّ في ٱلعام. . . (ضحك).

ٱلمحامية: جوابٌ كجوابِ ٱلقائل: حبُّ أبي بكر: كانَ ذلكِ ٱلرجلُ يُحبُّ زوجتَهُ ٱلجميلةَ ويخافُها، وكانَتْ تقسو عليهِ قسوةً عظيمةً وتُغلِظُ لَهُ ٱلكلام، وهو يفْرَقُ منها ولا يُخالِفُها؛ فرآها يوماً وقد طابَتْ نفسُها، فأرادَ أنْ ينتهزَ ٱلفرصةَ

ويشكو قسوتَها؛ فقال: يا فلانةُ قَدْ ـ واللّهِ ـ أحرقَ قلبي... ولم تدعْهُ يُتمُّ ٱلكلمة، فحدَّدَتْ نظرَها إليهِ وقَطَبتْ[1] وجهَها وقالت: أحرقَ قلبَكَ ماذا؟ فخافَ ولم يقدِرْ أنْ يقولَ لها سُوءُ أخلاقِك. فقال؛ حبُّ أبي بكرِ ٱلصديقِ ـ رضيَ الله عنه ـ.. (ضحك) ورنَّتْ ضِحكةُ ٱلمحاميةِ فَٱضطربَتْ لها ٱلقلوب، ووقعَتْ في كلِّ دم، وفي دمِ ٱلنائبِ أيضاً؛ فٱنخزلَ ولم يزدْ على أنَّ يقول: أحتجُ من كلِّ قلبي...

الرئيس: لنَدْخلْ في ٱلموضوعِ وَلْتكنِ ٱلمرافعةُ مطلقة؛ فإنَّ ٱلحدودَ في جرائم ٱلقلْبِ تُسْدلُ وتُرفعُ كهذه ٱلستائرِ في مسرحِ ٱلتمثيل. وعشرون سِتارةً قد تكونُ كلُّها لِروايةٍ واحدة.

* * *

ـ النائب العام: يا حضراتِ ٱلمستشارين، لا يطولُ ٱتهامي؛ فإنَّ هذا ٱلقلبَ هو نفسُهُ تهمةٌ متكلمة.

المحامية: ولكنَّهُ قلب.

النائب: وأنا يا سيدتي لم أحرِّفِ ٱلكلمةَ ولم أقلْ إِنَّهُ كلب. (ضحك) وتضرَّجَ[2] وجهُ ٱلمحاميةِ وخجِلَت.

ـ الرئيس: الموضوع الموضوع.

النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، إنَّ ألمَ هذه ٱلجريمةِ إمَّا أنْ يكونَ في شخصِ ٱلجاني أو مالِه، أو صِفتِهِ كأنْ يكونَ زوجاً مثلاً، أو صِيتُهُ ٱلأدبيُّ؛ فأمَّا ٱلشخصُ فهذا ظاهر، وأمَّا ٱلمالُ فنعمْ إنَّ ٱلقلبَ ٱلمسكينَ قرَّرَ لِنفسِهِ ولِصاحبِهِ ألَّا يبتاعَ أبداً تذكرةَ دخولٍ إلى جهنم... (ضحك).

ـ المحامية: أستميحُ ٱلنائبَ عُذراً إذا أنا... إذا أنا فهمْتُ من هذا ٱلتعبيرِ أنَّ حضرتَهُ يعرفُ على ٱلأقلِ أين تُباعُ هذه «التذاكر»... (ضحك) وتفرَّجَ وجهُ ٱلنائبِ العامِّ وخجل.

ـ الرئيس: كنْتُ رجْوتُ ألَّا تكونَ لِلأُولى ثانية، وقلْت: إنَّ معنى هذا كما هو ظاهرٌ ألَّا يكونَ لها ثالثة؛ فهلْ أنا مُحتاجٌ إلى ٱلقوْلِ بِأنَّ ٱلمعنى ٱلمنطقيَّ ألَّا يكونَ لِلثالثةِ رابعة؟...

---

(١) قطّبت: عبست.

(٢) تضرّج: تورّد احمراراً.

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، وأمَّا ٱلصفة، فهذا ٱلقلبُ ٱلمِسْكينُ قلْبُ رجلٍ متزوج؛ ولا تغرنَّكم صوفيَّةُ هذا ٱلقلب، ولا يخدعنَّكم تألّهُهُ وزعمُهُ ٱلسموَّ. إنَّهُ على كلِّ حالٍ يعشقُ راقصة، وهذا ٱعتداءٌ في ضِمنِهِ ٱعتداء، على ٱلزواجِ وعلى ٱلشرف؛ وَهبُوهُ متصوِّفاً متألِّهاً ولم يتَّصلْ بِٱلراقصةِ، فهو على كلِّ حالٍ قد أخذَها وٱتخذَها ولكنْ بأسلوبِهِ ٱلخاصّ... وبهذا ٱقترفَ ٱلجريمة؛ آه! إنَّ هذه ٱلقضيةَ ناقصة؛ وذلك نقصٌ فيها أخشى أنْ يكونَ نقصاً في ٱلحكم أيضاً، فأتمُّوهُ أنتم. يا حضراتِ ٱلمستشارين، إنَّ ٱلنقصَ فيها أنَّها لا شهودَ فيها؛ ولكنْ هذا عملٌ إلهيٌّ لا يظهرُ إلَّا يومَ تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بِما كانوا يعملون.

ـ المحامية: هذا تعبيرٌ أكبرُ من قُدرةِ قائلِهِ ومن منزلتِهِ ووظيفتِه، هذا تعبيرٌ جسور[1]! يا حضرةَ ٱلنائب، مَنِ ٱلذي لا يحملُ شهوداً في لِسانِهِ ويديهِ ورجليهِ، بلْ ألفَ شاهدٍ على ليلةٍ واحدة... يجبُ أنْ يكونَ مفهوماً بينَنا يا حضرةَ ٱلنائبِ أنَّ ٱلنونَ وٱلباءَ في لفظةِ (نائب) غيرُ ٱلنونِ وٱلباءِ في لفظةِ (نبيّ).

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين. لا أرى مِمَّا يُحرجني في ٱلاتهام أنْ أُصرِّحَ لكم أنَّ مِمَّا حيَّرني في هذه ٱلجريمةِ أنْ ليسَ فيها من أوصافِ ٱلجرائمِ إلَّا ثلمَ ٱلكرامة، فلا قَذْفَ ولا سَبَّ ولا هَتْكَ عرضٍ ولا فجور، ولا أصغرَ من ذلكَ، ولا كأسَ خمرٍ للراقصة...

ـ المحامية: لا أرى أمامَ حضرةِ ٱلنائبِ كأسَ ماء، وسيجِفُّ حلقُهُ في هذه ٱلقضيَّة؛ فلعلَّ ٱلمحكمةَ تأمرُ لي بكأس... (ضحك).

ـ النائب: يا حضراتِ ٱلمستشارين، يعشقُ راقصة؛ اِسمُ فاعل من رقصَ يرقص؛ ٱمرأةٌ لا تلبسُ ثِياباً، بلْ عُرياً في شكلِ ثياب... ٱمرأةٌ لا كَٱلنساء، كذبُها هو صِدْقٌ من شفتيها، لِماذا؟ لأنَّهما حمراوانِ رقيقتانِ عذبتانِ محبوبتانِ مطلوبتانِ...

المحامية: تضحك...

ـ النائبُ بعدَ أنْ تتعتع: اِمرأةٌ لا كَٱلنساء، جعلَتْها ٱلحِرْفةُ ٱمرأةً في ٱلعمل، ورجلاً في ٱلكَسْب...

---

(١) جسور: جريء.

ـ المحامية: ولكنَّكَ لا تدري أي جِملٍ سقطَتْ فيهِ ٱلمسكينةُ، وقد يكونُ في ٱلرذائلِ رذائلُ كبعضِ أصحابِ ٱلألقاب: ذاتُ عظمة...

ـ النائب: يحبُّ راقصة، أي يضعُها في عقلِهِ ٱلباطنِ ويشتهيها؛ نعم يشتهيها، فمِنْ عقلِهِ ٱلباطِن، وبتعبيرِ ٱللغة، من واعيتِه ـ تخرجُ ٱلجريمةُ أو على الأقلّ، فكرةُ ٱلجريمة.

وَالصيتُ ٱلأدبيُّ يا حضراتِ ٱلمستشارين؟ هلْ من كرامةٍ لِمَنْ يعشقُ راقصة؟ لا بلْ هلْ من كرامةٍ في ٱلحُبّ؟ ألم يقولوا: إنَّ كرامةَ ٱلرجلِ تكونُ تحتَ قدمي ٱلمرأةِ ٱلمعشوقةِ كَٱلممسحةِ ٱلخشنةِ تمسحُ فيها نعليها!

الحُبُّ؟ ما هو ٱلحُبُّ؟ إنَّهُ ليسَ فكرة، بلْ هو شيطانٌ يتلبَّسُ لِجسمِ ٱلعاشقِ لِيَعملَ أعمالَهُ بأداةٍ حيَّة، وهذا ٱلتركيبُ ٱلحيوانيُّ لِلإنسانِ هو ٱلذي يُهيىءُ مِنَ ٱلحبِّ مداخلَ ومخارجَ لِلشياطينِ في جسمِهِ؛ وهلْ رَضِيَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ بِجنايةِ قلبِهِ عليه، وعظيمِ ما ٱنتهكَ من أخلاقِهِ ٱلسامية؟ هلْ رَضِيَ بعِشْقِهِ راقصة؟ إنَّهُ لم يرضَ ٱلرضى ٱلصحيح، أو رَضِيَ بِقدرٍ ما؛ فعلى كليهما يقومُ في نفسِهِ مانع؛ وٱلمانعُ مِنَ ٱلرضى هوَ ٱلمُوجِبُ لِلْعقوبة.

ـ المحامية: ولكنَّ قدراً مِنَ ٱلرضى ينزلُ بِٱلجنايةِ فيرُدها إلى جُنْحَةٍ كما في ٱلقانونِ ٱلإنجليزيّ، وقد قرَّرَ ٱلشرَّاحُ أنَّهُ ما دامَ ٱلرضى غيرَ مستلبٍ بِكُلِّه، فَٱلجريمةُ غيرُ واقعةٍ بِكُلِّها.

ـ النائب: جُنْحَةُ كلِّ قلْبٍ هي جِنايةٌ من هذا ٱلقلْبِ بِخُصوصِه، على طريقةِ «حَسناتُ الأبرارِ سيئاتُ ٱلمقرَّبين»؛ وٱلعِبرةُ هنا بِٱلواقعِ لا بِٱلصفةِ ٱلقانونيَّة، وقد قرَّر ٱلشراحُ أنَّ ٱلواقعَ قد يكونُ أحياناً سبباً في تشديدِ ٱلعُقوبة، فلا بُدَّ من تشديدِ ٱلعُقوبةِ في هذه ٱلقضيَّة. لا أطلبُ ٱلحُكْمَ بِٱلمادة ٢٣٠ عقوبات بل بِٱلمواد من ٢٣٠ إلى ٢٤١ ضربة واحدة.

ـ المحامية: قد نسيْتَ أنَّ هذا قلْبٌ وعقوبتُهُ عقوبةٌ لصاحِبِهِ ٱلبريء.

ـ النائب: إذن أطلبُ عِقابَهُ بُحرمانِهِ ٱلجمال: وهذا أشقُّ عليهِ مِنَ ٱلعِقابِ بِٱثنتي عَشْرةَ مادةً وبعشرينَ وثلاثين.

الرئيس: وما هي ٱلطريقةُ لِتنفيذِ ٱلحكم بهذا ٱلحِرْمان؟

النائب: تأمرُ ٱلمحكمةُ بالمراقصِ كلِّها فتُغْلق، وبِٱلمسارحِ كلِّها فتُقفل، وبِالسينما فتُبطلُ إلّا ما لا جمالَ فيهِ منها ولا غزَل ولا حُبَّ، ويُحرمُ ٱلسفورُ على ٱلنساءِ إلّا ٱلعجائزَ وَٱلدميمات[1]، ويُمنعُ نشرُ صورِ ٱلجمالِ في ٱلصحفِ وَٱلكتب، و . . .

المحامية: قلْ في كلمةٍ واحدة: يجبُ إصلاحُ ٱلعالمِ كلِّهِ لإِصلاح ٱلقلْبِ ٱلإنسانيّ!

* * *

وجلسَ ٱلنائب، فَٱلتفتَ ٱلرئيسُ إلى ٱلمحاميةِ وقال لها: وأما هو؟ . . .

(١) الدميمات: البشعات.

القلب المسكين
تتمة

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: ووقفَتِ ٱلمحاميةُ وكأنَّها بينَ ٱلحُراسِ تزدحِمُ عليها من كلِّ ناحية، وقد ظهَرتْ لِلْموجودينَ ظهورَ ٱلجمالِ لِلحبّ، ونقلتْهم في ٱلزَّمنِ إلى مثلِ ٱلساعةِ ٱلمصوَّرةِ ٱلتي ينتظِرُ فيها ٱلأطفالُ سماعَ ٱلقصةِ ٱلعجيبة؛ ساعةٍ فيها كلُّ صورِ ٱللذةِ لِلْقلب.

وكانَتْ تُدافعُ بِكلامِها ووجهُها يُدافعُ عن كلامِها، فلو نطقَتْ غيّاً أو رُشداً فلهذا صَوابٌ ولهذا صوابٌ، لِأَنَّ أحَد ٱلصوابينِ منظورٌ بالأعين.

كانَ صوتُ ٱلنائبِ ٱلعامِّ كلاماً يُسْمَعُ ويُفهم: أمَّا صوتُ ٱلمحاميةِ ٱلجميلةِ فكانَ يُسمعُ ويُفهمُ ويُحسُّ ويُذاق، تُلقيهِ هي من ناحيةِ ما يُدْرَك، وتتلقَّاهُ ٱلنفسُ من ناحيةِ ما يُعشَق؛ فهو مُتَّصِلٌ بِحقيقتينِ من معناهُ ومعناها، وهو كلُّهُ حلاوةٌ لِأَنَّهُ من فمِها ٱلحلو.

* * *

وبدأَتْ فتناوَلتْ من أشيائِها مِرآةً صغيرةً فنظرتْ فيها.

ـ النائب العام: ما هذا يا أستاذة؟

ـ المحامية: إنَّكم تزعمون أنَّ هذه ٱلجريمةَ تأليفُ عينيَّ، فأنا أسألُ عينيَّ قبلَ أنْ أتكلَّم!

ـ النائب: نعم يا سيِّدتي، ولكنِّي أرجو ألَّا تُدخلي ٱلقضيَّةَ في سِرِّ ٱلمرأةِ وأخواتِها... إنَّ ٱلنيابةَ تخشى على ٱتهامِها إذا تكحَّلَتْ لغةُ ٱلدفاع!

فضحكَتِ ٱلمحاميةُ ضِحْكةً كانَتْ أولَ ٱلبلاغةِ ٱلمؤثرة...

ـ النائب: مِنَ ٱلوقارِ ٱلقانونيِّ أنْ تكونَ ٱلمحاميةُ ٱلفتَّانةُ غيرَ فتانةٍ ولا جذَّابةٍ أمامَ ٱلمحكمة.

ـ المحامية: تُريدُ أنْ تجعلَها عجوزاً بأمِر ٱلنيابة...؟ (ضحك).

ـ النائب: جمالُ حسناء، في ظرفِ غانية، في شمائلِ راقصة، في حماسةِ عاشقة، في ذكاءِ مُحامية، في قُدرةِ حُبّ ـ هذا كثير!

ـ المحامية: يا حضراتِ ٱلمستشارين، لم تكنِ ٱلمرآةُ هفوةً من طبيعةٱ ٱلمرأة، ولكنَّها ٱلكلمةُ الأولى في ٱلدفاع، كلمةٌ كانَ ٱلجوابُ عنها مِنَ ٱلنائبِ ٱلعامِّ أنَّهُ أقرَّ بتأثيرِ ٱلجمالِ وخَطَرِه، حتى لقد خشيَ على ٱتهامِهِ إذا تكحَّلَتْ لَهُ لغتي.

ـ القضاة يتبسمون.

ـ النائب: لم أزدْ على أنْ طلبْتُ ٱلوقارَ ٱلقانونيّ، ٱلوقار، نعمِ ٱلوقار؛ فإنَّ ٱلمحاميةَ أمامَ ٱلمحكمة، هيَ متكلمٌ لا متكلمة.

ـ المحامية: متكلمٌ بِلِحيةٍ مُقدَّرةٍ منعَ من ظهورِها ٱلتعذُّر (ضحك)...

كلا يا حضرةَ ٱلنائب؛ إنَّ لهذه ٱلقضيَّةِ قانوناً آخرَ تُنتزعُ منه شواهدُ وأدلَّة؛ قانونَ سحرِ ٱلمرأةِ لِلرجل، فلو ٱقتضاني أنْ أرقصَ لَرقصْت، أو أُغنيَ لَغنَّيْت، أو سحرَ ٱلجمالِ لَأَثبتُّهُ أولَ شيءٍ في النائب...

ـ الرئيس: يا أستاذة!

ـ المحامية: لم أُجاوزِ ٱلقانون، فَٱلنائبُ في جريمتِنا هو خصمُ ٱلقضية، وهو أيضاً خصمُ ٱلطبيعةِ ٱلنسويَّة.

ـ النائب: لو حدثَ من هذا شيءٌ لَكَانَ إيحاءً لِعواطفِ ٱلمحكمة... فأنا أحتج!

ـ المحامية: إحتجَّ ما شئْت، ففي قضايا ٱلحُبِّ يكونُ ٱلعذْلُ عدلين؛ إذْ كانَ ٱلاضطرارُ قد حكمَ بِقانونِهِ قبلَ أنْ تَحكُمَ أنت بِقانونِك.

النائب: هذهِ ٱلعُقْدةُ ليْسَتْ عُقْدةً في منديلٍ يا سيدتي، بلْ هي عُقْدةٌ في ٱلقانون.

ـ المحامية: وهذه القضيةُ ليسَتْ قضيةَ إخلاءِ دارٍ يا سيِّدي، بلْ هي قضيةُ إخلاءِ قلْب!

ـ الرئيس: الموضوع، الموضوع!

ـ المحامية: يا حضراتِ ٱلمستشارين، إذا ٱنتفى ٱلقصدُ ٱلجِنائيُّ وجبَتِ ٱلبراءة. هذا مبدأٌ لا خِلافَ عليه؛ فما هو ٱلفعلُ ٱلوجوديُّ في جريمةِ قلْبيَ ٱلمسكين؟

ـ النائب: أوّله حبُّ راقصة.

ـ المحامية: آه! دائماً ٱلوصف؟ هبوها في معناها غيرَ جديرةٍ بأنْ يعرفَها لِأَنَّهُ رجلٌ تقيٌ، أفليسَتْ في حُسْنِها جديرةً بأنْ يُحبَّها لِأَنَّهُ رجلٌ شاعر؟ أُحكموا يا حضراتِ ٱلقضاة؛ هذه راقصةٌ ترتزقُ وترتفِق، ومعنى ذلك أنها رَهْنٌ بأسبابها، ومعنى هذا أنَّها خاضعةٌ لِلْكلمةِ ٱلتي تَدفع... فلِماذا لم ينلْها وهي متعرِّضةٌ له، وكِلاهما من صاحبِهِ على ٱلنهاية، وفي آخرِ أوصافِ ٱلشوْق؟ أليسَ هذا حقيقاً بإعجابِكُمُ ٱلقانونيِّ كما هو جديرٌ بإعجابِ ٱلدينِ وٱلعقْل؟ وإنْ لم يكنْ هذا ٱلحُبُّ شَهْوَةَ فكر، فما الذي يحولُ دونَها وما يمنعُهُ أنْ يتزوَجَها؟..

ـ القضاةُ يتبسَّمون.

ـ النائب: نسيَتِ ٱلمحاميةُ أنَّها محاميةٌ وٱنتقلَتْ إلى شخصيتِها ٱلواقعةِ على النهايةِ وفي آخرِ أوصافِ ٱلسوق.. فأرجو أنْ ترجِعَ إلى ٱلموضوع، موضوعِ ٱلراقصة.

ـ المحامية: آه! دائماً ٱلراقصة، مَن هيَ هذه ٱلمسكينةُ ٱلأسيرةُ في أيدي ٱلجوع وٱلحاجةِ وٱلاضطرار؟ أليسَتْ مجموعةَ فضائلَ مقهورة؟ أليسَتْ هيَ ٱلجائعةَ ٱلتي لَا تجدُ مِنَ ٱلفاجرين إلَّا لحمَ ٱلميتة؟ نعم إنَّها زلَّت، إنها سقطَت، ولكنْ بِماذا؟ بِٱلفقرِ لا غير، فقرِ ٱلضمير وٱلذمَّةِ في رجلٍ فاسدٍ خدعَها وتركَها، وفقرِ ٱلعدْلِ وٱلرحمةِ في ٱجتماع فاسدٍ خَذلَها وأهملَها! يا لَلرَّحمةِ لِلْيتيمةِ مِنَ ٱلأهل، وأهلُها موجودون! والمنقطعَةِ منَ ٱلناس، وٱلناسُ حولَها!

تقولون: يجبُ ولا يجب، ثُمَّ تَدَعون ٱلحياةَ ٱلظالمةَ تعكِسُ ما شاءَتْ فتجعلُ ما لا ينبغي هوَ ٱلذي ينبغي، وتقلِبُ ما يجبُ إلى ما لا يجب، فإذا ضاعَ مَنْ يضيعُ في هذا الاختلاط، قلْتُمْ لَه: شأنُك بِنفسِك، ونفضْتُم أيديَكم منه فأضعتُمُوه مرَّةً أخرى، ـ ويحكَم يا قوم ـ غيرُّوا ٱتجاهَ ٱلأَسبابِ في هذا ٱلاجتماعِ ٱلفاسد، تُخرِجْ لكم مسببَّاتٍ أخرى غيرَ فاسدة.

تأتي ٱلمرأةُ من أعمالِ ٱلرجلِ لا من أعمالِ نفسِها، فهي تابعةٌ وتظهرُ كأنَّها متبوعة؛ وذلك هو ظُلْمُ ٱلطبيعةِ لِلْمسكينة؛ ومن كونها تظهرُ كأنَّها متبوعة، يظلمُها ٱلاجتماعُ ظُلْماً آخرَ فيأخذُها وحدَها بِٱلجريمة، ويُقالُ سافلة، وساقطة؛ وما جاءَتْ إلَّا من سافلٍ وساقط!

لِماذا أَوْجَبَتِ ٱلشريعةُ ٱلرجمَ بِٱلحِجارةِ على ٱلفاسقِ ٱلمُحْصَن[1]؟ أهيَ تُريدُ ٱلقتلَ وَٱلتعذيبَ وٱلمُثلة[2]؟ كلا؛ فإنَّ ٱلقتلَ مُمْكِنٌ بِغيرِ هذا وبأشدَّ من هذا، ولكنَّها ٱلحِكمةُ ٱلساميةُ ٱلعجيبة: إنَّ هذا ٱلفاسقَ هَدَمَ بيتاً فهو يُرجمُ بِحِجَارتِه!

ما أجلَّكِ وأسماكِ يا شريعةَ ٱلطبيعة! كلُّ ٱلأحجارِ يجبُ أنْ تنتقِمَ لِحجرِ دارِ ٱلأسرةِ إذا ٱنهدم.

تَسْتَسْقِطون ٱلمسكينة، ولو ذكَرْتُم آلامَها لوجَدْتُم في ألسنتِكم كلماتِ ٱلإصلاحِ وٱلرحمةِ لا كلماتِ ٱلذمِّ وٱلعار؛ إنَّها تسعى برذيلتِها إلى ٱلرزق؛ فهل معنى هذا إلَّا أنَّها تسعى إلى ٱلرزقِ بأقوى قوّتِها؟ نعم إنَّ ذلك معنى ٱلفجور، ولكنْ أليسَ هو نفسَهُ معنى ٱلقوتِ أيُّها الناس؟

ـ الرئيسُ وهو يمسحُ عينيه: الموضوع الموضوع!

ـ المحامية: ما هوَ ٱلفعلُ ٱلوجوديُّ في جريمةِ قلبيَ ٱلمسكين؟ ما هو ٱلواقعُ من جريمةٍ يَضرِبُ صاحبُها ٱلمثلَ بنفسِهِ لِلشبابِّ في تسامي غريزتِهِ عن معناها إلى أطهرَ وأجملَ من معناها؟ لَبِئْسَ ٱلقانونُ إنْ كانَ ٱلقانونُ يُعاقِبُ على أمرٍ قد صارَ إلى عملٍ دينيٍّ من أعمالِ ٱلفضيلة!

ـ النائب: ألا يخجلُ من شعورِهِ بأنَّهُ يُحِبُّ راقصة؟

ـ المحامية: ومِمَّ يخجل؟ أمن جمالِ شعورِهِ أمْ من فنِّ شهورِهِ؟ أيخجلُ من عظمةٍ في سموٍّ في كمال؟ أيخجلُ ٱلبطلُ من أعمالِ ٱلحربِ وهيَ نفسُها أعمالُ ٱلنصرِ وٱلمجد؟

أتأذنون يا حضراتِ ٱلمستشارينَ أنْ أَصِفَ لكم جمالَ صاحبتِهِ وأنْ أُظهِرَ شيئاً من سِرِّ فنِّها ٱلذي هو سِرُّ ٱلبيانِ في فنِّه؟

ـ النائب: إنَّها تتماجنُ علينا يا حضراتِ ٱلمستشارين، فَالذي يُحاكَمُ على ٱلسكرِ لا يدخلُ ٱلمحكمةَ ومعه ٱلزجاجة...

ـ الرئيس: لا حاجةَ إلى هذا ٱلنوعِ من ترجمةِ ٱلكلامِ إلى أعمالٍ يا حضرةَ ٱلأستاذة.

---

(١) المحصن: الذي تحصّن بالزواج.

(٢) المثلة: التعذيب والتغرير.

ـ المحامية: كثيراً ما تكونُ ٱلألفاظُ مترجَمةً خطأً بنيَّاتِ ٱلمتكلمينَ بها أو ٱلمُصْغِينَ إليها؛ فكلمةُ ٱلحُبِّ مثلاً قد تنتهي إلى فِكْرٍ منَ ٱلأفكارِ حاملةً معنى ٱلفجور، وهي بعينِها تبلغُ إلى فِكْرٍ آخرَ حاملةً إلى سمّوهِ من سمّوها؛ وعلى نحوٍ من هذا يختلِفُ معنى كلمةِ ٱلحِجابِ عند ٱلشرقيِّينَ وٱلأوروبيِّين؛ فالأصلُ في مدنيَّةِ هؤلاءِ إباحةُ ٱلمعاني ٱلخفيفةِ مِنَ ٱلعِفَّة... وإكرامُ المرأةِ إكرامُ مغازلة... يقولون إنَّ رقمَ ٱلواحدِ غيرُ رقمِ ٱلعشرة، فيضعونَهُ في حياةِ ٱلمرأة، فما أسرعَ ما يجيءُ «الصّفر» فإذا هوَ ٱلعشرةُ بعينِها!

أمَّا الشرقيون فٱلأصلُ في مدنيَّتِهِمُ ٱلتزامُ ٱلعِفَّةِ وإقرارُ ٱلمرأةِ في حقيقتِها، لا جَرَمَ كانَ ٱلحِجابُ هنا وهناك بِٱلمعنيينِ ٱلمتناقضين: الاستبدادُ وٱلعدل، وٱلقسوةُ وٱلرحمة، و...

ـ النائب: وٱمرأةُ ٱلبيتِ وٱمرأةُ ٱلشارع...

ـ المحامية: وبصرُ ٱلقانونِ وعمى ٱلقانون...

ـ الرئيس: وحسنُ ٱلأدبِ وسوءُ ٱلأدب... الموضوع الموضوع.

ـ المحامية: لا وٱلذي شرّفكم بشرفِ ٱلحكم، يا حضراتِ ٱلمستشارين؛ ما يرى ٱلقلبُ ٱلمسكينُ في حبيبتِهِ إلَّا تعبيرَ الجمال، فهو يفهمُها فهمَ ٱلتعبيرِ ككلِّ موضوعاتِ ٱلفنّ، وما بينهُ وبينَها إلَّا أنَّ حقيقةَ ٱلجمالِ تعرَّفَتْ إليهِ فيها، أئِنْ أحسَّ ٱلشاعرُ سِرّاً من أسرارِ ٱلطبيعةِ في منظرٍ من مناظرِها، قُلْتُمْ أجرمَ وأثِم؟...

هذا قلبٌ ذو أفكار، وسبيلُهُ أنْ يُعانَ على ما يتحقَّقُ بهِ من هذا ٱلفنّ، قد تقولون: إنَّ في ٱلطبيعةِ جمالاً غيرَ جمالِ ٱلمرأةِ فلْيأخذْ مِنَ ٱلطبيعةِ وَلْيُعطِ منها؛ ولكن ما ٱلذي يُحيي ٱلطبيعةَ إلَّا أخذُها مِنَ ٱلقلب؟ وما هيَ طريقةُ أخذِها مِنَ ٱلقلبِ إلَّا بِٱلحُبّ؟ وقد تقولون: إنَّهُ يتألَّمُ ويتعذّب؛ ولكنْ سلُوهُ: أهو يتألَّمُ بأدراكِهِ ٱلألَمَ في ٱلحُبّ، أو بإدراكِهِ قسوةَ ٱلحقيقةِ وأسرارَ ٱلتعقيدِ في ٱلخيرِ وَٱلشرّ...؟

إنَّ شعراءَ ٱلقلوبِ لا يكونون دائماً إلَّا في أحدِ ٱلطرفين: هم أكبرُ مِنَ ٱلهمّ، فرحٌ أكثرُ مِنَ ٱلفرح؛ فإذا عشِقوا تجاوزوا موضِعَ ٱلوسطِ ٱلذي لا يكونُ ٱلحُبُّ ٱلمعتدلُ إلَّا فيه؛ ومن هذا فليس لهم آلامٌ معتدِلةٌ ولا أفراحٌ معتدِلة.

هذا قلبٌ مختارٌ مِنَ ٱلقُدرةِ ٱلمُوحِيةِ إليه، فٱلتي يُحبُّها لا تكونُ إلَّا مُختارةً من هذه ٱلقُدرةِ ٱختيارَ مَلَكِ ٱلوحي، وهما بهذا قوتانِ في يدِ ٱلجمالِ لإيداعِ أثرٍ عظيمٍ ملءَ قدرتين كلتا هما عظيمة...

فإنْ قُلْتُمْ إنَّ حُبَّ هذا ٱلقلبِ جريمةٌ على نفسِه، قالَتِ ٱلحقيقةُ ٱلفنيَّة: بلِ ٱمتناعُ هذه ٱلجريمةِ جريمة.

إنَّ خمسين وخمسين تأتي منهما مائة، فهذا بديهيٌّ، ولكنْ ليس أبيْنَ ولا أظهرَ ولا أوضحَ من قولِنا: إنَّ هذا ٱلعاشقَ وهذا ٱلمعشوقةَ يأتي منهما فنّ.

قالَ صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكين: وَٱنصرفَ ٱلقضاةُ إلى غُرفتِهم لِيتداوَلوا ٱلرأيَ فيما يحكمون به، وأوأماتْ ليَ ٱلمحاميَّةُ ٱلجميلةُ تدعونِي إليها، فنهضْتُ أقومُ فإذا أنا جالسٌ وقدِ ٱنتبهْتُ مِنَ ٱلنوم.

جائزة: لِمَنْ يُحسنُ كتابةَ ٱلحكمِ في هذه ٱلقضيَّةِ خمسُ نسخٍ من كتابِ (وحي ٱلقلم)، وتُرسلُ ٱلمقالاتُ (بٱسمِنا إلى طنطا)، وَٱلموعدُ (إلى آخرِ شهرِ يناير هذا) وٱلشرطُ رضى ٱلمحكمين، ومنهم صاحبُ ٱلقلبِ ٱلمسكينِ وصاحبتُه...

انتصارُ الحُبّ

كلُّ ما يُكتبُ عن حبيبينِ لا يُفهمُ منه بعضُ ما يُفهمُ من رؤيةِ وجهِ أحدِهما ينظرُ إلى وجهِ ٱلآخر.

وما تعرفُهُ ٱلعينُ مِنَ ٱلعينِ لا تعرفُهُ بألفاظ، ولكنْ بأسرار...

وَٱلغليلُ ٱلمتسعِّرُ[1] في دم ٱلعاشقِ كجنونِ ٱلمجنون: يختصُّ برأسِهِ وحدَه.

وضمَّةُ ٱلمُحِبِّ لِحبيبِهِ إحساسٌ لا يُستعارُ من صدرٍ آخر، كما لا يُستعارُ ٱلمولودُ لِبطنٍ لم يحملْه.

وكلمةُ ٱلقُبلةِ ٱلتي معناها وضعُ ٱلفم، لن يَنتقلَ إليها ما تذوقُهُ ٱلشفتان!

ويومُ ٱلحبِّ يومٌ ممدود، لا ينتهي في ٱلزمنِ إلَّا إذا بدأَ يومُ ٱلسلْوِ في ٱلزمن...

فهلْ يستطيعُ الخَلْقُ أنْ يصنعوا حَدًّا يفصِلُ بينَ وقتينِ لِينتهيَ أحدُهما...؟

وهبْهم صنعوا ٱلسُّلوانَ من مادةِ ٱلنصيحةِ وَٱلمنفعة، ومن ألفِ برهانٍ وبرهان، فكيف لهم بِٱلمستحيل، وكيف لهم بوضع ٱلسلوانِ في ٱلقلبِ ٱلعاشق؟

وإذا سالَتِ ٱلنفسُ من رِقَّةِ ٱلحُبّ، فبأي مادةٍ تُصنعُ فيها صلابةُ ٱلحجر...؟

* * *

وما هوَ ٱلحُبُّ إلَّا إظهارُ ٱلجِسمِ ٱلجميلِ حاملاً لِلْجسمِ ٱلآخرِ كلَّ أسرارِه، يفهمُها وحدَهُ فيه وحدَه؟

وما هوَ ٱلحبُّ إلَّا تعلُّقُ ٱلنفسِ بِٱلنفسِ ٱلتي لا يملؤها غيرُها بِٱلإحساس؟

وما هوَ ٱلحُبُّ إلَّا إشراقُ ٱلنورِ ٱلذي فيهِ قوَّةُ ٱلحياة، كنورِ ٱلشمسِ مِنَ ٱلشمسِ وحدَها؟

وهلْ في ذهبِ ٱلدنيا ومِلْكِ ٱلدنيا ما يشتري ٱلأسرار، وَٱلإحساس، وذلك ٱلنورُ الحيّ؟...

---

(١) المتسعّر: الملتهب.

فما هوَ ٱلحُبُّ إلّا أنّه هوَ ٱلحُبّ؟

* * *

ما هو هذا السرُّ في الجمالِ ٱلمعشوق، إلّا أنَّ عاشِقَهُ يُدركُهُ كأنَّهُ عقلٌ لِلْعقل؟

وما هو هذا الإدراكُ إلّا ٱنحصارُ ٱلشعورِ في جمالٍ متسلِّطٍ كأنَّهُ قلْبٌ لِلْقلب؟

وما هوَ ٱلجمالُ ٱلمتسلِّطُ بِإنسانٍ على إنسان، إلّا ظهورُ ٱلمحبوبِ كأنَّهُ روحٌ للروح؟

ولكنْ ما هوَ ٱلسرُّ في حُبِّ ٱلمحبوبِ دون سِواه؟. . . هنا تقِفُ ٱلمسألةُ وينقطعُ ٱلجواب.

هنا سِرٌّ خفيٌّ كسرِّ ٱلوحدانيَّة، لِأنَّها وحدانيَّة (أنا وأنت).

* * *

ناقشوا ٱلحُبّ؛ فقالوا: أصبحَتِ ٱلدنيا دنيا ٱلمادة، وَٱلروحانيَّةُ ٱليومَ كَٱلعِظامِ ٱلهرِمَةِ لا تكتسي ٱللحمَ ٱلعاشق. . .

وقالَ ٱلحُبّ: لا بلِ ٱلمادةُ لا قِيمةَ لها في ٱلروح؛ وهذا ٱلقلبُ لن يتحَوَّلَ إلى يدٍ ولا إلى رِجْل. . .

ناقشوا ٱلحُبّ؛ فقالوا: إنَّ ٱلعصرَ عصرُ ٱلآلات، وَٱلعملُ ٱلروحيُّ لا وجودَ لَهُ في ٱلآلةِ ولا مَعَ ٱلآلة. . .

قالَ ٱلحُبّ: لا، يصنعُ ٱلإنسانُ ما شاء، ويبقى ٱلقلْبُ دائماً كما صنعَهُ ٱلخالِق. . .

وقالوا: الضعيفان: ٱلحُبُّ وٱلدين، وَٱلقويان: ٱلمالُ وٱلجاه؛ فبماذا ردَّ ٱلحُ. . .؟

* * *

جاءَ بِلُؤلؤةٍ روحانيَّةٍ في (مسز سمبسون)؛ ووضعَ لها في ميزانِ ٱلمالِ وَٱلجاهِ أعظمَ تاجٍ في ٱلعالـم إدواردَ ٱلثامن «ملكُ بريطانيا ٱلعظمي وإرلندا وٱلممتلكاتِ ٱلبريطانيَّة فيما وراءُ ٱلبحارِ وملك - إمبراطورِ الهند».

وتنافسَتِ ٱلروحانيَّةُ وٱلماديَّة، فرجعَ ٱلتاجُ وما فيهِ إلّا أضعفُ ٱلمعنيينِ مِنَ ٱلقلب.

وأعلنَ ٱلحُبُّ عن نفسِهِ بِأحدثِ ٱختراعٍ في ٱلإعلان، فهزَّ ٱلعالـَم كلَّهُ هَزَّةً صحافيَّة:

الحُبّ. الحُبّ. الحُبّ. . .

* * *

(مسز سمبسون)، تلك ٱلجميلةُ بِنصفِ جمال، ٱلمطلَّقةُ مرتين. هذا هو ٱختيار ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلمعشوقة؛ وكلُّ معشوقةٍ هيَ عذراءُ لِحبيبِها ولو تزوَّجَتْ مرتين؛ هذا هو سِرُّ ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلفاتنةُ كلَّ ٱلفِتنة، وَٱلظريفةُ كلَّ ٱلظرف، وَٱلمرأةُ كلَّ ٱلمرأة، هذا هو فِعْلُ ٱلحُبّ!

ولكنَّها ٱلعقلُ لِلأَعصابِ ٱلمجنونة، وَٱلأنسُ لِلْقلبِ ٱلمستوحش، وَٱلنورُ في ظُلْمةِ ٱلكآبة؛ هذا هو حكمُ ٱلحُبّ!

ومن أجلِها يقولُ ملكُ إنجلترا لِلْعالم: «لا أستطيعُ أنْ أعيشَ بدونِ ٱلمرأةِ ٱلتي أُحبُّها»؛ فهذا هو إعلانُ ٱلحبّ...

* * *

إذا أخذوها عنهُ أخذوها من دمِه، فذلك معنًى مِنَ ٱلذبح.
وإذا ٱنتزعوها ٱنتزعوها من نفسِه، فذلك معنًى مِنَ ٱلقتل.
وهلْ في غيرِها هيَ روحُ ٱللهفةِ ٱلتي في قلبه، فيكونُ ٱلمذهبُ إلى غيرِها؟
لكأنَّهم يسألونه أنْ يموتَ موتاً فيهِ حياة.
وكأنَّهم يُريدون منه أنْ يُجنَّ جنوناً بعقل... هذا هو جبروتُ ٱلحُبّ!

* * *

ولِلسياسةِ حُجَج، وعندَ (مسز سمبسون) حُجَج، وعندَ ٱلهوى...

التاج، الملكيَّة، ٱمْرأةٌ مُطلَقَّة، ٱمرأةٌ مِنَ ٱلشعب؛ فهذا ما تقولُهُ ٱلسياسة.

ولكنَّها ٱمرأةُ قلبِهِ، تزَّوجَتْ مرتينِ لِيكونَ لَهُ فيها إمتاعُ ثلاثِ زوجات؛ وهذا ما يقولُهُ ٱلحُبّ!

وَٱللحظةُ ٱلناعسة، وٱلابتسامةُ ٱلنائمة، وٱلإشارةُ ٱلحالِمة، وكلمةُ (سيدي)؛ هذا ما يقولُهُ ٱلجمال.

وٱنتصرَ ٱلحُبُّ على ٱلسياسة. وأبى ٱلمَلِكُ أنْ يكونَ كَٱلأمِّ ٱلأرملةِ في مِلْكِ أولادِها ٱلكِبار...

* * *

العرشُ يقبلُ رجلاً خَلَفاً من رجل، فيكونُ ٱلثاني كَٱلأول.

وٱلحُبُّ لا يقبلُ ٱمرأةَ خَلَفاً مِنِ ٱمرأة، فلنْ تكونَ ٱلثانيةُ كَٱلأولى.

وطارَتْ في ٱلعالمِ هذه ٱلرسالة: «أنا إدوارد الثامن... أتخلّى عنِ ٱلعرشِ وذريتي من بعدي»!

«وأعلنَ ٱلحُبُّ عن نفسِهِ بأحدثِ ٱختراعٍ في ٱلإعلان؛ فهزَّ ٱلعالمَ كلَّهُ هزةً صحافيَّة».

الحُبّ. الحُبّ. الحُبّ...

قبلةٌ بٱلبارود
لا بٱلماءِ ٱلمقطر . .

حياكُمُ ٱللّٰهُ يا شبابَ ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة؛ لقد كتبْتُمُ ٱلكلماتِ ٱلتي تصرخُ منها ٱلشياطين . . .

كلمات» لوِ ٱنتسبْنَ لٱنتسبَتْ كلُّ واحدةٍ منهُنَّ إلى آيةٍ مِمَّا نزلَ بِهِ ٱلوحيُ في كتابِ ٱللهِ .

فطلبُ تعليم ٱلدينِ لِشبابِ ٱلجامعةِ ينتمي إلى هذه الآية : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾[1] .

وطلبُ ٱلفصلِ بينَ ٱلشبانِ وٱلفتياتِ يرجعُ إلى هذه الآية : ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ .

وطلبُ إيجادِ المثلِ الأخلاقيِّ لِهذه ٱلأُمَّةِ من شبابِها ٱلمتعلِّمِ هو معنى الآية : ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ .

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب ، قوَّةُ ٱلأخلاق ، إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا .

حياكُمُ ٱللّٰهُ يا شبابَ ٱلجامعة؛ لقد كتبْتُمُ ٱلكلماتِ ٱلتي يُصَفِّقُ لها ٱلعالمُ ٱلإسلاميُّ كلُّه .

كلماتٌ ليس فيها شيءٌ جديدٌ عَلى ٱلإسلام ، ولكنْ كلُّ جديدٍ على ٱلمسلمين لا يُوجدُ إلَّا فيها .

كلماتُ ٱلقوَّةِ ٱلروحيَّةِ ٱلتي تُريدُ أنْ تقودَ ٱلتاريخَ مرَّةً أخرى بِقوى ٱلنصرِ لا بِعواملِ ٱلهزيمة .

كلماتُ ٱلشبابِ ٱلطاهرِ ٱلذي هو حركةُ ٱلرقيِّ في ٱلأمةِ كلِّها ، فسيكونُ منها ٱلمحرِّكُ لِلأمةِ كلِّها .

---

(١) الرجس : الدنس .

كلماتٌ ليسَتْ قوانين، ولكنَّها ستكونُ هيَ ٱلسببَ في إصلاح ٱلقوانين. . .

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق: إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا. . .

* * *

يُريدُ ٱلشبابُ معَ حقيقةِ ٱلعِلْمِ حقيقةَ ٱلدين، فإنَّ ٱلعِلْمَ لا يُعلِّمُ لا يُعلِّمُ ٱلصبرَ ولا ٱلصدقَ ولا ٱلذمَّة.

يُريدون قوَّةَ ٱلنفسِ مَعَ ٱلعقْل، فإنَّ ٱلقانونَ ٱلأدبيَّ في ٱلشعبِ لا يضعُهُ ٱلعقلُ وحدَهُ ولا يُنفِّذُهُ وحدَه.

يُريدون قوَّةَ ٱلعقيدة، حتى إذا لم ينفعْهم في بعضِ شدائدِ ٱلحياةِ ما تعلموه نفعهم ما ٱعتقدوه.

يُريدون ٱلسموَّ ٱلدينيَّ، لِأَنَّ فَكْرةَ إدراكِ ٱلشهواتِ بِمعناها هيَ فِكْرةُ إدراكِ ٱلواجباتِ بغير معناها.

يُريدون ٱلشبابَ ٱلساميَ ٱلطاهرَ مِنَ ٱلجنسين، كي تُولَدَ ٱلأُمَّةُ ٱلجديدةُ سامية طاهرة.

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق؛ إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا. . .

* * *

أحسَّ ٱلشبابُ أنهم يفقدون من قوَّةِ ٱلمناعةِ ٱلروحيَّةِ بِقدرِ ما أهملوا مِنَ ٱلدين.

وما هيَ ٱلفضائلُ إلَّا قوَّةُ ٱلمناعةِ من أضدادِها؟ فَٱلصدقُ مناعةٌ مِنَ ٱلكذبِ وٱلشرفُ مناعةٌ منَ ٱلخِسَّة.

وَٱلشبابُ ٱلمثقلُ بِفروضِ ٱلقُوَّةِ هوَ ٱلقُوَّةُ نفسُها؛ وهلِ ٱلدينُ إلَّا فروضُ ٱلقوَّةِ على ٱلنفس؟

وشبابُ ٱلشهواتِ شبابٌ مُفْلِسٌ من رأسِ مالِهِ ٱلاجتماعيّ، يُنفقُ دائماً ولا يكسبُ أبداً!

وَٱلمدارسُ تُخرِّجُ شبانَّها إلى ٱلحياة، فتسألهُمُ ٱلحياة: ماذا تعودَّتُم لا ماذا تعلَّمْتم!

قوَّةُ ٱلأخلاق يا شبابُ، قوَّةُ ٱلأخلاق؛ إنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا. . .

* * *

وأحَسَّ ٱلشبابُ معنى كثرةِ ٱلفتياتِ في ٱلجامعة، وأدركوا معنى هذه ٱلرِّقَّةِ ٱلتي خلقَتْها ٱلحِكْمةُ ٱلخالقة.

وَٱلمرأةُ أداةُ ٱستمالةٍ بِٱلطبيعة، تعملُ بِغيرِ إرادةٍ ما تعملُهُ بِٱلإرادة، لِأَنَّ رؤيَتَها أولُ عملِها.

نعم إِنَّ ٱلمغناطيسَ لا يتحرَّكُ حينَ يجذب، ولكنَّ ٱلحديدَ يتحركُ لَهُ حينَ ينجذب!

ومتى فهِمَ أحدُ ٱلجنسينِ ٱلجنسَ ٱلآخر، فهِمَهُ بإدراكينِ لا بإدراكٍ واحد!

وجمالُ ٱلمرأةِ إذا ٱنتهى إلى قلبِ ٱلرجل، وجمالُ ٱلرجلِ إذا ٱستقرَّ في قلبِ ٱلمرأة...

... هما حينئذٍ معنيان. ولكنَّهما على رغمِ أنفِ ٱلعِلْمِ معنيانِ متزوجان...

* * *

لا، لا؛ يا رجالَ ٱلجامعة، إِنْ كانَ هناكَ شيءٌ ٱسمُهُ حريَّةُ ٱلفِكْرِ فليسَ هناك شيءٌ اِسمُهُ حريَّةُ ٱلأخلاق.

وتقولون: أوربا وتقليدُ أوربا!! ونحن نُريدُ ٱلشبابَ ٱلذين يعملون لاستقلالِنا لا لخضوعِنا لِأوربا.

وتقولون: إِنَّ ٱلجامعاتِ ليست محلَّ ٱلدين، ومنِ ٱلذي يجهلُ أنَّها بهذا صارتْ محلاً لِفوضى ٱلأخلاق.

وتزعمون أنَّ ٱلشبابَ تعلموا ما يكفي مِنَ ٱلدينِ في ٱلمدارسِ ٱلابتدائيَّةِ وَٱلثانويَّةِ فلا حاجةَ إليهِ في ٱلجامعة..

أَفترَوْنَ ٱلإسلامَ دَروساً ٱبتدائيَّةً وثانويَّةً فقط؛ أمْ تُريدونَهُ شجرةً تُغرسُ هناك لِتُقلعَ عندَكم...

لا، لا؛ يا رجالَ ٱلجامعة، إِنَّ قنبلةَ ٱلشبابِ ٱلمجاهدِ تُملأُ بِٱلبارودِ لا بِٱلماءِ ٱلمقطَّرِ...

* * *

إِنَّ ٱلشبابَ مخلوقون لِغيرِ زمنِكم، فلا تُفسدوا عليهمُ ٱلحاسَّةَ ٱلاجتماعيَّةَ ٱلتي يُحسُّونَ بها زمنَهم.

لا تجعلوهم عبيدَ آرائِكم وهم شبابُ ٱلاستقلال؛ إِنَّهم تلاميذُكم، ولكنَّهُم أَيضاً أساتذةُ ٱلأُمَّة.

لقد تكلَّمَ بِلِسانِكم هذا ٱلبناءُ ٱلصغيرُ الذي يُسمَّى ٱلجامعة، وتكلَّمَ بِألسنَتِهِم هذا ٱلبِناءُ الكبيرُ ٱلذي يُسمَّى ٱلوطن.

أمَّا بِناؤكُم فمحدودٌ بِٱلآراءِ وٱلأحلامِ وٱلأفكار، وأمَّا ٱلوطنُ فمحدودٌ بِٱلمطامعِ وٱلحوادثِ وَٱلحقائق.

لا، لا؛ إِنَّ ٱلمسلمينَ ٱلذين هَدَوْا العالم، قد هَدَوْهُ بِٱلروحِ ٱلدينيَّةِ ٱلتي كانوا يعملون بها لا بأحلامِ ٱلفلاسفة.

لا، لا: إِنَّ ٱلفضيلةَ فِطْرةٌ لا عِلْم، وطبيعةٌ لا قانون، وعقيدةٌ لا فكرة؛ وأساسُها أخلاقُ ٱلدينِ لا آراءُ ٱلكتب...

* * *

مَنْ هذا ٱلمتكلِّمُ يقولُ لِلأُمَّة: «الجامعيون لن يقبلوا أنْ يدخلَ أحدٌ في شؤونِهم مهما يكنْ أمرُه»؟

أهذا صوتُ جرسِ ٱلمدرسةِ لِأطفالِ ٱلمدرسةِ تِرن تِرن... فيجتمعون وينصاعون؟

كلا يا رجل! ليسَ في ٱلجامعةِ قالبٌ يُصبُّ فيهِ ٱلمسلمونَ على قياسِكَ ٱلذِي تُريد.

إِنَّ ٱلتعليمَ في ٱلجامعةِ بغيرِ دينٍ يعصمُ ٱلشخصيَّة، هو تعليمُ ٱلرذيلةِ تعليمُها ٱلعالي...

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

قوَّةُ ٱلأخلاقِ يا شباب، قوَّةُ ٱلأخلاق...؛ إِنَّ ٱلخُطوةَ ٱلمتقدِّمةَ تبدأُ من هنا.

شيطان وشيطانة...

شَغَلني ما شَغَلَ ٱلناسَ من حديثِ ٱلجامعةِ ٱلمِصريَّةِ وما أرادَهُ طلبتُها من وَرَعٍ يَحْجزُهم[1] عن محارم ٱللهِ، ودِينٍ يخْلُصُ بهِ ٱلإيمانُ إلى قلوبِهِم، فلا يكونُ لفظُ ٱلمسلِمِ على ٱلمسلِمِ كأنَّهُ مكتوبٌ على ورقة؛ ثُمَّ ٱبتَغَوْهُ مِنَ ٱلفصلِ بينَ ٱلشبانِ وَٱلفتياتِ، تطهيراً لِلطَباعِ ونوازعِ ٱلنفس، وَٱتقاءً لِسوءِ ٱلمخالطة، وبُعداً عن مَطِيَّةِ ٱلإثم، وتوفيراً لِأسبابِ ٱلرجولةِ على ٱلرجلِ ولِصفاتِ ٱلأنوثةِ على ٱلأنثى.

وقرأْتُ كلَّ ما نشَرتْهُ ٱلصحف، وٱستقصيْتُ[2] وبالغْت، ونظرْتُ في ٱلألفاظِ ومعانيها ومعاني معانيها؛ وكنْتُ قبلَ ذلك أتتبَّعُ بابَ «فلان وفلانة» في ٱلمجلاتِ ٱلأسبوعيَّةِ ٱلتي تكتبُ عن حوادثِ ٱلاختلاطِ في ٱلجامعةِ وتُسمِّي ٱلأسماءَ وتَصِفُ ٱلأوصافَ وتذكرُ ٱلنوادر؛ فملأَ كلُّ ذلك صدري وٱجتمعَ ٱلكلامُ يُترجِمُ نفسَهُ إليَّ في رؤيا رأيْتُها وهأنذا أقصُّها:

رأيْتَني عندَ بابِ ٱلجامعةِ وكأني ذاهبٌ لِأقطعَ بِٱليقينِ على ٱلظَّن، وقد عَلِمْتُ أنَّ ٱلظِنَّةَ تقومُ في حِكْمةِ ٱلتشريعِ مقامَ ٱلحقيقة، لِخفائِها وكَثرةِ وجودِها؛ فإنْ كانَ في ٱختلاطِ ٱلجنسينِ ما يُخْشَى أنْ يقَعَ فهو كَٱلواقع...

... ثُمَّ رأيْتُ شيطانَةً قد خرجَتْ مِنَ ٱلجامعةِ ومضَتْ تَتْبعُ أنفَها تَتَشَمَّمُ ٱلهواءَ وتستَرْوِحُهُ كأنَّ فيهِ شيئاً، حتى مالَتْ إلى خَمَرٍ هناك[3] من ذلك ٱلشجرِ ٱلملتفِّ عن يمينِ ٱلطريق، فوقفَتْ عندَهُ تتنفَّسُ وتتنهَّد؛ ثُمَّ تَبَصَّرَتْ فإذا شيطانٌ مُقبلٌ إلى ٱلجامعةِ إقبالَ ٱلمُغيرِ في غارتهِ، فأومأَتْ لَه، فعدَلَ إليها وحيَّاها بتحيَّةِ ٱلشياطين، ثُمَّ قالَ لها: ما وقوفُكِ هنا أيَّتُها ٱلخبيثة؟ وكيف تركْتِ صاحبتَكِ ٱلتي أنتِ موكَّلةٌ بها؟ وما عسى أنْ يعملَ ٱلشيطانُ بينَ ٱلجنسينِ إذا لم تُؤازِرْهُ ٱلشيطانة؟

---

(١) يحجزهم: يصدّهم، يمنعهم.

(٢) استقصيت: فتّشت.

(٣) الخَمَر بالفتح الميم، هو ما وراك من شجر وسواه.

قالَت: إنَّما ٱجتذَبتْني إلى هنا رائحةُ عاشقَينِ كانا في هذا ٱلظلِّ يُواريهما[1] عنِ ٱلأعين، وما أراكَ إلَّا مزكوماً، أفكنْتَ في ٱلأزهر...؟

فجعلَ ٱلشيطانُ يتضاحَكُ وقال: أنا مرسَلٌ من مستشفى ٱلمجانينِ مدداً لِشياطينِ ٱلجامعة؛ فقدِ ٱحتاجوا إلى ٱلنجدة... ولكنْ أنتِ كيف تركْتِ صاحبتَكِ من أجلِ رائحةِ قُبلةٍ على خمسمائةِ متر؟ ما أحسبُها الآنَ إلَّا جالسةً تكتبُ في منعِ ٱختلاطِ ٱلجنسينِ ووجوبِ إدخال ٱلتعليم ٱلدينيِّ في ٱلجامعة!

قالَتِ ٱلشيطانة: إنّ صاحبتي لَأَبرَعُ منيِّ في ٱلبراعةِ، وأدقُّ في ٱلحِيلة. وأهدَى لِلمعاذير، وأنفَذُ إلى ٱلغرض، ومثلُها قليلٌ هنا، ولكنْ قليلُ ٱلشرِّ ليسَ قليلاً، فإنَّهُ وُصْلَةٌ وطريقٌ كما تعلم؛ وما تَجِدُ ٱلفتاةُ خيراً من هذا ٱلمكانِ ينفي عنها ٱلرِّيبةَ وهو يُدنيها منها بِهذا ٱلاختلاطِ مَعَ ٱلفتيان، ويُهيءُ لِعقلِها أسباباً تكونُ فيها أسبابُ قلبِها؛ وقد كنْتَ أنتَ في أوربا، أفما رأيتَ هناك شابًّا وشابةً حول كتابِ عِلْمٍ وكأنَّهما على زجاجةِ خمرٍ؟

إنَّ هذا ٱلعِلْمَ شيءٌ ومخالطةَ ٱلشبانِ شيءٌ آخر؛ فذلك يُطلِقُ فكرَها يتجاوزُ ٱلحدود، وَٱلاختلاطُ يجعلُ فِكْرَها، يحصُرها في حدودِ إحساسِها؛ وأحدُهُما يُرهِفُ ذِهْنَها لإدراكِ ٱلأشياء، وَٱلآخرُ يُرْهِفُ عواطفَها لإدراكِ ٱلرجل؛ وقد فرغ ٱللَّهُ من خلقةِ ٱلأنثى فما تُخْلَقُ هنا مرَّةً أخرى على غيرِ ٱلطبيعةِ ٱلمفطورةِ على ٱلحُبِّ في صورةٍ من صورِهِ ٱلمُمْكِنة، وَٱلصورةُ هيَ ٱلشابُ هنا؛ وأنا ٱلشيطانةُ قد تعلَّمْتُ في ٱلجامعةِ أنَّ قاعدة: «لا حياءَ في ٱلعِلْم»، هيَ ٱلتي تُقرِّرُ في بعضِ ٱلأحيانِ قاعدة: «لا حياءَ في ٱلحبِّ!»

قالَ ٱلشيطان: أنتِ أدرَى بِسلطانِ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأة، ولكنَّ ٱلذي أعرفُهُ أنا أنَّ مَفاسِدَ أوربا تدخلُ إلى ٱلشرقِ في أشياءَ كثيرة، منها ٱلخمرُ وَٱلنساءُ وٱلعاداتُ وٱلقوانينُ وٱلكتبُ ونظامُ ٱلمدارس!

قالَتِ ٱلشيطانة: وإنَّ سلطانَ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأةِ يبحثُ دائماً عن رعيتِهِ ما لم يُكْبَحْ[2] ويُردَّ عن ٱلبحث؛ إذْ هو لا يتحققَ أنَّهُ سلطانٌ إلَّا بِنفاذِ حُكْمِهِ وجوازِ أمرِه؛ ومن رعيتِهِ نظَراتُ الإعجابِ، وكلماتُ ٱلثناء، وعِبارَاتُ الإغراء، وعواطفُ ٱلميل، ومعاني ٱلخضوع؛ ورُبَّ كلمةٍ مِنَ ٱلرجلِ لِلْمرأةِ لا يكون فيها شيءٌ ويكونُ ٱلرجلُ

---

(١) يواريهما: يسترهما.

(٢) يكبح: يشدّ ويمنع.

كلُّهُ فيها ذاهباً إلى قلبِها متدسِّساً إلى خيالِها؛ وكم من أمٍّ ترى ٱبنتَها راجعةً إلى ٱلدارِ وتُحسُّ بِٱلغريزةِ ٱلنسويَّةِ أنَّ معَ ٱبنتِها خيالاً مِنَ ٱلجنسِ ٱلآخر!.

وممَّ ينبعثُ ٱلحُبُّ إلَّا مِنَ ٱلألفةِ وَٱلمخالطةِ وَٱلمُجاذبةِ وَٱلمُنازعةِ التي يُسمُّونها هنا مُنافسةً بينَ ٱلجنسينِ ويعدُّونها حسنةً من حسناتِ ٱلاختلاط؟ نعم إنَّها مَشْحَذَةٌ لِلأذهانِ وداعيةٌ إلى بلوغِ ٱلغايةِ مِنَ ٱلاجتهاد، وبها يَرِقُّ ٱللسانُ وتنحلُّ عُقدَتُه، ويُصبحُ ٱلشابُّ كما يقولون: «ٱبنَ نكتةٍ ويفهمُ ٱلطايره...» وتعودُ ٱلفتاةُ وهيَ تجتهدُ أنْ تكونَ حلاوةً تَذُوقُها ٱلروح؛ ولكنَّ ٱلأعمالَ بِٱلنيَّاتِ وٱلأمُورَ بِخواتيمِها: وَٱلطبيعةُ نفسُها تُوازِنُ ٱلعقلَ ٱلعِلْمِيَّ بِٱلجهْلِ ٱلخُلُقيِّ، ولعلَّ أكثرَ ٱلناسِ فنوناً في فِسقِهِ وفُجورِهِ لا يكونُ إلَّا عالِماً من أهلِ ٱلفنِّ أو زِنديقاً من أهلِ ٱلعِلْم، ولا يُصحِّحُ هذه ٱلمُوازنةَ إلَّا الدين، فهوَ ٱلذي يُقرِّرُ ٱلقواعدَ ٱلثابتةَ في كلتا ٱلناحيتين، وهذا ما يطلبُهُ ٱلمجانينُ من شُبانِ هذه ٱلجامعةِ ويُوشكُ أنْ يظفروا بِه، لولا أنَّ هذه ٱلأُمَّةَ مبتلاةٌ في كلِّ حادثةٍ من دِينِها بإجالةِ ٱلرأيِ حتى يضيعَ الرأي.

اِسمعْ ـ ويحكَ ـ هذا ٱلفتى ٱلذي يقرأ... فألقَى ٱلشيطانُ سمعَهُ فإذا طالبٌ يقرأُ على جماعةٍ كلاماً في صحيفةٍ لإِحدى خريجاتِ ٱلجامعةِ تقول فيه: «ولهذا أُصرِّحُ أنَّ تجربةَ ٱشتراكِ ٱلجنسينِ في ٱلجامعة نجحَتْ إلى أبعدِ غاية: ولم يحدثْ خِلالَها قطُّ ما يدعو إلى قَلَقِ ٱلقَلِقِينَ وَٱلمُناداةِ بِٱلفصل؛ بلْ بِٱلعكسِ حدثَ ما يدعو إلى تشجيعِ ٱلأخذِ بِٱلتجربةِ أكثرَ مِمَّا هي عليهِ ٱليوم».

فقهقَهَ ٱلشيطانُ وقال: «قَلَقُ ٱلقلِقِين»... ما رأيْتُ كلاماً أغلظَ ولا أجفَى من هذا؛ إنَّها لو دافعَتْ عنِ ٱلشيطانِ بهذه ٱلقافاتِ لَخَسِرَ ٱلقضيَّة...

ثُمَّ إنَّه لَهَزَ[1] ٱلشيطانةَ لَهْزةً وقالَ لَها: كذبْتِ عليَّ أيَّتُها ٱلخبيثة، فما لَكِ عملٌ في ٱلجامعةِ وأنت تخرجينَ لِرائحةِ قُبلةٍ بينَ عاشقينِ على مسافةِ خمسمائةِ متر؛ إنَّ هذه ٱلقافاتِ لَهِيَ ٱلدليلُ أقوَى ٱلدليلِ على أنَّ ٱلفتاةَ هنا تُنظَرُ فتاةً حين تُرَى، ولكنَّها تُسمَعُ رجلاً حينَ تتكلَّم!

قالتِ ٱلشيطانة: ولكنْ ألم تسمعْ قولَها: «تشجيعُ ٱلتجربةِ أكثرَ مِمَّا هيَ عليهِ ٱليوم»...؟ ألا يُرضيكَ هذا ٱلذي لا بُدَّ أنْ يدعُوَ «إلى قلَقِ القلِقين؟» ثُمَّ إنِّي أنا

---

(١) لهز: وكز.

فلانةُ ٱلشيطانةُ قد كنْتُ ٱلسببَ في حادثةٍ وقعَتْ وطُرِدَ فيها طالبٌ مِنَ ٱلجامعة، أفلا يُرضيك ٱلإغراءُ وَٱلكذبُ في بضعِ كلمات؟

قالَ ٱلشيطان: كلَّ ٱلرضى، فهذا فنٌّ آخر؛ وَٱلعِلْمُ ٱلذي يُنكرُ حادثةً وقعَتْ من تلميذةٍ ولا يُقِرُّ بأنَّها وقعَت، لا يكونُ إنكارُهُ إلَّا إجازةً لِوقوعِ مثلِها!

قالَتِ ٱلشيطانة: وَهَبِ[1] ٱلحادثةَ لم تقع، فكيف تعرفُ ٱلجامعةُ ما يحدثُ في ٱلقلوب؟ ومَنْ هذا ٱلذي يستطيعُ أنْ يقرأ قصةً تُؤلِّفُها أربعُ أعينٍ في وجهين؟ وكيف تُكشَفُ ٱلحقيقةُ ٱلتي أولُ وجودِها كِتمانُ ٱلكلام عنها، وأولُ ٱلكلام عنها ٱلهمسُ بينَ ٱثنينِ دونَ غيرِهما؟ ومَنْ ذا ٱلذي في طاقتِهِ أنْ يمدَّ يدَهُ إلى قلبينِ أصبحا في تلقِّي ٱلرسائلِ كصندوقَيِ ٱلبريد...؟

إِسمعْ إِسمعْ هذا ٱلآخر... فٱسترقَ ٱلشيطانُ ٱلسمعَ فإذا طالبٌ يقرأُ في صحيفةٍ أخرى على جماعتِه:

«والذين يزعمون أنَّ ٱلاتصالَ بينَ ٱلطالباتِ وَٱلطلبةِ خطر، إنَّما يُسيئون إلى أخلاقِكم... وَٱلحقُّ أيُّها الأصدقاءُ أنَّ ٱلذي حملَني على أنْ أغضبَ وأثورَ إنَّما هُوَ ٱلدفاعُ عنِ ٱلكرامةِ ٱلجامعيَّة».

قالَ ٱلشيطان: كلَّ ٱلرضا كلَّ ٱلرضا... هذا كلامُ داهيةٍ أَريب[2]، فلقد أحسنَ قاتلَهُ ٱللهُ! إنَّها عِباراتٌ جامعيَّةٌ مُحْكَمةُ ٱلسبكِ تقومُ على أصولِها من فنِّ ٱلسياسةِ ٱلخطابيَّة؛ وكلُّ من ظَنُّوهُ بِتُهمةٍ فلا يستطيعُ أنْ يُمَخْرِقَ[3] على ٱلناسِ بأحسنَ من هذا ولا بمثلِ هذا.

وليس لنا أقوى من هذا ٱلطبعِ ٱلقويِّ ٱلذي يُشعِرُ بِٱلنقصِ فلا همَّ لَهُ إلَّا إثباتُ ذاتِهِ في كلِّ ما يُجادِلُ فيه دون إثباتِ ٱلصوابِ ولو كانَ ٱلناسِ جميعاً في هذا ٱلجانبِ وكانَ هو وحدَهُ في جانبِ ٱلخطأ.

ولكن أفٍّ! ماذا صنعَ هذا ٱلقائل؟ وأين ٱلتهمةُ ٱلتي لا تُبدِّلُ ٱسمَها في ٱللغة؟ وأين ٱلذنبُ ٱلذي يَرْضى أنْ تُوضعَ ٱليدُ عليهِ؟ وهلْ إنكارُ ٱلمُذنبِ إلَّا ٱحتجاجٌ من كرامتِهِ ٱلزائفةِ وإظهارُ ٱلغضبِ في بعضِ ألفاظ؟...

إنَّ هذا كغيرِهِ مِنَ ٱلضعفاءِ حين يُمارون[4]؛ ألا ما أكذبَ ٱلكذبَ هنا! فإنَّ

---

(١) هب: افترض.
(٢) أريب: ذكي.
(٣) يمخرق: يشعوذ ويأتي بالأكاذيب.
(٤) يمارون: يتظاهرون بشيء ويضمرون خلافه.

ٱلفسادَ لَيَقعُ مِن ٱختلاطِ ٱلجنسينِ في ٱلجامعاتِ ٱلأوربيَّةِ ثُمَّ لا يُعدُّ ذلك عندَهم إساءةً إلى ٱلأخلاقِ، ولا غَضاً مِنَ ٱلكرامةِ ٱلجامعيَّة؛ وفي فرنسا يجتمعُ ٱلشبانُ وَٱلفتياتُ من طلبةِ ٱلجامعةِ ويحتسونَ ٱلخمرَ ويتراقصون ويتواعدون ثُمَّ لا تقولُ لهُمُ ٱلأخلاق: أين أنتم؟... وهناك في ٱلأنديةِ ٱلخاصَّةِ بِٱلطلبةِ ينتخبونَ ملكةَ ٱلجمالِ من بين ٱلطالباتِ كلَّ سنة، ثُمَّ ينزعون بأيديهم ثيابَها ٱلتي تُسمَّى ثياباً، ويطوفونَ بها غرفَ ٱلنادي كعروسٍ واحدةٍ مجلوَّةٍ على مائةِ زوجٍ في ٱلمعنى، «وبُلُنْسوار» أيتُّها ٱلكرامةُ ٱلجامعيَّة...

وَٱلاختلاطُ هناك يقربُ أنْ يكونَ ضَرْباً مِنَ ٱلمذاهبِ ٱلاشتراكيَّة، وكلُّ ما بقيَ عندَهم من لُغةِ ٱلحياءِ هو أنْ يتلَطَّفوا[1] فيقولوا: إن هذه ٱلطالبةَ صديقةُ فلانٍ ٱلطالب؛ يعبِّرون بِلفظِ ٱلصداقةِ عن أولِ ٱلمعنى ويَدَعون سائرَ أحوالِه؛ إذْ لا يُبالي أمرَهما أحدٌ لا مِنَ ٱلطلبةِ ولا مَنَ ٱلأُستاذين... وهناك يُعْتَذَرُ لِلشابِّ في مثلِ هذا بأنَّهُ شابٌّ، فتقومُ كلمةُ ٱلشبابِ في ٱلعُرْفِ بمعنى كلمةِ ٱلضرورةِ في ٱلشرْع!

وهم قد عرفوا أنَّ ٱلجامعةَ لِحريَّةِ ٱلفِكْر، ومن حريَّةِ ٱلفِكْرِ حريَّةُ ٱلنزعة، ومن هذه حريَّةُ ٱلميلِ ٱلشخصيّ، ومن حريَّةِ ٱلميلِ حريَّةُ ٱلحُبّ؛ وهلْ يعرفُ ٱلحبُّ في ٱلجامعةِ أنَّهُ في ٱلجامعةِ فيستحي ويكونُ شيئاً آخرَ غيرَ ما هو في كلِّ مكان؟ أَوَ ليسَ في لغةِ ٱلزواجِ عندَهم عِبارة «نسيانُ ماضي ٱلفتاة»...

ولكنِ ٱسمعي ٱسمعي...

فأصاخَتِ ٱلشيطانة؛ فإذا طالبٌ مِنَ ٱلأزهرِ يقرأُ لِطالبٍ من كليَّةِ ٱلحقوقِ في صحيفةٍ من دفاعِ أحدِ خريجي ٱلجامعة!

«وما بالُ إخوانِنا ٱلأزهريين يسخطون على ٱلجامعةِ وَٱختلاطِ ٱلجنسينِ فيها، وفي مِصرَ نَواحٍ أخرى هيَ أَحقُّ بِحربِهم وأولى بِٱهتمامِهم؟ لعلَّهم قد نسوا حالَنا في ٱلصيفِ على شَواطئِ ٱلبحر، وَٱلناسُ يمكثونَ[2] هناك شهوراً عراياً أو كَٱلعرايا».

فقالَتِ ٱلشيطانة: مالَهُ ولهذا؟ لقد أخزَى نفسَهُ وأخزَى ٱلجامعة، وهلْ صنعَ شيئاً إلَّا نَّهُ يقولُ لِلأزهريّين: إنَّ أهونَ ٱلفسادِ من هذا ٱلاختلاطِ في ٱلجامعة، وأكثرَهُ في شواطِئِ ٱلبحر؛ فما بالكُم تَدَعون أَشدَّهُ وتأخذون على أهونِه؟

---

(١) يتلطفوا: يتصنّعوا اللطف والدماثة.

(٢) يمكثون: يبقون.

قالَ ٱلشيطان: ويحَه! وهلْ يأخذون على أهونِهِ في ٱلجامعةِ إِلَّا لِأَنَّهُ في ٱلجامعةِ لا في مكانٍ آخر؟ ولكنِ ٱسمعي، ما هذا...؟

فأرْعَيَا ٱلصوتَ[1] سمعَهما، فإذا طالبٌ يقرأُ في مجلة: «ظهرَتِ ٱلآنسةُ فلانةُ وهيَ تلبسُ فستاناً أحمرَ شفتشي بمبي[2] كربي مشجَّر ببنتّى وفيونكة أحمرَ على أبيض»...

قالَتِ ٱلشيطانة: هذا هذا، فهل هيَ إِلَّا ألوانُ أفكارٍ تحتَ ألوانِ ثياب؟ وهلْ يظهَرُ سُلطانُ ٱلطبيعةِ في ٱلمرأةِ باحثاً عن رَعيتِهِ إِلَّا في ألوانٍ جميلةٍ هي، أسئلةٌ لِلْعيون؟ لقد مثَّلَ سَرْبٌ[3] مِنَ ٱلطالباتِ في هذه ٱلجامعةِ فصلاً في بعض ٱلحفلاتِ سمَّوهُ «عرضُ الأزياء» وَٱلفتاةُ تعرضُ ٱلثوب، وَٱلثوبُ يعرضُ ٱلجِسْم، وٱلجِسْمُ وٱلثوبُ معاً يعرضانِ ٱلفتاة! وعرْضُ الأزياءِ في ٱلجامعةِ هو أمرٌ مِنَ ٱلجامعةِ بإهمالِ هذه الآية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾!

قال ٱلشيطان: خَبِّريني عن صاحبتِك ٱلتي أنتِ موكلةٌ بها، أترينَها كانَتْ تأتي إلى هذه ٱلجامعةِ لو ألبسوهُنَّ مثلَ ثوبِ ٱلراهبةِ وخمَّروهُنَّ[4] بِٱلخِمارِ وأضاعوا مساحةَ ٱلجِسْمِ في مِسَاحةِ ٱلثوبِ وأجلسوهُنَّ في آخرِ ٱلصفوفِ كأنهُنَّ في ٱلمسجد؟ لقد فعلوا مثلَ هذا في بعضِ جامعاتِ أوربا، فحرَّموا صَبْغَ ٱلشفاهِ على ٱلفتيات، ومنعوهُنَّ إبداءَ ٱلزينة؛ فٱمتنعَتِ ٱلزينةُ وٱلمتزيِّنة معاً، وهجَرنَ ٱلجامعة، وقلْنَ فيما قلْنَ: إنَّ ٱلمرأةَ وَٱلأحمرَ وَٱلأبيضَ ونحوَها هيَ ٱلحقائقُ في عِلْمِ ٱلمرأة، وهيَ مِنْ أساليبِ بحثِ كلِّ فتاةٍ عن رَجُلِها ٱلمخبوءِ بينَ ٱلرجالِ في ٱلجامعةِ أو غيرِ ٱلجامعة، وٱلعِلْمُ وسيلةُ عيش، وَٱلرجلُ وسيلةٌ مثلُها، غيرَ أَنَّهُ هو أجْدَى[5] ٱلوسيلتينِ على ٱلمرأةِ وأحقُّهما بِٱلعناية، إذ هيَ لا تتزوَّجُ ٱلكيمياءَ ولا ٱلطبيعةَ ولا ٱلقانون، ومعنى هذا بِغَيرِ ٱللغة ٱلتي هنا في ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة أنَّ وجودَ ٱلفتاةِ معَ ٱلشبانِ لِلتعليم، هو كذلك وجودُها بينَهم لِلاستمالةِ وَٱلمُكرِ ٱلنسويِّ ٱلجذاب.

اِسمعي اِسمعي؛ ما هذا ٱلصوتُ ٱلمنكرُ ٱلجافي ٱلخشن؟

فتسمعَت، فإذا ٱلطالبُ ٱلأزهريُّ يقولُ لصاحبِهِ وهو يُحاورُه: قالوا: ويُحرمُ على ٱلمرأةِ أنْ ترى شيئاً مِنَ ٱلرجلِ ولو بلا مَيْلٍ ولا خوْفِ ٱلفِتنة، وإذا هيَ

---

(١) أرعيا الصوت: أنصتا جيداً.

(٢) بمبي: عامية مصرية بمعنى الأبيض.

(٣) سرب: جماعة.

(٤) خمّروهنّ: ألبسوهن الخمار، وهو غطاء الوجه للمرأة.

(٥) أجدى: أنفع.

ٱضطرَّتْ إلى مداواةٍ أو أداءِ شهادةٍ أو تعليمٍ أو بيعٍ أو نحو ذلك ـ جازَ نظرُها بقدرِ ٱلضرورة.

فقالَتِ ٱلشيطانة: هذا كلامٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ... لقد كانَ ذلك سائغاً لو أنَّ ٱلشبانَ يتعلَّمون في ٱلجامعةِ لِيحملوا معهُمُ ٱلحقَّ كما يحملون معهُمُ العِلْم؛ وكيف لهم بهذا ومعاني ٱلدينِ قد أصبحَتْ منهم كَأَسماءِ ٱلبلادِ ٱلبعيدةِ في كتابِ ٱلجغرافيا: لا هم رأوْها ولا هم حقّقوها؟ إنهم يُريدون تعليمَ ٱلدينِ هنا. فيقولُ لهم رؤساؤُهم: ألم تعرفوا ٱلصلاةَ وأنَّها ٱلصلاة، وَٱلصيامَ وأنَّهُ ٱلصيام، وَٱلزكاةَ وأنَّها ٱلزكاة، وَٱلحجَّ وأنَّهُ ٱلحجّ؟ وهذا كلامٌ يُشبهُ درسَ مواقعِ ٱلبلادِ على ٱلخريطةِ، فباريسُ كلمة، ولندنُ كلمة، لا غيرَ؛ أمَّا ٱلحقيقةُ ٱلعظيمةُ ٱلهائلةُ فشيءٌ غيرُ هذا ٱلكلام ٱلجغرافيِّ ٱلتعليميّ؛ إذ ما هيَ كلُّ فروضِ ٱلدينِ إلَّا أعمالٌ دقيقةٌ ثابتةٌ يجبُ فرضُهاَ على ٱلجميعِ لِتحقيقِ ٱلنفسيَّةِ ٱلواحدةِ في ٱلجميع، وهيَ سرُّ ٱلقوَّةِ وَٱلعظمةِ وَٱلنجاح؛ فتعليمُ ٱلدينِ في ٱلجامعةِ هو إقناعُ ٱلنفسِ بجعلِ فروضِهِ من قوانينِها ٱلثابتة، لا بأداءِ هذه ٱلفروضِ فقط؛ وذلك لا يستقيمُ إلَّا بدرْسِهِ كما تُدرسُ فلسفةُ ٱلقوانينِ وٱلاقتصادِ وَٱلتربية، أي بِٱعتبارِهِ عِلْمَ فلسفةِ ٱلروحِ ٱلعمليَّةِ لِلأُمَّة، ثُمَّ يجعلُ ٱلمدرسينَ أولَ ٱلعاملينَ به، لِيتحقَّقَ معنى ٱلإقناع، فلا ينقلبُ ٱلدرسُ هُزْءاً وسخرية؛ وبذلك يخرجُ ٱلشابُ مِنَ ٱلجامعةِ وفي روحِهِ قوةٌ ثابتةٌ تعملُ بِهِ ٱلعملَ ٱلصالح، وتُوجِّهُهُ إلى الخير، وتحفظُهُ بين أهواءِ ٱلحياةِ وشدائدِها، وتجعلُهُ دائماً يشعرُ أنَّهُ في موضعِهِ ٱلسامي مِنَ ٱلإنسانيَّةِ وإنْ كانَ في أقلِّ مراتبِ ٱلمالِ وَٱلجاه، ومِنْ ثَمَّ يرجعُ ٱلشبَّانُ في الأُمَّةِ آلاتِ قوَّةٍ منظمةٍ عامِلة، وأيسرُ ما تعملُهُ هذه الآلات، إزالةُ ٱلمنكرات، وصنعُ ٱلشعبِ صنعةً جديدةً لِلْسلمِ وَٱلحرب، و، و، و، و...

قالَ ٱلشيطان: وماذا أيَّتُها ٱلخبيثة؟ لقد هولَّتِ عليَّ!

قالَتْ: وطَرْدُنا نحن ٱلشياطينَ مِنَ ٱلجامعة!

قال: ٱسكتي ويحَك! فما أُرسلْتُ من مستشفى ٱلمجانينِ إلَّا لِهذا؛ فلنْ يقعَ ٱلفصلُ بينَ ٱلجنسين، ولنْ يدخلَ ٱلتعليمُ ٱلدينيُّ في الجامعة، وسيُدافِعون بِأنَّ هذا كلَّه ضربٌ مِنَ ٱلجنون...........

نهضةُ ٱلأقطارِ ٱلعربيَّة

لا ريبَ في أنَّ ٱلنهضةَ واقعةٌ في ٱلأقطارِ ٱلعربيَّة، مستطيرةٌ في أرجائِها ٱستطارةَ ٱلشررِ يُضرَمُ في كلِّ جهةٍ ناراً حامية، ويستمدُّ من كلِّ ما يتَّصلُ بهِ لِعُنْصُرِهِ ٱلملتهبِ، ولا ريبَ في أنَّ ٱلشرقَ قد تفلَّتَ[1] من أوهامِ ٱلسياسةِ وخُرافاتِها، وقدِ ٱختلَفَ على ٱلغربِ بعدَ أنْ طابقَهُ زمناً، وتابعَهُ مدة، وعرَفَهُ بِمِقْدارِ ما بلاه، وكذَبهُ ما صدقَه، ونفرَ منه بقدرِ ما ٱطمأنَّ إليه؛ ولا ريبَ في أنَّ ٱلعقْلَ ٱلشرقيَّ قد تطوَّرَ وأدركَ معنى نُكْثِ ٱلعهْدِ ونَقضِ ٱلشرْطِ في ٱلسياسةِ ٱلغربيَّة، وعَلِمَ أنَّ ذلك هو بِعينِهِ ٱلعهدُ وَٱلشرْطُ في هذه ٱلسياسةِ ما دامَتِ ٱلمفاوضَةُ وٱلتعاقدُ بَينَ ٱلذئبِ وَٱلشاة. . . ولا ريبَ أنَّ ٱلشرقَ يجاذبُ ٱلآنَ مقاليدَهُ ٱلتي ألقاها، ويضربُ على سلاسلِهِ ٱلتي تَقيَّدَ بها، ويُكابدُ ٱلصعودَ وَٱلهبوطَ في نهضتِهِ هذه؛ وقد كانَ بلغَ من إغضائِهِ على ٱلذلِّ وقرارِهِ على ٱلضيم، وجهلِهِ وتجاهلِهِ ـ أنَّ أوربا ربطَتْ أقطارَهُ كلَّهَا في بِضعةِ أساطيلَ تجذبُها جذبَ ٱلكواكبِ لِلأَرض.

غيرَ أنِّي مع هذا كلِّهِ لا أُسمِّي هذه ٱلنهضةَ نهضةً إلَّا من بابِ ٱلمجازِ وَٱلتوسُّعِ في ٱلعِبارة، وَٱلدلالةِ بِمَا كانَ على ما يكون؛ فإنَّ أسبابَ ٱلنهضةِ ٱلصحيحةِ ٱلتي تطْردُ أطرادَ ٱلزمن، وتنمو نُموَّ ٱلشباب، وتندفِـعُ ٱندفاعَ ٱلعمرِ إلى أجلٍ بِعينِهِ ـ لا يزالُ بينَنَا وبينَها مثلُ هذا ٱلموتِ ٱلذي يفصلُ بينَنَا وبينَ سلَفِنا وأوليتِنا؛ وإلا فأينَ ٱلأخلاقُ ٱلشرقيَّة، وأينَ ٱلمِزاجُ ٱلعقليُّ ٱلصحيحُ لِأُمم ٱلشرق، وما هذا ٱلذي نحن فيهِ من روحٍ لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ ثُمَّ أين ٱلمصلحونَ ٱلذينَ لا يساومونَ[2] بملكٍ ولا إمارة، ولا يطلبونَ بِٱلإصلاح غرضاً من أغراضِ ٱلدنيا أو باطلاً من زُخرفِها؟ ثُمَّ أين أولئك تجعلُهُم مبادئُهمُ ٱلعاليةُ ٱلقويَّةُ أولَ ضحاياها، وتروي منهم عرقَ ٱلثرى ٱلذي يغتذي من بقايا ٱلأجدادِ لِينبتَ منهُ ٱلأحفاد؟

---

(١) تفلّت: تخلّص وتحرّر.

(٢) يساومون: يتجادلون من أجل الاتفاق على سلعة لشرائها.

إنَّ ٱلجوابَ على نهضةِ أُمَّةٍ نهضةً ثابتةً لا يكونُ مِنَ ٱلكلامِ وفنونِه، بلْ من مبدإٍ ثابتٍ مستمرٍّ يعملُ عملَهُ في نفوسِ أهلِها؛ ولن يكونَ هذا ٱلمبدأُ كذلك إلَّا إذا كانَ قائماً على أربعةِ أركان: إرادةٍ قويَّة، وخُلُقٍ عزيز، وٱستهانةٍ بِٱلحياة، وصِبغةٍ خاصةٍ بِٱلْأُمَّة.

فأمَّا الإرادةُ ٱلقويَّةُ فلا تنقصُ ٱلشرقيِّين، وإنَّما ٱلفضلُ فيها لِساسةِ ٱلغربِ ٱلذينَ بصَّرونا بِأنفسِنا إذْ وضعونا مَعَ الأُممِ الأخرى أمامَ مرآةٍ واحدةٍ وجعلوا يقولون معَ ذلك إنَّنا غيرُ هؤلاء، وإنَّ هذا ٱلإنسانَ ٱلذي في ٱلمرآةِ غيرُ هذا ٱلقِرْدِ ٱلذي فيها... ولكنْ أينَ ٱلخُلُقُ؟ وأين ٱلعِزَّةُ ٱلقوميَّةُ؟ وأين ٱلعصبيَّةُ ٱلشرقيَّة؟ وهذه مفاسدُ أوربا كلُّها تنصبُّ في أخلاقِ ٱلشرقيين كما تنصبُّ أقذارُ مدينةٍ كبيرةٍ في نهرٍ صغيرٍ عذْب؛ فلا ٱلدينُ بَقِيَ فينا أخلاقاً، ولا الأخلاقُ بقِيَتْ فينا دِيناً، وأصبحَتِ ٱلمِيزةُ ٱلشرقيَّةُ فاسدةً من كلِّ وجوهِها في ٱلروحِ وَٱلذوق، ولم يَعُدْ لنا شيءٌ يُمكنُ أنْ يُسمَّى ٱلمدنيَّةَ ٱلشرقيَّة، وأخذَ ٱلحمقى وَٱلضعفاءُ مِنّا يُحاولونَ في إصلاحِهِم أنْ يُؤلِّفوا ٱلأُمَّةَ على خُلُقٍ جديدٍ ينتزعونَهُ مِنَ ٱلمدنيَّةِ ٱلغربيَّة، ولا يعلمونَ أنَّ ٱلخُلُقَ ٱلطارئَ لا يرسخُ بِمِقدارِ ما يُفسدُ مِنَ ٱلأخلاقِ ٱلراسخة، وهم يغتبطونَ[1] إذا قيلَ لهم مثلاً: إنَّ مِصرَ قطعةٌ من أوربا؛ ولا يعلمونَ ما تحتَ هذهِ ٱلكلمةِ من تعطيلِ ٱلمدنيَّةِ الشرقيَّة، وَٱلذهابِ بها، وإفسادِها، وتعريضِها لِلذمّ، وتسليطِ ٱلبلاءِ عليها، مِمَّا لا حاجةَ بنا إلى ٱلتبسُّطِ فشرحِه.

لسْتُ أقولُ إنَّ نهضةَ ٱلشرقِ ٱلعربيِّ لا أساسَ لها؛ فإنَّ لها أساساً من حميةِ ٱلشباب، وعِلْمِ ٱلمتعلمين؛ ومن جهْلِ أوربا ٱلذي كشفَتْهُ ٱلحرب؛ ولكنَّ هذا كلَّهُ على قوَّتِهِ وكِفايتِهِ في بعضِ ٱلأحيان لِإقامةِ ٱلأحداثِ ٱلكبرى وَٱهتياجِ ٱلعواصفِ ٱلسياسيَّة ـ لا يحملُ ثِقْلَ ٱلزمنِ ٱلممتد، ولا يكفي لأنْ يكونَ أساساً وطيداً يقومُ عليهِ بناءُ عِدَّةِ قرونٍ مِنَ ٱلحضارةِ ٱلشرقيَّة ٱلعالية، بلْ ما أسرعَهُ إلى ٱلهدمِ وَٱلنقض، لو صدَمتْهُ ٱلأساليبُ ٱللينةُ مِنَ ٱلدهاءِ ٱلأوربيِّ على ٱختلافِها... إذا قُدِّرَ لِأوربا أنْ تَفوزَ بِأُسلوبِها ٱلجديد، أُسلوبِ ٱستعبادِ ٱلشرقِ بِٱلصداقة... على طريقةِ ٱدعاءِ ٱلثعلبِ لِلدجاجِ أنَّهُ قد حجَّ وتابَ وجاءَ لِيُصليَ بها...

وَٱلذي أراهُ أنَّ نهضةَ هذا ٱلشرقِ ٱلعربيِّ لا تُعتبرُ قائمةً على أساسٍ وطيدٍ إلَّا

(١) يغتبطون: يسرّون.

إذا نهضَ بها ٱلركنانِ ٱلخالدان: الدينُ ٱلإسلاميُ، وَٱللغةُ ٱلعربيَّة؛ وما عداهما فعسى أنْ لا تكونَ لَهُ قيمةٌ في حُكْمِ ٱلزمنِ ٱلذي لا يقطعُ بِحُكمِهِ على شيءٍ إِلَّا بِشاهدينِ مِنَ ٱلمبدإِ وَٱلنهاية.

وظاهرٌ أنْ أغلبيَّةَ ٱلشرقِ ٱلعربيِّ ومادتُهُ ٱلعظمى هيَ ٱلتي تَدينُ بِٱلإسلام، وما ٱلإسلامُ في حقيقتِهِ إلّا مجموعةُ أخلاقٍ قويَّةٍ ترمي إلى شدِّ ٱلمجموعِ من كلِّ جِهة، وَلَعَمْري إنِّي لَأَحسبُ عظماءَ أمريكا كأنَّهم مسلمو ٱلتاريخِ ٱلحديثِ في معظم أخلاقِهم، لولا شيءٌ مِنَ ٱلفرقِ هوَ ٱلذي لا يمنعُهم أنْ ينحطُّوا إذا هم بلغوا ٱلقِمَّة؛ فإن من عجائبِ ٱلدنيا أَنَّ قِمةَ ٱلحضارةِ ٱلرفيعةِ هيَ بِعينها مبدأ سقوطِ ٱلأُمَم، وهذا عندَنا هو ٱلسرُّ في أنَّ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ يكرهُ لِأَهلِهِ أنواعَ ٱلترفِ وَٱلزينةِ وَٱلاسترخاء، ولا يرى ٱلنحتَ وَٱلتصويرَ وَٱلموسيقى وَٱلمُغالاةَ فيها وفي ٱلشعرِ إلَّا مِنَ ٱلمكروهات، بلْ قدْ يكونُ فيها ما يحرمُ إنْ وُجِدَ سببٌ لِتحريمِه، إذْ كانَتْ هذه ٱلفنونُ في ٱلغالبِ وفي ٱلطبيعةِ ٱلإنسانيَّةِ هيَ ٱلتي تُؤدِّي في نهايتِها إلى سقوط أخلاقِ ٱلأُمَّةِ؛ بِما تستتبِعُهُ من أساليبِ ٱلرفاهيَّةِ وَٱلضعفِ ٱلمتفنن، وما تحدِثُهُ لِلنفسِ من فنونِ ٱللذاتِ وَٱلإغراقِ فيها وَٱلاستهتارِ بها؛ وما سقطتِ ٱلدولةُ ٱلرومانيَّةُ ولا ٱلدولةُ ٱلعربيَّةُ إلَّا بِكَأْسٍ وَٱمرأةٍ ووتَر، وخيالٍ شعريٍّ يفتنُ في هذه ٱلثلاثةِ ويُزينُها.

وإذا كانَ لا بُدَّ لِلأُمَّةِ في نهضتِها من أنْ تتغيَّر، فإنَّ رجوعَنا إلى ٱلأخلاقِ ٱلإسلاميَّةِ ٱلكريمةِ أعظمُ ما يَصلُحُ لنا مِنَ ٱلتغيّرِ وما نصلحُ بِهِ منه، فلقدَ بعُدَ ما بيننَا وبينَ بعضِها، وَٱنقطعَ ما بيننَا وبينَ ٱلبعضِ ٱلآخر؛ وإذا نحن نبذْنا ٱلخمر، وَٱلفجور، وَٱلقِمار، وَٱلكَذِب، وَٱلرياء؛ وإذا أنفْنا مِنَ ٱلتخنّثِ، وَٱلتبرج، وَٱلاستهتارِ بِٱلمنكرات، وَٱلمُبالغةِ في ٱلمجون، وَٱلسخف، وَٱلرقاعة[1]؛ وإذا أخذْنا في أسبابِ ٱلقوَّة، واصطَنعْنا ٱلأخلاقَ ٱلمتينة: مِنَ ٱلإرادة، وٱلإقدام، وٱلحميَّة؛ وإذا جعَلنا لنا صِبغةً خاصةً تُميِّزنا من سِوانا، وتدلُّ على أنَّنا أهلُ روحٍ وخُلُق ـ إذا كانَ ذلك كلُّهُ فَلَعمري أيُّ ضيرٍ في ذلك كلّه، وهلْ تلك إلَّا ٱلأخلاقُ ٱلإسلاميَّةُ ٱلصحيحة، وهلْ في ٱلأرضِ نهضةٌ ثابتةٌ تقومُ على غيرِها؟

إنَّ من خصائصِ هذا ٱلدينِ ٱلأخلاقيِّ أنَّهُ صلبٌ فيما لا بُدَّ لِلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ منه إذا أرادَتِ ٱلكمالَ ٱلإنسانيَّ، ولكنَّهُ مَرِنٌ فيما لا بُدَّ منه لِأَحوالِ ٱلأزمنةِ ٱلمختلفةِ

---

(١) الرقاعة: الخلاعة والمجون.

مِمَّا لا يأتي على أصولِ ٱلأخلاقِ ٱلكريمة. وليسَ يخفى أنَّهُ لا يُغني غَناءَ ٱلدينِ شيءٌ في نهضةِ ٱلأُمَمِ ٱلشرقيَّةِ خاصَّة، فهو وحدَهُ ٱلأصلُ ٱلراسخُ في ٱلدماءِ وٱلأعصاب. ومتى نهضَ ٱلمسلمون وهم مادَّةُ ٱلشرق، نهضَ إخوانُهم في ٱلوطنِ وٱلمنفعةِ وَٱلعادةِ من أهلِ ٱلمللِ ٱلأخرى، وَٱضطروا أنْ يجانسوهم في أغلبِ أخلاقِهِمُ ٱلاجتماعيَّة، ولا حجْر على حريتِهم في ذلك إلَّا كبعضِ ٱلحجْرِ[1] على حريَّةِ ٱلمريضِ إذا أوجرتْه[2] ٱلدواءَ ٱلمرّ.

وَلمَّا كانَ ٱلمسلمونَ إخوةً بِنصِّ دِينهِم، وكانَتْ مبادئُهُم واحدة، ومنافعُهُم واحدة، وكِتابُهُم واحداً؛ فلا جَرَمَ كانَ مِنَ ٱلسهلِ ـ لو رجعوا إلى أخلاقِ دينِهِم وٱنتبذوا ما يصدُّهُم عنها ـ أنْ يُؤَلِّفوا مِنَ ٱلشرقِ كُلِّهِ دُوَلاً متَّحِدةً يحسبُ لها ٱلغربُ حِساباً ذا أرقام لا تنتهي...

إنَّ هذا ٱلشرقَ في حاجةٍ إلى ٱلمبادىءِ وَٱلأخلاق، وهيَ معَ ذلك كامنةٌ فيه، ومستقبلُهُ كامنٌ فيها؛ غيرَ أنَّها لا تصلُحُ في ٱلكتبِ ولا في ٱلفنون، بلْ في ٱلرجالِ ٱلقائمينَ عليها. فَٱلقلوبُ وَٱلأدمِغةُ هيَ أساسُ ٱلنهضةِ ٱلصحيحةِ ٱلثابتة، وإذا نحن تأمَّلْنا هذه ٱلنهضةَ ٱلراهنةَ وجدْنا أساسَها خَرِباً من جهاتٍ كثيرة، ووجدْنا ٱلمكانَ ٱلذي لا يملؤُهُ إلَّا ٱلقلبُ ٱلكبيرُ ليسَ فيهِ إلَّا خيالُ كاتبٍ مِنَ ٱلكتَّابِ وَٱلموضعُ ٱلذي لا يسدُّهُ إلَّا ٱلرأسُ ٱلعظيمُ قد سدَّتْهُ قِطعةٌ من صحيفة...

ولقد تنبَّأَ نبيُّ هذا ٱلدينِ ﷺ بهذه ٱلحالةِ ٱلتي ٱنتهى إليها ٱلشرقُ ٱلعربيُّ بإزاءِ ٱلغرب، فقالَ لِأصحابِهِ يوماً: كيف بِكُمْ إذا ٱجتمعَ عليكُمْ بنو ٱلأصفر اجتماعَ ٱلأكلَةِ على ٱلقِصاع؟ فقالَ عمرُ ـ رضيَ ٱللَّهُ عنه ـ، أمِنْ قِلَّةٍ نحن يومئذٍ يا رسولَ ٱللَّهِ أم من كثرة؟ قال: بلْ من كثرة، ولكنَّكم غُثاءٌ كَغُثاءِ ٱلسيل[3] قد أوهنَ[4] قلوبَكُم حُبُّ ٱلدنيا.

فوهْنُ ٱلقلوبِ بِحُبِّ ٱلدنيا ـ على ما ينطوي في هذه ٱلعِبارةِ مِنَ ٱلمعاني ٱلمختلِفة ـ هو عِلَّةُ ٱلشَّرق، ولا دواءَ لِهذهِ ٱلعِلَّةِ غيرُ ٱلأخلاق، ولا أخلاقَ بِغيرِ ٱلدينِ ٱلذي هو عِمادُها. ألا وإنَّ أساسَ ٱلنهضةِ قد وُضِع، ولكنْ بقيَتِ ٱلصخرةُ ٱلكبرى وستُوضَعُ يوماً، وهذا ما أعتقدُه؛ لِأَنَّ ٱلغربَ يدفعُ معَنا هذه الصخرةَ لِيُقرَّها

---

(١) حجر: حجز ومنع من الخروج.

(٢) أوجرته: بلَعته الدواء كارهاً.

(٣) غثاء السيل: هو ما يحمله أثناء جرفه لما تحطَم وتعفن مما لا قيمة له.

(٤) أوهن: أضعف.

في موضعِها مِنَ ٱلأساسِ وهو يحسبُ أنَّهُ يدفعُنا نحن إلى ٱلحفرةِ لِيدْفننَا فيها. . . وهذا عمًى في ٱلسياسةِ لا يكونُ إلَّا بِخذلانٍ مِنَ ٱللَّهِ قدَّرَهُ وقضاه.

* * *

وإنِّي أرى أنَّهُ لا ينبغيَ لِأَهلِ ٱلأقطارِ ٱلعربيَّةِ أنْ يقتبسوا من عناصر ٱلمدنيَّةِ ٱلغربيَّةِ ٱقتباسَ ٱلتقليد، بلِ ٱقتباسَ ٱلتحقيق، بعدَ أنْ يُعطوا كلَّ شيءٍ حقَّهُ مِنَ ٱلتمحيصِ[1] ويقلِّبوه على حالتيهِ ٱلشرقيَّةِ وَٱلغربيَّة؛ فإنَّ ٱلتقليدَ لا يكونُ طبيعةً إلَّا في ٱلطبقاتِ ٱلمنحطَّة، وصِناعةُ ٱلتقليدِ وصناعةُ ٱلمسخِ فرعانِ من أصلٍ واحد، وما قلَّدَ ٱلمقلِّدُ بِلَا بَحثٍ ولا رَوِيَّةٍ إلَّا أتى على شيءٍ في نفسِهِ من ملكةِ ٱلابتكار وذهبَ ببعض خاصيتِهِ ٱلعقْليَّة؛ على أنَّنا لا نُريدُ من ذلك ألَّا نأخذَ مِنَ ٱلقوْمِ شيئاً؛ فإنَّ الفرْقَ بعيدٌ بينَ ٱلأخذِ في ٱلمخترعاتِ وَٱلعُلوم، وبينَ ٱلأخذِ من زخرفِ ٱلمدنيَّةِ وأهواءِ ٱلنفسِ وفنونِ ٱلخيالِ ورونقِ ٱلخبيثِ وَٱلطيب؛ إذِ ٱلفكرُ ٱلإنسانيُ إنمَّا يُنتجُ ٱلإنسانيَّةَ كُلَّها، فليسَ هو مِلْكاً لِأُمَّةٍ دون أخرى؛ وما ٱلعقلُ ٱلقويُّ إلَّا جزءٌ من قوةِ ٱلطبيعة.

فإنْ نحن أخذْنا مِنَ ٱلنظاماتِ ٱلسياسيَّةِ فَلْنأخذْ ما يتَّفقُ مَعَ ٱلأصلِ ٱلراسخِ في آدابِنا مِنَ ٱلشورى وَٱلحريَّةِ ٱلاجتماعيَّةِ عندَ ٱلحدِّ ٱلذي لا يجوزُ على أخلاقِ ٱلأُمَّةِ ولا يُفسِدُ مِزاجَها ولا يُضعِفُ قوَّتَها.

وإذا نقلْنا مِنَ ٱلأدبِ وَٱلشعرِ فَلْندعْ خُرافاتِ ٱلقوْمِ وسَخَافاتِهِمُ ٱلروائيَّةَ إلى لبِّ ٱلفكرِ وروائعِ ٱلخيالِ وصميمِ ٱلحِكْمة، ولْنتتبعْ طريقتَهم في ٱلاستقصاءِ وَٱلتحقيق، وأسلوبَهُم في النقدِ والجدلِ، وتأتِّيَهُمْ إلى النفسِ ٱلإنسانيَّةِ بتلكَ ٱلأساليبِ ٱلبيانيَّةِ ٱلجميلةِ للتي هيَ ٱلحكمةُ بعينها.

وأمَّا في ٱلعاداتِ ٱلاجتماعيَّةِ فَلْنذكرْ أنَّ ٱلشرقَ شرقٌ وَٱلغربَ غرب ـ وما أرى هذه الكلمة تصدقُ إلَّا في هذا ٱلمعنى وحدَه ـ وَٱلقومُ في نِصْفِ الأرضِ ونحن في نِصْفِها ٱلآخر، ولهم مزاجٌ وإقليمٌ وطبيعةٌ وميراثٌ من كلِّ ذلك ولنا ما يتَّفِقُ ولا يختلف؛ وإنَّ أول ٱلأدلَّةِ على ٱستقلالِنا أنْ نتسلَّخَ من عاداتِ ٱلقوم، فإنَّ هذا يُؤدّي بِلا ريبٍ إلى إبطالِ صِفَةِ ٱلتقليدِ فينا، ويحملُنا على أنْ نتَّخِذَ لِأَنفُسِنا ما يُلائمُ طبائِعَنا وينمّي أذواقَنا ٱلخاصَّةَ بِنا، ويُطلِقُ لنا ٱلحريَّةَ في ٱلاستقلالِ ٱلشخصيّ؛ ولقد

---

(١) التمحيص: الدرس والتدقيق والبحث.

كُنَّا سادةَ ٱلدنيا قبلَ أنْ كانَتْ هذه ٱلعاداتُ ٱلغربيَّةُ ٱلتي رأيْنا منها ومن أثرِها فينا ما أفسدَ رجولةَ رجالِنا وأُنوثةَ نِسائِنا على ٱلسواء؛ وما هؤلاءِ ٱلشبانُ ٱلمساكينُ ٱلّذين يَدْعونَ إلى بعضِ هذهِ ٱلعاداتِ ويعملون على بثِّها في طبقاتِ ٱلأُمَّةِ إلَّا كَٱلذي يحسبُ أنَّ أوربا يُمكنُ أنْ تدخلَ تحت طربوشِه. . . ؛ ولقد غفلْنا عن أنَّنا ندعو ٱلأوربيِّين إلى أنفسِنا وإلى ٱلتسلُّطِ على بِلادِنا بِٱنتحالِنا عاداتِهِمُ ٱلاجتماعيَّة؛ لأنَّها نوعٌ مِنَ ٱلمُشاكلةِ بينَنا وبينَهم، ووجهٌ مِنَ ٱلتقريبِ بين جنسينِ يُعينُ على ٱندماجِ أضعفِهِما في أقواهُما ويُضيِّقُ دائرةَ ٱلخِلافِ بينَهما، ثُمَّ هو من أين ٱعتبَرْتَهُ وجدْتَهُ في فائدتِهِ للأوربيِّينَ أشبَه بتليينِ ٱللقمةِ ٱلصُّلبةِ تحتَ ٱلأسنانِ ٱلقاطعة؛ وهلْ نسيَ ٱلشرقيُّونَ أنْ لا حُجَّةَ لِلْغربِ في ٱستعبادِهِم إلَّا أنَّهُ يُريدُ تمدينَهم؟

وحيثما قلْنا «ٱلدينُ ٱلإسلاميُّ» فإنَّما نُريدُ ٱلأخلاقَ ٱلتي قامَ بها، وَٱلقانونَ ٱلذي يُسيطرُ من هذه ٱلأخلاقِ على ٱلنفسِ ٱلشرقيَّة؛ وهذا في رأينا هو كلُّ شيءٍ لِأَنَّهُ ٱلأولُ وَٱلآخر.

* * *

لا تجني ٱلصحافةُ
على ٱلأدب ولكنْ على فنيَّتِه

قالوا: إنَّ ٱلأصمعيَّ كانَ يُنكرُ أنْ يُقالَ في لغةِ ٱلعربِ (مالح)، ويقول: إنَّما هو ملِح، وإن (مالح) هذه عامية؛ فلمَّا أنشدُوهُ في ذلك شِعْراً لذي ٱلرمَّةِ يحتجُّون بِهِ عليهِ قال: إنَّ ذا ٱلرمةِ قد باتَ في حوانيتِ[1] ٱلبقالينَ بِٱلبصرةِ زمانا...

يُريدُ شيخُنا هذا: أن (المالح) في ٱلأكثرِ ٱلأعمِّ يكونُ مِمَّا يبيعُهُ ٱلبقَّالون، ولُغتهُم عاميَّةٌ مُزالةٌ[2] عن سُنَنِها ٱلفصيح، مصروفةٌ إلى وجهِها ٱلتجاري؛ ولكن كيف باتَ ذو ٱلرمةِ في حوانيتِ ٱلبقالينَ زماناً حتى عَلِقَتِ ٱلكلمةُ بِمَنطقِهِ وجذبَهُ إليها ٱلطبعُ ٱلعاميّ، ولم يخالطْ عربيَّتَهُ غيرُ هذه ٱلكلمةِ وحدَها؟ لم يقلِ ٱلأصمعيُّ شيئاً، ولكنَّ رِوايتَهُ تُخبرُ أنَّ ذا ٱلرمةِ ٱنحدرَ[3] مِنَ ٱلباديةِ إلى ٱلبصرةِ يلتمِسُ ما يلتمسُهُ ٱلشعراء، فلمَّا كانَ بها ٱستضاقَ[4] فلم يُصبْ لِجوفِهِ غيرَ ٱلخبز، ولم يجِدْ لِلْخبز غيرَ (ٱلمالح) يُسبغُهُ بِهِ لِيجدَ ٱلمسلكَ في حلْقِه، قالوا: فيأتي ٱلبقالينَ فيبتاعُ منهُمُ ٱلسمكةَ (ٱلمالحة) وَٱلبقلةَ (ٱلمالحة)، ويُعرِّفونه مُضيقاً إلى فرج، فيُنسِئونَ لَهُ في ٱلثمنِ إلى أجلٍ حتى يمتدحَ وينالَ ٱلجائزة؛ قالوا: ثُمَّ يُمطرُهُ ٱلممدوحُ ويلوي بِهِ ولا يرى في تلفيقِ ٱلعيشِ رُخْصاً إلَّا في (ٱلمالح)، فيتتابعُ في ٱلشراءِ ويمضون في إسلافِهِ إبقاءً عليهِ وحُسْنَ نظرٍ منهم لِمنزلتِهِ وشعره، ويرى هو أنْ لا ضمانَ لِلْوفاء بما عليهِ إلَّا نفسَه، فما بُدٌّ أنْ يتراءى لهم بينَ ٱلساعةِ وٱلساعة، فيُخالِطُهُم فيُحدِّثُهُم فيسمعُ منهم، وهم على طبعِهِم وهو على سجيتِه؛ ثُمَّ لا يقتضونَهُ ثمناً، ولا يزالون يمدون لَه، فلا يزال (المالح) أيسرَ منالاً عليه، كما هو إلي نفسِهِ أشهى، وفي جوفِهِ أمرأ، لِمكانِ أعرابيتِهِ وخُشونةِ عيشِه، فيُصيبُ عندهم مرتعةً من هذا (المالح). قالوا: ثُمَّ يرى ٱلبقالون أنْ لا ضمانَ لِمَا ٱجتمعَ عليهِ إلَّا أنْ يكونَ ٱلشاعرُ معهم،

---

(١) حوانيت، مفرده حانوت وهو الدكان.
(٢) مزالة: منحطّة ونازلة.
(٣) انحدر: جاء.
(٤) استضاق: شعر بالضيق المادي وعدم اليسار.

فيُلزمونَهُ ٱلحوانيتَ بياضَ يومِه، ويُغلقونَها عليهِ ليلتَهُ، فهم يُمسكونَهُ بِٱلنهارِ وتُمسكُهُ ٱلحِيطانُ وَٱلأبوابُ بِٱلليل!

فلمَّا عظُمَ ٱلدَّينُ وبلَغَ ٱلجملةَ ٱلتي أَتَتْ حِسابَ ٱلأَيَّام إلى حِسابِ ٱلأهلَّةِ أُحضرَ ٱلشاعرُ كربَهُ وهمَّه، ولم يعدِ (ٱلمالح) ينجعُ فيه[1]، ولا يجدُ بِهِ غِذاء، بلْ حريقاً في ٱلدم، ورأى أنَّه قدِ ٱمتُحِنَ بهذا (المالح) ٱلخبيثِ وأشرطَ نفسَهُ فيهِ وٱرتهنَها به؛ فلا يزالُ مِنَ (ٱلمالح) همٌّ في نفسِه، ومغصٌ في جوفِه، ولفظٌ على لِسانِه، ودَينٌ على ذِمَّتِه؛ ولا يَزالُ مهموماً به؛ إذْ كانَ على طريقٍ من طريقين: إما ٱلوفاءُ ولا قُدرةَ عليهِ من مُفلِس، وإمَّا ٱلحبسُ ولا طاقةَ بِهِ لِشاعر؛ وحَبْسُ ذي الرمةِ في ثمنِ (ٱلمالح) هو حبسٌ عندَ ٱلشرطة، ولكنَّهُ قتلٌ أو شرٌّ منَ ٱلقتلِ عندَ صاحبتِهِ (ميّة) إذا ترامى إليها ٱلخبر؛ وَٱلأعرابيُّ ٱلجِلْفُ ٱلذي يُحبسُ في ثمنِ (ٱلمالح) عندَ ٱلوالي بعدَ أنْ باتَ زماناً رهناً بِهِ في حوانيتِ ٱلبقالينَ لا يصلحُ عاشقاً لِميٍّ وهي مَن هي: مَن هي: «لها بشرٌ مثلُ ٱلحريرِ ومنطقٌ رخيمُ ٱلحواشي. . .» فلا (ٱلمالحُ) من غِذائِها، ولا لفظُ (المالح) مِنَ ٱلكلامِ ٱلذي يكونُ في فَمِها ٱلعَذْب، وأبعَدَ ٱللَّهُ جاريتَها ٱلزنجيَّةَ إنْ لم تأنفْ لِنفسِها ومكانِها من عِشْقِ هذا ٱلأعرابيِّ ٱلغليظِ ٱلخَشِنِ ٱلذي ألحقَهُ (ٱلمالحُ) بِٱللصوصِ وَٱلغارمين[2]، وأخزاها ٱللَّهُ إنْ لم يكنْ عِشْقُ هذا ٱلأعرابيِّ لها سواداً على سوادِها في ٱلناس، فكيف بِمَيٍّ وهي أصفى مِنَ ٱلمرآةِ ٱلنقيَّة، وأبيضُ مِنَ ٱلزهرةِ ٱلبيضاء؟

قالوا: ويصنعُ ٱللهُ لِغَيلانَ ٱلمسكين، فيمدحُ ويُنافقُ ويحتال، ويعِدُهُ الممدوحُ بِٱلجائزةِ إذا غدا عليه، ويكونُ ذلكَ وٱلشمسُ نازلةٌ إلى خِدْرِها، فينكفيءُ ٱلشاعرُ إلى حوانيتِ غُرمائِهِ مِنَ ٱلبقالينَ يبيتُ فيها أخرى لياليه، ويُغلقونَ عليهِ وقد سَئِمُوهُ آكلاً وماطلاً، وهانَ عليهم فلا يعتدُّونهُ إلَّا فأراً من فِئرانِ حوانيتِهم غيرَ يأكلُ فيستوفى، ولم يعدِ ٱسمُهُ عندَهم ذا الرمة، بلْ ذا ٱلغُمَّة. . . فلم يُعطوه لِعشائِه هذه ٱلمرةَ إلَّا ما فسدَ وخُبثَ من عتيقِ (ٱلمالح)، فهو نَتِنٌ يُسمَّى طعاماً، وداءٌ يُباعُ بِثمن، وهلاكٌ يحملُ عليهِ ٱلاضطرارُ كما يحملُ على أكلِ ٱلجِيفة؛ وكانوا قد وضعُوهُ في آنيةٍ قَذِرةٍ مُتلجِّنةٍ[3] طالَ عهدُها بِٱلغسلِ وَٱلنظافةِ وفيها بقيةٌ من عفنٍ قديم، فلصقَ بها ما لصقَ وتراكبَ عليها ما تراكب، ووقع فيها ما وقع.

---

(١) ينجع فيه: يطمر فيه ويثمر.

(٢) الغارمين: المدنين.

(٣) متلجِّنة: المغسلة بدون عناية.

ثُمَّ يتهيَّأُ ٱلشاعرُ لِصلاةِ ٱلعِشاءِ يرجو أنْ تنالَهُ بَرَكَتُها، فيستجيبُ ٱللَّهُ لَهُ ويُفرِّجُ عنه، وقد كانَ لَدَيهِ قَدَحٌ مِنَ ٱلماءِ لِوضُوئِه، ولكنَّ (ٱلمالحَ) ٱلذي تغدّى بِهِ كانَ قد أحرقَ جوفَهُ وأضرمَ على أحشائِهِ وهو في صيفٍ قائظ[1]، فما زالَ يُطفِئُهُ بِٱلشربةِ بعدَ ٱلشربة، وٱلمصَّةِ بعدَ ٱلمَصَّة، حتى ٱشتفَّ[2] ٱلقدحَ وأتى عليه، فيكسلُ عنِ ٱلصلاة ويلعنُ (ٱلمالح) وما جرَّ عليه! ثُمَّ يعضُهُ ٱلجوعُ فيكسرُ خبزتَهُ ويسمِّي ويغمسُ ٱللُّقمةَ ثُمَّ يرفعُها فيجدُ لها رائحةً منكرة، فينظرُ في الآنيةِ وقد نفذَ إليهِ ٱلضوءُ من قِنديلِ ٱلحارس، فإذا في (ٱلمالِح) خُنفساءُ قدِ ٱنفجَرتْ شِبَعاً، ويدقِّقُ ٱلنظرةَ فإذا دُويبَّةٌ أخرى قد تفسخَّتْ وهرأَها[3] (ٱلمالح) وفعلَ بها وفَعَل! قالوا: وتَثِبُ نفسُهُ إلى حَلْقِه، ولا يرى ٱلطاعونَ وٱلبلاءَ ٱلأصفرَ وَٱلأحمرَ إلّا هذا (المالح)، فيتحوَّلُ إلى كُوَّةِ ٱلحانوتِ يتنسَّمُ ٱلهواءَ منها ويتطعَّمُ ٱلروحَ وهيَ مضَبَّبَةٌ بِٱلحديد، ولا يزالُ يُراعي منها ٱلليلَ ويُقدِّرُهُ منزلةً منزلةً بِحسابِ ٱلبادية، وهو بين ذلك يلعنُ (ٱلمالح) عددَ ما يسبِّحُ ٱلعابدُ ٱلقائمُ في جوفِ ٱلليل، ويطولُ ذلك عليه، حتى إذا كانَ ينشقُّ لَمْعُ ٱلفجرِ لِعينِه، فلا يراهُ ٱلشاعرُ إلّا كَٱلغديرِ يتفجَّرُ بِٱلماءِ ٱلصافي ويودُّ لوِ ٱنصبَّ هذا ٱلضوءُ في جوفِهِ لِيغسَلهُ مِنَ (ٱلمالح) وأوضارِ (ٱلمالح)؛ ثُمَّ يأتي ٱللَّهُ بِٱلفرجِ وبِصاحبِ ٱلحانوتِ فيفتَحُ لَه، ويغدو ذو الرُّمةَ على ٱلممدوحِ فيقبضُ ٱلجائزة، وينقلبُ إلى حوانيتِ ٱلبقالينَ فيُوفي أصحابَها ما عليه؛ ولا يبقى معه إلّا دراهُم معدودة، فيخرجُ مِنَ ٱلبصرةِ على حِمارٍ ٱكتراهُ وقد فُتحَتْ لَهُ آفاقُ ٱلدنيا، وكأنَّما فرَّ من موتٍ غيرِ ٱلموت، ليسَ ٱسمُهُ ٱلبوارَ ولا ٱلهلاكَ ولا ٱلقتل، ولكنَّ ٱسمَهُ (ٱلمالح)!

قالوا: ويُحرّكُهُ ٱلحِمارُ للشعرِ كما كانَتْ تُحركُهُ ٱلناقة، فيقول: أخزاكَ ٱللَّهُ من حِمارٍ بصريّ، إنْ أنت في ٱلمراكبِ إلّا (كَٱلمالح) في ٱلأطعمة! ثُمَّ يغلبُهُ ٱلطبعُ وينزو بِهِ ٱلطربُ وتهزُّهُ ٱلحياة، فيهتاجُ لِلْشعرِ ويذكرُ شوقَهُ وحبَّهُ ودارَ مَيّ، وفي (عقلِهِ ٱلباطن) حوانيتُ وحوانيتُ مِنَ (ٱلمالح)، فيأتي هذا (ٱلمالحُ) في شِعْرِهِ ويدخلُ في لُغتِه، فيقولَ ٱلشعرَ ٱلذي أهملَ ٱلأصمعيُّ رِوايتَهُ لِأَنَّ فيهِ (ٱلمالح) وما أدري أنا ما هو، ولكنْ لعلَّه مثلُ قولِ الآخر:

وَلَوْ تَفَلَتْ في ٱلبحرِ وَٱلبحرُ (مالحٌ) لَأَصبحَ ماءُ ٱلبحرِ من ريقِها عَذبا

---

(١) صيف قائظ: حارٌّ جداً.
(٢) اشتفّ القدح: شرب ما فيه فأتى على محتواه.
(٣) هرأها: دبّ فيها الاهتراء والفساد.

أو مثل قولِ القائل:

بصريَّةٌ تزوَّجتْ بصريّا   يطعمُها (ٱلمالحَ) وَٱلطريّا

* * *

هذه هيَ ٱلروايةُ ٱلتمثيليَّةُ ٱلتي تُفسِّرُ كلامَ ٱلأصمعيّ، ولا مذهبَ عنها في ٱلتعليل؛ إِذْ صارع (ٱلمالحُ) كلمةً نفسيةً في لُغةِ ذي ٱلرمة، على رغمِ أنفِ ٱلأحمرِ وٱلأسودِ وَٱلأصمعيِّ وأبي عُبيدة؛ فَٱلرجلُ مِنَ ٱلحُجَجِ في ٱلعربيةِ إِلّا في كلمةِ (ٱلمالح)، فإنَّهُ هنا عاميٌّ بَقّالُ حوانيتي نزلَ بِطبعِهِ على حُكْمِ ٱلعيش، وغلبَهُ ما لا بُدَّ أنْ يغلبَ مِنْ تسلُّطِ (واعيتِهِ ٱلباطنة)[1].

وَٱلحِكْمةُ ٱلتي تخرجُ من هذه ٱلروايةِ أنَّ أبلغَ ٱلناسِ ينحرفُ بِعَملِهِ كيفَ شاءَتِ ٱلحِرفة، ولا بُدَّ أنْ تقعَ ٱلمُشابهةُ بين نفسِهِ وعملِه، فربَّما أرادَ بِكلامِهِ وجهاً وجاءَ بِهِ ٱلهاجسُ على وجهٍ آخر؛ وإذا كانَ في ٱلنفسِ موضعٌ من مواضعِها أفسدَهُ ٱلعمل ـ ظهرَ فسادُهُ في ٱلذوقِ وَٱلإدراكِ فطمسَ على مواضعَ أخرى؛ فلا تنتظرْ من صحافي قدِ ٱرتهنَ نفسَهُ[2] بِحِرفةِ ٱلكلام أَلّا يكونَ لَهُ في ٱلأدبَ وٱلبلاغةِ (مالح) كمالحِ ذي ٱلرمة، وإِنْ كانَ أبلغَ ٱلناسِ لا أبلغَ كُتّابِ ٱلصحفِ وحدَهم.

و(ٱلمالحُ) ٱلذي رأيناهُ لِكاتبٍ بليغ من أصحابِنا أنَّهُ كُتبَ في إحدى ٱلصحفِ عن ديوانٍ هو في شعرِ ٱلاستعارةِ بعدَ ٱلكنايةِ مِمّا قالَهُ ٱلشاعر، ثُمَّ يقول: هذا عجيبٌ تصوُّرُهُ. لا أعرفُ ماذا يُريدُ. ٱلبِلى لِلشعاع غيرُ مقبول؛ ولا يزالُ ينسحبُ على هذه ٱلطريقةِ مِنَ ٱلنقدِ ثُمَّ يُعقِّبُ على ذلك بِقولِهِ: «وَٱلأصلُ في ٱلكتابةِ أنَّها للإفهام، أي نقلُ ٱلخاطرِ أو ٱلإحساسِ من ذهنٍ إلى ذِهْنٍ ومن نفسٍ إلى نفس؛ ولا سبيلَ إلى ذلك إذا كانَتِ ٱلعبارةُ يتعاورُها[3] ٱلضعفُ وَٱلإبهامُ والركاكةُ وقِلَّةُ ٱلعِنايةِ بِدِقَّةِ ٱلأداء؛ وإذا كنْتَ تستعملُ ٱللفظَ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدُ بِهِ فكيف تتوقعُ منّي أنْ أفهَم منك؟

لا، لا، هذا (مالح) من مالح ٱلأدب، فإذا كانَ ٱلضعفُ وَٱلإبهامُ وَٱلركاكةُ وسوءُ ٱلإفهام وضعفُ ٱلأداء ـ آتيةً في رأي ٱلكاتبِ مِن ٱستعمالِ ٱللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدَ لَه ـ فإِنَّ محاسنَ ٱلبيانِ مِنَ ٱلتشبيهِ وَٱلاستعارةِ وَٱلمجازِ

---

(١) يقصد بذلك العقل الباطن.

(٢) ارتهن نفسه: ربط نفسه وجعلها رهينة.   (٣) يتعاورها: يتجاذبها ويداخلها.

وَٱلكِنايةِ ليس لها مأتى كذلك إلَّا ٱستعمالُ ٱللفظِ في غيرِ موضعِهِ ولِغيرِ ما أُريدَ لَه.

وعلى طريقةِ ٱلكاتبِ كيف يصنعُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾؟

أتُراه يقول: كيف قدِمَ ٱلله، وهلْ كانَ غائباً أو مسافراً، وكيف قَدِمَ إلى عمل، وهلِ ٱلعملُ بيتٌ أو مدينة؟

ثُمَّ كيف يصنعُ في هذه ٱلآية: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾، أيسأل: وهل لِلأرضِ حَلْقٌ تُحرِّكُهُ عضلاتُهُ لِلْبلع، وإذا كانَ لها حَلْقٌ أفلا يجوزُ أنْ تُرْمَى فيهِ فتحتاجَ إلى غرغرةٍ وعِلاجٍ وطِبّ؟

وماذا يقولُ في حديثِ ٱلبخاريّ: «إنّي لَأَسمعُ صوتاً كأَنَّهُ صوتُ ٱلدم، أو صوتاً يقطُرُ منهُ ٱلدم ـ كما في ٱلأغاني ـ» أيوجِّهُ ٱلاعتراضَ على ٱلصوتِ وجرحِهِ ودمِهِ، ويسألُ: بماذا جرحَ، وما لونُ هذا ٱلدم، وهلْ لِلْصوتِ عروقٌ فيجري ٱلدمُ فيها؟

إنَّ ٱلإفهامَ ونقلَ ٱلخاطرِ وَٱلإحساسِ ليسَتْ هيَ ٱلبلاغةَ وإنْ كانَتْ منها، وإلَّا فكتابةُ ٱلصحفِ كلُّها آياتٌ بيِّناتٌ في ٱلأدب، إذْ هيَ من هذه ٱلناحيةِ لا يُقدحُ فيها ولا يُغضُ منها، وما قصرَتْ قطُّ في نقلِ خاطرٍ ولا ٱستغلقَتْ دونَ إفهام.

هٰهنا خِوانٌ في مطعمٍ كمطعمِ (ٱلحاتي) مثلاً عليهِ ٱلشواءُ وَٱلملحُ وٱلفلفلُ وَٱلكواميخُ أصنافاً مصنَّفة، وآخرُ في وليمةِ عُرْسٍ في قصرٍ وعليهِ ألوانُهُ وأزهارُهُ ومن فوقِهِ ٱلأشعَّةُ ومن حولِهِ ٱلأشعَّةُ ٱلأخرى من كلِّ مضيئةٍ في ٱلقَلْبِ بِنورِ وجهِها ٱلجميل، أفترى ٱلسهولةَ كلَّ ٱلسهولةِ إلَّا في ٱلأول؟ وهلِ ٱلتعقيدُ كلُّ ٱلتعقيدِ إلَّا في ٱلثاني؟ ولكنْ أيُّ تعقيدٍ هو؟ إنَّهُ تعقيدٌ فنيٌّ ليس إلَّا، بِهِ ينضافُ ٱلجمالُ إلى ٱلمنفعة، فتجتمعُ ٱلفائدةُ وٱلاستمتاعُ وتزيّنُ ٱلمائدةِ وَٱلنفسِ معاً؛ وهو كذلك تعقيدٌ فنيٌّ لَاءَمَ بينَ إبداعِ ٱلطبيعةِ وإبداعِ ٱلفكر، وجاءَ بِروحِ ٱلموسيقى ٱلتي يقومُ عليها ٱلكوْنُ ٱلجميلُ فبثَّها[1] في هذه ٱلأشياءِ ٱلتي تقومُ بها ٱلمائدةُ ٱلجميلة، وٱستنزلَ سِرَّ ٱلجاذبيَّةِ فجعلَ لِلْمائدةِ بِمَا عليها شعوراً مُتَّصِلاً بِٱلقلوبِ من حيثُ جعلَ لِلْقلوبِ شُعُوراً مُتَّصِلاً بِٱلمائدة.

وهذا ٱلتعقيدُ ٱلذي صَوَّرَ في ٱلجمادِ دِقَّةَ فنِّ ٱلعاطفة، هو بعينِهِ فنِّيَةُ ٱلسهولةِ

---

(١) بثّها: نشرها.

وروحيَّتُها؛ وتلك ٱلسذاجةُ ٱلتي في ٱلمائدةِ ٱلأخرى هيَ ٱلسهولةُ ٱلماديةُ بِغير فَنٍّ ولا روح، وفرقٌ بينهما أنَّ إحداهما تحملُ قصيدةً رائعةً مِنَ ٱلطعامِ وما يتَّصِلُ بهِ، وَٱلأخرى تحملُ مِنَ ٱلطعامِ وما يتَّصِلُ بهِ مقالةً كمقالاتِ ٱلصحف!

وَٱلوجهُ في ٱلشوهاءِ وفي ٱلجميلةِ واحد: لا يختلفُ بأعضائِهِ ولا منافعِه، ولا في تأديتِهِ معانيَ ٱلحياةِ على أتمِّها وأكمِلها؛ بيْدَ أنَّ ٱنسجامَ ٱلجميلِ يأتي من إعجازِ تركيبِهِ وتقديرِ قسماتِهِ وتدقيقِ تناسُبِه، وجعْلِهِ بكلِّ ذلك يُظهِرُ فنَّهُ ٱلنفسيَّ بِسهولةٍ منسجمةٍ هيَ فنيَّتُهُ وروحيتُهُ؛ أمَّا ٱلآخرُ فلا يقبلُ هذا ٱلفنَّ ولا يُظهِرُ منه شيئاً؛ إذْ كانَ قد فقدَ ٱلتدقيقَ ٱلهندسيَّ ٱلذي هو تعقيدُ فنِّ ٱلتناسبِ، وجاءَ على ٱلمقاييسِ ٱلسهلةِ من طويلٍ إلى قصير، إلى ما يستديرُ وما يعرضُ، إلى ما ينشأُ من هنا وينخسفُ من هناك، كَٱلوجنةِ[1] ٱلبارزة، وَٱلشدقِ ٱلغائر؛ فهذهِ ٱلسهولةُ ٱلمطلقةُ في ٱلوضعِ كما يَتَّفِق، هيَ بعينِها ٱلتعقيدُ ٱلمطلقُ عندَ ٱلفنِّ ٱلذي لا محلَ فيهِ لِلَفظةِ (كما يتَّفق).

وَٱلطريقةُ ٱلتي يكونُ بها ٱلجمالُ جميلاً هي بعينِها ٱلطريقةُ ٱلتي يكونُ بها ٱلبيانُ بليغاً، فَٱلمرجعُ في ٱثنيهما إلى تأثيرهما في ٱلنفس، وأنت فقل: إنَّ هذا مفهومٌ وهذا غيرُ مفهوم، وذاك سهلٌ وَٱلآخرُ معقَّد، وواضحٌ ومغْلق، ومستقيمٌ على طريقتِهِ ومحوَّلٌ عن طريقته؛ إنَّك في ذلك لا تدلُّ على شيءٍ تعيبُهُ أو تمدحُهُ في ٱلجمالِ أوِ ٱلبلاغةِ أكثرَ ممَّا تدلُ على ما يُمدحُ أو يُعابُ في نفسِك وذوقِها وإدراكِها.

ومعاني ٱلاختلافِ لا تكونُ في ٱلشيءِ ٱلمختلفِ فيه، بلْ في ٱلأنفسِ ٱلمختلفةِ عليه؛ فإنَّ محالاً أنْ تكونَ ٱلجميلةُ ممدوحةً مذمومةً لِجمالِها في وقتٍ معاً، وإلَّا كانَتْ قبيحةً بِما هيَ بِهِ حسناء، وهذا أشدّ بعداً في ٱلاستحالة، وحُكْمُك على شيءٍ هو عقلُك أنت في هذا ٱلشيء.

ومتى ٱتَّفق ٱلناسُ على معنًى يستحسنُونه وجدْتَ دواعيَ ٱلاستحسانِ في أنفسِهِم مختلِفة، وكذلك هم في دواعي ٱلذمِّ إذا عابوا؛ ولكنْ متى تعينَتِ ٱلوجوهُ ٱلتي بها يكونُ ٱلحُكْم، ورجعَ إليها ٱلمختلِفون، وَٱلتزموا ٱلأصولَ ٱلتي رسَمَتْها وتقرَّرَتْ بها ٱلطريقةُ عندَهم في ٱلذوقِ وٱلفهم، فذلك ينفي أسبابَ ٱلاختلافِ لِمَا يكونُ من معاني ٱلتكافؤ وخاصةً ٱلمناسبة، ولهذا كانَ ٱلشرطُ في نقدِ ٱلبيانِ أنْ يكونَ من كاتبٍ مبدعٍ في بيانِهِ لم تُفْسِدْهُ نزعةٌ أخرى، وفي نقدِ

---

(١) الوجنة: السحنة.

ٱلشعرِ أنْ يكونَ من شاعرٍ علَتْ مرتبتُهُ وطالَتْ مُمارستُهُ لهذا ٱلفنِّ فليسَ لَهُ نزعةٌ أخرى تُفسدُه.

وما ٱلمجازاتُ وٱلاستعاراتُ وٱلكِناياتُ ونحوُها من أساليبِ ٱلبلاغةِ إلَّا أسلوبٌ طبيعيٌّ لا مذهبَ عنهُ لِلنفسِ ٱلفنيَّة؛ إذْ هي بِطبيعتِها تُريدُ دائماً ما هو أعظم، وما هو أجمل، وما هو أدقّ؛ وربَّما ظهرَ ذلك لِغيرِ هذه ٱلنفسِ تكلُّفاً وتعسُّفاً ووضعاً لِلأشياءِ في غيرِ مواضِعِها، ويخرجُ من هذا أنَّهُ عملٌ فارغٌ وإساءةٌ في ٱلتأديةِ وتمحُّلٌ لا عِبرةَ[1] به، ولكنَّ فنيَّةَ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ تأبى إلَّا زيادةَ معانيها، فتصنعُ ألفاظَها صِناعةً تُوليها مِنَ ٱلقوَّةِ ما ينفذُ إلى ٱلنفسِ ويُضاعِفُ إحساسَها؛ فمِنْ ثَمَّ لا تكونُ ٱلزيادةُ في صورِ ٱلكلامِ وتقليبِ ألفاظِهِ وإدارةِ معانيهِ إلَّا تهيئةً لِهذه ٱلزيادةِ في شعورِ ٱلنفسِ؛ ومن ذلك يأتي ٱلشعرُ دائماً زائداً بِٱلصناعةِ ٱلبيانيَّة، لِتُخرجَهُ هذه ٱلصناعةُ من أنْ يكونَ طبيعيّاً في ٱلطبيعةِ إلى أنْ يكونَ روحانياً في ٱلإنسانيَّة، وَٱلشعورُ ٱلمهتاجُ ٱلمتفززُ غيرُ ٱلساكنِ ٱلمتبلِّد، وَٱلبيانُ في صِناعةِ ٱللغةِ يُقابلُ هذا ٱلنحو، فتجدُ مِنَ ٱلتعبيرِ ما هو حيٌّ متحرِّك، وما هو جامدٌ مستلقٍ كَٱلنائم أو كَٱلميِّت؛ وبهذا لا تكونُ حقيقةُ ٱلمُحسِّناتِ ٱلبيانيَّةِ شيئاً أكثرَ من أنَّها صناعةٌ فنيَّةٌ لا بُدَّ منها لِأحداثِ ٱلاهتياجِ في ألفاظِ ٱللغةِ ٱلحساسةِ كي تُعطِيَ ٱلكلماتُ ما ليسَ في طاقةِ ٱلكلماتِ أنْ تُعطِيَه.

لقد تكلموا أخيراً في جِنايةِ ٱلصحافةِ على ٱلأدب، وَٱلصحافةُ عندي لا تجني على ٱلأدب، ولكنْ على فنيَّتِه؛ فلَها مِنَ ٱلأثرِ على سليقةِ ٱلبليغِ وطبعِهِ قريبٌ مِمَّا كانَ لِحَوانيتِ ٱلبقَّالينَ في ٱلبصرةِ على طبعِ ذي ٱلرمَّةِ وسليقَتِه، وكلَّما قرُبَ ٱلصحافيُّ مِنَ ٱلصنعةِ وحقِّها على ٱلجمهور، بَعُدَ عنِ ٱلفنِّ وجمالِهِ وحقِّهِ على ٱلنفس، وهذا واضحٌ بِلا كبيرِ تأمُّل، بلْ هو واضحٌ بِغيرِ تأمُّلَ. . .

---

(١) عِبرة، بكسر العين: العظة والدرس.

صعاليكُ ٱلصحافة

١

لَمَّا ظهرَ كتابي (وحيّ ٱلقلم) حملْتُ منه إلى فُضَلاءِ كتَّابِنَا في دورِ ٱلصحفِ وَٱلمجلاتِ أُهديهِ إليهم لِيقرؤُوه ويكتبوا عنه، وأنا رجلٌ ليسَ فيَّ أكثرُ مِمَّا فيَّ، كَٱلنجم يستحيلُ أنْ يكونَ فيهِ مستنقع؛ فما أعلمُ في طبيعتي موضِعاً لِلْنفاقِ تتحوَّلُ فيهِ ٱلبصلةُ إلى تفاحة، ولا مكاناً مِنَ ٱلخوفِ تنقلِبُ فيهِ ٱلتفاحةُ إلى بصلة، ولسْتُ أهدي من كتبي إِلَّا إحدى هديتين: فإمَّا ٱلتحيةُ لِمَنْ أثِقُ بِأدبِهِم وكِفايتِهِم وسلامةِ قلوبِهِم، وإما إنذارُ حربٍ لِغيرِ هؤلاء!

وٱلقرآنُ نفسُهُ قد أثبتَ ٱللَّهُ فيهِ أقوالَ مَنْ عابُوه، لِيَدِلَّ بذلك على أنَّ ٱلحقيقةَ مُحتاجةٌ إلى مَنْ يُنكِرُها ويرُدُها، كحاجتِها إلى مَنْ يُقِرُّ بِها ويقَبلُها، فهي بِأحدِهما تُثبِتُ وجودَها، وبِٱلآخرِ تُثْبتُ قدرتَها على ٱلوجودِ وٱلاستمرار.

وَٱلشعورُ بِٱلحقِّ لا يخرسُ أبداً؛ فإذا كانَتِ ٱلنفسُ قويَّةً صريحةً مرَّ من باطنِها إلى ظاهِرِها في ٱلكلمةِ ٱلخالصة، فإِنْ قال: لا أو نعم، صدقَ فيهما؛ وإذا كانَتِ ٱلنفسُ ملتويةً ٱعترضتْهُ ٱلأغراضُ وَٱلدخائل، فمرَّ من باطنٍ إلى باطنٍ حتى يخلصَ إلى ٱلظاهرِ في ٱلكلمةِ ٱلمقلوبة؛ إذْ يكونُ شعوراً بِٱلحقِّ يُغطِّيهِ غرضٌ آخرُ كَٱلحسدِ ونحوِهِ، فإِنْ قالَ: لا أو نعم، كذبَ فيهما جميعاً.

* * *

وكنْتُ في طوافي على دورِ ٱلصحفِ وٱلمجلاتِ أُحسُّ في كلٍّ منها سؤالاً يسألُني بِهِ ٱلمكان: لِماذا لم تجيءْ؟ فإنِّي في ٱبتداءِ أمري كنْتُ نزعْتُ إلى ٱلعملِ في ٱلصحافة، وأنا يومئذٍ متعلِّمٌ ريِّضٌ[1] ومتأدبٌ ناشىء، ولكنَّ أبي ـ رحمَهُ ٱللهُ ـ

---

(١) ريّض: متدرّب.

ردّني عن ذلك ووجّهني في سبيلي هذه ـ وٱلحمد لله ـ، فلو أنّني نشأتُ صحافياً لَكنتُ ٱلآنَ كبعضِ ٱلحروفِ ٱلمكسورةِ في ٱلطبع. . .

وَللصحافةِ ٱلعربيةِ شأنٌ عجيب، فهيَ كلّما تمَّتْ نقصَت، وكلّما نقصَتْ تمّت؛ إذْ كانَ مدارُ ٱلأمر فيها على ٱعتبار أكثرِ مَنْ يقرؤُونها أنصافُ قرّاءٍ أو أنصافُ أُميِّين؛ وهيَ بهذا كَٱلطريقةِ لِتعليمِ ٱلقراءةِ ٱلاجتماعيَّةِ أو ٱلسياسيَّةِ أوِ ٱلأدبيَّة؛ فتمامُها بِمراعاةِ قواعدِ ٱلنقصِ في ٱلقارىء. . . وما بُدٌّ أنْ تتقيَّدَ بِأوهامِ ٱلجمهورِ أكثرَ مِمَّا تتقيَّدُ بِحقيقةِ نفسِها، فهي معَهُ كَٱلزوجةِ ٱلتي لم تَلِدْ بعدُ، لها من رجُلِها مَنْ يأمرُها ويجعلُها في حُكمِهِ وهواه، وليسَ لها مَنْ أبنائِها من تأمرُهم وتجعلُهم في طاعتِها ورأْيِها وأدبِها؛ ثُمَّ هي عَمَلُ ٱلساعةِ وٱليوم، فما أبعدَها من حقيقةِ ٱلأدبِ ٱلصحيح، إذْ يُنظرُ فيهِ إلى ٱلوقتِ ٱلدائمِ لا إلى ٱلوقتِ ٱلغابر، ويُرادُ بِهِ معنى ٱلخلودِ لا معنى ٱلنسيان.

ولا يقتلُ ٱلنبوغَ شيءٌ كَٱلعملِ في هذه ٱلصحافةِ بِطريقتِها؛ فإِنَّ أساسَ ٱلنبوغِ (ما يجبُ كما يجب)؛ ودأبُهُ ٱلعمقُ وَٱلتغلْغلُ في أسرارِ ٱلأشياءِ وَإخراجِ ٱلثمرةِ ٱلصغيرةِ من مثلِ ٱلشجرةِ ٱلكبيرةِ بِعملٍ طويلٍ دقيق؛ أمَّا هيَ فأساسُها (ما يُمكنُ كما يُمكنُ) ودأبُها ٱلسرعةُ وَٱلتصفّحُ وَٱلإلمامُ وصِناعةٌ كَصِناعةِ ٱلعنوانِ لا غير.

فليسَ يحسنُ بِٱلأديبِ أنْ يعملَ في هذه ٱلصحافةِ ٱليوميَّةِ إلَّا إذا نضجَ وتَمَّ وأصبحَ كَٱلدولةِ على «ٱلخريطة»، لا كَٱلمدينةِ في ٱلدولةِ في ٱلخريطة؛ فهو حينئذٍ لا يسهلُ محوُهُ ولا تبديلُهُ. . . ثُمَّ هو يمدُّها بِٱلقوَّةِ ولا يستمدُّ ٱلقوَّةَ منها، ويكونُ تاجاً من تِيجانِها لا خرزةً من خرزاتها، ويقومُ فيها كَٱلمنارةِ ٱلعظيمةِ تُلقي أشعتَها من أعلى ٱلجوّ إلى مدًى بعيدٍ مِنَ ٱلآفاق، لا كَمِصباحٍ من مصابيحِ ٱلشارع!

وحالةُ ٱلجمهورِ عندَنا تجعلُ ٱلصحافةَ مكاناً طبيعيّاً لِرجلِ ٱلسياسةِ قبلَ غيرِه؛ إذْ كانَ ٱلرجلُ ٱلسياسيُّ هو صوتَ ٱلحوادثِ سائلاً ومُجيباً، ثُمَّ يليهِ ٱلرجلُ شبهُ ٱلعالم، ثُمَّ ٱلرجلُ شِبهُ ٱلمُمثلِ ٱلهزليّ. . . وَٱلأديبُ ٱلعظيمُ فوقَ هؤلاءِ جميعاً، غيرَ أنَّهُ عندنا في ٱلصحافةِ وراءَ هؤلاءِ جميعاً!.

* * *

ولَمَّا فرغْتُ من طوافي على دورِ ٱلصحفِ جاءَتْ هيَ تطوفُ بي في نومي فرأيتُني ذاتَ ليلةٍ أدخلُ إحداها لِأُهديَ (وحيَ ٱلقلم) إلى ٱلأديبِ ٱلمتخصِّصِ فيها لِلْكتابةِ ٱلأدبيّة؛ ودلوُني عليهِ فإذا رجلٌ مربوعٌ مشوَّهُ ٱلخَلْقِ صغيرُ ٱلرأسِ دقيقُ ٱلعنقِ

جاحظُ ٱلعينين، تدورانِ في محجريهما دورةً وحشيَّةً كأنَّما رعبَتْهُ ٱلحياةُ مُذْ كَانَ جنيناً في بطنِ أُمِّه، لِأَنَّهُ خُلِقَ لِلإحساسِ وَٱلوصف، أو كأنَّما رُكِّبَ فيهِ هذا ٱلنظرُ ٱلساخرُ لِيرى أكثرَ مِمَّا يرى غيرُهُ من أسرارِ ٱلسخريةِ فينبغَ في فنونها، أو هو قد خُلِقَ[1] بهاتينِ ٱلعينينِ ٱلجاحظتينِ دلالةً عَليهِ مِنَ ٱلقدرةِ ٱلإلهيَّةِ بِأَنَّهُ رجلٌ فذٌّ أُرسلَ لِتدقيقِ ٱلنظر.

وقالَ ٱلذي عرَّفني بِه: حضْرتُه عمرو أَفندي ٱلجاحظ... وهو أديبُ ٱلجريدة.

قلْت: شيخُنا أبو عثمانَ عمروُ بْنُ بحر؟

فضحكَ ٱلجاحظُ وقال: وأديبُ ٱلجريدة، أي شحاذُ ٱلجريدة، يكتبُ لَهَا كما يقرأُ القارىءُ على ضريحٍ: بِٱلرغيفِ وَٱلجِبْنِ وَٱلبيضِ وَٱلقرش...

قلتْ: إنَّا لِلَّه! فكيف ٱنتهيْتَ يا أبا عثمانَ إلى هذه ٱلنهايةِ وكنْتَ من أعاجيبِ ٱلدنيا؟ وكيف خِبْتَ[2] في ٱلصحافةِ وكنْتَ رأساً في ٱلكلام؟

قال: نجحَتْ أخلاقي فخابَتْ آمالي، ولو جاءَ ٱلوضعُ بِٱلعكس لَكانَ ٱلأمرُ بِٱلعكس؛ وَٱلمصيبةُ في هذه ٱلصحفِ أنَّ رجلاً واحداً هو قانونُ كلِّ رجلٍ هنا.

قلْت: وذاك ٱلرجلُ ٱلواحدُ ما قانونُه؟

قال: لَهُ ثلاثةُ قوانين: الجهاتُ ٱلعاليةُ وما يستوحيهِ منها، وٱلجهاتُ ٱلنازلةُ وما يُوحيهِ إليها، وقانونُ ٱلصلةِ بينَ ٱلجهتين وهو...

قلْت: وهو ماذا؟

فحملقَ فيَّ وقال: ما هذه ٱلبلادة؟ وهوَ ٱلذي (هو)... أمَا ترى ٱلصحيفةَ ككُلِّ شيءٍ يُباع؟ وأنت فخبِّرني ـ ولكَ ٱلدولةُ وٱلصولةُ عندَ ٱلقراء ـ ألم ترَ بعينيك أنَّك لو جئْتَ تدفعَ ثمانمائةِ قِرش، لكنْتَ في نفوسِهم أعظمَ مِمَّا أنت وقد جِئْتَ تهدي ثمانمائةِ صفحةٍ مِنَ ٱلبيانِ وَٱلأدب؟

قلْت: يا أبا عثمان، فماذا تكتبُ هنا؟

قال: إنَّ ٱلكتابةَ في هذه ٱلصحافةِ صورةٌ مِنَ ٱلرؤيةِ، فماذا ترى أنت في... وفي... وفي؟... لقد كنَّا نروي في ٱلحديث: «يكونُ قومٌ يأكلونَ ٱلدنيا بِأَلْسِنَتِهم كما تلحسُ ٱلأَرضَ ٱلبقرةُ بِلِسانِها»؛ فلعلَّ من هذه ٱلألسنةِ ٱلطويلةِ لسانَ صاحبِ ٱلجريدة...

---

(١) الخلق، بتسكين اللام: الهيئة.
(٢) خبت: فشلت.

قلْت: ولكنَّك يا شيخَنا قد نَسِيْتَ ٱلقرَّاءَ وحكمَهم على ٱلصحيفة.

قال: القرَّاءُ ما ٱلقرَّاء، وما أدراكَ ما ٱلقرَّاء! وهلْ أساسُ أكثرِهم إلا بلادةُ ٱلمدارس، وسخافةُ ٱلحياة، وضعفُ ٱلأخلاق، وكذبُ ٱلسياسة؟ إنَّ الإبداعَ كلَّ ٱلإبداعِ في أكثرِ ما تكتبُ هذه ٱلصحف، أنْ تجعلَ ٱلكذبَ يكذبُ بطريقةٍ جديدة... وما دامَ ٱلمبدأُ هو ٱلكذب، فَٱلمظهرُ هو ٱلهزْلُ؛ وَٱلناسُ في حياةٍ قد ماتَتْ فيها ٱلمعاني ٱلشديدةُ ٱلقويَّةُ ٱلساميَّةُ، فهم يُريدونَ ٱلصحافةَ ٱلرخيصةَ، وَٱللغةَ ٱلرخيصة، وَٱلقراءةَ ٱلرخيصة؛ وبهذا أصبحَ ٱلجاحظُ وأمثالُهُ هم (صعاليكَ ٱلصحافة).

* * *

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيس ٱلتحرير، فنهضَ إليه، ثُمَّ رجعَ بعينين لا يُقالُ فيهما جاحظتان، بلْ خارجتان... وقال: أفّ! ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

كلَّا وٱلذي حرَّم ٱلتزُّيدَ على ٱلعلماء، وقبَّحَ ٱلتكلُّفَ عندَ ٱلحُكماء، وبَهْرَجَ[1] ٱلكذابينَ عندَ ٱلفقهاء، لا يظنُّ هذا إلَّا مَنْ ضلَّ سعيُه[2]».

قُلْتُ: ماذا دهاكَ يا أبا عثمان؟

قال: ويحَها صحافة! قلْ في عمِّكَ ما قال ٱلمثل: جَحَظ إليهِ عملُه.

قلْت: ولكنْ ما ٱلقصة؟

قال: ويحَها صحافة! وقالَ ٱلأحنف: أربعٌ من كنَّ فيه كانَ كاملاً، ومَنْ تعلَّقَ بِخَصلةٍ منهُنَّ كانَ من صالحي قومِه: دينٌ يُرْشِدُه، أو عقلٌ يُسدِّدُه[3]، أو حسَبٌ يصونُه، أو حياءٌ يقناه». وقال: «المؤمنُ بينَ أربع: مؤمنٌ يحسدُه، ومنافقٌ يُبغضُه، وكافرٌ يُجاهِدُه، وشيطانٌ يفتنُه. وأربعٌ ليسَ أقلَّ منهن: ٱليقين، وٱلعدل، ودرهمٌ حلال، وأخٌ فِي ٱلله». وقالَ ٱلحسنُ بْنُ عليّ: ...

قلت: يا شيخَنا، دَعْنَا الآنَ مِنَ ٱلروايةِ وَٱلحِفْظِ وَٱلحسنِ وَٱلأحنف؛ فمذا دهاك عندَ رئيس ٱلتحرير؟

قال: لم أحسنِ ٱلمُهاترَة في ٱلمقالِ ٱلذي كتبْتُهُ ٱليوم... ويقولُ رئيسُ

---

(١) بهرج: عدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها بقصد التنويه.

(٢) يقصد من ذلك أنه نظر في فعله فرأى سوء صنيعه.

(٣) يسدّده: يهديه إلى الصراط المستقيم.

ٱلتحرير: إنَّ نصفَ ٱلتمويهِ رذيلة؟ فإنَّ نصفَهُ ٱلآخرَ يدلُّ على أنَّهُ تمويه. ويقول: إنَّ سموَّ ٱلكتابةِ ٱنحطاطٌ فصيح، لِأنَّ ٱلقرَّاءَ في هذا ٱلعهدِ لا يخرجونَ من حِفْظِ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ ودراسةِ كتبِ ٱلعلماءِ وٱلفصحاءِ، بلْ مِنَ ٱلرواياتِ وَٱلمجلاتِ ٱلهزْليَّة. وحِفْظُ ٱلقرآنِ وَٱلحديثِ وكلام ٱلعلماءِ يضعُ في ٱلنفسِ قانونَ ٱلنفس، ويجعلُ معانيَها مهيَّأةً بِٱلطبيعةِ لِلٱستجابةِ لِتلكَ ٱلمعاني ٱلكبيرةِ في ٱلدينِ وَٱلفضيلةِ وَٱلجِدِّ وَٱلقوَّة؛ ولكنْ ماذا تصنعُ ٱلرواياتُ وٱلمجلَّاتُ وصورُ ٱلمُمَثِّلاتِ ٱلمُغَنياتِ وخبرُ ٱلطالبِ فلانٍ وَٱلطالبةِ فلانَةَ وٱلمسارحِ وَٱلملاهي؟

ويقولُ رئيسُ ٱلتحرير: إنَّ ٱلكاتبَ ٱلذي لا يسألُ نفسَهُ ما يُقالُ عنِّي في ٱلتاريخ، هو كاتبُ ٱلصحافةِ ٱلحقيقيّ، لِأنَّ ٱلقروشَ هيَ ٱلقروشُ وَٱلتاريخُ هو ٱلتاريخ؛ ومطبعةُ ٱلصحيفةِ ٱلناجحةِ هيَ بنتُ خالةِ مطبعةِ ٱلبنكِ ٱلأهليّ؛ ولا يتحقَّقُ نسَبُ ما بينَهما إلَّا في إخراجِ ٱلورقِ ٱلذي يُصْرَفُ كلُّهُ ولا يُرَدُّ منه شيءٌ!

إنَّهم يُريدونُ إظهارَ ٱلمخازي مكتوبة، كحوادثِ ٱلفجورِ وَٱلسرقةِ وَٱلقتلِ وٱلعِشْقِ وغيرِها؛ يزعمون أنها أخبارٌ تُروى وتَقَصُّ لِلْحِكايةِ أوِ ٱلعِبرة، وَٱلحقيقةُ أنها أخبارُهم إلى أعصابِ ٱلقرَّاء...

* * *

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

صعاليكُ ٱلصحافة...

٢

وغابَ شيخُنا أبو عثمانَ عندَ رئيسِ التحريرِ بعضَ ساعةٍ، ثُمَّ رجعَ تدورُ عيناهُ في جِحَاظَيْهما وقدِ ٱكفهَرَّ وجهُهُ وعبَسَ كأنَّما يجري فيهِ ٱلدمُ ٱلأسودُ لا ٱلأحمر، وهو يكادُ ينشقُّ مِنَ ٱلغيظ، وبعضُهُ يَغلي في بعضِهِ كَٱلماءِ على ٱلنار؛ فما جلسَ حتى جاءَتْ ذبابتانِ فوقعَتا على كَتَفَيْ أنفِهِ تُتِمَّانِ كآبَةَ وجهِهِ ٱلمشوَّه، فكانَ منظرُهما من عينيهِ ٱلسَّوداوينِ ٱلجاحظتينِ منظرَ ذبابتينِ وُلدتا من ذبابتين...

وتركَهُما ٱلرجلُ لِشأنِهِمَا وسكَتَ عنهما؛ فقلْتُ لَهُ: يا أبا عثمان، هاتانِ ذبابتان، ويُقالُ إنَّ الذُّبابَ يحمل ٱلعدوَى.

فضحكَ ضحكةَ المَغِيظ[1] وقال: إنَّ ٱلذبابَ هنا يخرجُ منَ ٱلمطبعةِ لا مِنَ ٱلطبيعة. فأكثرُ القولِ في هذهِ ٱلجرائدِ حشَراتٌ مِنَ ٱلألفاظ: منها ما يُستقذَرُ وما تنقلِبُ لَهُ ٱلنفس، وما فيهِ ٱلعدوَى، وما فيهِ ٱلضررُ؛ وما بُدٌّ أنْ يعتادَ ٱلكاتبُ ٱلصحافيُّ مِنَ ٱلصبرِ على بعضِ ٱلقوْلِ مثلَ ما يعتادُ ٱلفقيرُ مِنَ ٱلصبرِ على بعضِ ٱلحشراتِ في ثيابِه؛ وقد يُريدُهُ صاحبُ ٱلجريدةِ أو رئيسُ ٱلتحريرِ على أنْ يكتبَ كلاماً لو أعفاهُ منه وأرادَهُ على أنْ يجمعَ ٱلقمَّلَ وَٱلبراغيثَ من أهدام ٱلفقراءِ وَٱلصعاليكِ بِقدرِ ما يملأُ مقالة... كانَ أخفَّ عليهِ وأهون، وكانَ ذلكَ أصرَحَ في معنى ٱلطلبِ وَٱلتكليف.

وكيفما دارَ ٱلأمرُ فإنَّ كثيراً مِنَ كلام ٱلصحفِ لو مسخَهُ ٱللَّهُ شيئاً غيرَ ٱلحروفِ ٱلمطبعيَّة، لَطارَ كلُّهُ ذُباباً على وجوهِ ٱلقرَّاء!.

قُلْت: ولكنَّكَ يا أبا عثمانَ ذهبْتَ مُتَطَلِّقاً إلى رئيسِ ٱلتحريرِ ورجعْتَ متعقِّداً فما ٱلذي أنْكَرتَ منه؟

---

(١) المغيظ: الغاضب.

قال: «لو كانَ ٱلأمرُ على ما يشتهيهِ ٱلغريرُ وٱلجاهلُ بِعواقبِ ٱلأمورِ، لَبطلَ ٱلنظرُ وما يشحذُ عليهِ وما يدعو إليه، ولتَعطَّلَتِ ٱلأرواحُ من معانيها وَٱلعقولُ من ثِمارِها، ولَعدِمَتِ ٱلأشياءُ حُظُوظها وحُقُوقَها»، هناك رجلٌ من هؤلاءِ ٱلمَعنيِّينَ بِٱلسياسةِ في هذا ٱلبلد. . . يُريدُ أنْ يخلُقَ في ٱلحوادثِ غيرَ معانيها، ويربطَ بعضَها إلى بعضٍ بأسبابِ غيرِ أسبابِها، ويَخرجَ منها نتائجُ غيرُ نتائجها، ويلفِّقَ لَها مِنَ ٱلمنطقِ رُقَعاً كهذه ٱلرقعِ في ٱلثوبِ ٱلمفتوق؛ ثُمَّ لا يرضى إلَّا أنْ تكونَ بذلك ردّاً على جماعةِ خصومِهِ وهي ردٌّ عليهِ وعلى جماعتهِ، ولا يرضى مَعَ ٱلردِّ إلَّا أنْ يكونَ كالأعاصيرِ تدفعُ مثلَ تيارِ ٱلبحرِ في ٱلمستنفعِ ٱلراكد.

ثُمَّ لم يجدْ لها رئيسُ ٱلتحريرِ غيرَ عمِّك أبي عثمانَ في لطافةِ حِسِّهِ وقوَّةِ طبعِهِ وحُسْنِ بيانِهِ وٱقتدارِهِ على ٱلمعنى وضِدِّه، كأنَّ أبا عثمانَ ليسَ عندَهُ مِمَنْ يُحاسبونَ أنفسهُم، ولا مِنَ ٱلممَيِّزينَ في ٱلرأي، ولا مِنَ ٱلمستدلّين بِٱلدليل، ولا مِنَ ٱلناظرينَ بِٱلحُجة؛ وكأَنَّ أبا عثمانَ هذا رجلٌ حُروفيّ. . .

كحروفِ ٱلمطبعة: تُرفعُ من طبقةٍ وتُوضعُ في طبقةٍ وتكونُ على ما شِئْت، وأدنى حالاتِها أنْ تمدَّ إليها ٱليدَ فإذا هي في يدِك.

وأنا ٱمرؤٌ سيدٌ في نفسي، وأنا رجلُ صدق، ولسْتُ كهؤلاءِ ٱلذينَ لا يتأثَّمونَ[١] ولا يتذمَّمون[٢]؛ فإنْ خضْتُ في مثلِ هذا ٱنتفضَ طبعي وضَعُفتِ ٱستطاعتي وتَبيَّنَ ٱلنقصُ فيما أكتب، ونزلْتُ في ٱلجهتين؛ فلا يَطَّردُ لِيَ ٱلقولُ على ما يرجو، ولا يستوي على ما أُحِبّ؛ فذهبْتُ أناقضُهُ وأردُّ عليه؛ فبُهِتَ ينظرُ إليّ ويُقَلِّبُ عينيهِ في وجهي، كأنَّ ٱلكاتبَ عندَهُ خادمُ رأيِهِ كخادمِ مطبخِهِ وطعامِهِ، هذا من هذا!.

ثُمَّ قالَ لي: يا أبا عثمان، إنِّي لأَستحي أنْ أعنِّفَك؛ وبهذا ٱلقولِ لم يستحِ أنْ يُعنّفَ أبا عثمان. . ولهممْتُ ـ وَٱللهِ ـ أنْ أُنشدَهُ قولَ عباس بْنِ مرداس:

أكُلَيب. . مالكَ كلَّ يومٍ ظالماً ... وَٱلظُّلْمُ أنكَدُ وجهُهُ ملْعونُ. . .

لولا أن ذكْرتُ قولَ ٱلآخر:

وما بينَ مَنْ لم يُعطِ سَمْعاً وطاعةً ... وبينَ تميمٍ غيرُ حَزِّ ٱلغلاصِمِ

(١) يتأثمون: يشعرون بالإثم.

(٢) يتذمّمون: يشعرون بالذمّ.

وحزُّ ٱلغلاصم[1] «وقطعُ ٱلدراهم» من قافيةٍ واحدة. . . وقالَ سعيدُ بْنَ أبي عُروبةَ: «لأنْ يكونَ لي نصفُ وجهٍ ونصفُ لِسانٍ على ما فيهما من قبحِ ٱلمنظرِ وعجزِ ٱلمخبر ـ أحبُّ إليّ من أنْ أكونَ ذا وجهينِ وذا لِسانينِ وذا قولينِ مختلفين». وقال أيوبُ ٱلسختيانيّ. . .

وهمَّ شيخُنا أنْ يمرَّ في ٱلحفظِ وٱلروايةِ على طريقتِه، فقلْت: وقالَ رئيسُ ٱلتحرير. . .؟

فضحكَ وقال: أمَّا رئيسُ ٱلتحريرِ فيقول: إنَّ ٱلخلابةَ وٱلمُواربةَ وتقليبَ ٱلمنطقِ هيَ كلُّ ٱلبلاغةِ في ٱلصحافةِ ٱلحديثة، ولهي كقلْبِ ٱلأعيانِ في معجزاتِ ٱلأنبياءِ ـ صلواتُ ٱلله عليهم ـ؛ فكما ٱنقلبَتِ ٱلعصا حيَّةً تسعى، وهيَ عصا وهيَ مِنَ ٱلخشب، فكذلك تنقلِبُ ٱلحادثةُ في معجزاتِ ٱلصحافةِ إذا تعاطاها ٱلكاتبُ ٱلبيلغُ بِٱلفِطْنةِ ٱلعجيبةِ وٱلمنطقِ ٱلملوَّنِ وَٱلمعرفةِ بِأساليبِ ٱلسياسة؛ فتكونُ لِلْتهويل، وهي في ذاتِها ٱطمئنان، وَللتهمةِ وهي في نفسِها براءة، ولِلْجنايةِ وهيَ في معناها سلامة: ولو نَفَخَ ٱلصحافيُّ ٱلحاذقُ في قبضةٍ مِنَ ٱلترابِ لٱستطارَتْ منها ٱلنارُ وَٱرتفعَ لَهبُها ٱلأحمرُ في دخانِها ٱلأسود. قال: وإنَّ هذا ٱلمنطقَ ٱلملوَّنَ في ٱلسياسةِ إنَّما هو إتقانُ ٱلحِيلةِ على أنْ يصدِّقَكَ ٱلناس؛ فإنَّ ٱلعامَّةَ وأشباهَ ٱلعامَّةِ لا يصدّقون ٱلصدقَ لنفسِه، ولكنْ لِلغرضِ ٱلذي يُساقُ لَهُ، إذْ كانَ مدارُ ٱلأمرِ فيهم على ٱلإيمانِ وَٱلتقديس، فأذِقْهم حلاوةَ ٱلإيمانِ بِٱلكذبِ فلنْ يعرفوه إلَّا صِدْقاً وفوقَ ٱلصِّدْق، وهم من ذاتِ أنفسِهم يُقيمونَ ٱلبراهينَ ٱلعجيبةَ ويُساعدون بها مَنْ يكذبُ عليهم متى أحكمَ ٱلكذب، لِيحقّقوا لِأنفسِهم أنَّهُم بحثوا ونظروا ودقَّقوا. . .

ثُمَّ قالَ أبو عثمان: ومعنى هذا كُلِّهِ أنَّ بعضَ دُورِ ٱلصحافةِ لو كتبَتْ عِبارةً صريحةً لِلإعلانِ لَكَانَتِ ٱلعِبارةُ هكذا: سياسةٌ لِلْبيع. . .

* * *

قلْت: يا شيخَنا، فإنَّك هنا عندَهم لِتكتَب كما يكتبون، ومقالاتُ ٱلسياسةِ ٱلكاذبةِ كرسائلِ ٱلحُبِّ ٱلكاذب: تُقرأُ فيها معانٍ لا تُكتب، ويكونُ في عِبارتِها حياءٌ وفي ضمنِها طلبُ ما يُستَحى منه. . . وٱلحوادثُ عندَهم على حسبِ ٱلأوقات،

(١) الغلاصم، مفرده الغلصمة وهو اللحم بين الرأس والعنق، أو العُجرة على ملتقى اللهاة أو المريء، أو رأس الحلقوم.

فَٱلأبيضُ أسودُ في ٱلليل، وَٱلأسودُ أبيضُ في ٱلنهار؛ ألم تَرَ إلى فلانٍ كيف يصنعُ وكيف لا يُعجزُهُ برهانٌ وكيف يُخرِّجُ ٱلمعاني؟

قال: بلى، نِعمَ ٱلشاهدُ هو وأمثالُه! إنَّهم مصدَّقونَ حتى في تاريخِ حفرِ زمزم.

قلْت: وكيف ذلك؟

قال: شهدَ رجلٌ عندَ بعضِ ٱلقضاةِ على رجلٍ آخر، فأرادَ هذا أنْ يجرِّحَ شهادَته، فقالَ لِلقاضي: أتقبلُ منه وهو رجل يملكُ عشرينَ ألفَ دينارٍ ولم يحجَّ إلى بيتِ ٱلله؟ فقالَ ٱلشاهد: بلى قد حججْتُ. قالَ ٱلخصم؛ فَٱسأَلْهُ أيُّها ٱلقاضي عن زمزمٍ كيف هي؟ قالَ ٱلشاهد: لقد حججْتُ قبلَ أنْ تُحفرَ زمزمٌ فلم أرَها...

قالَ أبو عثمان: فهذه هيَ طريقةُ بعضِهم فيما يُزكِّي بِهِ نفسَه: ينزلونَ إلى مثلِ هذا ٱلمعنى وإنِ ٱرتفعوا عن مثلِ هذا ٱلتعبير؛ إذْ كانَتِ ٱلحياةُ ٱلسياسيَّةُ جَدَلاً في ٱلصحفِ لِنفيِ ٱلمنفيِّ وإثباتِ ٱلمُثْبَت، لا عملاً يعملونَهُ بِٱلنفي وَٱلإثبات؛ ومتى ٱستقلَّتْ هذه ٱلأُمَّةُ وجبَ تغييرُ هذه ٱلصحافةِ وإكراهُها على ٱلصدق، فلا يكونُ ٱلشأنُ حينئذٍ في إطلاقِ ٱلكلمةِ ٱلصحافيَّةِ إلَّا من معناها ٱلواقع.

وَٱلحياةُ ٱلمستقلَّةُ ذاتُ قواعدَ وقوانينَ دقيقةٍ لا يُترخَّصُ[1] فيها ما دامَ أساسُها إيجادَ ٱلقوَّةِ وحياطةَ ٱلقوَّةِ وأعمالَ ٱلقوَّة، وما دامَتْ طبيعتُها قائمةً على جعلِ أخلاقِ ٱلشعبِ حاكمةً لا محكومة؛ وقد كانَ ٱلعملُ ٱلسياسيُّ إلى ٱلآنِ هو إيجادَ ٱلضعفِ وحياطةَ ٱلضعفِ وبقاءَ ٱلضعف؛ فكانَتْ قواعدُنا في ٱلحياةِ مغلوطة؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ ٱلخُلُقُ ٱلقويُّ ٱلصحيحُ هوَ ٱلشاذَّ ٱلنادرَ يظهرُ في ٱلرجلِ بعدَ ٱلرجلِ وٱلفترةِ بعدَ ٱلفترة، وذلك هو ٱلسببُ في أنَّ عندَنا مِنَ ٱلكلامِ ٱلمُنافِقِ أكثرُ مِنَ ٱلحرّ، ومِنَ ٱلكاذبِ أكثرُ مِنَ ٱلصادق، ومِنَ ٱلمُمَاري أكثرُ مِنَ ٱلصريح؛ فلا جَرَمَ ٱرتفعتِ ٱلألقابُ فوقَ حقائقِها، وصارَتْ نعوتُ ٱلمناصبِ وكلماتُ باشا وبك مِنَ ٱلكلامِ ٱلمقدَّسِ صحافياً...

يا لَعبادِ ٱلله! يأتيهمُ ٱسمُ ٱلأديبِ ٱلعظيم فلا يجدونَ لَهُ موْضِعاً في «محليات ٱلجريدة»؛ ويأتيهمُ اسمُ ٱلباشا أو ٱلبك أو صاحبُ ٱلمنصبِ ٱلكبيرِ فبماذا تتشرَّفُ «ٱلمحليَّاتُ» إلَّا بِهِ؟ وهذا طبيعيّ، ولكنْ في طبيعةِ ٱلنفاق؛ وهذا واجبٌ، ولكنْ حينَ يكونُ ٱلخضوعُ هوَ ٱلواجبَ؛ ولو أنَّ لِلأديبِ وزْناً في ميزانِ ٱلأُمَّةِ لَكانَ لَهُ مثلُ

---

(١) يترخصّ: يتساهل.

ذلك في مِيزانِ ٱلصحافة؛ فأنت ترى أنَّ ٱلصحافةَ هنا هيَ صورةٌ من عاميَّةِ ٱلشعْبِ ليسَ غير... ومَنْ ذا ٱلذي يُصحِّحُ معنى ٱلشرفِ ٱلعاملِ لِهذهِ ٱلأُمَّةِ وتاريخِها، وأكثرُ ٱلألقابِ عندَنا هيَ أغلاطٌ في معنى ٱلشرف...؟

ثُمَّ ضحكَ أبو عثمانَ وقال: زعموا أنَّ ذبابةً وقعَتْ في بارجةِ (أميرالٍ) إنجليزيٍّ أيامَ ٱلحربِ ٱلعظمى؛ فرأَتِ ٱلقائدَ ٱلعظيمَ وقد نشرَ بين يديهِ دُرْجاً مِنَ ٱلورقِ وهو يُخَطِّطُ فيهِ رسْماً من رسومِ ٱلحرْب؛ ونظرَتْ فإذا هو يُلقي ٱلنقطةَ بعدَ ٱلنقطةِ مِنَ ٱلمدادِ ويقول: هذه مدينةُ كذا، وهذا حِصْنُ كذا، وهذا مَيدانُ كذا. قالوا: فسخِرَتْ منهُ ٱلذبابةُ وقالَت: ما أيسرَ هذا ٱلعملَ وما أخفَّ وما أهون!. ثُمَّ وقعَتْ على صفحةٍ بيضاءَ وجعلَتْ تُلْقي وَنِيمَها[1] هنا وهناك وتقول: هذه مدينةٌ، وهذا حصن...

* * *

وَٱلتفتَ ٱلجاحظُ كأنَّما توهَّمَ ٱلجرسَ يدقّ... فلمَّا لم يسمعْ شيئاً قال:

لو أنَّني أصدْرتُ صحيفةً يوميَّةً لَسميْتُها (ٱلأكاذيب)، فمهما أكذبُ على ٱلناسِ فقدْ صدقْتُ في ٱلاسم، ومهما أُخطىءُ فلنْ أُخطىءَ في وضعِ ٱلنفاقِ تحتَ عنوانهِ.

قال: ثُمَّ أخطُّ تحتَ ٱسمِ ٱلجريدةِ ثلاثةَ أسطرٍ بِٱلخطِّ ٱلثلث هذا نصُّها:

ما هي عِزةُ ٱلأذلاء؟ هيَ ٱلكذبُ ٱلهازل.

ما هيَ قوةُ ٱلضعفاء؟ هيَ ٱلكذبُ ٱلمكابر.

ما هيَ فضيلةُ ٱلكذابين؟ هيَ ٱستمرارُ ٱلكذب.

قال: ثُمَّ لا يحرِّرُ في جريدتي إلَّا «صعاليكُ ٱلصحافة» من أمثالِ ٱلجاحظ؛ ثُمَّ أكذبُ على أهلِ ٱلمالِ فأمجِّدُ ٱلفقراءَ ٱلعاملين، وعلى رِجالِ ٱلشرفِ فأعظِّمُ ٱلعمالَ ٱلمساكينَ، وعلى أصحابِ ٱلألَقابِ فأقدِّمُ ٱلأدباءَ وَٱلمؤلفين، و...

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

* * *

(١) ونيم الذباب: هو ما تحدثه من نقط سود على الآنية أو الزجاج وما شاكل.

صعاليكُ ٱلصحافة

٣

ولم يلبثْ أنْ رجعَ أبو عثمانَ في هذه ٱلمرَّةِ وكأنَّهُ لم يكنْ عندَ رئيسِ ٱلتحرير في عملٍ وأدائِه، بلْ كانَ عندَ رئيسِ ٱلشُّرطةِ في جنايةٍ وعِقابِها؛ فظهرَ مُنْقلِبَ ٱلسِّحْنةِ ٱنقلاباً دمِيماً شوَّهَ تشويهَهُ وزادَ فيه زيادات. . . ورأيْتُهُ ممطوطَ ٱلوجهِ مطّاً شنيعاً بدَتْ فيهِ عيناهُ ٱلجاحظتانِ كأنَّهما غيرُ مستقرتينِ في وجهِه، بلْ معلقتانِ على جبهتهِ. . .

وجعلَ يضربُ إحدى يديهِ بِٱلأخرى ويقول: هذا بابٌ على حِدَّةٍ في ٱلامتحانِ وَٱلبلوى، وما فيهِ إِلَّا ٱلمؤنةُ ٱلعظيمةُ وٱلمشقةُ ٱلشديدة؛ وٱلعملُ في هذه ٱلصحافةِ إنَّما هوَ ٱمتحانُكَ بِٱلصبرِ على ٱثنين: على ضميرِك، وعلى رئيسِ ٱلتحرير! «وسألَ بعضُ أصحابِنا أبا لُقمانَ ٱلممرورَ عنِ ٱلجزءِ ٱلذي لا يتجزأُ ما هو؟ فقال: الجزءُ ٱلذي لا يتجزأُ عليُّ بْنُ أبي طالبَ ـ عليهِ ٱلسلام ـ فقالَ لَهُ أبو ٱلعيناءِ محمد: أفليسَ في ٱلأرضِ جزءٌ لا يتجزأُ غيرُه! قال: بلى، حمزةُ جزءٌ لا يتجزأ. . . قال: فما تقولُ في أبي بكرٍ وعمر؟ قال: أبو بكر يتجزَّأُ. . . قال: فما تقولُ في عثمان؟ قال: يتجزَّأُ مرتين، وَٱلزُّبيرُ يتجزأُ مرتين. . . قال: فأيَّ شيءٍ تقول في معاوية؟ قال: لا يتجزَّأُ.

«فقدْ فكرْنَا في تأويلِ أبي لُقمانَ حينَ جعلَ ٱلأيامَ أجزاءَ لا تتجزَّأُ إلى أي شيءٍ ذهب؟ فلمْ نقعْ عليهِ إِلَّا أنْ يكونَ أبو لُقمانَ كانَ إذا سمعَ ٱلمتكلمينَ يذكرون ٱلجزءَ ٱلذي لا يتجزأُ، هالَهُ ذلك وكَبُرَ في صدرِهِ وتوهَّمَ أنَّهُ ٱلبابُ ٱلأكبرُ من عِلْمِ ٱلفلسفة، وأنَّ ٱلشيءَ إذا عظُمَ خطرُهُ سَمَّوْهُ بِٱلجزءِ ٱلذي لا يتجزأ».

قلْت: ورجعَ بنا ٱلقولُ إلى رئيسِ ٱلتحرير. . .

فضحكَ حتى أسفرَ وجهُهُ[1] ثُمَّ قال: إنَّ رئيسَ ٱلتحريرِ قد تلقَّى ٱلساعةَ أمراً

---

(١) أسفر وجهه: بان عن شيء.

بأنَّ ٱلجزءَ ٱلذي لا يتجزَّأُ ٱليومَ هو فلان؛ وأنَّ فلاناً ٱلآخرَ يتجزأُ مرتين. . . وأنَّ ٱلمعنى ٱلذي يبني عليهِ رأيَ ٱلصحيفةِ في هذا ٱلنهارِ هو شأنُ كذا في عملِ كذا؛ وأنَّ هذا ٱلخبرَ يجبُ أنْ يُصوَّرَ في صِيغةٍ تُلائمُ جوعَ ٱلشعبِ فتجعلُهُ كَٱلخبزِ ٱلذي يَطعمُهُ كلُّ ٱلناس، وتُثيرُ لَهُ شهوةً في ٱلنفوسِ كشهوةِ ٱلأكلِ وطبيعةً كطبيعةِ ٱلهضم. . . وقد رمى إليَّ رئيسُ ٱلتحريرِ بِجملةِ ٱلخبر، وعليَّ أنا بعدَ ذلك أنْ أُضرِمَ[١] ٱلنارَ وأنْ أجعلَ ٱلترابَ دقيقاً أبيضَ يُعجنُ ويُخبزُ ويُؤكلُ ويَسوغُ في ٱلحلقِ وتستمرئُهُ ٱلمَعِدةُ ويسري في ٱلعروق.

وإذا أنا كتبْتُ في هذا ٱحتجْتُ مِنَ ٱلترقيعِ وٱلتمويه، ومِنَ ٱلتدليسِ[٢] وٱلتغليط، ومِنَ ٱلخِبِّ[٣] وٱلمكْر، ومِنَ ٱلكذبِ وَٱلبُهتان ـ إلى مثلِ ما يحتاجُ إليهِ ٱلزنديقُ[٤] وٱلدهريُّ[٥] وَٱلمعطِّلُ[٦] في إقامةِ ٱلبرهاناتِ على صِحَّةِ مذهبٍ عَرَفَ ٱلناسُ جميعاً أنَّهُ فاسدٌ بِٱلضرورةِ إذْ كانَ معلوماً مِنَ ٱلدينِ بِٱلضرورة، أنَّهُ فاسدٌ؛ وأينَ ترى إلَّا في تلكَ ٱلنِّحَلِ[٧] وفي هذه ٱلصحافةِ أنْ يُنكرَ ٱلمتكلمُ وهو عارفٌ أنَّهُ مُنْكِر، وأنْ يجترِىءَ وهو مُوْقنٌ أنَّهُ مجترِيءٌ، ويُكابِرَ وهو واثقٌ أنَّهُ يُكابِر؟ فقد ظهرَ تقديرٌ من تقدير، وعملٌ من عمل، ومذهبٌ من مذهب؛ وٱلآفةُ أنَّهم لا يستعملونَ في ٱلإقناعِ وَٱلجَدَلِ وَٱلمُغالطةِ إلَّا ٱلحقائقَ ٱلمُؤَكَّدة؛ يأخذونها إذا وُجِدَتْ ويصنعونَها إنْ لَمْ تُوجد، إذْ كانَ ٱلتأثيرُ لا يَتِمُّ إلَّا بجعلِ ٱلقارىءِ كَٱلحالم: يملكُهُ ٱلفِكْرُ ولا يملكُ هو منه شيئاً، ويُلقَى إليهِ ولا يمتنعُ، ويُعطى ولا يَرُدُّ على مَنْ أعطاه.

قلْت: ولكنْ ما هوَ ٱلخبرُ ٱلذي أرادوك على أنْ تجعلَ من ترابِهِ دقيقاً أبيض؟

قال: هو بِعينِهِ ذلك ٱلشأنُ ٱلذي كتبْتُ فيهِ لِهذه ٱلصحيفةِ نفسِها أنقضُهُ وأُسفِّهُهُ وأردُّ عليه، وكانَ يومئذٍ جزءاً يتجزَّأ. . . فإنْ صنعْتُ ٱليومَ بلاغتي في تأييدِهِ وتزيينِهِ وَٱلإشادةِ بِه، ولم يكنْ هذا كاسراً لي، ولا حائلاً بيني وبينَ ذاتِ نفسي ـ

---

(١) أضرم النار: أشعلها.

(٢) التدليس: هو كتمان عيب السلعة عن المشتري ومنه التدليس في الإسناد وهو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعلّه ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه.

(٣) الخبّ: الخدّاع.

(٤) الزنديق: هو من كان يخفي ديناً ويظهر آخر عند الفرس.

(٥) الدهري: هو من يؤمن بإفناء الدهر للمخلوقات، ولا يؤمن بالله سبحانه وتعالى.

(٦) المعطّل: هو من يؤمن بأن الله عزّ وجل غير فاعل في الكون، وأنه لا يسيره.

(٧) النحل، مفرده نحلة أي المذهب.

فلا أقلُّ من أَنْ يكونَ ٱلجاحظُ تكذيباً لِلْجاحظ، آهِ لو وُضِعَ ٱلرديو في غرفِ رؤساءِ ٱلتحريرِ لِيسمعَ ٱلناس. . .

قلْت: يا أبا عثمان، هذا كقولِك: لو وُضِعَ ٱلرديو في غرفِ قوادِ ٱلجيوشِ أو رؤساءِ ٱلحكومات.

قال: ليس هذا من هذا، فإنَّ لِلْجيشِ معنًى غيرَ ٱلحِذْقِ[1] في تدبيرِ ٱلمعاشِ وٱلتكسُّبِ وجمع ٱلمال؛ وفي أسرارِهِ أسرارُ قوَّةِ ٱلأُمَّةِ وعملُ قوتِها؛ ولِلْحكومةِ دخائلُ سياسيَّةٌ لَا يُحرِّكُها أنَّ فُلاناً ٱرتفعَ وأنَّ فُلاناً ٱنخفض، ولا تُصرِّفُها ٱلعَشْرةُ أكثرَ من ٱلخمسة؛ وفي أسرارِها أسرارُ وجودِ ٱلأُمَّةِ ونظامُ وجودِها.

قال أبو عثمان: وإنَّما نزلَ بصحافتِنا دونَ منزلتِها أنَّها لا تجدُ ٱلشعبَ القارىءَ المُميِّزَ ٱلصحيحَ ٱلقراءةِ ٱلصحيحَ ٱلتميز، ثُمَّ هيَ تُريدُ أنْ تذهبَ أموالُها في إيجادِهِ وتنشئتِهِ؛ وعملُ ٱلصحافةِ مِنَ ٱلشعبِ عملُ ٱلتيارِ مِنَ ٱلسفنِ في تحريكِها وتيسيرِ مجراها، غيرَ أنَّ ٱلمضحِكَ أنَّ تيارَنَا مع سفينةٍ ويرجعُ مع سفينة. . . ولو أنَّ ٱلصحافةَ ٱلعربيَّةَ وجدَتِ ٱلشعْبَ قارئاً مُدركاً مميِّزاً معتبِراً مستبصِراً لمَا رَمَتْ بنفسِها على ٱلحكوماتِ وَٱلأحزابِ عجْزاً وضعْفاً وفُسولة، ولا خرجَتْ عَنِ ٱلنسقِ ٱلطبيعيِّ ٱلذي وُضِعَتْ لَهُ، فإنَّ ٱلشعبَ تحكمُهُ ٱلحكومة، وإنَّ ٱلحكومةَ تحكمُها ٱلصحافة، فهيَ مِنْ ثَمَّ لِسانُ ٱلشعب؛ وإنَّما يقرؤُها ٱلقارىءُ لِيرى كلمتَهُ مكتوبة؛ وشعورُ ٱلفردِ أنَّ لَهُ حقّاً في رَقابةِ ٱلحكومةِ وأنَّهُ جزءٌ من حركةِ ٱلسياسةِ وَٱلاجتماع، هوَ ٱلذي يُوجِبُ عليهِ أنْ يبتاعَ كلَّ يومٍ صحيفةَ ٱليوم.

قالَ أبو عثمان: فَٱلصحافةُ لا تقوى إلَّا حيثُ يكونُ كلُّ إنسانٍ قارئاً، وحيثُ يكونُ كلُّ قارىءٍ للصحيفةِ كأنَّهُ مُحرِّرٌ فيها، فهو مُشارِكٌ في ٱلرأْيِ لِأَنَّهُ واحدٌ مِمَّنْ يدورُ عليهمُ ٱلرأْي، مُتَتَبِّعٌ لِلْحوادثِ لأنَّهُ هو من مادتِها أو هيَ من مادتِه، وهو لذلك يُريدُ مِنَ ٱلصحيفةِ حِكايةَ ٱلوقتِ وتفسيرَ ٱلوقت، وأنْ تكونَ لَهُ كما يكونُ ٱلتفكيرُ ٱلصحيحُ لِلْمفكر، فيُلزِمُها ٱلصدقَ ويطلُبُ منها ٱلقوَّةَ ويلتمِسُ فيها ٱلهِداية، وتأتي إليهِ في مطلعِ كلِّ يومٍ أو مغربِهِ كما يدخلُ إلى دارِهِ أحدُ أهلِهِ ٱلساكنينَ في دارِه.

وفي قِلَّةِ ٱلقرَّاءِ عِندَنا آفتان: أمَّا واحدةٌ فهي ٱلقِلَّةُ ٱلتي لا تُغني شيئاً؛ وأمَّا ٱلأخرى فَهُمْ على قِلَّتِهِم لا ترى أكبرَ شأْنِهِم إلَّا عِبادةَ قوْمٍ لِقوْم، وزِراية أناسٍ

---

(١) الحذق: المهارة.

بآخرين، وتعلُّقَ نِفاقٍ بنِفاق، وتصديقَ كذِبٍ لِكذِب؛ وآفةٌ ثالثةٌ تَخرجُ من ٱجتماع ٱلاثنتين: وهيَ أنَّ أكثرَهُمْ لا يكونون في قِراءتِهِمُ ٱلصحيفةَ إلَّا كَالنظارةِ ٱجتمعوا لِيشهدوا ما يتلهَّوْنَ به، أو كَالفَراغِ يلتمسونَ ما يقطعونَ بهِ ٱلوقت؛ فهم يأخذونَ ٱلسياسةَ مأخذَ مَنْ لا يُشاركُ فيها، ويتعاطَوْن ٱلجِدَّ تعاطِيَ مَنْ يلْهو به، ويتلقَّوْنَ ٱلأعمالَ بِروحِ ٱلبطالة، وَٱلعزائمَ بأسلوبِ عدمِ ٱلمُبَالاة، وَٱلمُباحثةَ بِفكرةِ ٱلإهمال، وَٱلمعارضَةَ بِطَبيعةِ ٱلهزْءِ وَٱلتحقير؛ وهم كَٱلمصَلِّينَ في ٱلمسجد؛ فمثِّلْ لِنفسِك نوعاً مِنَ المصلينَ إذا ٱصطفوا وراءَ ٱلإمامِ تركوهُ يُصلِّي عنْ نفسِهِ وعنهم وَٱنصرفوا...

قالَ أبو عثمان: بهذا ونحوِهِ جاءَتِ ٱلصُّحُفُ عندَنا وأكثرُها لا ثباتَ لَهُ إلَّا في ٱلموضِع ٱلذي تكونُ فيهِ بينَ منافعِهِ ووسائلِ منافعِه؛ ومن هذا ونحوِهِ كانَ أقوى ٱلمادةِ عندَنا أنْ تظهرَ ٱلصحيفةُ مملوءةً حكومةً وسلْطةً وباشواتٍ وبيكوات... وكانَ مِنَ ٱلطبيعيِّ أنَّ محلَّ ٱلباشا وَٱلبك وٱلحوادثِ ٱلحكوميَّةِ ٱلتفهةِ لا يكونُ منَ ٱلجريدةِ إلَّا في موضعِ قلْبِ ٱلحيِّ مِنَ ٱلحيِّ.

ثُمَّ ٱستضحكَ شيخُنا وقال: لقد كتبْتُ ذاتَ يوم مقالةً أقترِحُ فيها على ٱلحكومةِ تصحيحَ هذه ٱلألقاب، وذلك بِوضعِ لقبٍ جديدٍ يكونُ هوَ ٱلمفسِّرَ لِجميعِها ويكونُ هوَ ٱللقبَ ٱلأكبرَ فيها، فإذا أُنعِمَ بِهِ على إنسانٍ كَتبَتِ ٱلصحفُ هكذا: أنعمَتِ ٱلحكومةُ على فلانٍ بلقبِ (ذو مال).

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

* * *

فلم يلبثْ إلَّا يسيراً ثُمَّ عادَ متهلِّلاً ضاحكاً وقد طابَتْ نفسُهُ فليسَ لَهُ جحوظُ ٱلعينين إلَّا بِٱلقدرِ ٱلطبيعيّ، وجلسَ إليَّ وهو يقول:

بيدَ أنَّ رئيسَ ٱلتحريرِ لم ينشرْ ذلك ٱلمقال، ولم يَرَ فيهِ ٱستطرافاً[1] ولا ٱبتكاراً ولا نُكتةً ولا حُجَّةً صادقة، بلْ قال: كأنَّكَ يا أبا عثمانَ تُريدُ أنْ يأكلَ عددُ ٱليوم عددَ ٱلغد، فإذا نحن زهِدْنا في ٱلألقابِ وأصغرْنا أمرَها وتهكَّمْنا بها وقُلْنا إنَّها أفسَدَتْ معنى ٱلتقديرِ ٱلإنسانيِّ وتركَتْ مَنْ لم ينلْها من ذوي ٱلجاهِ وَٱلغِنى يرى نفسَهُ إلى جانبِ مَنْ نالَها كَٱلمرأةِ ٱلمطلّقةِ بِجانبِ ٱلمتزوِّجة... وقلْنا إنَّها من ذلك تكادُ تكونُ وسيلةً من وسائلِ ٱلدفْعِ إلى ٱلتملُّقِ وَٱلخضوعِ وَٱلنِّفاقِ لِمَنْ بِيدِهِمُ ٱلأمر، أو

(١) استطرافاً: جِدَّة.

وسيلةً إلى ما هو أحطُّ من ذلك كما كانَ شأنُها في عهدِ ٱلدولةِ ٱلعثمانيَّةِ ٱلبائدةِ حينَ كانَ ٱلوِسامُ كَٱلرقعةِ من جِلْدِ ٱلدولةِ يُرقعُ بها ٱلصدرُ ٱلذي شَقُّوهُ وَٱنتزعوا ضميرَه - إذا نحن قُلْنا هذا وفعلْنا هذا، لم نجدِ ٱلشعبَ ٱلذي يُحكمُ لنا، ووجدْنا ذوي ٱلمالِ وَٱلجاهِ وَٱلمناصبِ ٱلذين يحكمونَ علينا؛ فكُنَّا كَمَنْ يتقدَّمُ في ٱلتهمةِ بِغيرِ مُحامٍ إلى قاضٍ ضعيف.

يا أبا عثمان، إنَّما هي حَياةُ ثلاثةِ أشياء: الصحيفة، ثُمَّ ٱلصحيفة، ثُمَّ ٱلحقيقة... فَٱلفكرةُ ٱلأولى لِلْصحيفة، وَٱلفكرةُ ٱلثانيةُ هيَ لِلْصحيفةِ أيضاً؛ ومتى جاءَ ٱلشعبُ ٱلذي يقولُ: لا، بلْ هيَ ٱلحقيقة، ثُمَّ ٱلحقيقة، ثُمَّ ٱلصحيفة - فيومئذٍ لا يُقالُ في ٱلصحافةِ ما قيلَ لِلْيهودِ في كتابِ موسى ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾.

قلْت: أراكَ يا أبا عثمانَ لم تُنكرْ شيئاً من رئيسِ ٱلتحريرِ في هذه ٱلمرة، فشقَّ عليكَ ألا تثلُبَهُ، فغمزْتَهُ بِٱلكلامِ عن مرَّةٍ سالفة.

قال: أمَّا هذه ٱلمرةَ فأنا ٱلرئيس لا هو، وفي مثلِ هذا لا يكونُ عمُّكَ أبو عثمانَ من (صعاليكِ ٱلصحافة)؛ إنَّ ٱلرجلَ ٱشتبَهَ في كلمة: ما وجهُها: أَمرفوعةٌ هيَ أم منصوبة؟ وفي لفظة: ما هيَ: أعربيَّةٌ أم مولَّدة؟ وفي تعبيرٍ أعجميٍّ: ما الذي يُؤديهِ مِنَ ٱلعربيَّةِ ٱلصحيحة؟ وفي جملة: أهيَ في نسقِها أفصَحُ أَمْ يُبدلُها؟

إنَّ ٱلمعجمَ هنا لا يُفيدُهم شيئاً إلَّا إذا نطق...

ولقدِ ٱبتُليَتْ هذه ٱلأُمَّةُ في عهدِها ٱلأخيرِ بِحُبِّ ٱلسهولةِ مِمَّا أَثَّرَ فيها ٱلاحتلالُ وسياستُهُ وتحمُّلُهُ ٱلأعباءَ عنها وٱستهدافُهُ دونَها لِلْخطر، فشبَهُ ٱلعاميَّةِ في لغةِ ٱلصحفِ وفي أخبارها وفي طريقِها إنَّما هو صورةٌ من سهولةِ تلك ٱلحياة، وكأنَّهُ تثبيتٌ للضعفِ وَٱلخورِ[1]، وأنت خبيرٌ أنَّ كلَّ شيءٍ يتحَّولُ بِما تُحدِثُ لَهُ طبيعتُهُ عالياً أو نازلاً، فقد تحْولَتِ ٱلسهولةُ من شِبهِ ٱلعاميَّةِ إلى نِصفِ ٱلعاميَّةِ في كتابةِ أكثرِ ٱلمجلاتِ وفي رسائلِ طلبةِ ٱلمدارس، حتى لَتبدُوَ ٱلمقالةُ في ألفاظِها ومعانيها كأنَّها ٱلقنفذُ أرادَ أنْ يحملَ مأكلةَ صِغارِه، فقرضَ عنقوداً مِنَ ٱلعنب، فألقاهُ في ٱلأرضِ وأتربَهُ وتمرَّغَ فيه، ثُمَّ مشى يحملُ كلَّ حبةٍ مرضوضةٍ في عشرينَ إبرةً من شوكِه.

* * *

---

(١) الخَوَر: الضعف.

ثُمَّ مدَّ أبو عثمانَ يدَهُ فتناولَ مجلَّةً ممَّا أمامَهُ وقعَتْ يدُهُ عليها ٱتِّفاقاً ثُمَّ دفعَها إليَّ وقال: اِقرأْ ولا تجاوزْ عنوانَ كلِّ مقالة. فقرأتُ هذه ٱلعناوين:

«مسؤوليَّةُ طبيبٍ عن فتاةٍ عذراء»، «مودةُ ٱلراقصاتِ ٱلصينيَّات»، «تخرُّ مغشيّاً عليها لِأَنَّهُمُ ٱكتشفوا صورةَ حبيبِها»، «هلْ يُعتبرُ قبولُ ٱلهديَّةِ دليلاً على ٱلحُبّ، وإذا كانَتْ ملابسُ داخليةٌ... فهل تُعتبرُ وعداً بِٱلزواج؟»، «هلْ يَحِقُّ لِلأَبِ أنْ يُطالبَ صديقَ ٱبنتِه... بِتعويضٍ إذا كانَتْ ٱبنتُهُ غيرَ شرعيَّة»، «بين خَطيبتينِ لِشابٍّ واحد»، «بعدَ أنْ قصَّ على زوجتِهِ أخبارَ ٱلسهرة... لماذا أطلقَتْ عليهِ ٱلرصاص؟»، «عروسٌ تأخذُ (شبكة) من شابينِ ثُمَّ تطردُهما»، «زوجةُ ٱلموظفِ أين ذهبَت»، «لِماذا خُطفَتِ ٱلعروسُ في ٱليومِ ٱلمحددِ لِلزفاف؟» «في الطريق: حبٌّ بِٱلإكراه»، «فلانون وفلانات، زواجٌ وطلاق، وأخبارُ ٱلمراقص، وحوادثُ أماكنِ ٱلدعارة» إلخ إلخ.

فقالَ أبو عثمان: هذه هي حريَّةُ ٱلنشر؛ وَلَئِنْ كانَ هذا طبيعيّاً في قانونِ ٱلصحافةِ إنَّهُ لإثمٌ كبيرٌ في قانونِ ٱلتربية؛ فإنَّ ٱلأحداثَ وَٱلضعفاءَ يجدونَهُ عندَ أنفسِهِم كَٱلتخييرِ بينَ ٱلأخذِ بِٱلواجبِ وبينَ تركِه، ولا يفهمونَ من جوازِ نشرِهِ إلَّا هذا. «وبابٌ آخرُ من هذا ٱلشكلِ فبِكُم أعظمُ حاجةٍ إلى أنْ تعرفوه وتقفوا عندَه، وهو ما يصنعُ ٱلخبرُ ولا سيَّما إذا صادفَ مِنَ ٱلسامعِ قِلَّةَ تجربة، فإنْ قَرَنَ بينَ قِلَّةِ ٱلتجربةِ وقلةِ ٱلتحفظ ـ دخلَ ذلك ٱلخبرُ إلى مستقَرِّهِ مِنَ ٱلقلْبِ دُخولاً سهْلاً، وصادفَ موضِعاً وطيئاً وطبيعةً قابلةً ونفساً ساكنة، ومتى صادفَ ٱلقلبَ كذلك رسخَ رُسوخاً لا حِيلةَ في إزالتِه.

ومتى أُلقيَ إلى ٱلفتيانِ شيءٌ من أمورِ ٱلفتياتِ في وقتِ ٱلغرارةِ وعندَ غلبةِ ٱلطبيعةِ وشبابِ ٱلشهوةِ وقلّةِ ٱلتشاغلِ و...».

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبا عثمانَ إلى رئيس التحرير...

* * *

صعاليك الصحافة

تتمة

وجاءَ أبو عثمانَ وفي بُروزِ عينيهِ ما يجعلُهُما في وجهِهِ شيئاً كعلامتي تعجُب ألقتْهما الطبيعةُ في هذا الوجه، وقد كانوا يُلقِّبونَهُ (الْحَدَقي) فوق تلقيبهِ بِالجاحظ، كأنَّ لقباً واحداً لا يُبيّنُ عن قبحِ هذا ٱلنتوءِ في عينيهِ إلَّا بمرادفٍ ومُساعدٍ مِنَ ٱللغة... وما تذكَّرْتُ ٱللقبينِ إلَّا حينَ رأيْتُ عينيهِ هذهِ ٱلمرَّة.

وَٱنحطَّ في مجلسِهِ كأنَّ بعضَهُ يرمي بعضَهُ من سخطٍ وغيْظٍ، أو كأَنَّ من جسمِهِ ما لا يُريدُ أنْ يكونَ من هذا ٱلخَلْقِ ٱلمشوَّه، ثُمَّ نصبَ وجهَهُ يتأمَّل، فبَدَتْ عيناهُ في خروجِهِما كأنَّما تهمَّانِ بِٱلفرارِ من هذا ٱلوجهِ ٱلذي تحيا ٱلكآبةُ فيهِ كما يحيا ٱلهمُّ في ٱلقلْب؛ ثُمَّ سكَتَ عنِ ٱلكلامِ لِأَنَّ أفكارَهُ كانت تُكَلِّمُهُ.

فقطعْتُ عليهِ ٱلصمْتَ وقلْت: يا أبا عثمان، رجعْتَ من عندِ رئيسِ ٱلتحريرِ زائداً شيئاً أو ناقصاً شيئاً؛ فما هو ـ يرحَمْكَ ٱلله ـ؟

قال: رجعْتُ زائداً أنِّي ناقص، وهَهنا شيءٌ لا أقولُه ولو أنَّ في ٱلأرضِ ملائكةً يمشون مطمئنينَ لوقفوا على عمِّكَ وأمثالِ عمِّكَ من كُتَّابِ ٱلصحفِ يتعجَّبون لِهذا ٱلنوعِ ٱلجديدِ مِنَ ٱلشهداء!.

وقالَ ٱبنُ يحيى ٱلنديم: دعاني ٱلمتوكِّلُ ذاتَ يومٍ وهو مخمورٌ فقال: أنشدني قولَ عَمارةَ في أهلِ بغدادَ. فأنشدْتُه:

ومَنْ يشتري منِّي ملوكَ مخَرِّم	أَبِعْ حَسناً وٱبْنيْ هشامٍ بِدرهمِ
وأُعْطِ «رجاءً» بعْدَ ذاك زِيادةً	وأمنحْ «ديناراً» بغيرِ تَندُّمِ

قال أبو عثمان:

فإنْ طَلَبُوا منِّي ٱلزيادةَ زِدْتُهم	أبا دُلَفٍ وَٱلمستطيلَ بْنَ أكثمِ

ويلي على هذا ٱلشاعر! ٱثنانِ بِدرهمٍ، وَٱثنانِ زيادةٌ فوقَهُما لِعظَمِ ٱلدرهمِ،

وَٱثنانِ زيادةٌ على ٱلزيادةِ لِجَلالةِ ٱلدرهم: كأنَّهُ رئيسُ تحريرِ جريدةٍ يرى ٱلدنيا قد مُلِئَتْ كُتَّاباً، ولكنَّ هٰهنا شيئاً لا أقولُه.

وزعموا أنَّ كسرى أبرويزَ كانَ في منزلِ ٱمرأتِهِ شيرين، فأتاهُ صيادٌ بِسمكةٍ عظيمة، فأُعجبَ بها وأمرَ لَهُ بأربعةِ آلآفِ درهم، فقالَتْ لَهُ شيرين: أمرْتَ لِلصيادِ بأربعةِ آلآفِ درهم، فإنْ أمرْتَ بِها لِرجلٍ مِنَ ٱلوجوهِ قال: إنَّما أمرَ لي بمثلِ ما أمرَ لِلصياد! فقالَ كسرى: كيف أصنعُ وقد أمرْتُ لَهُ؟

قالَت: إذا أتاكَ فقُلْ لَهُ: أخبرني عنِ ٱلسمكة، أذكرٌ هيَ أم أنثى؟ فإنْ قالَ أنثى، فقلْ لَهُ: لا تقعُ عيني عليكَ حتى تأتيَني بِقرينِها، وإِنْ قالَ غيرَ ذلك فقلْ لَهُ مثلَ ذلك.

فلمَّا غدا ٱلصيادُ على ٱلملكِ قالَ لَهُ: أخبِرْني عنِ ٱلسمكة، أذكرٌ هيَ أم أنثى؟ قال: بلْ أُنثى، قالَ ٱلملك: فأْتِني بِقرينِها. فقالَ ٱلصياد: عمرَ ٱللَّهُ ٱلملك، إنَّها كانَتْ بِكْراً لم تتزوجْ بعدُ...

قلْت: يا أبا عثمان، فهلْ وقعْتَ في مثلِ هذهِ ٱلمعضلةِ مَعَ رئيسِ ٱلتحرير؟

قال: لم ينفعْ عمَّكَ أنَّ سمكتَهُ كانَتْ بِكْراً، فإنَّما يُريدونَ إخراجَهُ مِنَ ٱلجريدة؛ وما بلاغةُ أبي عثمانَ ٱلجاحظِ بِجانبِ بلاغةِ ٱلتلغرافِ وبلاغةِ ٱلخبرِ وبلاغةِ ٱلأرقامِ وبلاغةِ ٱلأصفرِ وبلاغةِ ٱلأبيض... ولكنَّ هٰهنا شيئاً لا أُريدُ أنْ أقولَه.

وسمكتي هذه كانَتْ مقالةً جوَّدْتُها وأحكمْتُها وبلغْتُ بألفاظِها ومعانيها أعلى منازِلِ ٱلشرفِ وأسنى[1] رُتَبِ ٱلبيان، وجعلْتُها في ٱلبلاغةِ طبقةً وحدَها، وقبلَ أنْ يقولَ ٱلأوربيُّون (صاحبةُ ٱلجلالةِ ٱلصحافة) قالَ ٱلمأمون: «ٱلكتَّابُ ملوكٌ على ٱلناس»، فأرادَ عمُّك أبو عثمانَ أنْ يجعلَ نفسَهُ ملكاً بتلك ٱلمقالةِ فإذا هو بها من (صعاليكِ ٱلصحافة).

لقدْ كانَتْ كَٱلعروسِ في زينتِها ليلةَ ٱلجَلْوةِ على مُحِبِّها، ما هيَ إلَّا ٱلشمسُ ٱلضاحية، وما هيَ إلَّا أشواقٌ ولذَّات، وما هيَ إلَّا ٱكتشافُ أسرارِ ٱلحُبّ، وما هيَ إلَّا هيَ؛ فإذا ٱلعروسُ عندَ رئيسِ ٱلتحريرِ هيَ ٱلمطلَّقة، وإذا ٱلمُعجِبُ هوَ ٱلمضحِك، ويقولُ ٱلرجل: أمَّا نظريًّا فنعم، وأما عمليًّا فلا؛ وهذا عصرٌ خفيفٌ

---

(١) أسنى: أرفع.

يُريدُ ٱلخفيف، وزمنٌ عاميٌّ يُريدُ ٱلعاميّ، وجمهورٌ سهلٌ يُريدُ ٱلسهل؛ وَٱلفصاحةُ هيَ إعرابُ ٱلكلامِ لا سِياستُهُ بِقوى ٱلبيانِ وَٱلفِكْرِ وَٱللغة، فهيَ ٱليومَ قد خرجَتْ من فنونِها وَٱستقرَّتْ في عِلْمِ ٱلنحو.

وحسبُكَ مِنَ ٱلفرقِ بينَك وبينَ ٱلقارىءِ ٱلعاميّ: أنَّكَ أنت لا تلحنُ وهو يلحن.

قال أبو عثمان: وهذه ـ أكرمَكَ ٱللَّهُ ـ منزلةٌ يَقِلُّ فيها ٱلخاصيُّ ويكثرُ ٱلعاميُّ فَيُوشِكُ ألَّا يكونَ بعدَها إلَّا غلبةُ ٱلعاميَّة، ويرجعُ ٱلكلامُ ٱلصحافيُّ كلُّهُ سُوقيًّا بَلَديًّا (حنشصيًّا)، وينقلبُ ٱلنحْوُ نفسُهُ وما هو إلَّا ٱلتكلفُ وَٱلتوعرُ وٱلتقعرُ[1] كما يَرَوْنَ ٱلآنَ في ٱلفصاحة، وٱلقليلُ مِنَ ٱلواجباتِ ينتهي إلى ٱلأقل؛ وَٱلأقلُّ ينتهي إلى ٱلعدم، وَٱلانحدارُ سريعٌ يبدأُ بِٱلخطوةِ ٱلواحدة، ثُمَّ لا تملِكُ بعدَها ٱلخُطى ٱلكثيرة.

لا جَرَمَ فَسَدَ ٱلذوقُ وفسَدَ ٱلأدبُ وفسدَتْ أشياءُ كثيرةٌ كانَتْ كلُّها صالحة، وجاءَتْ فنُونٌ مِنَ ٱلكِتابةِ ما هيَ إلَّا طبائعُ كُتَّابِها تعملُ فيمَنْ يقرؤُها عملَ ٱلطباعِ ٱلحيَّةِ فِيمَنْ يُخالِطُها، ولو كانَ في قانونِ ٱلدولةِ تُهمةُ إفسادِ ٱلأدبِ أو إفسادِ ٱللغة، لَقُبِضَ على كثيرينَ لا يكتبونَ إلَّا صِناعةَ لَهْوٍ ومسلاةَ فراغ[2] وفساداً وإفساداً؛ وَٱلْمُصيبةُ في هؤلاءِ ما يزعمونَ لَكَ من أَنَّهم يستنشِطونَ ٱلقرَّاءَ ويُلهونهم، ونحن إنَّما نعملُ في هذه ٱلنهضةِ لِمعالجةِ ٱللهوِ ٱلذي جعل نِصفَ وجودِنا ٱلسياسيِّ عدماً؛ ثُمَّ لِمَلءِ ٱلفراغِ ٱلذي جعلَ نصفَ حياتِنا ٱلاجتماعيَّةِ بطَّالة؛ وهذا أيضاً مِمَّا جعلَ عمّك أبا عثمانَ في هذه ٱلصحافةِ من (صعاليكِ ٱلصحافة)، وتركَهُ في ٱلمقابلةِ بينَهُ وبينَ بعضِ ٱلكُتابِ كأنَّهُ في أمسٍ وكأنَّهم في غد.

ودقَّ ٱلجرسُ يدعو أبَا عثمانَ إلى رئيسِ ٱلتحرير...

* * *

فما شكَكْتُ أنَّهم سيطردونه، فإنَّ ٱللَّهَ لم يرزُقْهُ لِساناً مطبعيًّا ثرثاراً يكونُ كَٱلمتَّصِلِ من دماغِهِ بِصندوقِ حروف... ولم يجعلْهُ كهؤلاءِ ٱلسياسيينَ ٱلذين يَتِمُّ بِهِمُ ٱلنفاقُ ويتلوَّن، ولا كهؤلاءِ ٱلأدباءِ ٱلذينَ يَتِمُّ بهمُ ٱلتضليلُ ويتشكَّل.

ورجعَ شيخُنا كَٱلمخنوقِ أُرخي عنه وهو يقول: ويلي على ٱلرجل! ويلي مِنَ ٱلكلامِ ٱلظريفِ ٱلذي يُقالُ في ٱلوجهِ لِيَدفعَ في القفا... كانَ ينبغي ألَّا يملكَ هذه ٱلصحافةَ ٱليوميَّةَ إلَّا مجالسُ ٱلأمَّة؛ فذلك هو إصلاحُ ٱلأُمَّةِ وَٱلصحافةِ وَٱلكُتَّابِ

---

(١) التوعّر والتقعّر: وحشي الكلام.

(٢) مسلاة فراغ: مضيعة الوقت.

جميعاً؛ أمّا في هذه ٱلصحف، فَٱلكاتبُ يخبزُ عيشَهُ على نارٍ تأكلُ منه قدْرَ ما يأكلُ من عيشِه؛ ولو أنَّ عمَّك في خفضٍ ورفاهيَّةٍ وسعَة، لَكَانَ في ٱستغنائِهِ عنهم حاجتُهم إليه؛ ولكنَّ ٱلسيفَ ٱلذي لا يجدُ عملاً لِلبطل، تَفضُلهُ ٱلإبرةُ ٱلتي تعملُ لِلْخياط، وماذا يملِكُ عمُّكَ أبو عثمان؟ يملكُ ما لا ينزلُ عنَهُ بدولِ ٱلملوك، ولا بِٱلدنيا كلِّها، ولا بِٱلشمسِ وَٱلقمر؛ إذ يملكُ عقلَهُ وبيانَه، على أنَّهُ مستأجَرٌ هنا بِعقلِهِ وبيانِه، يعقلُ ما شاءُوا ويكتبُ ما شاءوا.

لكَ ٱللَّهُ أنْ أصدُقَك ٱلقولَ في هذهِ ٱلحِرْفةِ ٱليوميَّة: إنَّ ٱلكاتبَ حينَ يخرجُ من صحيفةٍ إلى صحيفة، تخرجُ كتابتُهُ من دينٍ إلى دين...

ورأيْتُ شيخَنا كأنَّما وضعَ لَهُ رئيسُ ٱلتحريرِ مثلَ ٱلبارودِ في دِماغِهِ ثُمَّ أشعلَه، فأردْتُ أنْ أُمازحَهُ وأسرِّيَ عنه، فقلْت: اِسمعْ يا أبا عثمان، جاءتْني بِٱلأمسِ قضيةٌ يرفعُها صاحبُها إلى ٱلمحكمة، وقد كتبَ في عُرْضِ دعواهُ أنَّ جارَ بيتِهِ غَصَبَهُ[1] قطعةً من أرضِ فِنائِهِ ٱلذي تركَهُ حولَ ٱلبيت، وبنَى في هذه ٱلرقعة داراً، وفتحَ لِهذه ٱلدارِ نافذات، فهو يُريدُ مِنَ ٱلقاضي أنْ يحكمَ بِرَدِّ ٱلأرضِ ٱلمغصوبة، وهدمِ هذه ٱلدارِ ٱلمبنيَّةِ فوقَها، و... و... وسدِ نافذاتِها ٱلمفتوحة!...

فضحكَ ٱلجاحظُ حتى أمسكَ بطنَهُ بيدِهِ وقال: هذا أديبٌ عظيمٌ كبعضِ ٱلذين يكتبونَ ٱلأدبَ في ٱلصحافة؛ كثُرَتْ ألفاظُهُ ونقصَ عقلُه، «وسئلَ بعضُ ٱلحكماء: متى يكونُ ٱلأدبُ شرًّا من عدمِه؟ قال: إذا كثُرَ ٱلأدبُ ونقصَتِ ٱلقريحة. وقد قالَ بعضُ ٱلأولين: من لمْ يكنْ عقلُهُ أغلبَ خِصالِ ٱلخيرِ عليه، كانَ حتفُهُ[2] في أغلبِ خِصالِ ٱلخيرِ عليه؛ وهذا كلُّهُ قريبٌ بعضُهُ من بعض» وَٱلأدبُ وحدَهُ هو ٱلمتروكُ في هذه ٱلصحافةِ لِمَنْ يتولَّاهُ كيف يتولَّاه؛ إذْ كانَ أرخصَ ما فيها، وإنَّما هو أدبٌ لِأَنَّ ٱلأُمَمَ ٱلحيَّةَ لا بُدَّ أنْ يكونَ لها أدب، ثُمَّ هو من بعدِ هذا ٱلاسم ٱلعظيم ملءُ فراغٍ لا بُدَّ أنْ يُملأ، وصفحةُ ٱلأدبِ وحدَها هيَ ٱلتي تظهرُ في ٱلجريدةِ ٱليوميَّةَ كبقعَةِ ٱلصدإِ على ٱلحديد: تأكلُ منه ولا تُعطيهِ شيئاً.

ثُمَّ يأبَى من تُتركُ لَهُ هذه ٱلصفحةُ إلَّا أَنْ يجعلَ نفسَهُ (رئيسَ تحرير) على ٱلأدباءِ، فما يدعُ صِفةً من صِفاتِ ٱلنبوغِ ولا نَعْتاً من نعوتِ ٱلعبقريَّةِ إلَّا نَحلَهُ[3]

---

(١) غصبه: استحوذ رغماً عنه على ما يريد منه.

(٢) حتفه: موته.

(٣) نحله: نسبه إليه.

نفسَهُ ووضعَهُ تحتَ ثِيابِه؛ وما أيسرَ ٱلعظمةَ وما أسهلَ مَنالَها إذا كانَتْ لا تُكلِّفُكَ إلَّا ٱلجراءةَ وَٱلدعوى وَٱلزعم، وتلفيقُ ٱلكلامِ من أعراضِ ٱلكتبِ وحواشي ٱلأخبار.

وقد يكونُ ٱلرجلُ في كتابتِهِ كَٱلعامَّة، فإذا عِبْتَهُ بِٱلركاكةِ وَٱلسخفِ وَٱلابتذالِ وفراغِ ما يَكتبُ، قال: هذا ما يُلائمُ ٱلقرَّاء، وقدَ يكونُ من أكذبِ ٱلناسِ فيما يدَّعي لِنفسِهِ وما يُهوّلُ بِهِ لِتقويةِ شأنِهِ وإصغارِ من عداه، فإذا كذَّبَهُ مَنْ يعرُفُه قال: هذا ما يُلائمني، وهو واثقٌ أنَّهُ في نوعٍ مِنَ ٱلقرَّاءِ ليسَ عليهِ إلَّا أنْ يملأَهُم بهٰذِه ٱلدعاوى كما تُملأُ ٱلساعة، فإذا هم جميعاً يقولون: تك تك... تك... تك.....

فمَنْ زعَمَ أنَّ ٱلبلاغةَ أنْ يكونَ ٱلسامعُ يفهمُ معنى ٱلقائل، جعلَ ٱلفصاحةَ وَٱللُّكنةَ وَٱلخطأَ وَٱلصوابَ وَٱلإغلاقَ وَٱلإبانةَ وَٱلملحونَ وَٱلمغرب، كُلَّهُ سواءً وكُلَّهُ بياناً وكانَ ٱلمكيُّ طيبَ ٱلحُجَج، ظريفَ ٱلحِيَل، عجيبَ ٱلعِلَل، وكانَ يدَّعي كلّ شيءٍ على غايةِ ٱلإحكام[1] ولم يحكمْ شيئاً قطُّ مِنَ ٱلجليلِ ولا مِنَ ٱلدقيق؛ وإذْ قد جرى ذِكرُهُ فسأحدِّثُكَ ببعضِ أحاديثِه، قلْتُ لَهُ مرة: أعلمْتَ أنَّ ٱلشاري حدَّثني أنَّ ٱلمخلوعَ (أي ٱلأمين) بعثَ إلى ٱلمأمونِ بِجرابٍ فيه سمسم، كأنَّهُ مُخبرُهُ أنَّ عندَهُ مِنَ ٱلجندِ بعددِ ذلك، وأنَّ ٱلمأمونَ بعثَ لَهُ بديكٍ أعور، يُريدُ أنَّ طاهرَ بْنَ ٱلحسينِ يَقتلُ هؤلاءِ كلِّهم كما يلقُطُ ٱلديكُ ٱلحَبّ؟

قال: فإنَّ هذا ٱلحديثَ أنا ولَّدتُه، ولكنِ أُنظرْ كيف سارَ في ٱلآفاق...

ثُمَّ قال أبو عثمان: وقد زعمَ أحدُ أدبائِكم أنَّهُ ٱكتشفَ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱكتشافاً أهملَهُ ٱلمتقدمونَ وغفلَ عنهُ ٱلمتأخرون، فنظرَ عمُّكَ في هذا ٱلذي ٱدعاهُ، فإذا ٱلرجلُ على ٱلتحقيقِ كَٱلذي يزعمُ أنَّهُ ٱكتشفَ أمريكا في كِتابٍ من كتبِ ٱلجغرافيا...

وما يزالُ ٱلبُلهاءُ يُصدِّقونَ ٱلكلامَ ٱلمنشورَ في ٱلصحف، لا بأنَّهُ صِدْق، ولكنْ بأنَّه «مكتوبٌ في ٱلجريدة»... فلا عجبَ أنْ يظنَّ كاتبُ صفحةِ ٱلأدب ـ متى كانَ مغروراً ـ أنَّهُ إذا تهدَّدَ إنساناً فما هدَّدَهُ بصفحتِه، بلْ بحكومتِه...

نعم أيُّها ٱلرجلُ إنَّها حكومةٌ ودولة؛ ولكنْ ويحَك: إنَّ ثلاثَ ذُباباتٍ ليسَتْ ثلاثَ قطعٍ من أسطولِ إنجلترا!......

* * *

وضحكَ أبو عثمانَ وضحكْت! فٱستيقظْت.

---

(١) الإحكام: الاتقان.

أبو حنيفةَ ولكنْ بغيرِ فقه!

قد ٱنتهيْنا في ٱلأدبِ إلى نهايةٍ صحافيَّةٍ عجيبة، فأصبحَ كلُّ مَنْ يكتبُ يُنشرُ لَهُ، وكُلُّ مَنْ يُنشرُ لَهُ يَعُدُّ نفسَهُ أديباً، وكلُّ مَنْ عَدَّ نفسَهُ أديباً جازَ لَهُ أنْ يكونَ صاحبَ مذهبٍ وأنْ يقولَ في مذهبِهِ ويردَّ على مذهبِ غيرِه.

فعندَنا ٱليومَ كلماتٌ ضخمةٌ تدورُ في ٱلصحفِ بينَ ٱلأدباءِ كما تدورُ أسماءُ ٱلمستعمراتِ بينَ ٱلسياسيينَ ٱلمتنازعينَ عليها، يتعلَّقُ بها ٱلطمعُ وتنبعثُ لها ٱلفِتنةُ وتكونُ فيها ٱلخصومةُ وَٱلعداوة، منها قولُهم: أدبُ ٱلشيوخ وأدبُ ٱلشبابِ؛ ودكتاتوريَّةُ ٱلأدبِ وديمقراطيَّةُ ٱلأدب، وأدبُ ٱلألفاظِ وأدبُ ٱلحياة، وَٱلجمودُ وَٱلتحوُّل، وَٱلقديمُ وٱلجديد، ثُمَّ ماذا وراءَ ذلك من أصحابِ هذه ٱلمذاهب؟

وراءَ ذلك أنَّ منهم أبا حنيفةَ ولكنْ بغيرِ فقه، وَٱلشافعيَّ ولكنْ بغيرِ ٱجتهاد، ومالِكاً ولكنْ بغيرِ رِواية، وٱبنَ حنبلٍ ولكنْ بغيرِ حديث؛ أَسماءٌ بينَها وبينَ ٱلعملِ أنَّها كذبٌ عليهِ وأنَّهُ ردٌّ عليها.

وليسَ يكونُ ٱلأدبُ أدباً إلَّا إذا ذهبَ يستحدِثُ ويخترعُ على ما يصرّفُهُ ٱلنوابغُ من أهلِهِ حتى يُؤرِّخَ بهم فيُقالُ أدبُ فلانٍ وطريقةُ فلانٍ ومذهبُ فلان، إذْ لا يجري ٱلأمرُ فيما علا وتوسَّطَ ونزلَ إلَّا على إبداعِ غيرِ تقليد، وتقليدٍ غيرِ ٱتباع، وَٱتباعٍ غيرِ تسليم؛ فلا بُدَّ مِنَ ٱلرأي ونبوغِ ٱلرأي وَٱستقلالِ ٱلرأي حتى يكونَ في الكتابة إنسانٌ جالسٌ هو كاتبُها، كما أنَّ الحيَّ الجالسَ في كل حيٍّ هو مجموعُهُ ٱلعصبيُّ، فيخرجُ ضربٌ مِنَ ٱلآدابِ كأنَّهُ نوعٌ مِنَ ٱلتحوُّلِ في ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ يرجعُ بِٱلحياةِ إلى ذراتِ معانِيها، ثُمَّ يرسُمُ من هذه ٱلمعاني مثلَ ما أبدعَتْ ذرَّاتُ ٱلخليقةِ في تركيبٍ من تركيب، فلا يكونُ لِلأَديبِ تعريفٌ إلَّا أنَّهُ ٱلمُقلِّدُ ٱلإلهيّ.

وإذا ٱعتبرْنا هذا ٱلأصلَ فهل يبدأُ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ في عصرِنا أو ينتهي؛ وهلْ تُراهُ يعلو أو ينزِل؛ وهلْ يستجمِعُ أو ينقض، وهلْ هو من قديمِهِ ٱلصريحِ بعيدٌ من بعيدٍ أو قريبٌ من قريبٍ أو هو في مكانٍ بينهَما؟

هذه معانٍ لو ذهبْتُ أفصِّلُها لاَقتحمْتُ تاريخاً طويلاً أمرُّ فيهِ بِعِظام مبعثرةٍ في ثِيابِها لا في قُبورِها . . . ولكنِّي موجِزٌ مقتصرٌ على معنًى هو جمهورُ هٰذه ٱلأطرافِ كلِّها، وإليهِ وحدَهُ يرجعُ ما نحن فيهِ مِنَ ٱلتعادي بينَ ٱلأذواقِ وَٱلإسفافِ بِمَنَازِعِ ٱلرأْيِ وَٱلخَلْطِ وَٱلإضطرابِ في كلِّ ذلك؛ حتى أصبحَ أمرُ ٱلأَدَبِ على أقبحِه وهم يَرَوْنَهُ على أحسنِه، وحتى قِيلَ في: ٱلأسلوبِ أسلوبٌ تلغرافيٌّ، وفي الفصاحةِ فصاحةٌ عاميَّة، وفي ٱللغة لُغةُ ٱلجرائد، وفي ٱلشعر شعرُ ٱلمقالة؛ ونجمَتِ ٱلناجمةُ من كلِّ عِلَّةٍ ويُزيِّنُ لهم أنَّها ٱلقوَّةُ قدِ ٱستحصفَتْ[1] وَٱشتدَّتْ، ونازعَ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ إلى سخريةِ ٱلتقليدِ وإلى أنْ يكونَ لصيقاً دَعِيًّا في آدابِ ٱلأمم، وَٱستهلكَهُ ٱلتضييعُ وسوءُ ٱلنظرِ لَهُ على حينِ يؤَتَّى لهم أنَّ كلَّ ذلك من حِفظِهِ وصِيانتِهِ وحُسْنِ ٱلصنيعِ فيهِ ومن توفيرِ ٱلمادةِ عليه.

أين تُصيبُ ٱلعِلَّةَ إذا التمسْتَها[2]؟ أفي ٱلأدبِ من لُغتِهِ وأساليبِ لغتِه، ومعانيهِ وأغراضِ معانيه؟ أم في ٱلقائمينَ عليهِ في مذاهبِهِم ومناحيهِم وما يَتَّفِقُ من أسبابِهم وجواذبِهِم؟

إنْ تَقُلْ إنَّها في ٱللغةِ وَٱلأساليبِ وَٱلمعاني وَٱلأغراض، فهذه كلُّها تصيرُ إلى حيثُ يُرادُ بها، وتتقلَّدُ ٱلبليَّةَ من كلِّ مَنْ يعملُ فيها؛ وقدِ ٱستوعبَتْ وٱتَّسَعَتْ ومادَتِ ٱلعصورُ ٱلكثيرةُ إلى عهدِنا فلمْ تؤتَ من ضيقٍ ولا جمودٍ ولا ضعفٍ ثُمَّ هيَ مادَّةٌ ولا عليها مِمَنْ لا يُحسِنُ أنْ يضعَ يدَهُ منها حيثُ يملأُ كُفَّهُ أو حيثُ تقعُ يدُهُ على حاجتِه.

وإنْ قُلْتَ إنَّ ٱلعِلَّةَ في ٱلأدباءِ ومذاهبِهِم ومناحيهم ودواعيهم وأسبابهم، سألْناك: ولِمَ قصَّروا عنِ ٱلغاية، ولِمَ وقعُوا بِٱلخلاف، وكيف ذهبوا عنِ ٱلمصلَحة، وكيف ٱعتقمَتِ ٱلخواطرُ وفسدَتِ ٱلأذواقُ مَعَ قِيام ٱلأدبِ ٱلصحيح في كتبِهِ مقامَ أُمَّةٍ من أهلِهِ أعراباً وفُصحاءَ وكُتَّاباً وشعراء، ومعَ ٱنفساح ٱلأُفُقِ ٱلعقليِّ في هذا ٱلدهرِ وَٱجتماعِهِ من أطرافِهِ لِمَنْ شاءَ، حتى لَتجدُ عقولَ نوابغِ ٱلقارَّاتِ ٱلخمسِ تُحتقَبُ[3] في حقيبةٍ مِنَ ٱلكتب، أو تُصَندَقُ[4] في صندوقٍ مِنَ ٱلأسفار.

كيف ذهبَ ٱلأدباءُ في هذه ٱلعربيَّةِ نشراً متبدِّدِيْنَ تعلو بهمُ ٱلدائرةُ وتهبط،

---

(١) استحصفت: أوجدت رأياً رزيناً.
(٢) التمستها: فتّشت عليها وبحثت.
(٣) تُحتقب: تُوضع في حقيبة.
(٤) تصندق: توضع في صندوق.

فكلٌّ أعلى وكلٌّ أسفل؟ هذا فلانٌ شاعرٌ قد أحاطَ بِٱلشعرِ عربيِّهِ وغربيِّهِ وهو ينظمُهُ ويفتنُ في أغراضِهِ ويولِّدُ ويسرقُ وينسخُ ويمسخ، وهو عندَ نفسِهِ ٱلشاعرُ ٱلذي فقدتْهُ كلُّ أمةٍ من تاريخِها ووقعَ في تاريخِ ٱلعربيَّةِ وحدَها ٱبتلاءً ومِحْنة؛ وهو كَكُلِّ هؤلاءِ ٱلمغرورينَ يحسبونَ أنَّهُم لو كانوا في لُغاتٍ غيرِ ٱلعربيَّةِ لَظهروا نجوماً، ولكنَّ ٱلعربيَّةَ جعلَتْ كلاً منهم حصاةً بينَ ٱلحصى، وتقرأُ شِعرَهُ فإذا هو شِعرٌ تتوهَّمُ من قراءتِهِ تقطيعَ ثيابِك، إذْ تجاذبُ نفسَك لِتفرَّ منه فِراراً.

وهذا فلانٌ ٱلكاتبُ ٱلذي وَٱلذي. . . وَٱلذي يرتفعُ إلى أقصى ٱلسمواتِ على جناحيَ ذبابة.

وهذا فرعونُ ٱلأدبِ ٱلذي يقول: أنا ربُّكمُ ٱلأعلى! وهذا فلانٌ وهذا فلان. . .

أين يكونُ ٱلزِّمامُ على هؤلاءِ وأمثالِهم ليعرفوا ما هم فيهِ كما هُمْ فيه، وَلِيضبطُوا آراءَهم وهواجسَهُم(١)، وليعلموا أنَّ حسابَهُم عندَ ٱلناسِ لا عندَ أنفسِهِم فٱلواحَدةُ منهم واحدةٌ وإنْ توهَّمُوها مائةً وتوهَّمَها بعضُهُم ألفاً أو أَلفين، ومتى قالَ ٱلناس: غلِطوا، فقد غلِطوا، ومتى قالوا: سخفاءُ فهم سخفاء.

وأين ٱلزمامُ عليهم وقدِ ٱنطلقوا كأنَّهم مسخرونَ بِٱلجبرِ على قانونٍ مِنَ ٱلتدميرِ وٱلتخريب، فليسَ فيهم إلَّا طبيعةٌ مُكَابِرَةٌ لا إقرارَ منها، باغيةٌ لا إنصافَ معها، نافرةٌ لا مَسَاغَ إليها، مُتَّهمةٌ لا ثِقَةَ بها؛ طبيعةٌ يتحوَّلُ كلُّ شيءٍ فيها إلى أثرٍ منها كما يتحَوَّلُ ماءُ ٱلشجرِ في ٱلعُودِ ٱلرطْبِ ٱلمشتعِلِ إلى دُخانٍ أسود!

* * *

يرجعُ هذا ٱلخلْطُ في رأيي إلى سببٍ واحد: هو خلُو ٱلعصرِ من إمامٍ بِٱلمعنى ٱلحقيقيِّ يلتقي عليهِ ٱلإجماعُ ويكونُ مِلْءَ ٱلدهرِ في حكمتِهِ وعقلِهِ وريِهِ ولِسانِهِ ومناقبِهِ وشمائلِه؛ فإنَّ مثلَ هذا ٱلإمام يُخَصُّ دائماً بِٱلإرادةِ ٱلتي ليسَ لها إلَّا ٱلنصرُ وٱلغلَبَةُ وٱلتي تُعطي ٱلقوَّةَ على قتلِ ٱلصغائرِ وَٱلسفاسف؛ وهو إذا أُلقيَ في ٱلميزانِ عندَ ٱختلافِ ٱلرأي، وُضِعَ فيهِ بِٱلجمهورِ ٱلكبيرِ من أنصارِهِ وَٱلمعجبينَ بآدابه،

وبِٱلسوادِ ٱلغالبِ من كلِّ ٱلفاعليَّاتِ ٱلمحيطةِ بهِ وَٱلمنجذبةِ إليه؛ ومِنْ ثَمَّ تتهيأُ قُوةُ ٱلترجيحِ ويتعيَّنُ ٱليقينُ وٱلشكُّ؛ وَٱلميزانُ ٱليومَ فارغٌ من هذه ٱلقوَّةِ فلا يرْجحُ ولا يُعيِّن.

---

(١) هواجسهم: خوفهم وهمومهم.

ومكانةُ هذا ٱلإمامِ تحدُّ ٱلأمكنة، ومقدارُهُ يزنُ ٱلمقادير، فيكونُ هو ٱلمنطقَ ٱلإنسانيَّ في أكثرِ ٱلخِلافِ ٱلإنسانيّ: تقومُ بِهِ ٱلحُجَّة، فتُلزمُ وإنْ أنكرَها ٱلمنكر، وتمضي وإنْ عاندَ فيها ٱلمُعَاند، وَيُؤخَذُ بها وإنَّ أصرَّ ٱلمِصرُّ على غيرِها، لِأَنَّ بِٱلإجماعِ على ٱلقياسِ يبينُ ٱلتطرُّفُ في ٱلزيادةِ أوِ ٱلتقصير؛ وَٱلإجماعُ إذا ضَرَبَ ضربَ ٱلمعصيةَ بِٱلطاعة، وَٱلزيغَ[1] بِٱلاستقامة، وَٱلعِنادَ بِٱلتسليم؛ فيخرجُ مَنْ يخرجُ وعليهِ وَسْمُهُ[2]. ويزيغُ مَنْ يزيغُ وفيهِ صِفتُه، ويُصِرُّ ٱلمُكابِرُ وٱسمُهُ ٱلمكابرُ ليس غير، وإنْ هو تكذَّبَ وتأوَّل، وإنْ زعمَ ما هو زاعم.

ولِكُلِّ ٱلقواعدِ شواذُّ ولكنَّ ٱلقاعدةَ هيَ إمامُ بابها؛ فما مِنْ شاذٍّ يحسبُ نفسَهُ مُنطلِقاً مخلًّى، إلَّا هو محدودٌ بها مردودٌ إليها، مُتَّصلٌ من أوسعِ جِهاتِهِ بأضيقِ جهاتِها؛ حتى ما يَعرفُ أنَّهُ شاذٌ إلَّا بِمَا تُعرفُ بِهِ أنَّها قاعدة، فيكونُ شأنُهُ في نفسِهِ بما تُعيِّنُ هي لَهُ على مَكْرَهتِهِ ومحبتِه.

وٱلإمامُ ينبثُّ في آدابِ عصرِهِ فِكْراً ورأياً، ويزيدُ فيها قوَّةً وإبداعاً، ويُزيِّنُ ماضيَها بأنَّهُ في نهايتِه، ومستقبلَها بأنَّهُ في بِدايتِه، فيكونُ كَٱلتعديل بينَ ٱلأزمنةِ من جِهة، وَٱلانتقالِ فيها من جِهةٍ أخرى؛ لِأَنَّ هذا ٱلإمام إنَّما يُختارُ لإظهارِ قوَّةِ ٱلوجودِ ٱلإنسانيِّ من بعضِ وجوهِها وإثباتِ شمولِها وإحاطتِها كأنَّهُ آيةٌ من آياتِ ٱلجنسِ يؤنسِنُ ٱلجنسُ فيها إلى كمالِهِ ٱلبعيد، ويتلقَّى منه حُكْمَ ٱلتمامِ على ٱلنقص، وحُكْمَ ٱلقوَّةِ على ٱلضعف، وحُكْمَ ٱلمَأْمولِ على ٱلواقع؛ ويجدُ فيهِ قومُهُ كما يجدونَ في ٱلحقيقةِ ٱلتي لا يُكابِرُ عندَها متنطِّعٌ[3] بتأْويل، وفي ٱلقوَّة ٱلتي لا يُخالِفُ عندَها مُبْطلٌ بِعِناد، وفي ٱلشريعةِ ٱلتي لا يروغُ[4] منها مُتَعَسِّفٌ بِحيلة؛ ولَنْ يَضِلَّ ٱلناسُ في حقٍّ عرفوا حَدَّه، فإنَّ ما وراءَ ٱلحَدِّ هوَ ٱلتعدي؛ ولن يُخطئوا في حُكْمٍ أصابوا وجهَهُ فإنَّ ما عدا ٱلوجهَ هوَ ٱلخلافُ وَٱلمراء.

وقد طُبِعَ ٱلناسُ في بابِ ٱلقدوةِ على غريزةٍ لا تتحوّلَ، فمَنِ ٱنفردَ بِٱلكمالِ كانَ هُوَ ٱلقدوة، ومَنْ غلَبَ كانَ هوَ ٱلسمْت؛ ولا بُدَّ لهم مِمَنْ يقتاسون[5] بِهِ ويتوازنون فيهِ حتى يستقيموا على مراشدِهِم[6] ومَصَالحِهِم، فَٱلإمامُ كأنَّه ميزانٌ من

---

(1) الزّيغ: الميل مع الهوى.
(2) وسمه: طابعه.
(3) متنطع: معتمل بصعوبة رأياً ما.
(4) يروغ: يخرج ويتخلص بكذب وخداع.
(5) يقتاسون: يقيسون أنفسهم به.
(6) مراشدهم: عقولهم وما يهتدون به.

عَقْل، فهو يتسلَّطُ في ٱلحكْم على ٱلناقصِ وَٱلوافي من كلِّ ما هو بِسبيلِه، ثُمَّ لا خِلافَ عليه، إِذْ كانَتْ فيهِ أَوزانُ ٱلقوى وزناً بعدَ وزن، وكانَتْ فيهِ منازلُ أحوالِها منزلةً بعدَ منزلة.

هو إنسانٌ تتخيَّرُ بعضُ ٱلمعاني ٱلساميةِ لِتظهرَ فيهِ بِأُسلوبٍ عمليّ، فيكونُ في قومِهِ ضَرْباً مِنَ ٱلتربيةِ وَٱلتعليم بِقاعدةٍ منتزعَةٍ من مثالِها، مشروحةٍ بِهذا ٱلمِثالِ نفسِه، فإليهِ يُرَدُّ ٱلأمرُ في ذلكَ وبتُلوهِ يُتلى وعلى سبيلِهِ يُنهج[1]، فما من شيءٍ يَتَّصلُ بِٱلفنِّ ٱلذي هو إمامٌ فيه، إلا كانَ فيهِ شيءٌ منه، وهو من ذلك مُتَّصلٌ بِقوى ٱلنفوسِ كأَنَّهُ هدايةٌ فيها، لِأَنَّهُ بِفنِّهِ حكمَ عليها، فيكونُ قوَّةً وتنبيهاً، وتسهيلاً وإِيضاحاً، وإِبلاغاً وهِداية؛ ويكونُ رجلاً وإِنَّهُ لَمَعانٍ كثيرة، ويكونُ في نفسِهِ وإِنَّهُ لَفِي ٱلأنفسِ كلِّها، ويُعطَى من إجلالِ ٱلناسِ ما يكونُ بِهِ ٱسمُهُ كأَنَّهُ خَلْقٌ مِنَ ٱلحبِّ طريقُهُ على ٱلعقلِ لا على ٱلقلب.

ولعلَّ ذلك من حِكمةِ إقامةِ ٱلخليفةِ في ٱلإسلامِ ووجوبِ ذلك على ٱلمسلمين؛ فلا بُدَّ على هذه ٱلأرضِ من ضَوْءٍ في لحم ودم، وبعضِ معاني ٱلخليفةِ في تنصيبِهِ كبعضِ معاني «ٱلشهيدِ ٱلمجهول» في ٱلأُمَمِ ٱلمُحاربةِ ٱلمُنْتَصِرةِ ٱلمتمدِّنة: رمزُ ٱلتقديس، ومعنى ٱلمفاداة، وصمتٌ يتكلَّم، ومكانٌ يُوحي. وقوَّةٌ تُستمد، وٱنفرادٌ بجمع، وحكمُ ٱلوطنيَّةِ على أهلِها بأحكام كثيرةٍ في شرفِ ٱلحياةِ وَٱلموت؛ بلِ ٱلحربُ مخبوءةٌ في حفرة، وَٱلنصرُ مُغطًى بِقبر؛ بلِ ٱلمجهولُ ٱلذي فيهِ كلُّ ما ينبغي أنْ يُعلم.

* * *

فعصرُنا هذا مضطربٌ مختلٌّ إذْ لا إمامَ فيهِ يجتمعُ ٱلناسُ عليه، وإذْ كلُّ مَنْ يزعمُ نفسَهُ إِماماً هو من بعضِ جهاتِهِ كأَنَّهُ أبو حنيفةَ ولكنْ بِغيرِ فِقه!

وَلَعَمْري ما نشأَ قولُهُمْ «ٱلجديدُ وَٱلقديم» إِلَّا لانَّ هٰهنا موضِعاً خالياً يُظهرُ خلاؤُهُ مكانَ ٱلفصلِ بينَ ٱلناحيتينِ ويجعلُ جِهَةً تنمازُ من جِهَة، فمنذُ ماتَ ٱلإمامُ ٱلكبيرُ ٱلشيخُ محمد عبده ـ رحمَهُ ٱللَّه ـ جرَتْ أحداثٌ، ونتأَتْ رءوس، وزاغَتْ طبائعُ وكأَنَّهُ لم يمُتْ رجل، بل رُفِعَ قرآن.

---

(١) ينهج: يسلك.

الأدب وَٱلأديب

إذا ٱعتبرّتَ ٱلخيالَ في ٱلذكاءِ ٱلإنسانيِّ وأوْلَيتَهُ دِقَّةَ ٱلنظرِ وحُسْنَ ٱلتمييز، لم تجدْهُ في ٱلحقيقةِ تقليداً مِنَ ٱلنفسِ لِلألُوهيَّةِ بوسائلَ عاجزةٍ منقطعة، قادرةٍ على ٱلتصوُّرِ وَٱلوهْمِ بِمقدارِ عجزِها عنِ ٱلإيجادِ وَٱلتحقيق.

وهذه ٱلنفسُ ٱلبشريَّةُ ٱلآتيةُ مِنَ ٱلمجهولِ في أولِ حياتِها، وَٱلراجعةُ إليهِ آخِرَ حياتِها، وَٱلمسدَّدَةُ في طريقِهِ مُدَّةَ حياتِها، لا يُمكنُ أنْ يتقرَّرَ في خيالِها أنّ ٱلشيءَ ٱلموجودَ قدِ ٱنتهى بوجودِه، ولا ترضى طبيعتُها بِمَا ينتهي؛ فهيَ لا تتعاطى ٱلموجودَ فيما بينَها وبينَ خيالِها على أنّه قد فُرِغَ منه فما يُبْدَأُ، وتمَّ فما يُزادُ، وخلَدَ فلا يَتحوَّل؛ بلْ لا تزالُ تضربُ ظَنَّها وتُصرِّفُ وَهْمَها في كلِّ ما تراهُ أو يتَلجْلجُ[1] في خاطرِها، فلا تبرحُ تتَلمَّحُ[2] في كلِّ وجودٍ غَيْباً، وتكشِفُ مِنَ ٱلغامضِ وتزيدُ في غموضِه، وتجري دَأباً[3] على مجارِيها ٱلخياليَّةِ ٱلتي تُوثِّقُ صِلتَها بِٱلمجهول؛ فمِنْ ثَمَّ لا بُدَّ في أمرِها مَعَ ٱلموجودِ مِمَّا لا وجودَ لَهُ، تتعلَّقُ بِهِ وتسكنُ إليه؛ وعلى ذلكَ لا بُدَّ في كلِّ شيءٍ - مَعَ ٱلمعاني ٱلتي لَهُ في ٱلحقِّ - مِنَ ٱلمعاني ٱلتي لَهُ في ٱلخيال؛ وها هنا موضعُ ٱلأدبِ وَٱلبيانِ في طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة، فكلاهُمَا طبيعيٌّ فيها كما ترى.

وإذا قيل: الأدب، فٱعلمْ أنَّهُ لا بُدَّ معَهُ مِنَ ٱلبيان؛ لِأَنَّ ٱلنفسَ تخْلُقُ فتُصوِّرُ فتُحسِنُ ٱلصورة؛ وإنَّما يكونُ تمامُ ٱلتركيبِ في مَعْرِضِهِ وجمالِ صورتِهِ ودِقَّةِ لَمحاتِه؛ بلْ يَنزلُ ٱلبيانُ مِنَ ٱلمعنى ٱلذي يَلْبسُهُ منزلةَ ٱلنضجِ مِنَ ٱلثمرةِ ٱلحلْوةِ إذا كانَتِ ٱلثمرةُ وحدَها قبلَ ٱلنضجِ شيئاً مُسمّى أو متميِّزاً بنفسِه، فلَنْ تكونَ بغيرِ ٱلنضجِ شيئاً تامًّا ولا صحيحاً، وما بُدٌّ مِنْ أنْ تستوفيَ كمالَ عمرِها ٱلأخضرِ ٱلذي هو بيانُهَا وبلاغَتُها.

---

(١) يتلجلج: يتردّد.

(٢) تتلمح: ترى.

(٣) دأباً: باستمرار.

وهذه مسألةٌ كيفما تناولْتَها فهيَ هيَ حتى تُمضيَها على هذا ٱلوجهِ ٱلذي رأيْتَ في ٱلثمرةِ ونُضجِها؛ فإنَّ ٱلبيانَ صِناعةُ ٱلجمالِ في شيءٍ جمالُهْ هو من فائدتِه، وفائدتُهُ من جمالِه؛ فإذا خلا من هذه ٱلصناعةِ ٱلتحقَ بغيرِه، وعادَ باباً مِنَ ٱلاستعمالِ بعدَ أنْ كانَ باباً مِنَ ٱلتأثير؛ وصارَ ٱلفَرْقُ بين حالَيْهِ كَٱلفرقِ بينَ ٱلفاكهة إذْ هيَ بابٌ مِنَ ٱلنبات، وبينَ ٱلفاكهةِ إذْ هيَ بابٌ مِنَ ٱلخمر؛ ولِهذا كانَ ٱلأصلُ في ٱلأدبِ البيانَ وَٱلأسلوبَ في جميعِ لغاتِ ٱلفكرِ ٱلإنسانيّ، لِأَنَّهُ كذلك في طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة.

فَٱلغرضُ ٱلأولُ لِلأدبِ ٱلمُبينِ أنْ يَخلقَ لِلنفسِ دُنيا ٱلمعاني ٱلملائمةِ لِتلك ٱلنزعةِ ٱلثابتةِ فيها إلى ٱلمجهولِ وإلى مجازِ ٱلحقيقة، وأن يُلقيَ ٱلأسرارَ في ٱلأمورِ ٱلمكشوفةِ بِمَا يتخيَّلُ فيها، ويردَّ ٱلقليلَ منَ ٱلحياةِ كثيراً وافياً بِمَا يُضاعِفُ من معانيه، ويتركَ ٱلماضيَ منها ثابتاً قارًّا بِمَا يخلِّدُ من وصفِه، ويجعلَ ٱلمؤلِمَ منها لذيذاً خفيفاً بِمَا يَبُثُّ فيهِ منَ ٱلعاطِفَة، وٱلمملولَ مُمْتِعاً حُلْواً بِمَا يكشِفُ فيهِ منَ ٱلجمالِ وَٱلحِكْمة؛ ومَدارُ ذلك كلِّهِ على إيتاءِ ٱلنفسِ لذَّةَ ٱلمجهولِ ٱلتي هيَ في نفسِها لذَّةٌ مجهولةٌ أيضاً؛ فإنَّ هذه ٱلنفسَ طُلَعةٌ متقلبة، لا تبتغي مجهولاً صِرْفاً ولا معلوماً صِرْفاً، كأنها مُدْركةٌ بِفِطْرَتِها أنْ ليسَ في ٱلكونِ صريحٌ مُطْلقٌ ولا خفيٌّ مطلق؛ وإنَّما تبتغي حالةً ملائمةً بين هذين، يثورُ فيها قَلَقٌ أو يسكنُ منها قلق.

وأشواقُ ٱلنفسِ هي مادَّةُ الأدب؛ فليسَ يكونُ أدباً إلَّا إذا وَضَعَ ٱلمعنى في ٱلحياةِ ٱلتي ليسَ لها معنًى، أو كانَ متَّصلاً بِسِرِّ هذه ٱلحياةِ فيكشفُ عنه أو يُومِىءُ إليهِ من قريب، أو غَيَّرَ للنفسِ هذه ٱلحياةَ تغييراً يجيءُ طِباقاً لِغرضِها وأشواقِها؛ فإنَّهُ كما يَرْحَلُ ٱلإنسانُ من جَوٍّ إلى جَوٍّ غيرِه، ينقلُهُ ٱلأدبُ من حياتِهِ ٱلتي لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى فيها شعورُها ولذَّتُها وإنْ لم يكنْ لها مكانٌ ولا زمان؛ حياةٍ كمَلَتْ فيها أشواقُ ٱلنفس، لِأَنَّ فيها ٱللذاتِ وٱلآلامَ بِغيرِ ضروراتٍ ولا تكاليف؛ ولَعَمْري ما جاءَتِ ٱلجنةُ وٱلنارُ في ٱلأديانِ عَبَثاً؛ فإنَّ خالقَ ٱلنفسِ بِمَا رَكبَّهْ فيها مِنَ ٱلعجائب، لا يحْكمُ ٱلعقلُ أنَّهُ قد أتمَّ خَلقَها إلَّا بِخلقِ ٱلجنَّةِ وَٱلنارِ معها، إذْ هما ٱلصورتانِ ٱلدائمتانِ ٱلمتكافئتانِ لِأَشواقِها ٱلخالدةِ إنْ هيَ ٱستقامتْ مُسدَّدَةً[1] أوِ ٱنعكسَتْ حائلة.

وقد صحَّ عندي أنَّ ٱلنفسَ لا تتحقَّقُ من حريَّتِها ولا تنطلِقُ ٱنطلاقَتَها ٱلخالدةَ

(١) مسدّدة: موجهة نحو التوفيق والنجاح.

فتُحسُّ وحدةَ ٱلشعورِ ووحدةَ ٱلكمالِ ٱلأسمى - إلّا في ساعاتٍ وفتراتٍ تنسَلُّ فيها من زمنِها وعيشِهاو نقائضِها وٱضطرابها إلى (منطقةِ حِيادٍ) خارجةٍ وراءَ ٱلزمانِ وٱلمكان؛ فإذا هبطَتْها ٱلنفسُ فكأنَّما ٱنتقلَتْ إلى ٱلجنةِ وٱسترْوَحَتِ ٱلخُلْد؛ وهذه ٱلمنطقةُ ٱلسحريَّةُ لا تكونُ إلّا في أربعة: حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطيَ قوةَ سِحْرِ ٱلنفس، فهي تَنسى به؛ وصديقٍ محبوبٍ وفيٍّ أوتيَ قوةَ جَذبِ ٱلنفس، فهي تنسى عندَه؛ وقطعةٍ أدبيَّةٍ آخِذة، فهيَ ساحرةٌ كٱلحبيبِ أو جاذبةٌ كٱلصديق؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع، ففيهِ من كلِّ شيءٍ شيء.

وهذه كلُّها تُنسي ٱلمرءَ زمنَهُ مدةً تطولُ وتقصر؛ وذلك فيها دليلٌ على أنَّ ٱلنفسَ ٱلإنسانيَّة تُصيبُ منها أساليبَ رُوحيَّةً لاتِّصالِها هنيهةً بٱلروحِ ٱلأزليِّ في لَحظاتٍ مِنَ ٱلشعورِ كأنَّها ليسَتْ من هذه ٱلدنيا وكأنَّها مِنَ ٱلأزليَّة؛ ومن ثُمَّ نستطيعُ أنْ نُقرّرَ أنَّ أساسَ ٱلفنِّ على ٱلإطلاقِ هو ثورةُ ٱلخالدِ في ٱلإنسانِ على ٱلفاني فيه؛ وأنَّ تصويرَ هذه ٱلثورةِ في أوهامِها وحقائقِها بمثلِ ٱختلاجاتِها في ٱلشعورِ وٱلتأثيرِ - هو معنى ٱلأدبِ وأسلوبُهُ.

ثُمَّ إنَّ ٱلاتساقَ وٱلخيرَ وٱلحقَّ وٱلجمال - وهيَ ٱلتي تجعلُ لِلْحياةِ ٱلإنسانيَّةِ أسرارَها - أمورٌ غيرُ طبيعيَّةٍ في عالمٍ يقومُ على ٱلاضطرابِ وٱلأثرةِ وٱلنزاعِ وٱلشهوات؛ فمِنْ ذلك يأتي ٱلشاعرُ وٱلأديب وذو ٱلفنِّ عِلاجاً من حِكْمةِ ٱلحياةِ لِلْحياة، فيُبدعون لِتلك ٱلصفاتِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلجميلةِ عالمَها ٱلذي تكونُ طبيعيَّةً فيه، وهو عالَمٌ أركانُهُ ٱلاتِّساقُ في ٱلمعاني ٱلتي يجري فيها، وٱلجمالُ في ٱلتعبيرِ ٱلذي يتأدّى[1] به، وٱلحقُّ في ٱلفكرِ ٱلذي يقومُ عليه، وٱلخيرُ في ٱلغرَضِ ٱلذي يُساقُ لَهُ، ويكونُ في ٱلأدب مِنَ ٱلنقصِ وٱلكمالِ بِحَسَبِ ما يجتمعُ لَهُ من هذه ٱلأربعة، ولا مِعيارَ أدقُّ منها إنْ ذهبَتْ تعتبرُهُ بِٱلنَّظَرِ وٱلرأي؛ ففي عملِ ٱلأديبِ تخرجُ ٱلحقيقةُ مُضافاً إليها ٱلفنّ، ويجيءُ ٱلتعبيرُ مزيداً فيهِ ٱلجمال، وتتمثَّلُ ٱلطبيعةُ ٱلجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيَّة، ويظهرُ ٱلكلامُ وفيهِ رِقَّةُ حياةِ ٱلقلْبِ وحرارتُها وشعورُها وٱنتظامُها ودَقُّها ٱلموسيقيّ؛ وتلبسُ ٱلشهواتُ ٱلإنسانيةُ شكلَها ٱلمهذَّبَ لِتكونَ بِسببٍ من تقريرِ ٱلمثَلِ ٱلأعلى، ٱلذي هو ٱلسرُّ في ثورةِ ٱلخالدِ مِنَ ٱلإنسانِ على ٱلفاني، وٱلذي هوَ ٱلغايَةُ ٱلأخيرةُ مِنَ ٱلأدبِ وٱلفنّ معاً؛ وبهذا يهَبُ لك ٱلأدبُ تلك ٱلقوَّةَ ٱلغامضةَ

---

(١) يتأدّى: يحصل.

ٱلتي تَتَّسِعُ بك حتى تشعرَ بِٱلدنيا وأحداثِها مارَّةً من خلالِ نفسِك، وتُحِسَّ ٱلأشياءَ كأنَّها ٱنتقلَتْ إلى ذاتِك من ذواتِها؛ وذلك سِرُّ ٱلأديبِ ٱلعبقريّ؛ فإنَّهُ لا يرى ٱلرأيَ بِٱلاعتقابِ[1] وٱلاجتهادِ كما يراهُ ٱلناس، وإنَّما يُحِسُّ بِهِ؛ فلا يقعُ لَهُ رأيُهُ بِٱلفكر، بَلْ يُلهمُه إلهاماً؛ وليسَ يُؤاتيهِ ٱلإلهامُ إلَّا من كونِ ٱلأشياءِ تمرُّ فيهِ بمعانيها وتعبرُهُ كما تعبرُ ٱلسفنُ ٱلنهر، فيُحِسُّ أثرَها فيهِ فيُلهَمُ ما يُلْهَم، ويحسَبُهُ ٱلناسُ نافذاً بِفكرِهِ من خِلالِ ٱلكون، على حينِ أنَّ حقائقَ ٱلكونِ هِيَ ٱلنافذةُ من خلالِه.

ولو أردْتَ أن تُعرِّفَ ٱلأديبَ من هو، لَمَا وجدْتَ أجمعَ ولا أدقَّ في معناهُ من أنَّ تُسميَهُ ٱلإنسانَ ٱلكونيّ، وغيرُهُ هوَ ٱلإنسانُ فقط؛ ومن ذلك ما يبلغُ من عُمْقِ تأثُّرِهِ بِجَمَالِ ٱلأشياءِ ومعانيها، ثُمَّ ما يقعُ مِنِ ٱتِّصالِ ٱلموجوداتِ بِهِ بِآلامِها وأَفراحِها؛ إذْ كانَتْ فيهِ مع خاصيةِ ٱلإنسانِ خاصيةُ ٱلكونِ ٱلشامل، فٱلطبيعةُ تُثبِتُ بِجمالِ فَنِّهِ ٱلبديع أنَّهُ منها، وتدلُّ ٱلسماءُ بِمَا في صِناعتِهِ مِنَ ٱلوحي وٱلأسرارِ أنَّهُ كذلك منها، وتُبرهِنُ ٱلحياةُ بِفلسفتِهِ وآرائِهِ أنَّهُ هو أيضاً منها؛ وهذا وذاك وذلك هوَ ٱلشمولُ ٱلذي لا حَدَّ لَهُ، وٱلاتساعُ ٱلذي كلُّ آخرَ فيهِ لِشيءٍ، أولٌ فيهِ لِشيء.

وهو إنسانٌ يُدلّهُ ٱلجمالُ على نفسِهِ لِيدلَّ غيرَهُ عليه، وبذلك زِيدَ على معناهُ معنًى، وأُضيفَ إليهِ في إحساسِهِ قوّةُ إنشاءِ ٱلإحساسِ في غيرِه؛ فأساسُ عملِهِ دائماً أنْ يزيدَ على كلِّ فكرةٍ صورةً لَها، ويزيدَ على كلِّ صورةٍ فكرةً فيها، فهو يُبدِعُ ٱلمعانيَ لِلأَشكالِ ٱلجامدةِ فيُوجِدُ ٱلحياةَ فيها، ويُبدِعُ ٱلأشكالَ لِلْمعانِي ٱلمجرَّدةِ فيُوجِدُها هيَ في ٱلحياة، فكأنَّهُ خُلِقَ لِيتلقَّى ٱلحقيقةَ ويُعطيَها لِلناسِ ويزيدَهم فيها ٱلشعورَ بجمالِها ٱلفنيّ؛ وبِٱلأدباءِ وٱلعلماءِ تنمو معاني ٱلحياة، كأنَّما أُوجدَتْهُمُ ٱلحِكْمةُ لِتنقلَ بهِمُ ٱلدنيا من حالةٍ إلى حالة؛ وكأنَّ هذا ٱلكوْنَ ٱلعظيمَ يمرُّ في أدمغتِهِم لِيُحقِّقَ نفسَه.

ومشاركةُ ٱلعلماءِ لِلأُدباءِ تُوجِبُ أنْ يتميَّزَ ٱلأديبُ بِٱلأسلوبِ ٱلبيانيّ، إذْ هو كٱلطابع على ٱلعملِ ٱلفنِّيّ، وكٱلشهادةِ مِنَ ٱلحياةِ ٱلمعنويَّةِ لهذا ٱلإنسانِ ٱلموهوبِ ٱلذي جاءَتْ من طريقِه، ثُمَّ لِأنَّ ٱلأسلوبَ هو تخصيصٌ لِنوعٍ مِنَ ٱلذوقِ وطريقةٌ مِنَ ٱلإدراك، كأنَّ ٱلجمالَ يقولُ بِٱلأسلوب: إنَّ هذا هو عملُ فلان.

وفصْلُ ما بينَ ٱلعالِمِ وٱلأديب، أنَّ ٱلعالِمَ فِكْرة، ولكنَّ ٱلأديبَ فِكْرةٌ

---

(١) الاعتقاب: إطالة النظر وإمعان الفكر وكدّه.

وأُسلوبُها؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متَّصِلَةٌ متشابِهةٌ يُشارُ إليهم جملةً واحدة، على حين يُقالُ في كلِّ أدِيبٍ عبقريّ: هذا هو، هذا حدُّه؛ وعِلْمُ ٱلأديبِ هوَ ٱلنفسُ ٱلإنسانيَّةُ بِأَسرارِها ٱلمتَّجِهَةِ إلى ٱلطبيعة، وٱلطبيعةُ بِأسرارِها ٱلمتَّجهةِ إلى ٱلنفس؛ ولذلك فموضِعُ ٱلأديبِ منَ ٱلحياةِ موضعُ فكرةٍ حدودُها من كلِّ نواحيها ٱلأسرار.

وإذا رأى ٱلناسُ هذه ٱلإنسانيَّةَ تركيباً تامًّا قائماً بِحَقَائِقِهِ وأوصافِه، فٱلأديبُ ٱلعبقريُّ لا يراها إلَّا أجزاء، كأنَّما هو يشهدُ خَلْقَها وتركيبَها. وكأنَّما أمرُّها في (معملِه)، أو كأنَّ ٱللهَ ـ سبحانَه ـ دعاهُ ليرى فيها رأيَه... وبذلك يَجِيءُ ٱلنابغُ من أدبِ ٱلعباقرةِ وبعضُهُ كٱلمقترحاتِ لِتجميلِ ٱلدنيا وتهذيبِ ٱلإنسانيَّة، وبعضُهُ كٱلموافقةِ وإقرارِ ٱلحِكْمة؛ وأساسُهُ على كلِّ هذه ٱلأحوالِ ٱلنقدُ، ثُمَّ النقد، ولا شيءَ غيرُ ٱلنقد؛ كأنَّ ٱلقوةَ ٱلأزليَّةَ تقولُ لِهذا ٱلملهَم: أنت كلمتي فقُلْ كلمتَك...

* * *

وترى ٱلجمالَ حيثُ أصبْتَهُ شيئاً واحداً لا يكبرُ ولا يصغر، ولكنَّ ٱلحِسَّ بِهِ يكبرُ في أناسٍ ويصغرُ في أناس؛ وها هنا يتألَّهُ ٱلأدب؛ فهو خالقُ ٱلجمالِ في ٱلذهن، وٱلمُمكِّنُ لِلأَسبابِ ٱلمُعِينةِ على إدراكِهِ وتبينِ صِفاتِهِ ومعانيه، وهو ٱلذي يقدرُ لِهذا ٱلعالمِ قيمتَهُ ٱلإنسانيَّةَ بإضافةِ ٱلصُّوَرِ ٱلفكريَّةِ ٱلجميلةِ إليه، ومحاولتِهِ إظهارَ ٱلنظامِ ٱلمجهولِ في مُتناقضاتِ ٱلنفسِ ٱلبشريَّة، وٱلارتفاع بهذِهِ ٱلنفسِ عنِ ٱلواقعِ ٱلمنحطِّ ٱلمجتمعِ من غِشاوةِ ٱلفِطرةِ وصَوْلةِ ٱلغريزةِ وغرارةِ ٱلطبعِ ٱلحيوانيّ.

وإذا كانَ ٱلأمرُ في ٱلأدبِ على ذلك، فبِٱضطرار أن تتهذَّبَ فيهِ ٱلحياةُ وتتأدَّب، وأنْ يكونَ تَسَلطُهُ على بواعثِ ٱلنفسِ دُربةً[1] لإصلاحِها وإقامتِها، لا لإفسادِها وٱلانحرافِ بها إلى ٱلزيغِ وٱلضلالة؛ وبِٱضطرارٍ أنْ يكونَ ٱلأديبُ مكلَّفاً تصحيحَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّة، ونَفْيَ ٱلتزويرِ عنها، وإخلاصَها مِمَّا يلتبِسُ بها على تتابُعِ ٱلضرورات؛ ثُمَّ تصحيحِ ٱلفِكْرةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلوجود، ونفي ٱلوثنيَّةِ عن هذه ٱلفِكْرة، وٱلسموِّ بها إلى فوق، ثُمَّ إلى فوق، ودائماً إلى فوق!

وإنَّما يكلَّفُ ٱلأديبُ ذلك لِأَنَّهُ مستبصِرٌ من خصائصِهِ ٱلتمييزُ وتقدُّمُ ٱلنظرِ وتسقُّطُ ٱلإلهام، ولِأنَّ ٱلأصلَ في عملِهِ ٱلفنيِّ ألَّا يبحثَ في ٱلشيء نفسِه، ولكنْ في ٱلبديعِ منه؛ وألَّا ينظرَ إلى وجودِه، بَلْ إلى سِرِّه؛ ولا يُعنى بِتركِيبِه، بلْ بِٱلجمالِ في

---

(١) دُربة: رياضة.

تركيبِه؛ ولأنَّ مادةَ عمَلِهِ أحوالُ ٱلناس، وأخلاقُهم، وألوانُ معايشِهِم، وأحلامُهُم، ومذاهبُ أخيلتِهِم وأفكارِهِم في معنى ٱلفن، وتفاوتُ إحساسِهِم به، وأسبابُ مغاوِيهِم ومراشدِهِم؛ يُسدّدُ على كلِّ ذلك رأيَه، ويُجيلُ فيهِ نظرَه، ويخلُطُهُ في نفسِه، ويُنْفِذُهُ من حواسِه، كأنّما لَهُ في ٱلسرائرِ ٱلقبضُ وٱلبسْط، وكأنَّهُ ولِيَ ٱلحكمَ على ٱلجزءِ ٱلخفيِّ في ٱلإنسانِ يقومُ على سِياستِهِ وتدبيرِهِ، ويَهديهِ إلى ٱلمثلِ ٱلأعلى، وهلْ يُخلقُ ٱلعبقريُّ إلا كٱلبرهانِ مِنَ ٱللَّهِ لعِبادِهِ على أنَّ فيهم مَنْ يقدِرُ على ٱلذي هو أكملُ وٱلذي هو أبدع، حتى لا ييأسَ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ ولا ينخذِل، فيستمرَّ دائباً في طلبِ ٱلكمالِ وٱلإبداعِ ٱللذينِ لا نهايةَ لهما؟

فٱلأديبُ يُشرِفُ على هذه ٱلدنيا من بَصيرتِهِ فإذا وقائعُ ٱلحياةِ في حَذْوِ واحدٍ مِنَ ٱلنزاعِ وٱلتناقض، وإذا هي دائبةٌ في مَحْقِ ٱلشخصيَّةِ ٱلإنسانيَّة، تاركةٌ كلَّ حيٍّ مِنَ ٱلناسِ كأنَّهُ شخصٌ قائمٌ من عملِهِ وحوادثِهِ وأسبابِ عيشِه؛ فإذا تلجْلجَ ذلك في نفسِ ٱلأديبِ ٱتّجهَتْ هذه ٱلنفسُ ٱلعاليةُ إلى أنْ تحفظَ لِلدنيا حقائقَ ٱلضميرِ وٱلإنسانيَّةِ وٱلإيمانِ وٱلفضيلة، وقامَتْ حارِسَةً على ما ضيَّعَ ٱلناس، وسخَّرَتْ في ذلك تسخيراً لا تملكُ معَهُ أنْ تأبَى منه، ولا يستوي لها أنْ تُغمِضَ فيه؛ ونُقِلَتِ ٱلإنسانيَّةُ كلُّها ووضُعَتْ على مجازِ طريقِها أين توجَّهَتْ، فتأكدَ ٱلأمرُ فيها، ووُصِلَ بها، وعَلِمَتْ أنَّها من خالصةِ ٱلله، وأنَّ رسالتَها لِلْعالمِ هيَ تقريرُ ٱلحُبِّ لِلْمتعادين، وبسطُ ٱلرحمةِ لِلْمتنازعين، وأن تجمعَ ٱلكلَّ على ٱلجمالِ وهو لا يختلفُ في لذَّتِه، وتَصِلَ بينَهم بِٱلحقيقةِ وهيَ لا تتفرَّقُ في موعظتِها، وتُشعرُهُمُ ٱلحِكْمةَ وهي لا تتنازعُ في مناحيها: فٱلأدبُ من هذه ٱلناحيةِ يُشبِهُ ٱلدين: كِلاهما يُعينُ ٱلإنسانيَّةَ على ٱلاستمرارِ في عملِها، وكِلاهُما قريبٌ من قريب؛ غيرَ أنَّ ٱلدينَ يعرضُ لِلْحالاتِ ٱلنفسيَّةِ لِيأمُرَ وينهيَ، وٱلأدبُ يعرضُ لها لِيجمعَ ويُقابل؛ وٱلدينُ يُوجِّهُ ٱلإنسانَ إلى ربِّه، وٱلأدبُ يُوجِهُهُ إلى نفسِه؛ وذلك وحيُ ٱللَّهِ إلى ٱلملَكِ إلى نبيٍّ مُختار، وهذا وحيُ ٱللَّهِ إلى ٱلبصيرةِ إلى إنسانٍ مُختار.

فإنْ لم يكنْ لِلأَديبِ مَثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقِهِ ويعملُ في سبيلِه، فهو أديبُ حالةٍ مِنَ ٱلحالات، لا أديبُ عصْرٍ ولا أديبُ جِيل؛ وبذلك وحدَهُ كانَ أهلُ ٱلمثلِ ٱلأعلى في كلِّ عصرٍ هُمُ ٱلأرقامَ ٱلإنسانيَّةَ ٱلتي يُلقيها ٱلعصرُ في آخرِ أيَّامِهِ لِيحسبَ رِبحَهُ وخسارتَه...

ولا يخدَعَنَّكَ عن هذا أنْ ترى بعضَ ٱلعبقريِّينَ لا يؤتَى في أدبِهِ أو أكثرِهِ إلَّا

إلى ٱلرذائل، يتغلْغلُ فيها، ويتمَّلأ بها، ويكونُ منها على ما ليسَ عليهِ أحدٌ إلَّا ٱلسِّفلةَ وٱلحُشْوَةَ من طَغام ٱلناسِ[1] ورِعاعِهِم؛ فإنَّ هذا وأضرابَهُ مسخَّرون لِخدمةِ ٱلفضيلةِ وتحقيقِها من جهةِ ما فيها مِنَ ٱلنهي، لِيكونوا مثلاً وسَلَفاً وعِبرة؛ وكثيراً ما تكونُ ٱلموعظةُ بِرذائِلِهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مِمَّا هيَ في ٱلفضائل؛ بلْ هم عندي كبعضِ ٱلأحوالِ ٱلنفسيَّةِ ٱلدقيقةِ ٱلتي يأمرُ فيها ٱلنهيُ أقوى مِمَّا يأمرُ ٱلأمر، على نحوِ ما يكونُ من قراءتِك موعظةَ ٱلفضيلةِ ٱلأدبيَّةِ ٱلتي تأمُرُك أنْ تكونَ عفيفاً طاهراً؛ ثُمَّ ما يكونُ من رُؤيتِكَ ٱلفاجرَ ٱلمبتلَى ٱلمُشَوَّهَ ٱلمتحطِّمَ ٱلذي ينهاكَ بِصورتِهِ أنْ تكونَ مثله؛ ولِهذه ٱلحقيقةِ ٱلقويَّةِ في أثرها ـ حقيقةِ ٱلأمرِ بٱلنهي ـ يعمدُ ٱلنوابغُ في بعضِ أدبِهِم إلى صرفِ ٱلطبيعةِ ٱلنفسيَّةِ عن وجهِها، بِعكسِ نتيجةِ ٱلموْقِفِ ٱلذي يُصورونه، أوِ ٱلإحالةِ في ٱلحادثةِ ٱلتي يَصِفُونَها؛ فينتهي ٱلراهبُ ٱلتقيُّ في ٱلقصةِ مُلْحِداً فاجراً، وترتَدُّ ٱلمرأةُ البغيُّ قِدِّيسة، ويرجعُ ٱلابنُ ٱلبَرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ ٱلدم؛ إلى كثيرٍ مِمَا يجري في هذا ٱلنسق، كما تراهُ لِأناطول فرانس وشكبيرَ وغيرِهِما، وما كانَ ذلك عن غفلةٍ منهم ولا شرّ، ولكنَّهُ أسلوبٌ مِنَ ٱلفنّ، يُقابِلُهُ أسلوبٌ مِنَ ٱلخَلْق، لِيُبدعَ أسلوباً مِنَ ٱلتأثير؛ وكلُّ ذلك شاذٌّ معدودٌ ينبغي أنْ ينحصرَ ولا يتعدَّى، لِأنَّهُ وصفٌ لِأحوالٍ دقيقةٍ طارئةٍ على ٱلنفس، لا تعبيرٌ عن حقائقَ ثابتةٍ مستقرةٍ فيها.

وٱلشرطُ في ٱلعبقريِّ ٱلذي تلك صِفتُهُ وذلك أدبُه، أنْ يعْلُوَ بِٱلرذيلة. . . في أسلوبِهِ ومعانيه، آخذاً بِغايةِ ٱلصنعة، مُتناهياً في حُسْنِ ٱلعِبارة؛ حتى يُصبحَ وكأنَّ ٱلرذائلَ هيَ ٱختارَتْ منه مُفسِّرَها ٱلعبقريَّ ٱلشاذَّ ٱلذي يكونُ في سُمُوِّ فنِهِ ٱلبيانيِّ هو وحدَه ٱلطرفَ ٱلمُقابِلَ لِسموِّ ٱلعِبارةِ عنِ ٱلفضيلة، فيصنعُ ٱلإلهامُ في هذا وفي هذا صُنعَهُ ٱلفنيَّ بِطريقةٍ بديعةِ ٱلتأثير، أصلُها في أديبِ ٱلفضيلةِ ما يُريدُهُ ويُجاهدُ فيه، وفي أديبِ ٱلرذيلةِ ما يقودُهُ ويندفعُ إليه، كأنَّ منهما إنساناً صارَ مَلَكاً يكتب، وإنساناً عادَ حيواناً يكتب. . .

وإذا أنت ميَّلْتَ بين رذيلةِ ٱلأديبِ ٱلعبقريِّ في فنِّه، ورذيلةِ ٱلأديبِ ٱلفسْلِ[2] ٱلذي يتشبَّهُ بهِ ـ في ٱلتأليفِ وٱلرأيِ وٱلمتابعةِ وٱلمذهب ـ رأيْتَ ٱلواحدةَ مِنَ ٱلأخرى كَبُكاءِ ٱلرجلِ ٱلشاعرِ من بُكاءِ ٱلرجلِ ٱلغليظِ ٱلجِلْف: هذا دموعُهُ ٱلمُهُ، وذاك دموعُهُ

(١) طغام: سِفلة البشر.

(٢) الفسل: الخامل الذكر.

أَلمُهُ وشعرُه؛ وفي كتابةِ هذه ٱلطبقةِ مِنَ ٱلعبقريِّينَ خاصةً يتحقَّقُ لك أنَّ ٱلأسلوبَ هو أساسُ ٱلفنِّ ٱلأدبي، وأنَّ ٱللذةَ بِهِ هي علامةُ ٱلحياةِ فيه؛ إذْ لا ترى غيرَ قطعةٍ أدبيَّةٍ فنيَّة، شاهدُها من نفسِها على أنَّها بِأُسلوبِها ليسَتْ في ٱلحقيقةِ إلَّا نكتةً نفسيَّةً لاهتياجِ ٱلبواعثِ في نفوسِ قرائِها، وأنَّها على ذلك هيَ أيضاً مسألةٌ من مسائلِ ٱلإنسانيَّةِ مطروحةٌ لِلنظرِ وٱلحلّ، بما فيها من جمالِ ٱلفنِّ ودقائقِ ٱلتحليل.

* * *

وٱللذةُ بِٱلأدبِ غيرُ ٱلتلهِّي بِهِ وٱتخاذِهِ لِلْعَبَثِ وٱلْبَطَالةِ فيجيءُ موضوعاً على ذلك فيخرجُ إلى أنْ يكونَ مَلْهاةً وسُخْفاً ومَضْيَعَة؛ فإنَّ ٱللذةَ بِهِ آتيةٌ من جمالِ أسلوبِهِ وبلاغةِ معانيهِ وتناوُلِهِ ٱلكَوْنَ وٱلحياةَ بِٱلأساليبِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي في ٱلنفس، وهيَ ٱلأصلُ في جمالِ ٱلأُسلوب؛ ثُمَّ هو بعدَ هذه ٱللذةِ منفعةٌ كُلُّهُ كَسائرِ ما رُكِّبَ في طبيعةِ ٱلحيّ، إذْ يُحسُّ ٱلذوقُ لَذَّةَ ٱلطعامِ مثلاً على أنْ يكونَ من فِعْلِها ٱلطبيعيِّ ٱستمراءُ ٱلتغذيةِ لِبناءِ ٱلجِسْمِ وحِفْظِ ٱلقوَّةِ وزيادتِها؛ أمّا ٱلتلهّي فيَجِيءُ من سُخْفِ ٱلأدب؛ وفراغِ معانيه، ومؤاتاتِهِ ٱلشهواتِ ٱلخسيسةَ وٱلتماسِهِ ٱلجوانبَ ٱلضيِّقةَ مِنَ ٱلحياة؛ وذلكَ حينَ لا يكونُ أدبَ ٱلشعبِ ولا ٱلإنسانيَّةِ بلْ أدبَ فِئةٍ بِعينِها وأحوالِها؛ فإنَّ أديبَ صِناعتِهِ أو أديبَ جماعتِهِ، غيرُ أديبِ قومِهِ وأديبِ عصرِه، أحدُهما إلى حدٍّ محدودٍ مِنَ ٱلحياة، وٱلآخرُ عملٌ جامعٌ مستمِرٌّ متفنِّنٌ؛ لِأنَّ عملَهُ ٱلأدبيَّ هو وجودُه، وكلُّ شيءٍ في قومِهِ لا يبرحُ يقولُ لَهُ: اكتب. . .

ومِنَ ٱلأصولِ ٱلاجتماعيَّةِ ٱلتي لا تتخلَّف، أنَّهُ إذا كانَتِ ٱلدولةُ لِلشعب، كانَ ٱلأدبُ أدبَ ٱلشعْبِ في حياتِهِ وأفكارِهِ ومطامِحِهِ وألوانِ عيشِه، وزَخَرَ[1] الأدبُ بذلك وتنَوَّعَ وافتَنَّ وبُنِيَ على ٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّة؛ فإنْ كانَتِ ٱلدولةُ لِغيرِ ٱلشعب، كانَ ٱلأدبُ أدبَ ٱلحاكمينَ وبُنيَ على ٱلنِّفاقِ وٱلمُداهنةِ وٱلمُبالغةِ ٱلصناعيَّةِ وٱلكَذِبِ وٱلتدليس، ونَضَبَ ٱلأدبُ من ذلك وقلّ وتكرَّرَ من صورةٍ واحدة؛ وفي ٱلأولى يتَّسعُ ٱلأديبُ مِنَ ٱلإحساسِ بِٱلحياةِ وفنونِها وأسرارِها في كلِّ من حَوْلَه، إلى ٱلإحساسِ بِٱلكونِ ومَجاليهِ وأسرارِهِ في كلِّ ما حَوْلَه؛ أمَّا ٱلثانيةُ فلا يُحسُّ فيها إلَّا أحوالَ نفسِهِ وخَلِيطِه، فيُصبحُ أدبُهُ أشبَهَ بِمسافةٍ محدودةٍ مِنَ ٱلكونِ ٱلواسعِ لا يزالُ يذهبُ فيها ويجيءُ حتى يملَّ ذهابَهُ ومجيئَه.

---

(١) زخر: امتلأ واحتوى.

والعَجَبُ الذي لم يتنبَّهْ لَهُ أحدٌ إلى اليوم من كلِّ مَنْ درسوا الأدبَ العربيَّ قديماً وحديثاً، أنَّك لا تجدُ تقريرَ المعنى الفلسفيِّ الاجتماعيِّ لِلأَدبِ في أسمى معانيهِ إلَّا في اللغةِ العربيَّةِ وحدَها، ولم يغفلْ عنه مع ذلك إلَّا أهلُ هذه اللغةِ وحدَهم!

فإذا أردْتَ الأدبَ الذي يُقرِّرُ الأسلوبَ شَرْطاً فيه، ويأتي بِقوّةِ اللغةِ صورةً لِقوَّةِ الطِّباع، وبِعظَمَةِ الأداءِ صورةً لِعظمةِ الأخلاق، وبِرِقَّةِ البيانِ صورةً لِرِقَّةِ النفس، وبِدِقَّتِهِ المتناهيةِ في العمقِ صورةً لِدِقَّةِ النظرةِ إلى الحياة؛ ويُريكَ أنَّ الكلامَ أُمَّةٌ مِنَ الألفاظِ عاملةٌ في حياةِ أُمَّةٍ مِنَ الناس، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخيَّة، مُحْكِمةٌ لها الأوضاعَ الإنسانيَّة، مشترِطةٌ فيها المثلَ الأعلى، حاملةٌ لها النورَ الإلهيَّ على الأرض. . .

. . . وإذا أردْتَ الأدَبَ الذي يُنشيءُ الأُمَّةَ إنشاءً سامياً، ويدفعُها إلى المعالي دفْعاً، ويردُّها عن سَفَاسِفِ الحياة[1]، ويُوجِّهُهَا بِدقَّةِ الإبرةِ المغناطيسيَّةِ إلى الآفاقِ الواسعة، ويُسدِّدُها[2] في أغراضِها التاريخيَّةِ العاليةِ تسديدَ القنبلةِ خرجَتْ من مدفعِها الضخمِ المُحرِّرِ المُحكم، ويملأُ سرائرَها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حِكْمة، ويَنْفُذُ بها من مظاهرِ الكوْنِ إلى أسرارِ الألوهيَّة. . .

. . . . إذا أردْتَ الأدَبَ على كلِّ هذه الوجوهِ مِنَ الاعتبار ـ وجدْتَ القرآنَ الحكيمَ قد وَضَعَ الأصلَ الحيَّ في ذلك كلِّه، وأعجبُ ما فيه أنَّهُ جعلَ هذا الأصلَ مقدَّساً، وفَرَضَ هذا التقديسَ عقيدة، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لَنْ تتغيَّر؛ ومع ذلك كلِّهُ لم ينتبِهْ لَهُ الأدباءُ ولم يَحْذُوا[3] بالأدبِ حَذْوَهُ، وحسِبُوهُ ديناً فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبثِ والمجونِ والنفاق؛ كأنَّهُ منهم إلَّا بقايا تاريخِ محتَضرٍ بِالعِلَلِ القاتلة، ذاهبٌ إلى الفناءِ الحتم!

والقرآنُ بِأُسلوبِهِ ومعانيهِ وأغراضِهِ لا يُستخرجُ منه لِلأَدبِ إلَّا تعريفٌ واحدٌ هو هذا: إنَّ الأدبَ هوَ السموُّ بضميرِ الأُمَّة.

ولا يستخرجُ منه لِلأَديبِ إلَّا تعريفٌ واحدٌ هو هذا: إنَّ الأديبَ هو مَنْ كانَ لِأُمَّتِهِ ولِلُغَتِها في مواهبِ قلمِهِ لقَبٌ من ألقابِ التاريخ.

* * *

---

(١) سفاسف الحياة: صغائرها والتافه منها.

(٢) يسدّدها: يوجهها.

(٣) يحذوا: يخطوا ويقلّدوا.

سِرُّ ٱلنبوغِ في ٱلأَدب

لو ترجمْنَا ٱلخاطرةَ ٱلتي تمرُّ في ذِهنِ ٱلحيوانِ ٱلذكيِّ حين ينقادُ في يدِ رجلٍ ضعيفٍ أبلَهَ يُصرِّفُهُ ويُديرُهُ على أغراضِه، فنقلْناها من فِكْرِ ٱلحيوانِ إلى لغتِنا، وأديناها بِمعنًى مِمَّا بين ٱلإنسانَ وٱلحيوان ـ لَكانَتْ في ٱلعِبارةِ هكذا: ما أنت أيُّها ٱلأبلهُ فيما بيني وبينَ ٱلحقيقةِ ٱلمدَبِّرةِ لِلْكونِ إلَّا نبيٌّ مرسلٌ ﷺ. . . ذلك أنَّ ٱلتركيبَ ٱلذي يَبِينُ بِهِ ٱلإنسانُ مِنَ ٱلحيوانِ قد جعلَ دِماغَ هذا ٱلحيوانِ خاتماً مِنَ ٱللَّهِ دُمِغَ بِهِ على خصائِصِهِ فأفرغَهُ ٱللَّهُ في جلدِه، ووضَع في رأسِهِ ذلك ٱلقِفْلَ ٱلإلهيَّ ٱلذي حبسَهُ في بابِ ٱلاضطرارِ من غرائزِهِ ٱلبهيميَّة، وأقفل بِهِ على ٱلدنيا ٱلعقليَّةِ ٱلمتَّسعةِ بينَهُ وبينَ ٱلإنسان؛ فٱلكونُ عندَهُ لَغوٌ كلُّهُ ليسَ فيهِ إلَّا حقائقُ يسيرة، ثُمَّ لا تفسيرَ لِهذه ٱلحقائقِ إلَّا من طبيعتِهِ هو، فجِلدُهُ أدقُّ تفسيرٍ فلكيّ. . . لِلشمسَ وٱلنورِ وٱلهواءِ وما يجيءُ منها، وجوفُهُ أصحُّ تعبيرٍ جغرافيّ. . . لِلْكرةِ ٱلأرضيَّةِ وما تحمِل، وجوعُهُ وشبعُهُ هما كلُّ فلسفةِ ٱلشرِّ وٱلخيرِ في ٱلعالم! . .

فأساسُ ٱلذكاءِ عالياً ونازلاً هوَ ٱلتركيبُ ٱلطبيعيُّ لا غيرُه: لو زادَتْ في ٱلدماغِ ذرةٌ أو نقصَتْ لَزادَتِ ٱلدنيا صورةً أو نقصَت؛ فَبِٱلضرورةِ تكونُ هذه هيَ ٱلقاعدةَ فيما نرى من تبايُنِ حِدَّةِ ٱلذكاءِ في أفرادِ كلِّ نوعٍ مِنَ ٱلحيوان، وما نشهدُ من ذلك في أحوالِ ٱلناس، مِنَ ٱلفِطْنةِ إلى ٱلذكاءِ إلى ٱلألْمعيةِ[1] إلى ٱلجهبذةِ[2] إلى ٱلنبوغِ إلى ٱلعبقريَّة؛ وهيَ طبقاتٌ مِنَ ألفاظِ ٱللغةِ لِأَحوالٍ قائمةٍ مِنْ هذه ٱلمعاني ترجعُ إلى درجاتٍ ثابِتةٍ في تركيبِ ٱلدماغ.

ومِمَّا يسجُدُ لَهُ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ سجدةً طويلةً إذا هو تأمَّلَ في حِكْمةِ ٱللَّهِ ومرَّ يتصفَّحُ[3] من أسرارِ ما نحن بسبيلِهِ مِنَ ٱلكلام على ٱلنبوغ ـ أنَّ هذا ٱلوجودَ ٱلذي يحملُ أسرارَ ٱلألوهيَّةِ هو كُرَةٌ متقاذفَةٌ في ٱلفضاء ٱلأبديّ، وأنَّ ٱلأرضَ ٱلتي تحملُ

---

(١) الألمعية: الذكاء المفرط.

(٢) الجهبذة: التفوّق في العلم والشعر. (٣) يتصفح: يكتشف.

أسرارَ ٱلإنسانيَّة، هي كُرَةٌ طائرةٌ فيما مُدَّ لها مِنَ ٱلوجود، وأنَّ كلَّ حيٍّ فيها يحملُ أسرارَ حياتِهِ في كُرَةٍ خاصَّةٍ بِهِ هيَ رأسُه. وأنَّ ٱلوجودَ من كلِّ حيٍّ هو بعدَ ذلك ليسَ شيئاً في ٱلنظرِ ولا في ٱلحِسِّ ولا في ٱلفَهْم إلَّا كما يُرى ويُحسُّ ويُفهمُ في هذا ٱلرأسِ بِعينِهِ على طريقتِهِ وتركيبه، فيصعدُ ٱلتدريجَ إلى ٱلكبيرِ إلى ٱلأكبر، وينزلُ إلى ٱلصغيرِ إلى ٱلأصغر؛ ثُمَّ لا معنى لِمَا صعدَ إلَّا ممَّا نزل، وبهذا ستكونُ آخرةُ جميعِ ٱلعلومِ متى نفذَ ٱلعلماءُ إلى ٱلسرِّ ٱلحقيقيِّ، أنَّ ٱلعقلَ ٱلإنسانيَّ فَهِمَ كلَّ شيءٍ ولم يفهمْ شيئاً. . .

وٱلناسُ يختلفون بِتركيبِ أدمغتِهم على شبيهٍ مِنْ هذا ٱلتدريج؛ فأمَّا واحدٌ فيكونُ دِماغُهُ بِٱعتبارِهِ من سائرِ ٱلناسِ في ٱلذكاءِ وٱلعقْلِ كٱلوجودِ ٱلمُحِيط، وأمَّا آخرُ فكَٱلشمس، ثُمَّ غيرُها كٱلأرض، ثُمَّ ٱلرابعُ كٱلإنسان، ثُمَّ يكونُ منهم كٱلحيوانِ ومنهم كٱلحشرة؛ ولا عِلَّةَ لِكُلِّ هذا إلَّا ما هيَّأتِ ٱلأقدارُ «بأسبابِها ٱلكثيرة»، لِكُلِّ إنسانٍ في تركيبِ دِماغِهِ في نوعِ ٱلمادَّةِ ٱلسِّنجابيَّةِ مِنَ ٱلمخِّ، وأحوالِ ٱلتركيبِ في ٱلملايينِ مِنَ ٱلخلايا ٱلعصبيَّة، وما لا يُعَدُّ من فروعِ هذه ٱلخلايا وشُعَبِها: ثُمَّ ما يكونُ من قِبَلِ ٱلعلاقاتِ بين هذه ٱلفروعِ ٱلتي هيَ لِكلِّ رأسٍ كرمْلِ ٱلكرةِ ٱلأرضيَّة، ثُمَّ ٱختلافِ مقاديرِ ٱلموادِّ ٱلكيماويةِ ٱلتي تتخلَّقُ[1] في غددِ ٱلجِسْمِ وتنفُثُها ٱلغددُ في ٱلدم.

فقد يكونُ ٱلعملُ ٱلنابغُ ٱلمتمردُ على ٱلعقولِ آتياً من قطرةٍ في هذه ٱلغُدَد، كما ينبعثُ ٱلعِمْلاقُ ٱلماردُ بِعظامِهِ ٱلممتدَّةِ وألواحِهِ ٱلمشبوحةِ من غُدَّتِهِ ٱلنُّخاميَّةِ لا غيرِها.

فٱلذكيُّ من ذكيٍّ مثلِهِ إنَّما هو كٱلجيشِ من جيشٍ بإزائِهِ: يقعُ ٱلاختلافُ بينَهما فيما ٱشتملا عليهِ من كثرة ٱلجند، وصِفاتِهم مِنَ ٱلقُوَّةِ وٱلضعف، وأحوالِهم مِنَ ٱلنظامِ وٱلاختلال، وقوَّةِ آلاتِهِم ومِقدارِها ونوعِ ٱلاختراعِ فيها، ثُمَّ طبيعةِ موضِعِهِم وحسنِ توجيهِهِم وقِيادتِهِم، وما ٱكتنفَهُم[2] من صعبٍ أو سهْل، وما تظاهرَ[3] عليهِم مِنَ ٱلحوادثِ وٱلأقدار، ثُمَّ ٱلتوفيقِ ٱلذي لا حِيلةَ فيهِ إنْ وقَعَ في حُصَّةِ أحدِهِما وٱستقرّ، أو وقعَ هَوْناً وطارَ لِلآخر؛ وبنحوٍ من هذا كُلِّهِ تكونُ ٱلمُفاضَلَةُ إذا وازنْتَ بينَ ٱثنين مِنَ ٱلنوابغ في حقيقةِ نُبُوغِهِما.

فٱلنابغةُ خَلْقٌ من خالِقِه، يُصنعُ كما ترى بِإقدارِ ٱلله؛ إذْ هو قَدَرٌ على قومِهِ

---

(١) تتخلّق: تتشكّل.

(٢) اكتنفهم: داخلهم.

(٣) تظاهر: اجتمع وقوي.

وعلى عصرِه، وهو مِنَ ٱلناسِ كٱلورقةِ ٱلرابحةِ من ورقِ ٱلسحْب (اليانصيب): سلَّةُ يدٍ جعلَتها مالاً وتركَتِ ٱلباقياتِ وَرَقاً وأحدَثَتْ بينهما ٱلفرْقَ ٱلذهبيَّ؛ وبهذا لا يستطيعُ ٱلعالمُ أنْ يزيدَ ٱلدنيا نابغةً إلَّا إذا ٱستطاعَ أنْ يزيدَ في ٱلكواكبِ نَجْماً فيصنعُه؛ وهبْهُ[1] صنعَهُ مِنَ ٱلكهرباء، فيبقى أنْ يحملَه، وإذا حملهُ بقيَ أنْ يرفعَهُ إلى ٱلسموات؛ وهبْهُ قد رفعَهُ فيبقى كلُّ شيء... يبقى عليهِ أنْ يُقحمَهُ[2] في ٱلنجومِ ويُرسلَهُ فيها يدورُ ويتفلَّك.

وكما يُخلقُ ٱلنابغةُ بِتركيبِه، تُخلقُ لَهُ ٱلأحوالُ ٱلملائمةُ لِعملِهِ ٱلذي خُصَّ بِهِ في أسرارِ ٱلتقديرِ عاملاً نافعاً، وإنْ كانَتْ لا تُلائمُهُ هو منتفِعاً؛ فإنَّهُ هو غيرُ مقصودٍ إلَّا من حيثُ أنَّهُ وسيلةٌ أو آلةٌ تُكابِدُ ما تحتملُ في أعمالِها، ويؤتّى لها لِتأخذَ على طريقةٍ وتُعطيَ على طريقة؛ وبذلك يرجعُ ٱلتقديرُ إلى أنْ يكونَ ٱلعقلُ لِنابغةٍ دليلاً لِلناسِ مِنَ ٱلناسِ أنفسِهِم على ٱلخالقِ ٱلذي هو وحدَهُ أمرُهُ ٱلأمر.

وإذا كانَ ٱلجمالُ يستعلِنُ في كلامِ هؤلاءِ ٱلنوابغ، وٱلخيالُ يظهرُ في تعبيرِهِم، وٱلحِكْمةُ تهبِطُ إلى ٱلدنيا في تفكيرِهم، وٱلمثلُ ٱلأعلى هُمُ ٱلداعون إليه، وٱلأشواقُ ٱلنفسيَّةُ هم موقِظُوها، وٱلعواصفُ هُمُ المصورون لها، وسرورُ ٱلحياةِ هُمُ ٱلذين حوَّلوه إلى ٱلفنّ - إذا كانَ هذا كلُّهُ فهذا كلُّهُ إنَّما هو توكيدٌ لاتِّصالِهِم بِٱلقوةِ ٱلأزليَّةِ ٱلمدبِّرة، وأنَّهم أدواتُها في هذه ٱلمعاني؛ فما هي أعمالُهُم أكثرَ مِمَّا هي أعمالُها؛ وقد يظنُّ ٱلناسُ أنّ ٱلنابغةَ يلتمسُ ٱلقُوى ٱلمحيطةَ بِهِ لِيُبدِعَ منها، وٱلحقيقةُ أنَّها هي تلتمِّسُهُ لِتُبدعَ بِهِ.

وبعدُ؛ فٱلنابغةُ كأنَّهُ إنسانٌ مِنَ ٱلفَلَك، فهو يخزنُ ٱلأشعَّةَ ٱلعقليَّةَ ويُريقُها[3]، وفي يدِهِ ٱلأنوارُ وٱلظلالُ وٱلألوانُ يعملُ بها عملَ ٱلفجرِ كلَّما أظلمَتْ على ٱلناسِ معاني ٱلحياة؛ ولا تزالُ ٱلحِكْمةُ تُلقي إليهِ ٱلفِكْرَةَ ٱلجميلةَ لِيُعطِيَها هو صورةَ فِكْرتِها، وتُوحي إليهِ معنى ٱلحقِّ لِيؤتيَها هو معنى جمالِ ٱلحقّ؛ وٱلطبيعةُ خَلَقَها ٱللَّهُ وحدَه، ولكنَّها ليسَتْ معقولَةً إلَّا بِٱلعِلْم، وليسَتْ جميلةً إلَّا بِٱلشعر، وليسَتْ محبوبةً إلَّا بِٱلفَنّ؛ فَٱلنوابغُ في هذا كلِّهِ هُم شروحٌ وتفاسيرُ حولَ كلماتِ ٱلله، وكلُّهُم يشعرُ بِٱلوجودِ فنًّا كاملاً ويشعرُ بِنَفْسِهِ شَرْحاً لِأشياءَ من هذا ٱلفنّ، ويرى

---

(١) هبه: افترض.
(٢) يقحمه: يدخله بقوّة.
(٣) يريقها: ينفقها ويبعثرها.

معانيَ ٱلطبيعةِ كأنَّما تأتيهِ تلتمسُ في كتابتِهِ وشعرِهِ حياةً أكبرَ وأوسعَ مِمَّا هيَ فيهِ من حقائِقِها ٱلمحدودة، وتتعرَّضُ لَهُ أحزانُ ٱلإنسانيَّةِ تسألُهُ أنْ يُصحِّحَ ٱلرأيَ فيها بِٱستخراجِ معناها ٱلخياليِّ ٱلجميل، فإنَّها وإنْ كانَتْ آلاماً وأحزاناً إلَّا أنَّ معناها ٱلخياليَّ هو سرورٌ تحملُهُ لِلناس؛ إذْ كانَ من طبيعةِ ٱلنفسِ ٱلبشريَّةِ أنْ تسكُنَ إلى وصفِ آلامِهَا وفلسفةِ حِكْمتِها حين تبدو بَصَائِرُها حاملةً أثرَها ٱلإلهيّ، كأنَّ ٱلمؤلِمَ ليس هو ٱلألم، وإنَّما هو جهلُ سِرِّه.

وبِٱلجملةِ فَٱلكونُ يختارُ في كلِّ شيءٍ مُفَسِّرَهُ ٱلعبقريَّ لِيكشفَ من غُمُوضِهِ ويزيدَ فيهِ أيضاً... ثُمَّ ليؤتَى ٱلناسُ ٱلمثلَ ٱلأعلى مِنَ ٱلمعنى على يدِ ٱلمثلِ ٱلأعلى مِنَ ٱلفِكْر؛ ولهذا تُصيبُ ٱلكلامَ ٱلذي يكتبُهُ ٱلنابغةُ ٱلملهَمُ في أوقاتِ ٱلتجلّي عليهِ كأنَّهُ كلامٌ صَوَّرَ نفسَهُ وصاغَها، أو كأنَّهُ قطعةٌ مِنَ ٱلحِسِّ قد جَمَدَتْ في أسطر؛ ولا بُدَّ أنْ تُشعِرَكَ ٱلجملةُ أنَّها قُذِفَتْ وحْياً، إذْ لا تجِدُها إلَّا وكأنَّ في كلماتِها روحاً يَرْتَعِش؛ ولقد يخطرُ لي وأنا أقرأُ بعضَ ٱلمعاني ٱلجميلةِ لِذِهنٍ مِنَ ٱلأذهانِ ٱلملْهَمةِ كشكسبير وٱلمتنبي وغيرِهما ـ حينَ أتأمَّلُ ٱختراعَ ٱلمعنى وإبداعَ سِياقِهِ وضُحى ٱلبيانِ عليهِ وإشراقَهُ فيهِ وما أُتيحَ لَهُ من جَلالٍ ظاهرٍ في شكلٍ حيٍّ يلمحُ بِسرِهِ في ٱلنفس ـ يُخيَّلُ إليَّ من ذلك أنَّ سِرَّ ٱلطبيعةِ القادرَ يعملُ عملَهُ أحياناً بِذِهنٍ إنسانيٍّ لِيخلقَ تعبيراً عن جلالِهِ في مثلِ جلالِه.

وأنت فلو أخذْتَ معنًى من هذه ٱلمعاني ٱلآتيَةِ مِنَ ٱلإلهام وأجريْتَهُ في كتابةِ كاتبٍ أو شِعْرِ شاعرٍ مِنَ ٱلذينَ ليس لهم إلَّا أذهانُهُم يكدُونها[1]، وكتبُهُم يجعلونَها أذهانَهم أحياناً... لَرَأَيْتَ ٱلفرقَ بين شيءٍ وشيءٍ في أحسنِ ما أنت واجدُهُ لهم على نحوِ ما ترى بين زهرةٍ حريريةٍ جاءَتْ من عملِ ٱلإنسانِ بِٱلإبرةِ وٱلخيط، وزهرةٍ أخرى قدِ ٱنبثقَتْ عَطِرةً ناضرةً في غصنِها ٱلأخضرِ من عملِ ٱلحياةِ بِٱلسماءِ وٱلأرض.

وٱلعبقريُّ هو أبداً وراءَ ما لا ينتهي من جمالٍ، أوَّلُهُ في نفسِهِ وآخرُهُ في ٱلجمالِ ٱلأقدسِ ٱلذي مسَحَ على هذه ٱلنفسِ ٱلجميلةِ ٱلساميَّة؛ فما دامَ فيهِ سِرُّ ٱلعبقريَّةِ فهو دائبٌ يعملُ مُمَزِّقاً حياتَهُ في سَبَحاتِ ٱلنورِ تمزيقاً يجتمعُ منهُ أدبُهُ؛ وما أدبُهُ إلّا صورةَ حياتِهِ؛ وهو كلَّما أبدعَ شيئاً طَلَبَ ٱلذي هو أبدَعُ منه؛ فلا يزالُ متألِّماً إنْ عملَ لأنَّ طبيعتَهُ لا تقفُ عندَ غايةٍ من عملِه، ومتألِّماً إنْ لم يعملْ لِأنَّ

(١) يكدونها: يشحذونها ويعملونها.

تلك ٱلطبيعةَ بِعينِها لا تهدأُ إلَّا في عمل، وهي طبيعةٌ متمرِّدةٌ بذلك ٱلجمالِ ٱلأقدسِ تمرُّدَ ٱلعِشْقِ في حاملِه؛ إذْ هما صورتانِ لِأَمرٍ واحدٍ كما سنُشيرُ إليه؛ فكلُّ ما تجدُهُ في نفسِ ٱلعاشقِ ٱلمتدلِّهِ مِمَّا يترامى بِهِ إلى جُنُونِهِ وهلاكِهِ، تجدُ شبهاً منه في نفسِ ٱلعبقريِّ؛ فكِلاهما قانونُهُ من طبيعتِهِ وحدَها؛ إذْ قدِ ٱتخذَتْ حياتُهُ شكلَها ٱلفنيَّ من ذوقِهِ هو وحدَه؛ فليسَ يتبعُ طريقَةَ أحد، بلْ هو طريقةُ نفسِه، وكِلاهُما مسترسِلٌ أبداً إلى جمالٍ مستفيضٍ على روحِهِ يتقلَّبُ فيها بِٱللذةِ وٱلألم يرجعُ إليهِ ويستمدُّ منهُ، وكِلاهما لا يجدُ ٱلمعنى ٱلجميلَ في ٱلطبيعةِ معنًى، بلْ رسولاً مِنَ ٱلجمالِ أُرسلَ إليهِ وحدَه، ولا يزالُ يشعرُ في كلِّ وقتٍ أنَّ لهُ رسائلَ ورُسُلاً هو بعدُ في ٱنتظارِها، وكِلاهما متى ظَفِرَ بِشيءٍ من مصدرِ ٱلجمالِ ٱنتهى من شِدَّةِ فرحِهِ إلى ٱلظنِّ أنَّهُ رَبِحَ مِنَ ٱلكوْنِ رِبْحاً لم يكنْ لَهُ من قبل، وكِلاهُما مُتهالِكٌ بين قيودِ ٱلحياةِ ٱلتي في ٱلحياةِ وٱلواقع، وبين حريتِها ٱلتي في خيالِهِ وأملِه، كأنَّ عليهِ في سبيلِ هذه ٱلحريَّةِ أنْ يقطَعَ ٱلليلَ وٱلنهارَ لا قيداً من قيودِ ٱلامتاعِ أو ٱلعيشِ؛ وكِلاهما مُتَّصِلٌ بقوَّةٍ غَيبيةٍ وراءَ ما يُرى وما يُحسُّ تجعلُ نظرتَهُ في الأشياءِ خاضِعةً لِقانونِ ٱلنظرةِ ٱلعاشقةِ في ٱلعينينِ ٱلساحرتينِ ٱلمعشوقتين، فإذا مدَّ عينيهِ في شيءٍ جميلٍ فهناكَ سُؤالٌ وجوابُه، ووحيٌ وترجمتُه، ومرورٌ من يقظةٍ إلى حُلْم، وٱنتقالٌ من حقيقةٍ إلى خيال!

غيرَ أنّ طبيعةَ ٱلعبقريّ تزيدُ على كلِّ ذلك أَلَماً تنفرِدُ بهِ لا تستقرُّ معهُ على رضا، ولا يَبْرَحُ يُسلِّطُ ٱلإعنات[1] عليها ويستغرقُها بِٱلهموم ٱلسامية؛ وذلك أَلَمُ ٱلكمالِ ٱلفنيّ ٱلذي لا يُدركُ ٱلعبقريُّ غايتَهُ عندَ نفسِه، وإنْ كانَ عند ٱلناسِ قد أدركَ غاياتٍ وغايات؛ فطبيعةُ كلِّ عبقريٍّ تجهدُ جُهْدَها في ٱلعملِ لِتُخرجَ بِهِ مِمَّا يستطيعهُ ٱلناس، فإذا تأتَّى صاحبُها لذلك وكابَدَ فيهِ وأدركَ منهُ وبلغَ وأعجز، ٱندفعَتْ طبيعتُهُ إلى ٱلخروجِ مِمَّا يستطيعُ هو. . . كأنَّهُ خارجٌ عنِ ٱلطبيعةِ وداخلٌ في ٱلطبيعةِ في وقتٍ معاً، وكأَنَّهُ نفسُهُ وفوقَ نفسِهِ في حال، وهذا سِرُّ حريَّتِهِ وسمُوِّه، كما أنَّهُ سِرُّ ألمِهِ وحَيْرَتِه.

ومن أثر ذلك ما تُحِسُّهُ أنت إذا قرأْتَ لِلأديبِ ٱلبليغ ٱلتامِّ صاحبِ ٱلفِكْرِ وٱلأسلوبِ وٱلذهنِ ٱلمُلْهَم؛ فإنَّكَ تَقِفُ على ٱلمعنى من معانيهِ يَملأُ نفسَكَ ويتمَدَّدُ فيها ويهتزُّ بها طَرَباً وإِعْجَاباً، فتقول: لا أحسنَ من هذا! ثُمَّ تُؤَملُ معَ ذلك أنْ تجدَ

(١) الاعنات: الإرهاق.

منهُ هو أحسنَ من هذا. . . كأنَّهُ وإنْ تناهى إلى ٱلغايةِ[1] لا يزالُ عندَك فوقَ ٱلغاية؛ وهذا غريبٌ، ولكنْ لا دليلَ على ٱلعبقريَّةِ إلَّا الغَرابةُ دائماً؛ فهيَ نِظامٌ لا نِظامَ فيه؛ لِأنَّها طريقةٌ لا طريقةَ لها؛ وبهذهِ ٱلغَرابةِ جاءَتِ ٱلعبقريَّةُ كلُّها أمثلةً وليس فيها قواعدُ يُحتذى[2] عليها ولا هِدايةَ فيها إلَّا مِنَ ٱلروحِ؛ وإذا كانَ ٱلفنُّ قدرةً متصرِّفةً في ٱلجمال، فَٱلعبقريَّةُ قُدرةٌ متصرِّفةٌ في ٱلفنّ، وٱلنابغةُ كٱلمتكيّسِ[3] ٱلذي معَهُ قُوى ٱلعقلِ ويُريدُ أنْ يزدادَ على قدرِهِ منها، ولكنَّ العبقريَّ كٱلإلهيِّ ٱلذي معَهُ قوى ٱلروح ويُريدُ أنْ يزيدَ ٱلناسَ على قَدْرِهِم بها؛ وذاك مرجعُهُ ٱلفكرُ ٱلدقيقُ ٱلباحث، وهذا مناطُهُ ٱلبصيرةُ ٱلشفَّافةُ ٱلنافذة، وهي أغربُ ٱلغرائبِ في ٱلإنسان؛ إذْ هيَ ٱلجِهَةُ ٱلمطلقةُ في هذا ٱلمخلوقِ ٱلمُقيَّد، وبها تَتَّسِعُ ٱلنفسُ لِإدراكِ ٱلمُطْلَقِ ٱلظاهرِ من خلالِ ٱلموجودات، وفيها تحوُّلُ ٱلأشياءِ مِنْ نِظامِ ٱلحاسَّةِ إلى نِظامِ ٱلروح، فيُسمعُ ٱلمرئيُ ويُبْصِرُ ٱلمسموعُ، وتخلعُ ٱلأجسامُ أنغاماً، وتلبسُ ٱلأصواتُ أشكالاً، ويبدو عندَها كلُّ مخلوقٍ وكأنَّ فيهِ بقيةً زائدةً على خَلْقِهِ تُركَتْ لِيعملَ فيها ٱلكاتبُ أوِ ٱلشاعرُ ٱلمُحدِّثُ عملَ فنِّهِ، ٱلزائدةَ على ٱلطبيعةِ بِٱلحاسَّةِ ٱلزائدةِ على ذِهْنِه، وهيَ ٱلتي نُسمِّيها ٱلإلهام.

وهذه ٱلحاسَّةُ هي كذلك من بعضِ ٱلغَرابة، تكونُ في صاحبِها ٱلموهوبِ كما تكونُ حاسةُ ٱلاتجاهِ في ٱلطيورِ ٱلتي تقطعُ في جوِّ ٱلسماءِ إلى غاياتِها ٱلبعيدةِ من قُطْبِ[4] ٱلأرضِ إلى قُطْبِها ٱلآخرِ بِغيرِ دَليلٍ تحملُه، ولا رسم تنظرُ فيه، ولا عِلْمَ ترجعُ إليه؛ وكما تكونُ حاسَّةُ ٱلتمييزِ في ٱلنحلِ ٱلذي يبني عسَلَتَهُ على هندسةٍ لَيْسَتْ من كِتابٍ ولا مدرسة، وحاسَّةُ ٱلتدبيرِ في ٱلنملِ ٱلذي يُدبِّرُ مَمْلكتَهُ بِغيرِ عُلُومِ ٱلممالكِ وسِياسَتِها؛ وكثيراً ما يجيءُ ٱلأديبُ ٱلمُلْهَمُ من حقائقِ ٱلفِكْرِ وبيانِهِ وأسرارِ ٱلطبائعِ وأوصافِها بِمَا يُغطِّي على فلسفةِ ٱلفلاسفةِ وعِلْمِ ٱلعلماء، ومثلُ هذا ٱلعبقريِّ هو عندي فوقَ ٱلعِلْم، لا أقولُ بدرجة، ولكنْ بحاسّة.

وبِٱلإلهامِ يكونُ لِكُلِّ عبقريٍّ ذِهنُهُ ٱلذي معَهُ وذِهنُهُ ٱلذي ليس معهُ؛ إذْ كانَتْ لَهُ من وراءِ خيالِهِ قوَّةٌ غيرُ منظورةٍ ليسَتْ فيه، ومعَ ذلك تعملُ كما تعملُ ٱلأعضاءُ

---

(١) تناهى إلى الغاية: نضجَ واكتمل ووصل إلى حدّه الأقصى.
(٢) يحتذى: يقلّدها ويتّخذها قدوة.
(٣) المتكيس: العاقل الذي يتصرّف بحكمة. (٤) قطب: مركز.

في جِسمِهِ، هَيِّنَةً مُنقادةً كأنَّها تتصرَّفُ على ٱطِّرادِ ٱلعادةِ بِلا فِكْرٍ ولا رَوِيَّةٍ ولا عُسْرٍ ما دامَتْ تتجلّى عليهِ.

وليسَتْ تَتَّصِلُ هذه ٱلقوَّةُ إلَّا بتركيبٍ عصبيٍّ تكونُ فيهِ ٱلخصائصُ ٱلتي تصلُحُ أنْ تتلقَّى عنها، وهيَ في ٱلعبقريينَ خصائصُ مَرَضيةٌ في ٱلأعمِّ ٱلأغْلَب، بلْ لعلَّها كذلك دائماً، لِيَتَّسرَ بِها ٱلعبقريُّ لِحالةٍ خفيفةٍ مِنَ ٱلمَوْت... يحملُ بها كَدَّهُ وتعَبهُ وما يُعانيهِ من مضضِ ٱلفكرِ وثِقْلَتِه؛ ثُمَّ لِتَكُونَ هذه ٱلحالةُ كٱلتقريبِ بينَ عالمِ ٱلشهادةِ فيهِ وبينَ عالمِ ٱلغيبِ منهُ؛ فٱلتركيبُ ٱلعصبيُّ في دِمَاغِ ٱلعبقريِّ إنسانٌ على حيالِهِ معَ إنسانٍ آخر، أحدُهما لِمَا في ٱلطبيعةِ وٱلثاني لِمَا وراءَ ٱلطبيعة؛ ومِنْ ثَمَّ كانَ ٱلرجلُ من هذه ٱلفِئَةِ كٱلمِصْباح: يَتَّقِدُ وينطفىءُ لِأَنَّهُ آلةُ نُورٍ تَعْرِضُ لَهَا ٱلعِلَلُ فتذهبُ بِقُدْرَتِها عليه، وتنضبُ مادةُ ٱلنورِ منها، فكذلك لا تَقْدِرُ عليه، وتكونُ مُضِيئَةً فتنطفىءُ بسببٍ ليسَ منهاولا من نورها، وهيَ على كلِّ هذه ٱلأحوالِ لا تملِكُ منها حالة؛ فبينما ٱلعبقريُّ ٱلذي يَمْلأُ ٱلدنيا من آثارِهِ ٱلنابغة، تَراهُ في حالةٍ من أحوالِهِ يَدْأَبُ لا يأْتلي فيجدُ في ٱلعملِ ويبذلُ ٱلوسْعَ فيهِ ويصبرُ على مُطاولةِ ٱلتعبِ في إحكامِهِ ويفيضُ بِهِ فيضاً وكأنَّ في طبيعتِهِ ٱلربيعَ ٱلمتفتِّحَ طولَ أيَّامِهِ بٱلجمال ـ إذا هو في حالةٍ أخرى يتلكَّأُ ويتربَّصُ[1] لا يعملُ شيئاً كأنَّما دخلَ في قريحتِهِ ٱلشتاء، وفي ثالثةٍ يتباطَأُ ويتلَبَّثُ فلا يعنُّ لَهُ جديدٌ كأنَّما حُبِسَ عنهُ فكرُهُ أو نبا طبعُهُ أو هو في قَيْظِ طبيعتِهِ وخُمُولِها وضَجَرِها؛ ثُمَّ لا تمضي على ذلك إلَّا توَّةٌ وساعةٌ فإذا على صيفِهِ هواءُ نوفمبر وديسمبر... وإذا هو منبعثٌ مِلْءَ ٱلقوةِ وٱلنشاط؛ وربَّما يأخذُ في غرضٍ مِنَ ٱلكتابةِ قد رسَم لَهُ ٱلمعنى وهيَّأَ لَهُ ٱلمادة، فلا يكادُ يمضي لِنحوٍ منهُ حتى تتناسخَ في ذهنِهِ ٱلمعاني فإذا هو يكتبُ ما لا يُشبِهُ ما كانَ ٱبتدأَ بِهِ، ويأتيهِ غيرُ ما كانَ قد أرادَه، كأنَّما يُلقَى عليهِ فهو يستملي؛ وقد يبتدىءُ معنًى ثُمَّ يُقطَعُ عنهُ بطارىءٍ من عملٍ أو حديث، ثُمَّ يُعاودُهُ فإذا معنًى آخرُ وإذا جِهَةٌ مِنَ ٱلفكرِ هي جِهَةُ ٱلإبداعِ وٱلاختراعِ في موضوعِه، وإذا هو إنَّما كانَ يَجرُّ بذلك ٱلصارفَ عن معناهُ ٱلأولِ جرًّا لِيدعَهُ إلى ٱلأكملِ وٱلأصحّ، وأيقَنَ أنّهُ لو كانَ ٱستوفى على ما بَدَأَ لَأَسَفَّ وضَعُفَ وجاءَ بِمَا غيرُهُ أقدرُ عليه؛ كأنّ هذه ٱلقوَّةَ ٱلخفيَّةَ ٱلتي تُلْهِمُهُ تُنقِّحُ لهُ أيضاً بأساليبها ٱلغريبة؛ وقد يكونُ آخذاً في عملِهِ ماضياً على طبعِهِ مسترسِلاً إلى ما

---

(١) يتربّص: ينتظر ويتوقّع بحذر.

ينكشفُ لَهُ من أسرارِ ٱلمعاني ثَقِفاً مِن هنا لَقِفاً[1] من هناك، ثُمَّ ينظرُ فإذا هو قد مُسِحَ لوحُ خيالِهِ، ويطلبُ ٱلمعنى فلا يُتاحُ لَهُ، ويتمادى فلا يزيدُ إلَّا كَدّاً وعُسْراً كأنَّما ذهبَ إلهامُهُ في غَمضٍ من غُموضِ ٱلأبديَّة؛ وكلُّ مَنِ ٱرتاضَ بصناعةِ ٱلفكرِ وٱستحكمَتْ لَهُ عادتُها ومرَّ في درجاتِها حتى بلغَ ٱلمكانةَ ٱلَّتي يستشرفُ منها لِلإلهام ويتعرَّضُ فيها بِروحِهِ وبَصِيرتِهِ لِنَبَضاتِ ٱلوحي وٱنكشافاتِ ٱلغيب، يعلَمُ أنَّ كلَّ معنًى بديعٍ يأتي بِهِ في صِناعتِهِ إنَّما يقعُ لَهُ إلهاماً من ذلك ٱلمعنى ٱلحيِّ ٱلمتمدِّدِ في ٱلكائناتِ كلِّها، ظاهراً في شيءٍ منها بِٱلضوء، وفي أشياءَ بِٱلألوان، وفي بعضِها بِٱلحركة، وفي بعضِها بِٱلانسجام، وفي بعضِها بِٱلروعةِ وٱلفخامة، وفي غيرِها بِنِصْبَةِ ٱلهيئة؛ وظاهراً في حالاتٍ كثيرةٍ بِأنَّهُ غيرُ ظاهر؛ ويعرفُ كذلك أنَّ هذا ٱلمعنى ٱلشاملَ ٱلَّذي لا يُحَدُّ هو ٱلَّذي ينقلُ ٱلوجودَ كُلَّهُ إلى نفوسِ ٱلنوابغِ متى نَبَضَ في هذه ٱلنفوسِ ٱلرقيقةِ وأشعرَها سِرَّه، وإذا هَمَّ ٱلنابغةُ أنْ يتوضَّحَهُ لا يرى شيئاً، وإذا أرادَ حُجَّةً عليهِ لم يستطعِ ٱلجلاءَ عن بيانِهِ بكلمة، وإذا ٱلتمسَ ٱلتعريفَ بِهِ لم يجدْ إلَّا ما يشهدُ لَهُ إحساسُهُ وقلبُهُ، وهذا ٱلَّذي ينقدحُ[2] في أذهانِ ٱلنوابغِ أفكاراً حين يفيضُ لِكُلٍّ منهم بسببٍ من قراءةٍ أو مُشاهدةٍ أو حالةٍ أو مِراس[3]، هو هو بعينِهِ ٱلَّذي ينقدحُ عِشقاً في قلوبِ ٱلمُحبينَ حين يتراءَى لِكُلٍّ منهم في معنًى على وجهٍ جميل؛ ومن ثُمَّ كانَ ٱلنابغةُ في ٱلأدبِ لا يَتِمُّ تَمامُهُ إلَّا إذا أَحَبَّ وعَشِق، وكانَ ٱلأدبُ نفسُهُ في تحصيلِ حقيقتِهِ ٱلفلسفيَّةِ ليسَ شيئاً سوى صِناعةِ جمالِ ٱلفِكْر..

وهذا ٱلعملُ في ذلك ٱلجِهازِ ٱلعصبيِّ ٱلخاصِّ بِهِ في بعضِ ٱلأدمغةِ هو ٱلَّذي كانَ يُسمِّيهِ علماءُ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ بِٱلتوليد، وقد عرفوا أثرَه، ولكنَّهُم لم يتنبَّهوا إلى حقيقتِهِ ولا أدركوا من سِرِّهِ شيئاً؛ وأحسنُ ما قرأناهُ فيهِ قولُ ٱبنِ رشيقٍ في كتابِ ٱلعمدة: «إنَّما سُمِّيَ ٱلشاعرَ شاعراً لِأنَّهُ يشعرُ بِما لا يشعرُ بِهِ غيرُه؛ فإذا لم يكنْ عندَ ٱلشاعرِ توليدُ معنًى ولا ٱختراعُه، أوِ ٱستطرافُ لَفْظٍ وٱبتداعُه، أو زِيادةٌ فيما أجحفَ[4] فيهِ غيرُهُ مِنَ ٱلمعاني، أو نقصٌ مِمَّا أطالَهُ سِواهُ مِنَ ٱلألفاظ، أو صَرْفُ معنًى إلى وجهٍ عن وجهٍ آخر ـ كانَ ٱسمُ ٱلشاعرِ عليهِ مَجَازاً لا حقيقة، ولم يكنْ لَهُ

---

(١) لقفاً: سريع الفهم لما يدور حوله.

(٢) ينقدح: يلتمع.

(٣) المِراس من الممارسة الناتجة عن التجربة والمعرفة.

(٤) أجحف: ظلم وقلّل.

إلَّا فضلُ ٱلوزن». هذا كلامُ ٱبنِ رشيق، وليسَ لهم أحسنُ منه، وهو مَعَ ذلك تخليطٌ لا قِيمةَ لَهُ وليسَ فيهِ من موضوعِنا إلَّا لفظُ ٱلتوليد.

ومِمَّا لا نقضي منه عجباً في تتبُّع فلسفةِ هذه ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ ٱلعجيبة، أنَّنا نرى أكثرَ ألفاظِها كٱلتامةِ لا ينقصُها شيءٌ من دقائقِ ٱلمعنى في أصلِ وضعِها، على حينِ لا يفهمُ علماؤُها من هذه ٱلألفاظِ إلَّا بعضَ ما تدلُّ عليه، كأنَّها منزَّلةٌ تنزيلاً مِمَّنْ يعلمُ ٱلسّر؛ وقد نبَّهنا إلى هذا في كتابنا (تاريخُ آدابِ ٱلعرب) وأفضْنَا[1] فيهِ وٱستوفينا هناك من فلسفتِه، وجاءَ ٱلقرآنُ ٱلكريم من هذا بِٱلعجائبِ ٱلتي تفوتُ ٱلعقل، حتى إنَّ أكثرَ ألفاظِهِ لَتَكادُ تكونُ مختومةَ نزلَتْ كذلك لِتفُضَّ[2] ٱلعلومَ وٱلفلسفةُ خواتِمَها في عصورٍ آتيةٍ لا ريبَ فيها؛ وكلمةُ ٱلتوليدِ ٱلتي لم يفهمْ منها ٱلعلماءُ إلَّا أخْذَ معنًى من معنًى غيرِهِ بِطريقةٍ من طرقِ ٱلأخذِ ٱلتي أشاروا إليها في كتبِ ٱلأدب ـ هيَ ٱلكلمةُ ٱلتي لا يخرجُ عنها شيءٌ من أسرارِ ٱلنبوغِ ولا تجدُ ما يسدُّ في ذلك مَسدَّها[3] أو يُحيطُ إحاطتَها، ولا نظنُّ في لغةٍ مِنَ ٱللغاتِ ما يُشبهُها في هذه ٱلدلالةِ وٱستيعابِها كلَّ أسرارِ ٱلمعنى؛ إذْ هيَ بِلفظِها نصٌّ على حياةِ ٱلكونِ في ٱلذهنِ ٱلإنسانيّ، وأنَّهُ يُتَّخذُهُ وسيلةً لإبداعِ مَعَانيه، كما يَتَّخِذُ سِرُّ ٱلحياةِ بَطْنَ ٱلأمِّ وسيلةً لِإبداعِ موجوداتِه؛ وأنَّ ٱلمعانِيَ تتلاقحُ فيَلِدُ بعضُها بعضاً في أسلوبِ مِنَ ٱلمعاني بعضُها أجملُ من بعض، كما يكونُ مثلُ ذلك في ٱلنسْلِ بوسائلِ ٱلتقليحِ مِنَ ٱلدماءِ ٱلمختلفة، وأنَّ ٱلنبوغَ ليسَ شيئاً إلَّا ٱلتركيبَ ٱلعصبيَّ ٱلخاصَّ في ٱلذهْنِ، ثُمَّ نموَّ هذا ٱلتركيبِ مَعَ ٱلحياةِ في طريقةٍ سَواءٌ هي وطريقةُ ٱلولادةِ ٱلْمُحييةِ ٱلتي مرجعُها كذلك إلى تركيبٍ خاصٍّ في أحشاءِ ٱلأنثى؛ ينمو، ثُمَّ يُدركُ ثُمَّ يعملُ عملَهُ ٱلمعجز؛ وإذا كانَ من كلِّ شيءٍ في ٱلطبيعةِ زوجان، فَٱلكلمةُ نصٌّ على أنَّ أذهانَ ٱلنوابغِ أذهانٌ مؤنَّثةٌ في طِباعِها ٱلتي بُنيَتْ عليها؛ وهذا صحيح، إذْ هيَ أقوى ٱلأذهانِ على ٱلأرضِ في ٱلحِسِّ بِٱلآلامِ وٱلمسرات، ومعاني ٱلدموعِ وٱلابتسام أسرعُ إليها من غيرِها، بلْ هيَ طبيعةٌ فيها؛ وهي وحدَها ٱلمُبْدِعةُ لِلْجمالِ وٱلْمُنْشِئَةُ لِلذوق، وعملُها في ذلك هو قانونُ وجودِها؛ ثُمَّ هي قائمةٌ على ٱلاحتمالِ وٱلإعطاءِ وٱلرضا بِٱلحرْمانِ في سبيلِ ذلك وإدمانِ ٱلصبرِ على ٱلتعبِ وٱلدقةِ وٱلاهتمامِ بِٱلتفاصيلِ وأساسُها ٱلحُبّ؛ وكلُّ ذلك من طِباعِ ٱلأنثى وهيَ ٱلنابغةُ فيه، بلْ هي ٱلنابغةُ بِه.

---

(١) أفضنا: زدنا أكثر ممّا هو مطلوب.

(٢) لتفضّ: لتكشف وتفتح.

(٣) مسدّها: مكانها.

فسِرُّ ٱلنبوغِ في ٱلأدبِ وفي غيرِهِ هو ٱلتوليد، وسرُّ ٱلتوليدِ في نضج ٱلذهنِ ٱلمهيإِ بأدواتِهِ ٱلعصبيَّة، ٱلمتجهِ إلى ٱلمجهولِ ومعانيهِ كما تَتَّجِهُ كلُّ آلاتِ ٱلمرصدِ ٱلفلكيِّ إلى ٱلسماءِ وأجرامِها؛ وبذلك ٱلعنصرِ ٱلذهنيِّ يزيدُ ٱلنابغةُ على غيرِه، كما يزيدُ ٱلماسُ على ٱلزجاج، وٱلجوهرُ على ٱلحجر، وٱلفُولاذُ على ٱلحديد، وٱلذهبُ على ٱلنحاس؛ فهذه كلُّها نبغَتْ نبوغَها بِٱلتوليدِ في سِرِّ تركيبِها؛ ويتفاوتُ ٱلنوابغُ أنفسُهُم في قوَّةِ هذه ٱلمَلَكة، فبعضُهُم فيها أكملُ من بعض، وتمدُّ لهم في ٱلخِلافِ أحوالُ أزمانِهِم ومعايشِهِم وحوادثِهِم ونحوِها؛ وبهذه ٱلمُباينةِ تجتمعُ لِكُلٍّ منهم شخصيَّةٌ وتتَّسِقُ لَهُ طريقة؛ وبذلك تتنوَّعُ ٱلأساليب، ويُعادُ ٱلكلامُ غيرَ ما كانَ في نفسِه، وتتجدَّدُ ٱلدنيا بمعانيها في ذِهْنِ كلِّ أديبٍ يَفهمُ ٱلدنيا وتَتَّخِذُ ٱلأشياءُ ٱلجاريةُ في ٱلعادةِ غرابةً ليست في ٱلعادةِ ويرجعُ ٱلحقيقيُّ أكثرَ من حقيقتِه.

وقد سُئِل مصوِّرٌ مُبْدِعٌ بِماذا يمزجُ ألوانَهُ فتأتي ولها إشراقُها وجمالُها ونبوغُ مبانيها وزهوُّ ٱلحياةِ بها في ٱلصورة، فقال: إنَّما أمزجُها بِمُخِّي. وهذا هذا، فإنَّ ٱلألوانَ عندَه ٱلناسُ جميعاً، ولكنَّ مُخَّهُ عندَهُ وحدَهُ ولَهُ تركيبُهُ ٱلخاصُّ بِهِ وحدَهُ وسِرُّ ٱلصناعةِ في توليدِ هذا ٱلدماغِ فِكَأَنَّ ألوانَهُ في صِناعتِهِ جاءَتْ منه بِخُصوصِه، وكذلك كلُّ ما يتناولُهُ ٱلعبقريُّ فإنَّكَ لَتَجِدُ ٱلشعرَ في وزنٍ خاصٍ بِهِ يدلُّ عليهِ ويُتمِّمُ ٱلغرضَ منه ويُضيفُ إلى معانيهِ أنقاً مِنَ ٱلجمالِ وحُسنِهِ وإلى صوتِهِ نغماً مِنَ ٱلموسيقى وطربِها. فما أشبهَ ٱلجِهازَ ٱلعصبيَّ في دِماغِ كلِّ نابغةٍ أنْ يكونَ وزناً شعريًّا لهذا ٱلنابغةِ بخاصتِه. ألا ترى أنَّك لا تقرأُ ٱلأديبَ ٱلحقَّ إلَّا وجدْتَ كلَّ ما يكتبُهُ يجيءُ في وزنٍ خاصٍّ بِهِ حتى لا يخرجَ عنهُ مرَّة، أو تزيدُ أنت فيهِ وتُنقِصُ إلَّا ظهرَ لك أنَّه مكسور...؟

وٱلذهنُ ٱلعبقريُّ لا يتَّخذُ ٱلمعانيَ موضوعَ بَحْثٍ ونظرٍ وتعقُّبٍ يستخرجُ منها أو يتعلَّقُ عليها فهذا عملُ ٱلذهنِ ٱلذكيِّ وحدَهُ وهو غايةُ ٱلغاياتِ فيهِ يبحثُ وينظرُ ويتصفَّحُ ويجمعُ من هنا ويأخذُ من ثَمَّ ويعترضُ ويُصحِّحُ ويأتيكَ بِٱلمقالةِ يحسبُ فيها كلَّ شيءٍ وما فيها إلَّا أشياؤُهُ هو وأمثالِهِ. أمَّا ٱلذهنُ ٱلعبقريُّ فليسَ لَهُ منَ ٱلمعاني إلَّا مادةُ عملٍ فلا تكادُ تُلابسُهُ حتى تتحوَّلَ فيهِ وتتنوَّعَ وتتساقطَ لَهُ أشكالاً وصُوَراً في مثلِ خطراتِ ٱلبرْق، وربَّما غمرَ بِٱلمعنى ٱلواحدِ في جمالِهِ وسُمُوِّهِ وقوَّةِ تأثيرِهِ مقالاتٍ عِدَّةٍ لِأُولئك ٱلأذكياءِ فنسخَها نَسْخاً وجعلَها منه كٱلشموعِ ٱلمُوْقَدَةِ بِإزاءِ ٱلشمس. فإذا ذهبْتَ تُوازِنُ بينَ مثلِ هذا ٱلمعنى ومثلِ هذه ٱلمقالاتِ في ٱلروعةِ وٱلجَلَالِ ورأيْتَ عربدةَ ٱلمقالةِ وغرورَها لم تستطعْ إلَّا أنْ تقولَ لها: يا

حصاة ٱلميزانِ في إحدى كفتيهِ ألا يكفيكِ ٱلجبلُ في ٱلكَفَّةِ ٱلأخرى. . . ؟

وقد عرفَ ٱلأدباءُ جميعاً أنّ كاتِبَ فرنسا ٱلعظيمَ أناتول فرانس كانَ يكتبُ ٱلجملة، ثُمَّ يُنقِّحُها، ثُمَّ يُهذبُها، ثُمَّ يُعيدُها، ثُمَّ يرجِعُ فيها، وهكذا خمسَ مراتٍ إلى ثمانٍ ويُقدِّمُ ويُؤخِّرُ من موضعٍ إلى موضعٍ ويحتسبون هذا تحكيكاً وتهذيباً، وما هو منها في شيءٍ ولا أحسبُ ٱلأوربيِّين أنفسَهم تنبَّهوا إلى سِرِّ هذه ٱلطريقة، وإنَّما سِرُّها من جِهاز ٱلتوليدِ في رأسِ ذلك ٱلكاتبِ ٱلعظيم فإذا قرأ كتابَةً حوَّلَها فكرُهُ وأبدعَ لَهُ منها من غيرِ أنْ يعملَ في ذلك أو يتكلَّفَ لَهُ إلَّا ما يتكلَّفُ مَنْ يهزُّ إليهِ بِجذعِ ٱلشجرةِ لِتُساقطَ عليه ثمراً ناضجاً حُلْواً جَنِيًّا. فكلَّما قرأَ ولَّدَ ذِهنُهُ فيُثبِتُ ما يأتيهِ فلا تزالُ صورةٌ تخرجُ من صورةٍ حتى يجيءَ ٱلمعنى في ٱلنهايةِ وإنَّهُ لأغربُ ٱلغرائبِ لا يكادُ ٱلعقلُ يهتدي إلى طريقتِه وسِياقِ ٱلفِكْرِ فيهِ إذْ كانَ لم يأتِ إلَّا محوّلاً عن وجهِهِ مراتٍ لا مرةً واحدة.

فجِهازُ ٱلتوليدِ متى ٱستمرَّ وٱستحكَمَ في إنسانٍ أصبحَ لَهُ بمقامِ مَلَكِ ٱلوحيِّ مِنَ ٱلنبيِّ وهو عندَنا دليلٌ من أقوى ٱلأدلَّةِ على صِحَّةِ ٱلنبوَّةِ وحدوثِ ٱلوحي وإمكانِهِ إذْ لا تتصرَّفُ بِهِ إلَّا قوَّةٌ غيبيَّةٌ لا عملَ لِلْإنسانِ فيها، بلْ هيَ تُبدِعُ إبداعَها وتُلْقِي عليهِ إلقاءً. وليسَ كلُّ مَنْ تعرَّضَ لها أدركَ منها، ولا كلُّ مَنْ أدركَ منها بَلَغَ بها، بلْ لا بُدَّ لها مِنَ ٱلجِهازِ ٱلعَصبيِّ ٱلمُحكَمِ كجِهازِ ٱللاسلكيِّ ٱلدقيقِ ٱلمصنوعِ لِتلقِّي أبعدِ ٱلأمواجِ ٱلكهربائيَّةِ وأقواها. وهذهِ ٱلقوَّةُ إنْ أرادَتْ معانيَ ٱلجمال أخرجَتِ ٱلشاعرَ وإنْ أرادَتْ كَشْفَ ٱلسرِّ عنِ ٱلأشياءِ أخرجَتِ ٱلأديبَ وإنْ أرادَتْ حقائقَ ٱلوجودِ أخرجَتِ ٱلحكيم. فإنْ كانَ ٱلأمرُ أكبرَ من هذا كلِّهِ وكانَ أمرَ تغييرِ ٱلحياةِ وصَبَّ أزمانٍ جديدةٍ لِلْإنسانيةِ وٱلوثوبِ بِهذه ٱلدنيا درجةً أو درجاتٍ في ٱلرقيِّ - فهنا تكونُ ٱلوصيلةُ أكبرَ مِنَ ٱلبصيرة، فليسَ لها من قوةِ ٱلغيبِ إلَّا ٱلوحي، ويكونُ ٱلغرضُ أكبرَ مِنَ ٱلشاعرِ وٱلأديبِ وٱلحكيم، فلا يختارُ إلَّا ٱلنبيّ، ثُمَّ لا يُوحى إليهِ إلَّا وهو في حِسٍّ لِساعةِ ٱلوحي وحدَها، وهي ساعةٌ ليسَتْ مِنَ ٱلزمنِ بلْ مِنَ ٱلروحِ ٱلمنصرفِ عنِ ٱلزمنِ وما فيهِ ليتلقَّى عن روحِ ٱلخُلْد؛ وقريبٌ من ذلك خَلْوةُ ٱلنابغةِ بنفسِهِ في ساعةِ ٱلتوليد؛ فَسِرُّ ٱلنبوغِ من سِرِّ ٱلوحي، لا ريبَ في ذلك، وما أسهلَ سِرَّ ٱلوحي وأيسرَ أمرَهُ، ولكنْ في ٱلأنبياءِ وحدَهم، وهنا كلُّ ٱلصعوبة. . . «أنْ نكونَ أو لا نكون؛ هذه هيَ ٱلمسألة». .

* * *

نقدُ الشعرِ وفلسفتُه

الشاعرُ في رأينا هو ذاك ٱلذي يرى ٱلطبيعةَ كلَّها بعينينِ لهما عِشْقٌ خاصٌّ وفيهما غَزَلٌ على حِدَةٍ، وقد خُلِقتَا مُهيَّأتين بِمجموعةٍ لِنفسٍ ٱلعصبيَّةِ لِرؤيةِ ٱلسِّحرِ ٱلذي لا يُرَى إلَّا بهما، بلِ ٱلذي لا وجودَ لَهُ في ٱلطبيعةِ ٱلحيةِ لولا عينا ٱلشاعر، كما لا وجودَ لَهُ في ٱلجمالِ ٱلحيِّ لولا عينا ٱلعاشِق.

فإذا كانَ ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ أعمى كهوميروس ومِلْتون وبَشَّارٍ وٱلمعرّي وأضرابِهم، ٱنبعثَ ٱلبصرُ ٱلشعريُّ من وراءِ كلِّ حاسَّةٍ فيه، وأبصَرَ من خواطرِهِ ٱلمنبثَّةِ في كلِّ معنًى، فأدَّى بِٱلنفس في ٱلوجودِ ٱلمُظْلِمِ أكثرَ ما كانَ يُؤدِّيهِ بِهذهِ ٱلنفسِ في ٱلوجودِ ٱلمُضِيءِ، وقصَّرَ عنِ ٱلمُبصِرينَ في معانٍ وأربى عليهم في معانٍ أخرى، فيجتمعُ لِلشعرِ من هؤلاءِ وأولئكَ مَدُّ ٱلنفسِ ٱلمُلْهَمَةِ مِمَّا بينَ أطرافِ ٱلنورِ إلى أغوارِ ٱلظُّلمة.

وٱلشعرُ في أسرارِ ٱلأشياءِ لا في ٱلأشياءِ ذاتِها، ولِهذا تمتازُ قريحةُ ٱلشاعرِ بِقدرتِها على خَلْقِ ٱلألوانِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي تصبغُ كلَّ شيءٍ وتُلَوِّنُهُ لإظهارِ حقائقِهِ ودقائقِهِ حتى يجريَ مجراهُ في ٱلنفسِ ويجوزَ مَجَازَهُ فيها؛ فكلُّ شيءٍ تَعَاوَرَهُ ٱلناسُ من أشياءِ هذه ٱلدنيا فهو إنَّما يُعطيهم مادَتَهُ في هيئتِهِ ٱلصامتة، حتى إذا ٱنتهى إلى ٱلشاعرِ أعطاهُ هذه ٱلمادةَ في صورتِها ٱلمكتملة، فأبانَتْ عن نفسِها في شعرِهِ ٱلجميلِ بِخصائصَ ودقائقَ لم يكنْ يراها ٱلناسُ كأنَّها ليسَتْ فيها.

فَبِٱلشعرِ تتكلَّمُ ٱلطبيعةُ في ٱلنفسِ وتتكلَّمُ ٱلنفسُ لِلْحقيقةِ وتأتي ٱلحقيقةُ في أظرفِ أشكالِها وأجملِ مَعَارِضِها، أي في ٱلبيانِ ٱلذي تصنعُهُ هذه ٱلنفسُ ٱلمُلْهَمَةُ حين تتلقَّى ٱلنورَ من كلِّ ما حولَها وتعكسُهُ في صِناعةٍ نورانيةٍ متموِّجةٍ بِٱلألوانِ في ٱلمعاني وٱلكلماتِ وٱلأنغام.

وٱلإنسانُ مِنَ ٱلناسِ يعيشُ في عمرٍ واحد، ولكنَّ ٱلشاعرَ يبدو كأنَّهُ في أعمارٍ كثيرةٍ من عواطفِه، وكأنَّما ينطوي على نفوسٍ مختلِفةٍ تجمعُ ٱلإنسانيَّةَ من أطرافِها،

وبذلك خُلِقَ لِيُفيضَ من هذه ٱلحياةِ على ٱلدنيا، كأنَّما هو نبعٌ إنسانيٌّ لِلْإحساسِ يغترفُ ٱلناسُ منهُ لِيزيدَ كلُّ إنسانٍ معانيَ وجودِهِ ٱلمحدودِ ما دامَ هذا ٱلوجودُ لا يزيدُ في مُدَّتِه، ثُمَّ لِيُرهِفَ[1] ٱلإنسانُ بذلك أعصابَهُ فتُدركَ شيئاً مِمَّا فوقَ ٱلمحسوس، وتكنَنَهُ[2] طرفاً من أطرافِ ٱلحقيقةِ ٱلخالدةِ ٱلتي تَتَّسِعُ بِٱلنفسِ وتُخرجُها من حدودِ ٱلضروراتِ ٱلضيِّقةِ ٱلتي تعيشُ فيها لِتصلَها بلذاتِ ٱلمعاني ٱلحرَّةِ ٱلجميلةِ ٱلكاملة؛ وكأنَّ ٱلشعرَ لم يجيءْ في أوزانٍ إلَّا ليحملَ فيها نفسَ قارئِهِ إلى تلك ٱللَّذاتِ على ٱهتزازاتِ ٱلنغم؛ وما يُطرِبُ ٱلشعرُ إلَّا إذا أحسسْتَهُ كأنَّما أخذَ النفسَ لحظةً وردَّها.

وٱلشاعرُ ٱلحقيقُ بهذا ٱلاسم ـ أي ٱلذي يَغلبُ على ٱلشعرِ ويفتِتحُ معانيَهُ ويهتدي إلى أسرارِهِ ويأخذُ بِغايةِ ٱلصنعةِ فيه ـ تراهُ يضعُ نفسَهُ في مكانِ ما يُعانيهِ مِنَ ٱلأشياءِ وما يتعاطى وصفَهُ منها، ثُمَّ يُفكِّرُ بعقلِهِ على أنَّهُ عقلُ هذا ٱلشيءِ مُضافاً إليهِ ٱلإنسانيَّةُ ٱلعالية، وبهذا تنطوي نفسُهُ على ٱلوجودِ فتخرجُ ٱلأشياءُ في خِلْقةٍ جميلةٍ من معانيها وتُصبحُ هذه ٱلنفسُ خليقةً أخرى لِكُلِّ معنًى داخلَها أوِ ٱتَّصلَ بها؛ ومن ثَمَّ فلا ريبَ أنَّ نفسَ ٱلشاعرِ ٱلعظيمِ تكادُ تكونُ حاسَّةً من حواسِّ ٱلكون.

ولو سُئلَتْ أزمانُ ٱلدنيا كيف فَهِمَ أهلُها معانيَ ٱلحياةِ ٱلساميةِ وكيف رأَوْها في آثارِ ٱلألوهيَّةِ عليها، لَقَدَّمَ كلُّ جِيْلٍ في ٱلجوابِ على ذلك معانيَ ٱلدينِ ومعانيَ ٱلشعر.

وليسَتِ ٱلفكرةُ شعراً إذا جاءَتْ كما هي في ٱلعِلْمِ وٱلمعرفة، فهيَ في ذلك عِلْمٌ وفلسفة، وإنَّما ٱلشعرُ في تصويرِ خصائصِ ٱلجمالِ ٱلكامنةِ في هذه ٱلفكرةِ على دِقَّةٍ ولَطَافةٍ كما تتحوَّلُ في ذِهْنِ ٱلشاعرِ ٱلذي يُلوِّنُها بِعملِ نفسِهِ فيها ويتناولُها من ناحيةِ أسرارِها.

فٱلأفكارُ مِمَّا تُعانيهِ ٱلأذهانُ كُلُّها ويتواطأُ[3] فيهِ قلبُ كلِّ إنسانٍ ولِسانُه، بَيْدَ أنَّ فنَّ ٱلشاعر هو فنُّ خصائصِها ٱلجميلةِ ٱلمؤثِّرة، وكأنَّ ٱلخيالَ ٱلشعريَّ نِحْلةٌ مِنَ ٱلنحلِ تُلِمُّ بِٱلأشياءِ لِتُبدعَ فيها ٱلمادةُ ٱلحلوةُ لِلذوقِ وٱلشعور، وٱلأشياءُ باقيةٌ بعدُ كما هيَ لم يغيِّرْها ٱلخيال، وجاءَ منها بِمَا لا تحسبُهُ منها؛ وهذه ٱلقوَّةُ وحدَها هيَ ٱلشاعريَّة.

فٱلشاعرُ ٱلعظيمُ لا يُرسلُ ٱلفكرةَ لِإيجادِ ٱلعِلْمِ في نفسِ قارئِها حَسْبُ، وإنَّما هو يصنعُها ويَحْذُو ٱلكلامَ فيها بعضَهُ على بعضٍ، ويتصرَّفُ بها ذلك ٱلتصرفَ

---

(١) يُرهف: يرقق ويلطّف.

(٢) تكننه: تقرّه.

(٣) يتواطأ: يجتمع.

لِيُوجِدَ بِهَا ٱلعِلْمَ وٱلذوقَ معاً؛ وعبقريَّةُ ٱلأدبِ لا تكونُ في تقريرِ ٱلأفكارِ تقريراً عِلْميًّا بَحْتاً، ولكنْ في إرسالِها على وجهٍ مِنَ ٱلتسديدِ لا يكونُ بينَهُ وبين أنْ يُقرَّها في مكانِها منَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ حائلٌ. وكثيراً ما تكونُ ٱلأفكارُ ٱلأدبيَّةُ ٱلعاليةُ ٱلتي يُلْهِمُهَا أفذاذُ ٱلشعراءِ وٱلكتابِ هِيَ أفكارَ عقلِ ٱلتاريخِ ٱلإنسانيِّ، فلا تَفْصِلُ عنهُمُ ٱلفكرةُ في أسلوبِها ٱلبيانيِّ ٱلجميلِ حتى تتَّخذَ وضْعَها ٱلتاريخيَّ في ٱلدنيا، وتقومَ على أساسِها في أعمالِ ٱلناس، فتتحقَّقُ في ٱلوجودِ ويُعملُ بها؛ وهذا طَرَفٌ مِمَّا بينَ ٱلأدبِ ٱلعالي وبينَ ٱلأديانِ مِنَ ٱلمشابهة.

ومتى نُزِّلَتِ ٱلحقائقُ في ٱلشعرِ وجبَ أنْ تكونَ موزونةً في شكلِها كوزنِه، فلا تأتي على سَرْدِها[1] ولا تُؤْخذُ هَوْناً كٱلكلام بِلا عملٍ ولا صِناعة، فإنَّها إنْ لم يجعلْ لها ٱلشاعرُ جمالاً ونَسَقاً مِنَ ٱلبيانِ يكونُ لها شبيهاً بِٱلوزنِ، ويضعُ فيها روحاً موسيقيَّةً بحيثُ يجيءُ ٱلشعرُ بها ولَهُ وزنانِ في شكلِهِ وروحِه ـ فتلك حقائقُ مكسورةٌ تلوحُ في ٱلذوقِ كٱلنظمِ ٱلذي دخلَتْهُ ٱلعِلَلُ فجاءَ مُخْتلّاً قد زاغَ أو فسد.

وٱلخيالُ هو ٱلوزنُ ٱلشعريُّ لِلْحقيقةِ ٱلمُرسَلَة، وتخيُّلُ ٱلشاعرِ إنَّما هو إلقاءُ ٱلنورِ في طبيعةِ ٱلمعنى لِيشِفَّ[2] بِهِ، فهو بِهذا يرفعُ ٱلطبيعةَ درجةً إنسانيَّة، ويرفعُ ٱلإنسانيَّةَ درجةً سماويَّة؛ وكلُّ بَدائعِ ٱلعُلماءِ وٱلمخترعينَ هيَ منه بهذا ٱلمعنى، فهو في أصلِهِ ذكاءُ ٱلعِلْم، ثُمَّ يسمو فيكونُ هو بصيرةَ ٱلفلسفة، ثُمَّ يزيدُ سُموُّهُ فيكونُ روحَ ٱلشعر؛ وإذا قلبْتَ هذا ٱلنسقَ فٱنحدرْتَ بِهِ نازلاً كما صعدْتَ بِه، حصلَ معك أنَّ ٱلخيالَ روحُ ٱلشعر، ثُمَّ ينحطُّ شيئاً فيكونُ بصيرةَ ٱلفلسفة، ثُمَّ يزيدُ ٱنحطاطاً فيكونُ ذكاءَ ٱلعِلْم، فٱلشاعرُ كما ترى هو ٱلأولُ إنِ ٱرتقَتِ ٱلدنيا، وهو ٱلأولُ إنِ ٱنحطَّتِ ٱلدنيا؛ وكأنَّما إنسانيَّةُ ٱلإنسانِ تبدأُ منه.

إذا قرَّرْنا لِلشعرِ هذا ٱلمعنى وعرفْنا أنَّهُ فنُّ ٱلنفسِ ٱلكبيرةِ ٱلحسَّاسةِ ٱلمُلْهَمَةِ حين تتناولُ ٱلوجودَ من فوقِ وجودِهِ في لُطْفٍ روحانيٍّ ظاهرٍ في ٱلمعنى وٱللغةِ وٱلأداءِ ـ وجبَ أنْ نعتبرَ نقدَ ٱلشعرِ بِٱعتبارٍ مِمَّا قرَّرناه، وأنْ نُقيمَهُ على هذه ٱلأصول؛ فإنَّ ٱلنقدَ ٱلأدبيَّ في أيامِنا هذه ـ وخاصةً نقدَ ٱلشعر ـ أصبحَ أكثرُه، مِمَّا لَا قِيمةَ له، وساءَ ٱلتصرُّفُ بِه، ووقعَ ٱلخَلْطُ فيه، وتناولَهُ أكثرُ أهلِهِ بِعِلْمٍ ناقص، وطبعٍ ضعيف، وذوقٍ فاسد، وطَمِعَ فيه مَنْ لا يُحصِّلُ مذهباً صحيحاً، ولا يتَّجِهُ

---

(١) سردها: روايتها.
(٢) ليشفّ: ليظهر ويرقّ.

لِرأيٍ جيِّد، حتى جاءَ كلامُهُم وإنَّ في ٱللغوِ وٱلتخليطِ ما هو خيرٌ منه وأخفُّ مَحْمَلاً، فإنَّكَ من هذينِ في حقيقةٍ مكشوفةٍ تعرفُها تخليطاً ولغواً، ولكنَّكَ من نقدِ أولئك في أدبٍ مُزَوَّرٍ ودعوًى فارغةٍ وزوائدَ مِنَ ٱلفضولِ وٱلتعسُّفِ يتزيَّدون بِها لِلنفخِ والصَّوْلَةِ وإيهامِ ٱلناسِ أنَّ ٱلكاتبَ لا يرى أحداً إلَّا هو تحت قدرتِهِ. . . على أنَّ جهدَ عملِهِ إذا فَتَّشْتَهُ وٱعتبرْتَ عليهِ ما يخلطُ فيه، أنَّهُ يكتبُ حيث يُريدُ ٱلنقدُ أنْ يُحقِّق، ويملأَ فراغاً مِنَ ٱلورقِ حيث يقتضِيهِ ٱلبحثُ أنْ يملأَ فراغاً مِنَ ٱلمعرفة.

وقد قُلْنا في كِتابِنا (تحتَ رايةِ ٱلقرآن): إنَّ أستاذَ ٱلآدابِ يجبُ أنْ يجمعَ إلى ٱلإحاطةِ بِتاريخِها وتقصِّي موادِّها ـ ذَوْقاً فنيًّا مهذَّباً مصقولاً، وليس يُمكنُ أنْ يأتيَ لَهُ هذا الذوقُ إلَّا من إبداعٍ في صناعتي ٱلشعرِ وٱلنثر، ثُمَّ يجمعُ إلى هذين (أي ٱلإحاطةِ وٱلذوقِ) تلك ٱلموهبةَ ٱلغريبةَ ٱلتي تلفُّ بينَ ٱلعِلْمِ وٱلفكرِ وٱلمُخيِّلةِ فتُبدعُ مِنَ ٱلمؤرخِ ٱلفيسلوفِ ٱلشاعرِ ٱلعالمِ شخصاً من هؤلاءِ جميعاً هو ٱلذي نُسميهِ ٱلناقِدَ ٱلأدبيّ.

هذه هي صِفاتُ ٱلناقدِ في رأينا؛ فٱنظرْ أينَ تجدُهُ بين هؤلاءِ ٱلأساتذةِ ٱلمختصرين. . . في أدبِهِم، ٱلمطوَّلين. . . في ٱلقابِهم، وإنَّهم لَيَتَعاطَوْنَ ٱلنقدَ وليسَ لهم وسائلُهُ إلَّا ما كانَ ضعفةً وقِلَّةً وإدباراً، وقد فاتَهُم ما لا تحملُهُ أقدارُهُم ولا تبلغُهُ قواهم، وجَهِلوا أنَّ ٱلناقدَ ٱلأدبيَّ إنَّما يُلقي درساً عالياً لا يُدَلُّ فيهِ على ٱلعيوبِ ٱلفنيَّةِ إلَّا بإظهارِ ٱلمحاسنِ ٱلتي تُقابِلُها في أسمى ما ٱنتهى إليهِ ٱلفنُّ من آثارِ تاريخِه، فيكونُ ٱلنقدُ تهذيباً وتلخيصاً لِفنونِ ٱلأدبِ كلِّها؛ وهو بهذه ٱلطريقةِ يجلوها على ٱلناسِ ويُبدعُ فيها ويزيدُ في مادتِها ويُسهلُها على ٱلقرَّاءِ ويُحصِّلُها لهم تحصيلاً لا يبلغونه بِأنفسِهِم، ويُعطيهِم من كلِّ ضعيفٍ ما هو قويّ، ومن كلِّ قويٍّ ما هو أقوى.

ورأيناهم في نقدِ ٱلشعرِ لا يزيدونَ على أنْ يُعلِّقوا على كلام ٱلشاعر، فيجيءُ عملُهُم في ٱلجملةِ كأنَّهُ تُصنيفٌ من هذا ٱلشعرِ وشرحٌ لَهُ وتَصفُّحٌ على بعضِ معانيه، وبهذا يرجعُ ٱلشاعرُ وإنَّهُ هُوَ ٱلمتصرِّفُ في ناقدِهِ يُدِيرُهُ كيف شاء، ويجيءُ هذا ٱلناقدُ زائداً متطفِّلاً، فتأتي كِتابتُهُ وإنَّها لَضَرْبٌ من سُخريةِ ٱلمنقودِ بِناقدِه، ويُصبحُ وضعُ ٱلكلامِ على ٱلعكس، فَٱلشاعرُ ٱلمنقودُ لم يتكلَّمْ ولكنَّهُ أبانَ قصورَ ٱلناقدِ وجهْلَه، فهوَ ٱلناقدُ وإنْ سكت، وذاك هو ٱلمنقودُ وإنْ تكلَّم!

وهذا ٱلمتعلِّقُ على أخبارِ ٱلشاعرِ وشِعْرِهِ كتعلّقِ ٱلتلخيصِ على أصلِهِ ٱلمطَّولِ وٱلشرحِ على متنِهِ ٱلموجزَ، إنَّما هو كاتبٌ يجدُ من ذلك مادَّةً إنشائيَّةً فيتصرَّفُ بها

لِيكتب؛ ولا يُرادُ مِنَ ٱلنقدِ أنْ يكونَ ٱلشاعرُ وشِعْرُهُ مادةَ إنشاء، بلْ مادةَ حِسابٍ مُقدَّرٍ بِحقائقَ معيَّنةٍ لا بُدَّ منها؛ فنقدُ ٱلشعرِ هو في ٱلحقيقةِ عِلْمُ حِسابِ ٱلشعر، وقواعدُهُ ٱلأربعُ ٱلتي تُقابلُ ٱلجمعَ وٱلطرحَ وَٱلضربَ وَٱلقِسمة: هيَ ٱلاطلاعُ وَٱلذوقُ وَٱلخيالُ وٱلقريحةُ ٱلمُلْهَمَة.

وثُمَّ ضَرْبٌ آخرُ من تعلُّقِ ٱلضعفاء، يتناولُ ٱلشاعرَ بِٱعتبارِهِ رجلاً لَهُ موضعُهُ مِنَ ٱلناسِ ومنزلُهُ مِنَ ٱلحياة، ثُمَّ لا يعدو ذلك وهو تزويرٌ لِلْمؤرِّخِ بِجَعْلِهِ ناقداً، وتزويرٌ لِلْناقدِ بِردِّهِ مؤرِّخاً؛ على أنَّ هذا لا بُدَّ منه في ٱلنقدِ ٱلصحيح، ولكنَّهُ لا يقومُ بِنفسِهِ ولا تنفُذُ بِهِ بَصيرةُ ٱلنقد، إذِ ٱلشاعرُ لم يكنْ شاعراً بِأنَّهُ رجلٌ مِنَ ٱلناسِ وحيٌّ في ٱلأحياءِ وعمرٌ مِنَ ٱلحوادثِ ٱلمؤرَّخة، ولكنْ بِمَوْضُوعِهِ من أسرارِ ٱلحياةِ وصِلَةُ نفسِهِ بِها وقدرةُ هذه ٱلنفسِ على أنْ تنفذَ إلى حقائقِ ٱلطبيعةِ في كائناتِها عامَّةً، وفي إنسانِها خاصَّة، ثُمَّ بِقدرةٍ مثلِ هذه في ٱلنفاذِ إلى أسرارِ ٱللغةِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي هيَ ٱلوجودُ ٱلمعنويُّ لِكُلِّ ذلك، وَٱلتَصرُّفُ بها على طبقاتِ معانيهِ حتى لا تُقصِّرَ عنِ ٱلغايةِ ولا تقعَ دونَ ٱلقصْد، فإنَّ ٱلشعْرَ إنْ هو هو إلَّا ظهورُ عَظمةِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ بِمظهرِها ٱللغويّ، ولئنْ كانَ في نقدِ ٱلشعرِ تاريخٌ لا يتمُّ ٱلنقدُ إلَّا بهِ، فهو تاريخُ ٱلشعْرِ في نفسِ قائِله، ثُمَّ تاريخُ هذه ٱلنفسِ في معاني ٱلشعرِ من عصرِها، ثُمَّ أدبُ هذا ٱلشاعرِ مِنَ ٱلوجودِ ٱلأدبيّ لِلغةِ ٱلتي نظمَ بها؛ وذلك لا بُدَّ أنْ يقعَ فيهِ تاريخُ ٱلشاعرِ نفسِهِ مُحصَّلاً من نواحيهِ في جِهاتِ ٱلحياة، مُتَعمِّقاً فيهِ بِٱلاستقصاءِ، مُتغلغِلاً إليهِ بِٱلنقد...

* * *

وإنَّ لنا رأياً بَسطْناهُ[1] مِراراً، وهو أنَّهُ لا ينبغي أنْ يعرضَ لِنقدِ ٱلشاعرِ وَٱلكلام عنهُ إلَّا شاعرٌ كبيرٌ يكونُ ذا طبيعةٍ في ٱلنقد، أو كاتبٌ عظيمٌ يكونُ ذا طبيعةٍ في ٱلشعر؛ أي لا بُدَّ مِنَ ٱلأدبِ وَٱلشعرِ معاً لِنقدِ ٱلشعرِ وحدَهُ فيأتي ٱلكلامُ فيهِ مِنَ ٱلعِلْمِ وَٱلذوقِ وَٱلإحساسِ وَٱلإلهامِ جميعاً، فيتبينُ ٱلناقدُ وجوهَ ٱلنقصِ ٱلفنِّي، ويعرفُ بِمَ نقصَتْ وما ذا كانَ ينبغي لها وما وجهُ تمامِها، ثُمَّ يعرفُ مِنَ ٱلكمالِ ٱلفنيِّ مثلَ ذلك، ويُحِسُّ على ٱلحالتينِ بِٱلمعاني ٱلتي أحسَّها ٱلشاعرُ حينَ ٱنتزعَ شعرَهُ منها، وما كانَ يَتَخالجُهُ[2] وقتئذٍ مِنَ ٱلفكرِ ويتمثَّلُ لَهُ مِنَ ٱلصورِ ٱلمعنويَّةِ ٱلتي

(١) بسطناه: أظهرناه وأوضحناه.
(٢) يتخالجه: يعتمل في نفسه ويحسّه.

ألهمتْهُ إلهامَها؛ فإنَّ ٱلمعانيَ ٱلمكتوبةَ هيَ شعرُ ٱلشاعر، ولكنَّ تلك ٱلمعاني ٱلمحسوسةَ هيَ شعرُ ٱلشعر، وإنَّما يُوقَفُ عليها بِٱلتوهُّم وَٱلاسترسالِ إلى ما وراءِ ٱلشعرِ من بواعثِه، وما تموّجَتْ بِهِ روحُ ٱلشاعرِ عندَ عملِه، وما عرَضتْ لَهَا بِهِ طَبائعُ ٱلمعاني؛ وهذا كلُّهُ لا يُحسِّهُ ٱلناقدُ إنْ لم يكنْ شاعراً في قُوةِ مَنْ ينقدُهُ أو أقوى منهُ طبيعةَ شعرٍ.

وَٱلنقدُ إنَّما هو إعطاءُ ٱلكلامِ لِساناً يتكلَّمُ بِهِ عن نفسِهِ كلامَ مُتَّهمٍ في محكمةٍ لِيُقيمَ أو يُزيحَ شُبهةً أو يُقِرَّ حقيقةً أو يبسطَ معنًى أو يُوجِّهَ عِلَّةً أو يكشِفَ خافياً أو يُثبتَ نقيصةً أو يُظهِرَ إحساناً؛ وبِٱلجملةِ فهو نَفْضُ ٱلسيئةِ وَٱلحسنة، ووقوعُ أدلَّةِ ٱلعِلْمِ وَٱلفنِّ وَٱلذوْقِ مواقعَها، وتكلُّمُ ٱلكلامِ بِذاتِ نفسِهِ ما تُنكِرُ منه وما تستجيد؛ وٱلشاعرُ وٱلناقدُ يلتقيانِ جميعاً في ٱلقارىءِ فوجبَ من ثَمَّ أنْ يكونَ ٱلناقدُ قوَّةً تكشِفُ قوَّةً مثلَها أو دونَها لِيُصَحِّحَ فنٌّ فنّاً مثلَهُ أوْ يُقِرَّهُ أو يَزيدَ عليهِ فضلَ بيانٍ ومزيَّةَ فِكْرٍ؛ وبهذا يُصبِحُ ٱلقارىءُ كَٱلسائحِ ٱلذي معهُ ٱلدليلُ وأمامَهُ ٱلمنظر، أي معهُ ٱلتاريخُ ٱلناطقُ وبإزائِهِ ٱلتاريخُ ٱلصامت. وإذا كانَ ٱلشاعرُ وشِعرُهُ إنَّما هما ٱلنفسُ ٱلممتازةُ وحوادثُها ومعاني ٱلحياةِ فيها، فليسَ يَتَّجِهُ أنْ يكونَ ٱلناقدُ تامّاً إلّا بنفسٍ من نوعِها في دِقَّةِ ٱلحِسِّ ولُطْفِ ٱلنظرِ وَٱلاستشفافِ وقوَّةِ ٱلتأثرِ بمعاني ٱلحياةِ وسُمُوِّ ٱلإلهامِ وَٱلعبقريَّة: وبذلك يجيءُ ٱلنقدُ ٱلصحيحُ بياناً خالِصاً منخولاً كأنَّهُ شَرحُ نفسٍ لِنفسٍ مثلِها.

وليسَ ٱلأنفُ هُوَ ٱلذي ينقدُ ٱلوردةَ ٱلعَطِرةَ ٱلفيَّاحةَ، وإنَّما تنقدُها ٱلحاسَّةُ ٱلتي في ٱلأنف، وناقدُ ٱلشعرِ إنْ لم يكنْ شاعراً فهو أنفٌ صحيحُ ٱلتركيب، ولكنْ بِٱلجِلْدِ وَٱلعظمِ دون تلكَ ٱلحاسَّةِ ٱلتي هيَ روحُ ٱلعَصَبِ ٱلمنبثِّ في هذا ٱلتركيبِ وَٱلمتَّصِلِ بِما وراءَهُ من أعصابِ ٱلدماغ، فهذا ٱلأنف. . . يستطيعُ أنْ يتناولَ ٱلوردة، ولكنْ بِحسٍّ غليظٍ مَحَقتْهُ[1] ٱلآفةُ كما يتناولُ حَجَراً أو حديداً أو خشباً أيَّها كان، فَٱلوردةُ عندَهُ شيءٌ مِنَ ٱلأشياءِ يمتازُ بِٱللينِ ويختصُّ بِٱلنعومةِ ويسطعُ بِٱلرونقِ ويزهو بِٱللون، ويذهبُ يتكلَّمُ في هذا كُلِّه، وهذا كُلُّهُ في ٱلوردة، ولكنَّهُ ليسَ ٱلوردة.

ومتى كانَ ٱلبحثُ هوَ ٱلبحثَ في ٱلسماءِ وأفلاكِها وأجرامِها فلا يستقلُّ بِهِ إلَّا ٱلناظرُ ٱلمركَّبُ أي ٱلذي معَهُ عينُهُ وتلسكوبُهُ وعِلْمُهُ جميعاً، إنْ نقصَ من ذلك

---

(١) محقته: محته.

فبقدرِ نُقصانِهِ يكونُ ضعفُه، وإنْ تَمَّ فبِقدرِ تمامِهِ يكونُ وفاؤه؛ ولو أمكنَ أنْ ينفصلَ ٱلشاعرُ من شعرِهِ فيقطعَ ما بينَهُ وبينَ ٱلمعاني من نسبِ نفسِه، ويبتعدَ عنِ ٱلشعرِ لِيراهُ جديداً عليهِ ويُميِّزَهُ من كلِّ جِهاتِه ـ لَكانَ هُوَ ٱلناقد؛ فناقدُ ٱلشعرِ هو ٱلشاعرُ نفسُهُ، ولكنْ في وضعٍ أتمَّ وأوفى، وحالةٍ أبْيَنَ وأبصر، أيْ كأنَّهُ ٱلشاعرُ نفسُهُ منقحاً تامّاً بغيرِ ضعفٍ ولا نقص.

ومن أجلِ ذلك ترى من آيةِ ٱلنقدِ ٱلبديعِ ٱلمُحْكَم إذا قرأْتَهُ ما يُخيِّلُ إليك أنَّ ٱلشعرَ يعرضُ نفسَهُ عليكَ عرْضاً ويُحصِّلُ لكَ أمْرَهُ ويُبيِّنُ حالتَهُ في ذِهْنِ شاعِرِه. وكيف توافَى وَٱئتلف، وكيفَ ٱنتزعَهُ ٱلشاعرُ مِنَ ٱلحياة، وما وقعَ فيهِ من قدرِ ٱلإلهام، وما أصابَهُ من تأثيرِ ٱلإنسانِ وما ٱتَّفقَ لَهُ من حظِّ ٱلطبيعةِ وَٱلأشياءِ وَبِٱلجملةِ يُوردُ ٱلنقدُ عليك ما ترى معهُ كأنَّ حركةَ ٱلدمِ وَٱلأعصابِ قد عادَتْ مرةً أخرى إلى ٱلشعر.

* * *

ألا وإنَّ شعرَنا ٱلعربيَّ ٱلجميلَ قد أصبَحَ ٱليومَ في أشدِّ ٱلحاجةِ إلى مَنْ يُعَلِّمُ ٱلقارِئَ كيف يذوقُهُ ويتبيَّنُهُ ويخلصُ إلى سِرِّ ٱلتأثيرِ فيه، ويُخرِجُهُ مَخرَجاً سَرِيّاً في أنغامِهِ وألحانِهِ ويأتي بِهِ من نفسِ شاعرِهِ ومن نفسِهِ جميعاً؛ فقوَّةُ ٱلتمييزِ في هذا كلِّهِ على تسديدٍ وصوابٍ هيَ ٱلتي يُعطيها ٱلناقدُ لِقرَّائِه؛ وَٱلشعرُ فِكْرٌ وقراءتُهُ فِكْرٌ آخر، فإنْ قصَّرَ هذا عنْ أنْ يبلغَ ذاك لِيتَّصِلَ بِهِ ويتغلْغلَ فيهِ فلا بُدَّ لِلْفكرينِ من صِلَةٍ فكريَّةٍ هي كتابةُ ٱلناقدِ ٱلذي هو من ناحيةٍ كمالٌ لِلْطبيعةِ ٱلناقصة، ومن ناحيةٍ أخرى شرحٌ لِلْطبيعةِ ٱلكاملة، ومن ناحيةٍ ثالثةٍ هو بِذوقِهِ وفنِّهِ قانونُ ٱلانتظامِ ٱلدقيقِ ٱلذي يُبينُ بِهِ ما ٱستقامَ في ٱلكلامِ وما ٱعْوَجَّ.

وطريقتُنا نحن في نقدِ ٱلشعرِ تقومُ على رُكْنين: البحثُ في موهبةِ ٱلشاعر، وهذا يتناوَلُ نفسَهُ وإلهامَهُ وحوادثَه؛ وَٱلبحثُ في فنِّهِ ٱلبيانيّ، وهو يتناولُ ألفاظَهُ وسبكَهُ وطريقتَه، وسنقول فيهما معاً:

فأمَّا ٱلكلامُ في فنِّ ٱلشعر، فَٱلمُرادُ بِٱلشعر ـ أي نظمُ ٱلكلام ـ هو في رأينا ٱلتأثيرُ في ٱلنفسِ لا غير، وَٱلفنّ كلُّهُ إنَّما هو هذا ٱلتأثير، وٱلاحتيالُ على رجَّةِ ٱلنفسِ لَهُ وٱهتزازِها بِألفاظِ ٱلشعرِ ووزنِهِ وإدارةِ معانيهِ وطريقةِ تأديتِها إلى ٱلنفس، وتأليفِ مادةِ ٱلشعورِ من كلِّ ذلك تأليفاً مُتلائماً مُسْتوياً في نسجِهِ لا يقعُ فيهِ تفاوتٌ ولا ٱختلال، ولا يُحمَلُ عليهِ تعسُّفٌ ولا ٱستكراهٌ؛ فيأتي ٱلشعْرُ من دِقَّتِهِ وتركيبِهِ

ٱلحيّ ونَسَقِهِ ٱلطبيعيّ كأنّما يُقرَعُ بِهِ على ٱلقلبِ ٱلإنسانيّ لِيفتحَ لِمعانيهِ إلى ٱلروح؛ وَٱلشعرُ ٱلعربيُّ إذا تمّتْ لَهُ في صِناعتِهِ وسائلُ ٱلتأثيرِ وأُحكِمَ من كلِّ جِهاتِه، كانَ أسمى شعرٍ إنسانيٍّ فتراهُ يطّردُ بألفاظِهِ ٱلجميلةِ ٱلسائغةِ وكأنّهُ لا يحملُ فيها معانيَ، بلْ يحملُ حركاتٍ عصبيّةً ليسَ بينها وبينَ أنْ تنسابَ في ٱلدمِ حائل، فما يكونُ إلّا أنْ يَغْمُرَكَ بِٱلطربِ ويهزَّكَ من أعماقِ ٱلنفسِ وُيوردَ عليك من نفحةِ ٱلروحِ ما إنْ تدبّرْتَهُ في نفسِكَ وأفصحْتَ عَنهُ شُعورَكَ رأيْتَهُ في حقيقتِهِ وَجْهاً من نِسيانِ ٱلحياةِ ٱلأرضيّةِ وَٱنتقالٍ إلى حياةٍ أخرى مِنَ ٱلسرورِ وَٱلاهتياجِ وَٱلألمِ وَٱلشجوِ يحياها ٱلدمُ ٱلثائرُ وحدَهُ غيرَ مُشارَكٍ فيها إلّا مِنَ ٱلقلب.

وَٱلذين يجهلون ذلك من أمرِ ٱلشعرِ ٱلعربيِّ في مِزاجِهِ ٱلخاصّ ـ فلا يَعتبرُونه حيّاً ذا طِباعٍ وخصائصَ لا بُدّ من مراعاتِها وَٱلنزولِ على حُكْمِها وتلقّيها بِمَا يُوافقُها كما لا بُدّ من أشباهِ ذلك لاَمرأةٍ جميلة ـ تراهم يُخِلّون بِقوانينِ صِناعتِهِ ٱلبيانيّةِ ويُنزلونَ ألفاظَهُ دون منازلِها ويُرسلون معانيَهُ على غيرِ طريقتِها ٱلشعريّةِ ويبتلونَهُ بِفضولٍ كثيرةٍ هي كَٱلآفاتِ وَٱلأمراض، فيأتونَ بنظمٍ تقرؤُهُ إذا قرأْتَهُ وأنت تتلّوى كأنّما يَقرعُ على قلبِك بِقبضةِ يدٍ أو يدقّ عليهِ بِحجرٍ... وقد فشا هذا ٱلنوعُ مِنَ ٱلشعرِ في هذه ٱلأيامِ وأصبحَ لِمَا فسدَ من ذوقِ ٱلأدبِ وما ٱلتاثَ[1] من أمرِ ٱللغةِ وما ٱعوجّ من طرقِ ٱلفلسفةِ وما عَمّتْ بِهِ ٱلبلوى مِنَ ٱلتقليدِ ٱلأوروبيّ، وكثيراً ما رأيْتُ ٱلقصيدةَ من هذا ٱلشعرِ كاَمرأةٍ سُلِخَ وجهُها ووضِعَتْ لها جلدةُ وجهِ ميت... وَٱلناظمُ من هؤلاءِ لا يُصَرّفُ ٱلشعرَ على حدودِهِ ٱلنفسيّةِ ولا يُحكِمُهُ فيها، بل تُصرّفُهُ ٱلألفاظُ كيف ٱتّفقتْ لَهُ على وجوهِها ٱلمُلْتويّة، وتسوسُهُ ٱلمعاني سِياسةَ عمياءَ فقدَتْ باصرتَيْها[2] معاً، ويحسبونَ كلامَهُم مِنَ ٱلنور ٱلعقلي، ولكنّهُ ٱلنورُ في قَطعِهِ ثمانينَ ألفَ ميلٍ في ٱلثانية، فلا يكادُ يُقالُ في هذا ٱلعالم، حتى يخرجَ منه ويُنسى ويُلحقَ بِٱللانهاية...

وهذا ٱلضربُ مِنَ ٱلصناعةِ ٱلفاسدةِ هو بعينِهِ ذلك ٱلنوعُ ٱلصناعيُّ ٱلذي أفسدَ ٱلشعرَ منذُ ٱلقرنِ ٱلخامس، غيرَ أنّ ٱلقديمَ كانَ فساداً في ٱلألفاظِ يجعلُها كلَّها أو أكثرَها مُحالاً مِنَ ٱلصنعة، وَٱلحديثُ جاءَ فساداً في ٱلمعاني يجعلُها كلَّها أو أكثرَها مُحالاً مِنَ ٱلبيان.

---

(١) التاث: شوّه وتلوّث وفسد.

(٢) باصرتيها: نظرها.

ويزعمُ أصحابُ هذا ٱلشعرِ أنَّهم فلاسفة، ولكنَّهم كذلك في سَرِقةِ ٱلفلاسفةِ لا غير... ولو علموا لَعلموا أنَّ ألفاظَ ٱلشعرِ هيَ أَلفاظٌ مِنَ ٱلكلامِ يضعُ ٱلشعرُ فيها ٱلكلامَ وَٱلموسيقى معاً، فتخرجُ بذلك من طبيعةِ ٱللغةِ ٱلقائمةِ على تأديةِ ٱلمعنى بِٱلدلالةِ وحدَها إلى طبيعةِ لغةٍ خاصةٍ أرقى منها تُؤَدِّي ٱلمعنى بِٱلدلالةِ وَٱلنَّغم وَٱلذوق، فكلُّ كلمةٍ في ٱلشعرِ تُجْتَلَبُ لِمعناها من تركيبِهِ، ثُمَّ لِموضعِها من نفسِه، ثُمَّ لَجَرْسِها في ٱلحانِه؛ وذلك كلُّهُ هو ٱلذي يجعلُ لِلْكلمةِ لَوْنَها ٱلمعنويَّ في جملةِ ٱلتصويرِ بِٱلشعر؛ وما يمرُّ ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ بِلفظةٍ مِنَ ٱللغةِ إلَّا وهيَ كأنَّها تُكلِّمُهُ تقول: دعني أو خُذني.

وكما أنَّهُ لا بُدَّ لِلأَزهارِ من جوِّ ٱلأشعة، كذلك لا بُدَّ لِلْمعاني ٱلشعريَّةِ من جوِّ ٱللغةِ ٱلبيانيَّة، فٱلبيانُ إنَّما هو أشعةُ معاني القصيدة؛ وقد يحسبون أنَّ ٱلصناعةَ ٱلبيانيَّةَ صِناعةٌ متكلَّفةٌ لا شَأْنَ لها في جمالِ ٱلشعرِ ودِقَّةِ ٱلتعبير، وما نُنكِرُ أنَّ مِنَ ٱلبيانِ ٱلجميلِ أشياءَ متكلفة، ولكنَّها تنزلُ مِنْ أساليبِ ٱلبلاغةِ ٱلعاليةِ منزلةً كمنزلةِ ٱلظرفِ وَٱلدَّلِّ وٱلخلاعةِ في ٱلحبيبةِ ٱلجميلة.

إنَّ هذه ٱلفنونَ ليست من جمالِ ٱلخِلْقةِ وَٱلتركيبِ في ٱلمرأَة، ولكنَّها متى ظهَرتْ في ٱلجمالِ ٱلفاتنِ أصبحَ بدونها ـ وهو جميلٌ دائماً ـ كأنَّهُ غيرُ جميلٍ أحياناً.

هنا صِناعةٌ هيَ روحُ ٱلحُسْنِ في ٱلحياة، وصِناعةٌ مثلُها هيَ روحُ ٱلحُسْنِ أحياناً في ٱلبلاغة، وما ٱلتراكيبُ ٱلبيانيَّةُ في مواضِعِها مِنَ ٱلشعرِ ٱلحيِّ إلَّا كَٱلملامح وَٱلتقاسيم في مواضِعِها مِنَ ٱلجمالِ ٱلحيِّ؛ وكثيراً ما يخيَّلُ إليَّ حينَ أتأمَّلُ بَلاغةَ ٱللفظِ ٱلرشيقِ إلى جانبِ لفظٍ جميلٍ في شعرٍ مُحْكَمِ ٱلسبك، أنَّ هذه ٱلكلمةَ من هذه ٱلكلمةِ كَحُبِّ رجلٍ متأنِّقٍ يتقرَّبُ من حُبِّ ٱمرأةٍ جميلة، وعطفِ أُمومةٍ على طفولة، وحنينِ عاطِفةٍ لِعاطفةٍ، إلى أشباهٍ ونظائرَ من هذا ٱلنَّسَقِ ٱلرقيقِ ٱلحسَّاس؛ فإذا قرأْتُ في شِعْرِ أصحابِنا أولئك رأيْتُ من لفظٍ كَٱلشرطيِّ أخذَ بِتلابيبِ لفظٍ كَٱلمجرم... إلى كلمتينِ هما معاً كَٱلضاربِ وَٱلمضروب... إلى همجٍ ورعاعٍ وهرجٍ ومرْجٍ وهيجٍ وفتنة؛ أمَّا ٱلقافيةُ فكثيراً ما تكونُ في شعرِهم لفظاً ملاكَماً... ليسَ أمامَهُ إلَّا رأسُ ٱلقارىء.

وكما يُهمِلونَ ٱختيارَ ٱللفظِ وَٱلقافيةِ يتسهَّلونَ في ٱختيارِ ٱلوزنِ ٱلمُلائم لِموسيقيةِ ٱلموضوعِ فإنَّ مِنَ ٱلأوزانِ ما يستمِرُّ في غرضٍ مِنَ ٱلمعاني ولا يستمرُّ في

غيره؛ كما أنَّ مِنَ ٱلقوافي ما يطَّرِدِ في موضوعٍ ولا يطَّردُ في سواه، وإنَّما ٱلوزنُ مِنَ ٱلكلام كزيادةِ ٱللحنِ على ٱلصوت: يُرادُ منهُ إضافةُ صِناعةٍ من طربِ ٱلنفسِ إلى صناعةٍ من طربِ ٱلفكر، فَٱلذين يُهمِلون كلَّ ذلك لا يُدركون شيئاً مِنْ فلسفةِ ٱلشعرِ ولا يعلمون أنَّهمْ إنَّما يُفسدونَ أقوى ٱلطبيعتينِ في صِناعتهِ؛ إذِ ٱلمعنى قد يأتي نثراً فلا يُنقصُهُ ذلك عنِ ٱلشعرِ من حيثُ هو معنًى، بلْ ربَّما زادَهُ ٱلنثرُ إحكاماً وتفصيلاً وقوَّةً بما يتهيَّأُ فيهِ مِنَ ٱلبسطِ وَٱلشرْحِ وَٱلتسلْسُل، ولكنَّهُ في ٱلشعرِ يأتي غِناء، وهذا ما لا يَستطيعُهُ ٱلنثرُ بِحالٍ مِنَ ٱلأحوال.

فإذا لم يستطعِ ٱلشاعرُ أنْ يأتيَ في نظمِهِ بِٱلرويِّ ٱلمونَقِ وَٱلنَّسجِ ٱلمُتلائمِ وٱلحَبْكِ ٱلمستوي وَٱلمعاني ٱلجيِّدةِ ٱلتي تخلُصُ إلى ٱلنفسِ خلوصَ طبيعةٍ إلى طبيعةٍ تُمازجُها، ورأيْتَهُ يأتي بِٱلشعرِ ٱلجافي ٱلغليظِ وَٱلألفاظِ ٱلمستوخِمةِ[1] ٱلرديئةِ وَٱلقافيةِ ٱلقلِقةِ ٱلنافرةِ وَٱلمجازاتِ ٱلمتفاوتةِ ٱلمضطربةِ وَٱلاستعاراتِ ٱلبعيدةِ ٱلممسوخة ـ فَٱعلمْ أنَّهُ رجلٌ قد باعدَهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلشعرِ وَٱبتلاهُ مع ذلك بزيغِ ٱلطبيعةِ وسرفِ ٱلتقليد، فما يجيءُ ٱلشعرُ على لِسانِهِ في بيتٍ إلَّا بعدَ أنْ يجيءَ ٱللَغوُ على لِسانِهِ في مائةِ بيتٍ أو أكثرَ أو أقلّ.

ذلك قولُنَا في فَنِّ ٱلشاعر، أمَّا ٱلكلامُ في موهبتِهِ ٱلتي بها صارَ شاعراً وعلى مِقدارِها يكونُ مِقدارُهُ وَٱتِّصالُ أسبابِهِ أوِ ٱنقطاعُها مِنَ ٱلشعر، فذلك بابٌ لا يُمكِنُ بَسْطُ ٱلمعنى فيهِ ولا تحصيلُ دقائقِهِ إلَّا إذا صُورِّتْ روحُ ٱلشاعرِ في تركيبِها ٱلدقيقِ ٱلمُعْجِزِ ووُزِنَتْ في مِيزانِها ٱلإلهيِّ وعُرِفَ نقصُها إنْ نقصَتْ وتمامُها إنْ تمَّت، وأمكنَ تتَبُّعُ مواقِعِها مِنْ أسرارِ ٱلأشياءِ ومساقطِها من منازلِ ٱلإلهام، وهذا ما لا سبيلَ إليهِ إلَّا بِٱلتوهُّمِ ٱلنفسيِّ، فإنَّ ٱلأرواحَ ٱلقويَّةَ يلمحُ بعضُها بعضاً، وقد تكونُ لمحةُ ٱلروحِ ٱلشاعرةِ لِروحٍ مثلِها هيَ تَدَبُّرُهَا ووزنها وإدراكُ ما تنطوي عليهِ كما ترى من وضعِ ٱلنورِ بإزاءِ ٱلنور، فإنَّ هذا ٱلوضعَ هو نفسُهُ وزنٌ لِكليهما في مِيزانِ ٱلبصرِ دونَ أنْ يكونَ ثَمَّةَ مُوازنةٌ إلَّا في ٱلتألُّقِ وٱلشعاع؛ فهما في هذه ٱلحالةِ نورانِ يُضيئان، ولكنَّهما أيضاً كلمتانِ يبيِّنانِ عمَّا فيهما مِنَ ٱلأكثرِ وَٱلأقلّ.

لهذا قلْنا: ٱلشاعرُ لا يتَّسعُ لِنقدِهِ ولا يُحيطُ بِهِ مَنْ كانت لَهُ روحٌ شعريَّة تُكافئُهُ

---

(١) المستوخمة: المستكرهة.

في وزنِها أو تربَّى على مقدارِه؛ فإنَّ هناك قُوًى روحيَّةً لإدراكِ ٱلجمالِ وخَلْقِهِ في ٱلأشياءِ خَلْقاً هو روحُ ٱلشعْرِ وروحُ فنِّه، وقوًى أخرى لِصِلةِ ٱلعواطفِ بِٱلفِكْرِ صِلةً هيَ سِرُّ ٱلشعرِ وسِرُّ فَنِّه، وقوًى غيرُ هذه وتلكَ لِتحويلِ ما يُخالِجُ[1] ٱلنفسَ ٱلشاعرةَ تحويلَ ٱلمُبالغةِ ٱلتي هيَ قوَّةُ ٱلشعْرِ وقوَّةُ فنِّه؛ وبمجموعِ هذه ٱلقُوى كلِّها تمتازُ رُوحُ ٱلشاعرِ من غيرِ ٱلشاعر: أمَّا ما تمتازُ بِهِ هذه الروحُ من روحِ شاعرةٍ مثلِها فهو ما يكونُ من تَفاوتِ ٱلمقاديرِ ٱلتي يَهَبُها ٱللَّهُ وحدَه، فيخصُّ شاعراً بِٱلزيادةِ وآخرَ بِٱلنقص، ويَهبُ أسبابَها ٱلتي تكونُ عنها فيوُسِّعُ لِواحدٍ ويُضيِّقُ على ٱلآخرِ؛ وإذا تمَّتْ تلك ٱلقوى وٱستحكمَتْ تهيَّأَ منها لِلشاعرِ جِهازٌ عصبيٌّ خالصٌ هو جِهازُ ٱلتوليدِ لا يمرُّ بِهِ معنًى إلَّا تجسَّدَ فيهِ بِصورةٍ غيرِ صورتِهِ.

وقدِ ٱستوْفينا ٱلكلامَ على ذلك في مقالِنا «سرُّ ٱلنبوغِ في ٱلأدب». وهو لا غيرُهُ سِرُّ العبقريَّة.

فأمثلُ ٱلطرقِ في نقدِ موهبةِ ٱلشاعرِ إدراكُها بِٱلروحِ ٱلشعريَّةِ ٱلقويَّةِ من ناحيةِ إحساسِها وَٱلنفاذِ إلى بصيرتِها، وَٱكتناهِ[2] مقاديرِ ٱلإلهام فيها، وتأمُّلِ آثارِها في ٱلجمال، وتدبُّرِ طبيعتِها ٱلموسيقيَّةِ في ٱلحِسِّ وَٱلفهْمِ وَٱلتعبير، وتبيُّنِ قُدرتِها على ٱلفرحِ وَٱلحُزْنِ بِأشجى وأرقِّ ما تهتاجُ في ٱلنفسِ ٱلحساسة، ومعرفةِ قوَّةِ ٱلتحويلِ في عواطِفِها لِلْمعاني ٱلإنسانيَّةِ وَٱلطبيعيَّةِ تحويلاً يجعلُ ٱلقوَّةَ أقوى مِمَّا تبلغ، وَٱلحقيقةَ أكبرَ مِمَّا تظهر، وتأتي بكلِّ شيءٍ ومعَه شيء؛ وليسَ ينتهي ٱلناقدُ إلى ذلك إلَّا بِٱلبحثِ في ٱلأغراضِ أي «المواضيع» ٱلتي نظمَ فيها ٱلشاعرُ وما يَصِلُهُ بِها من أمورِ عيشِهِ وأحوالِ زمنِهِ وكيفَ تناولَها من ناحيتِهِ ومن ناحيتِهَا وماذا أبدع، ثُمَّ في أيِّ ٱلمنازلِ يقعُ شعرُهُ من شِعْرِ غيرِهِ في تاريخِ لغتِهِ وآدابِها، ثُمَّ نظرتِهِ ٱلفلسفيَّةِ إلى ٱلحياةِ ومسائِلِها وٱتساعِهِ لِأفراحِها وآلامِها وقوَّةِ أمواجِهِ ٱلروحيَّةِ في هذا ٱلبحرِ ٱلإنسانيِّ ٱلرجَّافِ[3] ٱلمتضرِّبِ ٱلذي يبلغُ في نفوسِ بعضِ ٱلشعراءِ أنْ يكونَ كَٱلأقيانوس[4] وفي بعضِها أنْ يكونَ كَٱلمستنقع . . . ثُمَّ دِقَّةِ فهمِهِ عن وحيِّ ٱلطبيعةِ وَٱلإشرافِ على جليةِ معناها بِٱلهَمْسةِ وَٱللَّمْسة، وتسقُّطِ إلهامِ ٱلغيبِ منها بِٱلإيماءةِ وَٱللحظة؛ وهذا كلُّهُ لا يستوسقُ للناقدِ ٱلعظيمِ

---

(١) يخالج النفس: يداخلها ويوحي لها.
(٢) اكتناه: اكتشاف.
(٣) الرجّاف: المضطرب.
(٤) الأقيانوس: المحيط.

إلَّا إذا كانَ مَعَ روحِهِ ٱلشعريَّةِ ٱلتي ٱختصَّ بها محيطاً بآثارِ ٱلشعراءِ في لغتِه، بصيراً بمآخذِها، مُحْكِماً لأسبابِ ٱلموازنةِ بينَها، متصرِّفاً مع ذلك بأداةٍ قويَّةٍ من صناعةِ ٱللغةِ وَٱلبيانِ وفنونِ ٱلأدب.

وإذا كانَ من نقدِ ٱلشعرِ عِلْمٌ فهو عِلْمُ تشريحِ ٱلأفكار، وإذا كانَ منْهُ فنٌّ فهو فنُّ درسِ ٱلعاطفة، وإذا كانَ منه صِناعةٌ فهي صِناعةُ إظهارِ ٱلجمالِ ٱلبيانيِّ في ٱللغة...

فيلسوفٌ وفلاسفة...

أتأمَّلُ ٱلآنَ هذا ٱلقلمَ في يدي ـ وأنا أفكِّرُ فيما سأكتبُهُ لِلزهراء ـ فأرى نِصابَ ٱلقلمِ أضلاعاً حُمْراً في لونِ ٱلمرجان، تنسرحُ قليلاً، ثُمَّ تستديرُ، ثُمَّ تستدِقُّ، ثُمَّ تخرجَ منها قادمةٌ سوداءُ كأنَّها قصبةُ ريشةٍ من جناح، وقد خُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱللونَ ٱلأحمَر ٱلمزْهُوَّ يقولُ لِلأسود: إنَّما غلطةُ ٱلذي صنعَني، فكيف أُلهِمَ فيَّ ٱلإلهامَ فوسَمَني[1] بهذا ٱلمَيْسِمِ من حُسْنٍ ولونٍ وتركيب، ثُمَّ ٱعترضَتْهُ ٱلغفلةُ فيكَ فأخطأ، وأدركَهُ ٱلعجزُ فلم يُميِّزَ، ودخلَ على رأيِهِ ٱلوَهَنُ[2] فإذا هو يصلُكَ بي كَٱلسّيئةِ بعدَ ٱلحسنة، ويُنزلُكَ منّي منزلةَ ٱلقُبحِ منَ ٱلجمال! فأين كانَتْ صِحَّةُ رأيِهِ ٱلتي بلغَ بها في أحسنِ ما وُفِّقَ إليهِ حينَ بلغَ فيك أسوأَ ما يُمكنُ أنْ يصنع؟ فيقولُ ٱلأسود: إنَّما فيك أنت غلطةُ ٱلصانع وبك أخطأَ جِهَةَ ٱلفنّ، فلم يزِنْ منك ما كانَ وزَن منّي، ولا قدَّرَ لك مثلَ ما قدَّرَ لي، وجِئْتَ غليظاً غيرَ مقدود، وكنْتَ إلى ٱلعَرْضِ ولم تكنْ إلى ٱلطول، وكنْتَ أحمرَ ولم تكنْ أسود؛ وما أراكَ إلَّا فاسدَ ٱلحِسّ، مُتغيِّرَ ٱلذوْق، وما أراكَ صنعَكَ هذا ٱلرجلُ إلَّا في ساعةِ هَمٍّ قاربَتْ بين نفسِهِ ورأيِه، فما زَجَّتْ[3] بينَ رأيِهِ وعملِه، فجمعَتْ بين عملِهِ وغلطِه.

ذلك منطقُ ٱللونينِ فيما أدركْتُ منهما، وكِلاهما مُخطِىءٌ في جِهةِ ما هو مستدِلٌّ بِهِ أو متنظِّرٌ فيه؛ وَٱلحقيقةُ من ورائِهما، إذِ ٱلحِكْمةُ ليسَتْ في أحدِهما لِحمرةٍ أوِ سواد، بلْ هي في ٱثنيهما جميعاً لائتلافِهِما جميعاً، فلا تنقسمُ عليهما قِسمةً ما؛ لِأنَّها آتيةٌ بِٱلمقابلةِ بينَ ٱثنيهما، وما لا يخرجُ أبداً إلَّا مِنَ ٱثنينِ فهو أبداً واحدٌ لا نِصفَ لَهُ؛ كَٱلطفلِ من أبويه: لن تعرفَ شطَرَهُ من أمِّهِ لِأنَّك لن تعرفَ شطَرهُ[4] من أبيه.

أفي ٱلأرضِ كلِّها مَنْ يستطيعُ أنْ يُقسِّمُ طفلاً واحداً فيجعلَهُ طِفلينِ تعتدلُ بهما

---

(١) وسمني: طبعني.
(٢) الوهن: الضعف.
(٣) زجّ: دخل بين شيئين بالقوّة والمكر.
(٤) شطره: جانبه.

ٱلحياةُ وتمدُّهُما بِروحينِ من روحٍ واحدة؟ إنَّكَ لَنْ تجَد هذا ٱلخالقَ ٱلأرضيِّ. . . إِلَّا في طائفتين: الأولى قومٌ من ذَاهبي ٱلعقولِ يخلقون كلَّ شيءٍ لِأنَّهم لا يخلقون شيئاً؛ وٱلثانيةُ قوم من جبابرةِ ٱلعقول. . . عندَنا تعرفُ لهم مِنَ ٱلخلْطِ وسُخْفِ ٱلرأي ما يُريدون أنْ يعلوا بِهِ على ٱلناس، إذْ كانَ الناسُ لا يجاوزون ٱلحقائق، فظنَّ هؤلاءِ أنَّهم إنْ جاوزوها وعَدْوا عليها خرجوا إلى طبقةٍ فوقَ ٱلعقلِ ٱلإنسانيّ. ولِلْجنونِ طرفان: أحدُهما ألَّا يعقلَ ٱلمجنونُ عنِ ٱلناس، وٱلآخرُ ألَّا يعقلَ ٱلناسُ عنِ ٱلعاقل: فذلك ذلك وهذا هذا؛ وكأنَّ في رأسِ كلٍّ منهما مُضْمَرَةً من قوَّةِ ٱلخَلْقِ تنطوي على محجوبةٍ إلٰهيَّة، فكلٌّ منهما يزيدُ في ٱلخلْقِ ما يشاء، وكلٌّ منهما فوقَ ٱلطبيعةِ لِأنَّهُ من ذوي ٱلأسرارِ ٱلمجهولةِ ٱلتي لا تستبينُ عندَنا من خفائِها، ثُمَّ لا تخفى عندُهم مِن ٱستبانتِها.

يُضحكُني من جبابرةِ ٱلعقولِ هؤلاءِ أنَّهم يَرون ٱلدينَ مرَّةً عادة، وتارةً ٱختراعاً، وحِيناً خُرافة، وطوْراً ٱسْتعباداً؛ وكلُّ ذلك لهم رأي، وكلُّ ذلك كانوا يعقدونهُ بِٱلحجةِ ويشدوُّنه بِٱلدليل؛ فلمَّا جاءَ طاغورُ ٱلشاعرُ ٱلهنديُّ ٱلمتصوِّفُ إلى مِصْر، وجلسوا إليهِ وسمعوه، خرجوا يتكلَّمون كأنَّما كانوا في معبد، وكأنَّما تنزلَتْ عليهم حقيقتُهُ ٱلإلٰهيَّة، وكأنَّما ٱتضَّعَتْ هذه ٱلدنيا عنِ ٱلمكانِ ٱلذي جلسَ فيهِ ٱلرجل، فلا يعرفونه مِنَ ٱلأرض، ولا من هذا ٱلعالم؛ بلْ كانوا في غشيةٍ قد فرّوا لها وسكنوا إليها، وما أراهم صُرِفوا عن عقولِهم ولا صُرِفَتْ عقولُهم عنهم؛ ولكنَّ طاغورَ شاعرٌ فيلسوف، وهم يعرفون أنفسَهُم مِنَ لصوصِ كتُبِهُ وآرائِه، ويقعون منه موقعَ ٱلسفسطةِ[1] ٱلفارغةِ مِنَ ٱلبُرهانِ ٱلقائم، وإذا قيسوا إليهِ كانوا كَٱلذبابِ تزعمُ أنفسُها نسورَ ٱلمزابل، ولكنَّها لا تُكابِرُ في أنَّ منَ ٱلهزؤ بها قياسَها بِنُسورِ ٱلجوّ.

لقد ضربَهُم طاغور، لا بِأنَّه لمسَهُم، بلْ بأنَّهُم لَمسوه. . . وفضحَهُم فضيحةَ ٱللؤلؤةِ لِلزجاجِ ٱلمدَّعي أنَّه لؤلؤ، وأظهَر لنا تجمُّلَهُمُ ٱلعقليَّ كهذه ٱلأصباغ في وجهِ ٱلشوهاء: تذهبُ تتصنَّعُ ولا تدري أنَّهُ إِنْ كانَ في أذهانِها وأصباغِها روحُ ٱلنقاشِ ففي وجهِها هي معنى ٱلحائط!

لقد قرأْتُ كلَّ ما كتبوا عن طاغورَ أَلتمِسُ فيهِ هذه ٱلحقيقةَ لِأرى كيف يكونُ جبابرةُ ٱلعقولِ حين تنكشفُ عنهمُ ٱلمعاذيرُ وتنزاحُ ٱلعللُ وتُنهتكُ ٱلأستار، فإذا هم

---

(١) السفسطة: تخرصات الفلاسفة ومحاوراتهم.

في كلِّ ما كتبوه لا يُحسّون إلا هذه ٱلحقيقة، ولا يصفون إلا هذا ٱلحِسّ، فلم يُخزهم[1] عندنا إلَّا هذا ٱلوصف؛ لا جَرَمَ فكلُّ ما أثنَوا بِهِ على ٱلشاعرِ ٱلفيلسوفِ قرأْناه ذَمّاً لهم، وعرفْناه قَدْحاً فيهم، وأخذْناه تُهمةً عليهم، وكلُّ ما أعظمُوهُ من أمرِه صغُرَ من أمرِهم، ولقد جعلوه إنساناً كأنَّما تنتهي قِمَّةُ هذه ٱلدنيا عندَ قَدمِه، وتبدأُ قَدمُهُ من قِمَّةِ ٱلدنيا. فما عرفْنا من ذلك قِياساً لِسموِّ طاغورَ وٱرتفاعِ نفسِه، بل قِياساً لانحطاطِ أنفسِهم وهَوانِ أمرِهم وقِلَّةِ خطرِهم؛ فإنَّ ٱلرجلَ ٱلمقلِّدَ ٱلمخدوعَ لا يزالُ يطولُ في تقليدِهِ، ولا يزالُ يتوعَّرُ في ٱلرأيِ ٱلذي يراهُ ويعتسفُ طُرُقَ ٱلعِلْمِ ٱعتسافاً؛ حتى يرميَهُ ٱللَّهُ بِأَصلٍ من هذه ٱلأصولِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي يُقلِّدُها؛ فإذا هو مُفْحَمٌ يتقاصرُ من طول، ويتسهَّلُ من وَعْر، ويهتدي من تعسُّف، وينحَطُّ إلى ٱلوهْدةِ بعدَ أنْ كانَ على ٱلجبل، ويُسلِّمُ في نفسِه، ويُذعِنُ[2] برأيه، ويَنقادُ من حيثُ يأبى ومن حيثُ لا يأبى، ويُصبحُ وقد غمرَتْهُ تلك ٱلنفسُ أشبهَ بِٱلظلِّ مِمَّا يرميهِ ويفيءُ به؛ فهو مِسخٌ في تمثيلِهِ ٱلصورة، وهو كذبٌ عليها بِما يطولُ ويقصر، وهو على كلّ أحوالِهِ إبهامٌ سخيفٌ مُظلِمٌ لِحقيقةٍ شريفةٍ نيِّرة.

وأنت أفلا ترى هذا من جبابرةِ ٱلعقولِ كتلكِ ٱلشيمةِ في أخلاقِ ٱلعامَّة، إذْ لا يصلحون أبداً إلَّا أنْ يكونوا تَبَعاً، ولا عِلْمَ لهم إلَّا ما يربطُ في صدورِهم من فلانٍ وفلان، ثُمَّ يعملون بِلا تحقيق، ويحملون بِلا تمييز، ثُمَّ لا تكونُ نَهْمَةُ أنفسِهم معَ ٱلرجلِ ٱلعالم - إذا ٱجتمعوا به - إلَّا في ٱلتسليم لَهُ، وٱتقاءِ حقائقِه، وٱلنزولِ عن آرائِهم إلى رأيه، وٱلخروجِ من أنفسِهم إلى نفسِه!

لقد قلْنا من قبلُ إنَّ جبابرةَ ٱلعقولِ هؤلاءِ ٱلذين يأبَوْنَ إلَّا أنْ يكونوا عُلماءَنا وسادتنا لِيصرِّفوا عقولَنا ويُغيِّروا عقائدَنا ويُصلِحوا آدابَنا ويُدخلونا في مَساخِطِ ٱللَّهِ ويهجموا بنا على مَحارمِهِ ويُركبونا معاصيَه - إنْ هم في أنفسِهم إلَّا عامَّةٌ وجهلةٌ وحمقى إذا وُزنوا بِعلماءِ ٱلأُمَمِ وقِيسوا إلى حُكماءِ ٱلدنيا، وما يكتبون لِلأُمَّةِ في نصيحَتِها وتعليمِها إلا ما يتحوّلُ من كلماتٍ وجملٍ في ٱلصحفِ وَٱلكتبِ إلى أن يصيروا في ٱلواقعِ فُسَّاقاً وفجرةً ومُلْحِدِينَ وساخرينَ ومُفسدين؛ فَٱلمصيبةُ فيهم من ناحيةِ ٱلعِلْمِ ٱلناقصِ في وزنِ ٱلمُصيبةِ بِهِمْ من ناحيةِ ٱلخُلُقِ ٱلفاسد، وهاتانِ معاً في وزنِ ٱلمُصيبةِ ٱلكبرى ٱلتي يجنونَ بها على ٱلأُمَّةِ لِتهديمِها فيما يعملون، وتجديدِها فيما يزعمون. . .

(١) يخزهم: يشعرهم بالمهانة والعار. (٢) يذعن: يخضع.

لم أنخدعْ قطُّ في هؤلاءِ من فلاسفةٍ أو دكاترةٍ أو جبابرة، ولسْتُ أضعُ أمرَهم إلَّا على حَقِّه، فإنِّي لأَعرفُ أنَّ ٱلهرَّ من قبيلةِ ٱلأسد، ولكنَّ أسديَّتَهُ على الفأريةِ وحدَها. . . ولَعِلْمُ عاقبةِ ٱلجهلِ خيرٌ لِلأُمَّةِ من عواقبِ عِلْمِهِم وتخبُّطِهِم وحماقاتِهِم فإنَّهم قومٌ مُقلِّدون، ولهم طِباعٌ معتَّلةٌ زائغة، وعقولٌ لا مِساكَ[1] لها من دِينٍ أو ضمير؛ فما يجنحون إلَّا إلى بِدْعةٍ سيِّئة، أو آفةٍ محذورة، أو فِكْرةٍ مُتَّهمة؛ ولا يعملون إلَّا ما يُشبِهُ ٱلظنَّ بهم، وَٱلرأيُ فيهم؛ من تمدينِ ٱلأخلاقِ ٱلسافلةِ وإلحاقِها بِٱلعِلْمِ أوِ ٱلفلسفة، مع بقاءِ ٱلعقلِ ناضجاً صحيحاً يحكمُ على هذا ٱلخبيثِ كما كانَ يحكمُ على ذلك ٱلطيِّب؛ وليسَ من سبيلٍ إلى هذا إلَّا من جِهةِ تحويلِ ٱلأخلاق، فإنْ هيَ ٱستمسكَتْ ولم تتحوَّلْ فها هنا موضِعُ ٱلنزاع ومحلُّ ٱلخِلاف، ولا بُدَّ من حَرْبٍ منَّا كحربِ ٱلاستقلال، ثُمَّ حرْبٍ منهم كحرْبِ ٱلاستعمار. . .

فَٱلذي بينَنا وبينَهُم ليسَ ٱلقديمَ وٱلجديد، ولا ٱلتأخُّرَ وٱلتقدُّم، ولا ٱلجمودَ وٱلتحوُّل؛ ولكنْ أخلاقُنا وتجرّدُهم منها، ودينُنا وإلحادُهم فيه، وكمالُنا ونقصُهم، وتوثّقُنا وٱنحلالُهم، وٱعتصامُنا بِما يُمكنُنا وتراخيهِم تراخي ٱلحبلِ لا يجدُ ما يشدُّه.

وَٱلآن أنظُرُ إلى قلمي فأرى شطرَهُ الأسودَ ما جُعلَ كذلك إلَّا لِيزيدَ في جمالِ حُمْرتِهِ وبريقِها، ويُكسبُها لمعةً لا تأتيها إلَّا مِنَ ٱلسوادِ خاصَّة؛ وَٱلشرُّ خيرٌ إلَّا إذا بقيَ محصوراً في موضعِهِ ولم يتجاوزْه؛ فإذا تنبَّهَتِ ٱلأُمَّةُ لِجبابرةِ ٱلعقولِ هؤلاء، قُلْنا لا بأسَ بِٱلسوادِ ٱلمظلمِ إذا كانَتْ حِكمتُهُ حمراء. . .

* * *

(١) مساك: رابط.

شيطاني وشيطانُ طاغور...

طاغورُ هذا شاعرُ ٱلهند، مرَّ بمصرَ مرورَ شمسِ ٱلشتاءِ بِٱليوم ٱلمطير: لا يقعُ نورُها إلَّا في ٱلقلوبِ ممَّا تَستَخِفُّ وتستهوي، ومِمَّا تمتنعُ وتتأبَّى، ومِمَّا تَرِقُّ وتلطُف؛ وتنقدحُ بينَ ٱلسُّحُبِ ٱلهاميةِ فإذا لها مِنَ ٱلجمالِ وَٱلسحرِ وَٱلعجبِ ما يكونُ لِجمرةٍ تُخرِجُها ٱلسماءُ مُعجزةً لِلناسِ فيرَوْنَها تُرسِلُ ٱلشعاعَ مرَّةً وتُمطِرُ ٱلماءَ مرَّة.

لم ألقَ طاغورَ ولكنِّي أنفذْتُ إليهِ شيطاني وقلْتُ أُوصيهِ قبلَ أنْ يخرجَ لِوجهِه: قد علمْتَ أنَّ هذا ٱلرجلَ هنديّ، ولكنَّهُ إنسان، فما أرضٌ أولى بِهِ من أرض؛ وأنَّهُ شاعر، ولكنَّهُ مخلوق، فما طبيعةٌ أغلبَ عليهِ من طبيعةٍ؛ وأنَّهُ حكيم، ولكنَّهُ تركيبُ ما جُبِلَتْ لَهُ طينةٌ غيرُ ٱلطينة؛ وأنَّهُ سماويّ، غيرَ أنَّهُ سماويٌّ كعلماءِ ٱلفلك: سماؤُهُ في مِنظارٍ وكِتابٍ وقلمٍ وحِبر... فٱذهَبْ إليهِ فداخِلْ شيطانَه، فإنَّك واجدٌ لَهُ من ذلك ما لِكلِّ ٱلشعراء، ورُبَّما عرفْتَ شيطانَهُ من ذوِي قرابتِكَ أو خالصةِ أهلِك، ثُمَّ ٱئتني كلامَهُ على جهةِ ما هو مفكِّرٌ فيه، لا على جِهةِ ما هو متكلِّمٌ به؛ وخذْ ما يهجسُ[1] على قلبِه، ودعْ ما يجري في لِسانِه؛ فإنَّ هذا سيأتي بِهِ إخوانُكَ من «مندوبي ٱلصحف»... وَٱعلمْ أنَّ كلَّ حكيمٍ مهيِّءٌ لِمسائلَ من حَوْلِهِ كلاماً. غيرَ أنَّ معانيَ مَنْ حولَهُ مهيِّئةٌ لَهُ مسائلَ أخرىً يُفكِّرُ في كلِّ جوابٍ عليها ولا ينطِقُ بجوابٍ عليها.

* * *

فحدَّثني شيطاني بعدَ رجوعِهِ قال: حدثني شيطانُ طاغورَ قال: لَمَّا هَبَطَ طاغورُ هذا ٱلواديَ نظرَ نظرةً في ٱلشمس، ثُمَّ قال: أنتِ هنا وأنت هناك، تقربينَ بأثرٍ وتبعُدِين بِأثر، وتطلُعينَ بِجوٍّ وتغرُبين بجوّ، فلا تختلفين وتختلفُ بِكِ ٱلأقاليم، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأقاليمِ ٱلأُمَم، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأُمَمِ ٱلأفكارُ وَٱلمنازع، ثُمَّ تتغيَّرُ بِٱلأفكارِ وٱلمنازعِ أغراضُها ومصالحُها، ثُمَّ تتغيَّرُ بِمَصالِحِها وأغراضِها ٱلحقائقُ ٱلإنسانيَّة؛

---

(١) يهجس: يخطر بباله ويحادث به نفسه.

وإنَّما ٱلباطلُ وَٱلحقُّ فيما تستقبلُ هذه ٱلحقائقُ أو تستدبر[1]، وقد غلبَتِ ٱلسياسةُ على كلِّ شيءٍ حتى أصبحَتْ هذه ٱلحقائقُ ٱلإنسانيَّةُ جغرافيَّة، لها شعوبٌ ولها مستعمرات؛ فٱلإخاءُ في ٱلغربِ سِيادةٌ في ٱلشرق، وَٱلمُساواةُ هناك ٱمتيازٌ هنا، وَٱلحريَّةُ في مملكةٍ ٱستعبادٌ لمِملكة، وٱلتحيَّةُ في موضع صَفْعةٌ في موضِع، وَٱلضِّيافةُ في مكانٍ ٱستِئكَالٌ في مكان؛ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾، فلَنْ يتَّصِلَ ٱلناسُ بِٱلروحِ ٱلأعلى إلَّا مِنَ ٱلجِهةِ ٱلواحدةِ ٱلتي لم تتغيرْ ولنْ تتغيَّرَ فيهم، جِهةِ ٱلدموعِ ٱلتي لَا تختلفُ في أسودَ ولا أحمر، وَٱلتي لا تنبعِثُ إلَّا مِنَ ٱلرقةِ وٱلوجْدِ وٱلأحزانِ وٱلآلام، وهي بذلك نَسَبُ كلِّ قلبٍ إلى كلِّ قلْب، فلو غمرَ ٱلعالَمَ كلَّهَ بلاءٌ واحدٌ لا تحرزُ منه أرضُ أهلِها ولا تتحاجزُ ٱلأُممُ فيه، لاستلبَ مطامَع ٱلناسِ بعضِهِم في بعضٍ، وأرجعَ ٱلأنسانيَّةَ ٱلزائغةَ إلى مستقرِّها، فتجرَّدوا مِنَ ٱلدنيا وهم في ٱلدنيا، فٱتَّصلوا بِٱللانهايةِ وهم في ٱلنهاية؛ فإِنْ لم يكنْ بلاءٌ عامٌّ ففِكرٌ عامٌّ في بَلاءٍ يُميتُ ٱلشهواتِ ٱلمتطلِّقةَ ويكونُ كَٱلداءِ تلبَّسَ بِٱلجنسِ ٱلإنسانيِّ كَٱلذي تَصِفُهُ ٱلأديانُ من جهنمَ وَٱلمصيرِ إليها وٱلحسابِ عندَها وٱلجزاءِ على ٱلشرِّ بها، حتى لا تبقى نفسٌ إلَّا وهيَ في وَثاقٍ من حلالِها وحرامِها، ولا يبقى شرٌّ يُتخيَّلُ أو يُشتهى إلَّا وهو كَٱلمتاعِ ٱلنفيسِ بينَ أربعةِ جدرانٍ تتساقطُ وتحترقُ لا يجدُ في كلِّ ٱللصوصِ لِصًّا، فإنْ لم يَكُنْ هذا ولا ذاك فٱلحُبُّ ٱلعامُّ حتى لا يبقى جيشٌ ولا سِلاحٌ ولا سِياسةٌ ولا دُوَل، ولا تكونَ ٱلممالكُ إلَّا بيوتاً إنسانيَّةً بين ٱلواحدةِ وَٱلكلِّ منَ ٱلشابكةِ وَٱللُّحمةِ ما بين ٱلكُلِّ وَٱلواحدة، وحتى تقولَ مِصْرُ لإنجلترا يا بنتَ عميِّ... فإنِ ٱستحالَ كلُّ هذا فَٱلحريَّةُ ٱلعامَّةُ على أنْ تكونَ محدودةً من كلِّ جِهاتِها بِٱلشِّعر، وعلى أنْ يكونَ ٱلشعرُ محدوداً بِٱلطبيعةِ وَٱلطبيعةُ محدودةً بِٱلله، فينتزعُ ٱلنومَ مِنَ ٱلأرضِ لِتتصِلَ ٱليقظةُ بِٱلحُلُم... من طريقِ غيرِ ٱلنوم.

قالَ شيطانُ طاغور: ثُمَّ ٱبتأسَ طاغورُ وقال: كلُّ ذلك مستحيلٌ أو كَٱلمستحيلِ ولكنَّهُ في ٱلأملِ مُمْكِنٌ أو كَٱلمُمْكِن؛ ولِلفْظِ معنيان: أحدُهما ما يكون، وٱلثاني ما يحسنُ أنْ يكون؛ ذلك لا بُدَّ لَهُ مِنَّا لِأنَّهُ جانبَ ٱلنظامَ ٱلإلهيّ، وهذا لا بُدَّ لنا منهُ لِأنَّهُ جانبَ ٱلخيالَ ٱلإنسانيّ؛ ذلك مِنَ ٱلطبيعةِ ٱلتي تعملُ ولا تتكلَّم، وهذا مِنَ ٱلشعرِ ٱلذي يتكلَّمُ ولا يعمل. آه آه! إنَّما ٱلسلامُ ٱلعامُّ أنْ يكونَ

(١) تستدبر: تتراجع.

ٱلوجودُ شركةٌ إلٰهيَّةٌ إنسانيَّةٌ برضًى وٱتفاقٍ بينَ ٱلطرفين. . . ولَعَمْري إنَّ كلَّ ٱلمستحيلاتِ مُمْكِنةٌ بِٱلإضافةِ إلى هذا ٱلمستحيل. ثُمَّ تبسَّمَ طاغورُ إذْ خطرَ لَهُ أنَّهُ شاعرٌ عليهِ أنْ يَصِفَ ٱلوردةَ ويقولَ فيها ما يجعلُها بيتَ شعرٍ في كتابِ ٱلطبيعةِ لَهُ وزنٌ ونغم، ولكنْ على ٱلطبيعةِ قبلَ ذلك أنْ تُنبتَها ناضِرةً عطِرَةً جميلةً تتميَّزُ عن غيرِها برائحةٍ ولَوْنٍ وشكل.

قالَ شيطانُه: ولَمَّا ٱنتهى من تأمُّلِهِ إلى هذه ٱلخاطرةِ قدّمَتْ لَهُ سيدةٌ هنديَّةٌ عقودَ ٱلزهر، وبيَنا هي تُقَلِّدُهُ إيَّاها قالَ في نفسِه: إنَّ هذه ٱلأزهارَ من معاني ٱلماءِ ٱلعذْب؛ فإذا ٱنطلَقْنا في أوهامِنا وراءَ ٱلحبِّ ٱلعامِّ وٱلسلامِ ٱلعامِّ فَلِمَنْ تكونُ معاني ٱلماءِ ٱلمِلْحِ، وهو ثلاثةُ أرباعِ ٱلأرض، ومن أزهارِهِ ٱلأسطولُ ٱلإنجليزيّ. . .

* * *

حدَّثَني شيطاني قال: حدَّثَني شيطانُ طاغورَ قال: ولَمَّا ٱستقرَّ طاغورُ في قصرِ شوقي بك ورآهُ في مثلِ حسنِ ٱلدينارِ ونقشِهِ ونفاستِه، قال: لا جَرَمَ هذه أُمَّةٌ أغنَتْ شاعِرَها، فما أُخطِئُ ٱلتقدير، وإنْ أخطأْتُهُ فلا أبعدُ عنِ ٱلمقارنةِ إذا حسِبْتُ أنَّ هذا ٱلشاعرَ يطبعُ لِهذه ٱلأُمَّةِ نِصْفَ مليونِ نسخةٍ من كلِّ ديوانِ شعرٍ أو دفترِ حِكْمةٍ أو كتابِ قصة، وليتني أعرفُ ٱلعربيَّةَ لِأَعرفَ كيفَ يُبدعُ هذا ٱلشعبُ فلسفَتَهُ في أغانيهِ ٱلمتَّصِلَةِ بِغيومِ ٱلسماءِ ٱلمتكلِّم بأحسنِ وأطهرِ ما يُمكنُ أنْ يكونَ ترجمةً لِلحقيقةِ ٱلخالدةِ ٱلتي يتوارثُها شعبٌ خالد.

ٱلشعرُ فِكْرةُ ٱلوجودِ في ٱلإنسان، وفِكرةُ ٱلإنسانِ في ٱلوجود، ولا يكفي أنْ يُخْلَقَ هذا ٱلإنسانُ مرَّةً واحدةً من لَحْم ودم، بلْ لا بُدَّ أنْ يُخْلَقَ مرَّةً أُخرى من مَعانٍ وألفاظ، وإلَّا خرجَ حيواناً أعجم؛ فَٱلشاعرُ يُبدعُ أُمَّةً كاملة، إنْ لم يخلقْها فإنَّهُ يخلقُ أفكارَها ٱلجميلةَ وحِكمتَها ٱلخالدةَ وآدابَها ٱلعاليةَ وسِياستَها ٱلموفَّقةَ وما أحسبُ ٱلنهضةَ ٱلمِصريَّةَ إلَّا بِٱلأغاني وٱلأناشيد، فتأتي من إنجلترا جنودٌ وتخرجُ لها من دورِ ٱلغناءِ وَٱلتمثيلِ جنودٌ أخرى؛ لقد كنْتُ مُلْهَماً حين قلْتُ مرة: «إنَّ ٱللَّهَ يُخاطبُ ٱلناسَ عن طريقِ ٱلموسيقى».

نعم عن طريقِ ٱلموسيقى، فكلُّ شيءٍ هو موسيقى في نفسِهِ حتى حينَ يتطاحنُ ٱلناسُ ويذبحُ بعضُهم بعضاً، فإنَّ صلصلةَ[1] ٱلأسلحةِ ودويَّ ٱلقنابلِ وأزيزَ ٱلرصاصِ

---

(١) صلصلة الأسلحة: قعقعة السلاح وأصواته.

وتصايُحَ ٱلجند ـ كلُّ ذلك لحنٌ أعَدَّهُ ٱللَّهُ جلَّتْ قدرتُه «وموسيقاه». . . لِجنازاتِ ٱلأُمَم.

* * *

حدَّثني شيطاني قال: حدَّثني شيطانُ طاغورَ قال: ولَمَّا رأى طاغورُ ٱلأستاذَ الفاضلَ مديرَ ٱلجامعةِ ٱلمصريَّة ـ وهيَ ٱلتي دَعَتْهُ إلى إلقاءِ مُحاضرتِه ـ قال: نعم وحُبًّا وكرامة، إنَّهُ لا يستقيمُ في ٱلعقلِ أنْ تدعُوَ هذه ٱلجامعةُ شاعِراً روحانيًّا مثلي إلَّا وهي فَلَكٌ نيِّرٌ يُعدُّهُ ٱللَّهُ من نجومِه، وما أحسبُ أستاذَ آدابِها ٱلعربيةِ إلَّا تلك ٱلذَّرةَ ٱللؤلؤيةَ ٱلتي كانَتْ تُجاوِرُني في طِينةِ ٱلخَلْقِ ٱلأزليَّة، فلو أنَّ ٱلذراتِ ٱلثماني ٱلتي كانَتْ حولَنا خُلِقَتْ في عصرِنا هذا وتوزَّعَتْ على ٱلأُمَمِ ٱلفلسفيَّة لَكُنَّا وإيَّاها كوصايا ٱللَّهِ ٱلعَشْرِ في هذا ٱلعصرِ ٱلماديّ. . . وَلَمَلأْنا طَيَّاتِها إيماناً بِٱلله، ولَصارَ لِلَّهِ ـ تعالى ـ في أرضِه عَشرُ آلاتٍ سماويةٍ لاسلكيَّةٍ بينَهُ وبينَ ٱلخَلْق، تُباهي ٱلجامعةُ ٱلمِصْرِيَّةُ بأنَّ فيها إحداها. . . لقد نغَّصَ عليّ هذه ٱلشيخوخَةَ أنِّي لم أتعلَّم ٱلعربيَّة، وكيف لي بأنْ أُرتِّلَ أناشيدَ أستاذِ ٱلآدابِ في الجامعةِ ٱلمِصْرِيَّةِ لِأستمتِعَ بِألحانِهِ ٱلسماويَّةِ في شعرِهِ وأغانيه، وأسمعَ ٱلملائكةَ من هذه ٱلمئذنةِ ٱلإنسانيَّةِ في ٱلجامعةِ تهتفُ بكلمةِ ٱلإسلام ٱلرهيبةِ ضارخةً بحقيقةِ ٱلوجودِ في ٱلوجود: اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبر، أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا الله. . .

قالَ شيطاني: وكانَ شيطانُ ٱلدكتور طه حسين أستاذِ ٱلجامعةِ حاضراً معنا، فلمَّا ألمَّ بِمَا في نفسِ طاغورَ قالَ لي: حقًّا إنَّ مِنَ ٱلخير أنْ لا يعرفَ هذا ٱلهنديُّ ٱللغةَ ٱلعربيَّة، لِأَنَّهُ لو عرفَ ٱللغةَ ٱلعربيَّةَ لَمَا أَرضتْهُ ٱللغةُ ٱلعربيَّةُ ولا آدابُ اللغةِ ٱلعربيَّةِ ولا أستاذُ آدابِ ٱللغةِ ٱلعربيَّة! فقلْت: أُسكُتْ ويحكَ ودع ٱلرجلَ في أحلامِه، ولا تكنْ غيمةَ سمائِهِ ٱلمُشرقة؛ أمَا تراهُ يحلُم، أما سمْعتَهُ يقول: «وَٱلحقيقةُ من حيثُ هي جمالٌ ليسَ يعدِلُهُ جمال؛ ألسْتَ ترى إلى صورةِ هذه ٱلمرأَةِ ٱلعجوزِ أبدعَها فنانٌ ماهر، إنَّك تنظرُ إلى ٱلصورةِ فتُقرُّ بجمالِها، ولكنَّ ٱلمرأةَ ٱلعجوزَ ٱلتي فيها ليسَتْ على شيءٍ مِنَ ٱلجمال؛ لكنَّما جمالُ ٱلصورةِ أنَّها تمثِّلُ هذه ٱلمرأةَ ٱلعجوزَ على حقيقتِها فهذه كلماتٌ في سبحاتِ ٱلنور، وهيَ مِنْ لغةِ ٱلسماءِ ذاتِ ٱلكواكبِ لا من لغةِ ٱلنفس ذاتِ ٱلعواطف؛ وإلَّا فهل يصحُ في ٱلعقلِ أنَّ تصويرَ ٱلعجوزِ ٱلتي ٱضطربَ مِيزانُ ٱلخَلْقِ فيها حتى لا يزِنُ منها إلَّا بقايا ٱلخِلْقةِ وأنقاضَ ٱلعُمْرِ وخرائبَ ٱلمرأة. . . يكونُ بما يظهرُ من شوهتِها وتهدُّمِها وتشننِ جِلْدِها وموتِ ظاهِرِها ـ جمالاً في ٱلصورةِ لِأنَّهُ قبيحٌ في ٱلأصلِ؟ أفليسَ لو كانَ

ذلك صحيحاً لَمُلِئَتِ ٱلمتاحفُ وٱلقصورُ بألواح ٱلعجائز، ولَمَا بقيَتْ على ٱلأرضِ عجوزٌ إلَّا ذهبَتْ لِأحدِ ٱلمصورينَ تَقولُ لَهُ: اخلقْني!...

* * *

حدَّثني شيطاني قال: حدَّثني شيطانُ طاغورَ قال: وكانَ طاغورُ رطبَ ٱللِّسانِ في مُحاضرتِهِ كأنَّ غابةً من غاباتِ ٱلهندِ أمدَّتْهُ بِكُلِّ ما ٱعتصَرتْهُ ٱلشمسُ فيها ماءً وحياةً ونضرة، فهو في كلامِهِ ومعانيهِ ورقٌ وزَهْرٌ ونسيمٌ وظِلٌّ وحفيفٌ وتغريد، يسحِرُ ٱلناظرَ إذْ لا يرى ٱلناظرُ شكلَهُ ٱلإنسانيَّ فيه، بلْ يراهُ شيئاً من خيالِهِ كأنَّما ٱنفصلَ منه فتمثَّلَ بشراً سويًّا، ولو أنَّك ٱطلعْتَ يوماً في ٱلمرأةِ فإذا خيالُكَ فيها يكلِّمُكَ ويستأنِسُكَ ويُلطِفُ لك، لَمَا أدهشَكَ من ذلك ولا أطربَك ولا ٱستخرجَ من عجبِكَ وذهولِكَ إلَّا كَٱلذي يعتري نفسَكَ حين يُكلِّمُكَ طاغور؛ وتراهُ يستخلِصُ آراءَهُ ٱلمتصرِّفةَ بِكلامِهِ من روح ٱلنواميسِ ٱلإلهيَّةِ ٱلمدبِّرةِ لِلْكون، فتُحسُّهُ يُضيفُ إليك زيادةً ليسَتْ فيك؛ فمَهما كَبُرَتْ بِهِ تصغرْ نفسُك عندَكَ بين يديه؛ ثُمَّ هو يَتَّصِلُ بروحِكَ مرَّةً في جلالِ حُبِّ ٱلأبِ لِطفْلِهِ، ومرَّةً في رِقَّةِ فرحِ ٱلطفلِ بِأَبيه؛ فإذا أنت منه بِمَوْقفٍ عجيبٍ من مُعْجزةٍ إنسانيَّةٍ تروعُكَ بِطفلِ شيخٍ قدِ ٱجتمعَ فيهِ طرفا ٱلعمرِ وجاءَ كأنَّهُ مظهرُ روحِهِ ٱلَّتي لا عمرَ لها.

إنسانٌ كهربائيٌّ يُحاولُ أنْ يزيدَ في تركيبِ ٱلناسِ عظْمةً من حديدٍ أو عصباً من سِلْك، لِتصِلَ بهم جميعاً تلك ٱلشعلةَ ٱلطائفة؛ فإذا هم خَلْقٌ آخرُ كَأَهلِ ٱلجنَّةِ ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾؛ ولكنَّهُ بصرٌ وهو خارجٌ مِنَ ٱلمسرحِ بإعلانِ ٱلسيما ٱلتي تُجاورُهُ وما عليهِ مِنَ ٱلتصاويرِ وَٱلتهاويل، فقالَ في نفسِه: بعدَ قليلٍ تجيءُ إلى هنا لندنُ وباريسُ ونيويوركُ وغيرُها من أرضِ ٱللَّهِ بناسِها وحيوانِها ونباتِها، يراها ٱلجالسونَ رأيَ ٱلعينِ ويتَّصلون بها ٱتِّصالاً بعيداً لا يجعلُهُم فيها ولكنَّهُ لا يُخليهِم منها؛ ويجبُ لِعُمرانِ هذه ٱلأرض أنْ يبقى أهلُ مِصْرَ في مصرَ فلا يدعوها جميعاً ليتَّصِلوا جميعاً بِمَا تشتاقُهُ أنفسُهُم من باريسَ أو غيرِ باريسَ من حقائقِ ٱلعالمِ ٱلكبرى، ولا يحسنُ هذا ٱلاتِّصالُ إلا إذا خصَّ ولم يعمّ، فيقومُ بِهِ ٱلواحدُ وَٱلاثنانِ وٱلجماعةُ وتبقى ٱلأُمَّةُ بما هيَ وكما هيَ لِأنَّها بذلك وحدَهُ أُمَّة، كما أنَّ ٱلناسَ بِطبائِعِهم ناس، وَٱلكونَ بِٱختلافِهِ كون، فهيهاتَ هيهاتَ ٱلحُبُّ ٱلعامُّ وَٱلسلامُ ٱلعامُّ وَٱلاتصالُ ٱلعامُّ بِٱلحقيقةِ ٱلروحيَّةِ ٱلعليا. ثُمَّ تبسَّمَ وقال: ما أشبهني بهذه ٱلسيما، غيرَ أنَّ شريطي لا يرى فيهِ ٱلناسُ رِوايةً من لندنَ وباريسَ، بلْ روايةً وقعَتْ حوادثُها في جنةِ ٱلخُلْد...

فلسفةُ ٱلقصة
ولماذا لا أكتبُ فيها..؟

لم أكتبْ في ٱلقصةِ إلَّا قليلاً، إذا أنت أردْتَ ٱلطريقةَ ٱلكتابيَّةَ ٱلمصطَلَحَ على تسميتِها بهذا ٱلاسم، ولكنِّي مع ذلك لا أراني وضعْتُ كلَّ كُتُبي ومقالاتي إلَّا في قصةٍ بِعينِها، هي قصةُ هذا ٱلعقلِ ٱلذي في رأسي، وهذا ٱلقلْبِ ٱلذي بين جنبيّ.....

أنا لا أعبأُ بِٱلمظاهرِ وَٱلأغراضِ ٱلتي يأتي بها يومٌ وينسخُها يومٌ آخر، وَٱلقِبلةِ ٱلتي أَتَّجِهُ إليها في ٱلأدبِ إنَّما هيَ ٱلنفسُ ٱلشرقيَّةُ في دينِها وفضائِلِها، فلا أكتبُ إلَّا ما يبعثُها حيَّةً ويزيدُ في حياتِها وسموِّ غايتِها، ويُمكِّنُ لِفضائِلِها وخصائِصِها في ٱلحياة؛ ولذا لا أمسُّ مِنَ ٱلآدابِ كلِّها إلَّا نواحيَها ٱلعُليا؛ ثُمَّ إنَّهُ يُخيَّلُ إليَّ دائماً أنِّي رسولٌ لغويٌ بُعِثْتُ لِلدفاعِ عنِ ٱلقرآنِ ولُغتِهِ وبَيانِه، فأنا أبداً في موقفِ ٱلجيش (تحتِ السلاح): لَهُ ما يُعانيهِ وما يُكلَّفُهُ وما يُحاولُهُ ويفي بِه، وما يتحاماهُ[1] ويتحفّظُ فيهِ، وتاريخُ نَصرهِ وهزيمتِهِ في أعمالِهِ دون سِواها؛ وكيف ٱعترضْتَ ٱلجيشَ رأيْتَهُ فنَّ نفسِه، لا فَنَّك أنت ولا فنَّ سِواك؛ إذْ هو لِطريقتِهِ وغايتِهِ وما يتأدَّى بِهِ لِلحياةِ وَٱلتاريخ.

أَلَا ترى أنَّ تلك ٱلرواياتِ تُوضَعُ قصصاً، ثُمَّ تُقرأُ فتبقى قصصاً؟ وإنْ هيَ صنعَتْ شيئاً في قرَّائِها لم تزدْ على ما تَفعلُ ٱلمخدِّرات؛ تكون مُسَكِّناتٍ عصبيَّةً إلى حين، ثُمَّ تنقلبُ هيَ بنفسِها بعدَ قليلٍ إلى مهيِّجاتٍ عصبيَّة؟

وأنا لا أُنكرُ أنَّ في ٱلقصةِ أدباً عالياً، ولكنَّ هذا ٱلأدبَ ٱلعالي في رأيي لا يكونُ إلَّا بأخذِ ٱلحوادثِ وتربيتِها في ٱلروايةِ كما يربَّى ٱلأطفالُ على أسلوبٍ سَواءٍ في ٱلعِلْمِ وَٱلفضيلة؛ فَٱلقصةُ من هذه ٱلناحيةِ مدرسةٌ لها قانونٌ مسنون، وطريقةٌ

---

(١) يتحاماه: يتحاشاه.

مُمَحِّصة، وغايةٌ معيَّنة؛ ولا ينبغي أنْ يتناولَها غيرُ ٱلأفذاذِ[1] من فلاسفةِ ٱلفِكْر ٱلذينَ تُنصبُهُم مواهبُهم لإلقاءِ ٱلكَلِمةِ ٱلحاسِمَةِ في ٱلمشكلةِ ٱلتي تُثيرُ ٱلحياةَ أو تُثيرُها ٱلحياة؛ وَٱلأعلامُ من فلاسفةِ ٱلبيانِ ٱلذينَ رُزقوا من أدبِهم قوةَ ٱلترجمةِ عمّا بينَ ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ وَٱلحياة، وما بين ٱلحياةِ موادِها ٱلنفسيَّةِ في هؤلاءِ وهؤلاءِ، تتخيَّلُ ٱلحياةُ فتُبدعُ أجملَ شِعْرِها، وتتأملُ فتُخرِجُ أسمى حِكمتِها، وتُشرِّعُ فتضعُ أصحَّ قوانينِها.

وأمَّا مَنْ عداهم ممَنْ يحترفُون كِتابةَ ٱلقِصَص، فَهُمْ في ٱلأدبِ رِعاعٌ وهَمَج، كانَ من أثرِ قَصَصِهِم ما يتخبَّطُ فِيهِ ٱلعالمُ ٱليومَ من فوضى ٱلغرائز، هذه ٱلفوضى ٱلمَمْقوتةُ ٱلتي لو حقَّقتَها في ٱلنفوسِ لَمَا رأيتْهَا إلَّا عاميَّةً روحانيَّةً منحطةً تتسكَّعُ فيها ٱلنفسُ مشَّردةً في طرقِ رذائلِها.

إذا قرأْتَ ٱلروايةَ ٱلزائفةَ أحسْسَت في نفسِكِ بأشياءَ بدأَتْ تَسْفُل، وإذا قرأْتَ ٱلرواية ٱلصحيحةَ أدركْتَ من نفسِكَ أشياءَ بَدَأَتْ تعلو؛ تنتهي ٱلأولى فيك بِأثرِها ٱلسيِّىء، وتبدأُ ٱلثانيةُ منك بأثرِها ٱلطيِّب؛ وهذا عندي هو فرقُ ما بينَ فنِّ ٱلقصة، وفنِّ ٱلتلفيقِ ٱلقصصيّ!!.

---

(١) الأفذاذ: النوابغ المتفوّقون.

شعر صبري

في ٱلحادي وٱلعشرينَ من شهرِ مارس من سنتِنا هذه نزعَ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ عن رأسهِ عِمامةَ ٱلمشيخةِ ونشرَها لِلْموت، فكانَتِ ٱلكفنَ ٱلذي طُويَ فيه بقيَّةُ شيوخِ ٱلأدب: ٱلمرحومُ إسماعيل باشا صبري.

كانَ ـ رحمَهُ ٱللَّهِ ـ منَ ٱلرجالِ ٱلذين نشأُوا في تاريخٍ لا يُنشىءُ رجلا، وجاءُوا في غير زمنِهِم لِيجيءَ بهم زمنُهم بعد؛ وهؤلاءِ إنْ لم يكنْ فيهم قوَّةٌ أكبرُ مِنَ ٱلقوَّة، فهم أقدارٌ وأحداثٌ تُولدُ وتنشأُ وتنمو في أسلوبٍ إنسانيٍّ لِيتمَّ بها شيءٌ كانَ نقصاً، ويُحسِّنُ شيئاً كانَ هجنةً، ويُوجِدُ أمراً كانَ عَدَماً؛ ثُمَّ لِيكونَ لْلزَمنِ منها حدودٌ يبَدأُ عندَ ٱلواحدِ منها فيتغيَّرُ فيهِ ويتحَوَّلُ بِهِ ويخرجُ معَهُ في بعضِ معانيهِ زمناً جديداً في رجلٍ جديد.

كذلك كانَ صَبري في مَنْحًى من مناحي ٱلشعر، وكانَ ٱلبارودي ـ رحمَهُما ٱلله ـ في منحًى آخر؛ فهما طرفا ٱلمِحْورِ ٱلذي ٱستدارَ عليهِ هذا ٱلفَلَكُ لِيبدأَ بعدَ تاريخِهِ ٱلميتِ تاريخاً حيًّا، ولِيخرجَ مِنَ ٱلجوِّ ٱلقاتمِ في أعراضِ ٱلأرضِ إلى ٱلفضاءِ ٱلمشرقِ بِمَعاني ٱلسماء، ثُمَّ لِينفضَ عنه في مَهَبِّ ٱلرياحِ ٱلعلويَّةِ ما لصقَ بِهِ من طِباعِ أهلِهِ وأخلاقِهِم، ويُغلِقَ بِها ما فتحَ ٱلزمنُ عليهم من أبوابِ هذه ٱلحِرْفة، فكَانَ ٱلشِّعرُ في حاجةٍ إلى رِجلٍ كالمَلِك، فأصابَ رجلين؛ وعَلِمَ ٱللَّهُ ما رأيْتُ في كلِّ مَنْ رأيْتُهُم مِنَ ٱلشعراءِ نَفْساً تعدُّ معهما، ولا خُلُقاً يجري في أخلاقِهِما، ولا ظَرْفاً ولا رِقَّةً ولا أدباً ولا شيئاً يصلُحُ أنْ يكونَ شَرْحاً منهما أو توكيداً لِشيءٍ فيهما أو تقويةً لِمعنًى من معانيهِما، كأنَّما وُجِدا لِيكونَ أحدُهما مبدأً وٱلآخرُ نهاية، ولِينفردا ٱنفرادَ ٱلطرفينِ مِنَ ٱلمسافةِ بالغةً ما بلغَت.

كانَ ٱلشعرُ لِعَهْدِهِما بقيَّةً رثَّةً في معرضِ خَلْقٍ مِمَّا كانَ يُسميهِ أدباءُ ٱلأندلسِ بالأغراضِ ٱلمشرقيَّةِ وطريقةِ ٱلمشارِقة، وهم يعنونَ بذلك ٱلصناعةَ وَٱلتكلُّفَ لِلبديعِ وَٱلانصرافَ إلى ٱللفظِ وٱستكراهَهُ على ٱلوجهِ ٱلذي أرادوا، إلى ما يتشَّعبُ من ذلكَ

ويخرجُ أو يدخلُ في بابِه؛ وقد كانَ هذا ومثلُهُ ممَّا يُساغُ[1] ويُحتمَلُ في ٱلقرنِ ٱلثامن وأكثرِ ٱلتاسعِ لِلْهجرة، ثُمَّ في أيام بعدَ ذلك؛ غيرَ أنَّهُ بَلِيَ وتهتَّكَ في مِصْرَ خاصةً ولم يبقَ منه إلى منتصفِ ٱلقرنِ ٱلثالثَ عَشَرَ إلَّا رقعٌ وخيوطٌ في قصائدَ ومقاطيع.

ثُمَّ كانَ أكثرُ ٱلشعراءِ يومئذٍ إنَّما يحترِفون فنَّ ٱلأدبِ صِناعةً كسائرِ ٱلمِهَنِ وٱلصناعاتِ ٱلتي بها قِوامُ ٱلعيشِ لِهولاءِ المستأكلينَ وَٱلمتكسبينَ مِنَ ٱلسوقةِ وَٱلمُرتزِقةَ.

* * *

ظهرَ ٱلبارودي ونبغَ في شعرِهِ قبلَ أنْ يقولَ صبري ٱلشعرَ بِسنوات، ولكنَّ ٱلأدبَ ٱلفارسيَّ وٱلجزالةَ ٱلعربيَّةَ هما ٱللذان تحَولا فيه؛ ثُمَّ نبغَ صبري بعدَ ذلك بِزمن، فتحَّولَ فيهِ ٱلأدبُ ٱلأفرنجيُ وٱلرِّقَّةُ ٱلعربيَّة؛ وهذا موضعُ ٱلتفاوتِ في شِعْرِ ٱلرجلينِ ٱللذينِ ٱقتنصا ٱلخيالَ ٱلشعريَّ من طرفي ٱلأرض، وكِلاهما يذهبُ مذهباً ويرجعُ إلى طبعٍ ويروضُ شِعْرَهُ على وجه؛ فَٱلبارودي يستجزلُ ويجمعُ إلى سبكِهِ ٱلجيِّدِ قوَّةَ ٱلفخامةِ وشدّةَ ٱلجزالة، ثُمَّ يعترِضُ ٱلخيالَ من حيثُ يهبطُ على ٱلنفسِ في ممرِّ ٱلوحي؛ وصبري يسترقُّ ويُضيفُ إلى صفاءِ لَفظهِ جمالَ ٱلتخيُّرِ وحلاوةَ ٱلرقَّة، ويُعارضُ ٱلفكرَ من حيثُ يتَّصلُ بالقَلب؛ وَٱلباروديُّ لا يرى إلَّا ميزانَ اللسانِ يُقيمُ عليهِ حروفَهُ وكلماتِه، وصبري لا يرى إلَّا ميزانَ ٱلذوق ٱلذي هو من وراءِ ٱللسان؛ وقد يُسِّرَتْ لِكِلَيْهِما أَسبابُ ناحيتِهِ في أحسنِ ما يتصرَّفُ فيه؛ فجاءَ ٱلباروديُّ حافظاً كأنَّهُ مجموعةٌ من دواوينِ ٱلعربِ والمُولدين، وجاءَ صبري مفكراً كأنَّهُ مجموعةُ أذواقٍ وأفكار؛ وهما يشتركانِ معاً في ٱلتلوُّم على صنعةِ ٱلشعرِ وٱلتأني في عملِهِ وتقليبِهِ على وجوهٍ مِنَ ٱلتصفُّح، وتمحَيصِهِ بٱلنقدِ وَٱلابتلاءِ لفظاً لفظاً وجملةً جملة، ثُمَّ مُطاولةِ معانيهِ ومُصابرتِها كأنَّما ينتزعانِ محاسَنَها من أيدي ٱلملائكة؛ وأنا أعرفُ ذلك فيهما؛ وقالَ لي صبري باشا مرةً وقد جارَيْتَهُ في بعضِ هذا ٱلمعنى: إنَّهُ يعلمُ هذا مِنَ ٱلباروديِّ ومن نفسِه. قلْت: أفيبلغُ بِهِ ذلك أنْ يمحوَ بياضَ ٱليوم في سوادِ بيتٍ واحد؟ قال: وفي سوادِ شطرةٍ أحياناً!. وليسَ ينقصُهُما هذا ٱلأمرُ شيئاً، فإنَّ خبرَ زهيرٍ في حوليَّاتِهِ معروف، وقد عملَ سبعَ قصائدَ في سبعِ سنين: يحوكُ ٱلقصيدةَ منها في سنة.

ونقلوا عن مروانَ بْنِ أبي حفصةَ أنَّهُ قال: كنْتُ أعملُ ٱلقصيدةَ في أربعةِ

---

(١) يُساغ: يُقبل.

أشهر، وأحكِّكُها[1] في أربعةِ أشهر، وأعرضُها في أربعةِ أشهر، ثُمَّ أَخرجَ بها إلى الناس؛ فقيلَ هذا هو الحوليُّ ٱلمنقَّح.

كانَ مرجعُ ٱلباروديّ إلى ٱلحِفْظ، فنبغَ في وثباتٍ قليلة؛ أمَّا صبري فٱحتاجَ إلى زمنٍ حتى ٱستحكمَتْ ناحيتُهُ وآتتهُ أسبابُهُ على ٱلإجادة، لِأنَّ مرجعَهُ إلى ٱلذوق، وهذا يُكتسبُ بِٱلمرانِ وينضجُ عندَ نضوجِ ٱلفِكْرِ ولا يأتي بِٱلماء وَٱلرونقِ حتى تَأْتيَ لَهُ أسبابٌ كثيرة؛ وأنت تعرفُ ذلك في ٱلرجلينِ من أوائلِ شِعْرِهِما، فقد رثى ٱلبارودي أباه في سِنِّ ٱلعِشْرينَ بِأَبياتِهِ ٱلداليَّةِ ٱلشهيرةِ ٱلتي مطلعُها:

لا فارسُ ٱليومَ يحمي ٱلسَّرحَ بِٱلوادي طاحَ ٱلرَّدى بِشهابِ ٱلحيِّ وَٱلنَّادي

وهي ثمانيةَ عَشَرَ بيتاً، وجيدُها جيد، وكأنَّها خرجَتْ من لِسانِ أعرابيّ؛ وإنَّما جاءَتْهُ من صنعةِ ٱلحفظ، كَٱلذي ٱتَّفقَ لِلشريفِ ٱلرضيّ في أبياتِهِ ٱلخائيةِ ٱلتي كتب بها إلى أبيهِ وعمرُهُ أربعَ عَشْرَةَ سنة، وكانَ أبوهُ معتقَلاً بِقلعةِ شيرازَ ومطلعُها.

أَبْلِغا عنِّي ٱلحُسَيْنَ ألوكاً[2] إنَّ ذا ٱلطَّوْدَ[3] بعدَ بُعْدِك ساخا[4]
وَٱلشهابَ ٱلذي ٱصْطَلَيْتَ لَظَاهُ عكسَتْ ضوءَهُ ٱلخطوبُ[5] فباخا

هذا على أنَّ ٱلبِدايةَ كما يُقال مزلَّه؛ وقد وفقْنَا إلى ٱلوقوفِ على أولِ ما نُشِرَ من شعرِ صبري باشا، وذلك قصيدتانِ نُشرَتا في مجلةِ روضةِ ٱلمدارسِ في مدحِ إسماعيل باشا، فنُشرَتِ ٱلأولى في ٱلعددِ ٱلصادرِ في غايةِ شوالَ سنة ١٢٨٧ لِلهجرة ـ ١٨٧٠ لِلميلاد؛ ونُشِرَتِ ٱلثانيةُ في عددِ شهرِ ربيعِ ٱلآخرِ من سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م؛ وبينَهما خمسةُ أشهر، كانَتْ وثبتُهُ فيها ضعيفَةً متقاصِرَة، مِمَّا يدلُّ على بطْءِ نُضْجِهِ بِطبيعةِ ٱلأَسبابِ ٱلتي تسبَّبُ بها إلى ٱلشعر؛ وكانَتِ ٱلروضةُ يومئذٍ تنشرُ لِطائفةٍ من فحولِ دهرِهِم: كَٱلسيدِ صالح مجدي، ورَفاعةَ بك رافع، ومحمد أفندي قدري «ونابغةِ ٱلزمانِ محمد أفندي رضوان»، وغيرِهِم. وكانَت تُستقبلُ قصائدُهُم بِسَجعاتٍ داويةٍ مفرقِعة، هيَ لذلك ٱلعهدِ أشبَهُ ٱلأشياءِ بِطلقاتِ مدافعِ ٱلتحيَّةِ لِلْملوكِ وَٱلأُمراء؛ فلمَّا نَشرَتْ لِصبري قالَتْ في ٱلقصيدةِ الأولى تهنئة بِٱلعيدِ الأكبر لِلْخديو الأعظم بقلم إسماعيل صبري أفندي». وقالِتْ في الثانية «قصيدةٌ رائيَّةٌ في مدحِ

---

(١) أحكِّكها: أنقحها.
(٢) ألوكاً: رسالة.
(٣) الطود: الجبل الشامخ.
(٤) ساخا: ذابا.
(٥) الخطوب: المصائب.

الحضرةِ الخديويةِ من نظمِ الشابِ النجيبِ إسماعيلَ صبري أفندي من تلامذةِ مدرسةِ الإدارة». ومطلعُ القصيدةِ الأولى:

سَفَرَتْ[1] فلاحَ[2] لَنَا هِلالُ سعودِ ... وَنَما الغرامُ بِقَلْبِيَ المعمودِ[3]

ولا شيءَ فيها أكثرُ من حروفِ المطبعة. ومطلعُ الثانية:

أغُرَّتُكَ الغَرَّاءُ أمْ طلعةُ البَدْرِ ... وقامتُكَ الهيفاءُ أم عادلُ ٱلسُّمرِ

وفي هذه القصيدة بيتٌ وقفْتُ عندَهُ أرى صبري باشا في صبري أفندي كأنهُ خيالٌ مولودٌ يَسْتَهِلّ، وذلك قولُه:

فطَوِّلْ من الهجرانِ علَّ وقوفَنا ... يطولُ معاً - يا قاتلي - ساعةَ ٱلحشْرِ

ويكادُ هذا البيت يكونُ أولَ انقلابٍ لِلفكرةِ فيه: وهو غريب، والتأمُّلُ فيهِ أغرب، ولكنه يدلُّ على خيالٍ سَيَثِبُ يوماً على أقطارِ السموات.

وفي ذلك الزمنِ عينِه كانَ البارودِيُّ شِهاباً يتلهَّبُ، وكانَ قد بلغَ مبلغَهُ وٱستجمعَ أسبابَ نِهايتِه، بلْ هو نظمَ قبلَ ذلك بستِ سنواتٍ قصيدَته الشهيرة:

أخذَ ٱلكرى[4] بِمَعَاقِدِ ٱلأَجْفانِ ... وهفا[5] ٱلسُّرى[6] بِأَعِنَّةِ ٱلفُرْسانِ

فلم يكنْ لِيذهبَ وجهُ الشعرِ عن صبري، ولم يكن لِيغضى عنِ ٱحتذاءِ هذه الصنعةِ البارعةِ ويأخذَ في غيرِها لولَا أنَّ فيهِ طَبْعاً مستقِّلاً يذهبُ إلى كمالِهِ في أسلوبٍ آخرَ كَأُسلوبِ كلِّ زهرةٍ في غُصنِها؛ وأخصُّ أحوالِ صبري أنَّهُ لم يُرِدْ أنْ يكونَ شاعراً فجاءَ أكبرَ من شاعر، وكانَ السببُ الذي صرفَهُ من ناحيةٍ هو نَفَسُهُ الذي جاءَ بِهِ من ناحيةٍ أخرى.

* * *

ينبغُ الشاعرُ بأربعةِ أشياءَ لا بدَّ منها: طريقةُ ٱلدرس ٱلتي عالجَ بها ٱلشعر، وكتبُ هذه ٱلطريقة، وٱلرجالُ ٱلذين هم أمثلَتُها في نفسِه. ثُمَّ... ويا للَّهِ من ثَمَّ هذه، فهي ٱللمحةُ ٱلسماويَّةُ التي تُشرِقُ على فؤادِ ٱلشاعرِ من وجهٍ جميل، وٱلثلاثُ ٱلأولى تُنشِىءُ نبوغاً معروفاً في نوعِهِ ومِقْدارِه، ولكنَّ ٱلأخيرةَ هي طريقُ ٱلقدرِ ٱلتي لا يُعرفُ آخرُها؛ وإذا تجدَّدَتْ في حياةِ ٱلشاعرِ أوِ ٱتصلَتْ تَجدَّدَ بها نبوغُهُ أوِ

---

(١) سفرت: كشفت عن وجهها.
(٢) لاح: بدا وظهر.
(٣) المعمود: المتيّم.
(٤) الكرى: النعاس.
(٥) هفا: خفّ.
(٦) السّرى: السير في الليل.

اَتَّصَل، فعلى قدْرِ ما يُحبُّ تَحبوهُ[1] السماءُ من أسرارِ ٱلجمال، وهي نفسُها أجملُ أسبابِ ٱلشعرِ وأجملُ معانيهِ وأجملُ غاياتِه، فهي هي ٱلمادةُ ٱلتي تُؤَلِّفُ بينَ نفسِ ٱلشاعرِ وبينَ معنى ٱلجمالِ الشعريِّ في هذا ٱلكونِ كلِّهِ؛ وإذا أنت نزعْتَ ٱلنظرةَ وَٱلابتسامة ـ وهما عنصرا تلك ٱلمادة ـ من حياةِ ٱلشاعر، نزعْتَ ٱلحياةَ نفسَها من شعرِهِ فما يبقى منه إلَّا أنَّهُ مقبرةٌ لِلألفاظِ وَٱلمعاني، وتسمعُ شعرَهُ فلا تَجزيهِ[2] بهِ أحسنَ من قولِك: يرحمُك ٱللهُ. . . وصبري لم يدرسِ ٱلشعرَ في ٱلكتبِ أكثرَ مِمّا درسَهُ في ٱلوجوهِ وَٱلعيون، وقد عالجَ هذا ٱلشعرَ في بِدايتِهِ لِيتأتَّى إليهِ من طُرُقِهِ ٱلبعيدة؛ أمَّا ٱلرجالُ الذين كانوا أمثلَتَهُ فكانوا رجالَ ٱلظرْفِ وَٱلرِّقَّةِ وٱلنكتةِ ٱلمِصْريَّةِ ٱلشهيرةِ ٱلتي ٱنفردَ بها ٱلطبعُ ٱلمِصْرِيُّ ونصَّ عليها علماءُ ٱلبلاغة، كَٱلسَّكاكي وغيره؛ بلْ كانَ عصرُهُ كلُّهُ عصرَ هذه ٱلنكتةِ، فتحوَّلَتْ في طبعِهِ ٱلرقيقِ ٱلمُبتكرِ تَحوُّلاً رقيقاً مبتكراً أرجعَها إلى ٱلظرفِ ٱلمحضِ ٱلذي ٱجتمعَتْ فيهِ كلُّ طِباعِهِ كما يجتمعُ ٱلسحابُ منَ ٱلماء.

ولقد كانَ في شعرِهِ أحقُّ ٱلناسِ بقولِ ٱبنِ سعيدِ ٱلمغربيّ:

أسكانَ مصرَ جاوَرَ ٱلنيلُ أرْضَكُمْ ... فأكسبَكُمْ تلكَ ٱلحلاوةَ في ٱلشِّعْرِ
وكانَ بتلكِ ٱلأرضِ سِحْرٌ فما بقي ... سوى أثرٍ يبدو على ٱلنظمِ وٱلنثرِ

وإنِّي أعلمُ أنَّهُ كانَ دائمَ ٱلحُبِّ: يمزجُ ذكرى ماضيهِ بحاضرِهِ فيخرجُ منهما حُبًّا جديداً؛ وكان الرجلُ كأنَّهُ مجروحُ ٱلقَلْب، فلا يزالُ يَئِنُّ حتى في بعضِ أنفاسِهِ، إذْ يُرسِلُ ٱلنفسَ ٱلطويلَ بين هنيهةٍ وأخرى كأنَّهُ يُريدُ أنْ يُطْمَئِنَ أنَّ نفسَهُ فيه، أو أنَّ شيئاً باقياً في نفسِه؛ وتلك همهمةٌ لا تكونُ في شاعرٍ مِنَ ٱلشعراءِ بِغيرِ معنًى.

كانَتِ ٱلنظرةُ وٱلابتسامةُ تتمثَّلُ لَهُ حيثُ شاءَ وتعترضُهُ حيْثُ أرادَ أنْ يَراها، فيَجِدُ في كلِّ شيءٍ روحاً مِنَ ٱلشعر، ويقرأُ لَمَحاتِها متى ٱلتمعَتْ[3]، وكانَ يعيشُ في ذاتِ نفسِهِ كأنَّهُ معنًى في قصيدةٍ هو أميرُ أبياتِها.

فشاعرُنا هذا أخرجَهُ ٱثنان: ٱلظرفُ وٱلجمالُ؛ وهذا سرُّ إبائِهِ أنْ يُعدَّ مِنَ ٱلشعراءِ لِأنَّهُ أرفعُ من أنْ يدخلَ بينَهم في هذه ٱلمِحْنةِ وٱلبَلْوى ٱلتي ٱبتلُوا بها. . .

ولقد هَمَّ صبري في أواخرِ عمرِهِ بِمحوِ شعرِهِ لو أنَّهُ كان في مِنالِ يدِهِ، على

---

(١) تحبوه: تعطيه.

(٢) تجزيه: تحسن إليه.

(٣) التمعت: خطرت على باله.

أنَّهُ محا منه بإهمالِهِ أكثرَ مِمَّا أثبَت؛ وعَلِمْتُ منه أنَّهُ لم يُدوِّنْ شيئاً، وأنَّهُ ينسى ما يقولُه، فكأنَّهُ يُوجِدُ بسببٍ واحدٍ ويمحقُ بسببين؛ وقديماً كانَ كِبارُ ٱلعلماءِ متى ٱنتهَوْا إلى ٱلتحقيقِ رأَوْا عمرَهم كُلَّهُ بدايةً ورأَوْا ما فعلوا باطِلاً فغسلُوا كُتبَهُم أو أحرقوها، ولكنَّا لم نعرفْ هذه ٱلطبيعةَ في شاعرٍ بعدَ عصرِ ٱلكتابةِ وٱلتدوين، وإنْ كانَ بعضُهُم يأنفُ لِنفسِهِ أنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلشعراءِ وهو مع ذلك يجمعُ يدَهُ على شعرِهِ، كٱلشريفِ ٱلرضي ٱلذي يقول:

مالَكَ تَرْضَى أنْ تُعَدّ شاعراً ... بُعداً لَها مِنْ عَدَدِ ٱلفضائِلِ

ويقولُ في مدحِ أبيه:

إنِّي لأَرضَى أنْ أراكَ مُمَدَّحاً ... وعُلاكَ لا ترضى بِأنِّي شاعرُ

ومثلُهُ أبو طالبٍ ٱلمأمونيُّ وآخرون يدَّعونَ ذلك دعوى وفي ألسنتِهِم ما ليسَ في قلوبِهِم.

ولإفراطِ صبري في ٱلظرْفِ وٱلجمالِ وقِيامِ شعرِهِ على هذينِ ٱلركنين، جاءَ مُقِلّاً من أصحابِ ٱلقِصار، وزادَ إقلالُهُ في قِيمةِ شعرِه، فخرجَتْ مقاطيعُهُ مخرجَ ٱلشيءِ ٱلطريفِ ٱلذي يُتعجَّبُ منه في وجودِهِ أكثرُ مِمَّا يُتعجَّبُ منه لِقِلَّةِ وجودِه؛ وبذلك ربحَ تعبَ ٱلمُكْثرينَ وٱلمُطيلين، إذْ كانَ لا يقولُ إلَّا فيما تُؤَاتيهِ ٱلسجيَّةُ[1] وينزعُ لَهُ ٱلطبع، فيدنو مأخذُهُ ويكثرُ بِقليلِه ويرمي منه بِمثلِ ٱلحُجَّةِ وٱلبُرْهان، فيطمِسُ بِهِما على كلامٍ طويلٍ وجَدَلٍ عريض.

ولا يعيبُ ٱلمُقِلَّ أنَّهُ مُقِلٌّ إذا كَثُرَتْ حسناتُه، بلْ ذلك أعونُ لَهُ على ٱلقلوبِ وٱلنفوسِ إذا أصابَتْ في شعرِهِ ما يُغريها بِطَلَبِ ٱلمزيدِ منه؛ وقد عدُّوا بينَ ٱلمُقلينَ في ٱلجاهلية: طرفةَ بْنَ ٱلعبد، وعبيدَ بْنَ ٱلأبرص، وعلقمةَ ٱلفحل، وعديَّ بْنَ زيد، وسلامةَ بْنَ جَنْدل، وحصينَ بْنَ ٱلحُمام، وٱلمتلمس، وٱلحارثَ بْنَ حِلِّزة، وٱبْنَ كلثوم، وغيرَهم أتينا على أسمائِهِم في ٱلجزءِ ٱلثالثِ من (تاريخُ آدابِ ٱلعرب)؛ ومن أولئكَ مَنْ يُعْرَفُ بِٱلقصيدةِ ٱلواحدةِ: كطرفة، ومنهم مَنْ يُعرفُ بثلاثِ قصائد: كعلقمة، أو بأربع: كعدي بْن زيد؛ ومنهم مَنْ يُعرفُ بِالأبياتِ ٱلمتفرِّقة، ولا عِبرةَ بِمَا يُنسبُ إليهم عندَ غيرِ ٱلمصححين وأهلِ التحقيق، فإنَّ ٱلحملَ على شعراءِ ٱلجاهليَّةِ كثير؛ وقد يعرفونَ ٱلشاعرَ بِٱلبيتِ ٱلفَرْد، لِأنَّ ٱلعربَ

---

(١) السجية: الطبعية دون تصنّع.

إنَّما يعتبرون ٱلشعرَ بِمقدارِ ما يُحرِّكُ من ميزانِهِ ٱلطبيعيِّ ٱلذي هو ٱلقلْب، لا بِٱلطولِ ولا بِٱلقصر، وقد قالوا في بيتِ ٱلنابغة:

ولسْتَ بمستبقٍ أخاً لا تلُمُّهُ … على شَعَثٍ، أيُّ ٱلرجالِ ٱلمهذَّبُ؟

إنَّهُ لا نظيرَ لَهُ في كلامِ ٱلعرب؛ وما ذلكَ إلَّا على ٱلاعتبارِ ٱلذي أشرْنَا إليه. وكانوا يسمون ٱلبيتَ ٱلواحدَ: يتيماً، فإذا بلغَ ٱلبيتينِ والثلاثةَ فهيَ نتفة، وإلى ٱلعشرةِ تُسمَّى قطعة، وإذا بلغَ ٱلعشرينَ ٱستحق أنْ يُسمَّى قصيداً.

وكانَ مِنَ ٱلشعراءِ مَنْ يعتمدُ أنْ لا يجيءَ في شِعرِهِ ٱلجيِّدِ بِغيرِ ٱلبيتينِ وٱلثلاثةِ إلى ٱلقطعِ ٱلصغيرة، كشاعرِنا صبري باشا؛ ومنهم عقيلُ بْنُ عُلّفة: كانَ يقصرُ هِجاءَهُ ويقول: يكفيكَ مِنَ ٱلقِلادةِ ما أحاطَ بِٱلعنق. ومنهم أبو ٱلمهوّس، وكان يحتجُّ لذلك بأنَّهُ لم يجدِ ٱلمثلَ ٱلنادرَ إلَّا بيتاً واحداً، ولم يجدِ ٱلشعرَ ٱلسائرَ إلَّا بيتاً واحداً؛ ومنهُمُ ٱلجمّاز: قالَ لَهُ بعضُهُم وقد أنشدَهُ بيتين: ما تَزيدُ على ٱلبيتِ وٱلبيتين؟ فقال: أردْتُ أنْ أُنشدَكَ مُذارعة؟؟؟ وٱبنِ لَنكَكِ ٱلمصريِّ، وٱبنِ فارس، ومنصورِ ٱلفقيهِ ٱلذي كانَ يُقالُ فيه: إذا رمحَ بزوجيهِ قتل. ولا نستقصي في هذا فَلْندعْهُ فإنَّ لَهُ موضعاً.

غيرَ أنَّ صبري كانَ لَهُ مع جُودةِ ٱلمقاطيعِ جودةُ ٱلقصيدِ إذا قصَّد، كقوم عُرفوا بذلك في ٱلتاريخ، منهُمُ ٱلعباسُ بْنُ ٱلأحنفِ وسِواهُ، وكانَ من أسبابِ إقلالِهِ ما أعلمَني بِهِ من أنَّ طريقتَهُ في أكثرِ ما ينظمُ معارضةُ معنًى يقفُ عليه، أو تضمينُ حِكمة، أو ضَرْبُ مَثَلٍ على طريقةِ ٱلنظرِ وٱلملاحظة، أو تدوينُ خَطْرةٍ عرضَتْ لَهُ، أو لمحةٍ أُوحيَتْ إليه؛ وهو ينزلُ في ذلك على ٱلنصفةِ وٱلمعدلةِ فلا ينتحلُ شيئاً ليسَ لَهُ، بلْ يدلّكُ بنفسِهِ على ٱلأصلِ ٱلذي منه أخذَ أوِ ٱلمثالِ ٱلذي عليهِ ٱحتذى.

قالَ لي مرةً إنَّ ٱلبستانيَّ عقدَ حِكمةً فارسيةً في قولِه:

قضيْتَ إلهي بِٱلعذابِ فيا تُرى … بأيِّ مكانٍ بِٱلعذابِ تُدينُ[1]

وليسَ عذابٌ حيثما أنت كائنٌ … وأيُّ مكانٍ لَسْتَ فيهِ تكونُ؟

ثُمَّ قال: فأخذْتُ من هذا ٱلمعنى وقلْت:

يا ربِّ أينَ تُرى تُقامُ جهنمُ … لِلظالمينَ غداً ولِلأشرارِ

---

(١) تدين: تحكم وتقضي.

لم يُبقِ عفوُكَ في ٱلسمواتِ ٱلعُلَى ... وٱلأرضِ شِبْراً خالياً لِلنارِ
يا ربِّ أهِّلْني لِفضلِكَ وٱكفِني ... شَطَطَ ٱلعقولِ[1] وفِتنةَ ٱلأفكارِ
ومُرِ ٱلوجودَ يشفَّ عنكَ لكي أرى ... غَضَبَ ٱللطيفِ ورحمةَ ٱلجبَّارِ
يا عالِمَ ٱلأسرارِ حسبيَ مِحْنَةً ... عِلْمي بِأنَّكَ عالمُ ٱلأسرارِ

وٱلفرقُ بين ٱلشعرين أنّ ٱلبستانيَّ جاءَ بِكلامِهِ على طريقةِ ٱلمتصوِّفةِ ٱلتي يسمونَها طريقةَ أهلِ ٱلتحقيق، كٱبنِ ٱلعربي وٱلشُّشتري؛ وأما صبري فٱنظرْ كيف ٱستوفى وكيف لأَءَمَ ٱلمأخذَ ٱلدقيقَ ٱلذي لا ينتبِهُ لَهُ إلّا المُطَّلِعُ ٱلحاذقُ بِصِناعةِ ٱلكلام، كقوله:

إذا ما صديقٌ عَقَّني[2] بِعَداوةٍ ... وفوَّقْتُ يوماً في مقاتلهِ سَهمي
تعرَّضَ طيفُ ٱلوُدِّ بيني وبينَهُ ... فَكَسَّرَ سهمي فٱنثنيْتُ ولم أرمِ

فهذا ينظرُ إلى قول الحارثْ بنِ وَعلة:

قومي هُمُ قتلوا أُميمَ أخي ... فإذا رَمَيْتُ يُصيبُني سَهْمي

ولكنَّهُ ليسَ بذاك؛ فإنَّ أساسَ ٱلمعنى قولُهُ: «تعرَّضَ طيفُ ٱلودِّ بيني وبينَه» وهو من قولِ ٱلعباسِ بْنِ ٱلأحنف:

وإذا مَدَدْتُ طَرْفِي[3] إلى غيـ ... ـرِكَ مُثِّلْتَ دونَهُ فأراكا

فتأملْ كيفَ أبدعَ في ٱنتزاعِ ٱلمعنى وكيفَ جعلَ لَهُ معرضاً جديداً وكيفَ أدَّاهُ أحسنَ تأديةٍ في ألطفِ وجهٍ كأنَّه شيءٌ مخترَع.

ومن شعرِهِ ٱلسائرِ قولُهُ في ٱلعِناقِ وتلازمِ ٱلحبيبين:

ولمَّا ٱلتقَيْنا قرَّبَ ٱلشوقُ جُهْدَهُ ... شجيَّينِ[4] فاضا لوعةً وعِتابَا
كأنَّ صديقاً في خِلالِ صديقِهِ ... تَسَرَّبَ أثناءَ ٱلعِناقِ وغابَا

وهذا ٱلمعنى على إبداعِهِ فيهِ متداول، وأصلُهُ لِبشار ـ أظنُّ ـ في قولِهِ:

وبِتْنَا جميعاً لو تُراقُ زجاجةٌ ... مِنَ ٱلخمرِ فيما بينَنَا لم تَسرَّبِ[5]

فأبدعَ صبري في أخذِهِ وجعلَ من هذه ٱلزجاجةِ ٱلمنصدعةِ جوهرةً تتألَّق؛

---

(١) شطط العقول: خروجها ومغالاتها وبعدها عن المألوف.
(٢) عقّني: تركني وأنكر صحبتي وحقي عليه.
(٣) الطَّرْف بتسكين الراء: النظر.
(٤) شجيين: مشغولين.
(٥) لم تسرّب: لم تسل لتلاصقهما.

على أنّي لا أستحسنُ قولَهُ: «كأنَّ صديقاً. . .» فما هذا بعِناقِ ٱلأصدقاء، ولو كانَ ٱلصديقُ راجعاً من سَفَرِ ٱلآخرة؛ وإذا غابَ واحدٌ في ٱلآخر، فٱلآخرُ حاملٌ به. . . وقد أخذْتُ أنا هذا ٱلمعنى منه، ولولاهُ ما ٱهتديْتُ إليه، فقلْتُ في ذلك:

ولَمَّا ٱلتقَيْنا ضَمَّنا ٱلحُبُّ ضَمَّةً بها كلُّ ما في مهجتَينا مِنَ ٱلحُبِّ
وشدَّ ٱلهوى صدراً لِصَدْرِ كأنَّما يُريدُ ٱلهوى إنفاذَ قلْبٍ إلى قَلْبِ

* * *

وأحسنُ ما تجدُ شعرَ صبري في ٱلغزلِ وٱلنسيبِ وٱلوصفِ وٱلحِكْمة، فهي عناصرُ قلبِهِ وذوقِهِ، ولا يتصرَّفُ معَهُ أقوى ما يتصرَّفُ إلّا في هذه ٱلأغراض، ولعلَّهُ إنْ جاوزَها[1] قصَّرَ معه شيئاً ما وضعُفَتْ أداتُهُ ضعفاً ما، لِأنَّهُ يكونُ شاعرَ ٱلصنعةِ وهو يأباها ويكرَهُ أنْ يكونَ شاعراً من أجلِها؛ وقلَّما يُجاريهِ أحدٌ في تلك ٱلأغراض، وهو ٱلذي فتحَ أبوابها؛ وحسبُكَ أنَّهُ ٱلمِثالُ ٱلذي ٱحتذى[2] عليهِ شوقي بك؛ وقد ينقسمُ ٱلمعنى ٱلواحدُ في رجلينِ حينَ يقدر، فإذا لم يُوجِدْ أحدَهما لم يوجِدِ ٱلآخر، وأنا أرى وأعلمُ أنَّهُ لولا صبري لَمَا نبغَ شوقي، وكانَ هذا يختلفُ إليهِ يعرضُ عليهِ شِعْرَهُ ويرجعُ بآثارِ ذوقِهِ فيه، وكذلك كانَ يفعلُ خليفةُ ٱلباروديّ حافظُ بك إبراهيم: وٱسترفدَ شوقي من صبري باشا هذا ٱلبيتَ ٱلسائر:

صوني جَمالَكِ عنَّا إنَّنا بَشَرٌ مِنَ ٱلترابِ وهذا ٱلحسنُ روحاني

فهو لِصبري باشا، وٱلمرافدةُ سُنَّة معروفةٌ من قديم، وهي غيرُ ٱلانتحالِ وغيرُ ٱلسرقةِ وما يُسمَّى إغارةً وغَصْباً؛ وقدِ ٱسترفَد ٱلنابغةُ زهيراً فأمرَ ٱبنَهُ كعباً فرفدَهُ، وٱلحكايةُ في ذلك مشهورةٌ عنه وعنْ سواه.

ولم يكنْ في مِصْرَ ممَّنْ يُحسنُ ذوقَ ٱلبيانِ وتمييزَ أقدارِ ٱلألفاظِ بعضِها من بعضٍ وألوانِ دلالتِها كٱلباروديِّ وصبري وإبراهيمَ ٱلمويلحيِّ وٱلشيخ محمد عبده، رحمهم الله جميعاً ـ؛ وٱلباروديُّ يذوقُ بِٱلسليقة، وصبري بِٱلعاطفة، وٱلمويلحيُّ بِٱلظرف، وَٱلشيخُ بِٱلبصيرةِ ٱلنفَّاذة؛ وذلك شيءٌ ركَّبهُ ٱللَّهُ في طبيعةِ صبري لم يُحصِّلْهُ بِٱلدرسِ أكثرَ مِمَّا حصَّلَهُ بِٱلحسّ، ومن أجلِهِ كانَ يفضلُ ٱلبحتريَّ على غيرِه، وهو بلا نِزاعٍ بُحتريُّ مِصْر، كما لقبوا ٱبنَ زيدون بحتريَّ ٱلمغرب؛ وإنَّك لَتَجِدُ بعضَ ٱلألفاظِ في شعرِ ٱلرجلِ كأنَّها شِعْرٌ مَعَ ٱلشعر، فتقفُ على ٱلعِبارةِ منها

---

(١) جاوزها: تخطّاها. (٢) احتذى: قلّد ونحا نحوه

وقلبُكَ يتنفسُ عليها كأنَّها إنَّما وُضِعَتْ لِقَلْبِكَ خاصَّة، فهي تغمزُ عليهِ غمزاً وكأنَّها نفثةُ مَلَكٍ مِنَ ٱلملائكةِ جاءَتْكَ في نفسٍ من أنفاسِ ٱلجنة.

ويمتازُ نسيبُهُ بأنَّهُ يكادُ يكونُ في طهارتِهِ وعِفَّتِهِ ضوءاً من جمالِ ٱلشمسِ وٱلقمر، وهو عندي أنسبُ مِنَ ٱلعباسِ بْن ٱلأحنفِ ٱلذي صَرَفَ كلَّ شعرهِ إلى هذا ٱلمعنى؛ ولو أنَّ عصرَهُ كانَ عصرَ أدبٍ صحيح لَأَخملَ كلَّ شعراءِ هذا ٱلبابِ، مِنِ ٱبنِ أبي ربيعةَ إلى طبقةِ عُشاقِ ٱلعربِ إلى أئمةِ ٱلطريقةِ ٱلغراميَّةِ لِآخرِ ٱلقرنِ ٱلسابع.

ومن غزلِهِ ٱلبديعِ قولُه:

يـا مَـنْ أقـامَ فـؤادي إذْ تـمـلَّـكَـهُ ... ما بينَ نارينِ من شوقٍ ومن شَجَنِ[1]
تفديك أعينُ قومٍ حولَكَ ٱزدحَمَتْ ... عطَشى إلى نَهلةٍ من وجهِكَ ٱلحَسَنِ
جـرَّدْتَ كُـلَّ مَـلِـيِّـحٍ مِـنْ مَـلَاحَـتِـهِ ... لـم تـتَّـقِ فـي ظـبـي ولا غُـصْـنِ

وقولُه:

أَقْصَرَ فُؤادي فما ٱلذكرى بنافِعَةٍ ... ولا بِـشَـافِـعَـةٍ فـي رَدِّ مـا كَـانَـا
سَلَا ٱلفؤادَ ٱلذي شاطرتَهُ[2] زَمَناً ... خَفَقَ ٱلصبابَةِ فَٱخفِقْ وَحْدَكَ ٱلآنَا

ويا رحمةَ ٱللَّهِ لِلقلبِ ٱلذي يفهمُ هذا ٱلبيت، فإنّهُ لَيُجنُّ بِهِ مَنْ يكونُ فيهِ ٱستعدادٌ لِهذا ٱلنوعِ مِنَ ٱلجنون.

ومن قلائدِهِ ٱلغراميَّةِ قولُه:

يا آسِيَ ٱلحيّ هَلْ فتَّشْتَ في كبدي ... وَهَـلْ تـبـيَّـنْـتَ داءً فـي زَوَايـاهَـا
أَوَّاهُ مِـنْ حُـرَقٍ أَوْدَتْ بِـمُـعْـظَـمِـهَـا ... ولَـمْ تَـزَلْ تَـتَـمَـشَّـى في بَـقَـايَـاهَـا
يا شَوْقُ رِفْقاً بِأَضْلَاعٍ عَصَفْتَ بِهَا ... فَٱلقلْبُ يَخْفُقُ ذُعْراً[3] في حَنَايَاهَا[4]

ولهُ قصيدةٌ (تمثالُ جمال) وقد نظمَها لِتُنْقَلَ إلى ٱلفرنسويَّة، ومن عيونِها قولُه:

وٱبْـتـسـمـي، مَـن كـانَ هـذا ثـغـرُهُ ... يـمـلأُ ٱلـدنـيـا ٱبـتـسـامـاً وٱزْدهـاءْ
لا تـخـافـي شَـطَـطـاً مـن أنـفـسٍ ... تـعـثـرُ ٱلـصـبـوةُ فـيـهـا بِـٱلـحـيـاءْ
راضَـتِ ٱلـنـخـوةُ مـن أخـلاقِـنـا ... وٱرتـضـى آدابَـنـا حـسـنُ ٱلـولاءْ[5]

---

(١) شجن: حزن.
(٢) شاطرته: شاركته.
(٣) ذعراً: رعباً.
(٤) حناياها: جنباتها وأضلاعها.
(٥) الولاء: الصحبة.

فـلـوِ ٱمـتـدَّتْ أمـانـيـنـا إلـى ... مـلـكٍ مـا كـدَّرَتْ ذاك ٱلـصـفـاء

والشعراءُ من أولِ تاريخ ٱلأدبِ إلى ٱليومِ يقولون في معنى قولِهِ «لا تخافي شططاً» الأبيات، وما منهم مَنْ وُفِّقَ إلى مثلِ هذا ٱلبيتِ الأخير، وإنْ كانَ بعضُهُم بلغَ ٱلغاية، كٱبنِ نباتَة ٱلسعديِّ وٱلسري ٱلرفَّاء وغيرِهما.

ومن أبدعِ ما ٱتَّفقَ لَهُ في ٱلوصفِ أبياتٌ في ٱلدواةِ تخلَّصَ في آخرها إلى مدحِ ٱلنبيِّ ﷺ، وهو تخلُّصٌ ليسَ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ كلِّهِ مثلُهُ في ٱلإبداعِ وحُسْنِ ٱلاختراع، يقولُ فيها:

أكرمي ٱلعِلْمَ وٱمنحي خادميهِ ... ماءَكِ ٱلغالي ٱلنفيسَ ٱلثمينَا

وٱبذلي ٱلصافي ٱلمطهَّرَ منهُ ... لِهُداةِ ٱلسرائرِ ٱلمُرْشِدينَا

وإذا ٱلظلمُ وٱلظلامُ ٱستعانا ... يومَ نَحْسٍ بأجهلِ ٱلجاهلينَا

وٱستمدَّا مِنَ ٱلشرورِ مداداً ... فٱجعليه من قِسْمَةِ ٱلظالمينَا

وٱقذفي ٱلنقطةَ ٱلتي باتَ فيها ... غضبُ ٱلقاهرِ المذلِّ كمينَا

لِيراعٍ[1] ٱمرئٍ إذا خطَّ سطراً ... نبذَ ٱلحقَّ وٱرْتَضَى ٱلْمَيْنَ[2] دِينا

وإذا كانَ فيكِ نقطةُ سوءٍ ... كوِّنتْ من خباثةٍ تكوينَا

فٱجعَليها قِسْطَ ٱلذينَ ٱستباحوا ... في ٱلسياساتِ حُرْمَةَ ٱلأضعفينَا

وإذا خِفْتَ أنْ يكونَ مِنَ ٱلصخْـ ... ـرِ جلاميدُ ترجمُ ٱلسامعينَا

فٱبخلي بِٱلمِداد بُخْلاً وإنْ أُعطيـ ... ـتِ فيهِ ٱلمئينَ ثُمَّ ٱلمئينَا

فإذا أعْوَزَ ٱلمِدادُ طبيباً ... يَصِفُ ٱلداءَ دائباً مستعينَا

فٱمنَحيهِ ٱلمُرادَ مَناً وعُرْفاً ... وٱستطيبي معونةَ ٱلمُحْسِنِينَا

وإذا مهجةُ ٱلحمائمِ أَسْدَتْ[3] ... نُقْطَةً سَرَّها ٱلزكيُّ ٱلمصونَا

فٱجعليها على ٱلمودَّاتِ وقفاً ... وَهَبيها رسائلَ ٱلشَّيِّقينَا

فإذا لم يكنْ بِقَلْبِكِ إلَّا ... ما أعدَّ ٱلإخلاصُ لِلْمُخلصينَا

فٱجعليهِ حظِّي لِأَكْتُبَ منهُ ... شرحَ حالي لِسيِّدِ ٱلمرسلينَا

هذا واللَّهِ هوَ ٱلشعر، وما وُفِّقَ إلى مثلِهِ أحدٌ كائناً مَنْ كانَ في هذا ٱلعصر.

* * *

---

(١) اليراع: القلم.

(٢) المين: الظلم.

(٣) أسدت: قدّمت.

ولا نُطيلُ بِٱلنقلِ من شعرِهِ وتتبُّع أغراضِهِ، فهو كٱلألماسِ في ٱلشمس: يَشِعُّ من كلِّ جِهة، ولا يختلفُ ضوءُهُ إلَّا في بعضِ ٱللونِ مِمَّا يكونُ ٱلأجملَ فيما كلُّهُ جمال، ويمجُّ[1] مِنَ ٱلشعاعِ ما لا تجدُ حُسْنَهُ في ٱلشعاعِ نفسِه، وأحياناً يرِقُّ كبعضِ ٱلبلورِ فيمتصُّ حرارةَ ٱلشمسِ ويستوقِدُ بها في ذاتِهِ لِيُضْرِمَ ما وراءَ قلبِه، وما وراءَهُ إلَّا قلوبُنا ٱلحزينةُ عليهِ ـ رحمَهُ الله ـ!.

* * *

(١) يمج: يحتسي مجًا.

حافظ إبراهيم

فرغْتُ ٱلآنَ من قراءةِ شِعْرِ حافظٍ بعدَ أنْ لم يَعُدْ حافظٌ بينَنا إلَّا شعرُهُ ونثرُهُ، فبِٱللَّهِ أحلفُ ما نظرْتُ في صفحةٍ مِمَّا بين يديَّ إلَّا وأحسْستُ أنَّ ذلك ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ يقولُ في بيانِهِ ٱلرائعِ وصِناعتِهِ ٱلبديعة: أنا هُنا!

ولغةُ هذا ٱلشعرِ ٱلمتدفِّقةُ بِٱلحياةِ كأنَّ كلماتِها ٱلقويَّةَ عروقٌ في جِسمٍ حيٍّ متوثِّبٍ ـ لم تخرجْ عن أنْ تكونَ هيَ ٱلعربيَّةَ ٱلمُبينةَ في جزالتِها ونَصاعتِها ودِقَّةِ تركيبِها ٱلبيانِيّ، ومعَ ذلك فليسَ في هذا ٱلعصرِ كلِّهِ مَنْ يُكابرُ أو يُماري في أنَّها هيَ لغةُ حافظٍ وحدَه، كأنَّهُ أرغمَ ٱلتاريخَ أنْ يحتفِظَ بِهِ في أجملِ آثارِهِ.

وأنا أعرفُ في شعرِهِ مواضعَ مِنَ ٱلاضطرابِ وٱلضَّعْفِ وٱلنقصِ سأُشيرُ إلى بعضِها، ولكنِّي على ما أعرفُهُ أجدُ هذا ٱلشعرَ كَٱلتيَّارِ يعُبُّ عُبابُهُ[1] لا يُبالي ما تناثرَ منهُ وما ركدَ وما وقعَ في غيرِ موقعِه، إذْ كانَتْ عظمتُهُ في ٱجتماعِ مادتِهِ لا في أجزاءٍ منها، وفي ٱلسرِّ ٱلذي يدفعُها في كلِّ مَوْضِعٍ لا في ٱلمظهرِ ٱلذي تكونُ بِهِ في مَوْضعٍ دون مَوْضِعٍ؛ فهو أبداً يقولُ لِمَنْ يتصفَّحُ عليهِ أو ينتقِدُه: ٱنظرْ لِمَا بَقِي.

***

ترجعُ صداقتي لِحافظٍ ـ رحمَهُ الله ـ إلى سنة ١٩٠٠، أولِ عهدي بِالأدبِ وطلبِه، وقد شَهِدْتُ من يومئذٍ بِناءَهُ ٱلأدبيَّ عالياً فعالياً إلى ٱلذروةِ ٱلتي ٱنتهى إلَيها، وأخلصَ لي ثِقتَهُ وأَصْفاني مودَّتَه، وكان هَمَّكَ من أخٍ كريم، ولَهُ في نفسي مكانٌ لم يُنكرْهُ مذْ عرفْتُه، ولم يضقْ بِمَحبتِهِ منذُ ٱتَّسعَ لها. وكنْتُ وإيَّاهُ يرى أحدُها ٱلآخرَ من هذه ٱللغةِ كٱلجانبينِ لِصورةٍ واحدة: لا يتهيَّأُ في ٱلطبيعةِ أنْ يختلفا وٱلصورةُ بعدُ قائمة، ولا أنْ يضطرِبَ ما بينَهما وٱلصورةُ منهما على وزنٍ وتقدير.

ولكنَّ هذا لا يمنعُني أنْ أقرِّرَ أنَّهُ كانَ عندي أكبرَ من شعرِهِ ـ ولعلَّهُ كذلك عندَ كلِّ مَنْ خلطُوهُ بِأنفسِهِم ـ فإنَّهُ يتعاظمُكَ بِنفسِهِ ٱلقويَّةِ وبِٱلمعنى ٱلذي تُحسُّهُ في

---

(١) العباب: اليمّ.

العبقريِّ ولا تدري ما هو؛ وذلك من سِحْرِ ٱلعبقريِّين وأثرِهِم في نفسِ مَنْ يتَّصلُ بِهِم، فيتَّسقُ لهم أمرانِ من أمرٍ واحد، وحظَّانِ بحظٍّ، ونصيبانِ بنصيب؛ لِأنَّ مَعَ ٱلإعجابِ بآثارِهم إعجاباً آخرَ بِٱلقوَّةِ ٱلتي أبدَعَتْ هذه ٱلآثار؛ ففي ذواتِهِمُ ٱلمحبوبةِ يستمرُّ ٱلإعجابُ كٱلسائرِ على طريقٍ لا مَوْقِفَ عليه، وفي آثارِهِم يكونُ ٱلإعجابُ في موقفٍ قدِ ٱنتهتِ ٱلطريقُ بِهِ فوقفَ على حدٍّ إنْ بَعُدَ وإنْ قرُب.

لا جَرَمَ كانَ شاعرُنا عبقريًّا عجيبَ ٱلصنعةِ قويَ ٱلإلهام بليغَ ٱلأثرِ في عصرِه، يُشبهُ تحوُّلاً وقعَ في صورةٍ من صورِ ٱلتاريخ، ولكنَّهُ كذلك في مذاهبَ[1] مِنَ ٱلشعرِ دون غيرِها، فلم يكنْ معَهُ مِنَ ٱلتمامِ في فنونِ ٱلشعرِ ما يكونُ بِهِ ٱلشاعرُ ٱلتامُّ أوِ ٱلأديبُ ٱلكاملُ ٱلأَداة؛ وكم من مرَّةٍ كَلَّمْتُهُ في ذلك ونبهتُهُ إلى أنَّهُ كٱلنمطِ ٱلواحد، وأنَّهُ يجبُ أنْ يترسَّلَ شعرُهُ بينَ ٱلنفوسِ ٱلإنسانيَّةِ وأغراضِها ٱلكثيرةِ ٱلمختلِفة، فإذا كانَتِ ٱلسياسةُ مِنَ ٱلحياةِ فليسَتِ ٱلحياةُ هيَ ٱلسياسة، ولا ينبغي أنْ يكونَ شعرُهُ كلُّهُ كشمسِ ٱلصيف، فإنَّ لِلربيعِ شمساً أجملَ منها وأحَبَّ كأنَّها مجتمعةٌ من أزهارِهِ وعِطْرِهِ ونسيمِهِ.

ولقد كانَ يفخرُ بأنَّهُ (ٱلشاعرُ ٱلاجتماعيُّ)، وهذا لقبٌ ميَّزهُ بِهِ صديقُنا ٱلأستاذُ محمدُ كرد علي أيامَ كانَ في مِصْرَ قديماً، فتعلَّقَ بِهِ حافظٌ ورآهُ تعبيراً صحيحاً لِمَا في نفسِهِ ولِلْمَلَكةِ ٱلتي ٱختُصَّ بها، قالَ لي يوماً في سنةِ ١٩٠٣: أنا لا أَعُدُّ شاعراً إلَّا مَنْ كانَ ينظمُ في ٱلاجتماعيَّات. فقلْتُ لَهُ: وما لَك لا تقولُ بِٱلعِبارةِ ٱلمكشوفة: إنَّك لا تَعُدُّ ٱلشاعرَ إلَّا مَنْ ينظمُ مقالاتِ ٱلجرائِد..

ولا بُدَّ لي أنْ أُبَسِّطَ هذا ٱلمعنى في هذا ٱلفصل، فإنَّهُ كانَ يُخيَّلُ إليَّ دائماً أنَّ شاعرَنا (حافظ) خُلِقَ لِلتاريخ في أصلِ طبيعتِه، ثُمَّ زِيدَتْ فيهِ موهبةُ ٱلشعرِ لِيكونَ مُؤَرخاً حيَّ ٱلوصفِ بليغَ ٱلتأثيرِ قَويَ ٱلتصرُّف؛ ومن ثَمَّ جاءَ أكثرُ ما نظمَهُ وأساسُهُ ٱلتاريخُ وٱلسياسة، وصحَّ لَهُ بهذا ٱلاعتبارِ أنْ يقولَ إنَّهُ ٱلشاعرُ ٱلاجتماعيّ، ولكنَّ مادةَ ٱلشعرِ غيرُ روحِ ٱلشعر، فإذا كانَ في ٱلمادةِ ٱجتماعيٌّ وسياسيٌّ فليسَ في ٱلروحِ إلَّا ٱلشاعرُ على إطلاقِهِ؛ وٱلاجتماعياتُ ليسَتْ كلَّ حقائقِ ٱلحياة، وهيَ بعدَ ذلك معانٍ خاصةٌ محصورةٌ في زمنِها ومكانِها؛ على أنَّ ٱلحقائقَ ليسَتْ هيَ ٱلشعر، وإنَّما ٱلشعرُ تصويرُهَا وٱلإحساسُ بِها في شكلٍ حيٍّ تلبسُهُ ٱلحقيقةُ مِنَ ٱلنفس، فَٱلشاعرُ

---

(١) مذاهب: ضروب، أنواع.

ٱلاجتماعيُّ شاعرٌ في حيِّزٍ محدودٍ من وجوهِ ٱلشعرِ ومذاهبِه، وإذا كانَ ٱلاجتماعُ كلَّ شعرِهِ فلا يُسمَّى شعرُهُ فنًّا، إذْ كانَ ٱلفَنُّ إنسانيًّا وكانَ شاملاً عامًّا؛ وٱلمقاييسُ ٱلتي يطَّرِدُ عليها ٱلفنُّ ٱلأدبيُّ لا تكونُ في ٱلزمنِ ولا في ٱلموضعِ، بلْ في ٱلنفسِ ٱلإنسانيَّةِ ٱلتي لا تُخَصُّ بِوَقتٍ ولا مكان، فإذا لم يكنِ ٱلشعرُ إنسانيًّا عامًّا يُولَدُ كلَّ جيلٍ مِنَ ٱلناسِ فيجدُهُ كأنَّما وُضِعَ لَهُ وٱرتهنَ[1] بِأغراضِهِ وحقائقِه، فهو شعرٌ (كالأَخْبَارِ ٱلمحلِّيَّة)، وهذا وجهُ ٱلشبهِ بينهُ وبينَ ما أشرْتُ إليهِ آنفاً من نظمِ مقالاتِ ٱلجرائد.

فمقالاتُ ٱلجرائدِ هذه لا تأتينا بِٱلأشياءِ ٱلتي نحنُ منها في ٱلإنسانيَّةِ وٱلطبيعةِ وٱلجمالِ وحقائقِ ٱلحياةِ وٱلموْت، بلِ ٱلتي يكونُ منها يومُنا ٱلمرقومُ بأنَّهُ يومُ كذا من شهرِ كذا من سنةِ كذا. . . فإذا ماتَ ٱليومُ ماتَتِ ٱلجريدة، ثُمَّ تُولَدُ ثُمَّ تموت؛ وقد أدركَ ٱلمتنبيّ سِرَّ ٱلشعْرِ وأنَّهُ قائمٌ على تحويلِ ٱلشعورِ ٱلإنسانيِّ إلى معرفةٍ إنسانيَّة، فخلَّدَ شعرَه، فلا يُمكنُ أنْ يمَّحيَ مِنَ ٱلعربيَّةِ مَا بقيَت. وهذا على ما يقدحُ من وجوهِ ٱلاعتراضِ وٱلنقْصِ، وعلى أنَّ ٱلمتنبيَّ كان ضعيفاً في ناحيةِ ٱلجمالِ وٱلحُبِّ ضَعْفاً ظاهراً كضعفِ شاعرِنا حافظٍ في هذا ٱلمعنى، ولكنَّ حِكمتَهُ ٱلإنسانيَّةَ ودِقَّةَ أوصافِهِ وإقامتَهُ ٱلفضائلَ وٱلرذائلَ في كمالِها ٱلفنيِّ مَقامَ تماثيلَ بارعةٍ مِنَ ٱلجمال، كلُّ ذلك ترك شِعرَهُ مستمرًّا بِٱستمرارِ ٱلحياةِ وبِٱستمرارِ ٱلإنسانيَّةِ وبِٱستمرارِ ٱلذوق.

إنَّ هذا ٱلكوْنَ مبنيٌّ في نفسِهِ مِمَّا يعلمُ ٱلعِلْمُ تركيبَهُ ولا يعلمُ سِرَّ تركيبِهِ إلَّا ٱللَّهُ وحدَه، ولكنَّهُ مبنيٌّ في أنفسِنَا من عمل ٱلحواسّ، ثُمَّ مِنَ ٱلتعليلِ وٱلتفسير؛ أمَّا ٱلحواسُّ ففي كلِّ حيّ، لا تُخلَقُ بِصناعةٍ ولا عمل؛ وأمَّا ٱلتعليلُ وٱلتفسيرُ فهما من صِناعةِ ٱلشاعرِ وٱلأديب، فكِلاهُمَا يُخلقُ لإتمامِ ٱلخَلْقِ في ٱلحقيقة، وهي منزلةٌ لا أدري كيف يُمكنُ أنْ تمسخَ حتى تقتصرَ على معنى الشاعرِ ٱلاجتماعيِّ أوِ ٱلسياسيّ، فترجعُ بِهِ نمطاً واحداً، مَعَ أنَّ ٱلآثارَ ٱلأدبيَّةَ وفي جُملتِها ٱلشعر ـ إنْ هيَ إلَّا قوى ٱلفِكْرِ وإلهامُ ٱلنفسِ وبصيرةُ ٱلروحِ مسجلةً كلُّها في بواعِثِها وأسبابِها من نفسٍ عاليةٍ مُمتازة؛ وهذه ٱلقوى كثيرةُ ٱلتحوّل، فيجبُ ضرورةً أنْ تكونَ آثارُها كثيرةَ ٱلتنوع، وتنوعُ ٱلصورِ ٱلفكريَّةِ في آثارِ ٱلشاعرِ أوِ ٱلأديبِ ومجيئُها متوافرةً مُتتابِعةً هو مِعيارُ أدبِهِ وقِياسُ نُبوغِهِ عالياً أو نازلاً، ومُتَّبِعاً أو مُبْتكراً، وفيما يُضيءُ من نواحيهِ وما ينطفىء.

على أنَّ شاعرَنا ٱلاجتماعيَّ (كما كانَ يجبُ أنْ يُوصَفَ ـ رحمه الله ـ) وإنْ

---

(١) ارتهن: ارتبط وتقيّد.

كانَ قد نفخَ في روحِ ٱلشعبِ أنفاساً إلٰهيَّة، وأحسنَ في وصفِ حوادثِهِ وآلامِهِ وعيوبِه، وأبلغَ ٱلبيانَ في كلِّ ذلك ـ فإنَّهُ نزلَ في هذه ٱلمرتبةِ عن وضعِهِ ٱلصحيح، فكانَ في منزلتِهِ بمكانِ ٱلشرطيِّ في ٱلطريق: يقفُ لِلْجرائم وٱلحوادث، على حينِ أنَّ مقامَهُ ٱلاجتماعيَّ مِنَ ٱلشعبِ مقامُ ٱلمُعلِّم في مدرستِه: يجلسُ لِلطباعَ وٱلأخلاق. ليسَ ٱلشأنُ أنْ تجدَ في شعرِ ٱلشاعرِ حوادثَ عصرِهِ أكثرَها أو أقلَّها، فإنَّ فوقَ هذه منزلةً أعلى منها، وهيَ أنْ تُوجَدَ حوادثُ ٱلنهضةِ بِشعرِ ٱلشاعر، وأنْ يكونَ في شعرِهِ ٱلعنصرُ ٱلناريُّ مِنَ ٱللغةِ ٱلشعبيَّة.

على أنَّ (حافظ) ـ رحمه الله ـ أدركَ كلَّ هذا في آخرِ عهدِه، فكانَ يُريدُ أنْ يُميتَ ديوانَهُ ويستخرجَ منه جزءاً صغيراً يختارُ فيهِ ألفَ بيتٍ ويُسقِطُ ما عداها وإن... وإنْ كانَ فيهِ شعرٌ ٱجتماعيّ... ومع هذا ٱلنقصِ ٱلذي بعثَتْ عليهِ طبيعةُ ٱلزمنِ وطبيعةُ ٱلشاعرِ معاً، فإنَّ تمام حافظ في مذهبِهِ ٱلاجتماعيِّ ٱلذي نبغَ فيه جاءَ من وراءِ ٱلقوَّةِ وفوقَ ٱلطاقة، لا يُجاريهِ فيهِ شاعرٌ آخر، بِحيثُ دلَّ على أنَّ ٱلنابغةَ قدَرٌ إلٰهيٌّ لا ينقصُ من عظمتِهِ أنْ يكونَ حادثةً واحدةً تدوِّي دويَّها في ٱلدنيا، فهو مُيَسَّرٌ منذ نشأتِهِ لِمَا خُلِقَ لَهُ من ذلك، فأَحكمَتْهُ ٱلمدرسةُ ٱلحربيَّة، ثُمَّ قيَّدهُ ٱلجيش، ثُمَّ تقاذَفَهُ ٱلسودان، ثُمَّ قذفَ بِه ٱلظلْم، ثُمَّ تولَّاهُ إمامُ عصرِهِ ٱلشيخُ محمدٌ عبده، وهو كذلك في غاياتِهِ ٱلوعِرةِ ومقاصدِهِ ٱلعُمرانيةِ ومعاناتِهِ لإصلاح ـ مدرسةٌ حربيةٌ وجيشٌ وفلاة، فلم يكنْ حافظٌ إلَّا ٱلصوتَ ٱلإنسانيَّ ٱلذي أُعِدَّ بِخصائصِهِ لِلتعبيرِ عن حوادِثِ أُمّتِهِ وخصائصِها، وكأنَّهُ في نقلتِهِ مِنَ ٱلسودانِ إلى مِصْرَ قدِ ٱنتقلَ من جيشٍ يُحاربُ ٱلأقوامَ ٱلأعداءَ لِأُمَّتِهِ، إلى جيشٍ آخرَ يُحارِبُ ٱلمعانيَ ٱلأعداءَ لِأُمَّتِه.

* * *

ولد حافظُ إبراهيم سنةَ ١٨٧١، وكانَ ٱلكتابُ ٱلأولُ ٱلذي هداهُ إلى سِرِّ ٱلأدبِ ٱلعربيّ وأرهفَ ذوقَهُ وأحكمَ طبيعتَهُ، هو كتاب «ٱلوسيلةُ ٱلأدبيَّة» لِلشيخ حسين ٱلمُرصفي، ٱلمطبوعَ في مِصْرَ لِخمسٍ وخمسينَ سنة؛ ففي هذا ٱلكتابِ قرأَ حافظٌ خلاصةً مختارةً محققةً من فنونِ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ في عصورِهِ ٱلمختلفةِ ودرسَ ذوقَ ٱلبلاغةِ في أسمى ما يبلغُ بِها ٱلذوْق، ووقفَ على أسرارِ تركيبِها، وعرفَ منهُ ٱلطريقَةَ ٱلتي نبغَ بها ٱلبارودِيّ، وهيَ قراءتُهُ دواوينَ فُحولِ ٱلشعراءِ مِنَ ٱلعربِ ومَنْ بعدَهم، وحِفظُهُ ٱلكثيرَ منها؛ فبنى شاعرُنا من يومئذٍ قريحتَهُ على ٱلحِفْظ، ولم يزلْ يحفظُ إلى آخرِ عمرِه؛ إذْ كانَتْ قريحتُهُ كآلةِ ٱلتصوير: لا تُنَبَّهُ لِشيءٍ إلَّا عَلِقَتْهُ وهذا

سببٌ من أسبابِ ضعفِ خيالِه، ولكنّه ردَّ عليهِ مِنَ ٱلقوّةِ في ٱللغةِ ما تناهى فيهِ إلى ٱلغاية.

وٱتّفقَ لذلك ٱلعهدِ أنْ طُبِعَتْ لُزومياتُ ٱلمعرِّي في مِصْرَ، فتناولَها حافظٌ وٱستظهرَ أكثرَها، فكانَتْ بَاعِثَ ميلِهِ ونزعتِهِ إلى ٱلشعرِ ٱلاجتماعيّ؛ وٱلفرقُ بين حافظٍ وبينَ ٱلمعرِّيّ في ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ هوَ ٱلذي نفذَ بِٱلمعرّي إلى أسرارٍ كثيرةٍ ووقفَ بِحافظٍ عندَ ٱلظاهرِ وما حوْلَه، يطيرُ هناك ويقع.

وقد كانَ صاحبُنا ضعيفاً من هذه ٱلناحية، فٱستصعبَتْ عليهِ أسرارٌ وٱستغلقَتْ أخرى من أسرارِ ٱلخيرِ وٱلشرِّ في ٱلحياة، وٱلجمالِ وٱلحُسْنِ في ٱلخليقة، وٱلجلالِ وٱلإبداعِ في ٱلكونِ، وٱلإقرارِ وٱلشكِّ في كلِّ ذلك؛ وقد بلغَ ٱلمعريُّ من هذا مبلغاً لا بأسَ به، إلّا أنَّهُ لم يُصَفَّ كما تُصَفَّى ٱلأشياءُ في عينٍ مُبْصِرة؛ فخبطَ وخلَط؛ ووضعَ من أغراضِ نفسِهِ ٱلمريضةِ على ٱلصحيحِ وٱلمريضِ جميعاً. وتابعَهُ حافظٌ في طريقةٍ أخرى سنُشيرُ إليها بعد.

وفُتِنَ شاعرُنا بما قرأ في «ٱلوسيلة» من شعرِ ٱلباروديّ، فأصبحَ من يومئذٍ تلميذَه، وسارَ على نهجِهِ في قوّةِ ٱللفظِ وجزالةِ ٱلسبكِ ومتانةِ ٱلصنعةِ وجودةِ ٱلتأليفِ على نغمِ ٱلألفاظِ وأجراسِ ٱلحروف، ولكنَّهُ لم يُدركْ شأوَ ٱلباروديِّ في ذلك؛ لِأنَّ هذا جمعَ من دواوينِ ٱلشعراءِ وكتبِ ٱلأدبِ ما لم يتَّفق لِغيرِهِ في عصره، وأدخلَ في شعرِهِ أحسنَ ما صنعَتِ ٱلدنيا في ألفِ سنةٍ من تاريخِ ٱلبلاغةِ ٱلعربيَّة؛ ولذا ٱنتقلَ عنه حافظٌ إلى طريقةِ مسلمِ بْنِ ٱلوليدِ في ٱلتصنيعِ ولزمَها إلى آخرِ مدتِه.

وٱبتدأ يُعالجُ ٱلشعرَ في ٱلسودانِ وينظمُ في جنسِ ما هو بِسبيلِهِ مِن وصفِ ٱلهمِّ ٱلمستولي عليهِ من جميعِ جهاتِه؛ إذْ كانَ يتيماً فقيراً مُشرَّداً، ويرى نفسَهُ شاعراً تَصدُّهُ ٱلحياةُ عن منزلةِ ٱلشاعرِ وعن أمكنةِ ٱلشعر، كٱلذي غُصِبَ مِيراثَهُ من عَرْشٍ ومُلْك، ونُفِيَ إلى غيرِ أرضِه، ووضِعَتْ روحُهُ بإزاءِ روحِ ٱلفَقْرِ وقيل لها: عدوٌّ ما من صداقتِهِ بُدٌّ.

ثُمَّ جاءَ إلى مِصْرَ وٱتّصلَ بِٱلإمامِ ٱلشيخ محمد عبده، وٱستقالَ مِنَ ٱلجيشِ وفرغَ لِلأدب؛ فبدأ من ثَمَّ تكوينُهُ ٱلأدبيُّ ٱلمندمجُ ٱلمُحْكَم، أمّا قبلَ ذلك إلى سنة ١٩٠١ التي طبعَ فيها ٱلجزءَ ٱلأولَ من ديوانِه، فكانَ شعرُهُ قليلاً ظاهرَ ٱلتكلُّف، وأكثرُهُ يدلُّ على طريقةٍ مضطربةٍ لم تستحكِم، وفِكْرٍ لم ينضُج، وموهبةٍ في ٱلتوليدِ ٱلشعريِّ بينَها وبينَ ٱلاستقلالِ أمدٌ قريب.

ودرسَ في مدرسةِ ٱلشيخ محمدِ عبده من سنة ١٨٩٩ إلى سنةِ ١٩٠٥، وهذا ٱلإمامُ ـ رحمهُ اللّهُ ـ كانَ من كلِّ نواحيهِ رجلاً فذًّا، وكأنَّهُ نبيٌّ تأخُرَ عن زمنِه؛ فأُعطي ٱلشريعة، ولكنْ في عزيمتِه، ووُهبَ ٱلوحيَ ولكنْ في عقلِه، وٱتَّصَلَ بِٱلسرِّ ٱلقدسيِّ ولكنْ من قلبِه؛ ولولا هو ولولا أنَّهُ بهذا ٱلخصائص، لَكَانَ حافظٌ شاعراً مِنَ ٱلطبقة ٱلثانية، فإنَّهُ مِنَ ٱلشيخ وحدَهُ كانَتْ لَهُ هذه ٱلقوَّةُ ٱلتي جعلَتْهُ يُصيبُ ٱلإلهامَ من كلِّ عظيم يعرفُه، وكانَ لهُ من أثرِها هذا ٱلشعرُ ٱلمتينُ في وصفِ ٱلعظماءِ وٱلعظائمِ وهوَ أحسنُ شعرِه.

ولم يجدْ حافظٌ من قومِهِ ما يجعلُهُ لسانَهُم حتى تُنْطِقَهُ بِٱلوحي نفسيتُهُمُ ٱلتاريخيَّةُ ٱلكُبْرى، ولا تولَّاهُ مَلِكٌ أو أميرٌ يرغبُ في أدبِهِ رغبةَ أديبِ مَلِك، أو أديبِ أمير، لِيُظْهِرَ منه عبقريَّةً جديدةً في ٱلتاريخ؛ ولا عرفَ ٱلحُبَّ ٱلذي يجعلُ لِلشاعرِ من سِحْرِ ٱلحبيبِ ما يجمعُ ٱلنفسيَّةَ ٱلتاريخيَّةَ وٱلملكيَّةَ معاً ويزيدُ عليهما؛ وهذه ٱلثلاثةُ ٱلتي لم تتفقْ لِحافظ، هِيَ ٱلتي لا ينبغُ ٱلشاعرُ نبوغاً يُفردُهُ ويُميِّزُهُ إلَّا بِواحدٍ منها أو بِٱثنينِ أو بها كلِّها؛ غيرَ أن (حافظ) وجدَ في ٱلإمام ما هو أسمى من كلِّ هؤلاءِ في ٱلنفسِ وٱلجاذبيَّة، وعرفَ فيهِ من ذوقِ ٱلأدبِ وٱلبلاغةِ ما لم يعرفْ شاعرٌ في ملكٍ ولا أمير؛ وقد حضرَ درسَهُ في المنطقِ وأسرارِ ٱلبلاغةِ ودلائلِ ٱلإعجاز، وخرجَ منها بذوقِهِ ٱلدقيق وأسلوبِهِ ٱلمتمكِّن، وحضرَ مجالِسَهُ وخرجَ منها بمواضيعِهِ ٱلاجتماعيَّةِ وأغراضِهِ ٱلوثَّابة، وحَضَرَ نظراتِ عينيهِ وخرَج منها بروحانيَّةٍ قويَّةٍ هيَ ٱلتي تنضرمُ في شعرِهِ إلى ٱلأبد؛ فحافظٌ إحدى حسناتِ ٱلشيخ على ٱلعالمِ ٱلعربيّ، وهو خُطةٌ من خُطَطِهِ في عملِهِ لِلْإصلاح ٱلشرقيِّ ٱلإسلاميّ وٱلنَّهضةِ ٱلمِصْريَّةِ ٱلوطنيَّةِ وإحياءِ ٱلعربيَّةِ وآدابها؛ وإذا ذُكِرَتْ حسناتُ ٱلشيخ أو عُدَّتْ لِلتاريخ، وجبَ أنْ يُقال: أصلحَ وفعلَ وفعلَ وفسَّرَ ٱلقرآنَ وأنشأ حافظ إبراهيم. . .

ومضى شاعرُنا مُوجَّهاً بِفكرةِ ٱلإمام وروحِه، وٱستمرَّ في ذلك بعدَ موتِ ٱلشيخ كما يستمرُّ ٱلنهرُ إذا ٱحتفر مجراه: لا يستطيعُ أنْ يخرجَ عنه ما دامَ يجري إلى مَقارِّه[1].

* * *

وكانَ حافظٌ في بَديعِهِ وصِناعتِهِ على مذهبِ مسلم بْنِ ٱلوليدِ كما قلْنا، وهو مثلُهُ إبطاءً في عمل ٱلشعر، وتلَوُّماً على حَوْكِهِ[2]، وٱنفراداً بِكلِّ لفظةٍ منه، وتقليباً

---

(١) مقارّه: حيث يصل إلى نهاية رحلته. (٢) حَوْكه: صياغته.

لِلنظرِ فيما بينَ ٱلكلمةِ وٱلكلمة، وٱعتبارِ كلِّ بيتٍ كٱلعروس: لها معْرِضٌ وحِلْيَةٌ وزِينة؛ فإذا عملَ شعراً ٱنبثَّتْ خواطرُهُ في كلِّ وجه، وذهبَ وراءَ ٱلألفاظِ وٱلمعاني، وتركَ هاجِسَهُ (العقل الباطن) يعملُ عملَهُ فيما ٱلتوى عليهِ أو ٱستصعَب، وهو واثقٌ أنَّهُ سينقادُ ويَتَسَهَّلُ بِقوَّةٍ إنْ لم تكنْ فيهِ الآنَ فستكونُ فيه؛ ثُمَّ ينظمُ ما يتسمَّحُ إنْ جاءَ في موضعِهِ مِنَ ٱلقصيدةِ أو في غيرِ موضعِه، فلا يتبعُ فيها نَسَقاً بعينِه، وإنَّما ٱلقصيدةُ عندَهُ كلٌّ سيجتمعُ من بعد، تتهيَّأُ أجزاؤُهُ مُتَّسقةً ومُبعثرةً كما يجيءُ بها ٱلإلهامُ وأسبابُ ٱلاتِّفاق؛ فالقصيدةُ أولاً في أبياتِها، ثُمَّ تكونُ أبياتُها فيها، أيْ ثُمَّ تُرتَّبُ ٱلأبياتُ وتُنزَّلُ في منازلِها، ولا ينظمُ إلَّا متغنياً، يَرُوضُ[1] ٱلشعرَ بذلك، لِأنَّ ٱلنفسَ تتفتَّحُ لِلْموسيقى فتسمحُ وتَنْقاد، وهو يتَّبِعُ في ذلك طريقةً معروفةً ذكرَها ٱبنُ حجةَ الحمويُّ في كتابِهِ «خزانةُ الأدب»، وهيَ من وصيةِ أبي تمامِ ٱلبحتريّ، وكانَ ٱلمتنبِيُّ يعملُ عليها؛ وبِٱلجملةِ فإنَّ (حافظ) يرتهنُ فكرُهُ بِٱلقصيدةِ ٱلتي ينظمُها ويتوفَّرُ عليها وعلى أسبابِها، لا كما يفرُغُ الشاعرُ لِلشعْر، ولكنْ كما يتوفَّرُ ٱلمؤلِّفُ ٱلعظيمُ على كتابٍ يُؤلِّفُه؛ وهو كذلك يُبطىءُ في نثرِهِ أكثرَ مِمَّا يُبطىءُ في ٱلشعر، دلَّني بنفسِهِ ـ رحمه الله ـ على صفحةٍ في ٱلجزءِ ٱلثاني من ترجمةِ ٱلبؤساء، وقال: إنَّهُ ترجمَها بخمسةَ عشرَ يوماً.

وحضرْتُهُ مرَّةً يُترجِمُ أسطراً مِنَ ٱلجزء ٱلأولِ (في قهوةِ ٱلشيشةِ) يخطُّها في دفترٍ صغيرٍ دونَ حجم ٱلكف، فٱجتمعَتْ لَهُ ثلاثةُ أسطرٍ في ثلاثِ ساعات، وهذا لا يَعيبُهُ ما دامَ يُريدُ قِسْطَ ٱلفنّ، وما دامَ يُحاولُ أنْ يُخرجَ ٱلكلماتِ من عالمِها إلى عالمِهِ هو ٱلمتموِّج مِنَ ٱلألفاظِ وٱلعباراتِ بمثلِ ٱلكواكبِ في ٱلاستواءِ وٱلجاذبيَّةِ وٱلشعاعِ وٱلرونقِ وٱلجمالِ.

ويرى مَعَ ٱلصناعةِ أنْ يكونَ سبكُ شِعْرِهِ سبكَ ٱلبدويِّ ٱلمطبوع: جَزْلاً سَهْلاً مُشرِقاً مُمْتلِئاً مُتعادلَ ٱلأجزاءِ وٱلتقاسيم، يرنّ رنيناً كأنَّما قَذَفَتْ بِهِ سليقةُ أعرابيٍّ فصيح، تحتَ ضَوْءِ كواكبِ ٱلبادية، على بَرْدِ ٱلرمل، في نسماتِ ٱلليل، حين تمتلىءُ تلك ٱلنفسُ ٱلبدويَّةُ بِحنينِ ٱلحُبِّ، أو شَوْقِ ٱلجمال، أو عظمةِ ٱلقوَّة؛ وهذا هو ٱلأصلُ ٱلذي ٱتَّبعهُ، وقفني عليه هو بنفسِهِ في سنة ١٩٠٢، وقرَّظني بِهِ في ٱلجزءِ ٱلأولِ من ديواني فقال:

أنْـتَ وٱلـلّـهِ كـاتـبٌ حـضـريٌّ   إنْ عَـدَدْنَـاكَ شـاعـراً بـدويّـا

(١) يروض: يجعله سهلاً ليّناً.

ولو أنّكَ أجريْتَ شعرَ حافظٍ في أبلغِ ما قالَهُ ٱلمطبوعونَ مِنَ ٱلأَعرابِ وشعراءِ ٱلقرنِ ٱلأولِ، ٱلتأم بِهِ وزادَ عليهِ في ٱلصناعةِ وبعضِ ٱلمعنى؛ وقلَّ أنْ تجدَ في شعرِهِ كلمةً ينبُو بها مكانُها، إلَّا ألفاظاً قليلةً كانَ يستكرِهُها، يحسبُ أنّه يستطرِفُ منها ويرى في غرابتِها شيئاً جديداً؛ وهذا من خطأ رأيِهِ في ٱلأسلوبِ لأنَّهُ معَ بلاغتِهِ كانَ ينقصُهُ أنْ يكونَ فيلسوفاً في ٱلبَلاغة، وأنا أرى أنَّهُ لو تمَّتَ لهُ ٱلموهِبةُ ٱلفلسفيَّةُ لَمَا جاراهُ شاعرٌ آخر، ولكنَّ ٱلكمالَ عزيزٌ[1] في ٱلبشريةِ؛ وقد عرفْتُ رأيَهُ في ٱلأسلوبِ في سنة ١٩٠٦، إذْ نشرَتْ لَهُ مجلةُ ٱلأقلامِ ٱلتي كانَ يُصدِرُها صاحبُنا ٱلأديبُ جورج طنوس كلماتٍ كانَ يُريدُ أنْ يُضمِّنها كتابَهُ (ليالي سطيح)، أظهرَ فيها رأيَهُ في ٱلشعراء، فقال في إسماعيلِ صبري: يقولُ ٱلشعرَ لِنفسِهِ لا لِلناس. وفي شوقي: أرقُّ ٱلشعراء، طبعاً وأسماهم خيالاً وفي مطران: أسرعُهُم بديهةً وأقدرُهمُ ٱبتكاراً. وقال فيَّ ـ ولم يكن مضى عليَّ إلَّا ستُّ سنينَ في طلبِ ٱلأدب ـ مِكْثارٌ راقي ٱلخيالِ بعيدُ ٱلشوْطِ في ميادينِ ٱلأدب، غيرُ ناضجِ ٱلأسلوب. فلمَّا ٱجتمعْتُ بِه فاتحتُهُ في ذلك وسألْتُهُ رأيَهُ في ٱلأسلوبِ ٱلناضج، فلَمْ أرَ عندَهُ طائلاً، وكلُّ ما قالَهُ في ذلك: أنَّ ٱلشيخَ عبدَ ٱلقاهرِ ٱلجرجانيّ قررَ أنّ ٱلبلاغةَ ليسَتْ في ٱللفظِ ولا في ٱلمعنى، ولكنَّها في ٱلأسلوب. وعبدُ ٱلقاهرِ لم يقلْ هذا ولا قالَهُ غيرُه، فإنَّ ٱلأسلوبَ عندَهُ «طريقةٌ مخصوصةٌ في نسقِ ٱلألفاظِ بعضِها على بعضٍ لِترتيبِ ٱلمعاني في ٱلنفس وتنزيلِها»، و«أنَّ ٱلمَنزِلةَ من حيِّزِ ٱلمعاني دونَ ٱلألفاظ، وأنَّها ليسَتْ لك حيثُ تسمعُ بأذنِك، بلْ حيثُ تنظرُ بِقلبِكَ وتستعينُ بِفكرِك».

وقد قررْتُ لَهُ أنَّ لِلألفاظِ ما يُشبهُ ٱلألوان، فليسَتْ كلُّها زرقاءَ ولا صفراءَ ولا حمراءَ، وَرُبَّ لفظةٍ رقيقةٍ تقعُ ضعيفةً في موضع فيكونُ ضَعْفُها في موضعِها ذاك هو كلَّ بلاغتِها وقوَّتِها، كفترةِ ٱلسكوتِ بين أنغام ٱلموسيقى: هيَ في نفسِها صَمْتٌ لا قِيمةَ لَهُ: ولكنَّها في موضعِها بينَ ٱلأنغامِ نغمٌ آخرُ ذو تأثيرٍ بِسكونِهِ لا بِرنينِه؛ وهذا من روحِ ٱلفنِّ في ٱلأسلوب.

وأدركَ شاعرُنا من يومئذٍ ما سميَّتُهُ «قوَّةَ ٱلضعف»، ولعلَّ هذا هو ٱلسببُ في أنَّ طبعَهُ رجعَ يعدلُ بِهِ إلى ٱلتسهيل، حتى إنَّهُ لَتقعُ في شعرِهِ أبياتٌ مُتهافِتةٌ فيأتي بها ولا يُنكرُها؛ ولقيني مرة فأنشدني قول ٱلشاعر:

أنا لم أُرزَقْ محبتَها ... إنَّما لِلْعبدِ ما رُزِقا

(١) عزيز: نادر صعب المنال.

وجعلَ يُعَجِّبني من بلاغةِ قولِهِ (لم أرزق) وأنَّها مع ذلك ضعيفةٌ مُبْتَذلةٌ تجرِي في منطقِ كلِّ عاميّ، قلْت: ولكنَّ (محبتَها) جعلتْها كمحبتِها. . .

* * *

وضعفُ ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ في حافظٍ عوَّضَهُ ناحيةٌ أخرى من أقوى ٱلقوَّةِ في ٱلشعر، وهيَ ٱهتداؤُهُ إلى حقيقةِ ٱلغرضِ ٱلذي ينظمُ فيه، وتركُهُ ٱلحواشي وٱلزيادات، وٱنصرافُ قُواهُ إلى دِقَّةِ ٱلوصفِ حينَ يصِف، وتعويلُهُ على إحساسِهِ أكثرَ من تعويلِهِ على فِكْرِه؛ فزادَ ذلك في رونقِ شعرِهِ ومائِهِ، ونحا بِهِ منحى ٱلمطبوعين، فخرجَ يتدفَّقُ سلاسةً وحلاوةً، مُمْتَلِئاً من صوابِ ٱلمعنى وبلاغةِ ٱلأداءِ وقوَّةِ ٱلتأثير؛ وبهذا نبغَ في ٱلرثاءِ ووصفِ ٱلفجائعِ نبوغاً ٱنفردَ بِهِ، حتى لأحسبُ أنَّ هناك رُوحاً يُمِدُّهُ في هذه ٱلمواقف، وأنَّ ٱلحقيقةَ تتبرَّجُ[1] لهُ في هذه ٱلعظائم خاصةً لِيرى منها ما لا يراهُ غيرُه؛ وهو يتَّحِدُ بِٱلعظيم ٱلذي يرثيهِ فيُجيدُ فيمَنْ يعرفُهُ إجادةً منقطعةَ ٱلنظير، تتبينُ ٱلفرقَ بينها وبينَ شعرِه فِيمَنْ لا يعرفُهُ تلك ٱلمعرفة؛ وأحسبُهُ يسألُ روحَ ٱلعظيمِ ٱلذي يصفُهُ أو يرثيه: أين ٱلمعنى ٱلذي فيهِ حقيقتُك؟ وأينَ ٱلحقيقةُ ٱلتي فيها معناك؟

وٱلفلسفةُ ٱلشعريَّةُ كلُّها أنْ يحلَّ في ٱلشاعرِ ٱلمُلْهَم ذلك ٱلسرُّ ٱلجميلُ ٱلجاذبُ وٱلمُنجذبُ معاً، ٱلمستقرُ وٱلمتحوِّلُ جميعاً، ٱلباطنُ وٱلظاهرُ في وقت؛ فيكتنِهُ ٱلشاعرَ ما لا يُدركُه غيرُه، فيقفُ على ٱلجمالِ وٱلحسنِ وٱلرقة، ويُلهَمُ ٱلحِكْمةَ وٱلبصيرة، ويتناولُ ٱلأغراضَ بِٱلتحليلِ وٱلتركيب، ويُؤْتَى ٱلتعبيرَ عنْ كلِّ ذلك في طريقةٍ خاصَّةٍ بِهِ هِيَ أسلوبُهُ، وهذا لم يتَّفِقْ على أتمِّهِ وأحسنِهِ في حافظ، فقصَّرَ بِهِ في توليدِ ٱلمعاني ٱلمبتكرَة، ونزلَ بِهِ في ٱلغزلِ ووصفِ ٱلجمال؛ بيدَ أنَّهُ ٱتَّفَقَ لهُ مثلُ هذا ٱلجلالِ بِعينِهِ في (ٱلجانبِ ٱلمتألِّم من شعرِه)، أي ٱلرثاءُ وٱلشكوى ووصفُ ٱلفجيعة؛ ولو ذهبْتَ تستعرِضُ ٱلمراثيَ في ٱلشعرِ ٱلعربي، ومثَّلْتَ بينَها وبين رثاءِ حافظٍ لِلْعُظماءِ ٱلذين خالطهم، كٱلأستاذِ ٱلإمام، وٱلباروديّ، ومصطفى كامل، وثروت، لَرَاعَكَ[2] أنَّكَ واجدٌ لِلشعراءِ ما هو أسمى من معانيه وأقوى مِن خيالِه، ولكنَّكَ لا تجدُ ٱلبتَةَ ما هو أفخرُ وأدقُّ مِمَّا جاءَ بِهِ في هذا ٱلباب، كأنَّه منفردٌ في ٱلعربيَّةِ بهذه ٱلخاصة.

---

(١) تتبرّج: تتزيّن.

(٢) لراعك: لأدهشك.

وهذا المعريُّ يقول:

ولَوْلا قولُكَ ٱلخلَّاقُ ربِّي ... لَكَانَ لَنَا بِطَلْعَتِكَ ٱفْتِتَانُ

ويقولُ في شعرٍ آخر:

أسْهبَ في وصفِهِ علاكَ لنا ... حتَّى خشِيْنا ٱلنفوسَ تعبُدها

وهذان البيتانِ تراهما صعلوكينِ إذا قِسْتَهُما بقولِ حافظٍ في رثاءِ ٱلشيخِ محمد عبده:

فلا تَنْصِبُوا للنَّاسِ تِمْثَالَ (عبده) ... وإنْ كانَ ذكرى حِكْمَةٍ وثباتِ

فإنِّي لأَخشى أنْ يَضِلُّوا فيُومِئُوا ... إلى نورِ هذا ٱلوجهِ بِٱلسَّجدَاتِ

مَعَ أنَّ معنى حافظٍ مأخوذٌ منهما، ولكنِ ٱنظرْ كيفَ جاءَ بِهِ؟ ويقول ٱلمعريُّ في رثاء أبيهِ

ولو حفَروا في دُرَّةٍ ما رضيْتُها ... لجِسْمِكَ إبقاءَ عليكَ مِنَ ٱلدفْنِ

ويقولُ في رثاءِ غيرِه:

واخبُوَاهُ ٱلأكفانَ من ورقِ ٱلمصـ ... ـحفِ كبراً عن أنفسِ ٱلأبرارِ

وهذانِ أيضاً كٱلصعاليكِ عندَ قولِ حافظٍ في ٱلبارودي:

لو أنصفوا أودَعُوهُ جوفَ لؤلؤةٍ ... من كنزِ حِكْمَتِهِ لا جَوْفَ اخْدُودِ

وكَفَّنُوهُ بِدَرْجٍ من صحيفتِهِ ... أو واضحٍ من قميصِ ٱلصبحِ مَقْدُودِ

مع أن (حافظ) ألَمَّ بقولِ ٱلمعريّ. ومن بديعِ ما ٱتَّفقَ لَهُ في قصيدةِ (الأمَّتانِ تتصافحانِ) قولُهُ يصفُ ٱلسوريين:

رادوا[1] ٱلمناهلَ في ٱلدنيا ولو وجَدوا ... إلى ٱلمجرَّةِ رَكْباً صاعداً رِكِبوا

أو قيلَ في ٱلشمسِ للراجينَ منتجَعٌ ... مَدُّوا لها سبباً في ٱلجوِّ وٱنتدبوا

فاقرأْ هذين واقرأ بعدَهما قولَ ٱلمتنبي في سيفِ ٱلدولة:

وَصُولٌ إلى ٱلمُسْتَصْعَبَاتِ بِخَيْلِهِ ... فلوْ كانَ قرنُ ٱلشمسِ ماءً لأَوردا

فإنَّكَ تجدُ بيتَ ٱلمتنبي صعلوكاً على بيتي حافظ، مع أنَّهُ ٱلمبتدِعُ ٱلسابق.

وأعجبُ ما عَجِبْتُ لَهُ هذا ٱلبيتُ من شعرِ صاحبِنا في مقطوعةٍ يُخاطبُ

---

(١) رادوا: سلكوا.

بها ٱلأمريكان، نشَرها في ٱلمقطم من ثلاثِ سنواتٍ أو نحوِها، قال:

وتَّخَذْتُم موجَ ٱلأثيرِ بريداً حين خِلْتُمْ أنَّ ٱلبروقَ كُسالى

واتّفق يومئذٍ أنْ كنْتُ جالساً في زيارةِ ٱلصديقِ ٱلأستاذِ فؤادِ صروف محررِ ٱلمقتطَف، فجاءَ حافظ، فلم يكدْ يُصافِحُني حتى قال: كيف ترى هذا ٱلبيت: وتَّخذْتُمْ موجَ ٱلأثيرِ بريداً... إلخ؟ فأثنيْتُ عليهِ ٱلذي يهوى، وهنأْتُهُ بهذا ٱلمعنى، وأظهرْتُ لَهُ ما شاءَ مِنَ ٱلإعجابِ، ولكنِّي أضمرْتُ عجبي من حُسْنِ ما ٱتَّفقَ لَهُ فإنَّ ٱلجمالَ ٱلشعريَّ في ٱلبيتِ إنَّما هو في ٱستعارةِ ٱلكسلِ لِلْبروق، وهذا بعينِهِ من قولِ ٱبنِ نباتةَ ٱلسعديِّ في سيفِ ٱلدولة.

وما تمهَّلَ يوماً في نَدًى وردًى[1] إلَّا قضيْتُ لِلَمْحِ ٱلبرقِ بِٱلكَسَلِ

غير أنَّ (حافظ) نقلَ ٱلمعنى إلى حقِّه، ومكَّن لَهُ أحسنَ تمكينٍ في صدرِ كلامِه، وأتمَّ جمالَهُ في قولِهِ (حين خِلْتُم)، فٱقتطَعَ ٱلمعنى وٱنفردَ بهِ، وعادَ معنى ٱلسعديِّ كَٱلصعلوكِ على بابِ بيتِه؛ وكانَتْ هذه ٱلمُقابَلةُ في ٱلمقتطفِ آخرَ عهدي بِحافظ، فلم أرهُ من بعدِها؛ رحمه الله!

وما مرّ بكَ إنَّما كانَ من صِناعةِ ٱلشاعرِ في غيرِ ٱلجزءِ ٱلأولِ من ديوانِهِ بعدَ أنِ ٱستفحلَ وتخرّجَ في مدرسةِ ٱلإمام، أمَّا في ٱلجزءِ ٱلأولِ فلَهُ هو صعاليك... كقوله في ٱلخمر:

خمرةٌ قِيلَ إنَّهُمْ عصروها من خدودِ ٱلمِلاحِ في يومِ عُرْسِ

فهذا ٱلبيتُ صعلوكٌ عندَ قولِ ٱبنِ ٱلجهم:

مُشَعْشَعَةٌ من كفِّ ظبيٍ كأنَّما تَناولَها من خَدِّهِ فَأَدارَها

وقولُ حافظِ (عصروها من خدودِ ٱلملاحِ) كلامُ مَنْ لم ينضجْ في ٱلبيانِ ولا ٱلذوق، لا يكادُ يتوّهمُ مَعهُ إلَّا أنَّ في خدودِ ٱلمِلاحِ (خراجاتٍ) عُصرت...

وعلى ضدِّ هذا قولُ ٱبنِ ٱلجهمِ) تناولها من خدِّهِ)، فهي كلمةٌ أكثرُ نعومةً من ذلك ٱلخدِّ وأجملُ نضرة:

وقولُ حافظِ في مدح ٱلخديو:

يا مَنْ تَنافَسُ في أوصافِهِ كلمي تنافُسَ ٱلعربِ ٱلأمجادِ في ٱلنَّسَبِ

---

(١) ردى: موت.

فهو صعلوك على بيتِ أبي تمام:

تَغَايَرَ ٱلشعرُ فيهِ إذْ سهِرْتُ لَهُ   حتَّى ظننتُ قوافيَهُ ستَقْتَتِلُ

ولا نُطيلُ ٱلاستقصاء، فإنَّما نُريدُ ٱلتمثيلَ حسْبُ.

وكانَ ٱلشاعرُ أولَ نشأتِهِ يأخذُ في طريقةِ ٱلمعريِّ ٱلذي عميَ عنِ ٱلطبيعةِ فجعلَ يخلقُها من فكرِهِ ومحفوظِهِ بِمُبالغاتٍ كاذبةٍ يُغرقُ فيها يحسبُ أنَّه بذلك يعظِّمُ ٱلحقائقَ فتخرجُ لَهُ ٱلأخيلةُ ٱلكبيرة، وما يدري أنَّهُ بهذا ٱلغلوِّ لا يجيءُ إلَّا بالأباطيلِ ٱلكبيرة.. ولكنَّ حافظ في مزاجِهِ وتركيبِهِ ونشأتِهِ كانَ رجلاً مبنيًّا على ٱلوضوحِ وٱلقَصْد. فلم يُفلِحْ في طريقةِ ٱلمعريّ؛ ووضوحُهُ كذلك باعَدَهُ مِنَ ٱلفلسفةِ وإبهامِها، ومنَ ٱلطبيعةِ وألغازِها، ومِنَ ٱلغزلِ وَوَساوِسِه؛ وهو ٱلذي أداهُ إلى ٱلشغف بِٱلحقيقةِ وٱستخلاصِها في كلِّ أغراضِهِ ٱلتي أجادَ فيها؛ ومِنْ ثَمَّ خلا شعرُهُ أو كأنَّهُ خلا.... من أوصافِ ٱلطبيعةِ في جمالِها بِلُغةِ ٱلفِكْرةِ ٱلمتأمِّل، ومن أوصافِ ٱلجمالِ في سِحرِهِ بلغةِ ٱلقلْب ٱلعاشق.

* * *

وأنت فلا تحسبَنَّ ٱلشاعرَ يُجيدُ في ٱلغزلِ وٱلنسيب من أنَّهُ شاعرٌ يُحسنُ ٱلصنعةَ ويُجيدُ ٱلأسلوبِ، فيكونَ غرضٌ مِنَ ٱلشعر سبيلاً إلى غرض، وفنٌ عوناً على فنّ، وتكونَ رقةُ ٱلألفاظِ وهَلْهَلَةُ[1] ٱلنسج، وقلبي، وكبدي، ويا ليلةً ويا قمراً، ويا غزالاً... وأشباهُ ذلك ـ غزلاً ونسيباً؛ كلَّا ثُمَّ كلَّا، وٱلثالثةُ كلَّا أيضاً...

إنَّ ٱلغزلَ وأوصافَ ٱلجمالِ موهبةٌ في ٱلشاعرِ أوِ ٱلكاتبِ تُسْخَّرُ لها قوًى هيَ أشبهُ في مُعْجِزاتِها بِما سُخِّرَ لِسليمانَ من قوى ٱلجنِّ وٱلريح، غيرَ أنَّها قوى آلامٍ ولذاتٍ ووساوسَ؛ تلك عظمةٌ في بعضِ ٱلنفوسِ ٱلشاعرةِ كعظمةِ ٱلملوكِ وٱلأبطال، غيرَ أنَّها لا تكملُ إلَّا خائبةً أو مغلوبة، فإذا ٱنتصرَتْ سقطَتْ فلا بُدَّ لها من تاريخِ وحوادثَ ومِزاجٍ عصبيٍّ يُهيَّأُ لها بِروحانيةٍ شديدةِ ٱلحِسِّ شديدةِ ٱلفَوْرَةِ ثائرةٍ أبداً لَا تهدأُ إلَّا على تولِيدِ معنًى بديع في جمالِ مَنْ تُحبُّهُ أو كجمالِه؛ ثُمَّ إذا هدأَتْ بذلك أثارَها أنَّها هدأَت، فتعودُ إلى ٱلتوليد، فلا تزالُ تبتدِعُ وتَصِفُ كأنَّها آلةُ تعبيرٍ تدورُ بِقَلْبٍ وعَصَب؛ هناك قوتان: إحداهما تؤتى ٱلحُبَّ كما يصلحُ غراماً وعِشْقاً، وٱلأخرى فوقَ هذه تُؤتى ٱلحُبَّ كما يصلحُ فِكْراً وتعبيراً؛ وٱلأولى تجعلُ صاحبَها

---

(١) هلهلة: ركاكة.

عاشقاً يُحِبُ ويُدركُ ليس غير، وٱلثانيةُ تجعلُهُ مُحِبًّا عملَهُ أنْ ينقلَ من لغةٍ ما في نفسِهِ إلى ما حولَه، ومن لغةٍ ما حولَهُ إلى ما في نفسه؛ فهو مترجِمُ ٱلنفسِ إلى ٱلطبيعة، ومترجِمُ ٱلطبيعةِ إلى ٱلنفس؛ وٱلذي أعرفُهُ أنَّ (حافظ) لم يُرزقْ لا هذه ولا تلك، فلا طبيعةَ فيهِ لِلْغزلِ وفلسفةِ ٱلجمال؛ ثُمَّ إنَّ ٱلتاريخَ حصرَهُ في (ٱلشاعرِ ٱلاجتماعيِّ) ٱلذي اختارَ أنْ يمتازَ به، فهو في أكثرِ شعرِهِ كانَ ليسَ فيهِ شخص، بلْ فيهِ شعبٌ مأسورٌ غفلَ عنِ ٱلجمالِ وعنِ ٱلطبيعةِ وعنِ ٱلنشوةِ بهما؛ إذْ يعيشُ في مُعاناةِ ٱلحريَّةِ لا في ٱلتأمُّلِ ٱلجميل، وفي أسبابِ ٱلقوَّةِ لا في أسبابِ ٱلرقَّة، ويُريدُ أنْ يعملَ لِيُوجِدَ حقيقتَهُ قبلَ أنْ يعملَ لِيُبدِعَ خيالَه.

ومعَ ذلك فقد جاءَ في ديوانِ حافظ غزلٌ قليلٌ كانَ كلُّهُ متابعةً وتقليداً في فنٍّ يَحسُنُ ٱلتقليدُ إلَّا فيهِ خاصَّة؛ عملَ صدراً لِقصيدةٍ مدحَ بها ٱلخديو مطلُعها:

كَـمْ تَـحْـتَ أَذيـالِ ٱلـظَّـلام مُـتـيَّـمُ دامـي ٱلـفـؤادِ ولـيـلَـهُ لا يـعـلـمُ...

وقلَّدَ ٱبنَ أبي ربيعةَ في حِكايةِ حُبٍّ لفَّقَها تلفيقاً ظاهراً، ثُمَّ زعمَ أنَّ ٱلحبيبةَ قالَتْ لَهُ في آخرِها:

فٱذهَبْ بِسِحرِكِ قد عرفْتُكَ وٱقتصدْ فـيـمـا تُـزيِّـن لِـلْـحِـسَـانِ وتُـوهِـمُ

وكلمة صاحبةِ ٱبنِ أبي ربيعة:

أهـــذا سِـــحْـــرُكَ ٱلـــنـــســـوا نَ قَـــدْ عَـــرَّفْـــتَـــنِـــي ٱلـــخـــبـــرا

أهذا سحرُكَ ٱلنسوان؟... هذه كلمةٌ لا تخرجُ إلَّا من فم حبيبتِهِ آيةً في ٱلظرف، وفيها تجاهُلُها وعِرْفانُها وٱبتسامُها وإشراقُ وجنتيْها، وأكادُ ـ وٱللَّهِ ـ أرى فيها تلك ٱلجميلةَ وهي تدقُّ بيدِها على صدرِها دقَّةَ ٱلاستفهام ٱلمتدلِّلِ ٱلمتظاهِرِ بِٱلدهشةِ لِيتنَّهدَ فيهِ ٱلكلامُ وٱلمتكلِّمَ معاً، أمّا قولُ حبيبةِ حافظ ٱلخشبيَّة، أوِ ٱلحجريَّة... أذهب... قد عرفْتُكَ وٱقتصْد.... فهذا خليقٌ أنْ يكونَ من فم قاضٍ وهو ينصحُ ٱلمتهَم بعدَ ٱلأمرِ بِٱلإفراجِ عنه... أو مأمورِ قسمٍ عندَ ضبطِ ٱلحادثة!

أكبرُ ظنِّي أنَّ روحَ حافظٍ نفسِهِ هيَ ٱلتي أوحَتْ إليَّ ٱلآنَ هذه (النكتة)، فإنَّهُ ـ رحمَهُ ٱللَّهُ ـ كانَ آيةً في ٱلباب، ولَهُ مِنَ ٱلنوادرِ محفوظةً ومخترَعةً ما لا يُلحقُ فيه؛ ولو كانَ كاتباً على قدرِ ما كانَ شاعراً، وزاولَ ٱلنقدَ وٱستظهرَ لِلْكتابةِ فيهِ بتلك ٱلمَلَكةِ ٱلمُبدِعةِ في ٱلتندُّرِ وٱلتهكّم، مع ما أُوتيَ مِنَ ٱلقوَّةِ في ٱللغةِ وٱلبيان ـ لَكانَتِ

ٱلنعمةُ قد تمَّتْ بِهِ على ٱلأدبِ ٱلعربيّ، ولقُلْنا في شعرِهِ وكتابتِهِ وأدبِهِ ما قال هو في ٱلأستاذِ الإمام، فأطلعْتَ نوراً من ثلاثِ جهات.

وما دُمْنَا قد ذكرْنا ٱلنقدَ فمِنَ ٱلوفاءِ لِلتاريخ ٱلأدبيِّ أنْ نذكرَ مذهبَ شاعرِنا فيه: فلم يكنْ عندَهُ منه إلَّا ذوقُ ٱلكلام، وإدراكُ ٱلنَّفْرَةِ وٱلنَّبْوةُ في ٱلحرف، وٱلغلِظُ وٱلجَسْأةُ[1] في ٱللفظ، وٱلضعفُ وٱلتهافتُ في ٱلتركيب، ثُمَّ ما يجيشُ في ٱلخاطرِ أو يتلجْلَجُ في ٱلفكرِ من ذوقِ ٱلمعنى وإدراكِ كُنْهِهِ وٱلنفاذِ إلى آثارِ ٱلنفسِ ٱلحيَّةِ فيه؛ فكأنَّ ٱلنقدَ هو ٱلحِسُّ بِٱلكلام كما تلمسُ ٱلحارَّ وٱلباردَ وما بينهما؛ ووصفَ لي مرةً إسماعيل صبري باشا وأرادَ أَنْ يُبالغَ في دِقَّةِ تمييزِهِ وحُسْنِ بصرِهِ بِٱلشعرِ وإدراكِهِ دقائقَ ٱلمعاني، فقال: «ذوَّاقٌ يا مصطفى» ولم يزد.

ومذهَبُ ٱلحِسِّ بِٱلكلام هذا وإنْ صلُحْ أنْ يكونَ من بعضِ معاني ٱلنقد، فلا يتهيَّأُ أنْ يكونَ هو ٱلنقدَ بِمَعْنَاهُ ٱلفلسفيِّ أوِ ٱلأدبيّ، وهو في جملةِ أمرِهِ كقولِكَ حسنٌ حسن؛ ورَدِيء رَدِيء، أمَّا كيف كانَ حَسَناً أو رَدِيئاً، وبِمَاذا ولِمَاذا، فذلك ما لا سبيلَ إليهِ من مذهب (ذوّاق)... ولا وسيلةَ لَهُ إلَّا ٱلعِلْمُ ٱلمستفِيض، وٱلاطلاعُ ٱلواسع، وٱلحِسُّ ٱلمُرْهَف، وٱلقُدْرَةُ ٱلمتمكِّنة، مُضافةَ كلُّها إلى ٱلأدبِ ٱلبارعِ وفلسفتِهِ ٱلدقيقة؛ ولا نعرفُ لِحافظِ كِتابةً في ٱلنقدِ ألبتة، وقد كانَ حاولَ شيئاً من هذا في مقدمةِ كتابِهِ (ليالي سطيح)، فتناولَ بعضَ خصومِهِ بِكلماتٍ رأى هو أنْ يمحُوَها بعدَ أنْ طُبِعَت ٱلكراسةُ الأولى، فأسقطَها وأعادَ كتابةَ ٱلمقدمةِ وطبعَها مرَّةً ثانية، وكانَتْ عندي ٱلنسخةُ التي محاها، وهذا ما لا أظنُّ أحداً يعرفُهُ ٱلآن؛ رحمَ ٱللَّهُ شاعراً كانَ أصفى مِنَ ٱلغمامِ، وكانَ شعرُهُ كأنَّهُ ٱلبرقُ وٱلرعد...

* * *

---

(١) الجسأة: القسوة والغظ.

كلماتٌ عن حافظ

ذهبْتُ بِقلْبي إلى كلِّ مكانٍ فوجَدتُ أمكِنَةَ ٱلأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي؛ أيُها ٱلقلبُ ٱلمِسكينُ، أين أذهبُ بك؟

هذا ما أجبْتُ بِهِ (حافظ) حين سألَني مرةً: مالَكَ لا ترضى ولا تهدأُ ولا تستقرّ؟ وكان يُخيَّلُ إليَّ أنَّهُ هو راضٍ مستقرٌ هادىء، كأنَّما قضى مِنَ ٱلحياةِ نَهْمَتَهُ[1] ولم يبقَ في نفسِهِ ما تقولُ نفسُهُ ليت ذلك لي! . وكنْتُ أعجبُ لِهذا ٱلخُلُقِ فيهِ ولا أدري ما تعليلُهُ إلَّا أنْ يكونَ قد خُلِقَ مطبوعاً بِطابَعِ ٱليُتْمِ فلم يعرفْ منذُ أدركَ إلَّا أنَّهُ ٱبنُ ٱلقَدَر: تأتيهِ ٱلأفراحُ وَٱلأحزانُ من يدٍ واحدةٍ مُقبِّلَةٍ كما تنالُ ٱلصبيَّ ألطافُ أبيهِ ولَطَماتُ أبيه . . .

وقدْ قلْتُ لَهُ مرة: كأنَّك يا حافظُ تنامُ بِلا أحلام! فضحكَ وقال: أوْ كأنَّني أحلمُ بغيرِ نوم . . .

ولقد عرفْتهُ منذُ سنة ١٩٠٠ إلى أنْ لَحِقَ بربِّهِ في سنةِ ١٩٣٢، فما كنْتُ أراهُ على كلِّ أحوالِهِ إلَّا كاليتيم: محكوماً بروحِ ٱلقبر، وفي ٱلقبرِ أولُهُ؛ ولَمَّا أزْمَعَ ٱلسفَرَ إلى ٱليونانِ قلْتُ له: ألا تخشى أنْ تموتَ هناك فتموتَ يونانياً. . . فقال: أوَ تراني لم أمتْ بعدُ في مصر؟ . . . إنَّ ٱلذي بقيَ هيِّن!

* * *

ومن عجائبِ هذا ٱليتيم ٱلحزينِ أنَّهُ كانَ قويَّ ٱلملَكةِ في فنِّ ٱلضحِك، كأنَّ ٱلقَدَرَ عوَّضَهُ بِهِ لِيُوجِدَهُ في ٱلناسِ عطفَ ٱلآباءِ ومحبَّةَ ٱلإخوة. ولم يَخْلُ مع فقرِهِ من ذريعةٍ قويَّةٍ إلى ٱلجاه، ووسيلةٍ مُؤَكَّدةٍ إلى ما هو خيرٌ مِنَ ٱلغِنى؛ فكانَتْ أسبابُهُ إلى ٱلأستاذِ ٱلإمامِ ٱلشيخِ محمدِ عبده، ثُمَّ حِشْمَتْ باشا، ثُمَّ سعدِ باشا زغلول؛ وهذا نِظامٌ عجيبٌ في زمنِ (حافظٍ) يُقابلُ ٱلاختلالَ ٱلعجيبَ في نفسِ حافظ؛ فَٱلرجلُ كَٱلسفينةِ ٱلمتكفِّئَةِ: تميلُ بِها موجةٌ وتَعْدِلُها موجة، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير.

---

(١) نهمته: جوعه.

وأولئك ٱلرؤساءُ ٱلعظماءُ ٱلذينَ جعلَهُمُ ٱلقَدَرَ نِظاماً في زمنِ حافظ، كانوا من أفقرِ ٱلناسِ إلى ٱلفُكاهةِ وَٱلنادرة، فكانَ لهم كَٱلثروةِ في هذا ٱلباب، ووقعَ إصلاحاً في عيشِهم وكانوا إصلاحاً في عيْشِه؛ ولو أنَّ ٱلأقدَارَ تُشَبَّهُ بِٱلمدارسِ ٱلمختلفة، لَقلْنا إنَّ (حافظ) تخرّجَ منها في مدرسةِ ٱلتجارةِ ٱلعليا. . . فهو كانَ أبرعَ مَنْ يتاجرُ بِٱلنادرةِ.

* * *

وهذه ٱلنوادرُ كأنَّها هيَ أيضاً صنعَتْ (حافظ) في شكلِ نادرة؛ فكانَ فقيراً، ومع هذا كانَ لِلْمالِ عندَهُ مُتَمّم، هو إنفاقُهُ وإخراجُهُ من يدِه؛ وكانَ يتيماً، ولكنَّهُ دائماً مُتودّد؛ وكان حزيناً، ولكنَّهُ أنيسُ ٱلطَّلْعة؛ وكانَ بائساً، ولكنَّهُ سليمُ ٱلصدر، وكانَ في ضِيقٍ، ولكنَّهُ واسعُ ٱلخُلُق؛ وتمامُ ٱلنادرةِ[1] فيهِ أنَّهُ كانَ طوالَ عمرِهِ مُتَبسِّطاً مهتزاً كأنَّ لَهُ زمناً وحدَهُ غيرَ زمنِ ٱلناس، فتتراكمُ عليهِ ٱلهمومُ وهو مُسْتَنيمٌ إلى ٱلراحة، ويعتريهِ مِنَ ٱلجوعِ مثلُ مَكْسَلةِ ٱلشِّبَع ويَسْتَرسلُ إلى ٱلبَطَالةِ وكأنَّهُ مُشَمِّرٌ لِلْجِد، ويستمكنُ ٱلحزنُ منه في ساعةٍ فيتَهَدَّدُ حُزنَهُ بِٱلساعةِ ٱلتالية. . .

رأيْتَهُ في أحدِ أيام بُؤْسِهِ ٱلأولى قبلَ أنْ يتَّصلَ عيشُه، وكانَ يَعُدُّ قروشاً في يدِه، فقلْت: ما هذه ٱلقروش؟

قال: كنْتُ أُقامِرُ ٱلساعةَ فأضعْتُ ثلاثينَ قِرشاً ولم يبقَ لي غيرُ هذه ٱلقروشِ ٱلملعونة، فهلُمّ نتعشّ. ودخلَ إلى مطعم كانَ وراءَ حديقةِ ٱلأزبكيَّة، فزعَمْتُ لَهُ أنِّي تعشَّيْت. . . فأكلَ هو ودفعَ ثمنَ طعامِهِ ثلاثةَ قروش؛ وكنْتُ أُطَالِعُ في وجهِهِ وهو يأكل، فما أتذكّرُهُ ٱلآنَ إلَّا كما طالعْتُهُ بعدَ عشرينَ سنةً من ذلك ٱلتاريخِ حينَ دعاني (حافظ) إلى مطعم بار ٱللواءِ وقد فاضَتْ أناملُهُ ذهباً وفِضَّة، وكانَ ـ رَحِمَهُ ٱللهُ ـ قد أصدرَ ٱلجزءَ ٱلثانيَ مِنَ (ٱلبؤساء) ورآني في ٱلقاهرةِ فأمسكَ بي حتى قرأْتُ معَهُ ٱلكتابَ كلَّهُ فيما بينَ ٱلظهرِ وَٱلمغرب؛ وركِبْنَا في الأصيلِ عربةً وخرَجنَا نتنزَّهُ، أي خرجْنَا نقرأ. . .

وكانَ على وجهِ (حافظ) لونٌ مِنَ ٱلرضى لا يتغيّرُ في بُؤْسٍ ولا نعيم، كبياضِ ٱلأبيضِ وسوادِ ٱلأسود؛ وهذا من عجائبِ ٱلرجلِ ٱلذي كانَ في ذاتِ نفسِهِ فنّاً مِنَ ٱلفَوْضى ٱلإنسانيَّة، حتَى لَكَأنَّهُ حُلْمٌ شعريٌّ بَدَأَ من أبويهِ ثُمَّ ٱنقطعَ وتُرِكَ لِتُتَمِّمَهُ ٱلطبيعة!

ومَنْ نظرَ إلى (حافظ) على أعتبارِ أنَّهُ فنٌّ مِنَ ٱلفوضى ٱلإنسانيَّةِ رآهُ جميلاً

---

(١) النادرة: النكتة.

جمالَ ٱلأشياءِ ٱلطبيعيَّةِ لا جمالَ ٱلناس؛ ففيهِ مِنَ ٱلصحراءِ وٱلجبالِ وٱلصخورِ وٱلغِياضِ وَٱلبرقِ وَٱلرعدِ وأشباهِها؛ وكنْتُ أنا أراهُ بهذه ٱلعين فأستجملُه، ويبدو لي جَزْلاً مُطهَّماً، وأرى في شكلِهِ هندسةً كهندسةِ ٱلكَوْن؛ تُتَمِّمُ مَحاسنَها بِمَقَابِحِها وكم قلْتُ له: إنَّكَ يا حافظُ أجملُ مِنَ ٱلقَفر...

أمَّا هو فكانَ يرى نفسَهُ دَميماً شنيعَ ٱلمرْآةِ متَفَاوتَ ٱلخَلْقِ كأَنَّهُ إنسانٌ مغلوطٌ في تركيبه...

وقد سألْتُهُ مرة: هل أحبّ؟

فقال: ٱلنساءُ ٱثنتان: فإما جميلةٌ تنفرُ من قُبْحي، وإمَّا دميمةٌ أنفرُ من قبحِها! ولهذا لم يُفلحْ في ٱلغزلِ وٱلنسيب، ولم يُحسنْ من هذا ٱلبابِ شيئاً يُسمَّى شيئاً؛ وبقِيَ شاعراً غيرَ تامٍّ، فإِنَّ ٱلمرأةَ للشاعرِ كحواءَ لآدمَ: هيَ وحدَها ٱلتي تُعطيهِ بِحُبِّها عالماً جديداً لم يكنْ فيه، وكلُّ شرِّها أنَّها تتخطَّى بِهِ ٱلسمواتِ نازلاً...

* * *

وتهدّمَ حافظٌ في أواخرِ أيَّامِهِ من أثرِ ٱلمرضِ وَٱلشيخوخة، وكانَ آخرَ ٱلعهدِ بِهِ أنْ جاءَ إلى إدارةِ (ٱلمقتطَفِ) وأنا هناك، فلم يرني حتى بادرني بِقولِهِ: ماذا ترى في هذا البيتِ في وصفِ الأمريكان:

وَتَخِذْتُمْ مَوْجَ ٱلأثيرِ بَريداً ... حينَ خِلتُم أنَّ ٱلبُرُوقَ كُسالى

فنظرْتُ إلى وجهِهِ ٱلمعروقِ ٱلمتغضِّنِ وقلْت له: لو كانَ فيك موضعُ قُبلةٍ لقبَّلْتُكَ لهذا ٱلبيت!. فضحكَ وأدارَ لي خدَّه؛ ولكنْ بقي خُدهُ بِلا تقبيل.

* * *

وشهرةُ هذا ٱلأديبِ ٱلعظيم بِنَوادرِهِ ومحفوظاتِهِ من هذا ٱلفنِّ أمرٌ مُجمعٌ عليه؛ وكانَ يتقصَّصُ ٱلنوادرَ وٱلفُكاهاتِ ومُطارحاتِ ٱلسَّمَرِ من مَظانِّها[1] في ٱلكتبِ ورجالِ ٱلأَدبِ وأهلِ ٱلمُجون، فإذا قصَّها على مَنْ يُجالسُهُ زادَ في أسلوبها أسلوبَهُ هو، وجعلَ يُقلِّبُها ويتصرَّفُ فيها ويُبينُ عنها أحسنَ ٱلإنابةِ بِمَنْطِقهِ ووجهِهِ ونبراتٍ في لِسانِهِ ونبراتٍ في يدِه.

وهو أصمعيُّ هذا ٱلبابِ خاصَّة، يروي منه رِوايةً عريضة، فإذا ٱستهلَّ سَحَّ[2] بِٱلنوادرِ سَحّاً كأنَّها قوافي قصيدةٍ تدعو ٱلواحدةُ منها أختَها ٱلتي بعدَها.

---

(١) مظانها: أماكنها.

(٢) سحّ: انهمر وسال.

وقد أذكرتْني (ٱلقوافي) مجلساً حَضْرتُهُ قديماً في سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠، وكانَ (مصباحُ ٱلشرقِ) قد نشرَ قصيدةً رائيةً لابْنِ ٱلروميّ، فتعجَّبَ ٱلمرحومُ ٱلشيخُ محمدٌ ٱلمهديُّ من بسطةِ ٱبنِ ٱلروميِّ في قوافيه، فقالَ لَهُ (حافظ): هلمَّ نتساجلْ في هذا ٱلوزنِ حتى ينقطِعَ أحدُنا؛ وكانَتِ ٱلقافيةُ من وزن: قدَّرَها، أحمرَّها، أخضرَّها... إلخ، وجعلْتُ أنا أُحصي عليهما؛ فلمَّا ضاقَ ٱلكلامُ كانَ ٱلشيخُ ٱلمهديُّ يُفكرُ طويلاً ثُمَّ ينطِقُ بِٱللفظِ، ولا يكادُ يفعلُ حتى يرميَهُ حافظٌ على ٱلبديهة، فيعودُ ٱلرجلُ إلى ٱلإطراقِ وَٱلتفكير؛ ثُمَّ ٱنقطعَ أخيراً وبَقِيَ حافظٌ يسرُدُ لَهُ من حِفظِهِ ٱلغريب.

أمَّا في ٱلنوادرِ فَٱلعجيبةُ ٱلتي ٱتَّفقَتْ لَهُ في هذا ٱلبابِ أنَّهُ جاءَ إلى طنطا في سنة ١٩١٢ ومديرُها يومئذٍ ٱلمرحوم «محمد محب باشا»، وكانَ داهيةً ذَكيّاً وظريفاً لَبِقاً، وكنْتُ أُخالِطُهُ وأتَّصلُ بهِ، فدعا (حافظ) إلى ٱلعشاءِ في دارِه؛ فلمَّا مُدَّتِ ٱلأيدي قالَ ٱلباشا: لي عليكَ شرطٌ يا حافظ. قال: وما هو؟ قال: كلُّ لقمةٍ بِنادرة!

فتهلَّلَ حافظٌ وقال: نعم، لك عليّ ذلك، ثُمَّ أخذَ يقصُّ ويأكلُ، وَٱلعشاءُ حافلٌ، وحافظٌ كانَ نَهِماً، فما ٱنقطعَ ولا أخلَّ حتى وفَّى بِٱلشرط؛ وهذا لا يمنعُ أنَّ ٱلباشا كانَ يتغافلُ ويتغاضى ويتشاغلُ بِٱلضحك، فيُسرعُ حافظٌ ويُغالِطُ بِفمِه...

* * *

ولكنَّ هذه ٱلمَضحكاتِ أضحكَتْ من (حافظ) مرةً كما أضحكَتْ به؛ فلمَّا كان يُترجمُ (مكبث) لِشَكسبير ـ وهي كأعمالِهِ ٱلناقصةِ دائماً ـ دعَوْهُ لإلقاءِ (محاضرة) في نادي ٱلمدارسِ ٱلعليا، وَٱلنادي يومئذٍ يجمعُ خيرَ ٱلشبابِ حميةً وعِلْماً وكانَ صاحبُ ٱلسرِّ فيهِ (السكرتير) زينةَ شبابِ ٱلوطنيَّةِ ٱلمرحومَ أمين بك ٱلرافعيّ؛ فقامَ حافظٌ فأنشدَهُم بعضَ ما ترجَمَهُ نَظْماً عن شكسبير، ومثَّلَهُ تمثيلاً أفرغَ فيهِ جُهْدَه، فأطربَ وأعجب: ثُمَّ سألوه (ٱلمحاضرةَ) فأخذَ يُلقي عليهم من نوادرِه، وبدأ كلامَهُ بِهذه ٱلنادرة: عُرِضَتْ على ٱلمعتصم جاريةٌ يشتريها، فسألَها: أنت بكرٌ أم ثيِّب؟ فقالت: كثُرتِ ٱلفُتوحُ على عهدِ ٱلمعتصم...

ونظرَ حافظٌ إلى وجوهِ ٱلقوم فأنكرَها... وبقيَتْ هذه ٱلوجوهُ إلى آخرِ ٱلمحاضرةِ كأنَّها تقولُ له: إنَّك لم تُفلِح!

ولقد كانَ هذا من أقوى ٱلأسبابِ في تنبُّهِ (حافظ) إلى ما يجبُ لِلشبابِ عليهِ إنْ

أرادَ أنْ يكونَ شاعِرَه، فأقبلَ على ٱلقصائدِ ٱلسياسيَّةِ ٱلتي كسبَهُمُ بها من بعد؛ ونادرةُ ٱلمعتصم كٱلعورةِ ٱلمكشوفة؛ ولسْتُ أدري أكانَ حافظٌ يعرفُ ٱلنادرةَ ٱلبديعةَ ٱلأخرى أم لا؛ فقد عُرِضَتْ جاريةٌ أديبةٌ ظريفةٌ على ٱلرشيدِ فسألَها: أنت بكرٌ أم إيش؟

فقالَت: أنا (أمُّ إيش) يا أميرَ ٱلمؤمنين. . .

* * *

وفنُّ (ٱلشعرِ ٱلاجتماعيِّ) ٱلذي عُرِفَ بِهِ حافظ، لم يكنْ فنَّه من قبل، ولا كانَ هو قد تنبَّهَ لَهُ أو تحرّاهُ في طريقتِه؛ فلمَّا جاءَتْ إلى مِصْرَ ٱلإمبراطورةُ (أو...ينى) نظمَ قصيدتَهُ ٱلنونيَّة ٱلتي يقولُ فيها:

فٱعذُرينا على ٱلقصورِ، كِلانا غيَّرتْهُ طوارِئُ ٱلحدثانِ[1]

ولقيتُهُ بعدَها فسألَني رأيي في هذه ٱلقصيدة، وكانَ بها مُدِلاً مُعجباً، شأنُهُ في كلِّ شعرِه؛ فٱنتقدْتُ منها أشياءَ في ألفاظِها ومعانيها، وأشرْتُ إلى ٱلطريقةِ ٱلتي كانَ يَحسُنُ أنْ تُخاطَبَ بها ٱلإمبراطورة؛ فكأنَّني أغضبْتُه؛ فقال: إنَّ ٱلشيخَ محمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين ـ أجمعوا على أنَّ هذا ٱلنمطَ هو خيرُ ٱلشعرِ، وقالوا لي: إذا نظمْتَ فٱنظمْ مثلَ هذا «ٱلشعر الاجتماعيّ»، ثُمَّ كأنَّهُ تنبَّهَ إلى أنَّها طريقةٌ يستطيعُ أنْ ينفرِدَ بها، إنَّ كلَّ قصائدِ شوقي ٱلآنَ غزلٌ ومدح، ولا أثرَ فيها لِهذا ٱلشعر، على أنَّهُ هو ٱلشعر.

وتتابعَتْ قصائدُهُ ٱلاجتماعيَّة، فلقيَني بعدَها مرَّةً أخرى فقالَ لي: إنَّ ٱلشاعرَ ٱلذي لا ينظمُ في ٱلاجتماعيَّاتِ ليس عندي بِشاعر. وأردْتُ أنْ أُغيظَهُ فقلْتُ لَهُ: وما هي ٱلاجتماعيَّاتُ إلَّا جعلُ مُقالاتِ ٱلصحفِ قصائد؟. . .

فٱلأستاذُ ٱلإمامُ وسعدُ زغلول وقاسم أمين: أحدُ هؤلاءِ أو جميعُهم أصلُ هذا ٱلمذهبِ ٱلذي ذهبَ إليهِ حافظ، وهو كثيراً ما كانَ يقتبِسُ مِنَ ٱلأفكارِ ٱلتي تعرضُ في مجلسِ ٱلشيخُ محمد عبده، من حديثِهِ أو حديثِ غيرِهِ، فيبني عليها أو يُدخِلُها في شعره، وهو أحياناً رديءُ ٱلأخذِ جدّاً حينَ يكونُ ٱلمعنى فلسفيّاً؛ إذْ كانَتْ ملكةُ ٱلفلسفةِ فيهِ كَٱلمعطَّلة، وإنَّما هيَ في ٱلشاعرِ من مَلَكةِ ٱلحُبّ، وإنَّما أولُها وأصلُها دخولُ ٱلمرأةِ في عالمِ ٱلكلامِ بِإبهامِهَا وثرثرتِها. . .

* * *

---

(١) الحدثان: المصائب.

وكنْتُ أولَ عهدي بِٱلشعرِ نَظَمْتُ قصيدةً مدحْتُ فيها ٱلأستاذَ ٱلإمامَ وأنفذْتُها إليه، ثُمَّ قابلْتُ حافظ بعدَها فقالَ لي: إنَّهُ هو تلاها على ٱلإمام، وإنَّهُ ٱستحسَنَها؛ قُلْت: فماذا كانَتْ كلمتُهُ فيها؟ قال: إنَّه قال: لا بأسَ بها. . .

فٱضطربَ شيطاني مِنَ ٱلغضب، وقلْتُ له: إنَّ ٱلشيخَ ليسَ بِشاعر، فليسَ لِرأيِهِ في ٱلشعرِ كبيرُ معنًى!. قال: ويحَك!. إنَّ هذا مَبْلغُ ٱلاستحسانِ عنده.

قلْت: وماذا يقولُ لك أنت حين تُنشدُه؟ قال: أعلى من ذلك قليلاً. . . فأرضانيَ ـ وٱللهِ ـ أنْ يكونَ بيني وبينَ حافظ (قليل)، وطمعْتُ من يومئذٍ.

وأنا أرى أنَّ (حافظ إبراهيم) إنْ هو إلَّا ديوانُ (ٱلشيخِ محمد عبده): لولا أنَّ هذا هذا، لما كان ذلك ذلك.

ومن أثر ٱلشيخِ في حافظٍ أنَّهُ كانَ دائماً في حاجةٍ إلى مَنْ يَسمعُه، فكانَ إذا عملَ أبياتاً ركَبَ إلى إسماعيل باشا صبري في ٱلقصر ٱلعِيني، وطافَ على ٱلقهواتِ وٱلأنديَةِ يُسمعُ ٱلناسَ بِٱلقوَّة. . . إذْ كانَتْ أذُنُ ٱلامامِ هيَ ٱلتي رَبَّتِ ٱلمَلَكةَ فيه؛ وقد بيَّنا هذا في مقالِنا في (المقتطَف).

وكانَ تمامُ ٱلشعرِ ٱلحافظي أنْ يُنشدَهُ حافظٌ نفسَه؛ وما سمعْتُ في ٱلإنشادِ أعربَ عربيَّةً مِنَ ٱلبارودي، ولا أعذبَ عذوبةً منَ ٱلكاظميّ، ولا أفخمَ فخامةً من حافظ ـ رحَمهُمُ ٱللَّهُ جميعاً ـ.

وكانَ أديبُنا يُجلُّ ٱلبارودِيَّ إجلالاً عظيماً، ولَمَّا قالَ في مدحِه:

فمُرْ كلَّ معنًى فارسيٍّ بِطاعتي   وكلَّ نفورٍ منهُ أنْ يتودَّدا

قلْتُ لَهُ: ما معنى هذا؟ وكيف يأمرُ ٱلباروديُّ كلَّ معنًى فارسيّ وما هو بِفارسيّ؟

قال: إنَّهُ يعرفُ ٱلفارسيَّة، وقد نظمَ فيها، وعندَهُ مجموعةٌ جمعَ فيها كلَّ ٱلمعاني ٱلفارسيَّةِ ٱلبديعةِ ٱلتي وقفَ عليها؛ قلْت: فكانَ ٱلوجهُ أنْ تقولَ له: أعِرْني ٱلمجموعةَ ٱلتي عندَك. . .

أمَّا ٱلكاظميُّ فكانَ يُجافيهِ ويبُاعِدُهُ، حتى قالَ لي مرةً وقد ذكَّرْتُهُ بِه: «عَقَقْناهُ يا مصطفى!».

وما أنسى لا أنسى فرَحَ حافظٍ حينَ أعلَمتُهُ أنَّ ٱلكاظميَّ يحفظُ قصيدةً من قصائدِه، وذلك أنَّهُمْ في سنة ١٩٠١ ـ على ما أذكرُ ـ أعلنوا عن جوائزَ يمنحونها

مَنْ يُجيدُ في مدحِ ٱلخديو، وجعلوا ٱلحُكْمَ في ذلك إلى ٱلباروديّ وصبريَ وٱلكاظميّ، ثُمَّ تخلَّى ٱلباروديُّ وصبري، وحكمَ ٱلكاظميُّ وحدَه، فنالَ حافظٌ ٱلمداليةَ ٱلذهبيَّة، ونالَ مثلَها ٱلسيدُ توفيقٌ ٱلبكريّ.

ولَمَّا زُرْتُ ٱلكاظميَّ وكنْتُ يومئذٍ مبتدئاً في ٱلشعرِ ولا أزالُ في ٱلغَرْزَمَةِ[1] قال: لِماذا لم تدخلْ في هذه ٱلمُباراة؟ قلْت: وأين أنا من شوقي وحافظٍ وفلانٍ وفلانٍ فقال: «لِيْه تِخَلِّي هِمِّتَكْ ضعيفة؟» ثُمَّ أسمعني قصيدةَ حافظٍ وكانَ مُعْجَباً بِها، فنقلْتُ ذلك إلى حافظ، فكادَ يطيرُ عن كرسيهِ في ٱلقهوة.

* * *

وكانَ تعنُّتُ حافظٍ على ٱلكاظميِّ لِأَنَّهُ غيرُ مِصْريٍّ، ففي سنةِ ١٩٠٣ كانَتْ تصدرُ في ٱلقاهرةِ مجلةٌ ٱسمها (الثريا)، فظهَر في أحدِ أعدادِها مقالٌ عنِ ٱلشعراءِ بِهذا التوقيع، وٱنفجرَ هذا ٱلمقالُ ٱنفجارَ ٱلبركان، وقامَ بِهِ ٱلشعراءُ وقعدوا، وكانَ لَهُ في ٱلغارةِ عليهم كزَفيفِ[2] ٱلجيشِ وقَعْقَعَةِ ٱلسلاح، وتناولتْهُ ٱلصُحفُ ٱليوميَّة، وٱستمَّرتْ رجفتُهُ ٱلأدبيَّةُ نحوَ ٱلشهر؛ وٱنتهى إلى ٱلخديو؛ وتكلَّمَ عنهُ ٱلأستاذُ ٱلإمامُ في مجلسِه، وٱجتمعَ لَهُ جماعةٌ من كِبارِ أساتذةِ ٱلعصرِ ٱلسوريِّين، كَٱلعلامةِ سليمانَ ٱلبستاني، وأديبِ عصرهِ ٱلشيخ إبراهيمَ ٱليازَجيّ، وَٱلمؤرخِ ٱلكبيرِ جورجي زيدان ـ إذْ كانَ صاحبَ ٱلمجلةِ سوريّاً ـ وجعلوا ينفذونَ إلى صاحبِ ٱلمجلةِ دسيساً بعدَ دسيسٍ[3] لِيعلموا من هو كاتبُ ٱلمقال.

وشاعَ يومئذٍ أنِّي أنا ٱلكاتبُ لَه؛ وكانَ ٱلكاظميُّ على رأسِ ٱلشعراءِ فيهِ؛ فغضِبَ حافظٌ لِذلك غَضَباً شديداً، وما كادَ يراني في ٱلقاهرةِ حتى ٱبتدرَني بِقولِه: وربِّ ٱلكعبةِ أنت كاتبُ ٱلمقال، وذِمَّةِ ٱلإسلامِ أنت صاحبُه!

ثُمَّ دخلْنا إلى «قهوة الشيشة»، فقالَ في كلامِهِ: إنَّ ٱلذي يُغيظُني أنْ يأتيَ كاتبُ ٱلمقالِ بِشاعرٍ من غيرِ مِصْرَ فيضعَهُ على رؤوسِنا نحن ٱلمصريين!. فقلْت: ولعلَّ هذا قد غاظَكَ بِقدرِ ما سرَّكَ ألَّا يكونَ ٱلذي على رأسِكَ هو شوقي...

وغضبَ ٱلسيدُ توفيقٌ ٱلبكريُّ غضباً من نوعٍ آخر، فٱستعانَ بِٱلمرحومِ ٱلسيدِ مصطفى ٱلمنفلوطي ٱستعانةً ذهبيَّة... وشمَّرَ ٱلمَنفلوطيُّ فكتبَ مقالاً في (مجلة

---

(١) الغرزمة: المحاولات الأولى في إنشاد الشعر.

(٢) زفيف الجيش: صوته أثناء تقدّمه. (٣) دسيس: جاسوس.

سركيس) يُعارضُ بِهِ مقالَ (ٱلثريا)، وجعلَ فيهِ ٱلبكريَّ على رأسِ ٱلشعراء. . . ومدحَهُ مَدْحاً يَرِنُّ رنينا.

أمَّا أنا فتناولَني بِمَا ٱستطاعَ مِنَ ٱلذمّ، وجرّدَني مِنَ ٱلألفاظِ وَٱلمعاني جميعاً، وعدّني في ٱلشعراءِ لِيقولَ إنِّي لسْتُ بِشاعر. . . فكانَ هذا ردَّ نفسِهِ على نفسِه.

وتعلَّقَ مقالُ ٱلمنفلوطيِّ على ٱلمقالِ ٱلأولِ فٱشتهر بِهِ لا بِٱلمنفلوطيّ؛ وغَضِبَ حافظٌ مرَّةً ثانية، فكتبَ إليَّ كِتاباً يذكرُ فيهِ تعسُّفَ هذا ٱلكاتبِ وتحاملَه، ويقول: قد وكَّلْتُ إليكَ أمرَ تأديبِهِ. . .

فكتبْتُ مقالاً في جريدةِ (ٱلمنبر)، وكانَ يُصدرُها ٱلأستاذانِ محمد مسعود وحافظ عوض، ووضعْتُ كلمةَ ٱلمنفلوطيِّ ٱلتي ذمَّني بها في صدرِ مقالي أُفاخِرُ بِها. . . وقلْت: إنِّي كذلك ٱلفيلسوفِ ٱلذي أرادوهُ أنْ يشفعَ إلى مَلِكِه، فأكبَّ على قدمِ ٱلملكِ حتى شفَّعَه؛ فلمَّا عابوهُ بأنَّهُ أذالَ حُرْمةَ ٱلفلسفةِ بِٱنحنائِهِ على قدمِ ٱلملكِ وسجودِهِ لَهُ، قال: ويحكُم!. فكيف أصنعُ إذا كانَ ٱلمَلِكُ قد جعلَ أُذُنيهِ في رِجليه. . .

* * *

ولم يكنْ مضى لي في معالجةِ ٱلشعرِ غيرُ سنتينِ حينَ ظهَر مقالُ (الثريا)، ومع ذلك أصبَح كلُّ شاعرٍ يُريدُ أنْ يعرفَ رأْيي فيه؛ فمرْرتُ ذاتَ يوم (بحافظ) وهو في جماعةٍ لا أعرفُهُم، فلمَّا ٱطمأَنَّ بِيَ ٱلمجلسُ قالَ حافظ: ما رأيُكَ في شعرِ ٱليازجيّ؟ فأجبْتُه، قال: فَٱلبستانيّ؟ فنجيبِ ٱلحداد؟ ففلان؟ ففلان؟ فداود عمون؟ قلْت: هذا لم أقرأْ لَهُ إلَّا قليلاً لا يَسُوغُ معَهُ ٱلحكمُ على شعرهِ. قال: فماذا قرأْتَ لَهُ؟ قلْت: رَدَّهُ على قصيدتِكَ إليه:

شَجَتْنَا مَطَالِعُ أقمارِها

قال: فما رأيُك في قصيدتهِ هذه؟ قلْت: هيَ مِنَ ٱلشعرِ ٱلوسطِ ٱلذي لا يعلو ولا ينزل.

فما راعني إلَّا رجلٌ في ٱلمجلسِ يقول: أنصفْتَ ـ وٱلله ـ!. فقالَ حافظ: أقدّمُ لك داود بك عمون!. . .

رحمَ ٱلله تلك ٱلأيام!.

شـوقـي

هذا هو آلرجلُ ٱلذي يُخيَّلُ إليَّ أنَّ مِصْرَ ٱختارَتْهَ دونَ أَهلِها جميعاً لِتضعَ فيهِ رُوحَها ٱلمُتكلِّم، فأوجبَتْ لَهُ ما لَمْ تُوجِبْ لِغيرِهِ، وأعانَتْهُ بِما لم يتَّفِقْ لِسواه، ووهَبَتْهُ مِنَ ٱلقُدْرةِ وَٱلتمكين وأسبابِ ٱلرياسةِ وخصائصِها على قدرِ أمَّةٍ تُريدُ أنْ تكونَ شاعرةً، لا على قدرِ رجلٍ في نفسِه؛ وبِهِ وحدَهُ ٱستطاعَتْ مِصْرَ أنْ تقولَ للتاريخ: شعري وأدبي!

شوقي: هذا هوَ ٱلاسمُ ٱلذي كانَ في ٱلأدبِ كَٱلشمسِ مِنَ ٱلمشرق: متى طلعَتْ في مَوْضِعٍ فقد طلعَتْ في كلِّ مَوْضِعٍ، ومتى ذُكِرَ في بلدٍ من بلادِ ٱلعالمِ ٱلعربيِّ ٱتَّسعَ معنىً ٱسمِهِ فدلَّ على مِصْرَ كلِّها كأنَّما قِيلَ ٱلنيلُ أوِ ٱلهرمُ أوِ ٱلقاهرة؛ مترادفاتٌ لا في وضعِ ٱللغةِ ولكنْ في جلالِ ٱللغة.

رجلٌ عاشَ حتى تَمَّ، وذلك برهانُ ٱلتاريخِ على ٱصطفائِهِ لِمِصر، ودليلُ ٱلعبقريَّةِ على أنَّ فيهِ ٱلسرَّ ٱلمتحرِّكَ ٱلذي لا يقفُ ولا يَكِلُّ ولا يقطعُ نظامَ عملِه، كأنَّ فيهِ حاسَّةَ نحلةٍ في حديقة، ويكبرُ شعرُهُ كلَّمَا كَبُرَ ٱلزمن، فلم يتخلَّفْ عن دهرِه، ولم يقعْ دونَ أبعدِ غاياتِه، وكأنَّهُ مَعَ ٱلدهر على سياقٍ واحد، وكأنَّ شعرَهُ تاريخٌ مِنَ ٱلكلامِ يتطوَّرُ أطوارَهُ في ٱلنموِّ فلم يجمُدْ ولم يرتكِسْ[1]، وبقِيَ خيالُ صاحبِهِ إلى آخرِ عمرِهِ في تدبيرِ ٱلسماءِ كَعَرَّاضِ ٱلغمامة، سحابُهُ كثيرُ ٱلبرقِ مُمْتلىءٌ مُمْطِرٌ ينصبُّ من ناحيةٍ ويمتلىءُ من ناحية.

وٱلناسُ يُكتبُ عليهِمُ ٱلشبابُ وَٱلكهولةُ وَٱلهرَم، ولكنَّ ٱلأديبَ ٱلحقَّ يُكتبُ عليهِ شبابٌ وكهولةٌ وشباب؛ إذْ كانت في قلبِهِ ٱلغاياتُ ٱلحيَّةُ ٱلشاعرة، ما تنفكُّ يَلِدُ بعضُها بعضاً إلى ما لا ٱنقطاعَ لَهُ، فإنَّها ليسَتْ من حياةِ ٱلشاعرِ ٱلتي خُلِقَتْ في قلبِه، ولكنَّها من حياةِ ٱلمعاني في هذا ٱلقلب.

* * *

(١) يرتكس: يتراجع.

أقررُ هذا في شوقي ـ رحمهُ ٱللهُ ـ، وأنا من أعرفِ ٱلناسِ بعُيوبهِ وأماكنِ ٱلغميزةِ في أدبِهِ وشعرِه؛ ولكنَّ هذا ٱلرجلَ ٱنْفَلَتَ من تاريخِ ٱلأدبِ لِمِصَر وحدَها كَٱنفلاتِ ٱلمطْرةِ من سحابِها ٱلمتسايرِ في ٱلجوّ، فأصبحتْ مِصْرُ بِهِ سيِّدةَ ٱلعالمِ ٱلعربيِّ في ٱلشعر، وهيَ لم تُذْكرْ قديماً في ٱلأدبِ إلَّا بِٱلنكتةِ وٱلرقَّةِ وصِناعاتٍ بديعيَّةٍ مُلَفَّقَة، ولم يَسْتَفِضْ لها ذِكْرٌ بنابغةٍ ولا عبقريٍّ، وكانَتْ كَٱلمستجديَّةِ من تاريخِ ٱلحواضرِ في ٱلعالم، حتى إن أبا محمدٍ ٱلملقبَ بولي ٱلدولةِ صاحبَ ديوانِ ٱلإنشاءِ في مِصْرَ للظاهرِ بُن ٱلمستنصر (وقد توفي سنة ٣٤١هـ)، وكانَ رِزقُهُ ثلاثةَ آلافِ دينارٍ في ٱلسنةِ غيرَ رسومٍ يستوفيها على كلِّ ما يكتُبه ـ سلَّمَ لِرسولِ ٱلتجارِ إلى مِصْرَ من بغدادَ جزءين من شعرِهِ ورسائلِهِ يحملُهُما إلى بغدادَ لِيعرضَهُما على الشريفِ المرتضى وغيرِهِ من أدبائِها، فيستشيرَهم في تخليدِ هذا ٱلأدبِ ٱلمِصْريِّ بِدارِ ٱلعِلْم إنِ ٱستجادوهَ وَٱرتَضَوْه، كأنَّ حِفْظَ ديوانٍ من شعرِ مِصْرَ ونشرها في مكتبةِ بغدادَ قديماً يُشبهُ في حوادثِ دهرِنا ٱستقلالَ مِصْرَ وقبولَها في عصبةِ ٱلأُمم. . .

وهذا أحمدُ بْنُ عليٍّ ٱلأسوانيُّ إمامٌ من أئمةِ ٱلأدبِ في مِصْرَ (توفي سنة ٥٦٢)، وكانَ كاتِباً شاعراً يجمعُ إلى علومِ ٱلأدبِ ٱلفِقْهَ وَٱلمنطقَ وٱلهندسةَ وٱلطِّبَّ وَٱلموسيقى وَٱلفَلَك ـ أرادَ أنْ يُدوِّنَ شعْرَ ٱلمِصْريين، فجمعَ من شعرِهِم (وشعر من طرأ عليهم) أربعَ مجلدات، كأنَّ ٱلشعرَ ٱلمِصْريَّ وحَدهُ إلى آخِرِ ٱلقرنِ السادسِ للهجرة، في ٱلعهد ٱلذي لم يكنْ ضاعَ فيهِ شيءٌ مِنَ ٱلكتبِ وٱلدواوين لا يملأُ أربعَ مجلدات. . على ٱختلافِهِم في مِقْدارِ ٱلمجلَّدة، فقد تكونُ جزءاً لطيفَ ٱلحجم؛ وَٱلأسونيُّ نفسُهُ يبلغُ ديوانُهُ نحوَ مئةِ ورقة.

وأخوه ٱلحسنُ ٱلمعروفُ بِٱلمهذَّبِ (ٱلأسوانيّ ٱلمتوفى سنة ٥٦١) قالَ ٱلعمادُ ٱلكاتبُ إِنَّهُ لم يكن بِمِصْرَ في زمنِهِ أشعرُ منه، وسارَتْ لَهُ في ٱلناسِ قصيدةٌ سمَّوْها ٱلنواحةِ، وصفَ فيها حنينهُ إلى أخيهِ وقد رحلَ إلى مكةَ وطالَتْ غيبتُهُ بِها وخِيفَ عليه؛ فَٱلرجلُ أشعرُ أهلِ مِصْرَ في زمنِه، وحادثةُ ٱلنواحةِ تجعلُهُ في هذا ٱلمعنى أشعرَ من نفسِه، على أنَّهُ مع هذا لم يقلْ إلَّا من هذا:

يا ربعُ أَنْ نَرَى ٱلأَحِبَّةَ يَمَّمُوا ... هلْ أنجدوا من بعدِنا أمْ أتْهمُوا
رَحَلُوا وفي ٱلقَلْبِ ٱلمعنَّى[1] بعدَهُمْ ... وَجْدٌ[2] على مَرِّ ٱلزمانِ مُخَيِّمُ

---

(١) المعنّى: المقيّد (٢) وجد: حبّ.

وتعوّضتْ بِالأُنسِ نفسي وَحْشَةً لا أوحشَ اللّهُ المنازلَ منهُمُ. . .

ولولا ابْنُ الفارضِ وَالبهاءُ زهيرٌ وَابنُ قلاقس الإسكندريُّ وأمثالُهم، وكلُّهم أصحابُ دواوينَ صغيرةٍ، ولَيسَ في شعرِهم إلَّا طابعُ النيل، أي الرقةُ والحلاوةُ ـ لولا هؤلاءِ في المتقدمينَ لأجدبَ تاريخُ الشعرِ في مِصْر؛ ولولا البارودِيُّ وصبري وحافظٌ في المتأخرين؛ وكلُّهُمْ كذلك أصحابُ دواوينَ صغيرة، لَمَا ذُكِرَتْ مِصْرُ بِشعرِها في العالم العربيّ؛ على أنَّ كلَّ هؤلاءِ وكلَّ أولئك لم يستطيعوا أنْ يضعوا تاجَ الشعرِ على مِفْرَقِ مِصْر، ووضعَهُ شوقي وحدَه!

وَالعجبُ أنَّ دواوينَ المُجيدينَ من شعراءِ المصريين لا تكونُ إلَّا صغيرة، كأنَّ طبيعةَ النيلِ تأخذ في المعاني كَأَخذِها في المادَّة، فلا فيضَ ولا خِصْبَ إلَّا في وقتٍ بعدَ أوقات، وفي ثلاثةِ أشهرٍ من كلِّ اثني عَشَرَ شهراً؛ ومن جمالِ الفراشةِ أنْ تكونَ صغيرة، وحسبُها عندَ نفسِها أنْ أجنحتَها منقَّطةٌ بِالذهب، وأنَّها هيَ نُكتةٌ من بديع الطبيعة!

على أنَّكَ واجدٌ في تاريخ الأدبِ المِصْريِّ عجيبةً من عجائبِ الدنيا لا تُذكرُ معها الإلياذةُ ولا الانيادة ولا الشاهنامةُ ولا غيرُها، ولكنَّها عجيبةٌ ملأَتْها روحُ الصحراءِ إنْ كانَتْ تلك الدواوينُ الصغيرةُ من روحِ النيل؛ وهيَ قصيدةٌ نظمَها أبو رجاءِ الأسوانيُّ المتوفى سنة ٣٣٥هـ، وكان شاعراً فقيهاً أديباً عالماً كما قالوا، وزعموا أنه اقتصَّ في نظمِهِ أخبارَ العالم وقصصَ الأنبياءِ واحداً بعدَ واحد، قالوا وسئلَ قبلَ موتِهِ كم بلغَتْ قصيدتُك؟ فقالَ: ثلاثينَ ومائة ألف بيت. . . وما أشكُّ أنَّ هذا الرجلَ وقَع لَهُ تاريخُ الطبريِّ وكُتُبُ السيرِ وقصصُ الإسرائيلياتِ فنظمَها مُتُوناً مُتُوناً. . . وأفنى عمرَهُ في ١٣٠ ألفِ بيتٍ حوَّلَها التاريخُ إلى خبرٍ مُهْمَلٍ في ثلاثةِ أسطر!

* * *

كلُّ شاعرٍ مِصْريٍّ هو عندي جزْءٌ من جزْء، ولكنَّ شوقي جزْءٌ من كلّ؛ وَالفرْقُ بينَ الجزءينِ أنَّ الأخيرَ في قوَّتِهِ وعظمتِهِ وتمكُّنِهِ وَاتِّساعِ شعرِهِ جزءٌ عظيمٌ كأنَّهُ بِنفسِهِ الكلُّ؛ ولم يتركْ شاعرٌ في مِصْرَ قديماً وحديثاً ما تركَ شوقي، وقدِ اجتمعَ لَهُ ما لم يجتمعْ لِسواه؛ وذلك مِنَ الأدلةِ على أنَّهُ هُوَ المُختارُ لِبلادِهِ، فساوى الممتازينَ من شعراءِ دهرِهِ وارتفعَ عليهم بأمورٍ كثيرةٍ هيَ رزقُ تاريخِهِ مِنَ القوَّةِ المدبِّرةِ التي لا حِيلةَ لِأحدٍ أنْ يأخذَ منها ما لا تُعطي، أو يزيدَ ما تُنقصُ، أو يُنقِصُ

ما تَزيد؛ وقد حاولوا إسقاطَ شوقي مِراراً فأراهم غُبارَهُ ومضى متقدِّماً، ورجعَ مَنْ رجعَ منهم لِيغسلَ عينيه... ويرى بِهما أنَّ شوقي مِنَ ٱلنفسِ ٱلمِصْرِيَّةِ بِمنزلةِ ٱلمجدِ ٱلمكتوبِ لها في ٱلتاريخِ بِحزْبِ ونصر، وما هو بِمنزلةِ شاعرٍ وشعره.

وُلِدَ شاعُرنا سنة ١٨٦٨ في نعمةِ ٱلخديو إسماعيلَ باشا، ونثرَ لَهُ ٱلخديو ٱلذهبَ وهو رضيعٌ في قصةٍ ذكرَها شوقي في مقدمةِ ديوانِهِ ٱلقديم، ثُمَّ كفَّلَهُ ٱلخديو توفيقٌ باشا وعلَّمَهُ وأنفقَ عليهِ من سَعَة، وأنزلَ نفسَهُ منهُ منزلةَ أبٍ غنيٍّ كما يقولُ شوقي في مقدمتِه، ثُمَّ تولَّاهُ ٱلخديو عباسٌ باشا وجعلَهُ شاعِرَهُ وتركَهُ يقول:

شاعرُ ٱلعزيزِ وما بِٱلقليلِ ذا ٱللقبُ

وإذا أنت فسَّرْتَ لقبَ شاعرِ ٱلأميرِ هذا بِٱلأميرِ نفسِهِ في ذلك ٱلعهد، خرجَ لك منَ ٱلتفسير: شاعرٌ مُرْهَفٌ مُعانٌ بِأسبابٍ كثيرة، لِيكونَ أداةً سياسيَّةً في ٱلشعبِ ٱلمِصْري، تعملُ لِإحياءِ ٱلتاريخِ في ٱلنفسِ ٱلمِصْرِيَّة، وتبصيرِها بِعَظَمتِها، وإِقْحامِها في معاركِ زمنِها، وتهيئتِها لِلمدافعة، وتَصلُ ٱلشعرَ بِٱلسياسيَّةِ ٱلدينيَّةِ ٱلتي توجَّهَتْ لها ٱلخلافةُ يومئذٍ لِتَضرِبَ فكرةَ أوروبا في تقسيمِ ٱلدولةِ بِفكرةِ ٱلجامعةِ ٱلإسلاميَّة؛ ولا يخرجُ لك شوقي من هذا ٱلتفسيرِ على أنَّهُ رجلٌ في قدْرِ نفسِه، بلْ في قدْرِ أميرِهِ ذلك؛ وكان مُمْتلِئاً شباباً يغلي غلياناً، ومُعدّاً يومئذٍ لِمطامعَ بعيدةٍ ملففةٍ حشوُها ٱلدناميتُ ٱلسياسيّ...

كنْتُ ذاتَ مرَّةٍ أُكلِّمُ صديقي ٱلكاتبَ ٱلعميقَ فرح أنطون صاحبَ (ٱلجامعة) وكان مُعجباً بِشوقي إعجاباً شديداً، فقالَ لي: إنَّ شوقي ٱلآنَ في أفقِ ٱلملوكِ لا في أفقِ ٱلشعراء! قلْت: كأنَّكَ نفيْتَهُ مِنَ ٱلملوكِ وَٱلشعراءِ معاً؛ إذْ لو خرجَ من هؤلاءِ لم يكَنْ شيئاً، ولو نفذَ إلى أولئك لم يُعَدَّ شيئاً، إنَّما ٱلرجلُ في ٱلسياسةِ ٱلملتويَّةِ ٱلتي تصلُهُ بِٱلأمير، هو مرَّةً كوزيرِ ٱلحربيَّة، ومرَّةٍ كوزيرِ ٱلمعارف.

وهذه ٱلسياسةُ ٱلتي ٱرتاضَ بها شوقي ولابَسها من أولِ عهدِه، وَٱتَّجَه شِعرُهُ في مذاهبِها، مِنَ ٱلوطنيَّةِ ٱلمصريَّةِ، إلى ٱلنزعةِ ٱلفرعونيَّة، إلى ٱلجامعةِ ٱلإسلاميَّةِ، فكانَتْ بهذا سببَ نُبُوغِهِ ومادةَ مجدِهِ ٱلشعريّ - هيَ بِعينِها مادةُ نقائِصِه؛ فلقدِ ٱبتلَتْهُ بِحُبِّ نفسِهِ وحُبِّ الثناءِ عليها، وتسخيرِ ٱلناسِ في ذلك بِمَا وسِعَتْهُ قوَّتُه، إلى غيرةٍ أشدَّ من غيرةِ ٱلحسناءِ تقشعِرُ كلُّ شعرةٍ منها إذا جاءَها ٱلحُسْن بِثانية، وهيَ غَيرةٌ وَإنْ كانَتْ مذمومةً في صِلَتِهِ بِٱلأدباءِ ٱلذينَ لَذَّعُوهُ بِٱلجمر... ونحن منهم، غيرَ أنَّها

ممدوحةٌ في موضِعِها مِنْ طبيعتِهِ هو؛ إذْ جعلَتْهُ كَٱلجوادِ ٱلعتيقِ ٱلكريمِ يُنافِسُ حتى ظِلَّه، فعارضَ ٱلمُتقدمينِ بِشعرِهِ كأنَّهُمْ معَهُ، ونافسَ ٱلمُعاصرينَ لِيجَعَلَهُم كأَنَّهُمُ ليسوا معَه، ونافسَ ذاتَهُ أيضاً لِيجعلَ شوقي أشعرَ من شوقي؛ وعندي أنَّ كُلَّ ما في هذا ٱلرجلِ مِنَ ٱلمتناقضاتِ فمرجعُهُ إلى آثارِ تلكَ ٱلسياسةِ ٱلملتويةِ ٱلتي رُدَّتْ بِطبيعةِ ٱلقوَّةِ عِن وجوهِها الصريحة، فجعلَتْ تضطربُ في وجوهٍ مِنَ ٱلحيلِ وَٱلأسبابِ مُدْبِرَةً مُقْبِلةً، مُتَهَدِّيَةً في كلِّ مجاهلِها بإبرةٍ مغناطيسيَّةٍ عجيبةٍ لا يُشْبِهُها في ٱلطبيعةِ إِلَّا أنفُ ٱلثعلبِ ٱلمُتَّجِهِ دائماً إلى رائحةِ الدجاج.

ومؤرخُ ٱلأدبِ الذي يُريدُ أنْ يكتبَ عَنْ شَوقي لا يَصنعُ شيئاً إنْ هُوَ لم يَذكرْ أنّ هذا ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ كانَ هديَّةِ ٱلخديو توفيق وَٱلخديو عباسٍ لِمِصْر، كالدلتا بين فرعي ٱلنيل؛ وما أصابَهُ ٱلمتنبي من سيفِ ٱلدولةِ مِمَّا ٱبتعثَ قَرِّيحتَهُ وراشَ أجنحتَهُ ٱلسماويَّةَ وأضفى ريشَها وَٱنتزَى بِها على ٱلغاياتِ ٱلبعيدةِ في تاريخ ٱلأدب ـ أصابَ ـ شوقي من سُمُوِّ ٱلخديو عباسٍ أكثرَ منه، فكان حقيقاً أنْ يُساويَ ٱلمتنبي أو يتقدَّمَه، ولكنَّهُ لم يبلغْ منزلتَه، لِأنَّ ٱلخديو لم يكنْ كسيفِ ٱلدولةِ في معرفتِهِ بِٱلأدبِ ٱلعربيِّ ورغبتِهِ فيه؛ وسرُّ ٱلمتنبي كانَ في ثلاثةِ أشياء: في جِهازِهِ ٱلعصبيِّ ٱلعجيبِ ٱلذي لا يَقِلُّ في رأيي عمَّا في دماغ شكسبير، وفي ممدوحِهِ ٱلأديبِ ٱلملكِ ٱلذي ينزِلُ من هذا ٱلجهازِ منزلةَ ٱلمهندسِ ٱلكهربائيِّ من آلةٍ عظيمةٍ يُديرُها بِعِلْم ويقومُ عليها بِتدبيرٍ ويحوطُها بِعِناية، ثُمَّ في أفقِ عصرِهِ ٱلمتألِّقِ بنجوم ٱلأدبِ ٱلتي لا يُمكنُ أنْ يظهرَ بينَها إلَّا ما هو في قَدْرِها، ولا يتميَّزُ فيها إلَّا ما هو أكبرُ منها، ولا يتركُها كَٱلمنطفئةِ إِلَّا شمسٌ كشمسِ ٱلمتنبي تتفجَّرُ على ٱلدنيا بِمُعْجِزاتِها ٱلنورانيَّة.

ولقد وٱللَّهِ كانَ هذا ٱلمتنبي كأنَّهُ يُوزِّعُ ٱلشرفَ على ٱلملوكِ وَٱلرؤساء؛ وهلْ أدلُّ على ذلك من أنَّ أبا إسحاقَ ٱلصابي شيخَ ٱلكُتَّابِ في عصرِهِ يُراسلُهُ أنْ يمدحَهُ بِقصيدتين ويُعطيَهُ خمسةَ آلافِ درهم، فيُرسلُ إليهِ ٱلمتنبي: ما رأيْتُ بِٱلعراقِ من يستحقُّ ٱلمدحَ غيرَك، ولكنِّي إنْ مدحْتُكَ تنكَّرَ لك ٱلوزيرُ (يعني ٱلمهلَّبيَّ) لِأنِّي لم أَمدحْهُ، فإنْ كنْتَ لا تُبَالي هذا ٱلحالَ فأنا أُجيبُكَ ولا أُريدُ منك مالاً ولا من شِعري عِوَضاً! فأين في دهرِنا من تُشعِرُهُ عِزَّةُ ٱلأدبِ مثلَ هذا ٱلشعورِ لِيأتيَ بِٱلشعرِ من نفسٍ مستيقنةٍ أنّ ٱلدنيا في ٱنتظارِ كلمتِها؟

على أنَّ شوقي لم يكنْ ينقصُهُ بِٱعتبارِ زمنهِ إلَّا (ٱلجمهورُ ٱلشعريُّ)، وكلُّ بلاءِ ٱلشعرِ ٱلعربي أنَّهُ لا يجدُ هذا ٱلجمهورَ، فٱلشاعرُ بذلك مُنصرِفٌ إلى معانٍ فرديَّةٍ من

ممدوح عظيم أو حبيبٍ عظيم أو سقوطٍ عظيم... حتى ٱلطبيعةُ تظهرُ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ كأنَّها قِطَعٌ مبتورةٌ مِنَ ٱلكَوْنِ داخلةٌ في ٱلحدودِ لابسةٌ ٱلثياب؛ ومن ذلك ينبغُ ٱلشاعرُ وليسَ فيهِ مِنَ ٱلإحساسِ إلَّا قدْرُ نفسِهِ لا قدْرُ جمهورِه، وإلَّا ملءَ حاجاتِهِ لا ملءَ ٱلطبيعة؛ فلا جَرَمَ يقعُ بعيداً عنِ ٱلمعنى ٱلشاملِ ٱلمتَّصلِ بٱلمجهول، ويسقطُ بشعرِهِ على صورٍ فرديَّةٍ ضيقةِ ٱلحدود، فلا تجدُ في طبعِهِ قوَّةَ ٱلإحاطةِ وَٱلتبسُّطِ وَٱلشمولِ وَٱلتدقيق، ولا تُؤاتيهِ طبيعتُهُ أنْ يستوعبَ كلَّ صورةٍ شعريَّةٍ بخصائصِها، فإذا هو على ٱلخاطرِ ٱلعارضِ يأخذُ من عَفوِهِ ولا يُحسنُ أنْ يُوغِلَ[1] فيه، وإذا هو على نزواتٍ ضعيفةٍ مِنَ ٱلتفكير لا يطولُ لها بحثُهُ ولا يتقدَّمُ فيها نظرهُ، وإذا نفسُهُ تمرُّ على ٱلكَوْنِ مرًّا سريعاً، وإذا شعرُهُ مقطَّعٌ قِطَعاً، وإذا آلامُهُ وأفراحُهُ أوصافٌ لا شعور، وكلماتٌ لا حقائق، وظِلٌّ طامسٌ ملقًى على ٱلأرضِ إذا قابَلْتَهُ بتفاصيلِ ٱلجسمِ ٱلحيِّ ٱلسائرِ على ٱلأرض.

وَٱجتمعَ لِشوقي في ميراثِ دمِهِ ومجاري أعراقِهِ عنصرٌ عربيٌّ، وآخرُ تركيٌّ، وثالثٌ يونانيٌّ، ورابعٌ شركسيٌّ؛ وهذه كثرةٌ إنسانيةٌ لا يأتي منها شاعرٌ إلَّا كانَ خليقاً أنْ يكونَ دولةً من دولِ ٱلشعر، وإلى هذا وُلِدَ شاعرُنا بٱختلالِهِ ٱلعصبيِّ في عينيه، كأنَّ هذا دليلٌ طبيعيٌّ على أنَّ وراءهُما عينينِ لِلمعاني تُزاحمانِ عيني ٱلبصر؛ وما لم يكنِ ٱلتركيبُ ٱلعصبيُّ في ٱلشاعر مُهيَّأً لِلنبوغ، فَٱعلمْ أنَّهُ وقعَ من تقاسيمِ ٱلدنيا في غيرِ ٱلشعر، وليسَ في ٱلطبيعةِ ولا في ٱلصناعةِ قوةٌ تجعلُ حُنجرةَ ٱلبلبلِ في غيرِ ٱلبلبلِ؛ ومعَ كلِّ ما تقدَّمَ فقدْ أُعينَ شوقي على ٱلشعرِ بفراغِهِ لَهُ أربعاً وأربعينَ سنة، غيرَ مشتركِ ٱلعمل، ولا مُتقَسِّم ٱلخاطر، على سَعَةٍ في ٱلرزقِ وبَسْطةٍ في ٱلجاهِ وعلوٍّ في ٱلمنزلة، وبين يديهِ دواوينُ ٱلشعرِ ٱلعربيِّ وٱلأوربيِّ وٱلتركيِّ وٱلفارسيِّ؛ وإنْ تنسَ فلا تنسَ أنَّ شاعرَنا هذا خُصَّ بنشاطِ ٱلحياة، وهو روحُ ٱلشعرِ لا روحَ لِلشعر بدونِه، فسافرَ ورحلَ وتقلَّبَ في ٱلأرض، وخالطَ ٱلشعوبَ وَٱستعرضَ ٱلطبيعة يتخلَّلها بِبَصَرِهِ ما بينَ ٱلأندلسِ وَٱلأستانة، وظهيرُهُ على ذلك مالُهُ وفراغُهُ؛ وإنَّما قوةُ ٱلشعرِ في مساقطِ ٱلجوّ، ففي كلِّ جوٍّ جديدٍ روحٌ لِلشاعرِ جديدة؛ وَٱلطبيعةُ كَٱلناس: هيَ في مكانٍ بيضاءُ وفي مكانٍ سوداء، وهيَ في مَوْضِعٍ نائمةٌ تحلُمُ وفي موضِعٍ قائمةٌ تعمل، وفي بلدٍ هيَ كَالأنثى ٱلجميلة، وفي بلدٍ هيَ كالرجلِ

---

(١) يُوغل: يدخل إلى أقصى ما يمكن.

ٱلمُصارع؛ ولن يجتمعَ لك روحُ ٱلجِهازِ ٱلعصبيِّ على أقواهُ وأشدِّهِ إلّا إذا أطعَمْتَهُ مع صنوفِ ٱلأطعمةِ ٱللذيذةِ ٱلمفيدة، ألوانَ ٱلهواءِ ٱللذيذ ٱلمفيد.

وعندي أنَّهُ لا أملَ أنْ ينشأ لِمِصْرَ شاعرٌ عظيمٌ في طبقةِ ٱلفحولِ من شعراءِ ٱلعالم، إلّا إذا أُعيدَ تاريخُ شوقي مُهَذَّباً مُنَقَّحاً في رجلٍ وهبَهُ ٱللَّهُ مواهبَه، ثُمَّ تَهبُهُ ٱلحكومةُ ٱلمصريَّةُ مواهبَها.

* * *

وَٱلكتابُ ٱلأولَ ٱلذي راضَ خيالَ شوقي وصقلَ طبعَهُ وصحَّحَ نشأتَهُ ٱلأدبيَّة، هو بعينِهِ ٱلذي كانَتْ منه بصيرةُ حافظ وذكرناهُ في مقالِنا عنه، أي كتابُ «ٱلوسيلةِ ٱلأدبيَّةُ» لِلمرصفي؛ وليسَ ٱلسرُّ في هذا الكتاب ما فيهِ من فنونِ ٱلبلاغةِ ومختاراتِ ٱلشعرِ وَٱلكتابة، فهذا كلُّهُ كانَ في مِصْرَ قديماً ولم يُغْنِ شيئاً ولم يُخرجْ لها شاعراً كشوقي، ولكنَّ ٱلسرَّ ما في ٱلكتابِ من شعرِ ٱلباروديِّ لِأنَّهُ معاصر، وَٱلمعاصرةُ ٱقتداءٌ ومُتابعةٌ على صوابٍ إنْ كانَ ٱلصواب، وعلى خطإٍ إنّ كانَ ٱلخطأ؛ وقد تصرَّمَتِ[1] ٱلقرونُ ٱلكثيرةُ وَٱلشعراءُ يتناقلونَ ديوانَ ٱلمتنبي وغيرِه، ثُمَّ لا يجيئونَ إلّا بشعرِ ٱلصناعةِ وَٱلتكلُّف، ولا يُخلِّدُ ٱلجِيلُ منهم إلّا لما رأى في عصرِه، ولا يستفتحُ غيرَ ٱلبابِ ٱلذي فُتِحَ لَهُ، إلى أَنْ كانَ ٱلباروديُّ، وكانَ جاهِلاً بِفنونِ ٱلعربيَّةِ وعلومِ ٱلبلاغة، لا يُحسِنُ منها شيئاً، وجهلُهُ هذا هو كلُّ ٱلعِلْمِ ٱلذي حوَّلَ ٱلشعرَ من بعد؛ فيا لها عجيبةً مِنَ ٱلحِكمة! وهيَ دليلٌ على أنَّ أعمالَ ٱلناسِ ليسَتْ إلّا خضوعاً لِقوانينَ نافذةٍ على الناس. وأكبَّ ٱلباروديُّ على ما أطاقَهُ، وهو ٱلحِفْظُ من شِعْرِ ٱلفحول؛ إذْ لا يحتاجُ ٱلحِفْظُ إلى غيرِ ٱلقراءة، ثُمَّ ٱلمعاناةِ وَٱلمزاولة؛ وكانَتْ فيهِ سليقة، فخرجَتْ مخرجَ مِثلِها في شعراءِ ٱلجاهليَّةِ وَٱلصدرِ ٱلأولِ مِنَ ٱلحِفْظِ وَٱلرواية، وجاءَتْ بذلك ٱلشعرِ ٱلجزْلِ ٱلذي نقلَهُ ٱلمرصفي بإلهام مِنَ ٱللَّهِ ـ تعالى ـ لِيُخرجَ بهِ لِلعربيةِ حافظ وشوقي وغيرَهما، فكلُّ ما في ٱلكتَّابِ أنَّهُ ينقلُ روحَ ٱلمُعاصرةِ إلى روحِ ٱلأديبِ ٱلناشيء، فتبعثُهُ هذه ٱلروحُ على ٱلتمييزِ وصِحَّةِ ٱلاقتداء، فإذا هو على ميزةٍ وبصيرة، وإذا هو على ٱلطريقِ ٱلتي تنتهي بهِ إلى ما في قوَّةِ نفسِهِ ما دامَ فيهِ ذكاءٌ وطبع؛ وبهذا ٱبتدأ شوقي وحافظ من موضعٍ واحد، وَٱنتهى كلاهُما إلى طريقةٍ غيرِ طريقةِ ٱلآخر، وَٱلطريقتانِ معاً غيرُ طريقةِ ٱلباروديّ.

---

(١) تصرَّمت: انقضت.

تحوَّلَ شوقي بهذا ٱلشِّعرِ لا إلى طريقةِ ٱلباروديّ، فإنَّهُ لا يُطيقُها ولا تتهيَّأُ في أسبابِه، وخاصةً في أولِ عهدِهِ، وكأنَّ لغةَ ٱلباروديّ فيها من لقبِه، أي فيها ٱلبارود. . . ولكنّ تحوُّلَ نابغتِنا كانَ عن طريقةِ معاصريهِ من أمثالِ ٱلليثي وأبي ٱلنصر وغيرِهما، فتركَ ٱلأحياءَ وَٱنطلقَ وراءَ ٱلموتى في دواوينِهِمُ ٱلتي كانَ من سعادتِهِ أنْ طُبِعَ ٱلكثيرُ منها في ذلك ٱلعهد: كَٱلمتنبي وأبي تمَّام وَٱلبحتريّ وَٱلمعريّ: ثُمَّ أهلِ ٱلرقَّةِ أصحابِ ٱلطريقةِ ٱلغراميَّة: كَٱبنِ ٱلأحنفِ وَٱلبهاءِ زهيرٍ وَٱلشابِّ ٱلظريفِ وَٱلتلَعْفُري وَٱلحاجري، ثُمَّ مشاهير ٱلمتأخرين: كَٱبنِ ٱلنحاسِ وَٱلأميرِ منجكِ وٱلشرقاوي. وقد حاولَ شوقي في أولِ أمرِهِ أنْ يجمعَ بين هذا كلِّه، فظهرَ في شعرِهِ تقليدُهُ وعملُهُ في محاولةِ ٱلابتكارِ وَٱلإبداعِ وإحكامِ ٱلتوليد، مَعَ ٱلسهولةِ وَٱلرقَّةِ وتكلُّفِ ٱلغزلِ بِٱلطبعِ ٱلمتدفِّقِ لا بِٱلحُبِّ ٱلصحيح.

وأنا حينَ أكتبُ عن شاعرٍ لا يكونُ همِّي إلَّا البحثَ في طريقةِ ٱبتداعِهِ لِمَعانيهِ، وكيفَ ألَمَّ وكيفَ لَحَظَ، وكيف كانَ ٱلمعنى مَنْبَهَةً لَهُ، وهلْ أبدعَ أم قلَّد، وهلْ هو شَعرَ بِٱلمعنى شعوراً فخالطَ نفسَهُ وجاءَ منها، أمْ نقلَهُ نَقلاً فجاءَ مِنَ ٱلكتب؛ وهلْ يَتَّسِعُ في ٱلفكرةِ ٱلفلسفيَّةِ لِمعانيه، ويُدقِّقُ ٱلنظرةَ في أسرارِ ٱلأشياء، ويُحْسِنُ أنْ يَسْتَشِفَّ هذه ٱلغيومَ ٱلتي يسبحُ فيها ٱلمجهولُ ٱلشعريُّ ويتَّصِلُ بها ويستصحب للناسِ من وحيها؛ أم فكرُهُ ٱسترسالٌ وترجيمٌ في ٱلخيالِ وأخذٌ لِلموجودِ كما هو موجودٌ في ٱلواقع؟ وبِٱلجملةِ هلْ هو ذاتيةٌ تمرُّ فيها مخلوقاتُ معانيهِ لِتُخلقَ فتكونَ لَهَا مَعَ ٱلحياةِ في نفسِها حياةٌ من نفسِه، أَمْ هو تَبَعيَّةٌ كَٱلسمسارِ بينَ طرفين: يكونُ بينَهما، وليسَ منهما ولا من أحدِهما؟ في هذه ٱلطريقةِ مِنَ ٱلبحثِ تاريخُ موهبةِ ٱلشاعر، ولا يؤديْكَ إلى هذا ٱلتاريخِ إلَّا ذلك ٱلمذهبُ إليهِ إنْ أَطقتَه، أمَّا تاريخُ ٱلشاعرِ نفسِهِ فما أسهلَه؛ إذْ هو صورةُ أَيَّامِهِ وصِلتِهِ بِعصرِه، وليسَ في تأريخِ ما كانَ إلَّا نقلَهُ كما كان.

وإذا عرضْنَا شوقي بتلكَ ٱلطريقةِ رأيْنَاهُ نابغةً من أولِ أَمرِه، ففيهِ تلك ٱلموهبةُ ٱلتي أُسميها حاسَّةَ ٱلجو؛ إذ يتلمَّحُ بها ٱلنوابغُ معاني ما وراءِ ٱلمنظور، ويستنزلونَ بها من كلِّ معنًى معنًى غيرَه.

انظرُ أبياتَهُ ٱلتي نظمَها في أولِ شبابِهِ وسِنُّهُ يومئذٍ ٢٣ سنةً على ما أظنّ، وهي من شعرِهِ ٱلسائر:

خـدَعـوهـا بِـقَـوْلِـهِـمْ حَـسْـنَـاءُ وَٱلـغـوانـي يـغـرُّهـنّ ٱلـثَّـنَـاءُ

مـا تـراهـا تَـنَـاسَـتْ ٱسـمـيَ لَـمَّـا كَـثُـرَتْ فـي غـرامِـهـا ٱلأسـمـاءُ
إنْ رأتـنـي تـمـيـلُ عَـنِّـي كـأنْ لـم تَـكُ بـيـنـي وبـيـنَـهـا أشـيـاءُ
نـظـرةٌ فَـٱبـتـسـامـةٌ فَـسَـلامٌ فَـكَـلامٌ فـمَـوْعِـدٌ فَـلِـقَـاءُ

دعْ غلطَتُه في قولِه (تميل عني)، فإنَّ صوابها: تَمِلْ؛ إذْ هيَ جوابُ إنِ ٱلشرطية؛ ولكنْ تأملْ كيف ٱستخرجَ معانيَه؛ وأنا كنْتُ دائماً وما أزالُ مُعْجَباً بِٱلبيتينِ ٱلثاني وَٱلرابع، لا إكباراً لِمعناهما، فهما لا شيءَ عندي، ولكنْ إعجاباً بِموْهِبةِ شوقي في ٱلتوليد، فإِنَّهُ أخذَ ٱلبيتَ ٱلثاني من قولِ أبي تمَّام:

أَتَـيْـتُ فـؤادَهـا أشـكـو إلـيـهِ فـلـم أخـلـصْ إلـيـهِ مِـنَ ٱلـزحـام

فمرَّ ٱلمعنى في ذِهْنِ شوقي كما يمرُّ ٱلهواءُ في روضِه، وجاءَ نسيماً يترقْرقُ بعدَما كانَ كَٱلريحِ ٱلسافيةِ بِترابِها؛ لِأنَّ ٱلزحامَ في بيتِ أبي تمام حقيقٌ بِسوقِ قائمةٍ لِلبيعِ وَٱلشراء، لاَ بِقَلْبِ ٱمرأةٍ يُحبُّها، بلْ هو يجعلُ قلبَ ٱلمرأةِ شيئاً غريباً كأنَّهُ ليس عضواً في جسمِها، بلْ غرفةٌ في بيتِها... وقد سبقَ شاعرُنا أبا تمامٍ بمراحلَ في إبداعِهِ وذوقِهِ ورِقَّتِه.

وَٱلبيتُ ٱلرابعُ من قولِ ٱلشاعرِ ٱلظريف:

قِفْ وٱسْتَمِعْ سيرةَ ٱلصبِّ ٱلذي قَتَلُوا فَمَاتَ في حُبِّهِمْ لم يبلغِ ٱلغَرَضَا
رَأَى فَحَبَّ فَسَامَ[1] ٱلوصلَ فَٱمْتَنَعُوا فرامَ[2] صبراً فأعيا نيلُهُ فقضى

وهذه «فاءَات» تجرُّ إلى ٱلقبرِ ونَعُوذُ بِٱللَّهِ منها... ومِمَّا كنْتُ أَعيبُهُ على شوقي ضَعفُهُ في فنونِ ٱلآدب، فإِنَّ ٱلمويلحيَّ ٱلكاتبَ ٱلشهير ٱنتقدَ في جريدتِهِ «مِصباحُ الشرق» أبياتَ (خدعوها) عندَ ظهور ٱلشوقيَّاتِ في سنةِ ١٨٩٩، فٱرتاعَ شوقي وتحمَّلَ عليهِ لِيُمْسِكَ عنِ ٱلنقد، معَ أَنَّ كلامَ ٱلمويلحيِّ لا يُسقطُ ذبابةً مِن ٱرتفاع نصفِ متر... ومن مُصيبةِ ٱلأدب عندَنا، بلْ من أكبرِ أسرارِ ضَعفِه، أَنَّ شعراءَنا لا طاقةَ لهم بِٱلنقد، وأنَّهمْ يفرُّونَ منه فِراراً ويعملون على تفاديهِ وأنَّهُم لا يُحسنون غيرَ ٱلشعر؛ فلا ٱلباروديُّ ولا صبري ولا حافظٌ ولا شوقي كان يُحسِنُ واحدٌ منهم أنْ يدفعَ عن نفسِهِ أو يكتبَ فصلاً في ٱلنقدِ ٱلأدبيِّ، أو يُحقِّقَ مسألةً في تاريخِ ٱلأدب.

---

(١) سام: طلب وعانى في الحصول على ما أراد.

(٢) رام: طلب وقصد.

ومن معاني شوقي ٱلسائرة:

لَكَ نُصْحي وما عليكَ جِدالي ... آفةُ ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِدالا

وكرَّره في قصيدةٍ أخرى فقال:

آفةُ ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِدالاً ... وأذى ٱلنصحِ أنْ يكونَ جِهارا

وَٱلبيتانِ من شعرِ صِباهُ أيضاً، وهما من قولِ ٱبنِ ٱلروميّ:

وفي ٱلنصحِ خيرٌ من نصيحٍ مُوادعٍ ... ولا خيرَ فيهِ من نصيحٍ مواثبِ

فصحَّحَ شوقي ٱلمعنى وأبدلَ ٱلمُواثبةَ بِٱلجدال، وذلك هو ٱلذي عجِزَ عنهُ ٱبنُ ٱلروميّ؛ ومن إبداعِهِ في قصيدتِهِ (صدى ٱلحرب) يصفُ هزيمةَ اليونان:

يَكادونَ من ذُعرٍ تَفِرُّ ديارُهُمْ ... وتنجو ٱلرواسي[1] لَوْ حَواهُنَّ مَشْعَبُ

يكادُ ٱلثَّرى مِنْ تحتِهِم يَلِجُ[2] ٱلثَّرى ... وَيَقْضِمُ بَعْضُ ٱلأَرْضِ بَعْضاً وَيَقْضِبُ

وهذا خيالٌ بديعٌ في ٱلغاية، جعلَ هزيمتَهُمْ كأنَّها ليسَتْ من هولِ ٱلترك، بلْ مِن هولِ ٱلقِيامة؛ وهو مع ذلك مولَّدٌ من قولِ أبي تمَّامٍ في وصفِ كرمِ ممدوحِهِ أبي دُلف:

تكادُ مَغانيهِ تهشُّ عِراصُها[3] ... فتركبُ من شوقٍ إلى كلِّ راكِبِ

فقاسَ شاعرُنا على ذلك؛ وإذا كادَتِ ٱلدارُ تركبُ إلى ٱلراكبِ إليها من فرحِها، فهي تكادُ تفرُّ مَعَ ٱلمنهزم من ذعرِها؛ ولكنَّ شوقي بنى فأحكمَ وسما على أبي تمَّامٍ بِٱلزيادةِ ٱلتي جاءَ بها في ٱلبيت الثاني:

ومن أَحسنِ شعرِهِ في ٱلغزل:

حَوَتِ ٱلجمالَ فلو ذَهَبْتَ تَزيدُها ... في ٱلوهْمِ حُسْناً ما ٱستطعْتَ مَزِيدا

وهو من قولِ القائل:

ذاتُ حُسَنٍ لوِ ٱستزادَتْ مِنَ ٱلحُسْـ ... ـنِ إليهَا لَمَا أصابَتْ مَزِيدا

غيرَ أنَّ شوقي قال: لو ذَهَبْتَ تزيدُها في ٱلوهم... وَٱلشاعِرُ قال: لَوِ ٱستزادَتْ هي؛ فلو خلا بيتُ شوقي من كلمة (في الوهْم) لَمَا كانَ شيئاً، ولكنَّ هذه ٱلكلمةَ حقَّقَتْ فيهِ ٱلمعنى ٱلذي تقومُ عليهِ كلُّ فلسفةِ ٱلجمال؛ فإنَّ جمالَ ٱلحبيبِ

---

(١) الرواسي: الجبال.
(٢) يلج: يدخل.
(٣) عراصها: مفرده عرصة وهي الربوة.

ليسَ شيئاً إلَّا ٱلمعاني ٱلتي هي في وهْم مُحِبِّه؛ فَٱلزيادةُ تكونُ مِنَ ٱلوهْم، وهو بِطبيعتِهِ لا ينتهي؛ فإذا لم تبقَ فيهِ زِيادةٌ في ٱلحُسْنِ فما بعدَ ذلك حُسْن. وقد بسطْنا هذا ٱلمعنى في صُورٍ كثيرةٍ في كتبِنا: «رسائلُ الأحزان»، و «ٱلسحابُ الأحمر»، و «أوراقُ الود»؛ فانظرْه فيها.

ومِمَّا يُتمِّمُ ذلك ٱلبيتَ قولُ شوقي في قصيدةِ ٱلنفس:

يا دميةً لا يُستزادُ جَمالُها   زِيديهِ حُسْنَ ٱلمُحْسِنِ ٱلمُتَبَرِّعِ

وهذا ٱلمعنى يقعُ من نفسي مَوْقِعاً ولَهُ من إعجابي محلّ؛ فهذه ٱلزيادةُ ٱلتي فيهِ كزيادةِ ٱلعمر لو أمكنَتْ، وهيَ في موضعِها كما ينقطعُ ٱلحظُّ ثُمَّ يتَّصِل، وكما يستحيلُ ٱلأملُ ثُمَّ يتَّفِقُ ويسهل؛ وقد علمْتُ مأخذَ ٱلشطرِ ٱلأول، أمَّا ٱلثاني فهو من قولِ ٱبنِ ٱلرومي:

يا حَسَنَ ٱلوجهِ لقد شِنتَهُ   فَٱضْمُمْ إلى حُسنِكَ إحْسانَا

وفي ٱلقصيدةِ ٱلتي رثى بها ثروت باشا وهي من أحسنِ شعرِهِ تجدُ من أبياتِها هذا ٱلبيتَ النادر:

وقد يموتُ كثيرٌ لا تحسُّهمو   كأنَّهم من هوانِ ٱلخَطْبِ ما وُجِدُوا

وشوقي يُعارضُ بهذه ٱلقصيدةِ أبا خالد ٱبْنَ محمدٍ ٱلمُهلبيَّ في داليَّتِهِ ٱلتي رثى بها ٱلمتوكل، وكانَ ٱلمهلبيُّ حاضِراً قتلَهُ هو وَٱلبحتريُّ، فرثاهُ كلٌّ منهما بقصيدةٍ قالوا: إنَّها من أجودِ ما قِيلَ في معناها؛ وبيتُ شوقي مأخوذٌ من قول ٱلمهلبيّ:

إنَّا فَقَدْنَاكَ حتَّى لا ٱصْطَبارَ لَنَا   وَمَاتَ قَبْلَكَ أقوامٌ فما فُقِدُوا

أي لم يُحسَّ موتَهُم أحد؛ ولكنَّ ٱلبيتَ غيرُ مستقيم، لِأنَّ ٱلذي يموتُ فلا يفقدُ هو ٱلخالدُ ٱلذي كأنَّهُ لم يمُتْ؛ فٱستخرجَ شوقي ٱلمعني ٱلصحيحَ وجعلَ ٱلعَدَمَ ٱلذي هو آخرُ ٱلوجودِ في ٱلناس، أولَ ٱلوجودِ ووسطَهُ وآخرَهُ في هؤلاءِ ٱلذين هانوا على ٱلحياةِ فَوُجدوا وماتوا كأنَّهم ماتوا وما وُجدوا.

* * *

وإلى ما علمْتَ من قوَّةِ هذهِ ٱلشاعريَّة، ودِقَّتِها فيما تتأتَّى لَهُ، ومجيئِها بِٱلمعاني ٱلنادرةِ مستخرَجَةً ٱستخراجَ ٱلذهب، مصقولةً صقلَ ٱلجوهر، معدَّلَةً بِٱلفكرِ، موزونةً بِٱلمنطق ـ تجدُ لها تَهافُتاً كتهافُتِ ٱلضعفاء، وغِرَّةً كَغِرَّةِ ٱلأحداث؛ حتى لتحسبُ أنَّ طفولةَ شوقي كثيراً ما تنبعِثُ في شعرِهِ لاعبةً هازِلة، أو كأنَّ

لِلرجلِ شخصيتينِ كما يقولُ ٱلأطباء، فهما تتعاورانِ شعرَهُ كمالاً ونقصاً، وعُلُوًّا ونزولاً، أو قلْ هيَ ٱلعربيَّةُ وَٱليونانيَّةُ في ناحيةٍ من نفسِه، وَٱلتركيَّةُ وٱلشركسيَّةُ في ناحيةٍ أخرى: لِتلكَ ٱلابتكارُ وٱلبلاغةُ وٱلمنطق، ولهذهِ ٱلتهويلُ وَٱلمُبالغةُ وٱلخلط؛ وشوقي هو بهما جميعاً؛ تفتنُهُ ٱلقويَّةُ منهما فيُعجبُ بها إعجابَ ٱلقوَّة، وتخدعُهُ ٱلضعيفةُ فيُعجبُ بها إعجابَ ٱلرقَّة؛ ما أُعجبَ ببيتِهِ ٱلذي قالهُ في ٱلحنينِ إلى ٱلوطن من قصيدتِه ٱلأندلسيَّةِ ٱلشهيرة:

وطَني لوْ شُغِلْتَ بِٱلخُلدِ عنهُ نازعَتْني إليهِ في ٱلخُلْدِ نفسي

وهذا ٱلبيتُ مِمَّا يتمثَّلُ بهِ ٱلشبانُ وكتابُ ٱلصحافة، ولم يفطنْ أحدٌ إلى فسادِهِ وسخافةِ معناه؛ فإنَّ ٱلخُلْدَ لا يكونُ خُلْداً إلَّا بعدَ فناءِ ٱلفاني مِنَ ٱلإنسانِ وطبائعِهِ ٱلأرضيَّة، وبعدَ أنْ لا تكونَ أرضٌ ولا وطنٌ ولا حنينٌ ولا عصبيَّة؛ فكأنَّ شوقي يقول: لو شغلْتُ عنِ ٱلوطنِ حينَ لا أرضَ ولا وطنَ ولا دولَ ولا أُمَمَ ولا حنينَ إلى شيءٍ من ذلك - فإني على ذلك أحنّ إلى ٱلوطنِ ٱلذي لا وجودَ لَهُ في نفسي ولا في نفسِه... وهذا كلُّه لغوٌ... وَٱلمعنى بعْدُ من قولِ ٱبنِ ٱلرومي:

وحَبَّبَ أوطانَ ٱلرجالِ إليهمو مآربُ[1] قضَّاها ٱلشبابُ هنالِكَا
إذا ذكروا أوطانَهُم ذكَّرتْهمو عهودَ ٱلصّبي فيها فحنُّوا لِذلِكَا

ومنازعةُ ٱلنفسِ هيَ ٱلحنين، ومعنى ٱبنِ ٱلرومي وإنْ كان صحيحاً غيرَ أنَّهُ لا يصلُحُ لِفلسفةِ ٱلوطنيَّةِ في زمنِنا.

وإنَّ في شوقي عيبينِ يذهبانِ بِكثيرٍ من حسناتِه: أحدُهما ٱلمبالغاتُ ٱلتركيَّةُ ٱلفارسيَّةُ مِمَّا تنزعُهُ إليهِ تُركيتُه ولا مبالَغةَ في ٱلدنيا تُقاربُها، كقولِ بعضِ شعرائِهِم إنَّ ٱلنملة بزفرتِها جففتِ ٱلأبحرَ ٱلسبعة... وهو إغراقٌ سخيفٌ لا يأتي بِخيالٍ عجيبٍ كما يتوهمَّون، بلْ يأتي بِهَذَيانٍ عجيب؛ وإذا كانَ ٱلصدقُ يأنفُ مِنَ ٱلكذِب، فإنَّ ٱلكذبَ نفسَهُ يأنفُ من هذا ٱلإغراق؛ ومن هذه ٱلتركيةِ في شوقي إضافاتٌ وهميَّة، هي من تلك ٱلمبالغاتِ كذيلِ ٱلحمارِ من ٱلحمار: قطعةٌ فيهِ ودليلٌ عليهِ وآخرُ لِأولهِ ولا محلَ لها في ذوقِ ٱلبلاغةِ ٱلعربيَّة، كقولِه:

(عيسى ٱلشعورِ) إذا مشى ردّ ٱلشعوبَ إلى ٱلحياةِ

---

(١) مآرب: غايات ومقاصد.

وقولهِ فِي سعد باشا في حادثةِ ٱلاعتداءِ عليه:

ولـو زُلْـتَ غُـيِّـبَ (عـمـرُو الأمـورِ)　　وأخـلـى الـمـنـابـرَ سَـحْـبـانُـهـا

ويدخلُ في جِناياتِ هذه ٱلتركيَّةِ على شعرِهِ تكرارُهُ ٱلأسماءَ ٱلمقدسَّةَ وَٱلأعلامَ ٱلتاريخيَّة: كيوشعَ وعيسى وموسى وخالدٍ وبدرٍ وسيناءَ وحاتم وكعْبٍ وغيرِها مِمَّا هو شائعٌ في نظمِه ولا تجدُهُ أكثرَ ما تجدُهُ إلَّا ٱلسحرَ كلَّهُ وٱلبلاغَةَ كلَّها، على شرطِ أنْ يكونَ ٱلقلْبُ هو ٱلذي وضعَها في موضعِها، وأنْ لا يضعَها إلَّا على هيئةٍ قلبيَّة، فيكونُ كأنَّهُ وضعَ نفسَهُ في ٱلشعرِ لِيخفِقَ خفقانَهُ ٱلحيَّ في بِضعةِ ألفاظ، وهذا ما لم يُحسنْهُ شوقي - وَٱلعيبُ ٱلثاني أنَّ ألفاظَ شاعرِنا لا يثبتُ أكثرُها على ٱلنقد؛ لضعفِهِ في ٱلصناعةِ البيانيَّة، ثُمَّ لِضعفِ ٱلموهبةِ ٱلفلسفيَّةِ فيهِ وٱعتبارِهِ ٱلتهويلَ شعراً وٱلمبالغةَ بلاغةً وإنْ فسدَتْ بِهِما ٱلبلاغةُ وٱلشعر؛ انظرْ إلى قولِهِ من قصيدتِهِ ٱلشهيرة ٢٨ فبراير:

قالوا: ٱلحمايةُ زالَتْ قلْتُ لا عجبٌ　　قد كانَ باطِلُها فيكم هو ٱلعجَبَا

رأسُ ٱلحِمايةِ مقطوعٌ فلا عِدَمتْ　　كِنانةُ ٱللَّهِ حزْماً يقطعُ ٱلذُنَبَا

قلْنا: فإذا قطعَ (رأسُ ٱلحمايةِ) وبقيَتْ منها بقيةٌ ما ذنبٌ أو يدٌ أو رِجل؛ فإنَّ هذه ٱلبقيةَ في لغةِ ٱلسياسةِ ٱلتي تنقذُ ٱلألفاظَ وحروفَها ونقطَ حروفِها... لنْ تكونَ ذنباً ولا يداً ولا رِجلاً، بلْ هي (رأسُ ٱلحِمايةِ) بِعينِه... على أنَّ شوقي إنَّما عكسَ قولَ ٱلشاعر:

لا تقطعَنْ ذنبَ الأفعَى وتُرسلْها　　إنَّ كُنْتَ شَهْماً فأَتْبِعْ رأْسَها ٱلذنبَا

وهذا كلامٌ على سياقِهِ مِنَ ٱلعقل، فما غناءُ قطعِ ذنبِ ٱلأفعى إذا بقيَ رأسُها، وإنَّما ٱلأفعى كلُّها هي هذا ٱلرأس.

ولقد ظهرَ لي من درسِ شوقي في ديوانِهِ أمرٌ عَجِبْتُ لَهُ؛ فإنِّي رأيْتُهُ يأخذُ من أبي تمامٍ وَٱلبحتريِّ وٱلمعريِّ وٱبنِ ٱلروميِّ وغيرِهم؛ فربَّمَا ساواهم وربَّما زادَ عليهم، حتى إذا جاء إلى ٱلمتنبي وقعَ في ٱلبحر وأدركَهُ ٱلغرق؛ لِأنَّهُ نشأَ على رهبةٍ منه كما تُشيرُ إليهِ عبارتُهُ في مقدمةِ ديوانِهِ ٱلأول؛ وقد وصفَ خيلَ ٱلتركِ في قصيدةِ أنقرة بِقولِه:

وَٱلصبرُ فيها وفي فرسانِها خُلُقٌ　　تـوارثـوهُ أبـاً فـي ٱلـروع بـعـدَ أبِ

كما وُلْدتُمْ على أعرافِها وُلِدَتْ　　في ساحةِ ٱلحربِ لا في بَاحةِ ٱلرحَبِ

وشعرُهُ هذا كأنَّهُ يرتعدُ أمامَ قولِ ٱلمتبي:

أَقْبَلْتها غُرَرَ ٱلجيادِ كأنَّما　　أيدي بني عِمْرانَ في جَبَهَاتِها

ٱلـثـابـتـيـنَ فـروسـةً كَـجُـلُـودِهَـا	فـي ظـهـرِهـا، وَٱلـطـعـنُ فـي لَـبَّـاتِـهـا
فـكـأنَّـهـا نُـتِـجَـتْ قِـيـامـاً تـحـتـهـم	وكـأنَّـهُـمْ وُلِـدوا عـلـى صَـهـواتِـهَـا

فأنظرْ أين صِناعةٌ من صناعةٍ وأين شعرٌ من شعرٍ؟ وقالَ في (صدى ٱلحرب) يصفُ مدافعَ ٱلدردنيل:

قذائفُ تخشى مهجةُ ٱلمشي كلَّما	علَتْ مُصْعِداتٍ أنَّها لا تصوَّبُ
إذا هَبَّ حاميها على ٱلسفُن ٱنْثَنَتْ	وغانِمُها ٱلناجي فكيفَ ٱلمُخيَّبُ

وهذا ٱلاستفهامُ (فكيف ٱلمخيَّبُ) ٱستفهامٌ مُضحِك؛ لِأنَّهُ إذا كانَ ٱلناجي غانماً، فَٱلمخيَّبُ خاسرٌ بلا سؤالٍ ولا فلسفة؛ وَٱلكلمةُ ٱلشعريَّةُ في هذا كلِّهِ هيَ قولُهُ (وغانمُها ٱلناجي)، وهي كَٱلهاربةِ تتوارى[1] خوفاً من بيتِ أبي ٱلطيِّب:

أغـرُّ أعـداؤُهُ إذا سـلِـمـوا	بِـٱلـهـربِ ٱسـتـكـبروا ٱلـذي فَـعَـلُـوا

فهذا هوَ ٱلشعرُ لا ذاك؛ على أنِّي أشهدُ أنَّ في قصيدة (صدى ٱلحرب) أبياتاً هي من أسمى ٱلشعر، وكأنَّ شوقي ـ رحمَهُ ٱلله ـ كانَ ينظمُ هذه ٱلقصيدةَ من إيمانِهِ ومن دمِهِ ومن كلِّ مطامعِ دُنياهُ وآخرتِهِ، يبتغي بها ٱلشهرةَ ٱلخالدةَ في ٱلناس، وَٱلمنزلةَ ٱلساميةَ عندَ ٱلخديو، ونباهةَ ٱلشأنِ عندَ ٱلخليفة، وٱلثوابَ عندَ ٱللَّهِ تعالى؛ ولو هو في أثناءِ عملِها أسقطَ نصفَها أو أكثرَ لَجاءَتْ فريدةً في ٱلشعرِ ٱلعربيّ، غيرَ أنَّ ٱلحِرْصَ كانَ يغترُّه، وكانَ طولَ عمرِهِ مفتوناً بِشعرِه؛ فجاءَ في هذا ٱلشعرِ بِٱلطَّمِّ وَٱلرِّمِّ[2] كما يقولون؛ ولَهُ كثيرٌ مِنَ ٱلكلامِ ٱلرذلِ ٱلساقطِ بِضعفِهِ وتهافتِه؛ ولولا تلك ٱلتركيَّةُ ٱلفارسيَّةُ وضَعفُهُ ٱلبيانيّ، لما رضيَ أنْ يكون ذلك في شعره؛ وليتَ شِعري كيف غابَ عن مثلِهِ أنَّ ٱلتهويلَ وَٱلإغراقَ وٱلإحالةَ مِمَّا يُهَجِّنُ[3] ٱلشعرَ ويذهبُ بِأثرِهِ في ٱلنفس ويُحيلُهُ إلى صِناعةٍ هيَ شرٌّ مِنَ ٱلصناعةِ ٱلبديعيّة؛ لِأنَّ هذه تكونُ في ٱلألفاظ؛ وَٱلألفاظُ تحتملُ ٱلعبثَ ٱلبديعيَّ ويخرجُ بها ٱلأمرُ إلى أنْ تكونَ ضرباً مِنَ ٱلرياضةِ كمعاناةِ بعضِ ٱلمسائل في ٱلجبر وَٱلهندسةِ تركيباً وحلّاً؛ ولكنَّ ٱلمعانيَ لا تحتملُ ذلك؛ إذْ هي تفكيرٌ لا يلتوي إلَّا فسد، وَٱلمعاني ٱلتي يأتي بها ٱلشاعرُ يجبُ أنْ تكونَ فيها مزيةٌ بِخاصَّتِها مِنَ ٱلجمالِ وَٱلبيان، وأنْ تكونَ أخيلتُها هيَ ٱلحقائقَ ٱلتي أولُ مواضِعِها فوقَ حقائقِ ٱلبشر.

---

(١) تتوارى: تختفي.
(٢) الطمّ والرمّ: بقايا ما ينتج من الدمار.	(٣) يهجن: يكره ولا يقبل.

وهناكَ ضربٌ آخرُ مِنَ ٱلمبالغةِ يجيءُ من سقوطِ ٱلخيالِ؛ لِأنَّ في ٱلأسفلِ مبالغةً كما في ٱلأعلى، وإنْ كانَتْ مبالغةُ ٱلأسفلِ زِيادةً في ٱلسخريةِ منه وَٱلهزءِ بهِ؛ وهذه ٱلمبالغةُ تأتي من جمعِ أشتاتٍ مختلفةٍ وإدْماجِها كلِّها في معنًى واحد، كهذا ٱلذي حاولَ أنْ يدمجَ ٱلطبيعةَ كلَّها في حبيبتِهِ فزعَم أنَّ فيها من كلِّ شيء، ونسيَ أنَّ كلَّ قبيحٍ وكلَّ بغيضٍ هو من كلِّ شيء...

إنَّ ٱلخيالَ ٱلشعريَّ يزيغُ[1] بِٱلحقيقةِ في منطقِ ٱلشاعرِ لا ليقلبَها عن وضعِها ويجيءَ بها ممسوخةً مشوَّهة، ولكنْ لِيعتدلَ بِها في أفهامِ ٱلناسَ ويجعلَها تامَّةً في تأثيرِها؛ وتلك من مُعْجِزاتِه؛ إذْ كانَتْ فيهِ قوَّةٌ فوقَ ٱلقوَّةِ عملُهَا أن تَزيدَ ٱلموجودَ وجوداً بِوضوحِهِ مرةً وبغموضِهِ أخرى.

ولِعلماءِ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ كلمةٌ ما أراهم فَهِمُوها على حَقِّها ولا نفذوا إلى سرِّها؛ قالوا: أعذبُ الشعرِ أكذبُهُ! يعنونَ أنَّ قِوامَ ٱلشعرِ ٱلمبالغةُ وٱلخيال: ولا ينفذونَ إلى ما وراءِ ذلك، وما وراءَهُ إلَّا ٱلحقيقةُ رائعةً بصِدقِها وجلالِها؛ وفلسفةُ ذلك أنَّ ٱلطبيعةَ كلَّها كذبٌ على ٱلحواسِّ ٱلإنسانيَّة، وأنَّ أبصارَنا وأسماعَنا وحواسَّنا هي عملٌ شِعريٌّ في ٱلحقيقة؛ إذْ تنقلُ ٱلشيءَ على غيرِ ما هو في نفسهِ لِيكونَ شيئاً في نفوسِنا، فيُؤثِّرَ فيها أثرَهُ جمالاً وقُبْحاً وما بينَهما؛ وما هي خمرةُ ٱلشعرِ مثلاً؟ هي رُضابُ ٱلحبيبة؛ ولكنَّ ٱلعاشقَ لو رأى هذا ٱلرُّضابَ تحتَ ٱلمجهر لَرأى... لَرأى مستنقعاً صغيراً. ولو كانَ هذا ٱلمجهرُ أضعافَ ٱلأضعافِ مِمَّا يَجهرُ بِهِ لرأيْتَ ذلك ٱلرُّضابَ[2] يعجُّ[3] عجيجاً بِٱلهوامِّ وَٱلحشراتِ ٱلتي لا تخفى بِنفسِهَا ولكنْ أخفاها ٱلتدبيرُ ٱلإلهيُّ بأنْ جعلَ رُتبتَها في ٱلوجودِ وراءَ ٱلنظرِ ٱلإنسانيّ، رحمةً مِنَ ٱللَّهِ بِٱلناس؛ فأَعذبُ ٱلشعرِ ما عَمِلَ في تجميلِ ٱلطبيعةِ كما تعملُ ٱلحواسُّ ٱلحيَّةُ بسَرِّ ٱلحياة؛ ولهذا ٱلمعنى كانَ ٱلشعراءُ ٱلنوابغُ في كلِّ مجتمعٍ هم كَٱلحواسِّ لِهذا ٱلمجتْمع.

ومن سخيفِ ٱلإغراقِ في شعرِ شوقي قولُهُ في رثاءِ مصطفى باشا كامل، وهيَ أَبياتٌ يظنُّ هو أنّه أوقعَ كلامَهُ فيهَا موْقِعاً بديعاً مِنَ ٱلإغراب:

فلو أنَّ أوطاناً تُصوَّرُ هيكلاً ... دفنوك بينَ جوانحِ ٱلأوطانِ
أو كانَ يُحملُ في ٱلجوارحِ ميتٌ ... حملوك في ٱلأسماعِ وٱلأجفانِ

---

(١) يزيغ: يحيد ويميل.
(٢) الرضاب: الريق. (٣) يعجّ: يمتلىء.

أو كانَ للذكرِ ٱلحكيمِ بقيَّةٌ لم تأتِ بعدُ ـ رُثيْتَ في ٱلقرآنِ

فهذه فروضٌ فوقَ ٱلمستحيلِ بأربعِ درجات. . . وتصورْ أنت ميتاً يُحملُ في ٱلجوارحِ فيترمَّمُ فيها ويبلى. . . وما زالَ ٱلشاعرُ في أبياتِهِ يخرجُ من طامَّةٍ[1] إلى طامَّة، حتى قال: رثيْتَ في ٱلقرآن، ولو سئلْتُ أنا إعراب (لو) في هذه ٱلأبياتِ لقلْتُ: إنَّها حرفُ نقصٍ وتلفيقٍ وعجز. . . وكيف يَسوغُ في ٱلفرضِ أنْ تكونَ لِلقرآنِ بقيةٌ لم تنزل، وَٱللَّهُ تعالى يقول فيه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾؛ وٱلأمرُ أمرُ دينٍ قد تَمَّ، وكتابٍ مقدَّسٍ خُتم، ونبوَّةٍ ٱنْقَضَتْ؛ وٱلشاعرُ ماضٍ في غفلتِهِ لم يتنبهْ لِشيءٍ ولم يدرِ أنَّهُ يَفرضُ فرضاً يهدمُ ٱلإسلامَ كلَّه، بلْ حسِبَ أنَّهُ جاءَ بخيالٍ وبلاغةٍ فارسيَّة؛ وشَوقي في ٱلحقيقةِ كاملٌ كناقص، وإنَّ من معجزاتِ هذا ٱلشاعرِ أنْ يكونَ ناقصاً هذا ٱلنقصَ كلَّهُ ويُكمل.

وفي ٱلشوقيَّاتِ صفحاتٌ تكادُ تُغرّدُ تغريداً، وفيها صفحاتٌ أخرى تَنِقُّ نقيقَ ٱلضفادع؛ وفي هذا ٱلديوانِ عيوبٌ لا نُريدُ أنْ نقتصَّها؛ فإنَّ ذلك يحتاجُ إلى كتابٍ برأْسِهِ إذا ذَهَبْنَا نأتي بها ونشرحُ ٱلعِلَّةَ فيها ونُخرجُ ٱلشواهدَ عليها، ولكنْ من عُيُوبِهِ في ٱلتكرارِ أنَّ لَهُ بيتاً يدورُ في قصائدِهِ دورانَ ٱلحِمَارِ في ٱلساقية، وهو هذا البيت:

وإنَّما ٱلأممُ ٱلأخلاقُ ما بقَيتْ فإنْ هُمُو ذهبَتْ أخلاقُهُم ذهبوا

بلْ هذا البيت:

وإنَّما ٱلأممُ ٱلأخلاقُ ما بقَيتْ فإن تولَّتْ مَضَواْ على آثارِها قُدُما

بلْ هو هذا:

كذا ٱلناسُ بِٱلأخلاقِ يبقى صلاحُهُمْ ويذهبُ عنهم أمرُهم حينَ تَذْهَبُ

بلْ هو هذا ٱلبيت:

ولا ٱلمصائبُ إذْ يُرمى ٱلرجالُ بها بِقاتِلاتٍ إذا ٱلأخلاقُ لم تُصَبِ

وقد تكرَّرَ (فيما قرأتُهُ من ديوانِهِ) ثلاثَ عَشْرَةَ مرة، فعادَ ٱلمعنى كَطيلسانِ ٱبنِ حربٍ ٱلذي جعلَ ٱلشاعرُ يُرقّعُهُ ثُمَّ يُرقِّعُهُ حتى ذهبَ ٱلطيلسانُ وبقيَتِ ٱلرُّقع. . . وَٱلبيتُ ٱلأولُ مِنَ ٱلعَيْنِ ٱلنادر، ولكنْ أفسَدهُ في ٱلباقي سوءُ ملكةِ ٱلحِرْصِ في شوقي، أو ضعفُ ٱلحِسِّ ٱلبيانيّ، أوِ ٱبتذالُهُ ٱلشعرَ في غيرِ موضِعِه، أو وهنُ فكرتِهِ

---

(١) طامة: مصيبة.

ٱلفلسفيَّةِ من جوانبَ كثيرة؛ وهذه الأربعةُ هيَ ٱلأبوابُ ٱلتي يقتحمُ منها ٱلنقدُ على شعرِ صاحبِنا، ولو هو كانَ قد حَصَّنَها بِأَضدادِها لَكَانَ شاعرَ ٱلعربيَّةِ مِنَ ٱلجاهليَّةِ إلى ٱليوم، ولَكانَ عسى أنْ ينقلَ ٱلشعرَ إلى طوْرٍ جديدٍ في ٱلتاريخ؛ ولكنَّ ٱلفوضى وقعَتْ في شوقي من أولِ أمرِه؛ فأُرسلَ إلى أوروبا لِدرسِ ٱلحقوقِ وكانَ ٱلوجْهُ أنْ يُرسَلَ لِدرسِ ٱلآدابِ وٱلفلسفة، وغامَرَ في سياسةِ ٱلأرض، وكانَ ٱلحقُّ أنْ يشتغلَ بِسياسةِ ٱلسماء، وتهالَكَ في مادةِ ٱلدنيا، وكانَ ٱلصوابُ أنْ يتهالَكَ في معانيها.

إِنَّ ٱلفوضى ذاهبةٌ بنا مذاهبَها في ٱلأدبِ وَٱلشعْر، فكلُّ شاعرٍ عندَنا كمؤلفٍ يضعُ روايةً ثُمَّ يُمثلُها وحْدَهُ وعليهِ أنْ يمثلَها وحدَه، فهو يخرجُ على ٱلنظارةِ في ثيابِ ٱلمَلكِ فيُلقي كلاماً ملكيّاً، ثُمَّ ينفتلُ فيجيءُ في ثوبِ ٱلقائدِ فيُلقي كلاماً حربيّاً، ثُمَّ ينقلبُ فيعودُ في هيئةِ ٱلتاجرِ فيُلقي كلاماً سوقيّاً، ثُمَّ يروغُ فيرجعُ في مباذلِ ٱلخادم، ثم... ثم... يتوارى فيظهُر في جلدةِ بربريّ... وهذه ٱلفوضى ٱلتي أهملَتْها ٱلحكومةُ وأهملَها ٱلأمراءُ وَٱلكبراءُ هي حقيقةٌ مُؤْلِمة، ولكنْ هيَ ٱلحقيقة!

* * *

وشوقي على كلِّ هذا هو شوقي: أولُ مَنِ ٱحتفى بِتاريخِ مِصْرَ مِنَ ٱلشعراءِ، وأولُ مُنْ توسَّعَ في نظمِ ٱلروايةِ ٱلشعريَّةِ فوضعَ منها ستَّ روايات، وهو صاحبُ ٱلآياتِ ٱلبديعةِ في ٱلوصف، وهذه ٱلناحية هيَ أقوى نواحيه، ولقد ألهمْتني قراءةُ ٱلبارعِ من شعرِهِ في أغراضِهِ وفنونِهِ ٱلمختلفةِ أنَّ ٱللهَ تعالى يُنعمُ على ٱلآدابِ ٱلجميلةِ بأفرادٍ ممتازينَ في جمالِ أرواحِهم وقوَّتِها، تجِدُ ٱلآدابُ لذَّتَها فيهم وسُموَّها بِهِم، كأنَّ ٱلأمرَ قِياسٌ على ما يقعُ من عِشقِ ٱلناسِ لِبعضِ ٱلمعاني، فيكونُ في ٱلمعاني ما يعشقُ بعضُ ٱلناس، ومتى بلغَ عِشقُ ٱلمعنى لإنسانٍ مبلغَ ٱلاختصاصِ وَٱلوجْدِ ظهَرَ ٱلفنُّ أبدعَ ما يُرى، كأنَّ ٱلمعنى ٱلأدبيَّ يتجمَّلُ ويتحبَّبُ لِيستميلَ هذا ٱلإنسانَ ٱلحاكمَ عليهِ حكمَ ٱلحُبّ.

فيا مِصْرُ، لقد ماتَ شاعرُكِ ٱلذي كانَ يُحاولُ أنْ يخرجَ بِٱلجيلِ ٱلحاضرِ إلى ٱلزمنِ الذي لم يأتِ بعد، فإذا جاءَ هذا ٱلزمنُ ٱلزاخرُ بفنونِهِ وآدابِهِ ٱلعالية، وذكْرتِ مجدَ شِعرِكِ ٱلماضي، فلْيقُلْ أساتذتُكِ يومئذ: كانَ هذا ٱلماضي شاعراً ٱسمُهُ شوقي!

بعدَ شوقي

كانَ يتوجَّهُ ٱلظَّنُ على شوقي ـ رَحَمُه ٱلله ـ فيزعمُ ٱلزاعمُ أنَّ شوقي هو يُحيي شِعْرَه، وهو يرفعُ منه، وهو يُشيعُ حولَهُ قوَّةَ ٱلجذبِ من مغناطيسِ ٱلثروةِ وَٱلمكانة، وأنَّ ٱلرجلَ ما أوفى على ٱلشعراءِ جميعاً لِأَنَّهُ أفضلُهُم، بل لأنَّهُ أغناهم؛ ولا من أنَّهُ أقواهم قوَّةً، بلْ لِأَنَّهُ أقواهم حِيْلة؛ وأنَّ ٱلشاعرَ لو جاءَ يومُهُ لَبطلَ ٱلسحرُ وَٱلساحر، فترجعُ ٱلعصا وهيَ عصاً بعدَ أنِ ٱنقلبَتْ حيَّة، ويئولُ هذا ٱلشعرُ إلى حقيقتِه، وتتَّسِمُ ٱلحقيقةُ بِسِمَتِها؛ كَأنَّ شوقي كانَ يعملُ لِشعرِهِ بِقوَّةِ ٱلسمواتِ وَٱلأرضِ لا بِقوَّةِ رجلٍ مِنَ ٱلناس.

فقد ذَهَبَ ٱلرجلُ إلى ربِّه، وخلا مكانُه، وبطلَتْ كلُّ وسائِله، ونامَ عن شعرِهِ نوْمَةَ ٱلأبديَّة، وتركَهُ لِمَا فيهِ يحفظُهُ أو يُضيعُهُ إنْ كانَ فيهِ حقٌّ مِنَ ٱلشعرِ أو باطل، وأصبحَ ٱلشاعرُ هو ومالُهُ وجاهُهُ وشعرُهُ في حُكمِ ٱلكلمةِ ٱلتي يقولُها ٱلزمن، ولم تعدُ هذه ٱلكلمةُ في حُكمِه؛ فهلْ أثبَتَهُ ٱلزمنُ أو نفَاه، وهلْ سَلَّمَ لَهُ أو كابَرهُ، وهلْ ردَّهُ في أغمارِ ٱلشعراءِ أو جعلَ ٱلشعراءَ بعدَهُ أَدِلَّةً من أدلتِه؟

* * *

أولُ ما ظهَر لي أنَّ ٱلزمنَ بعدَ شوقي أصبحَ أقوى في ٱلدلالةِ عليهِ وأصدقَ في ٱلشهادةِ لَه، كما تكونُ ٱلظُّلْمةُ بعدَ غِيابِ ٱلقمرِ شرحاً طويلاً لِمعنى ذلك ٱلضياء، وإنْ سطعَتْ فيها ٱلكواكبُ وتوقَّدَ منها شيءٌ وتلألأَ شيء؛ فقد دلَّ ٱلزمنُ على أنَّ ذلك ٱلشأنَ لم يكنْ لِشاعرٍ كَٱلشعراءِ يُقالُ في وصفِهِ إنَّهُ مُفتنٌّ مُجيدٌ مُبدِع؛ ولكنَّهُ للذي يُقالُ فيهِ إنَّهُ صوتُ بِلادِهِ وصيحةُ قومِه.

كانَتْ تحدُثُ ٱلحادثةُ، أو يتخالجُ ٱلناسَ معنًى مِنَ ٱلهمِّ ٱلذي يعمُّهم، أو يستطيرُهم فرحٌ من أفراحِ ٱلوطن، أو يزولُ عظيمٌ مِنَ ٱلعُظَماءِ فيزيدُ صفحةً في ٱلتاريخ، أو ينشأُ كونٌ صغيرٌ من أكوانِ ٱلحضارةِ في ٱلشرقِ كبنكِ مِصْر، أو ترتجُّ زلزلةٌ في ٱلحياةِ ٱلعربيَّةِ أينما ٱرتجَّت، فإذا كلٌّ قد وقعَ في ٱلدنيا بهيئتينِ: إحداهُما

في ذهن شوقي، فيرسلُ قصيدتَهُ ٱلشرودَ ٱلسائرةَ داويةً مجلْجِلَة، فلا تكادُ تظهرُ في مِصْرَ حتى تلتقيَ حولَها ٱلأفكارُ في ٱلعالمِ ٱلعربيِّ كلِّه، فتكونَ شعراً من أسرى ٱلشعرِ وأحسنِه، ثُمَّ تُجاوزُهُ فإذا هي صِلَةٌ من أقوى ٱلصّلاتِ ٱلذهنيَّةِ بينَ أدباءِ ٱلعربيَّةِ وأوثقِها، ثُمَّ تجاوزُها فإذا هيَ عاطفةٌ تجمعُ ٱلقلوبَ على معناها، ثُمَّ تسمو فوقَ هذا كلِّهِ فإذا هيَ من هذا كلِّهِ زعامةُ مِصْرَ على ٱلشعرِ ٱلعربيّ.

وَٱليومَ يقعُ مثلُ ذلك فتتطايرُ بعضُ ٱلفقاقيعِ ٱلشعريَّةِ من هنا وثَمَّ ملونةً منتفِخةً ماضيةً على قانونِ ٱلفقاقيعِ في ٱلطبيعة: من أنَّ لحظَةَ وجودِها هيَ لحظةُ فنائِها، وأنَّ ظهورَها يكونُ لِتظهرَ فقد لا لتنفع.

ولسْتُ أُماري في أنَّ بيننا شعراءَ قليلينَ يُجيدون الشعر، ولهم فكرٌ وبيانٌ ومذهبٌ وطريقة: ولكنْ ما منهم أحدٌ إلَّا وهو يشعرُ من ذاتِ نفسِهِ أنَّ ٱلحوادثَ لم تخترْهُ كما ٱختارَتْ شوقي، وأنَّهُ في ٱلحياةِ كَٱلواقفِ على بابِ ديوانٍ ينتظرُ أنْ يُعهدَ إليه، وأنْ يخرجَ لَهُ ٱلتقليد؛ فهو ينتظِرُ وسينتظِر.

وهذا عجيبٌ حتى كأَنَّهُ سحرٌ من سحرِ ٱلزمنِ حينَ تفصلُ ٱلدنيا بينَ ٱلعبقريِّ ٱلفَذِّ وبينَ مَنْ يُشبهونَهُ أو يُنافسونَه ـ بِضروبٍ خفيَّةٍ مِنَ ٱلصَّرْفةِ وَٱلعوائِق، لا هي كلُّها من قوَّةِ ٱلعبقريّ، ولا هيَ كلُّها من عجزِ ٱلآخرين.

وأعجبُ من ذا أنْ (شوقي) كانَ في ٱلعالمِ ٱلعربيِّ كأنَّهُ عملٌ تاريخيٌّ متميِّزٌ من أعمالِ مِصْر، غيرَ أنَّهُ مسمًّى بٱسمِ رجل؛ وكانَ على ٱلحقيقةِ لا على ٱلمجاز ـ كأنَّ فيهِ شيئاً من هذه ٱلروحِ ٱلتاريخيَّةِ ٱلمتغلِّبَةِ ٱلتي تَخْلُدُ بِأسماءِ ٱلآثارِ ٱلفنيَّةِ وتُكْسِبُها ٱلعَظمةَ في ٱلوجودَين: مِنْ محلِّها ومن نفسِ ٱلإنسان.

وأعجبُ من هذا وذلك أنِّي لم أرَ شعراً عربيّاً يحسُنُ في وصفِ ٱلآثارِ ٱلمِصريَّةِ ما يَحْسُن في وصفِها شعرُ شوقي، حتى لَأَسأَلُ نفسي: هلْ تختارُ بعضُ ٱلأشياءِ ٱلعظيمةِ وصفَها ومفسِّرَ عظمتِها، كما تختارُ ٱلمرأةُ ٱلجميلةُ عاشقَها ومُسْتَجلي حسنِها؟

* * *

وما بانَ شوقي على غيرِهِ إلَّا بِأنَّهُ رجلٌ أُفرغَ في رأسِهِ ٱلذهنُ ٱلشعريُّ ٱلكبير، فكانَ في رأسِهِ مَصْنعٌ عمَّالُهُ ٱلأعصاب، ومادتُهُ ٱلمعاني، ومهندسُهُ ٱلإلهام؛ وٱلدنيا تُرسِلُ إليهِ وتأخذُ منه؛ وعلامةُ ذلك من كلِّ شاعرٍ عظيمٍ أنْ تَضَعَ دُنياهُ على ٱسمِهِ

شهادتَها لَه؛ ولهذا ما يكونُ بعضُ ٱلشعراءِ كأنَّ ٱسمَهُ في وزنِ ٱسم مملكة، فإذا قلْت: شكسبير وإنجلترا، فهما في ٱلعظمةِ ٱلنفسيَّةِ من وزنٍ واحد، وكذلك ٱلمتنبي وَٱلعالمُ ٱلعربيُّ، وكذلك شوقي ومصر.

قالوا: كانَ ٱلفرزدقُ يُنقِّحُ ٱلشعر، وكانَ جريرٌ يَخْشُبُ (أي يُرسلُ شعرَهُ كما يجيءُ فلا يتنوَّقُ فيهِ ولا يُنقِّحُه)؛ وكانَ خَشْبُ جريرٍ خيراً من تنقيحِ ٱلفرزدقِ ولم يتنبهْ أحدٌ إلى ٱلسرِّ في ذلك؛ وما هو إلَّا ٱلسرُّ ٱلذي كانَ في شوقي بِعينِهِ، سِرُّ ٱلامتلاءِ ٱلروحيِّ قد أُمدَّ بِٱلطبع، وأُعينَ بِٱلذوق، وأُوتيَ ٱلقوَّةَ أنْ يتحَوَّلَ بآثارِهِ في ٱلكلام؛ فكلُّ ما كانَ منُهُ فهو منه: يجيءُ دائماً قريباً بعضُهُ من بعضِه، ولا يكادُ ينفذُ إلى شعورٍ إلَّا اتَّحدَ بِه.

وقد كانَ عمرُو بْنُ ذَرّ ٱلواعظُ ٱلبليغُ إذا تكَلَّمَ في مجلسِهِ نَشَرَ حولَهُ جوّاً من روحِهِ، فيجعلُ كلَّ ما حولَهُ يتموّجُ بأمواجٍ نفسيَّة؛ فكانَ كلامُهُ يعصِفُ بِٱلناسِ عَصْفَ ٱلهواءِ بِٱلبحرِ يقومُ بِهِ ويقْعُدُ، وكانَ مِنَ ٱلوُعَّاظِ مَنْ يُقلِّدُهُ ويحكيهِ ولا يدري أنَّهُ بذلك يعرضُ ٱلغلطةَ على ردّها وصوابِها، فقالَ بعضُ مَنْ جالسَهُ وجالسَهُم: ما سمعْتُ عمَرو بْنَ ذرٍّ يتكَلَّم إلَّا ذكَرتُ ٱلنفخَ في ٱلصُّور، وما سمعْتُ أحداً يحكيهِ إلَّا تمنيْتُ أنْ يُجلدَ ثمانين...

فَٱلفرقُ روحانيٌّ طبيعيٌّ كما ترى، لا عملَ فيهِ لِأَحدٍ ولا لِصاحبِه، وهو يُشبهُ ٱلفرقَ بين عاصفةٍ مِنَ ٱلهواءِ وبينَ نسيمٍ مِنَ ٱلريحِ يُرسَلانِ على جهتينِ في ٱلبحر؛ ففي ناحيةٍ يلتجُّ ٱلماءُ ويثبُ ويتضرّبُ ويَقصِفُ قصفَ ٱلرعد، وفي ٱلأخرى يترجرجُ ويتزحَّفُ ويقشعرُّ ويهمسُ كَوسواسِ ٱلحلى.

وٱلشأنُ كلُّ ٱلشأنِ لِلكميَّةِ ٱلواجدانيَّةِ في ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ أوِ ٱلممتازة؛ فهي ٱلتي تُعيّنُ لِهذه ٱلنفسِ عملَهَا على وجهٍ ما، وتهيئُها لِمَا يُرادُ منها بقدْرٍ ما، وتُقيمُها على دأْبِها إلى زمنٍ ما، وتخصُّها بِخصائصِها لِغرضٍ ما؛ وإذا أنْتَ حقَّقْتَ لم تَجِدِ ٱلفروقَ بينَ ٱلنوابغِ بعضِهِم من بعضٍ إلَّا فروقاً في هذه ٱلكميَّةِ ذاتِها مِقداراً من مِقدار؛ ولولا ذلك لكانَ أصغرُ ٱلعلماءِ أعظمَ من أكبرِ ٱلشعراء؛ فقد يكونُ ٱلشاعرُ كأنَّهُ تمليذٌ في ٱلعِلْم، ثُمَّ يكونُ ٱلعِلْمُ كأنَّهُ تلميذٌ لِقلبِ هذا ٱلشاعرِ وعواطفِه؛ ولئنْ عجزَ ٱلنقدُ ٱلعِلْميُّ أنْ ينالَ مِنَ ٱلشاعرِ ٱلعبقريّ، لقديماً عجزَ في كلِّ أمّة.

وقد كانَ فيمَنْ حاولوا إسقاطَ شوقي مَنْ هو أوسعُ منهُ ٱطِّلاعاً على آدابِ

ٱلأُمَم، وأبصرُ بِأغراضِ ٱلشعرِ وحقيقتِه، وكانَ مع ذلك حاسِداً شانئاً قد ثَقَبَ في قلبِهِ ٱلحِقْد؛ وَٱلحاسدُ ٱلمبغضُ هو في ٱتّساعِ ٱلكلامِ وطُغيانِ ٱلعِبارةِ أخو ٱلمُحِبِّ ٱلعاشق؛ فكِلاهُما يدورُ ٱلدمُ في كبدِهِ معانِيَ ووساوس، وكلاهما يجري كلامُهُ على أصلٍ مِمَّا في سريرتِهِ، فلا تجدُ أحدَهما إلَّا عالياً بمَنْ يُحِبّ، ولا تَجدُ ٱلآخرَ إلَّا نازلاً بِمَنْ يُبْغِض؛ وكانَ هذا ٱلناقدُ شاعراً، فَٱنصافَ شعرُهُ إلى حسِده، إلى بُغضِهِ، إلى ذكائِه، إلى ٱطِّلاعِهِ، إلى جُهدِه، إلى طولِ ٱلوقتِ وتراخي ٱلزمن؛ وهذه كلُّها مفَرقعاتٌ نفِسيَّة... بعضُها أشدُّ من بعضٍ كَٱلبارود، إلى ٱلديناميت، إلى ٱلميلينيت؛ ولكنَّ شوقي كانَ في مرتقًى لم يبلغْهُ ٱلناقد، فَٱنقلبَ جُهْدُ هذا عجزاً، وأصبحَ ٱلبارودُ وٱلترابُ في يدِهِ بمعنًى واحد...

* * *

ومن أعجبِ ما عجِبتُ لَهُ من أمرِ هذا ٱلناقد، أنّي رأيْتُهُ يُقرِّرُ للِناسِ صوابَ ٱلحقيقةِ بزعمِه، فإذا هو يُقرِّرُ غلطَهُ وجهلَهُ وتعسُّفَهُ؛ وهو في كلِّ ما يكتبُ عن شوقي يكونُ كَٱلذي يرى ٱلماءَ ٱلعذْبَ وعملَهُ في إنباتِ ٱلروضِ وتَوْشِيَتِهِ[1] وتلوينِهِ، فيذهبُ يَعيبُهُ لِلْناسِ بأنَّهُ ليس هو ٱلبنزين... ٱلذي يُحِّركُ ٱلسياراتِ وَٱلطيارات!

تناولَ شوقي بعَد موتِهِ فجردَهُ[2] مِنَ ٱلشخصيَّة، أي من حاسَّةِ ٱلشعر، ومن إدراكِ ٱلسرِّ لا يُخلَقُ ٱلشاعرُ ٱلحقُّ لإدراكِهِ وٱلكشفِ عن حقائقِه؛ وكانَ فيما ٱستدلَّ بِهِ على ذلك أنَّ شوقي لا يُحسِنُ وصفَ ٱلربيعِ بمثلِ ما وصَفُه ٱبنُ ٱلرومي في قولِه:

تجدُ ٱلوحوشُ بِهِ كِفَايتَها ... وَٱلطيرُ فيهِ عتيدةُ ٱلطُّعْمِ
فظِباؤُهُ تُضحي بِمُنْتَطَحٍ ... وحمامُهُ يُضحي بِمُخْتَصَمِ

وزعمَ أنَّ ٱبنَ ٱلرومي قد وُلدَ بِحاسَّةٍ لم يُولدْ بِها شوقي، ولهذه ٱلحاسَّةِ ٱنْدَمج في ٱلطبيعةِ فأدركَ سِرَّ ٱلربيع، وأنَّهُ غليَانُ ٱلحياةِ في ٱلأحياء، فَٱلظباءُ تنتطِحُ مِنَ ٱلأشَرِ إلخ وبنى على ذلك ناطحةَ سحاب... لا ناطحةَ ظِباء.

أمَّا شوقي ٱلشاعرُ ٱلضعيفُ ٱلعاجزُ لم يُولدْ بِمثلِ تلك ٱلحاسَّة، فلو أنَّهُ شهدَ ألفَ ربيعٍ لَمَا أحسَّ هذا ٱلإحساس، ولا ٱستطاعَ أنْ يجيءَ بِهذا ٱلقولِ ٱلمُعْجِز؛ وكلُّ ذلكَ من هذا ٱلناقِدِ جهلٌ في جهلٍ في جهل، وأعاليلُ بأضاليلَ بِأباطيل؛ فٱبنُ ٱلروميّ في هذا ٱلمعنى لِصٌّ لا أكثرَ ولا أقلّ، فلم يُحسَّ شيئاً ولا ٱبتدعَ ولا ٱخترع.

---

(١) توشيته: تجيله.

(٢) جرّده: عرّاه.

قالَ ٱلجاحظ: يُقالُ في ٱلخِصْبِ (أي ٱلربيع): نفَشَتِ ٱلعنزُ لأَختِها؛ وخلَّفْتُ أرضاً تَظَالَمُ مِعْزاها (أي تتظالم)؛ قال: لأَنَّها تنفشُ شعرَها وتَنْصِبُ رُوقَيْها في أحدِ شِقَّيها فتنطحُ أختَها، وإنَّما ذاك مِنَ ٱلأَشر، (أي حينَ سَمِنَتْ وأخصبَتْ وأعجبتْها نفسُها).

فأنت ترى أنَّ ٱبْنَ ٱلروميِّ لم يصنعْ شيئاً إلَّا أنَّهُ سرقَ ٱلمعنى وٱللفظ جميعاً، ثُمَّ جاءَ للقافيةِ بهذه ٱلزيادةِ ٱلسخيفةِ ٱلتي قاسَ فيها ٱلحمامَ على ٱلظباءِ وَٱلمِعزى... فٱستكرَهَ ٱلحمامَ على أنْ يختصِمَ في زمنٍ بِعينِهِ وهو يختصمُ في كلِّ يوم؛ وإنَّما شرطُ ٱلزيادةِ في ٱلسرقةِ ٱلشعريَّةِ أنْ تُضافَ إلى ٱلمعنى فتجعلَهُ كَٱلمنفردِ بنفسِهِ أو كَٱلمخترَع.

ولَعَمْري لو كانَ لِلطبيعةِ مائةُ صورةٍ في ٱلخيالِ ٱلشعريِّ، ثُمَّ قدَّمَ شوقي لِلناسِ تسعاً وتسعينَ منها، لَقالَ ذلك ٱلناقدُ ٱلمتعنِّتُ: لا، إلَّا ٱلصورَةَ ٱلتي لم يقدِّمْها...

* * *

وكانَ شعرُ شوقي في جزالتِهِ وسلاستِهِ كأنَّما يحملُ ٱلعصا لِبعض ٱلشعراءِ يردّهُم بها عنِ ٱلسفْسفةِ[1] وَٱلتخليطِ وَالاضطرابِ في ٱللفظِ وَٱلتركيب؛ فكثُرَ ٱلاختلالُ في ٱلناشئينَ من بعدِه، وجاؤوا بِٱلكلامِ ٱلمخَلَّطِ ٱلذي تبعثُ عليهِ رخاوةُ ٱلطبعِ وضعفُ ٱلسليقة، فتراهُ مكْشوفاً سَهْلاً ولكنَّ سهولتَهُ أقبحُ في ٱلذوقِ من جَفْوةِ ٱلأَعرابِ على كلامِهِم ٱلوحشيِّ ٱلمتروك.

وَٱلآفةُ أنَّ أصحابَ هذا ٱلمذهبِ يفرضونَ مذهبَهُم فرضاً على ٱلشعرِ ٱلعربيّ، كأنَّهُم يقولونَ لِلناس: دَعُوا ٱللغةَ وخذونا نحن! وليسَ في أذهانِهِم إلَّا ما ٱختلطَ عليهم من تقليدِ ٱلأدبِ ٱلأوروبيّ، فكلٌّ منهم عابدُ ٱلحياة، مندمجٌ في وحدةِ ٱلكون، يأخذُ ٱلطبيعةَ من يدِ ٱللّهِ ويُجاري ٱللانهاية، ويَفْنَى في ٱللذة، ويُعانقُ ٱلفضاء، ويُغنِّي على قِيثارتِهِ لِلنجوم؛ وبِٱلاختصار: فكلٌّ منهم مجنونٌ لُغَويٌّ...

وأنا فلسْتَ أرى أكثرَ هذا ٱلشعرِ إلَّا كَٱلجِيَف، غيرَ أنَّهم يقولونَ: إنَّ ٱلجيفةَ لا تُعدُّ كذلك في ٱلوجودِ ٱلأعظم، بلْ هِيَ فيهِ عملٌ تحليليٌّ عِلْميٌّ دقيق؛ لقد

---

(١) السفسفة: الانحطاط.

صدقوا؛ ولكنْ هل يكذبُ من يقول: إنَّ الجيفةَ هيَ فسادٌ ونتنٌ وقَذَرٌ في ٱعتبارِ وجودِنا ٱلشخصيّ، وجودِ ٱلنظرِ وَٱلشمّ، وَٱلانقباضِ وَٱلانبساط، وسلامةِ ٱلذوقِ وفسادِ ٱلذوق!

وكانَ حاسدو شوقي يحسبونَ أنَّهُ إذا أُزيحَ من طريقِهِمْ ظَهرَ تقدُّمُهم؛ فلمَّا أُزيحَ مِنَ ٱلطريقِ ظهرَ تأخرُهم... وهذه وحدَها من عجائبِه ـ رحمه الله ـ.

وقد كان هذا ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ هِبةَ ثلاثةِ ملوكٍ لِلشعب، فهيهاتَ ينبغُ مثلُهُ إلَّا إذا عملَ ٱلشعبُ في خِدمةِ ٱلشعرِ وَٱلأدبِ عملَ ثلاثةِ ملوك... وهيهات!

الشعرُ ٱلعربيُّ
في خمسينَ سنة

إذا ٱعتبرْتَ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ قبلَ خمسينَ سنةً خَلَتْ (أي قبلَ إنشاءِ ٱلمقتطَف) وتأملْتَ حِلْيتَهُ ومَعْرِضَه، ونظرْتَ في منهاجِهِ وطريقتِهِ، وتصفَّحْتَ معانِيَهُ وأغراضَهُ ـ لم ترَ منه إلَّا شبيهاً بِما تراهُ من بقايا ٱلورقِ ٱلأخضرِ في شجرةٍ ثَقُلَ عليها ٱلظِّلُّ فهو جامدٌ مُسْتَوْخَم، وحُمَّ في ظلِّها شعاعُ ٱلشمسِ فهو باردٌ يرتعِد[1]، فَٱلحياةُ فيها ضعيفةٌ متهالِكة، لا هي تموتُ كَٱلموتِ ولا هي تحيا كَٱلحياة، وما ثَمَّ إلَّا ماءٌ ناشفٌ ورونقٌ عليلٌ ومنظرٌ مِنَ ٱلشجرةِ ٱلواهنةِ كأنَّهُ جسمُ ٱلربيعِ ٱلمعتلِّ بدَتْ عروقُهُ وعظامُه.

وكانَ ذلك ٱلشعرُ فاسدَ ٱلسبْك، مُتَخَلِّفَ ٱلمنزلَة، قليلَ ٱلطلاوة، بينَ مديحٍ قد أُعيدَ كلُّ معنًى من معانيهِ في تاريخِ هذه ٱللغةِ بِما لا يُحْصِيهِ[2] إلَّا ٱلملائكةُ ٱلموكلونَ بِإحصاءِ ٱلكذب، وبين هجاءٍ ساقطٍ هو بعضُ ٱلموادِ ٱلتي تشتعِلُ بِها نارُ ٱللَّهِ يومَ تَطَّلِعُ على ٱلأفئدة، وبينَ غزلٍ مسروقٍ مِنَ ٱلقلوبِ ٱلتي كانَتْ تُحِبُّ وتعشق، وبين وصفٍ لا عيبَ لِموصوفِهِ سواهُ، وشكوى مِنَ ٱلدهرِ يشكو ٱلدهرُ منها، وتحزّنٍ ويأسٍ وندبٍ تجعلُ ديوانَ ٱلشاعرِ كما سمَّى أحدُ ظرفاء ٱلقرنِ ٱلثاني عَشَرَ لِلهجرةِ ديوانَ أحدِ أصحابِه «بالملطمة...»، ورثاءٍ كقراءةِ ٱلقرَّاءِ في جِنازاتِ ٱلموتى، لا فيها عِظَةُ السكوتِ ولا فائدةُ ٱلنطق، وتغمرُ كلَّ ذلك أنواعٌ مِنَ ٱلصناعةِ بيِّنَةِ ٱلتعسُّف، ضعيفةِ ٱلتقليد، لا ترى ٱلمتأخِّرَ فيها معَ ٱلمتقدمِ إلَّا قريباً مِمَّا يكونُ عملُ ٱللصِّ في أخذِ ٱلمال، من عملِ صاحبِ ٱلمالِ في جمعِهِ؛ وَٱلعجيبُ أنَّكَ إذا ٱعترضتَ ٱلشعرَ مِنَ ٱلقرنِ ٱلعاشرِ لِلْهجرةِ إلى ٱلقرنِ ٱلثالثَ عَشَرَ (السادسَ عَشَرَ لِلْميلادِ إلى ٱلتاسعَ عَشَرَ) رأيْتَهُ نازلاً من عصرٍ إلى عصرٍ بتدريجٍ مِنَ ٱلضعيفِ إلى ٱلأضعف، حتى كأنَّما ينحطُّ بِقوةٍ طبيعيَّةٍ كقوةِ ٱلجذبِ، كلَّما هبَطَتْ شيئاً أسرعَتْ

---

(١) يرتعد: يرتجف.

(٢) يحصيه: يعده.

شيئاً إلى أنْ تلصقَ بٱلأرضِ، وبعضُهُم يُسمِّي هذه ٱلعصور بٱلعصورِ ٱلمظلمة، ولم يتنبهْ أحدٌ إلى أنَّ في ٱلأدبِ ناموساً[1] كناموسِ ردِّ ٱلفعل، يُخرجُ أضعفَ ٱلضعفِ من أقوى ٱلقوَّةِ، وأنَّ ٱنحطاطَ ٱلشعرِ في تلك ٱلعصور ـ على أنَّهُ لم يكنْ إلَّا صِناعةً بديعيَّة ـ إنَّما سببُهُ ٱلقوَّةُ ٱلصناعيَّةُ ٱلعجيبةُ ٱلتي كانَتْ لِلشعرِ منذُ ٱلقرنِ ٱلسادسِ إلى ٱلعاشر، بعدَ أنْ نشأَ ٱلقاضي ٱلفاضلُ ٱلمتوفى سنة ٥٩٦هـ (١١٩٩م)؛ وكانَ رجلاً مِنَ ٱلرجالِ ٱلذينَ يخلقونَ حدوداً لِلْحوادثِ تبدأُ منها أزمنةٌ وتنتهي عندَها أزمنة؛ ففتنَ ٱلناسَ بِأدبِهِ وصِناعتِه، وصرفَ ٱلشعرَ وَٱلكتابةَ إلى أساليبِ ٱلنكتةِ ٱلبديعيَّة؛ وظهرَتْ من بعدِهِ عِصابتُهُ ٱلتي يُسمونَّها ٱلعصابةَ ٱلفاضليَّة، وما منهم إلَّا إمامٌ في ٱلأدبِ وعلومِه، فكانَ في مِصْرَ ٱلقاضي ٱبْنُ سناءِ ٱلملك، وسراجُ ٱلدينَ ٱلوراق، وأبو ٱلحسينِ ٱلجزار، وأضرابُهم؛ وكانَ في ٱلشام عبدُ ٱلعزيز ٱلأنصاريُّ، وٱلأميرُ مجيرُ ٱلدين بْنُ تميم، وبدرُ ٱلدين يُوسفُ بْنُ لؤلؤِ ٱلذهبيُّ، وأمثالُهم؛ فهذه ٱلعِصابةُ هيَ ٱلتي تُقابلُ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱلعربي عِصابةَ ٱلبديعِ ٱلأولى: كمسلم، وَأبي تمَّام، وَٱبنِ ٱلمعتز، وغيرِهم؛ وكلتا ٱلفئتينِ ٱستبدَّتْ بِٱلشعرِ وصرَّفَتْهُ زمناً، وأحدثَتْ فيهِ ٱنقلاباً تاريخيّاً متميِّزاً؛ بيدَ أنَّ ٱلعِصَابةَ ٱلفاضليَّةَ بلغَتْ مِنَ ٱلصنعةِ مبلغاً لا مطمعَ في مثلِهِ لِأحدٍ من بعدِها، حتى كأنَّهُم لم يدعوا كلمةً في ٱللغةِ يجرى فيها نوعٌ من أنواعِ ٱلبديعِ إلَّا جاؤُوا بِها وصنعُوا فيها صنعة؛ وكانَ بعضُهُم يأخذُ من بعضٍ ويزيدُ عليه، إلى آخرِ ٱلمائةِ ٱلثامنة، فلم يتركوا باباً لِمَنْ يأتي بعدَهُم إلَّا بابَ ٱلسرَقةِ بِأساليبِها ٱلمعروفةِ عندَ علماءِ ٱلأدب.

ولهذا لا تكادُ تجدُ شعراً عربيّاً بعدَ ٱلقرنِ ٱلتاسعِ إلى أولَ ٱلنهضةِ ٱلحديثة، إلَّا رأيْتَهُ صُوَراً ممسوخةً مِمَّا قبلَهِ؛ وكلُّ شعراءِ هذه ٱلقرونِ ليسوا مِمَنْ وراءَهُم إلَّا كَٱلظلِّ مِنَ ٱلإنسان: لا وجودَ لَهُ من نفسِه، وهو ممسوخٌ أبداً إلَّا في ٱلندرةِ حينَ يسطعُ في مِرآةٍ صافية؛ ومتى كانَ ٱلشعراءُ لا يُنشئون إلَّا على فنونِ ٱلبلاغةِ وصِناعاتِها، وكانَتْ هذه كلُّها قد فرغَ منها ٱلمتقدِّمون؛ فما ثَمَّ جديدٌ في ٱلأدبِ وَٱلفنِّ إلَّا وِلادةُ ٱلشعراءِ وموتُهُم، وإلَّا تغيرُ تواريخِ ٱلسنين... وهذا إذا لم نعدَّ مِنَ ٱلأدبِ تلك ٱلصناعاتِ ٱلمستحدثةِ ٱلتي ٱبتدعَها ٱلمتأخرون مِمَّا سنُشيرُ إلى بعضِه: كَٱلتاريخِ ٱلشعريِّ وغيرِه.

* * *

---

(١) ناموساً: قانوناً.

إنَّ ٱلفكرَ ٱلإنسانيَّ لا يسِّيرُ ٱلتاريخ، ولا يُقدِّرُ قَدَراً فيه، ولا ينقلُهُ من رسم إلى رسم؛ لِأَنَّهُ هو نفسُهُ كما خُلِقَ مُصْلِحاً خُلِقَ مُفْسِداً وكما يستطيعُ أنْ يُوْجدَ يستطيعُ أنْ يفنى، وكما تَطَّردُ بِهِ سبيلٌ تلتوي بِهِ سبيلٌ أخرى؛ وما أشبهَ هذا ٱلفكرَ في روعتِهِ بِقِطارِ ٱلحديد: يطيرُ كَٱلعاصفةِ ويحملُ كَٱلجبلِ ويُدهِشُ كَٱلمعجزة، وهو مع كلِّ ذلك لا شيءَ لولا ٱلقضيبانِ ٱلممتدانِ في سبيلهِ، يحرفانه كيف ٱنحرفا، ويسيرانِ بِهِ أين ٱرتميا، ويقِفانِ بِهِ حيثُ ٱنتهيا؛ ثُمَّ هو بِجُملتِهِ ينقلبُ لِأوهى ٱختلالٍ يقعُ فيهما.

لا جَرَمَ كانَتِ ٱلعصورُ مرسومةً معينةَ ٱلنمطِ ذاهبةً إلى ٱلكمالِ أو مُنْحَدِرةً إلى ٱلنقص، حسبَ ٱلغاياتِ ٱلمحتومةِ ٱلتي يسيرُ بها ٱلفكرُ في طريقِ ٱلقدَرِ ٱلذي يقودُه.

فهذه علومُ ٱلبلاغةِ ٱلتي أحدثَتْ فنّاً طريفاً في ٱلأدبِ ٱلعربيّ، وأنشأَتِ ٱلذوقَ ٱلأدبيَّ نشأَتَهُ ٱلرابعةَ في تاريخ هذه ٱللغة، بعد ٱلذوقِ ٱلجاهليّ، وَٱلمُحدَثِ، وَٱلمولَّد - هي بعينِها ٱلتي أضعفَتِ ٱلأدبَ وأفسَدتِ ٱلذوقَ وأصارتْهُ إلى رأينا في شعرِ ٱلمتأخرين، كأنَّما ٱنقلبَتْ عليهم علوماً مِنَ ٱلجهل، حتى صارَ ٱلنمطُ ٱلعالي مِنَ ٱلشعرِ كأنَّهُ لا قِيمةَ لَه؛ إذْ لا رغبةَ فيه، ولا حَفْلَ به؛ لِمُباينتِهِ لِمَا أَلِفوا وخُلُوِّهِ مِنَ ٱلنكتةِ وَٱلصناعة؛ وحتى كانَ في أهلِ ٱلأدبِ ومدرِّسيهِ مَنْ لا يعرفُ ديوانَ ٱلمتنبي!

ولا يصفُ لك معنى ٱلشعرِ في رأيِ أدباءِ ذلك ٱلعهدِ كقولِ ٱلشيخِ ناصيف ٱليازجي ٱلمتوفى سنةَ ١٨٧١:

مَلَلْتُ مِنَ ٱلقريضِ وقلْتُ يكفي	لِأَمـرٍ شـابَ قُـوَّتَـهُ بِـضَـعْـفِ
أُحـاوِلُ نـكـتـةً فـي كُـلِّ بَـيْـتٍ	وذلـك قـد تُـقَـصِّـرُ عَـنْـهُ كـفِّـي
أَجَلُّ ٱلـشعـرِ مـا فـي ٱلـبيـتِ مِنْـهُ	غَـرابـةُ نُـكْـتَـةٍ أو نَـوعُ لُـطْـفِ

يُريدُ ٱلنكتةَ ٱلبلاغيَّةَ وأنواعَ ٱلبديع، وذلك ما قصَّرَتْ عنهُ كفُّهُ وكفُّ غيرِهِ، لِأَنَّهُ شيءٌ مفروغ منه، حتى لا يأتيَ ٱلمتأخرُ بِمثالٍ فيهِ إلَّا وجَدْتَهُ بِعَينِهِ لِمَنْ تقدَّمُوهُ على صورٍ مختلفةٍ ينظرُ بعضُها إلى بعضٍ وما يأتي ٱختلافُها إلَّا من ناحيةِ ٱلحِذْقِ[1] في إخفاءِ ٱلسرقةِ بِٱلزيادةِ وَٱلنقص، وَٱلإلمام وَٱلملاحظةِ وَٱلتعريضِ وَٱلتصريح وغيرِها مِمَّا يعرفُهُ أئمةُ ٱلصناعة، ولا يتسببُ إليهِ بأقوى أسبابِهِ إلَّا مَن رُزِقَ ٱلقوَّةَ على ٱلتوليدِ وَٱلاختراع.

---

(١) الحذق: المهارة.

إذا عرفْتَ ذلك ٱلسرَّ في سقوطِ ٱلشعرِ وَٱضطرابِهِ وسفسفتِهِ[1]، لم تَرَ غريباً ما هو غريبٌ في نفسِه، من أنَّ بدءَ ٱلنهضةِ ٱلشعريَّةِ ٱلحديثةِ لم يكنِ ٱلعِلْمَ ٱلذي يُصحِّحُ ٱلرأيَ، ولا ٱلاطلاعَ ٱلذي يُؤْتي ٱلفِكْر، ولا ٱلحضارةَ ٱلتي تُهذِّبُ ٱلشعور، ولا نظامَ ٱلحكمِ ٱلذي يُحدِثُ ٱلأخلاق؛ وإنَّما كانَ ضرْباً مِنَ ٱلجهلِ وقفَ حَدّاً منيعاً بينَ زمنِ فنونِ ٱلبلاغةِ وبين زمانِنا؛ وكانَ كَٱلساحلِ لذلك ٱلموجِ المتدفِّع ٱلذي يتضرَّبُ على مدّ ثمانمائةِ سنةٍ مِنَ ٱلقرنِ ٱلسادسِ إلى ٱلرابعَ عَشَرَ لِلْهجرة؛ ولِلَّهِ أسرارٌ عجيبةٌ في تقليبِ ٱلأمورِ وخَلْقِ ٱلأحداثِ ودفعِ ٱلحياةِ ٱلفكريَّةِ من نمطٍ إلى نمط، وإخراجِ ٱلعقْلِ ٱلمبتدعِ من هيئةٍ إلى هيئة، وجعلِ بعضِ ٱلنفوسِ كَالينابيعِ لِلتيارِ ٱلإنسانيِّ في عصرٍ واحدٍ أو عصورٍ مُتَعاقِبة، وإقامةِ بعضِ ٱلأشخاصِ حُدوداً على ٱلأزمنةِ وٱلتواريخ؛ فكانَ ٱلذي أحدثَ ٱلانقلابَ ٱلرابعَ في تاريخِ ٱلشعرِ ٱلعربيّ، وأنشأَ ٱلذوقَ نشأتَهُ ٱلخامسة، هُوَ ٱلشاعرَ ٱلفحلَ محمود باشا ٱلبارودي، ٱلذي لم يكنْ يعرفُ شيئاً ألبتةَ من علوم ٱلعربيَّةِ أو فنونِ ٱلبلاغة؛ وإنَّما سَمَتْ بِهِ ٱلهِمَّةُ لِأَنَّهُ حادثةٌ مرسلةٌ لِلْقلبِ وَٱلتغيير، فأبعدَهُ ٱللَّهُ من تلك ٱلعلوم، وأخرجَهُ لنا من دواوينِ ٱلعرب، كما نشأَ مثلُ ٱبنِ ٱلمقفعِ وَٱلجاحظِ من فُصحاءِ ٱلأعراب، ويسَّرَ لَهُ من أسبابِ ذلك ما لم يتَّفِقْ لِأَحدٍ غيرِهِ مِمَّا لا محلَّ لِبَسطِهِ هنا، ولا تكادُ تجدُ شعرَ أديبٍ متأخرٍ يستقيمُ لَهُ أنْ يذكرَ في شعرِ كلِّ عصرٍ من لدنِ زمنِنا إلى صدرِ ٱلإسلامِ ثُمَّ لا تنحطُّ مرتبتُهُ ـ غيرَ كلامِ ٱلباروديِّ هذا؛ وهو وحْدهُ ٱلذي يُقابلُ ٱلقاضيَ ٱلفاضلَ في أدوارِ ٱلتاريخِ ٱلأدبيِّ، على بعدِ ما بينهما؛ لِأَنَّ شعرَهُ هو ٱلذي نسخَ آيةَ ٱلصناعة، ودارَ في ألسنةِ ٱلرواة، وكانَ ٱلمثلَ المحتذى في القوّةِ وَٱلجزالةِ ودِقَّةِ ٱلتصويرِ وتصحيحِ ٱللغة؛ ولم يشأ ٱللَّهُ أنْ يسبقَهُ إلى ذلك أحد؛ لِأَنَّ ٱلنهضةَ ٱلاجتماعيَّةَ في هذا ٱلشرقِ ٱلعربيِّ كانَتْ في عِلْمِ ٱللَّهِ مرهونةً بأوقاتِها وأسبابِها؛ ولولا ذلك لَسبَقَهُ شاعرُ ٱلقرنِ ٱلحادي عَشَرَ ٱلأميرُ منجكُ ٱلمتوفى سنة ١٠٨٠هـ (١٦٦٩م)؛ فقدِ ٱتَّفقَتْ لِهذا ٱلأميرِ نشأةٌ كنشأةِ ٱلباروديّ، فكانَ كثيرَ ٱلحِفْظِ من دواوينِ ٱلعصورِ ٱلأولى، وكانَ يُقلِّدُ أبا فِراسٍ ٱلحمدانيَّ ويحتذي على مِثالِهِ؛ ولكنَّ عصرَهُ كانَ في ٱلعصورِ الهالكة، فخرجَ ٱلشاعرُ ضعيفاً كما يخرجُ كلُّ شيءٍ في غيرِ وقتِهِ ولِغيرِ تَمامِهِ وبِغيرِ وسائلِهِ ٱلطبيعيَّة.

---

(١) سفسفة: انحطاط.

ونشأتِ ٱلعِصابةُ ٱلباروديَّةُ وفيها إسماعيلُ صبري وشوقي وحافظٌ ومطرانُ وغيرُهُم، وأدركوا ما لم يُدرِكْهُ ٱلباروديُّ وجاؤوا بِمَا لم يجىءْ بِه، وَٱتَّصلَ ٱلشعرُ بعضُهُ ببعض، وسارَتْ بِهِ ٱلصحف، وتناقلتْهُ ٱلأفواهُ، وأُنسى ذكرُ ٱلبلاغةِ وفنونِها بِٱلنشأةِ ٱلمدرسيَّةِ ٱلحديثةِ ٱلتي جعلَتْ من تركِ ٱلبلاغةِ بلاغة؛ لِأَنَّها صادفَتْ أوائلَ ٱلانقلابِ ليسَ غير؛ وبذلك بطلَ في مِصْرَ عصرُ أبي ٱلنصرِ وَٱلليثي وَٱلساعاتي وَٱلنديم وطبقتِهِم، وفي ٱلشام عصرُ ٱليازجيِّ وَٱلكستي وَٱلأنسي وَٱلأحدب وأضرابهِم، وفي ٱلعراق عهدُ ٱلفاروقيّ وَٱلموصليّ وٱلتميميّ وسواهم؛ وٱستقلَّ ٱلشعرُ عربيّاً وخرجَ كما يخرجُ ٱلفكرُ ٱلمخترعُ ماضياً في سبيلٍ غيرِ محدودة.

* * *

لا ريبَ في أنَّ ٱلطرقَ ٱلتي تُتَّبَعُ في تربيةِ ٱلأُمَّةِ وتكوينِ رُوحِها ٱلعالميَّة لا بُدَّ أنْ يكونَ لها أثرٌ بَيِّنٌ في شعر شعرائِها؛ فإنَّما ٱلشعرُ فكرٌ يَنبضُ وعاطفةٌ تختلِج، وما أرى ٱلشاعرَ ٱلحقَّ من أُمَّتِهِ إلَّا كَٱلزهرةِ ٱلصغيرةِ من شجرتها: إنْ لم تكنْ خُلاصةُ ما فيها مِن ٱلقوَّة، فهي خُلاصةُ ما في ٱلشجرِ من معنى ٱلجمالِ ولونِهِ وملمسِه، ولا تَعدَمُ مَعَ هذه ٱلصفةِ أنْ تكونَ وحدَها الكوكبَ ٱلساطِعَ في هذا اٱلأفقِ ٱلأخضرِ كُلِّه.

ولقد ٱطَّرَدَتِ ٱلنهضةُ منذُ خمسينَ سنةً أو حولَها، في ٱلأدبِ وَٱلعِلْم؛ وفي ٱلفِكْرِ وَٱلفنِّ وَٱلصناعة؛ وَٱستوى لنا من ذلك ما لم يتَّفِقْ لِهذهِ ٱلأُمَّةِ في عَصْرٍ مِنْ عصورِها، حتى بلغْنا من ذلك أنْ صِرْنا كأنَّما فتحْنَا أرضاً من أوربا وتغلَّبْنَا عليها، أو أنشأْنا أوربا عربيةً وما نزال نُعمرُها وننقلُ إليها ٱلعلومَ وَٱلفنونَ وٱلآداب، ونستخرجُ لها ٱلأمثلَة وَٱلأساليب؛ غيرَ أنَّ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ مع هذا كلِّه لم يوفَّ قِسْطَهُ ولم يبلغْ مبلَغُه في مُجَاراةِ هذه ٱلنهضةِ قُوَّةَ ٱبتكارٍ وسلامةَ ٱختراع وحُسْنَ تنوّع، لسببين: الأولُ أنَّهُ لا يزالُ كما كانَ منذُ فسدَتِ ٱللغةُ ٱلعربيَّة: شعرَ فِئةٍ لا شعرَ أُمَّة، فهو يُوضعُ لِلْخاصَّةِ لا لِلشعب. ويدورُ مَعَ ٱلأغراضِ وٱلحاجاتِ لا معَ ٱلطبائع وَٱلأذواق؛ وذلك لو تأملْتَ، هو من بعضِ ٱلأسرارِ في سموِّ هذا ٱلشعرِ وقُوَّةِ إحْكامهِ وإبداعِ تنسيقِهِ وجمالِ توشيحِهِ منذُ ٱلدولةِ ٱلعباسيَّةِ إلى ٱلقرنِ ٱلخامس؛ ثُمَّ ٱنحطاطِهِ بعدَ ذلك وتدنِّيهِ شيئاً فشيئاً حتى بلغَ ٱلدركَ ٱلأسفلَ في ٱلعصورِ ٱلمتأخرة؛ إذْ كانَتِ ٱلفِئةُ ٱلتي يُوضَعُ لها ويصفُ أهواءَها وأغراضَها وتتقبَّلُهُ وتُثيبُ[1] عليهِ وتُحسِنُ وزنَهُ ونقدَهُ، هي في ٱلناحيتينِ كما ترى من طرفي ٱلمنظارِ ٱلذي يُقرِّبُ

(١) تُثيب: تكافىء.

ٱلْبعيد، فهي بِٱلنظر في أولِهِ واضحةٌ جليَّةٌ مُترامِيَةٌ إلى ٱلجهات، وبِٱلنظرِ في آخرِهِ ضئيلةٌ مَمْسُوخَةٌ لَا تَكادُ تُعرَف. وما أقضى ٱلعجبُ من غفلةِ بعضِ ٱلكُتَّابِ في هذا ٱلزمنِ إذْ يُناهِضونَ ٱلعربيَّةَ ويزْرَوْنَ على ٱلفصاحةِ ويعملونَ على ٱنكماشِ سوادِها وتقليلِ أهلِها. وما يدرون أنّهم بِذلك يُسقطونَ ٱلشعرَ قبلَ ٱلكتابةِ على خطإٍ أو عَمْدٍ وقَلَّما تجدُ واحداً من هؤلاءِ يُحسِنُ مُعالجةَ ٱلشعر، فإنْ أَصَبْتَ لَهُ شعراً وجدْتَهُ لا غَناءَ فيهِ أو في أكثرِه، وأين وضعْتَ يدَكَ منهُ لم تُخطِىءْ أنْ تقعَ على مَثَلٍ مِمَّا يُمثَّلُ بهِ لِعيبٍ من عيوبِ ٱلبلاغة.

وهذه ٱلنهضةُ ٱلتي نحن في صددِ ٱلكلامِ عنها أوسعُ مدًى وأوفرُ أسباباً من تلك ٱلتي كانَتْ في ٱلدولةِ ٱلعباسيَّة، بِمَا دخلَها من أدبِ كلِّ أُمَّة، وما ٱتّصلَ بها من أساليبِ ٱلفكر: ولكنْ أينَ رِجالُ ٱلفصاحةِ ٱلمتمكِّنون منها، ٱلمتعصِّبون لها ٱلعاملون على بَثِّها في ٱلألسنة، مَعَ أنَّ عصرَهم أوسعُ من عَصْرِ ٱلرواة، بِكثرةِ ما أخرجَتِ ٱلمطابعُ من أُمَّهاتِ ٱلكتبِ وَٱلدواوين، حتى أغنَتْ كُلُّ مطبعةٍ أدبيَّةٍ عن راوِيةٍ من أئمةِ ٱلرواة.

وَٱلسببُ ٱلثاني ٱلذي من أجلهِ لا يزالُ ٱلشعرُ متخلِّفاً عن منزلتِهِ ٱلواجبةِ لَهُ ـ سقوطُ فَنِّ ٱلنقدِ ٱلأَدبيِّ في هذه ٱلنهضة؛ فإنَّ من أقوى ٱلأسبابِ ٱلتي سَمَتْ بِٱلشعرِ فيما بعدَ ٱلقرنِ ٱلثاني وجعلَتْ أهلَهُ يُبالِغون في تجويدِهِ[1] وتهذِيب، كثرةَ ٱلنقَّادِ وٱلحُفَّاظ. وتتَّبعُهم على ٱلشعراء، وَٱعتبارَ أقوالِهِم، وتدوينَ ٱلكتبِ في نقدِهِم، كَٱلذي كانَ في دروسِ ٱلعلماء وحلقاتِ ٱلروايةِ ومجالسِ ٱلأدب، وَكَٱلَّذي صنَّفَهُ مهلهلُ بَنُ يموتٍ في نقدِ أبي نُواسٍ وأحمدَ بْنِ طاهر، وٱبنُ عمَّارٍ في أبي تمَّام، وبشرُ بْنِ تميم في ٱلبحتريِّ، وَٱلآمدْيُّ في ٱلموازنة، وَٱلحاتميُّ في رسَالتِهِ، وَٱلجُرجانيُّ في ٱلوساطة، وما لا يُحصى من مثلِ هذه ٱلكتبِ وٱلرسائل، وأنت مِنَ ٱلنقدِ في هذه ٱلنهضةِ بينَ ٱثنين: صديقٍ هُوَ ٱلصديقُ أو عدوٌ هو ٱلعدوّ... فإنِ ٱبتغيْتَ لهما ثالثاً فكاتبٌ لا تتعادلُ وسائلُ ٱلنقدِ فيهِ فلا خيرَ في كلامهِ، أمَّا ٱلناقدُ ٱلذي ٱستعرضَ عِلْمَ ٱلعربيَّةِ وآدابَها، وكانَ شاعراً كاتباً قويَ ٱلعارضَةِ[2]، دقيقَ ٱلحِسِّ ثاقِبَ ٱلذهن، مستويَ ٱلرأي بصيراً بِمذاهبِ الأدبِ متمكِّناً من فلسفةِ ٱلنقدِ مبرِّزاً في ذلك كلِّه ـ فهذا ٱلخيالُ يُذكرني كلمةً قلْتُها يوماً لِلباروديِّ إذْ قلْت لَهُ: إنَّ

(١) تجويده: تحسينه وإتقانه.

(٢) قوي العارضة: متمكن من ملكته الشعرية الفنية وحجته.

الشاعرَ لا يكونُ لِسانَ زمنِهِ حتى يُوجَدَ معَهُ ٱلناقدُ ٱلذي هو عقلُ زمنِه؛ فقال: ومَنْ ناقدُ ٱلشعرِ في رأيك؟ قُلْت: الكاتبُ وهو شاعر، وَٱلأديبُ وهو فيلسوف، وٱلمُصلِحُ وهو موفَّق؛ فكأنّما هوَّلْتُ عليه حتى قال ـ رحمهم الله ـ «فين دا كلّه؟» قُلْت: فلعلّهُ لا يُنشيءُ لنا هذا ٱلعقلَ ٱلملتهبَ إلّا ٱلعصرُ ٱلذي يُوجِدُ لنا أسطولاً كأُسطولِ إنجلترا.

* * *

وعلى ما نزلَ بِٱلشعرِ ٱلعَصْرِيِّ من هذينِ ٱلسببينِ فقدِ ٱستقلَّتْ طريقتُهُ وظهَرَ فيه أثرُ ٱلتحوُّلِ ٱلعِلْمِيِّ وَٱلانقلابِ ٱلفكري، وعَدَلَ بهِ أهلُهُ إلى صُوَرِ ٱلحياةِ بعدَ أنْ كانَ في أكثرِهِ صُوَراً مِنَ ٱللغة، وأضافوا بِهِ مادةً حسنةً إلى مجموعةِ ٱلأفكارِ ٱلعربيَّة، ونوَّعوا منه أنواعاً بعدَ أنْ كانَ كَٱلشيءِ ٱلواحد، وٱتَّسعَتْ فيهِ دائرةُ ٱلخيالِ بما نقلوا إليهِ مِنَ ٱلمعاني ٱلمترجَمَةِ من لغاتٍ مختلفة، وهو من هذه ٱلناحيةِ أوسعُ من شعرِ كلِّ عصرٍ في تاريخ هذه ٱللغة: إذْ كانَ ٱلأولون إنَّما يأخذونَ مِنَ ٱليونانيَّةِ وَٱلفارسيَّة، ثُمَّ أخذَ ٱلمتأخِّرونَ قَليلاً قليلاً مِنَ ٱلتركيَّة؛ أمَّا في ٱلعهدِ ٱلأخيرِ فيكادُ ٱلعقلُ ٱلإنسانيُّ كلُّهُ يكونُ مادةَ ٱلشاعرِ ٱلعربيِّ، لولا ضعفُ أكثرِ ٱلمُحْدثينَ من ٱلنشْءِ ٱلجديدِ في ٱلبيانِ وأساليبِه، وبُعدُهُم من ذوقِ ٱللغةِ وَٱعتياص[1] مرامِها عليهم، حتى حَسِبُوا أنَّ ٱلشعرَ معنًى وفكر، وأنَّ كلَّ كلام أدَّى ٱلمعنى فهوَ كلام، ولا عليهم مِنَ ٱللغةِ وصناعتِها، وَٱلبيانِ وحقيقَتِهِ؛ وحَتَى صِرْنَا ـ وٱللَّهِ ـ من بعضِ ٱلغثاثةِ وَٱلركاكةَ وٱلاختلالِ في شرٍّ من توعُّرِ نظم ٱلجاهليَّة وجفاءِ ألفاظِهِ وكزازةِ معانيهِ؛ وهلَ ثَمَّ فرقٌ بين أنْ تنفرَ ٱلنفسُ مِنَ ٱلشعرِ لِأَنَّهُ وعرُ ٱلألفاظِ عسيرُ ٱلاستخراج شديدُ ٱلتعسُّف، وبينَ أنْ تمجَّهُ لِأَنَّهُ ساقطُ ٱللفظِ، متسوِّلُ ٱلمعنى، مضطربُ ٱلسِّياق؟ ثُمَّ تَراهم يُنجزون ٱلشعرَ كلَّهُ على ٱختلافِ أغراضِهِ نمطاً واحداً من تسهيل ٱللفظِ ونزولِه، حتى كأَنَّ هذه ٱللغةَ لا تنوُّعَ في ألفاظِها وأجراسِ ألفاظِها[2]، معَ أنَّ هذا ٱلنوعَ من أحسنِ محاسِنِها وأخصِّ خصائِصها دونَ غيرِها مِنَ ٱللغات، كما أنَّ كلَّ تنوُّع هو من أبدع أسبابِ ٱلجمالِ وَٱلقوَّةِ في كلِّ فنّ؛ ولا يدري أصحابُنا أنَّ كلَّ ذلكَ من عملِهِم عبثٌ في عبثٍ[3] إذا هم لم يُعطوا ٱلشعرَ حقَّهُ من صِناعةِ ٱللغة؛ وهذا شاعرُ ٱلفُرْسِ ٱلشهيرُ مصلح ٱلدينِ ٱلسعديُّ ٱلشيرازيُّ

---

(١) اعتياص: صعوبة.

(٢) أجراس ألفاظها: موسيقاها.

(٣) عبث: لعب، لا طائل منه.

إمامٌ من أئمةِ ٱلبلاغةِ في قومِهِ لا يدفعُ مكانهُ وشعرَهُ مثَلٌ من أسمى ٱلأمثلةِ في جمالِ ٱلمنطقِ ٱلروحيّ، وليسَ في ٱلناسِ إلّا من يُسلِّمُ لَهُ هذا ٱلمحلَّ مِنَ ٱلنبوغ، وهو مع ذلك حينَ نظمَ ٱلشعْرَ لم تنفعْهُ نافعةٌ من حِكمةٍ أو خيالٍ أو فِكْر، وذهبَ في ٱلتعسُّفِ كلَّ مذهب، وحملَ على كلامِهِ مِنَ ٱلعيوبِ ما لم يسلَمْ معهُ إلّا صِحّةُ ٱلوزن، كقولِهِ في وصفِ نكبةِ بغدادَ وتخريبِها:

فَقَدْ ثُكِلَتْ أمُّ ٱلقُرى[1] ولكعْبةٍ ... مدامعُ في ٱلميزابِ[2] تُسْكَبُ في ٱلحجرِ
علـى جُـذْرِ ٱلـمـسـتـنـصـريَّـة نـدبـةٌ ... على ٱلعلماءِ الراسخينَ ذوي ٱلحجرِ
نـوائبُ[3] دَهْرٍ لَيْتَني مِتُّ قبلَهَا ... ولـم أرَ عدوانَ ٱلسفيهِ على ٱلخَبَرِ
مـحابرُ تبـكي بـعـدَهُـمْ بِسَوادِها ... وبعضُ قلوبِ ٱلناس تألفُ بِٱلغدرِ
لحى اللَّهُ[4] مَنْ تُسدي[5] إليهِ بنِعْمَةٍ ... وعندَ هُجومِ ٱليأسِ أخلَكُ من حَبَرِ

فٱنظرْ أي شعر هذا في ٱلركاكةِ وٱلهذيانِ وٱلسُّخْفِ، وفي خمودِ ٱلفِكْرِ وضعفِ ٱلروحِ وذهابِ ٱلرونَق[6]، وتأمَّلْ كيف هوى بهِ ٱلسعديُّ من مكانتِهِ ٱلتي بوَّأهُ إياها أدَبُهُ ٱلعالي، وكيفَ سقطَ إلى حيثُ ترى، مَعَ أنَّهُ في مِحرابِ ٱلفكر إمامٌ وراءَهُ صفوفٌ من عصورِ ٱلبلاغةِ.

ومن هٰهنا نشأَ في أيامِنا ما يُسمُّونَهُ «ٱلشعرُ ٱلمنثور»، وهي تسميةٌ تدلُّ على جَهْلِ واضعِها ومَنْ يرضاها لِنفسِه؛ فليسَ يضيقُ ٱلنثرُ بٱلمعاني ٱلشعريَّة، ولا هو قد خلا منها في تاريخ ٱلأدب؛ ولكنَّ سرَّ هذه ٱلتسميةِ أنَّ ٱلشعرَ ٱلعربيَّ صِناعةٌ موسيقيَّةٌ دقيقةٌ يظهرُ فيها ٱلاختلالُ لِأوهى عِلَّةٍ وَلِأيسرِ سبب، ولا يُوَفَّقُ إلى سبكِ ٱلمعاني فيها إلَّا من أمدَّهُ ٱللَّهُ بِأصحِّ طبعٍ وأسلمِ ذَوْقٍ وأفصحِ بَيان؛ فَمِنْ أجلِ ذلك لا يَحتملُ شيئاً من سخفِ ٱللفظِ أو فسادِ ٱلعِبارةِ أو ضعفِ ٱلتأليف، ولا تستوي فيهِ أسمى ٱلمعاني مع شيءٍ من هذه ٱلعِلَلِ وأشباهِها، وتراهُ يُلقِي بِمثلِ (ٱلسعديّ) منَ ٱلفلكِ ٱلأعلى إلى ٱلحضيض، لا يُقيمُ لَهُ وزناً ولا يرعى لَهُ مَحَلاً ولا يقبلُ فيهِ عذراً ولا رُخْصة؛ غيرَ ٱلنثرِ يحتملُ كلَّ أسلوب، وما من صورةٍ فيه إلّا ودونَها صورةٌ إلى أنْ تنتهيَ إلى ٱلعاميِّ ٱلساقطِ وٱلسوقيِّ ٱلبارد؛ ومن شأنِهِ أنْ ينبسطَ وينقبِضَ على ما

---

(١) أم القرى: مكة.

(٢) الميزاب، جمعه ميازب، . وهو أنبوب تجري فيه المياه.

(٣) نوائب: مصائب.

(٤) لحى الله فلاناً: قبّحه ولعنه.

(٥) تُسدي: تقدّم.

(٦) الرونق: الطلاوة.

شِئْتَ منه، وما يتَّفِقُ فيهِ مِنَ ٱلحُسْنِ ٱلشعرِيِّ فإنَّما هو كَٱلذي يتَّفِقُ في صوتِ ٱلمطربِ حينَ يتكلَّمُ لا حينَ يُغني: فمَنْ قال: «الشعرُ المنثور» فٱعلَمْ أنَّ معناهُ عجزُ ٱلكاتبِ عنِ ٱلشعرِ من ناحيةٍ وٱدّعاؤُهُ من ناحيةٍ أخرى.

* * *

وَٱلذي أراهُ جديداً في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ مِمَّا أبدعتْهُ هذه ٱلنهضةُ أشياء:

أولاً: هذا ٱلنوعُ ٱلقصصيُّ ٱلذي تُوضعَ فيهِ ٱلقصائدُ ٱلطوال، فإنَّ ٱلآدابَ ٱلعربيَّةَ خاليةٌ منه؛ وكانَ ٱلعربُ ومَنْ بعدَهم إذا ذكروا ٱلقصةَ ألمُّوا بها ٱقتضاباً[1] وجاءُوا بها في جملةِ ٱلسياقِ على أنّها مثلٌ مضروبٌ أو حِكمةٌ مرسَلَةٌ أو بُرهانٌ قائمٌ أوِ ٱحتجاجٌ أو تعليلٌ وما جرى هذا ٱلمجرى مِمَّا لا تَرِدُ فيهِ ٱلقصةُ لِذاتِها ولا لِتفصيلِ حوادثِها، وهو كثيرٌ في شعرِ ٱلجاهليِّينَ وٱلإسلاميِّين، وٱلجيِّدُ منه قليلٌ حتى في شعرِ ٱلفحول؛ فإنَّ طبيعةَ ٱلشعرِ ٱلعربيّ تأباه؛ وَٱلذينَ جاءُوا بِهِ مِنَ ٱلعصريِّينَ لا يجّدون منه إلاَّ قطعاً تعرضُ في ٱلقصيدةِ وأبياتاً تتَّفِقُ في بعضِ معانيها وأغراضِها مِمَّا يجري على أصلِهِ في سائرِ ٱلشعرِ طالَ أو قَصُر؛ وَٱلسببُ في ذلك أنَّ ٱلقصةَ إنَّما يتمُّ تمامُها بِٱلتبسُّطِ في سردِهَا وسياقةِ حوادثِها وتسميةِ أشخاصِها وذكرِ أوصافِهِم وحِكايةِ أفعالِهِم وما يداخلُ ذلك أو يتَّصِلُ بهِ، وإنَّما بُنِي ٱلشعرُ ٱلعربيَّ في أوزانِهِ وقوافيهِ على ٱلتأثيرِ لا على ٱلسرْد، وعلى ٱلشعورِ لا على ٱلحِكاية؛ ولا يُريدونَ منهُ حديثَ ٱللسانِ ولكنْ حديثَ ٱلنفس؛ فهو في ٱلحقيقةِ عندَهم صِناعةٌ روحيَّةٌ يصنعون بِها مقاديرَ مِنَ ٱلطرَبَ وٱلاهتزازِ وٱلفرحِ وٱلحزنِ وَٱلغَضبِ وٱلحميَّةِ وَٱلفخرِ وَٱلاستطالةِ ونحوِها مِنَ ٱلمعاني ٱلتي هيَ بسببٍ مِنْ أسبابِ ٱلانفعالِ وَٱلنزعة؛ فلا جَرَمَ كانَ سبيلُهُم إلى ذلك هو ٱلتحديدَ لا ٱلإطلاق، وضبطَ ٱلمقاديرِ لا ٱلإسراف؛ إذْ كانَ من شأنِ هذه ٱلأمورِ في طبيعةِ ٱلنفسِ أنَّ ما زادَ منها عن مِقدارِهِ تحوّلَ وَٱنقلبَ في تأثيرِه، وذلك هو ٱلسببُ أيضاً في أَنَّ هذا ٱلشعرَ ما لم يكُنْ قائماً على ٱختيارِ ٱللفظِ وصنعةِ ٱلعِبارةِ وتصفيتِها وتهذيبِها وٱختيارِ ٱلوزنِ للمعنى وإدارةِ ٱلفِكْرِ على ما يلفِتُ من ضروبِ ٱلمجازِ وَٱلاستعارةِ ونحوِها ـ سقطَ وركَّ بِمِقْدَارِ ما ينقصُهُ من ذلك؛ وليسَ ٱلشأنُ في إطالةِ ٱلقصيد؛ فمِنَ ٱلشعراءِ مَنْ نظمَ رويًّا واحداً في أربعةِ آلافِ بيت، ومنهم مَن نظمَ تفسيرَ ٱلقرآنِ كلِّه؛ ولكنَّ

(١) اقتضاباً: اختصاراً.

عيبَ مثلِ هذا ٱلشعرِ في ٱلعربيَّةِ أنَّهُ شعر. . . وما أخملَ ٱبنَ ٱلرومي على جلالةِ محلِّهِ إلاَّ طولُ قصائِدِهِ وسياقُهُ ٱلكلامَ فيها مع ذلك على ما يُشبهُ أسلوبَ ٱلحِكايةِ وخروجِها مخرجَ ٱلمقالةِ يتحدَّثُ بها، فلم تحيَ لَهُ إلاَّ مقطعاتٌ وأبياتٌ وماتَ سائرُ شعرِهِ وهو حيٌّ وميتٌ على ٱلسواء، حتى قالَ فيهِ صاحبُ ٱلوساطة: «ونحن نستقرىءُ ٱلقصيدةَ من شعرِهِ وهيَ تُناهِزُ ٱلمائةَ أو تُربي أو تضعف، فلا نعثرُ فيها إلاّ بِٱلبيت ٱلذي يروقُ أَو ٱلبيتين، ثُمَّ قد تنسلخُ قصائدُ منه وهيَ واقفةٌ تحتَ ظلِّها جاريةٌ تحت رَسَلِها لا يحصلُ منها ٱلسامعُ إلاَّ على عددِ ٱلقوافي. . .».

وَٱلعجيبُ أنَّ بعضَ ٱلكُتَّابِ في عصرِنا ممَنْ لا تحقيقَ لهم في مثلِ هذه ٱلمسائل، يعدّون أحسنَ محاسنِ ٱبْنِ ٱلرومي ما هو أقبحُ عيوبه، وقاتلَ ٱللَّهُ صِناعةَ ٱلكتابة، فكما أنَّها لِمَلْءِ ٱلفراغِ هي كذلكِ لإفراغ الملآن. . .

ثانياً: صِياغةُ بعضِ ٱلشعرِ على أصلِ ٱلتفكيرِ في ٱلإنجليزيَّةِ أو ٱلفرنسيَّةِ أو غيرِهما من لُغاتِ ٱلأُمَم، فيخرجُ ٱلشعرُ عربيًّا وأسلوبُهُ في تأديةِ ٱلمعنى أجنبيّ؛ وأكثرَ ما يأتي هذا ٱلنوعُ من أمريكا، وأنا أعجبُ بِكثيرٍ منه لِمَا فيهِ مِنَ ٱلغرابةِ وَٱلحُسْن.

وما زالَتْ أجناسُ ٱلأُمَمِ يضيقُ بعضُها بأشياءَ ويتَّسعُ بعضُها بأشياءَ فلسْنَا مُقيدينَ بٱلفكرِ ٱلعربيِّ ولا بطَريقتِه، وعلينا أنْ نُضيفَ إلى محاسِنِ لغتِنا محاسنَ ٱللغاتِ ٱلأخرى؛ ولكنْ من غير أنْ نُفسِدَها أو نحيفَ عليها أو نبيعَها بيعَ ٱلوَكْسِ[1]؛ ومتى كانَ هذا ٱلنوعُ مِنَ ٱلشعرِ رَصِيناً مُحْكماً جيدَ ٱلسبكِ رشيقَ ٱلمعرض، كانَ في ٱلنهاية مِنَ ٱلرقَّةِ وٱلإبداع؛ ولم يأتِ التجديدُ في هذه ٱللغةِ إلّا من هذه ٱلناحية، كَٱلذي تَراهُ فيما أخذَ عبدُ ٱلحميدِ وٱبنُ ٱلمقفعِ من نمطِ ٱلأداءِ في ٱللغةِ ٱلفارسيَّة.

ثالثاً: ٱلانصرافُ عن إفسادِ ٱلشعرِ بِصِناعةِ ٱلمديحِ وَٱلرثاء، وذلك بِتأثيرِ ٱلحريَّةِ ٱلشخصيَّةِ في هذا ٱلعصر؛ وَٱلمدحُ إذا لم يكنْ باباً مِنَ ٱلتاريخِ ٱلصحيحِ لم يدلَّ على سُمُوِّ نفسِ ٱلممدوح، بل على سقوطِ نفسِ ٱلمادح؛ وتراهُ مَدْحاً حينَ يُتلى على سامِعِه، ولكنَّهُ ذمٌّ حينَ يُعْزَى إلى قائلِه! وما ٱبْتُلِيَتْ لغةٌ من لُغاتِ ٱلدنيا بٱلمديحِ وَٱلرثاءِ وٱلهجاءِ ما ٱبتليَتْ هذه ٱلعربيَّة؛ ولِذلك أسبابٌ لا محلَّ لِتفصيلِهَا.

---

(١) الوكس: النقصان والتنقيص.

رابعاً: الإكثارُ مِنَ ٱلوصفِ وَٱلإبداعِ في بعضِ مناحيهِ وٱلتفنُّنِ في بعضِ أغراضِهِ ٱلحديثة: وذلك من أسمى ضروبِ ٱلشعر، لا تتَّفِقُ ٱلإجادةُ فيهِ وَٱلإكثارُ منه إلاَّ إذا كانَ ٱلشعرُ حيًّا، وَكانَتْ نزعةُ ٱلعصرِ إليهِ قويَّة، وكانَ ٱلنظرُ فيهِ صحيحاً؛ ولمَّا وصفَ ٱلشيخُ أحمدُ ٱلكرديُّ (من شعراءِ ٱلقرنِ ٱلثاني عَشَرَ) ٱلسفينةَ وَٱستهلَّ بهذا ٱلوصفِ مدحَ ٱلوزيرِ راغب باشا، عدُّوا ذلك حادثةَ من حوادثِ ٱلأدبِ في عصرِه، فتأمل!

خامساً: إهمالُ ٱلصناعاتِ ٱلبديعيَّةِ ٱلتي كانَ يُبنى عليها ٱلشعر، فيُنظمُ ٱلبيتُ لِيكونَ جناساً أو طِباقاً أو ٱستخداماً أو تورية الخ، أو ضَرْباً آخرَ من صِناعةِ ٱلعددِ وَٱلحِساب، كٱلتاريخِ ٱلشعريِّ بِأنواعِه؛ أو صِناعةِ ٱلحرف، كَٱلمقلوبِ وَٱلمهملِ وغيرِهما: أو صِناعةِ ٱلفِكْر، كَٱللغزِ وَٱلمعمَّى؛ أو صِناعةِ ٱلوضعِ كَٱلتشجيرِ وَٱلتطريز، إلى ما يلتحِقُ بِهذا ٱلبابِ ٱلذي ذهبَ أهلُهُ فلا يتيَسَّرُ لِأحدٍ من بعدِهِم أنْ يُجاريَهُم فيه، وكانَتْ لهم في كلِّ ذلكِ عجائبُ ٱستقصيْناها بِٱلتدوينِ في موضعِها من (تاريخُ آدابِ ٱلعرب)؛ بيدَ أنَّ إهمالَ صِناعةِ ٱلبديعِ شيءٌ وإهمالَ فنِّ ٱلبديعِ نفسِهِ شيءٌ آخر؛ ومن هنا جاءَ ما نَراهُ في بعضِ ٱلشعرِ ٱلحديث «والشعرِ ٱلمنثورِ» مِنَ ٱلإغراقِ ٱلسخيفِ ٱلذي لا يقومُ على أصل، مِنَ ٱلتعدّي في ضروبِ ٱلاستعارة، وَٱلبعدِ في ٱلمجاز، وٱلإحالةِ في ٱلوضع، ونحوِها مِمَّا يرجِعُ إلى ٱلجهلِ بطبيعةِ ٱلبلاغة، وممَّا لا نَعدُّهُ إلاَّ ضرباً مِنَ ٱلفسادِ يلتحِقُ بما كانَ في ٱلعصورِ ٱلماضيةِ وإنْ كانَ على ٱلضدِّ منه.

سادساً: ٱلنظمُ في ٱلشئونِ ٱلوطنيَّةِ وَٱلحوادثِ ٱلاجتماعيَّة، مِمَّا يجعلُ ٱلشعرَ مُحيطاً بِروحِ ٱلعصرِ وفِكْرِهِ وخيالِه، وهو بابٌ لا ينهضُ بِهِ إلاَّ قلائل، ولا يزالُ ضعيفاً لم يستحكِم[1]؛ وقد قالوا: إنَّ للقَاضي ٱلفاضلِ ٱثنيَ عَشَرَ إلفَ بيتٍ في مدحِ ٱلوطنِ وٱلحنينِ إليه، ولكنْ لا أحسَبُ أنَّ فيها مائةً من نحوِ ما يُنظمُ في هذا ٱلعصرِ مِمَّا أدَّى بِٱلشعرِ إلى أنْ يدخلَ في بابِ ٱلسياسةِ ويُعدَّ من وسائِلها، وفي طرقِ ٱلتربيَّةَ ويُعَدَّ من أسبابِها.

سابعاً: ٱستخراجُ بعضِ أوزانٍ جديدةٍ مِنَ ٱلفارسيَّةِ وٱلتركيَّة، وهو قليل، جاءَ بِهِ شوقي في قصيدتينِ ولم يتابعْهُ أحد، لِإفراطِ ذلك ٱلوزنِ في ٱلخِفَّةِ حتى رجعَ إلى

---

(١) لم يستحكم: لم يتقن ويقوَ.

ٱلثقل... ثُمَّ نظمَ بعضَ ٱلشعرِ من أوزانٍ مختلفةٍ قريبةِ ٱلتناسقِ على قاعدةِ ٱلموشح، ولكنَّهُ شعرٌ لا تَوْشيح، كما ينظمُ بعضُ شعراءِ أمريكا وسوريا؛ ولم يحدثْ مثلُ ذلك في ٱلعربيَّة، فإنَّ ٱلقصيدةَ كانَتْ تُنظمُ من بحرٍ واحد، وقد يخرجُ منهُ وزنٌ آخر: ولا نعرفُ في تاريخِ الأدبِ قصيدةً تتألفُ من وزنينِ إلاَّ الَّذي، قالوا إنَّ حسينَ بْنَ عبدِ ٱلصمدِ المتوفى سنة ٩٨٤هـ (١٥٧٦م) قدِ ٱخترعَهُ ونظمَ فيهِ أبياتَهُ ٱلتي مطلَعها:

فَاحَ عَرْفُ ٱلصَّبا وصاحَ ٱلديكْ   وَٱنثنى ٱلبانُ يشتكي ٱلتحريكْ
قُمْ بِنَا نجتلي مشعشعةً   تاهَ مِنْ وَصْفِهِ بِها ٱلنِّسِّيكْ[1]

وعارضَها ولدُهُ ٱلإمامُ ٱلشهيرُ بهاءُ ٱلدينِ ٱلعامليُّ صاحبُ ٱلكشكولِ بأبياتٍ قالوا: إنَّها سارَتْ في عصرِهِ مسيرَ ٱلمثل، ونسجَ عليها شعراءُ ذلك ٱلعصر، كَٱلنابلسي وغيره، ومطلعها:

يا نديمي بِمُهْجتي أفديكْ   قُمْ وهاتَ ٱلكئوسَ مِنْ هاتيكْ
خمرةٌ إنْ ضلَلْتَ ساحَتَها   فسنا[2] نورِ كأسِها يَهديكْ

على أنَّ هذا ٱلوزنَ بِشطريهِ مستخرجٌ مِنَ ٱلخفيف، فليسَ بٱختراعٍ كما زعموا، وإنَّما هُوَ ابتداعٌ في ٱلتأليفِ ٱلشعريّ؛ وقدِ ٱجتزأْنا بما مرَّتِ ٱلإشارةُ إليه، فإنَّه كلُّ ما تغيَّرَ بِهِ ٱلرسمُ في هذه ٱلصناعة؛ وتركْنَا ٱلأمثلةَ تفادياً من ٱلإطالة.

* * *

وبعدُ فلا ريبَ أنَّ ٱلنفسَ ٱلبشريَة في حاجةٍ أبداً معَ دينِها ٱلروحيِّ إلى دينٍ إنسانيٍّ يقومُ على ٱلشعورِ وَٱلرغبةِ وَٱلتأثير، فيُفسِّرُ لها حقائقَ ٱلحياة، ويكونُ وسيلةً من وسائلِ تغييرِها؛ لِيجعَلَها ألطفَ مِمَّا هي في ٱللطف، وأرقَّ مِمَّا تكونُ في ٱلرقَّة، وأبدعَ مِمَّا تتَّفِقُ في ٱلإبداع؛ ذلك ٱلذي يصِلُ بِظهورِهِ وإبهامِهِ بينَ ٱلواضحِ وَٱلغامضِ، وَٱلخالِدِ وٱلفاني؛ ذلك ٱلذي لا يجمُلُ ٱلجمالُ إلَّا بِهِ، ولا تسكنُ ٱلنفسُ إلَّا إليه؛ ذلك هو ٱلشعر!

صروفُ اللغويّ

كانَ شيخُنا هذا رجلاً حَصِيفاً[3] جيِّدَ ٱلمنزعةِ حسنَ ٱلرأي، مُمَكَّناً لَهُ فيما كانَ

---

(١) النِّسِّيك: العابد.

(٢) سنا: ضوء.

(٣) حصيفاً: ذكياً أريباً.

يعترضُهُ من مسائلِ ٱللغة، قويًا على ٱلأحوالِ ٱلتي تجري لَهُ من أوضاعِها فيما يُعانيهِ مِنَ ٱلنقلِ ويُزاولُهُ منَ ٱلترجمةِ على ٱختلافِ مناحيها وكثرةِ فنونِها، وعلى أنَّها لا تزالُ كلَّ يوم تنبعثُ من عِلْم وتحتفِلُ من رأيٍ وتمدُّ مدَّ ٱلسيلِ كأَنَّها دنيا عقليَّةٌ لا يبرحُ عقلُ ٱلإنسانِ دائباً يُحَلِّقُ فيها ويبنيها من معاني ٱلكَوْنِ وأسرارِه، فلا ٱلكونُ ينفدُ لِتتمّ، ولا هي تَتِمُّ قبلَ أنْ ينفدَ ٱلكوْن.

وثبتَ شيخُنا على ذلك عمرَ دولةٍ مِنَ ٱلدولِ في خمسينَ سنةً ونيِّف، يضربُ قلمُه في ٱلسهلِ وٱلصعْب، وفي ٱلمُمْكِنِ وٱلمُمْتَنع؛ وإنَّهُ لَيَمرُّ في كلِّ ذلك مرًّا لا ينثنى، ويحذو حَذْواً لا يختلِف، كأَنَّ ٱلصعْبَ عندَهُ نسقُ ٱلسهل، وَٱلممتنِعَ صَوْغُ ٱلمُمْكِن؛ فلو قلْتُ: إنَّه بُنيَ في أصلِ خَلْقِهِ وتركيبِهِ على أنْ يكونَ قوَّةً من قُوى ٱلتحويلِ لِتحقيقِ ٱلمُشابهةِ ٱلعقليَّةِ بينَ ٱلشرقِ وَٱلغَربِ لمَا أبعدْتُ، ولو زعمْتُ أنَّ ذلك ٱلقلمَ ٱلحيَّ لم يكنْ إلّا عِرْقاً في جسمِ ٱلإنسانيَّةِ لَكانَ عسى. . .

وَٱنتهى شيخُنا في ٱلعهدِ ٱلأخيرِ إلى أَنْ صارَ يُعَدُّ وحدَهُ حُجَّةَ ٱللغةِ ٱلعربيَّةِ في دَهْرٍ من دهورِها ٱلعاتية، لا في ٱلأصولِ وَٱلأقيسةِ وَٱلشواذِّ وما يكونُ من جِهَةِ ٱلحِفْظِ وَٱلضبْطِ وَٱلإتقان، بلْ فيما هو أبعدُ من ذلك وأردُّ بِٱلمنفعةِ على ٱللغةِ وتاريخِها وقومِها، بلْ فيما لا تنتهي إليهِ مَطمعةُ أحدٍ من علمائِها وكُتَّابِها وأُدبائِها؛ إذْ وقَعَ ٱلإجماعُ على أنَّهُ ٱنفردَ في إقامةِ ٱلدليلِ ٱلعمليِّ على سَعَةِ ٱلعربيَّةِ وتصرُّفِها وحسنِ ٱنقيادِها وكِفايتِها، وأنَّها تؤاتي كلَّ ذي فنٍّ على فنِّه، وتمادُّ كلَّ عصرٍ بمادتهِ؛ وأنَّها من دِقَّةِ ٱلتركيبِ ومُطاوعَتِهِ معَ تمامِ ٱلآلاتِ وَٱلأدواتِ بحيثُ ينزلَ منها رجلٌ واحدٌ بِجهدِهِ وعملِهِ منزلةَ ٱلجماعاتِ ٱلكثيرةِ في ٱللغاتِ ٱلأُخرى، كأنَّها آخرُ ما ٱنتهتْ إليهِ ٱلحضَارةُ قبلَ أنْ تبدأ ٱلحضارة.

ولا يذهبَنّ عنك ٱلفرْقُ بين رجلٍ حافظٍ وٱلكتابُ أحفظُ منه، وهو منَ ٱلكتابِ خَرجَ وإلى ٱلكتابِ يرجع؛ وبين رجلٍ يكونُ تُرجماناً من تراجمةِ العقلِ ٱلإنسانيِّ ٱلمعنيِّ[1] بِتأويلِ ٱلكوْنِ وتفسيرِه، وٱلطائرِ بِٱلألفاظِ ٱلإنسانيَّةِ على أجنحةِ ٱلعلومِ وَٱلفنونِ وٱلمُخترعاتِ وٱلمعاني؛ فإنَّ ذاكَ ينقلُ عنِ ٱلواقعِ ثُمَّ لا يتعدّى هذه ٱلمنزلةَ ولا يتجاوزُ مُتُونَ ٱلألفاظ، وأمَّا هذا فلا يزالُ يضطربُ معَ ٱلألفاظِ ومعانيها يُجاذِبُها ويُدافعُها، ثُمَّ لا يزالُ يضعُ يَدَهُ في ٱلنسيجِ ٱللغويِّ يُسَدّي ويُلْحِم، فهو مدفوعٌ إلى

(١) المعني: المهتمّ.

ٱلمسالكِ ٱلدقيقةِ من مذاهبِ ٱلوضعِ وطرقِه، وأساليبِ ٱلأخذِ وٱلانتزاع؛ وهو مُقيَّدٌ أبداً بِخاصِّ ٱلمعنى وخاصِّ ٱللفظِ على ٱلتعيينِ وٱلتحديد، لا يجدُ فُسحةً من ضيقين؛ فإنْ لم يكنْ مثلُ هذا في منزلةِ ٱلواضعِ فهو في المنزلةِ بعدَهُ ولا ريب.

إنَّما ٱللغويُّ ٱلأكبرُ عندي هو هذا ٱلكوْنُ، وما ٱلعالمُ بِٱللغةِ وفُنونِها إلَّا وسيلةٌ لِتهذيبِ ٱلطريقةِ تهذيباً عقليًّا، فيجبُ من ثَمَّ أنْ يكونَ للغويِّ رأيٌ وعِلْمٌ وذكاءٌ وبصر، ويجبُ أنْ يُطابِقَ ٱلنواميس، فلا يتعادّى ما بينَهُ وبينَها، لِأنَّهُ وسيلةُ إنطاقِها ليسَ غير؛ ومن ذلك أرى ٱلدكتور صرُّوف في ٱلغاية، فقد كانَ ينزعُ في مذهبِهِ ٱللغويِّ منازعَ عِلْمِيَّةً دقيقةً تُوزَنُ وتُقاسُ وتُختبر، في حينِ لا تريغُ ولا تَهِنُ ولا تختلّ، وتراها تنطلقُ وهيَ مقيَّدة، وتتقيَّدُ وهيَ مطْلَقة؛ إذْ كانَ لا يعتدُّ ٱللغةَ عربيَّةً لِلْعرب، بلْ عربيَّةً لِلْحياة؛ وما تهدمُهُ وتبنيهِ وما تُحدِثُهُ وتنسخُهُ فهيَ على أصولِها فيمَنْ قبلَنا، ولكنَّ فروعَها فينا نحن وفيمَنْ يلينا وفيمَنْ بعدَ هؤلاء، فلنا أنْ نتولّاها على تلكَ ٱلأصولِ وعلى ما يُشبهُها في ٱلطريقةِ حين تنتقلُ ٱلحالُ ويتغيَّرُ ٱلرسم، ولِعِلَّةٍ إنْ وجبَتْ، ولِقياسٍ إنْ جاز. وٱلدكتورُ بهذا ٱلاعتبارِ يشتدُّ في ٱلتمسُّكِ بِٱلقواعدِ وَٱلضوابطِ ولا يترخصُ[1] في شيءٍ منها غيرَ أنَّهُ لا يكونُ كَأقوام يَرَوْنَ ٱلفروعَ مِنَ ٱلجذوعِ قد خرجَت، فيحسبون ٱلثمراتِ سبيلَها مِنَ ٱلجذوعِ أيضاً. . . وإنْ لم تجيءْ منها فستجيءُ منها.

عرضَ لي يوماً أحدُ هؤلاءِ ٱللغويِّين فَٱنتقدَ في ٱلمقطَّم قصيدةً منَ ٱلقصائدِ ٱلتي رفعْتُها إلى ٱلملكِ فؤاد، وتمحَّلَ في نقدِهِ ودلَّلَ بِبعضِ ما نقلَهُ من كتبِ ٱللغة، فكانَ فيما تكلَّمَ فيهِ لفظا (الأزاهر والورود)، فقالَ إنَّهما ليسا مِنَ ٱللغةِ ولم يجريا في كتبها؛ وكانَ من ردّي عليه أنْ قلْتُ لَهُ: إنَّ ٱلعربَ جَمعوا ٱلجملَ ستةَ جموع، وجمعوا ٱلناقةَ سبعةً لِأنَّها أكرمُ عليهم منه، وإنَّ لِكُلِّ حياةٍ صُورَها ٱلدائرةَ في ألفاظِها، فَٱلزهْرُ وَٱلوردُ عندَ ٱلمولَّدينَ وَٱلمحدثينَ أكرمُ مِنَ ٱلجملِ وَٱلناقةِ عندَ ٱلعرب، أو هذانِ كهذين؛ ثُمَّ هما من خاصِّ ٱلألفاظِ المولَّدة، فلَنا أن نجمعَهما على كلِّ صُوَرِ ٱلجمعِ ٱلتي يُسوِّغُها ٱلقِياس، لِأَنَّ هٰهنا العِلَّةِ المُوجِبَةَ ٱلتي لم تكنْ مَعَ ٱلعربِ فيهما؛ فمنَ ٱلصحيحِ أنْ تقول: زهور، وأزهار، وأزاهر، وأزاهير الخ، فلمَّا لقيْتُ ٱلدكتور بعدَ نشرِ هذا ٱلردِّ هنَّأني بِهِ، ثُمَّ قال فيما قال: يحسبون أنَّ

---

(١) يترخص: يسمع ويتساهل.

ٱلعربَ همُ ٱلجملُ وٱلناقةُ وليس غيرُ ما ٱستجملَ وما ٱستنوق. . . أمّا هذا ٱلدهرُ ٱلطويلُ ٱلعريضُ فليسَ عندَهم شيئاً، وهم يستطيعون أنْ يُنكروا على ٱلمولَّدينَ ألفَ كلمة، ولكنْ هلْ في ٱستطاعتِهِم أنْ يُنكروا على ٱلتاريخِ ألفِ سنة؟ فذكرْتُ لَهُ ٱلأصلَ ٱلذي قرّرَهُ أبو علي ٱلفارسيُّ في ٱلعربي ٱلصحيحِ نفسِه: من أنَّهُ ليسَ كلُّ ما يجوزُ في ٱلقياسِ يجبُ أنْ يخرجَ بِهِ سماع، فإذا أخذَ إنسانٌ على طريقةِ ٱلعربِ وأمَّ مذهبَهُم فَلا يُسألُ ما دليلُهُ وما أسماعُهُ وما روايتُه، ولا يجبُ عليهِ من ذلك شيء، حتى قالَ أبو عليّ: لو شاءَ شاعرٌ أو متَّسعٌ أنْ يبنِيَ بإلحاقِ ٱللام ٱسماً وفِعْلاً وصِفةً لَجازَ لَهُ، ولَكانَ ذلك من كلامِ ٱلعرب؛ وذلك نحوُ قولِك: خَرْجَجٌ أكثرُ من دخْلَلٍ، وضرْبَبَ زيدٌ عمراً، ومررْتُ برجلٍ ضرْببٍ وكرُمم، ونحوِ ذلك. قال تلميذُهُ ٱبنُ جنيّ: فقلْتُ له: أتَرتَجَلُ ٱللغةُ ٱرتجالاً؟ قال: ليس بٱرتجالٍ لكنَّهُ مقيسٌ على كلامِهِم فهو إذاً من كلامِهِم.

وسألني مرةً عن وجهِ ٱلخِلافِ بينَ ما يُسمُّونهُ ٱلقديمَ وَٱلجديدِ، فقلْتُ له: إنَّ ٱلخِلافَ ليسَ على جديدٍ ولا قديم، ولكنْ على ضعفٍ وقوَّة؛ فإنَّ قوماً يكتبون وينظمون ولكنْ لم تُقسم ٱلفصاحةُ وٱلبلاغةُ على مقدارِ ما يُطيقونَه من ذلك، ولا يتَّسعُ ٱلصحيحُ لِآرائِهم في ٱللغةِ وَٱلأدب، وقد أرادوا أنْ يسعُوا كلَّ ذلك من حيثُ ضاقوا، ويُطاولُوه من حيثُ تقاصَروا، وينالوه من حيثُ عجزوا؛ فظَنُّوا بٱلأمرِ ما يظنُّ إنسانٌ يمشي على الأرضِ ويعرفُ أنّها تدور، فيؤوِّلُ ذلك بِأنَّهُ هوُ يُديرُ ٱلأرضَ على مِحْورِها بِحركةِ قَدَمَيهِ. . . نحن نقول: أسلوبٌ ركِيك، فيقولون: لا بلْ جديد، ونقول: لغةٌ سقيمة، فيقولون: بلْ عصريَّة، ونقول: وجهٌ من ٱلخطأ، فيقولون: بلْ نوعٌ منَ ٱلصواب، وهلمَّ جرا أو سحْباً. . . ثُمَّ قلْتُ له: أفتجِدُ أنت ٱلركاكةَ وَٱللحنَ وٱلخَطأَ وٱلغَثاثةَ[1] وإنَّ وأخواتِها باباً جديداً أو أمراً مبتدَعاً أو شيئاً يحتاجُ إلى ٱسم جديدٍ غير ٱسمِهِ ٱلعربيّ؟ قال: لا، وأنا معك في هذا، وطريقتي في المقتطَفِ أنَّ ٱللغة في قواعدِها عربيَّة، ولكنْ من قواعدِها أنَّ لِكلِّ مقام مقالاً، فنحن نكتبُ كتابةً صحيحةً ونُريدُ بها أنْ ترفعَ ٱلعامَّةَ ولا تنزِلَ بِٱلخاصَّة، فنخدُمُ ٱلعربيةَ مِنَ ٱلجهتين.

ثُمَّ نشرَ بعَد ذلك في عددِ شهرِ مايو سنة ١٩٢٧ مقالاً جعلَ عنوانَهُ (أسلوبُنا

(١) الغثاثة: التفاهة والركاكة.

في ٱلترجمةِ وَٱلتعريب) وٱبتدأَهُ بهذه ٱلعبارة: «اللغةُ جسمٌ حيٌّ نام، وشأنُ مَنْ يُحاولُ منعَها منَ ٱلنموِّ شأنُ ٱلصينيِّين ٱلذين يربطونَ أقدامَ بناتِهِم لكي لا تنمُوَ وتبلغَ حدَّها ٱلطبيعيّ، ولكنْ إذا كانَ ٱلنموُّ مُشوَّهاً فلا بُدَّ من تقييدِهِ وتهذيبِهِ»؛ وكلُّ ما نقولُهُ نحن هو ٱلتقييد وَٱلتهذيب وَٱتّقاء ٱلشّوهةِ أنْ تُلِمَّ بِٱللغةِ وأساليبِها فتترادفُ على محاسنِها بمعايبِها، وتُطمَسُ[1] مفاتنُها بِمَقابِحِها[2]؛ فإنَّ هذه ٱلمعايبَ وَٱلمقابحَ إذا هيَ ٱستجمَعَتْ وٱنساغَتْ في لغةٍ مِنَ ٱللغاتِ لبستْها بأشكالِها فلا تزالُ تنكرُ منها حتى لا تُبقي لها وَصْفاً يُعرف، وٱلحسنُ وحدَهُ هو ٱلذي يُحَدُّ بِٱلأوصافِ وَٱلتعاريف، وهو ٱلذي يُدقَّقُ فيهِ ويُبالَغُ في قِياسِهِ وتقديرِه، فإنْ وقعَ فيهِ ٱلفضولُ وَٱختلطتِ ٱلحدودُ وضعُفَتِ ٱلمُلاءَمةُ وجرى ٱلوصفُ ناقِصاً وزائداً فقد خرجَ إلى ٱلقبح، وإنْ خرجَ إلى ٱلقبح لم يَعْدِ ٱلناسُ يحدُّون لَهُ حدًّا أو يعبأون[3] لَهُ بقاعدة، ووجدوا فيهِ كلَّ ٱلأوصافِ ٱلجميلةِ مقلوبةً مُنكَّرة، لِأنَّهُ هو جمالٌ مقلوب؛ (فتقييدُ ٱلتشويهِ وتهذيبُهُ) كلمتانِ فيهما ٱلكلامُ كلُّه، أو هما ٱلمِصراعانِ لهذا ٱلباب؛ ومن أجلِ ذلك كنَّا نعدُّ ٱلدكتورَ من حجتِنا على أصحابِ ٱلجديد، لِأنَّهُ أوسعُهُم إحاطةً وأكثرُهم عِلْماً وأمدّهُم عملاً، ثُمَّ لن يُدانيَهُ أحدٌ منهم إِلَّا إذا جمعَ لِنفسِهِ عمرين، وهلْ في ٱلجديدِ رجلٌ ذو عمرين؟...

قلْنا: إنَّ ٱلشيخَ كان في ٱلمنزلةِ ٱلتي تلي منزلةَ ٱلواضع، وقد دفَعَتْهُ ٱلعلومُ إلى ذلك دفْعاً، لِأنَّهُ مقيدٌ بِخاصِّ ٱلمعنى في كلِّ ما يُترجِمُ أو يُعرّب، ثُمَّ بِٱلخصائص ٱلعِلْميَّةِ ٱلدقيقةِ ٱلتي لا تحتملُ في أدائِها ما تحتملُ ٱلمعاني ٱلأدبيَّة؛ وقد تصدَّرَ لِلكتابةِ وَٱلترجمةِ منذُ شابَ هذا ٱلعصر، ومنذُ بدأَ ٱلناسُ يقرأونَ ٱلعلومَ ٱلحادثَةَ في ٱلشرق؛ فلا جَرَمَ لم يكنْ لُغويًّا كأبي عمرٍو وأبي زيدٍ وٱلخليلِ وَٱلأصمعيّ وأبي حاتم وأبي عُبيدَةَ وأضرابِهِم مِمَّنْ يَحملون عنِ ٱلعربِ ويُؤدُّون ما حملوه، ولا كانَ لغوياً في طريقةِ سيبويهِ وٱلكسائيّ وٱلزّجاجِ وَٱلأخفشِ وَٱليزيديّ وأشباهِهِم مِمَّنْ ينظرونَ في ٱللغةِ وعِلَلِها وأقيستِها وشواذِّها؛ ولكنَّهُ لغويٌّ فيما يعمرُ بينَ ٱلشرقِ وَٱلغرب، يحمل بِلسانٍ ويُؤدّي بِلسانِ غيرِهِ ويُوافِقُ بين ٱلمعاني ٱلجديدةِ وَٱلألفاظِ ٱلقديمة، ويُشابِكُ بين خيوطِ ٱلتاريخِ في هذه وهذه، ويأخذُ ٱللغةَ لِلاستعمالِ لا

(١) تطمس: تغطّى وتمحى.
(٢) مقابحها: بشاعتها.
(٣) يعبأون: يهتمون.

لِلحفظِ ولِلتعليم لا لِلتدوينِ ولِلمنفعةِ لا لِلمباهاةِ ولِلفائدةِ لا لِلتنبُّل؛ ويُترجِمُ وإنَّ في خيالِهِ ٱلعالَمَ ٱلواسعَ ٱلذي ينقلُ عنه بِعلمائِهِ وأدبائِهِ وكُتُبِهِ ومجلَّاتِهِ ومصطلحاتِه، ويكتبُ وإنَّ لَهُ تلك ٱلمَلَكَةَ ٱلدقيقةَ ٱلتي كَوَّنتْها ٱلعلومُ ٱلرياضيَّةُ وَٱلطبيعيَّةُ وَٱلفلسفيَّةُ وغيرُها؛ فلم يكنْ بُدٌّ من أنْ يبتدِع، وأنْ تكونَ لَهُ طريقةٌ يُوافقُ فيها ويُخالِف، وقد بَسَطَ هو ٱلقواعدَ ٱلتي أخذَ بها وجرى عليها، فكتَب فيها مقالاً في «المقتطَف» شهرَ يوليو لِسنةِ ١٩٠٦، وأعادَ نشرَهُ في عددِ شهرِ مايو لِسنةِ ١٩٢٧، وهو يُوافِقُ فيهِ أكثرَ ٱلعلماء، وخاصَّةً ٱلإمامَ ٱلجاحظ؛ ومعَ أنَّ قاعدةَ ٱلجاحظِ لم تكن يومئذٍ معروفة، ولكنْ كِلا ٱلشيخينِ حصيفُ ٱلرأيِ[1] تامُّ ٱلإدارةِ في عملِهِ، قويُّ ٱلحِسْبَةِ وٱلتدبيرِ فيما يأخذُ وما يدع؛ وخلاصةُ رأي ٱلدكتور أنَّهُ ينظرُ في ٱلكلمةِ ٱلأعجميَّة، فإنْ أصابَ لها مُرَادِفاً في ٱلعربيَّةِ يحدِّدُها ويفي بها فذاك، وإلَّا أمرَّها في كتابتِهِ وهو مُقيدٌ بقاعدةِ ٱلقارىءِ وما هو أخفُّ على قارئِهِ في ٱلمئونةِ وأبيْنُ لَهُ في ٱلدلالة، فإنْ كانَتْهُ ٱللفظةُ ٱلأعجميَّةُ أوفى وأشيعَ في ٱلاستعمالِ عَدَلَ إليها[2]، قال: وغنيٌّ عنِ ٱلبيانِ أنَّنا ٱلتزمْنا أنْ نُجاريَ ٱلعلماءَ في ٱلمصطلحاتِ ٱلعِلْمِيَّةِ ٱلتي تفقدُ دلالتَها بتعريبِهَا: كَٱلحامضِ ٱلكبريتوس وٱلكبريتيك الخ، فإنَّ لِكلٍّ من هذه ٱلملحقاتِ وٱلزوائدِ ٱلتي فيها، معنًى خاصًّا يدلُّ على تركيبِ ٱلحامضِ ٱلمرادِ كما يعلمُ دارسو ٱلكيمياء؛ قال: فمَنْ يُسمِّي ٱلحامضَ ٱلكبريتيك بِٱلحامضي ٱلكبريتي كمَنْ يُسمِّي ٱلفرسَ حِماراً لِأنَّ لِكلٍّ منهما رأساً وذنباً. . .

وَٱلجاحظُ يقول في مثلِ ذلك: إنَّ رأيي في هذا ٱلضربِ من هذا ٱللفظِ أنْ أكونَ ما دمْتُ في المعاني ٱلتي هي عبارتُها وَٱلمادةُ فيها على أنْ ألفِظَ بِٱلشيءِ ٱلعتيدِ ٱلموجودِ (يعني ٱللفظ ٱلعِلْمِيَّ ٱلاصطلاحيَّ) وأَدعَ ٱلتكلُّفَ لِمَا عسى ألَّا يسلسَ ولا يسهُلَ إلَّا بعدَ ٱلرياضةِ ٱلطويلة. . . ولكُلِّ صناعةٍ ألفاظٌ قد جُعِلَتْ لِأَهْلِها بعدَ ٱمتحانِ سِواها، فلم تلزقْ بِصِناعتِهِم إلَّا بعدَ أنْ كانَتْ بينَها وبينَ معاني تلك ٱلصناعةِ مشاكلات.

فأنت ترى ٱلجاحظَ لا يمتنعُ مِنَ ٱلألفاظِ ٱلأعجميَّةِ وٱلعاميَّةِ كما هي ما دامَتِ ٱلمعاني قائمة، وقاعدتُهُ هيَ ٱلأخفُّ وٱلأدلُّ والأفْهَمُ وَٱلأشيع، وهذا بِعينِهِ يقولُ ٱلدكتورُ فيه: «يُشترطُ في حسنِ ٱلتعبير أنْ يُؤَدِيَ ٱلمعنى ٱلمُرادَ إلى ذهنِ ٱلسامعِ بِأقلِّ ما يكونُ مِنَ ٱلوقتِ وَٱلكِلْفةِ وٱلإسرافِ في ٱلقوةِ ٱلعصبيَّة».

---

(١) حصيف الرأي: صائبه. (٢) عدل إليها: مال إليها.

وقد كلَّمَني بعضُهُم في خطأ ٱلدكتور من ناحيةِ ٱلألفاظِ ٱلأعجميَّةِ وإقحامِها[١] فِي كتابتِهِ، وأَنَّهُ يجنحُ إلى ذلك بأوهى سبب؛ ولا أراهُ خطأً، بلْ أنا أردُّ ذلك إلى ما بيَّنتُهُ آنفاً من أمرِ ٱلناقلِ وَٱلواضعِ ولا يُعجِزُنا أنْ نجدَ لِصنيعِ ٱلدكتورِ نصًّا يقومُ بِهِ وينهضُ بِحُجَّتِهِ؛ فقد قالَ أبو عليٍّ ٱلفارسيّ: إنَّ ٱلعربَ إذا ٱشتقّتْ مِنَ ٱلأعجميِّ خلطَتْ فيه، فإذا كانَ هذا في ٱلاشتقاقِ وهو لا يكونُ إلَّا من أصل، فكيفَ بِٱلتعريب؟ على أنَّهُ لا خلطٌ ولا ٱضطراب، إنَّما هو سبيلُ ٱلوضعِ، وحِكمةُ ٱلدلالة وأنّ ٱللغةَ هكذا تجيء، ثمَّ يأتي بعدَ ذلك ٱلنحويُّ يقولُ لِماذا ولأن. . .

وقد أعجبَني حسنُ تقسيم ٱلدكتور لقواعدِهِ ٱلتي بَسَطَها في مقالِهِ ٱلمستفيض[٢]، حتى إنِّي لأَراهُ باباً جديداً في ٱلتقسيم ٱلمعروفِ عندَ علماءِ ٱلبلاغةِ وٱللغةِ لابتذالِ ٱلألفاظِ وغرابتِها، إذْ لم يبقَ عندَنا غريبٌ ومبتذَلٌ ولا بينَنا عربٌ ومحدثون.

بيدَ أنَّ من تلك ٱلقواعدِ أنَّ ٱلأستاذَ يترخَّصُ في ٱلألفاظِ ٱلعاميَّةِ وهو يجدُ فصيحَها، ويقولُ في ذلك: «إذا أسمعْتُ ٱلفلاحَ ٱلمِصْرِيَّ كلمةَ بِذارٍ مرةً في ٱلأسبوع أو في الشهر، سمع كلمة (تقاوى) مائةَ مرةٍ وألفَ مرة، فرأيْنا أنَّ محاولةَ تغييرِ لغةِ ٱلعامَّةِ في هذه ٱلكلماتِ وأمثالِها ضربٌ مِنَ ٱلعبثِ وإضاعةٌ لِلْوقت وتضييعٌ لِلفائدة، فجاريناهم فيما نكتبُهُ لهم». وهذا ما كنْتُ أُجادِلُهُ فيهِ ولا أُسلِّمُ لَهُ بشيءٍ منه، لِأَنَّهُ أغفلَ أصلاً اجتماعيًّا عظيماً، فإنَّ عامِّيَّتنا غيرُ منقطعةٍ منَ ٱلعربيَّةِ ٱلفصحى، ولا يزالُ فيهم مِيراثُها مِنَ ٱلقرآنِ وٱلحديثِ وكلامِ ٱلعلماءِ في أمورِ دينِهِم، وهذه هي وسائلُ مزجِهِم بٱلفصيح وردِّهِم إليه، ولا تزالُ هذه ٱلوسائلُ تفعلُ ما تفعلُهُ ٱلنواميسُ ٱلمحتومةُ ولولاها لَمَا بَقِيَ لِلْفصحى بقيَّةٌ بعد.

وقد كانَ جاءَ إلى مِصْرَ من بضعِ سنينَ رجلٌ من أمريكا هو من تلاميذِ ٱلدكتور ٱلقدماء، فنزحَ إلى ذلك ٱلبرِّ فٱتَّجرَ فأثرى وفَشَتْ لَهُ نِعْمَةٌ عظيمة؛ ولَمَّا لقِيْتُهُ لقيتُ في يدِهِ صحيفةً وَضعَ فيها مسائلَ في ٱللغةِ وٱلنحو، وكانَ أعدَّها لِيسألَ عنها؛ وفي أولِها هذا السؤال: لِماذا يُقالُ فَصُحَ ٱلرجلُ فصاحةً فهو فصيح، ثُمَّ يقول: شعرَ شعراً فهو شاعر؟ ألم يكنِ ٱلقياسُ أنْ يُقالُ شعُرَ شَعارةً فهو شعيرٌ، وَٱلفصاحةُ وٱلشعرُ من بابٍ واحد؟

وهذا ٱلسؤالُ وإنْ كانَ في ظاهرِ ٱلرأيِ لَغْواً وعَبَثاً ولكنَّهُ دقيقٌ في تاريخِ ٱللغةِ

---

(١) إقحامها: حشرها.

(٢) المستفيض: المشبع بحثاً ودراسة.

وأقيْستِها، ولا محلَّ لِبسطِ ٱلكلامِ عليهِ في هذا ٱلموضِع، غيرَ أنيَّ أنهيْتُ ٱلخبرَ للدكتورِ صَرُّوف وقلْتُ لَهُ: إنَّ صاحبَك هذا يضعُ قواعدَ ٱللغةِ في ٱلميزانِ ٱلذي في حانوتهِ. . . وأنت كذلك تُعَالِجُ بعضَ ٱلألفاظِ أحياناً ببعضِ ٱلغازاتِ وٱلحوامض.

قلْت هذا لِأنِّي لم أُسلِّمْ لَهُ قطُّ فيما كانَ يراهُ في مثل ٱلبذارِ وٱلتقاوي، على أنَّهُ قيَّدَ ٱلكلامَ بِقولِهِ (فيما نكتبُه لهم)، وهذا ٱحتراسٌ يُدافعُ عنهُ بِقوَّةٍ كما ترى.

ولا يمتري أحدٌ في أنَّ هذه ٱلنهضةَ ٱللغويَّةَ ٱلتي أدركْناها وعملْنا فيها لم تكنْ سوى نموٍّ طبيعيٍّ لِعملِ رِجالٍ أفذاذٍ نظنُّ ٱلدكتور صروف في طليعتِهِم، لِأنَّهُ كانَ أطولهمُ جِهاداً وأكثرهم عملاً وأظهرَهم أثراً؛ وكانَ ٱلمقتطفُ يجيءُ لها كلَّ شهرٍ كأنَّهُ قِطعةٌ زمنيَّةٌ مسلَّطةٌ بِناموسٍ كناموسِ ٱلنشوء، حتى لألَمَّ هذا ٱلمقتطفُ أنْ يكونَ عصراً مِنَ ٱلعصورِ قد خرجَ في شكلِ ٱلكتابة؛ ولقد كاشفني ٱلدكتورُ في آخرِ أيامِهِ أنَّهُ كانَ يودُّ لو خَتمَ عملَهُ بوضعِ معجمٍ في ٱللغةِ يصلحُ أنْ يُقالَ فيهِ إنَّهُ معجمُ ٱلشعب، وفصَّلَ لي طريقتَه، إذْ كنْتُ أُكلِّمُهُ في كتابٍ لُغويٍّ ٱفتتحْتُ ٱلعملَ فيهِ من زمنٍ ولا يعرفُ أحدٌ من أمرِهِ خبراً فقالَ لي: خذْ بين طريقتي وطريقتِك، وٱمضِ أنت في هذا ٱلعمل؛ فإنِّي لو وجدْتُ فراغاً لَمَا عَدَلْتُ بهذا ٱلأثرِ شيئاً، وما كلُّ سهلٍ هو سهل. . .

على أنَّ شيخَنا هذا لو قد كانَ تفرَّغَ لِلغةِ وتوفرَ عليها وٱجتمعَ لَهَا بذلك ٱلعمرِ وتلك ٱلعلوم وَٱلأدوات، لَكَان فيها بأُمَّةٍ مِنَ ٱلأشياخِ ٱلماضينَ من لدُنْ أبي عمرو بْن ٱلعلاءِ إلى ٱلدكتورِ يعقوبَ صروف، ولكنْ لعلَّ ٱلدهرَ أضيقُ من أنْ يَتَّسِعَ أو هو أوسعُ من أَنْ يضيق. . . لإمام آخرَ كأبي عليّ ٱلفارسيِّ، يُفرغُ سبعينَ سنةً لِفرعٍ واحدٍ من علومِ ٱللغةِ هو عِلْمُ ٱلقِياسِ وَٱلاشتقاقِ وَٱلعِلَلِ ٱلصرفيَّةِ ويجعلُهُ هَمَّهُ وسدَمَهُ على ما قالَ تلميذُهُ ٱبْنُ جنيٍّ: «لا يعتاقُهُ عنه ولد، ولا يُعارضُهُ فيه متجر، ولا يسومُ بِهِ مَطْلَباً، ولا يخدمُ بِهِ رئيساً؛ فكأنَّهُ إنَّما كانَ مخلوقاً لَهُ».

وكانَتْ للدكتورِ طريقةٌ جريئةٌ في ردِّ ٱلألفاظِ ٱلعربيَّةِ إلى أصولِها وَٱلرجوعِ بها إلى أسبابِ أخذِها وٱشتقاقِها وتصاريفِها من لغةٍ إلى لغة، وأعانَهُ على ذلك ثقوبُ فِكرِهِ[1] وَسَعةُ علمِهِ ودِقَّةُ تَميزِهِ وميلُهُ ٱلغالبُ عليهِ في تحقيقِ ناموسِ ٱلنشوءِ وتَبيُّنِ آثارِهِ في هذه ٱلمخلوقاتِ ٱلمعنويَّةِ ٱلمسماةِ بِٱلألفاظ؛ وكانَ معجَباً بِكلِّ ما جاءَهُ من هذا

(١) ثقوب فكره: سداده.

ٱلبابِ ولو كانَ من خطإٍ؛ لأَنَّهُ إلى ٱلرأيِ يقصِدُ ولِلطريقةِ يُمكِّنُ ومعَ ٱلحاضرِ يجري.

وهذا بابٌ يحتاجُ إلى ٱلتسمُّحِ وَٱلتساهُلِ؛ إذْ لا يُمكنُ تحقيقُه، ولا تتَّفِقُ ٱلحِيطةُ فيهِ، وليسَ إلَّا أنْ يتلوَّحَ شيءٌ منه ويسنَحُ شيءٌ وتتلامَحَ عِلَّةٌ ويعرضَ سبب؛ ثُمَّ هو في ٱلدكتورِ في بعضِ ٱلدلالةِ على ٱستحكامِ مَلَكَةِ ٱلوضْعِ فيه، ونزوعِهِ إلى أنْ يقتاسَ بِقِياسِهِ ويستخرجَ من عِلَلِه؛ وقد تراهُ يبعدُ في ذلك فينصبُ لك ٱلدليلَ من وراءِ بضعةِ آلافِ سنة، وأنا ٱلساعةَ أُعانُ ذاكرتي وأُديرُها من هٰهنا وهٰهنا لأَجد، كلمةً، قالَ لي مرَّةً في تاريخها: إنَّ ٱلعربَ أخذوها عنِ ٱليونانِ حينَ كانَتْ مكةُ نفسُها جاريةً في حكمِهِم، ولكنْ أُنسيْت هذه ٱلكلمة، إذْ لم أرتبطْها، وإذْ كنْتُ لا أرى هذا ٱلمذهبَ ولا أُحسِنُ أنْ أقولَ فيهِ قوْلاً، وأعدُّ كلَّ ما يُقالُ فيهِ من بابِ تلفيقِ ٱلأدلة، كأَنَّهُ ذئبُ ذلك ٱلأعرابيِّ ٱلذي يُريدُ أنْ يجعلَ في ٱلناسِ منه مثلَ غرائزِ ٱلغنم. . . فيقول: «إلّا ترَهْ تظنَّهْ».

وٱلدكتور صروف رجلٌ ماليٌّ في ٱلمالِ وفي ٱللغة جميعاً. فمذهبُهُ ٱلقصْدُ[1] في ٱلدلالةِ وٱلقصْدُ في ٱلوقتِ وٱلقصْدُ في ٱلقوَّة، وقد صرفَتْهُ ثلاثتُها عنِ ٱلشعرِ وعمَّا كانَ في حكمهِ من تحبيرِ ٱلنثرِ وتوشيَّتِهِ، على أَنَّهُ يُحسنُهَما لو أرادَ ولو سخَتْ نفسُهُ بِٱلوقتِ يُنفقُهُ ولا يتعرَّفُ قدرَ ما مضى منه في هذه ٱلساعات، بلْ في ساعةِ ٱلكونِ ٱلكبرى ٱلتي يتعاقبُ فيها عقربا ٱلنهارِ وٱلليل، كما كانَ يُنفقُ ٱلباروديُّ يوماً في بيتٍ أو بيتين. .

وكانَ شيخُنا في آخرِ مجالسي مَعهُ قبلَ وفاتِهِ بِشهرٍ أو نحو، أطلعَني على كلِّ ما نشَرهُ في مجلداتِ «ٱلمقتَطَفِ» من شعرِه، فأُعجبْتُ بِأشياءَ منه، وأشَرْتُ على صديقِنا ٱلأستاذِ فؤاد صروف أنْ يُعيدَ نشرَ قصيدةِ ٱلرفَّاشِ ٱلتي ترجَمَها ٱلدكتورُ عن ٱلإنجليزيَّة في نسقٍ سَلِسٍ موشَّحِ ٱلقوافي، وٱلتي يقولُ فيها صاحبُها يصفُ مخازي ٱلمدنيَّة:

مخازٍ توالَتْ فَصَالَتْ وَصَارَتْ على ٱللحمِ دوداً وفي ٱلعَظْمِ سوسَا

وسألني ٱلدكتورُ بعدَ أنْ فرغْتُ من شعرِهِ: في أي طبقةٍ تعدّني من شعرائِهِم؟ ففكرْتُ قليلاً ثُمَّ قلْتُ لَهُ: في طبقةِ ٱلدكتورِ صروف!. فضحكَ لها كثيراً.

وكانَتْ لَهُ آراءُ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ غيَّرَ بعضَها في آخرِ عهدِه، ومِمَّا قالَهُ لي مرة: إنَّ ٱلذي يُريدُ أنْ يَخلُدَ ذكرُهُ في هذا ٱلشرقِ فلا يُنسى، لا ينبغي لَهُ أنْ يطمعَ

---

(١) القصد: الاعتدال والاقتصاد.

في هذا إلَّا إذا بنى هَرماً كهرمِ ٱلجيزة!. وهي كلمةٌ فلسفيَّةٌ كبيرةٌ تنطوي على شرحٍ طويلٍ يعرفُهُ مَنْ يعرفُه.

وقد كادَتْ قاعدةُ ٱلقصدِ ٱلتي أومأْتُ[1] إليها تنتهي بهِ في آخرِ مُدَّتِهِ إلى ٱلقولِ بإِسقاطِ ٱلإعرابِ بتةً، وأظنُّ ذلك خاطراً سَنَحَ لَهُ فأَخذَ بأوَّلِهِ وتركَ أنْ ينظرَ في أعقابِهِ، فزرتُهُ مرةً في شهر يناير لِسنة ١٩٢٧، وكانَ يُصحِّحُ تسويدة جوابٍ كتبَهُ عن سؤالٍ وردَ عليهِ في هلْ يُمكنُ ٱلرجوعُ إلى ٱللغةِ ٱلفصحى في ٱلقراءةِ وَٱلتكلُّم وما ٱلفائدةُ من ذلك؟ فلمَّا أمرَّ بٱلجوابِ على نظرِهِ دفَعهَ إليَّ فقرأتُه، فإذا هو يرى أنَّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ ٱلإعرابِ وٱلبناءِ يتهوّرُ فيها وقتٌ ما؛ قال: فإذا قضيْنَا على أبناءِ ٱلعربيَّةِ ألَّا يتكلموا إلَّا كلاماً معرباً نكون قد أضعْنَا عليهم ثلثَ ٱلوقتِ ٱلذي يقضونَهُ في ٱلتكلُّمِ من غيرِ فائدةٍ تُجنَى.

ولقد جادلْتُهُ في ذلك ولجَجْتُ[2] في ٱلخِلافِ معَه، وقلْتُ لَهُ: إنَّ هذه قاعدةٌ مالية، ثُمَّ إنَّك أغفلْتَ أمرَ ٱلعادةِ وما تيسِّرُه، وفي ٱلكلام إيجازٌ يقومُ مَعَ ٱلإعرابِ، هذا ٱلمقامَ حينَ لا يكونُ مِنَ ٱلإيجازِ بُدٌّ، وفي ٱللهجاتِ ٱلعاميَّةِ مِنَ ٱلحشوِ ومطِّ ٱلصوتِ وفسادِ ٱلتركيبِ ما يذهبُ بِأكثرَ من ثُلُثِ ٱلوقت؛ فأحسبُهُ اقتنَع وإِنْ كنْتُ رأيْتُهُ لم يقتنع.

وإنَّهُ لَيحضرُني بعدَ هذا كلامٌ كثيرٌ في فضائلِ ٱلدكتور وآدابِهِ وشمائلِ نفسِهِ ٱلزكيَّةِ ومنزعِهِ في ٱلأخلاقِ ٱلطيِّبةِ ٱلكريمة، ولو ذهبْتُ أُفصِّلُ لَخرجْتُ إلى ٱلإفاضةِ في فنونٍ مختلِفة، ولكنِّي أَجترىءُ من كلِّ ذلك بِأنَّهُ كانَ يَظهرُ لي دائماً كأنَّهُ في ظِلٍّ من محبةِ ٱلله.

---

(١) أومأت: أشرت.

(٢) لجِجت: ألححت إلى آخر حدّ ممكن.

ٱلشيخُ ٱلخُضَريّ

تحوّلَ ٱلكاتبُ إلى كتاب، ورجَعَ ٱلمُفَكِّرُ إلى فِكرة، وأصبحَ مَنْ كانَ يُدارسُ ٱلناسَ فإذا هو درسٌ يُذكرُ أو يُنسى، وتناولَ ٱلتاريخُ عالماً، من علمائهِ فجعلَهُ نبأً من أنبائهِ، وكانَ يبنيهِ فوضعَهُ في بِنائِه، وقيل: ماتَ ٱلشيخُ ٱلخضريّ!

آه لو يرجعُ إنسانٌ واحدٌ من طريقِ ٱلموتِ ٱلتي أولُها هذه ٱلنقطةُ ٱلصغيرةُ ٱلمسماةُ بِٱلكرةِ ٱلأرضيَّة، وآخرُها حيثُ تجدُ كلمة: «الآخرة» بِلا معنًى لا محدودٍ ولا مظنون! وآهِ لو ٱستطعْنا أنْ نتكلَّمَ عنِ ٱلميتِ كأنَّهُ حيٌّ بيننا، ونحن كثيراً ما نتكلَّمُ عنِ ٱلحيِّ كأنَّهُ ماتَ من زمن! إنيِّ لأكتبُ هذه ٱلكلماتِ وكَأَنيِّ أنظرُ إلى وجهِ أبي ـ رحمَهُ ٱلله ـ وأشهدُ ذلك ٱلسمتَ ٱلعجيب، وذلك ٱلوقارَ ٱلذي يغمرُ ٱلنفسَ هيبةً وجلالا، وأستروِحُ ذلك ٱلحُبَّ ٱلذي هو أحدُ ٱلطرُقِ ٱلثلاثِ ٱلمنتهيةِ مِنَ ٱلأرضِ إلى ٱلسماء، ومِنَ ٱلمخلوقِ إلى ٱلخالق، وَٱلمبتدئةِ مِنَ ٱلسماءِ إلى ٱلأرض، ومِنَ ٱلخالقِ إلى المَخلوق: طريقِ ٱلأُمّ، وطريقِ ٱلأَب، وطريقِ ٱلإنسانيَّة؛ أكتبُ وكأنَّ يداً من وراءِ ٱلمادةِ تمسحُ على قلبي فأجدُ ثِقْلةً وفَترةً، وأستشعِرُ حنيناً وشوقاً، وأُحِسُّ هذا ٱلقلبَ يُنازعني إلى قومٍ ذهبوا بِلا رجعة، وفارقُوا بِلا وداع، وغابُوا عنَّا بِلا خبر؛ دخلُوا إلى أنفسِنا ولا تحَويهم، وخرجوا منها ولا تخلُو منهم؛ فما دخلوا ولا خرجوا، وهذه هيَ ٱلحَيْرةُ ٱلتي يتركها ٱلميتُ ٱلعزيزُ لِلْحيِّ ٱلمتفجعِ كيما يعرفَ بِأمواتِهِ ما هو ٱلموت!.

* * *

كنَّا منذُ بِضع وثلاثينَ سنةً في مدينةِ ٱلمنصورة، وكانَ أبي يومئذٍ كبيرَ قضاةِ ٱلشرعِ في ذلك ٱلإقْليم، فإنِّي لأَلعبُ ذاتَ يوم في بهوِ دارِنا إذْ طُرِقَ ٱلباب، فذهبْتُ أفتحُ فإذا أنا بشيخ لم يبلغْ سِنَّ العَمَامة، ولمْ أُميِّزْ من هيئتِهِ أهو طالبُ عِلْم أو هو عالم، فكان حَدَثاً لكنَّهُ يتَّسِمُ بِسِمةِ ٱلجِدّ؛ ورأَيْتُهُ لا تموجُ بِهِ ٱلجنَّةُ كَٱلعلماء، غيرَ أنَّها لا تمجُّهُ كَٱلطلبة؛ وكانَ في يدِهِ مجلدٌ ضخمٌ لو نطقَ لقَالَ لَه: دعني لِمَنْ هو أسنُّ منك! فما قدَّرْتُهُ يزِنُ عشرينَ مجلداً من مثلِه، ونظَرَ إليّ نظرةً كأنيِّ لا أزالُ

أزاها في عينِهِ إلى ٱلساعة، فسلَّمْتُ عليه فقال: أين ٱلشيخ؟ يعني ـ ٱلوالد ـ قلْت: خرجَ آنفاً؛ قال: فٱدفعْ إليهِ هذا ٱلكتاب، وقلْ لَهُ جاءَ بِهِ ٱلخضريّ.

ثُمَّ أغلقْتُ ٱلبابَ وَٱنتحيْتُ جانباً وفتحْتُ ٱلمجلد، فإذا هو جزءٌ مِنَ ٱلتفسيرِ ٱلكبيرِ لِلْفخرِ ٱلرازي، كانَ قد ٱستعارَهُ من مكتبتِنا؛ وعرفْتُ ٱلشيخَ من يومئذٍ، وكانَ أَستاذاً لِلْعربيةِ في مدرسةِ ٱلصنائع، يضعُ كتابَ ٱلنحوَ وَٱلصرفِ معَ ٱلمطرقةِ وَٱلمنشارِ وَٱلقَدوم، فيذهبُ شيءٌ في شيء، وكأَنَّهُ لا يُعَلّمُ شيئاً؛ وقلَّما كنَّا نذكرُهُ في مدرستِنا، إذْ كانَ لنا شيخٌ فحْلٌ ثِقةٌ من رجالِ ٱلأزهر، غيرَ أنَّ ٱلخضريَّ كانَ لَهُ موضِعٌ في كلِّ مجلس، وكانَ يُداخِلُ قوْماً مِنَ ٱلخاصَّةِ يُعنونَ بِٱلمسائلِ ٱلإسلاميَّةِ وفلسفتِها وتقريبِها مِنَ ٱلعامَّةِ وٱلدهماء، وبإشارةٍ من بعضِ هؤلاءِ وضعَ أولَ كتبهِ: «نورُ ٱليقينِ في سِيرةِ سيدِ ٱلمرسلين»[1]، ويكادُ هذا ٱلاسمُ يدلُّ على وزنِ ٱلأستاذِ في أولِ عهدِهِ، وأنَّهُ لا يزالُ وراءَ ٱلسجعةِ ٱلآتيةِ مِنَ ٱلقرونِ ٱلأخيرةِ لم يمضِ على وجهٍ لم يُعرفْ بمذهب.

* * *

إنَّ ٱلَّذي يُريدُ أنْ يقولَ: قوْلاً صحيحاً في هذا ٱلفقيهِ ٱلعالِمِ ٱلمؤرخِ ٱلأديبِ ٱلمربي، يجبُ أنْ يرجعَ بتيارِهِ إلى منبعِهِ ليعرفَ مبلغَ ٱنبعاثِهِ وقوَّةَ جَرْيَتِهِ ومدَّ عُبابه؛ فما كانَ ٱلخُضريُّ شيئاً قبلَ أنْ يتعلَّقَ بمدارِ ذلك ٱلنجمِ ٱلإنسانيِّ ٱلعظيمِ ٱلذي أهدَتهُ ٱلسماءُ إلى ٱلأرضِ وسُمِّي، في أسمائِها «محمد عبده»، لقد أخرجَتْهُ دارُ ٱلعلوم كما أخرجَتِ ٱلكثيرين، ولكنَّ دارَ علومِهِ ٱلكبرى كانَتْ أخلاقَ ٱلأستاذِ ٱلإمام وشمائلَهُ وآراءَهُ وبلاغتَهُ وهِمَّةَ نفسِه. ألّا إنَّهُ لا بُدَّ من رجلٍ واحدٍ يكونُ هُوَ ٱلواحدَ ٱلَّذي يبدأُ منه ٱلعددُ في كلِّ عصر، وأنت فكيف تأملْتَ ٱلخضريَّ فَٱعلمْ أنكَ بإزاءِ معنًى من معاني ٱلشيخ محمدِ عبده، على فرْقِ ما بينَ ٱلنفسين، بلْ أنت مِنَ ٱلخضريِّ كأَنَّكَ ترى ٱلشيخَ سارياً في مظهرٍ من مظاهرِ ٱلزمن.

كانَ يحضرُ دروسَ ٱلشيخ، ويختلفُ إلى ناديهِ، ويُناقلُهُ بعضَ ٱلرأيِ، ويُعارِضُ[2] مَعه بعضَ ٱلكتبِ ٱلتي كانَ يُرجعُ إلى ٱلشيخ في تصحيحِها أوِ ٱلإشرافِ على طبعِها؛ فنفذَ ٱلشيخُ إلى نفسِهِ ووجَدَ ٱلسبيلَ إلى ٱلاستقرارِ فيها، فهو من بعدُ حريصٌ على وقتِهِ، مُجِدٌّ في عمله، دائبٌ على طريقِه، آخذٌ بِٱلأخلاقِ ٱلفاضلة،

---

(١) الدهماء: الرعاع والسوقة.
(٢) يعارض معه بعض الكتب: يقرأ عليه.

مُصْلحٌ مُربٌّ غيور؛ وكلٌّ ذلكَ في سمتٍ وهيبة، وجزالةِ رأْي، وشرفِ هِمَّةٍ، وإخلاصٍ حقَّ ٱلإخلاص؛ وما أرى فوضى عصرِنا هذا وٱنحطاطَهُ وإسفافَهُ وسخافةَ قولِهِم: جديدٌ وقديم، وجريءٌ ورجعيّ، وحرٌّ وجامد ـ إلَّا مِنْ خلاءِ ٱلعصرِ وفراغِهِ مِنَ ٱلنفسِ ٱلكبيرة، وحاجتِهِ إلى إمام عظيم؛ ومتى أَصبحْنا نضربُ في دائرةٍ لا مركزَ لها، فهيَ ٱلمربَّعُ وهيَ ٱلمستطيلُ وهيَ كلُّ شكلٍ إلَّا نْ تكونَ ٱلدائرة؛ وَٱلذين رأَوْا طاغوَر ٱلشاعرَ ٱلهنديَّ ٱلمتصوِّفَ حينَ نزلَ بِمِصْر، ورأَوْا سحرَهُ وتحويلَهُ كلَّ جديدٍ مدَّةَ أيام إلى قديم، وإخراسَهُ هذه الألسنةَ عن نقدِهِ ومعارضتِهِ، وعن مُعاندةِ ٱلحقِّ طَيْشاً ونزقاً وضلالاً وتجديداً. . . يستطيعون أنْ يُدركوا ما أومأْنا إليه، ويتبيَّنوا ٱلسرَّ فيما نحنُ فيه، ويتمثلوا ما كانَ لِلشيخِ محمد عبده في عصرِه، بلْ في خَلْقِ عصرِه.

* * *

وٱنتهى ٱلخضريُّ إلى مدرسةِ ٱلقضاءِ ٱلشرعيّ، فألفَ كتابَهُ في ٱلأصول، ٱختصرَ فيهِ وهذَّبَ وقارب، فهو كتابٌ في هذا ٱلعِلْمِ لا كتابُ هذا ٱلعِلْم، وأساتذةُ ٱلأصولِ قومٌ آخرون لو أنت منهم مثلُ ٱلشيخِ ٱلرافعيّ ٱلكبير، لرأيْتَ ٱلبحرَ ٱلذي يذهبُ في ساحلِه نصفُ طولِ ٱلأرض، وقد بعثَ ٱلخضريَّ على ذلك أنَّ جماعةً يومئذٍ كانَ منها صديقُنا ٱلمرحومُ حفني ناصف، وٱلشيخُ ٱلمهديّ، وغيرُهما، ٱجتمعوا على إبداعِ نهضةٍ في ٱلتأليف، فذهبَ ثلاثةٌ منهم بحُصَّةِ ٱلأدب، وفرغَ ٱلخضريُّ لِلأُصول؛ أخبرَني بذلك حفني بك ـ رحمهُ الله ـ ثُمَّ لَمَّا ٱختارَ ٱلقائمونَ على ٱلجامعةِ ٱلمصريَّةِ ٱلقديمةِ صديقَنا ٱلعلامة المؤرّخَ جورجي زيدان لِدرسِ ٱلتاريخِ ٱلإسلاميِّ فيها. طارَ ٱلخبرُ في ٱلأُمَّةِ بأنَّهم ٱختاروا ٱلقنبلة. . . وشعرَ الناسُ بمعنى ٱلهدم قبلَ أنْ يتهدَّمَ شيء، فٱضطرَّتِ ٱلجامعةُ إلى أنْ تُنحيَهُ، وعهِدَتْ في ٱلدرسِ إلى ٱلأستاذِ ٱلخُضريّ، فألقى دروسَهُ ٱلتي جمعَها في كتابِهِ (تاريخُ ٱلأممِ الإسلاميّة). وقالَ في مقدمةِ هذا الكتاب: «أرجو أنْ أكونَ قد وُفِّقْتُ لِتذليل صعوبةٍ كبرى. وهي صعوبةُ ٱستفادةِ ٱلتاريخِ العربي من كتبِه»؛ نقول: وعلى أنّ ٱلشيخَ أحسنَ في كتابه، وجاءَ بِمادَّةٍ غزيرةٍ من فكرِهِ ورأيِهِ، وبسطَ وٱختصر، وباعدَ وقرَّب، فإنَّ كلمتَهُ هذه إمَّا أنْ تكونَ أكبرَ مِنَ ٱلتاريخ أو أكبرَ من كتابِه.

وردَّ في ٱلسنةِ ٱلماضيةِ على كتابِ «ٱلشعر ٱلجاهليّ» للدكتور طه حسين، وكان ردُّه خطاباً أرادَ أنْ يُحاضِرَ بِهِ طلبةَ ٱلجامعة، لِأَنَّهُ أستاذُ أستاذِهِم؛ فكأنَّهُ أرادَ

جعلَ أستاذِهِم هذا تلميذاً معَهم، وأبَتْ عليهِ ٱلجامعةُ ما أراد، ولعلَّها فَطِنَتْ[1] إلى هذا ٱلغرض؛ ولَمَّا عَلِمَ أنّي شرعْتُ في طبع ردّي على ٱلدكتور طه، كلمَني في ٱستلحاقِ مقالِهِ وجعلِه ذيلاً[2] في ٱلكتابِ، وقدرّناهُ يومئذٍ في نحوِ خمسينَ صفحةً أو دونها، وقد سألْتُهُ أنْ ينفيَ منه ما كانَ في مقاديرِ ٱلرصاصِ ويقتصرَ على ما هو في وزنِ ٱلقنابلِ، فقال: «كلُّهُ قنابل»!. ثُمَّ ٱتَّسعَ كِتابي وجاورَ مقدارُهُ إلى ٱلضعف، فوسَّعَ هو ردَّه وزادَ فيهِ وطبَعهُ في قريبٍ من ضِعفِهِ على حِدة.

دعْ كتابَهُ ٱلمشهورَ (مُهَذَّبُ ٱلأغاني)، فهذا لا يُقالُ: إنَّ ٱلشيخَ أَلَّفهُ، بلْ ألفتْهُ خمسَ عَشْرَةَ سنة؛ وأظنُّ كلَّ ذلك لا يُذكرُ في جنبِ ٱلكتابِ ٱلذي كانَ يعملُ فيهِ أخيراً، وهو كتاب «الأدبُ ٱلمصريّ»، أخبرَني أنَّهُ في جزءين ودعاني إلى دارِهِ لِأَرى (المكتبة الخُضريَّة)؛ ولِأَطَّلِعَ على هذا ٱلكتاب، فوعْدتُهُ ولم يُقدرْ لي؛ وقد حدَّثني أنَّهُ معنيٌّ أشدَّ ٱلعنايةِ بٱستجماع ٱلفروقِ ٱلتي يتمازُ بها ٱلأدبُ ٱلمِصْريُّ عن ٱلأدبِّ ٱلحِجازيِّ وَٱلشاميِّ وٱلعِراقيِّ وٱلأندلسيّ، وأنّهُ أصابَ من ذلك أشياءَ متميِّزةً منذُ ٱلدولةِ ٱلطولونية، يحقُ لِمِصْرَ أنْ تقولَ فيها: هذا أدبي؛ وكانَ يكتمُ خبرَ هذا ٱلكتاب، حتى إنَّ صديَقنا ٱلأستاذَ حافظ بك عوض صاحبَ جريدةِ «كوكبُ ٱلشرق»، ٱقترحَ عليهِ أنْ يكتبَ فصلاً في ٱلشعراءِ ٱلمِصْرِيِّينَ وأدبِهِم يعقدُهُ لِكتابِ حفلةِ تكريمِ شوقي بك؛ ثُمَّ لَقِيَهُ بعدَ ذلك فقالَ لَهُ ٱلشيخ: إنَّ ٱلبحثَ سائرٌ على أحسنِ وجوهِه!

* * *

كانَ ٱلخُضريُّ يَفرحُ لِلِقائي ويهشُّ لي، وكنْتُ أتبيَّنُ في وجهِهِ أشعةَ روحِهِ ٱلصافية، ولعلّهُ كانَ يرى بي في نفسِهِ ذلك ٱلشيخَ ٱلذي أعطاني ٱلمجلّد، كما كنْتُ أرى بِهِ في نفسي ذلك ٱلتلميذَ ٱلذي أَخَذَ ٱلمجلدَ منه! على أنَّ مرجعَ ذلك في ٱلحقِّ إلى سَعَةِ صدرِه، وفُسْحةِ رأيِهِ، وبَسْطَةِ ذرعِه، وسموِّ أدبِهِ وإنصافِه؛ فلا يحقِدُ ولا يحسد، ولا يتجاوَزُ قَدْرَهُ، ولا ينزِلُ بأحدٍ عن قدرِه، ولا يدّعي ما لا يُحسن؛ وقد عرفَ قُرَّاءُ «ٱلمقتطَفِ» مثلاً من أخلاقِهِ هذه أو أكثرِها حتى ٱنتقدَهُ صديقُنا ٱلأستاذُ عبدُ ٱلرحيم بْنُ محمود، وتناولَ ٱلجزءَ ٱلأول من كتابِهِ (مُهَذَّبُ ٱلأغاني) وراحَ يتقلقلُ لَهُ كَجلمودِ صخر... فوسِعَهُ ٱلشيخُ وعنيَ بِهِ وردَّ عليهِ في «ٱلمقتطَف»، ونعتَهُ بِٱلأستاذِ ٱلجهبذِ وَٱنتصفَ منه[3]، وأنصفَهُ معاً. ولقدِ ٱقترحْتُ عليه مرَّةً أنْ

---

(١) فطنت: تذكّرت وانتبهت.

(٢) ذيلاً: تعليقاً تالياً.

(٣) انتصف منه: أخذ حقه منه.

يضعَ كِتاباً في حكمةِ ٱلتشريعِ ٱلإسلاميِّ وفلسفتهِ، فقالَ لي: «مُشْ قَدَّهْ» يعني أنّ ٱلعملَ أكبرُ منه، ولكنَّ هذا نبهَهُ إلى وضعِ كتابهِ في تاريخِ ٱلتشريعِ ٱلإسلاميّ.

ولَمَّا أصدرْتُ ٱلجزءَ ٱلأولَ من (تاريخ آداب العرب) في سنة ١٩١١، لم أهدِهِ إلى ٱلشيخ، فاشتراهُ وقرأهُ، ثُمَّ لقيْتُهُ وسألْتُهُ رأيَهُ فيه، فقال: (جدًّا كويس) فكان تقديم (جدًّا) تقريظاً، و(كويس) تقريظاً آخر؛ وهو يقولُ هذا على حينِ كانَ بعضُ إخوانهِ ٱلشيوخِ يكادُ يموتُ غمًّا بهذا ٱلكتابِ وما كُتِبَ عنه، وعلى حينِ كلَّمَني بعضُهُم مرتينِ في تركِ هذا ٱلعملِ ونفضِ يدي منه، لِأَنَّهُ ـ زعم ـ عملٌ شاقٌّ بِلا فائدة...

وقد زرْتُ ٱلأستاذَ ٱلخضريَّ في وزارةِ ٱلمعارفِ في ٱلسنةِ ٱلماضية، فبعدَ أنْ جلسْتُ إلى جانبِهِ نهضَ مرةً ثانيةً وجعلَ يُثبتُني بِقوَّةٍ في ٱلكرسي، كأنَّه لم يطمئنَّ بعدُ إلى أنيَّ جلسْت، ثُمَّ فاضَ بِكلامٍ كثير، فكانَ فيما قاله: «أنا ٱلآنَ أعيشُ في غيرِ زمني!»، وكأنَّما كانَ ينعي إليَّ نفسَهُ بهذهِ ٱلكلمةِ من حيثُ لا يدري ولا أَدري، وقالَ لي: إنَّهُ يجلسُ إلى مكتبهِ في كلِّ يوم ستَّ ساعات، يقرأُ ويُؤلفُ أو ينسخ؛ لِأَنَّ كلَّ كتبهِ ٱلمخطوطةِ هو ناقلُها وناسخُهَا ومصحِّحُها، وأنَّه يتلو كلَّ يوم أربعةَ أجزاءٍ مِنَ ٱلقرآنِ ٱلكريم. قال: ولا يتعريهِ ٱلبردُ ولا مرضٌ من أمراضِهِ، لِمَا ٱعتادَ من رياضةِ صدرِهِ بهذه ٱلتلاوة، وقال: إنَّ كلَّ ما هو فيهِ إنَّما هو من بركةِ ٱلقرآن.

* * *

وَلْنمسِكْ عندَ هذا ٱلحدّ؛ فإنَّ لِلذكرى غمزاً على ٱلقلْب؛ وبِٱلجملةِ فقد كانَ ـ رحمه الله ـ عالِماً كَٱلكتَّاب، وكاتِباً كٱلعلماء؛ فهو من هؤلاءِ وأولئك يلفُّ ٱلطبقتين، وهو وحدَهُ منزلةٌ بين ٱلمنزلتين؛ وبذلك تميَّزَ وظهر، فإنَّهُ في إحدى ٱلجهتينِ عقلٌ جريءٌ تمدُّهُ روايةٌ واسعةٌ في علوم مختلفة، فتراهُ يبعثُ من عقلِهِ ٱلحياةَ إلى ٱلماضي حتى كأنَّهُ لم يمض، وهو في ٱلجهةِ ٱلأخرى عِلْمٌ مستفيضٌ لا يقفُ عندَ حدِّ ٱلصحيفةِ أوِ ٱلكِتاب، بلْ لا يزالُ يلتمِسُ لَهُ عقلاً يُخرجُهُ ويتصرّفُ بِهِ، حتى يكبُرَ عن أَنْ يكونَ قديماً بَحْتاً فينتظِمُ ٱلحاضرُ إلى ماضيهِ ويطلقُهُما إطلاقاً واحداً. لم يكنِ ٱلشيخُ جديداً إلَّا بِٱلقديم، ولا قَدِيماً إلَّا بِٱلجديد؛ فإنَّنا لا نعرفُ قديماً مَحْضاً ولا جديداً صِرْفاً، ولا نُقيمُ وزنَ أحدِهما إلَّا بوزنٍ مِنَ ٱلآخرِ إذا أردْنَا بِهما سُنَّةَ ٱلحياة؛ وأنت لَنْ تجدَ حيًّا منقطِعاً مِمَّا وراءَهُ، بلْ أنت تَرى ٱلطبيعةَ قيّدَتْ كلَّ حيٍّ جديدٍ إلى أصلينِ مِنَ ٱلقديمِ لا أصلٍ واحدٍ هما أبواهُ فمنهما يأتي ومنهما

يستمِدُّ وهما أبداً فيهِ وإنْ كانَ على حدَّة؛ وبعدُ، فلو جاريْتَ ٱلسخافةَ ٱلعصريَّةَ ٱلمشهورةَ لقُلْتَ: إنَّ المذهبَ ٱلقديم... قدِ ٱنهدّ ركنٌ من أركانهِ، ونقصَ قِنطارُ كتبٍ من مِيزانِهِ؛ ولكنَّ هذه ٱلسخافةَ في رأيي كما ترى من جماعةٍ ٱئتَلَوْا[1] أنْ يُطفِئوا نجماً في ٱلسماءِ لِأَنَّهُ قديم، فٱتَّفقُوا على ذلك وأجمعُوهُ بينَهم وفرغوا من أمرِهِ، وأقبلَ بعضُهُم على بعضٍ يتساءلون كيف يُهيِّئون ٱلعرباتِ وٱلمضخاتِ ٱلتي تحملُ إلى ٱلسماءِ بِضعة أبحرٍ لِيصبّوها على ٱلنجم...

---

(١) ائتلوا: أجهدوا أنفسهم.

رأيٌ جديدٌ
في كتبِ ٱلأدبِ ٱلقديمة

أدبُ ٱلكاتبِ لاْبْنِ قُتيبةَ مِنَ ٱلدواوينِ ٱلأربعةِ ٱلتي قالَ ٱبْنُ خلدونَ فيها من كلامِهِ على حَدِّ عِلْمِ ٱلأدب: «وسمعْنا من شيخوخِنا في مجالسِ ٱلتعليم أنّ أصولَ هذا ٱلفنِّ وَأركانَهُ أربعةُ دَواوين: وهيَ «أدبُ ٱلكاتبِ» لاْبْنِ قتيبة، و «كتابُ ٱلكاملِ» لِلْمبرِّد، و «كتابُ ٱلبيانِ وٱلتبيينِ» لِلجاحظ، وكتابُ «ٱلنوادرِ» لِأبي علي ٱلقالي ٱلبغداديّ؛ وما سِوى هذه ٱلأربعةِ فتبعٌ لها وفروعٌ عنها».

وقد يظنُّ أدباءُ عصرِنا أنَّ كلمةَ ٱبنِ خلدونَ هذه كانَتْ تصلُحُ لِزمنِهِ وقومِه، وأنَّها تتوجَّهُ على طريقةِ مَنْ قبلَهُم في طبقةٍ بعدَ طبقةٍ إلى أصولِ هذه ٱلسلسِلَةِ ٱلتي يقولون فيها: حدثّنا فلانٌ عن فلانٍ إلى ٱلأصمعيِّ أو أبي عُبيدةَ أَو أبي عمرِوْ بنِ ٱلعلاءِ وغيرِهم من شيوخِ ٱلروايةِ ونَقَلَةِ ٱللغة. ولكنّها لا تستقيمُ في آدابنا ولا تُعدُّ من آلاتِنا ولا تقعُ من معارِفنا؛ بل يكادُ يذهبُ مَنْ يَتغَرَّرُ منهم بِٱلآراءِ ٱلأوربيَّةِ ٱلتي يُسمِّيها عِلْمَه... ومَنْ يَسْترسِلُ إلى ٱلتقليدِ ٱلذي يُسمِّيهِ مذهبَهُ... إلى أنَّ تلك ٱلكتبَ وما جرى في طريقتِها هيَ أمواتٌ مِنَ ٱلكتب، وهيَ قبورٌ مِنَ ٱلأوراق، وأنَّهُ يجبُ أنْ يكونَ بينَنا وبينَها مِنَ ٱلإهمالِ أكثرُ مِمَّا بينَها وبينَنا مِنَ ٱلزمن، وأنَّ بعثَ ٱلكتابِ منها وإحياءَهُ يُوشِكُ أنْ يكونَ كبعثِ ٱلموتى: علامةً على خرابِ ٱلدنيا...

فأمَّا أنْ يكونَ ذلك علامةً على خرابِ ٱلدنيا، فهو صحيحٌ إذا كانَتِ ٱلدنيا هي محررَ جريدة... من أمثالِ أصحابِنا هؤلاء، وأمَّا تلك ٱلكتبُ فأنا أحسَبُها لم تُوضَعْ إلَّا لِزمَنِنا هذا ولِأدبائِهِ وكُتَّابِهِ خاصَّةً، وكأنَّ ٱلقدرَ هو أثبتَ ذلك ٱلقولَ في مَقدمةِ ابْنِ خَلدونَ لِينتهيَ بِنَصِّهِ إلينا فنَسْتَخرِجُ منه ما يُقيمُنا على ٱلطريقةِ في هذا ٱلعصرِ ٱلذي وقَعَ أدباؤُهُ في متَّسَعٍ طويلٍ من فنونِ ٱلأدبِ ومُضْطَرَبٍ عريضٍ من مذاهبِ ٱلكتابةِ وأُفُقٍ لا تَستقرُّ حدودُهُ مِنَ ٱلعلومِ وَٱلفَلسفة... فإنَّ هذه ٱلمادَةَ ٱلحافلَةَ مِنَ ٱلمعاني تُحيي آدابَ ٱلأُممِ في أوربا

وأمريكا، ولكنها تكادُ تَطمسُ آدابَنا وتَمحقُنا[1] مَحْقاً تذهبُ فيهِ خصائصُنا ومقوّماتُنا، وتُحيلُنا عن أوضاعِنا ٱلتاريخيَّة، وتُفسدُ عقولَنا ونزعاتِنا، وترمي بِنا مرَامِيَهَا بينَ كلِّ أُمَّةٍ وأُمَّةٍ، حتى كَأنْ ليسَتْ مِنَّا أُمَّةٌ في حَيزِها ٱلإنسانيِّ ٱلمحدودِ من ناحيةٍ بِٱلتاريخِ ومن ناحيةٍ بِٱلصفاتِ ومن ناحيةٍ بِٱلعلومِ ومن ناحيةٍ بِٱلآداب؛ ومن ذلكَ ٱبْتُلِيَ أكثرُ كُتَّابِنَا بِٱلانحرافِ عنِ ٱلأدبِ ٱلعربيِّ وِ ٱلعصبيَّةِ عليهِ أو ٱلزِّرايةِ لَه، ومنهم مَنْ تحسبُهُ قد رُمِيَ في عقلِهِ لَهَوسِهِ وحَماقتِه، ومنهم مَنْ كأنَّهُ في حِقْدِهِ سُلِخَ قلبُه، ومنهمُ ٱلمُقَلِّدُ لا يدْرِي أعلى قَصْدٍ هو أمْ جَوْر، ومنهُمُ ٱلحائرُ يذهبُ في مذهبٍ ويجيءُ من مذهبٍ ولا يتَّجِهُ لِقصدٍ، ومنهم مَنْ هو منهم وكفى...

وقلَّما تَنَبَّهَ أحدٌ إلى ٱلسببِ في هذا؛ وٱلسببُ في حقارتِهِ وضعفِهِ «كالمكروب»: بِذرةٌ طامِسةٌ لا شأنَ لها، ولكنْ متى تُنْبِتْ تُنبتْ أوجاعاً وآلاماً وموْتاً وأحزاناً ومصائبَ شتَّى.

السببُ أنَّ أولئك ٱلأدباءَ كلَّهم ثُمَّ مَن يَتَشَيَّعُ[2] لهم أو يأخُذُ برأيهم، ليس منهم واحدٌ تُرَى في أساسِهِ ٱلأدبيِّ تلك ٱلأصولُ ٱلعربيَّةُ ٱلمحضَةُ ٱلقائمةُ على دراسةِ ٱللغةِ وجمعِها وتصنيفِها وبيانِ عِلَلِها وتصاريفِها ومَطارح ٱللسانِ فيها، وٱلمتأديةُ بِذلك إلى تمكينِ ٱلأديبِ ٱلناشىءِ من أسرارِ هذه ٱللغةِ وتَطويعِها لَه، فيكونُ قَيِّماً بِها وتكونُ هيَ مُسْتجيبَةً لِقلَمِهِ جاريةً في طبيعتِهِ مُسَدَّدَةً في تَصرُّفِهِ، حتى إذا نشأَ بها وٱستحكمَ فيها أحسَنَ ٱلعملَ لَها وزادَ في مادَّتِها وأخذَ لَها من غيرِها وكانَ خَلِيقاً أنْ يَمُدَّ فيها ويُحْسِنَ ٱلمُلاءَمَةَ بينَها وبينَ ٱلآدابِ ٱلأخرى ويجعلَ ذلك نَسْجاً واحداً وبياناً بعْضُهُ من بعضِه، فيَنْمُو ٱلأدبُ ٱلعربيُّ في صَنيعِهِ كما تنمو ٱلشجرةُ ٱلحيَّة: تأخذُ من كلِّ ما حولَها لِعُنْصُرِها وطبيعَتِها وليسَ إلا عنصُرُها وطبيعتُها حَسْب.

إنَّ «أدبُ ٱلكاتبِ» وشرحَهُ هذا لِلإمامِ ٱلجواليقيِّ وما صُنِّفَ من بابِهِما على طريقَةِ ٱلجمع مِنَ ٱللغةِ وَٱلخبرِ وشعْرِ ٱلشواهِدِ وٱلاستقصاءِ[3] في ذلك وٱلتبَسُّطِ في ٱلوجوهِ والعِلَلِ ٱلنحويَّةِ وَٱلصرفيَّةِ وَٱلإمعانِ في ٱلتحقيق، كلُّ ذلك عملٌ ينبَغي أنْ يُعرفَ على حقِّهِ في زَمَنِنا هذا؛ لهو ليسَ أدباً كما يُفْهَمُ مِنَ ٱلمعنى ٱلفلسفيِّ لِهذه ٱلكلمة، بلْ هو أبعدُ ٱلأشياءِ عن هذا ٱلمعنى؛ فإنَّكَ لا تجدُ في كتابٍ من هذه

(١) تمحقنا: تسحقنا.
(٢) يتشيّع: يتحزّب.
(٣) الاستقصاء: المتابعة.

ٱلكتبِ إلَّا ٱلتأليفَ ٱلذي بين يديك، أمَّا ٱلمؤلِّفُ فلا تجدُهُ ولا تعرفُهُ منها إلَّا كالكلمةِ ٱلمحبوسةِ في قاعدة... وكأنَّهُ لم يكنْ فيهِ روحُ إنسانٍ بلْ روحُ مادَّةٍ مُصْمَتة، وكأنَّهُ لم ينشأْ لِيعملَ في عصرِهِ بل لِيعمَلَ عصرُهُ فيه، وكأنْ ليسَ في ٱلكتابِ جهةٌ إنسانيَّةٌ متعيِّنَة، فثمَّ تأليفٌ ولكن أين ٱلمُؤلِّف؟ وهذا كتابُ ٱبْنِ قتيبة، ولكن أينَ ٱبْنُ قتيبةَ فيه؟

وما أخطأَٱلمتقدِّمون في تسْميتَهِم هذه ٱلكتبَ أدباً؛ فذلك هو رسمُ ٱلأدبِ في عصرهِم، غيرَ أنَّ هذا ٱلرسمَ قدِ ٱنتقلَ في عصرِنا نحن، فإنَّا نحن ٱلمخطئون ٱليومَ في هذه ٱلتسمية، كما لو ذهبْنَا نُسمِّي ٱلجملَ في ٱلباديةِ «ٱلاكسبريس»، وٱلْهَوْدَجَ عربةَ «بولمان».

ومن هذا ٱلخطأ في التسميةِ ظهرَ ٱلأدبُ ٱلعربيُّ لِقصارِ ٱلنظرِ كأنَّهُ تكرارُ عصرٍ واحدٍ على ٱمتدادِ ٱلزمن، فإنْ زَادَ ٱلمتأخِّرُ لم يأخذْ إلَّا مِنَ ٱلمُتقدِّم؛ وصارَتْ هذه الكتبُ كأنَّها في جملتِها قانونٌ من قوانينِ ٱلجنسيَّةِ نافِذُ ٱلجنسيَّةِ نافذٌ على ٱلدهر، لا ينبغي لِعصرٍ يأتي إلَّا أنْ يكونَ من جنسِ ٱلقرنِ ٱلأول.

هذه ٱلكتبُ من هذه ٱلناحيةِ كٱلخلّ: يُسَمَّى لك عسلاً ثُمَّ تذوقُهُ فلا يجني عليهِ عندَك إلَّا ٱلاسمُ ٱلذي زوِّرَ له؛ أمَّا هو فكما هو في نفسِهِ وفي فائدتِهِ وفي طبيعتِهِ وفي ٱلحاجةِ إليه، لا ينقصُ من ذلك ولا يتغيَّر.

ٱلحقيقةُ ٱلتي يُعيِّنُها ٱلوضعُ ٱلصحيحُ أنَّ تلك ٱلمؤلفاتِ إنَّما وُضعِتْ لِتكونَ أدباً، لا من معنى أدبِ ٱلفِكْرِ وفنِّهِ وجمالِهِ وفلسفتِه، بلْ من معنى أدبِ ٱلنفسِ وتثقيفِها وتربيتِها وإقامتِها، فهي كتبُ تربيةٍ لُغَوِيَّةٍ قائمةٌ على أصولٍ مُحْكَمةٍ في هذا ٱلباب، حتى ما يَقرؤُها أعجميٌّ إلَّا خَرجَ منها عربيًّا أو في هوَى ٱلعربيَّةِ وَٱلميلِ إليها؛ ومن أجلِ ذلك بُنِيَتْ على أوضاعٍ تجعلُ ٱلقارىءَ ٱلمتبصِّرَ كأنَّما يُصاحِبُ مِنَ ٱلكتابِ أعرابيًّا فصيحاً يسألُه، فيُجيبُهُ ويستهديهِ فيُرشدُه؛ ويُخرِّجُهُ ٱلكتابُ تصفحاً وقراءةً كما تخرّجُهُ ٱلباديةُ سماعاً وتلقيناً؛ وٱلقارىءُ في كلِّ ذلك مُسْتَدْرَجٌ[1] إلى ٱلتعريبِ في مَدْرجةٍ مدرجةٍ من هوى ٱلنفس ومحبتِها، فتصنعُ بِهِ تلك ٱلفصولُ فيما دُبِّرَتْ له مثلَما تصنعُ كتبُ ٱلتربيةِ في تكوينِ ٱلخُلُقِ بِٱلأساليبِ ٱلتي أُديرَتْ عليها وٱلشواهد ٱلتي وُضِعَتْ لها وٱلمعالمِ ٱلنفسيَّةِ ٱلتي فُصِّلَتْ فيها.

---

(١) مستدرج: مدفوع بإغراءات ما.

ومن ثَمَّ جاءَتْ هذهِ ٱلكتبُ ٱلعربيَّةُ كلُّها على نَسَقٍ واحدٍ لا يختلفُ في ٱلجملة، فهي أخبارٌ وأشعارٌ ولغةٌ وعربيَّةٌ وجمعٌ وتحقيقٌ وتمحيص، وإنَّما تتفاوَتُ بِٱلزيادةِ وٱلنقصِ وٱلاختصارِ وٱلتبسُّطِ وٱلتخفيفِ وٱلتثقيلِ ونحوِ ذلك مِمَّا هو في ٱلموضوعِ لا في ٱلوضع، حتى لَيُخيَّلُ إليك أنَّ هذه كتبُ جغرافيَّةٌ لِلغةِ وألفاظِها وأخبارِها؛ إذْ كانَتْ مثلَ كتبِ ٱلجغرافية: متطابقةً كلُّها على وصفِ طبيعةٍ ثابتةٍ لا تتغيرُ معالمُها ولا يخلقُ غيرَها إلَّا ٱلخالقُ ـ سبحانَهُ وتعالى ـ.

وإذا تدبرْتَ هذا الذي بيَّناهُ لم تُعجبْ كما يُعجبُ ٱلمُتطفِّلون على ٱلأدبِ العربيِّ وٱلمُتخبِّطون فيهِ من أنْ يَرَوْا إيمانَ ٱلمؤلفينَ مُتَّصِلاً بكتبِهِم ظاهرَ ٱلأثرِ فيها، وأنَّهُم جميعاً يُقرِّرون أنَّما يُريدون بها ٱلمنزلةَ عندَ ٱللَّهِ في ٱلعَملِ لِحياطةِ هذا ٱللسانِ ٱلذي نزلَ بِهِ ٱلقرآنُ ٱلكريمُ وتأديتِهِ في هذه ٱلكتبِ إلى قومِهِم كما تُؤَدَّى ٱلأمانةُ إلى أهلِها، حتى لولا ٱلقرآنُ لَمَا وُضِعَ من ذلك شيءٌ ألبتة.

وأنا أتَلَمَّحُ دائماً ٱلعاملَ ٱلإلهيَّ في كلِّ أطوارِ هذه ٱللغة، وأراهُ يُديرُها على حفظِ ٱلقرآنِ ٱلذي هو معجزتُها ٱلكبرى، وأرى من أثرِهِ مجيءَ تِلكَ الكتبِ على ذلك ٱلوضع، وتسخيرَ تلك ٱلعقولِ ٱلواسعةِ مِنَ ٱلرواةِ وٱلعلماءِ وٱلحفَّاظِ جيلاً بعدَ جيل في ٱلجمعِ وٱلشرحِ وٱلتعليقِ بِغيرِ ٱبتكارٍ ولا وضعٍ ولا فلسفةٍ ولا زَيْغٍ عن تلك ٱلحدودِ الموسومةِ ٱلتي أومأْنا إلى حِكمَتِها؛ فلو أنَّهُ كانَ فيهم مجددونَ من طِرازِ أصحابِنا من أهلِ ٱلتخليط، ثُمَّ تُرِكَ لها هذا ٱلشأنُ يُتولَوْنه كما نرى بِٱلنظرِ ٱلقصيرِ وٱلرأي ٱلمعانِدِ وٱلهوى المُنحرفِ وٱلكِبرياءِ ٱلمُصَمِّمةِ وٱلقولِ على ٱلهاجسِ وٱلعِلْم على ٱلتوهُّمِ ومجادلةِ ٱلأستاذِ حيصٍ للأستاذِ بيص... إذَن لَضربَ بَعضُهُم وجهَ بعضٍ وجاءَتْ كتُبُهم مُتدابِرة، ومُسِخَ ٱلتاريخُ وضاعَتِ ٱلعربيةُ وفسدَ ذلك ٱلشأنُ كلُّه، فلم يتّسقْ منه شيء.

وممَّا تَردُّهُ على قارئِها تلك ٱلكتبُ في تَربيتِهِ لِلعربية، أنَّها تُمكِّنُ فيهِ لِلصبرِ وَٱلمُعاناةِ وَٱلتحقيقِ وَٱلتورُّكِ في ٱلبحثِ وَٱلتدقيقِ في ٱلتصفُّح، وهيَ ٱلصفاتُ ٱلتي فقدَها أُدبَاءُ هذا ٱلزمن، فأصبحوا لا يتثبَّتون ولا يُحقِّقون، وطالَ عليهم أنْ ينظروا في ٱلعربيَّة، وثَقُلَ عليهم أن يستبطِنوا كتبهَا؛ ولو قد تربَّوْا في تلك ٱلأسفار، وبذلك ٱلأسلوبِ ٱلعربيِّ لَتمَّتِ ٱلمُلاءَمَةُ بينَ ٱللغةِ في قوَّتِها وجزالتِها وبين ما عسى أنْ يُنكِرَهُ منها ذوقُهُم في ضعفِهِ وعامِّيتِهِ وكانوا أحقَّ بها وأهلَها.

وذلك بعينِهِ هوَ ٱلسرُّ في أنَّ مَنْ لا يقرون تلك ٱلكتبَ أولَ نشأتِهِم، لا تراهُم يكتبون إلَّا بأسلوبٍ منحطٍّ، ولا يجيئونَ إلَّا بكلامٍ سقيمٍ غثّ، ولا يرونَ في ٱلأدبِ ٱلعربيِّ إلَّا آراءً مُلْتَوِيَة؛ ثُمَّ هم لا يستطيعون أنْ يُقيموا على درسِ كتابٍ عربيّ. فيُساهِلونَ أنفسَهُم ويحكمون على ٱللغةِ وَٱلأدبِ بما يشعرونَ بِهِ في حالتِهِم تلك، ويتورَّطون في أقوالٍ مُضْحِكة، وينسَوْنَ أنَّهُ لا يجوزُ ٱلقطعُ على ٱلشيءِ من ناحيةِ ٱلشعور ما دامَ ٱلشعورُ يختلفُ في ٱلناس بِٱختلافِ أسبابِهِ وعوارضِه، ولا من ناحيةِ يجوزُ أَنْ يكونَ ٱلخطأُ فيها؛ وهم أبداً في إحدى ٱلناحيتينِ أو في كلتيهما.

* * *

وهذا شرحُ ٱلجواليقيِّ من أمتعِ ٱلكتبِ ٱلتي أشرْنا إليها، وصاحبُهُ هو ٱلإمامُ أبو منصورٍ موهوبُ ٱلجواليقيُّ ٱلمولودُ في سنةِ ٤٦٥ لِلهجرة، وٱلمتوفى سنةَ ٥٤٠، وهو من تلاميذِ ٱلإمامِ ٱلشيخِ أبي زكريا ٱلخطيبِ ٱلتبريزيّ؛ أولِ مَنْ درَّسَ ٱلأدبَ في ٱلمدرسةِ ٱلنظاميةِ ببغدادَ وقرأ ٱلجوليقيُّ على شيخِهِ هذا سبعَ عَشْرَةَ سنة، ٱستوفى فيها علومَ ٱلأدبِ مِنَ ٱللغةِ وَٱلشعرِ وٱلخبرِ وٱلعربيَّةِ بفنونِها، ثُمَّ خلفَ شيخَهُ على تدريسِ ٱلأدبِ في ٱلنظاميَّةِ بعدَ علي بْنِ زيدٍ ٱلمعروفِ بِٱلفصيحيّ.

وما نشكُّ أنَّ هذا ٱلشرحَ هو بعضُ دروسِهِ في تلك ٱلمدرسة، فأنت من هذا ٱلكتابِ كأنَّكَ بإزاءِ كرسي ٱلتدريسِ في ذلك ٱلعهد، تسمعُ من رجلٍ ٱنتهَتْ إليهِ ممّا هو بسبيلِهِ مِنَ ٱلشرح، معنيٌّ بِٱلتصريفِ ووجوهِهِ مِمَّا ٱنتهى إليهِ من أثرِ ٱلإمامِ ٱبْنِ جنيٍّ فيلسوفِ هذا ٱلعِلْمِ في تاريخِ ٱلأدبِ ٱلعربي، فَإنَّ بين ٱلجواليقيّ وبينَهُ شيخينِ كما تعرفُ من إسنادِهِ في هذا ٱلشرح.

وقد قالوا: إنَّ أبا منصورٍ في ٱللغةِ أمثلُ منه في ٱلنحو، على إمامتِهِ فيهما معاً؛ إذْ كانَ يذهبُ في بعضِ عِلَلِ ٱلنحوِ إلى آراءٍ شاذَّةٍ ينفردُ بها، وقد ساقَ منها عبدُ ٱلرحمنِ ٱلأنباريُّ مثلينِ في كتابِهِ «نزهةُ ٱلألبَّاء»، ولكنَّ هذا ٱلشذوذَ نفسَهُ دليلٌ على ٱستقلالِ ٱلفِكْرِ وسَعتِهِ ومُحاولتِهِ أنْ يكونَ في ٱلطبقةِ ٱلعُلْيا من أئمةِ ٱلعربيَّةِ وهو على ذلك رجلٌ ثِقةٌ صدوقٌ كثيرُ ٱلضبطِ عجيبٌ في ٱلتحرِّي[1] وَٱلتدقيق؛ حتى كانَ من أثرِ ذلك في طِباعِهِ أنِ ٱعتادَ ٱلتفكيرَ وطولَ ٱلصمتِ فلا يقولُ قوْلاً إلَّا بعدَ تدُّبرٍ

(١) لا ينِدّ: لا يُفلت.

(٢) التحري: التفتيش والتقصّي.

وفِكْرٍ طويل، فإنْ لم يهتدِ إلى شيءٍ قال: لا أدري، وكثيراً ما كانَ يُسألُ في ٱلمسألةِ فلا يُجيبُ إلّا بعدَ أيام.

وكانَ وَرِعاً قويَّ ٱلإيمان، انتهى بِهِ إيمانُهُ وعلمُهُ وتقواهُ إلى أنْ صارَ أستاذَ ٱلخليفةِ ٱلمقتفي لأمرِ ٱلله، فٱختصَّ بإمامتِهِ في ٱلصلوات، وقرأَ عليهِ ٱلمقتفي شيئاً مِنَ ٱلكتب، وَٱنتفعَ بذلك وبانَ أثرُهُ في توقيعاتِهِ كما قالوا.

وٱلذي يتأملُ هذا ٱلشرحَ فضلَ تَأملٍ يرى صاحبَهُ كأنَّما خلقَهُ ٱللَّهُ رجلَ إحصاءٍ في ٱللغة، لا يفوتُهُ شيءٌ مِمَّا عُرِفَ إلى زمنِه، وهو ولا ريبَ يجري في ٱلطريقةِ ٱلفكريةِ ٱلتي نهجَها ٱبنُ جنِّي وشيخُهُ أبو علي ٱلفارسيّ؛ ومن أثرِ هذه ٱلطريقةِ فيهِ أنَّهُ لا يتحجَّرُ ولا يمنعُ ٱلقياسَ في ٱللغة، ويُلْحِقُ ما وضعَهُ ٱلمتأخرون بِما سُمِعَ مِنَ ٱلعرب، ويروي ذلك جميعَهُ ويحفظُهُ ويُلقيهِ على طلبتِهِ؛ ومن أمتعِ ما جاءَ من ذلك في شرحِهِ قولُهُ في صفحة ٢٣٥، وهو بابٌ لم يستوفِهِ غيرُهُ ولا تجدُهُ إلَّا في كتابه، وهذه عبارته:

قولهم: يدي من ذلك فَعِلة: المسموعُ منهم في ذلك ألفاظٌ قليلة، وقد قاسَ قومٌ من أهلِ ٱللغةِ على ذلك فقالوا: يدي مِنَ ٱلإهالةِ سَنِخَةٌ، ومِنَ ٱلبيضِ زهِمَةٌ، ومِنَ ٱلترابِ تَرِبَةٌ، ومنَ ٱلتينِ وَٱلعنبِ وَٱلفواكهِ كَتِنةٌ وكَمِدةٌ ولَزِجَة، ومِنَ ٱلعشبِ كِتَنةٌ أيضاً، ومنَ ٱلجبْنِ نَسِمةٌ، ومِنَ ٱلجِصِّ شَهِرةٌ، ومِنَ ٱلحديدِ وَٱلشبهِ وٱلصُّفْرِ[1] وَٱلرصاصِ سَهِكةٌ وصدِئةٌ أيضاً، ومِنَ ٱلحمأةِ رَدِغَةٌ ورزِغَة، ومِنَ ٱلخِضابِ رَدِعة، ومِنَ ٱلحِنْطةِ وَٱلعجينِ وَٱلخبزِ نَسِغةَ، ومنَ ٱلخَلِّ والنبيذِ خَمِطَة، ومِنَ ٱلدبسِ وَٱلعسلِ دَبِقَةٌ ولَزِقَةٌ أيضاً، ومِنَ ٱلدم شَحِطَةٌ وشَرِفَةٌ ومِنَ ٱلدهنِ زَنِخَةٌ، ومِنَ ٱلرياحينِ ذَكِيَّة، ومِنَ ٱلزهرِ زهِرَةٌ، ومنَ ٱلزيتِ قَنِمةٌ، ومِنَ ٱلسمكِ سَهِكةٌ وصَمِرة، ومِنَ ٱلسمنِ دَسِمَةٌ ونَسِمَةٌ ونَمِسةٌ، ومِنَ ٱلشهدِ[2] وَٱلطينِ لِثِقةٌ، ومِنَ ٱلعِطْرِ عَطِرةٌ، ومِنَ ٱلغاليةِ عَبِقَة، ومِنَ ٱلغسلةِ والقِذْرِ وحِرَة، ومنَ ٱلفِرصادِ[3] قَنِئَة، ومِنَ ٱللبنِ وَضِرَة، ومِنَ ٱللحمِ وَٱلمرقِ سَمِرة، ومِنَ ٱلماءِ بَلِلَةٌ وسَبِرَةَ، ومِنَ ٱلمسكِ ذَفِرةٌ وعبِقة، ومِنَ ٱلنَّتنِ قَنِمَةٌ، ومِنَ ٱلنفطِ جَعِدةٌ». انتهى.

فٱلمسموعُ من هذه ٱلألفاظِ عنِ ٱلعربِ لا يتجاوزُ سبعاً فيما نرى، وٱلباقي

(١) الصُّفَر: النحاس.
(٢) الشهد: العسل. (٣) الفِرصاد: القصدير.

كلُّهُ أجراهُ علماءُ ٱللغةِ وأهلُ ٱلأدبِ على ٱلقِياس، فأبدعَ ٱلقِياسُ منها أربعاً وثلاثينَ كلمة: ولو تدبَّرْتَ كيفيَّةَ ٱستخراجِها ورجعْتَ إلى ٱلأصولِ ٱلتي أُخِذَتْ منها لأَيقنْتَ أنَّ هذه ٱلعربيَّةَ هيَ أوسعُ ٱللغاتِ كافّة، وأنَّها من أهلِها كَالنبوَّةِ ٱلخالدةِ في دِينِها ٱلقويّ: تَنتظرُ كلَّ جيلٍ يأتي كما ودَّعَتْ كلَّ جيلٍ غَبَرَ لِأَنَّها ٱلإنسانيَّة، لِهؤلاءِ وهؤلاء.

إنَّ ظهورَ مثلِ هذا ٱلشرحِ كَٱلتوبيخِ لِأكثرِ كُتَّابِ هذا ٱلزمنِ أن ٱقرءوا وٱدرسوا وخصُّوا لغتَكم بِشَطْرٍ من عِنايتِكُم، وتربَّوْا لها بِتربيتِها في مدارسِكِمُ ومعاهِدِكم، وٱصبروا على مُعاناتِها صبرَ ٱلمُحِبِّ على حبيبتِه، فإنْ ضعُفتُمْ فَصبرَ ٱلبارِّ على مَنْ يُلزمُهُ حَقُّه؛ فإنْ ضَعَفْتُمْ عن هذا فَصبرَ ٱلمتكلِّفِ ٱلمتَجمِّلِ على ٱلأقلّ!

* * *

أميرُ ٱلشعرِ في ٱلعصرِ ٱلقديم

الوجهُ في إفرادِ شاعرٍ أو كاتبٍ مِنَ ٱلماضين بٱلتأليف، أنْ تصنعَ كأنَّك تُعيدُهُ إلى ٱلدنيا في كتابٍ وكانَ إنساناً، وتُرجعُهُ درساً وكانَ عمراً، وتردُّهُ حِكايةً وكانَ عملاً، وتنقلُهُ بزمنِهِ إلى زمنِك، وتعرضُهُ بِقومِهِ على قومِك، حتى كأنَّهُ بعدَ أنْ خلقَهُ ٱللَّهُ خِلقةَ إيجادٍ يخلقُهُ ٱلعقلُ خِلقةَ تفكير.

من أجلِ ذلك لا بُدَّ أنْ يتقصَّى[1] ٱلمؤلِّفُ في ٱلجمعِ من آثارِ ٱلمترجَمِ وأخبارِه، وأنْ يحملَ في ذلك مِنَ ٱلعَنَتِ ما يحملُهُ لو هو كانَ يجري وراءَ مَلَكَيْ مَنْ يُتَرْجِمُهُ لِقراءةِ كتابِ أعمالِهِ كِتابٌ في يديهما... ولا بُدَّ أنْ يُبالِغَ في ٱلتمحيصِ وَٱلمُقابلة، ويُدَقِّقَ في ٱلاستنباطِ وَٱلاستخراج، ويُضيفَ إلى عامَّةِ ما وَجَدَ من ٱلعِلْمِ وَٱلخبر خاصَّةَ ما عندَهُ مِنَ ٱلرأيِ وٱلفِكْر، ويعملَ على أنْ يُنَقِّحَ ما ٱنتهى إليهِ ٱلماضي في أدبِهِ وعِلْمِهِ بِمَا بَلَغَ إليهِ ٱلحاضرُ في فنِّهِ وفلسفتِه؛ وذلك من عملِ ٱلعقلِ ٱلمتجدِّدِ أبداً والمترادِفِ على هذه ٱلحياةِ بِمذاهبِهِ ٱلمختلِفة، يُشبهُ عملَ ٱلدهرِ ٱلمتجدِّدِ أبداً وٱلمترادفِ بٱلليلِ وٱلنهارِ على هذه ٱلأرض، كلُّ نهارٍ أو ليلٍ هو آخرُ وهو أول، وكذلك ٱلعقولُ كلُّها آخِرُ من ناحيةٍ وأولُ من ناحية.

وَٱلتجديدُ في ٱلأدبِ إنَّما يكونُ من طريقتين: فأمَّا واحدةٌ فإبداعُ ٱلأديبِ ٱلحيِّ في آثارِ تفكيرِهِ بِما يخلقُ مِنَ ٱلصورِ ٱلجديدةِ في ٱللغةِ وَٱلبيان، وأمَّا ٱلأخرى فإبداعُ ٱلحيِّ في آثارِ ٱلميتِ بِما يتناولُها بِهِ مِنْ مذاهبِ ٱلنقدِ ٱلمستحدَثةِ وأساليبِ ٱلفنِّ ٱلجديدةِ وفي ٱلإبداعِ ٱلأولِ إيجادُ ما لم يُوجد، وفي ٱلثاني إتمامُ ما لم يَتِمّ؛ فلا جَرَمَ كانَتْ فيهما معاً حقيقةُ ٱلتجديدِ بِكُلِّ معانيها، ولا تجديدَ إلا من ثَمَّةَ، فلا جديد؛ إلَّا معَ ٱلقديم.

وإذا تبينْتَ هذا وحقَّقْتَهُ أدركْتَ لِماذا يتخبَّطُ منتحلو ٱلجديدِ بينَنا وأكثرُهُم يدَّعيهِ سَفاهاً ويتقلَّدُهُ زُوراً، وجملةُ عملِهِم كوضعِ ٱلزنجيِّ ٱلذَّرورَ ٱلأبيضَ (البودرة)

(١) يتقصّى: يتحرّى ويتابع التمحيص: التقصّي والتحرّي.

على وجهِهِ ثُمَّ يذهبُ يدّعي أنَّهُ خرجَ أبيضَ من أمِّهِ لا منَ ٱلعُلْبة. . . . فإنَّ منهم مَنْ يصنعُ رسالةً في شاعرٍ وهو لا يفهمُ ٱلشعرَ ولا يُحسِنُ تفسيرَهُ ولا يجدُهُ في طبعِه، ومنهم مَنْ يدرسُ ٱلكاتبَ ٱلبليغَ وقد باعدَهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلبلاغةِ ومذاهبِها وأسرارِها، ومنهم مَنْ يُجدّدُ في تاريخِ ٱلأدب، ولكنْ بِٱلتكذُّبِ عليهِ وَٱلتقحُّمِ فيهِ وٱلذهابِ في مذهبِ ٱلمخالفة، يضَربُ وجهَ ٱلمُقْبلِ حتى يجيءَ مُدْبِراً، ووجهَ ٱلمُدْبِرِ حتى يعودَ مُقْبِلاً، فإذا لِكلِّ فريقٍ جديد، وينسى أنَّ جديدَهُ بِٱلصنعةِ لا بِٱلطبيعةِ وبِٱلزورِ لا بِٱلحقّ.

ألا إنَّ كلَّ مَنْ شاءَ ٱستطاعَ أنْ يطبَّ لِكلِّ مريض، لا يكلِّفُهُ ذلك إلَّا قولاً يقولُهُ وتلفيقاً يُدبرُه، ولكنْ أكذلك كلُّ مَنْ وصفَ دواءً ٱستطاعَ أنْ يشفى بِه؟

وبعدُ؛ فقد قرأتُ رسالةَ ٱمرىءِ ٱلقيسِ ٱلتي وضعَها ٱلأديبُ ٱلسيدُ محمد صالح سمك، فرأيْتُ كاتبَها - مع أنَّهُ ناشىءٌ بعد - قد أدركَ حقيقةَ ٱلفنِّ في هذا ٱلوضعِ من تجديدِ ٱلأدب، فٱستقامَ على طريقةٍ غيرِ ملتوية، ومضى في ٱلمنهجِ ٱلسديدِ ولم يَدَّعِ ٱلتثبُّتَ وإنعامَ ٱلنظرِ وتقليبَ ٱلفكرِ وتحصينَ ٱلرأي، ولا قصَّرَ في ٱلتحصيلِ وَٱلاطّلاعِ وٱلاستقصاء، ولا أراهُ قد فَاتَهُ إلَّا ما لا بُدَّ أنْ يفوتَ غيرَهُ مِمَّا ذهبَ في إهمالِ ٱلرواةِ ٱلمتقدمينَ وأصبحَ ٱلكلامُ فيهِ من بعدِهم رَجْماً بِٱلغيبِ وحُكْماً بِٱلظنّ.

فإنَّ ٱمرأ ٱلقيسِ في رأيي إنَّما هو عقلٌ بيانيٌّ كبيرٌ منَ ٱلعقولِ ٱلمفردةِ ٱلتي خَلقَتْ خلقتَها في هذه ٱللغة، فوضعَ في بيانِها أوضاعاً كانَ هو مبتدعَها وٱلسابقَ إليها، ونهجَ لِمَنْ بعدَهُ طريقتَها في ٱلاحتذاءِ عليها وٱلزيادةِ فيها وٱلتوليدِ منها؛ وتلك هي منقبتُهُ ٱلتي ٱنفردَ بها وٱلتي هيَ سِرُّ خلودِهِ في كلِّ عصرٍ إلى دهرِنا هذا وإلى ما بَقيَتِ ٱللغةُ؛ فهو أصلٌ منَ ٱلأصولَ، في أبوابٍ مِنَ ٱلبلاغةِ كٱلتشبيهِ وٱلاستعارةِ وغيرِهِما، حتى لَكَأنَّهُ مصنعٌ من مصانعِ ٱللغةِ لا رجلٌ من رجالِها؛ وكما يُقالُ في أيّامنا في أمم ٱلصناعة: سيارةُ فورد وسيارة فيات، يُمكنُ أنْ يُقالَ مثلُ ذلك في بعضِ أنواعِ ٱلبلاغةِ ٱلعربية: ٱستعارةُ ٱمرىءِ ٱلقيسِ، وتشبيهُ ٱمرىءِ ٱلقيس.

ولكنَّ تحقيقَ هذا ٱلبابِ وإحصاءَ ما ٱنفردَ بِهِ ٱلشاعرُ وتأريخَ كلماتِهِ ٱلبيانيَّةِ مِمَّا لا يستطيعُهُ باحثٌ وليسَ لنا فيهِ إلَّا ٱلوقوفُ عندَ ما جاءَ بِهِ ٱلنصّ.

ولقد نبهْنا في (إعجاز القرآن) إلى مثلِ هذا؛ إذْ نعتقدُ أنَّ أكثرَ ما جاءَ في ٱلقرآنِ ٱلكريمِ كانَ جديداً في ٱللغة، لم يُوضَعْ من قبلِهِ ذلك ٱلوضعَ ولم يجرِ في

ٱستعمالِ ٱلعربِ كما أجراهُ، فهو يَصُبُّ ٱللغةَ صبًّا في أوضاعِهِ لِأَهلِها لا في أوضاعِ أهلِها؛ وبذلك يُحقِّقُ من نحوِ ألفٍ وأربعمائةِ سنةٍ ما لا نظنُّ فلسفةَ ٱلفنِّ قد بلغَتْ إليهِ في هذا ٱلعصرِ؛ إذْ حقيقةُ ٱلفنِّ على ما نرى أنْ تكونَ ٱلأشياءُ كأنَّها ناقصةٌ في ذاتِ أنفسِها ليسَ في تركيبِها إلَّا ٱلقوَّةُ ٱلتي بُنِيَتْ عليها، فإذا تناولَها ٱلصَّنَعُ ٱلحاذِقُ ٱلمُلْهَمُ أضافَ إليها من تعبيرِهِ ما يُشعرُكَ أنَّهُ خَلَقَ فيها ٱلجمالَ ٱلعقليّ، فكأنَّها كانَتْ في ٱلخِلْقةِ ناقصةً حتى أتمَّها.

وهذا ٱلمعنى ٱلذي بيَّنَّاهُ هو ٱلذي كانَ يحومُ عليهِ ٱلرواةُ وٱلعلماءُ بِٱلشعرِ قديماً، يُحِسُّونَهُ ولا يجدون بيانَهُ وتأويلَه، فترى ٱلأصمعيَّ مثلاً يقولُ في شعرِ لبيد؛ إنَّهُ طيلسانٌ طَبَري. أي مُحْكَمٌ متين، ولكنْ لا رونقَ لَه؛ أي فيهِ ٱلقوَّةُ وليسَ فيهِ ٱلجمال؛ أي فيهِ ٱلتركيبُ وليسَ فيهِ ٱلفنّ.

وٱلعقلُ ٱلبيانيُّ كما قلْنا في غير هذه ٱلكلمة، هو ثروةُ ٱللغة، وبِهِ وبِأمثالِهِ تَعامَلَ ٱلتاريخ، وهوَ ٱلذي يُحقِّقُ فيها فنَّ ألفاظِها وصورِها؛ فهو بذلك ٱمتدادُها ٱلزمنيُّ وٱنتقالُها ٱلتاريخيُّ وتخلُّقُها معَ أهلِها إنسانيَّةً بعدَ إنسانيَّةٍ في زمنٍ بعدَ زمن، ولا تجديدَ ولا تطوُّرَ إلّا في هذا ٱلتخلُّقِ متى جاءَ من أهلِهِ وٱلجديرينَ به؛ وهو ٱلعقلُ ٱلمخلوقُ لِلتفسيرِ وٱلتوليدِ وتلقِّي ٱلوحيِّ وأدائِهِ وٱعتصارِ ٱلمعنى من كلِّ مادَّةٍ وإدارةِ ٱلأسلوبِ على كلِّ ما يَتَّصِلَ بِهِ منَ ٱلمعاني وٱلآراء، فينقلُها من خِلْقَتِها وصِيغِها ٱلعاليةِ إلى خَلقِ إنسانٍ بِعينِه، هو هذا ٱلعبقريُّ ٱلذي رُزقَ ٱلبيان.

ولِلسببِ ٱلذي أومأْنا إليهِ بَقِيَ ٱمرؤُ ٱلقيس كَٱلميزانِ ٱلمنصوبِ في ٱلشعرِ ٱلعربيِّ يبينُ بِهِ ٱلناقصُ وَٱلوافي؛ قالَ ٱلباقلّانيُّ في كتابِهِ (الإعجاز): وقد ترى ٱلأدباءَ أولاً يُوازنون بشِعرِهِ (يُريدُ ٱمرأَ ٱلقيس) فلاناً وفلاناً ويضمُّون أشعارَهم إلى شعرِه، حتى ربمّا وازنوا بين شعرِ مَنْ لقيناهُ (توفي ٱلباقلاني سنة ٤٠٣ لِلهجرة) وبين شعرِهِ في أشياءَ لطيفةٍ وأمورٍ بديعة، وربمَّا فضّلوهُم عليهِ أو سوَّوا بينَهُم وبينَهُ أو قرَّبوا موضعَ تقدُّمِهِ عليهم وبرّوزُهُ بين أيديهم، اهـ.

ومعنى كلامِهِ أنَّ ٱمرأَ ٱلقيسِ أصلٌ في ٱلبلاغة، قد ماتَ ولا يزالُ يُخْلَق، وتطوَّرَتِ ٱلدنيا ولا يزالُ يجيءُ معها، وبلغَ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ غايتَهُ ولا تزالُ عربيَّتُهُ عند ٱلغاية.

وعَرَضَ ٱلباقلَّانيُّ في كتابِهِ طويلةَ ٱمرىءِ ٱلقيسِ فَٱنتقدَ منها أبياتاً كثيرة، لِيدلَّ

بذلك على أنَّ أجودَ شعرٍ وأبدعَهُ وأفصحَهُ وما أجمعوا على تقدُّمِهِ في ٱلصناعةِ وَٱلبيان، هو قبيلٌ آخرُ غيرُ نظمِ ٱلقرآنِ لا يمتنِعُ من آفاتِ ٱلبشريَّةِ ونقصِها وعُوَارِها؛ فركِبَ في ذلك رأسَهُ ورجليهِ معاً. . . فأصابَ وأخطأ، وتعسَّفَ وتهدَّى، وأنصفَ وتحامل؛ وكلُّ ذلك لِمكانةِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ في ٱبتكارِهِ ٱلبيانيِّ ٱلذي لا يُمكنُ أنْ يدفعَ عنه؛ ولما ٱنتقدَ قولَه:

وبيضةُ خُدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ... تمتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

قال: «فقد قالوا: عَنَى بذلك أنَّها كبيضةِ خِدْرٍ في صفائِها ورِقَّتِها، وهذه كلمةٌ حسنةٌ ولكن لم يَسبقْ إليها بلْ هي دائرةٌ في أفواهِ ٱلعرب». ألا ليت شعري هلْ كانَ ٱلباقلانيُّ يسمعُ من أفواهِ ٱلعربِ في عصرِ ٱمرىءِ ٱلقيسِ قبلَ أنْ يقولَ (وبيضةُ خدر)؟

على أنَّ ٱلكِناية عنِ ٱلحبيبةِ (بيضةُ الخدر) من أبدعِ ٱلكلامِ وأحسنِ ما يؤتَى ٱلعقلُ ٱلشعريّ، ولو قالَها ٱليومَ شاعرٌ في لندن أو باريسَ بِٱلمعنى ٱلذي أرادَهُ ٱمرؤُ ٱلقيس ـ بما فسَّرَها بِهِ ٱلباقلانيُّ ـ لاَستُبدِعَتْ من قائلِها ولَأَصبحَتْ مَعَ ٱلقُبْلَةِ على كلِّ فمٍ جميل؛ بلْ هم يمرونَ في بعضِ بيانِهِم من طريقِ هذه ٱلكلمة، فيُكنونَ عنِ ٱلبيتِ ٱلذي يتلاقى فيه ٱلحبيبان (بِٱلعُشّ)، وما يُتَّخذُ ٱلعُشُّ إلَّا للبيضة. إنَّما عنى ٱلشاعرُ ٱلعظيمُ أنَّ حبيبتَهُ في نُعُومَتِها وترفِها ولِينِ ما حولَها، ثُمَّ في مَسِّها وحرارةِ ٱلشبابِ فيها، ثُمَّ في رقتِها وصَفاءِ لونِها وبَريقِها، ثُمَّ في قِيامِ أهلِها وذويها عليها ولزومِهِم إيَّاها، ثُمَّ في حذرِهِم وسهرِهِم، ثُمَّ في ٱنصرافِهِم بجملةِ ٱلحياةِ إلى شأنِها وبجملةِ ٱلقوَّةِ إلى حِياطَتِها[1] وٱلمُحاماةِ عنها ـ هيَ في كلِّ ذلك منهم، ومن نفسِها كبيضةِ ٱلجارحِ في عشِّه، إلَّا أنَّها بيضةُ خِدْر، ولذلك قالَ بعدَ هذا ٱلبيت:

تَجَاوَزْتُ أحراساً إليها ومَعْشراً ... عليّ حِراصاً لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلي

فتلك بعضُ معاني ٱلكلمةِ وهيَ كما تَرى، وكذلك ينبغي أنْ يُفسَّرَ ٱلبيان. . .

---

(١) حياطتها: حمايتها.

البـؤسـاء

ترجمَ حافظٌ هذا ٱلجزءَ ٱلثاني مِنَ ٱلبؤساءِ فطوى بِهِ ٱلأول، وكانوا يحسبونَ ٱلأولَ قد عَقِمَتْ بمثلِهِ ٱلبلاغةُ فلا ثانيَ لَه. وبين ٱلجزئين زمنٌ لَوِ ٱتَّسعَ بِهِ أديبُ في قراءةِ كتبِ ٱلأدبِ لاستوعبَها كلَّها، فكأنَّ ٱرتفاعَ ٱلسنِّ بِحافظٍ في هذه ٱلمدةِ جعلَ منه في قوَّةِ ٱلأدبِ حافظينِ يُترجمانِ معاً.

وما ٱلبؤساءُ في ترجمتِهِ إلَّا فكرُ فيلسوفٍ تعلَّقَ في قلم شاعرٍ فَٱنعطَفتْ عليهِ حواشي ٱلبيانِ من كلِّ نواحيه، وجاءَ ما تدري أشعراً مِنَ ٱلنثرِ أم نثراً مِنَ ٱلشعر، وخرجَتْ بِهِ ٱلكِتابةُ في لَوْنٍ مِنَ ٱلصفاءِ وَٱلإشراقِ كأنَّما تنحلُّ عليهِ أشعةُ ٱلضحى.

ترجمَ حافظٌ فوضعَ ٱللغةَ بين فكرِهِ ولِسانِه، ووقفَ تحت سحابةٍ مِنَ ٱلسُّحُبِ ٱلتي خفقَ عليها جناحُ جبريل، فما تخلو كتابتُهُ من ظِلٍّ يتنفَّسُ عليك برائحةِ ٱلإعجاز؛ وتراهُ يتحدّرُ مَعَ ٱلكلام ويتناولُ منه ويدع، فما نزعَ بِهِ ٱلكلامُ منزعاً إلَّا وجدَهُ متمكِّناً منه وأصابَهُ حيثُ أصابَهُ كَٱلتيَّارِ جملةً واحدةً تلفُّ أولَ ٱلنهرِ وآخرَهُ على مدِّ ما يجري؛ فهو حيثُ كانَ في ٱلسهْلِ وفي ٱلصعْب، غيرَ أنَّهُ يستسِرُّ في موضعٍ ويستعلِنُ في موضِع، ويجيشُ ويهدرُ ويترامى في ٱلعمقِ فيدوِّي دويًّا.

ومن هنا يحسبُهُ بعضُهُم يجنحُ إلى ما يستجفي مِنَ ٱلكلام، وإلى ٱستكراهِ بعضِ ٱلألفاظِ وَٱلتكلُّفِ لِبعضِها؛ وإنَّما ذاك وضعٌ من أوضاع ٱللغةِ ومذهبٌ من مذاهبِ ٱلبلاغة، ولا بُدَّ أنَ يشتدَّ ٱلقولُ ويلين، وأنْ يكونَ في أجراسِ ٱلحروفِ ما في نغمِ ٱلإيقاع؛ وما أشبَه هندسةَ ٱلبيانِ بِهندسةِ ٱلطبيعةِ ٱلتي تعمزُ ٱلنهرَ وترمي بِٱلبحرِ وتقذفُ بِٱلجبلِ ٱلأشمّ؛ وما ٱلجبلُ لو حققْتَ في وجوهِ ٱلتناسبِ ٱلطبيعيِّ إلَّا بحرٌ قد تحجَّرَ فٱنتثرتْ أمواجُهُ من صخورِهِ، وكلا ٱثنيهِما على ما بين ٱلصلابةِ وَٱللِّينِ تعبيرٌ في أساليبِ ٱلقوَّةِ عن ٱلقوة، وتوضيحٌ لِأقوى ما لا يُمكنُ أنْ يظهر، بِأقوى ما لا يُمكنُ أنْ يخفى.

يُخطىءُ ٱلضِّعافُ مِنَ ٱلكتَّابِ وبِخاصةٍ في أيامِنا هذه... إذا حَسِبوا ٱلفصاحةَ

ٱلعربيَّةَ قبيلاً واحداً مِنَ ٱللفظِ ٱلرقيقِ ٱلمأنوس؛ ولقد تجدُ بعضَ هؤلاءِ ٱلضعفاءِ وإنَّهُ ليرى في ٱلكلامِ ٱلجزْلِ ٱلمتفصِّحِ ما يرى في جمجمةِ ٱلأعاجِمِ إذا نطقوا فلم يُبينوا؛ وإنَّما هيَ ٱلعربيَّة، وإنَّما فصاحَتُها في مجموعِ ما يطَّردُ بِهِ ٱلقول؛ وَٱلفصاحةُ في جملتِها وتفصيلِها إحكامُ ٱلتناسبِ بينَ ٱلألفاظِ وَٱلمعاني، وَٱلغرضِ ٱلذي يتَّجهُ إليهِ كِلاهُما؛ فمتى فُصِلَ ٱلكلامُ على هذا ٱلوجهِ وأُحكِمَ على هذه ٱلطريقة، رأيْتَ جمالَهُ واضحاً بيِّناً في كلِّ لفظٍ تقومُ بِهِ ٱلعِبارة، مِنَ ٱلنسجِ ٱلمهلْهلِ ٱلرقيق، إلى ٱلحَبْكِ ٱلمُحْكَمِ ٱلدقيق، إلى ٱلأسلوبِ ٱلمندمجِ ٱلموثَّقِ ٱلذي يُسرَدُ في قوَّةِ ٱلحديد؛ إذْ يكونُ كلُّ حَرفٍ لِموضِعِه، ويكونُ كلُّ موضعٍ لِحرفِه، ويكونُ كلُّ ذلك بِمقدارٍ لا يُسرف، وقِياسٍ لا يُخطِىء، ووزنٍ لا يختلف؛ وهذه هي طبيعةُ ٱلفصاحةِ ٱلعربيَّةِ دون سائرِ ٱللغات، وبها أمكنَ ٱلإعجازُ في هذه ٱللغةِ ولم يُمكنْ في سواها.

ومترجِمُ ٱلبؤساءِ أحدُ ٱلأفرادِ ٱلمعدودينَ ٱلذين أحكموا هذه ٱلطريقةَ ونفذوا إلى أسرارِها، ففي كلِّ موضعٍ من كتابتِهِ موضِعُ روعة، حتى ما تدري أيكتبُ أم يصوغُ أم يُصوِّر، وكأنَّهُ لا ينقلُ من لِسانٍ إلى لِسان، بلْ من فِكْرٍ إلى فِكْر، فترى أكثرَ جملهِ كأنَّها تُضيءُ فيها ٱلمصابيح.

ومِنَ ٱلخواصِّ ٱلتي ٱنفردَ بها حافظٌ أنَّهُ ظاهرٌ في صَنعةِ ألفاظِهِ ظهورَ هيجو في صنعةِ معانيه؛ إذْ لا تجدُ غيرَهُ مِنَ ٱلمترجمينَ يتَّسِعُ لِهذا ٱلأسلوبِ أو يُطيقُه؛ وأكثرُ ٱلكتبِ ٱلمترجَمةِ إلى ٱلعربيَّةِ إنَّما تطمِسُ على ٱسمِ ٱلمترجمِ قبلَ أنْ تكشِفَ عنِ ٱسمِ ٱلمؤلِّف، فلا يحيا ٱلميتُ إلَّا بِموتِ ٱلحيّ؛ وهم في أكثرِ ما يصنعون لا يعدون أنْ يُصحِّحوا ٱلعاميةَ أو يُفصِّحوا بها قليلاً، فيستوي في صنعةِ ٱلبيانِ أنْ يكونَ ناقلُ ٱلكتابِ هذا أو ذاك أو ذلك، لِأنَّهُم سواسية، ولا تُؤْتيكَ كتبهُمُ أكثرَ مِمَّا يُؤتيكَ ٱلاسمُ ٱلمعلَّقُ على مُسَمَّاه.

غيرَ أنَّك في ٱلبؤساءِ ترى معَ ٱلترجمةِ صنعةً غيرَ ٱلترجمة، وكأنَّما أَلَّفَ هيجو هذا ٱلكتابَ مرَّةً وألَّفهُ حافظٌ مرتين، إذْ ينقلُ عنِ ٱلفرنسيَّة؛ ثُمَّ يفتنُّ في ٱلتعبيرِ عمَّا ينقل، ثُمَّ يُحكِمُ ٱلصنعةَ فيما يفتنّ، ثُمَّ يُبالِغُ فيما يُحْكِم؛ فأنت من كتابِهِ في لغةِ ٱلترجمة، ثُمَّ في بيانِ ٱللغة، ثُمَّ في قوَّةِ ٱلبيان؛ وبهذا خرَجَ ٱلكتابُ وإنَّ مترجمَهُ لَأَحقُّ بِهِ في ٱلعربيَّةِ من مؤلِّفِه، وجاءَ وما يستطيعُ أحدٌ أنْ ينسى أنَّهُ لِحافظٍ دونَ سِواه.

وتلك طريقةٌ في ٱلكتابةِ لا يُستعانُ عليها إلَّا بِٱلأدبِ ٱلعزير، وَٱلذوقُ ٱلناضج،

وَٱلبيانِ ٱلمطبوع؛ ثُمَّ بِٱلصبرِ على مُطاولةِ ٱلتعَبِ ومعاناةِ ٱلكَدِّ في تخيُّرِ ٱللفظِ وتجويدِ ٱلأسلوبِ وتصفيةِ ٱلعِبارة؛ فلقدْ يُنفِقُ ٱلكاتبُ وقتاً في عمرِ ٱلليلِ لِيُخرجَ من آخرِهِ سطراً في نورِ ٱلفجر، وبهذا ٱلصنيعِ جاءَتْ صفحاتُ ٱلبؤساءِ على قِلَّتِها كشبابِ ٱلهوى؛ لِكلِّ يومٍ منه فجرُهُ وشمسُه، ولِكلِّ ليلةٍ قمرُها ونجومُها.

* * *

وٱلذي نغتمزُهُ[1] في هذه ٱلترجمةِ أنَّ ٱلضَجرَ يستبِدُّ أحياناً بِصاحِبنا فيستكرهُهُ على غيرِ طبعهِ، ويردُّهُ إلى غيرِ مألوفِه؛ ومن ثَمَّ يضطربُ ذوقُهُ وسليقتُهُ أو يذهبُ بِهِ عنهما، فيعدِلُ بِٱلمعنى عن لفظِهِ ٱلمعروفِ ٱلذي ٱستعملَهُ ٱلأدباءُ فيه، كٱستعمالِهِ قارنْ بينَ كذا وكذا، وإنَّما يستعملون مَثِّلْ بينهما، أو يُخلُّ بوزنِ ٱلكلمةِ في ميزانِ ٱلذوق، فترى ٱلعِبارةَ ٱليابسةَ في ٱلجملةِ ٱلخضراءِ ٱلتي ترِفُّ؛ وذلك ما لا مطمعَ لِأَحدٍ أنْ يَسْلَمَ منه؛ لِأَنَّهُ أثرُ ٱلضعفِ ٱلإنسانيِّ فِيمَنِ ٱرتهنوا أنفسَهُم بِمُلابَسةِ ٱلقوَّةِ ٱلعليا في هذه ٱلإنسانيَّة.

ولم يُتنزَّهْ عنهُ كتابٌ إلَّا ذلك ٱلكتابُ ٱلعزيزُ ٱلذي ٱهتزَّتْ لَهُ ٱلسمواتُ ٱلسبعُ وٱلأرضُ ومَنْ فيهنَّ.

* * *

(١) نغتمزه: نجده مغمزاً للانتقاص من قدره.

الملاحُ ٱلتائه

إذا أردتُ أنْ أكتبَ عن شعرٍ فقرأتُه، كانَ من دَأَبي[1] أنْ أقرأَهُ متثبتاً أتصفحُ عليهِ في ٱلحرفِ وَٱلكلمة، إلى ٱلبيتِ وَٱلقصيدة، إلى ٱلطريقةِ وَٱلنهج، إلى ما وراءِ ٱلكلام من بواعثِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ ودوافع ٱلحياةِ فيها، وعن أيِّ أحوالِ هذه ٱلنفسِ يصدرُ هذا ٱلشاعر، وبأيِّها يتسبَّبُ إلى ٱلإلهام، وفي أيِّها يَتَّصِلُ ٱلإلهامُ به، وكيف يتصَرَّفُ بمعانيه، وكيفَ يسترسِلُ إلى طبعِه، ومن أين ٱلمأتى في رديئِهِ وسقطِه، وبماذا يسلُكُ إلى تجويدِهِ وإبداعِه.

ثُمَّ كيف حِدَّةُ قريحتِهِ وذكاءُ فِكْرِهِ وَٱلمَلَكةُ ٱلنفسيَّةُ ٱلبيانيَّةُ فيه، وهلْ هيَ جبَّارةٌ متعسِّفةٌ تملِكُ ٱلبيانَ من حدودِ ٱللغةِ في ٱللفظِ إلى حدودِ ٱلإلهام في ٱلمعنى، ملكةَ ٱستقلالٍ تنفذُ بِٱلأمرِ وَٱلنهي جميعاً، أو هي ضعيفةٌ رِخوةٌ ليسَ معَها إلَّا ٱلاختلالُ وَٱلاضطراب، وليسَ لها إلّا ما يحمِلُ ٱلضعيفَ على طبعِهِ ٱلمكدودِ كلَّما عَنُفَ بِهِ سقطَ به؟

أتبيَّنُ كلَّ هذا فيما أقرأُ مِنَ ٱلشعر، ثُمَّ أزيدُ عليهِ ٱنتقادَهُ بما كنْتُ أصنعُهُ أنا لو أنَّي عالجْتُ هذا ٱلغَرَضَ أو تناولْتُ هذا ٱلمعنى، ثُمَّ أُضِيفُ إلى ذلك كلِّهِ ما أَثبتُّهُ من أنواعِ ٱلاهتزازِ ٱلَّتي يُحدِثُها ٱلشعرُ في نفسي؛ فإنِّي لأطَرَبُ لِلشعرِ ٱلجيِّدِ ٱلوثيقِ أنواعاً مِنَ ٱلطربِ لا نوعاً واحداً، وهيَ تُشبِهُ في ٱلتفاوتِ ما بينَ قطرةِ ٱلندى ٱلصافيةِ في ورقِ ٱلزنبقةِ وقطرةِ ٱلشعاعةِ ٱلمتألِّقةِ في جوهرِ ٱلماسةِ وموجةِ ٱلنورِ ٱلمتألِّهةِ في كوكبِ ٱلزهرة.

وأكثرُ ٱلشعرِ ٱلذي في أيامِنا هذه لا يتَّصلُ بنفسي ولا يخفُّ على طبعي، ولا أراهُ يقعُ مِنَ ٱلشعرِ ٱلصحيحِ إلَّا من بعد، وهو مني أنا كَٱلرجلِ يمرُّ بي في ٱلطريقِ لا أعرفُه: فلا ينظرُ إليَّ ولاَ أنظرُ إليه، فما أُبصرُ منه رجلاً وإنسانيَّةً وحياةً أكثرَ مِمَّا أراهُ ثوْباً وحِذاءً وطربوشاً! وٱلعجيبُ أنَّهُ كلما ضُعفَ ٱلشاعرُ من هؤلاءِ قوِيَ على

---

(١) دأبي: عادتي.

مِقدارِ في ٱلاحتجاجِ لِضعفِه، وأُلِهَمَ مِنَ ٱلشواهدِ وَٱلحُججِ ما لو أُلْهِمَ بِعددِهِ مِنَ ٱلمعاني وٱلخواطرِ لَكَانَ عسى...

فإذا نافَرتِ ٱلمعاني ألفاظَها وٱختلفَتِ ٱلألفاظُ على معانيها قال: إنَّ هذا في ٱلفنّ... هو ٱلاستواءُ وٱلاطرادُ وٱلمُلاءمةُ وقُوَّةُ ٱلحبْك؛ وإذا عوَّضَ وخانَهُ ٱللفظُ وٱلمعنى جميعاً وأساءَ لَيتكلَّفُ وتساقطَ لَيتحذلقُ وجاءَكَ بِشعرِهِ وتفسيرِ شِعرِهِ وٱلطريقةِ لِفهمِ شعرِهِ قال: إنَّهُ أعلى من إدراكِ مُعاصِريه، وإنَّ عجرفةَ معانيهِ هذه آتيةٌ من أنّ شِعرَهُ من وراءِ ٱللغة، من وراءِ ٱلحالةِ ٱلنفسيَّة، من وراءِ ٱلعصر، من وراءِ ٱلغيب: كأنَّ ٱلموجودَ في ٱلدنيا بين ٱلناسِ هو ظلُّ شخصِهِ لا شخصُه، وٱلظِّلُّ بِطبيعتِهِ مطموسٌ مبهمٌ لا يُبينُ إبانةَ ٱلشخصَ. وإذا أهلكَ ٱلشاعرُ ٱلاستعارةَ وأمرضَ ٱلتشبيهَ وخنقَ ٱلمجازَ بحبلٍ ـ قال لك: إنَّهُ على ٱلطريقةِ ٱلعصريَّةِ وإنَّما سَدَّدَ وقاربَ وأصابَ وأحكَم. وإذا سمَّى ٱلمقالة قصيدة... وخَلَطَ فيها خَلْطَهُ وجاءَ في أسوإِ معرضٍ وأقبحِهِ وخرجَ إلى ما لا يُطاقُ مِنَ ٱلركاكةِ وَٱلغثاثة ـ قالَ لك: هذه هيَ وحدةُ ٱلقصيدة، فهيَ كلٌّ واحدٌ أفرغَ إفراغَ ٱلجسمِ ٱلحيّ: رأسُهُ لا يكونُ إلّا في مَوْضِعِ رأسِهِ ورِجلاهُ لا تكونُ إلّا في مَوْضِعِ رِجْليه...

تلك طبقاتٌ مِنَ ٱلضعفِ تظاهَرتِ ٱلحُجَجُ من أَصحابِها على أنَّها طبقاتٌ مِنَ ٱلقوَّة، غيرَ أنَّ مِصْداقَ ٱلشهادةِ لِلأقوياءِ عظامُهُمُ ٱلمشبوحة، وعضلاتُهُمُ ٱلمفتولة، وقلوبُهُمُ ٱلجريئة، أمَّا ٱلألْسِنَةُ فهيَ شهودُ ٱلزورِ في هذه ٱلقضيَّةِ خاصَّة.

***

هناك ميزانٌ لِلشاعرِ ٱلصحيحِ وَلِلآخرِ ٱلمتشاعر: فَٱلأولُ تأخذُ من طريقتِهِ ومجموعِ شعرِهِ أنَّهُ ما نظَمَ إلّا لِيُثبِتَ أنَّهُ قد وضعَ شعراً، وٱلثاني تأخذُ من شعرِهِ وطريقتِهِ أنَّهُ إنَّما نظمَ لِيُثبتَ أنَّهُ قرأَ شعراً... وهذا ٱلثاني يُشعِرُكَ بِضعفِهِ وتلفيقِهِ أنَّهُ يخدمُ ٱلشعرَ لِيكونَ شاعراً، ولكنَّ ٱلأولَ يُريكَ بِقوَّتِهِ وعبقريَّتِهِ إلى ٱلشعرِ نفسِهِ يخدمُهُ لِيكونَ هو شاعَره.

أمَّا فريقُ ٱلمتشاعرينَ فَلْيمثِّلْ لَهُ ٱلقارئُ بِمَنْ شاءَ وهو في سَعَة... وأمَّا فريقُ ٱلشعراءِ ففي أوائلِ أمثلتِهِ عندي ٱلشاعرُ ٱلمهندسُ علي محمود طه. أشهد: أنِّي أكتبُ عنهُ ٱلآنَ بِنوعٍ مِنَ ٱلإعجابِ ٱلذي كتبْتُ بِهِ في «ٱلمقتطَف» عن أصدقائي ٱلقدماء: محمود باشا ٱلباروديّ، وإسماعيلَ باشا صبري، وحافظ، وشوقي ـ

رحمهُمُ ٱللهُ وأطالَ بقاء صاحبِنا ـ فهذا ٱلشابُّ ٱلمهندِسُ أُوتيَ من هندسةِ ٱلبناءِ قوَّةَ ٱلتمييزِ ودِقَّةَ ٱلمُحاسبة، ووُهِبَ مَلَكَةَ ٱلفصْلِ بينَ ٱلحُسْنِ وَٱلقُبْحِ في ٱلأشكالِ مِمَّا عِلَّتُهُ مِنَ ٱلعِلْمِ وما عِلَّتُهُ مِنَ ٱلذوقِ وهذا إلى جلاءِ ٱلفِطْنةِ وصِقالِ ٱلطبعِ وتمَوُّجِ ٱلخيالِ وَٱنفساحِ ٱلذاكرةِ وَٱنتظام ٱلأشياء فيها؛ وبهذا كلِّهِ ٱستعانَ في شعرِهِ وقد خُلِقَ مُهندِساً شاعراً، ومعنى هذا أنَّهُ خُلِقَ شاعراً مُهندِساً؛ وكأنَّ ٱللهَ ـ تعالى ـ لم يقدِّرْ لهذا ٱلشاعرِ ٱلكريم تَعَلُّمَ ٱلهندسةِ ومُزاولَتَها وَٱلمَهارةَ فيها إلَّا لِمَا سبقَ في عِلْمِهِ أنَّهُ سينبُغُ نُبُوغَهُ لِلْعربيةِ في زمنِ ٱلفوضى وعَهْدِ ٱلتقلُّل، وحينَ فسادِ ٱلطريقةِ وتخلُّفِ ٱلأذواقِ وتراجُعِ ٱلطبعِ ووقوعِ ٱلغَلَطِ في هذا ٱلمنطقِ لٱنعكاسِ ٱلقضيَّة، فيكونُ البرهانُ على أنَّ هذا شاعرٌ وذاك نابغةٌ وذلك عبقريّ ـ هو عينُهُ ٱلبرهانُ على أنَّ لا شعْرَ ولا نُبوغَ ولا عبقريَّة؛ وهذه فوضى تحتاجُ في تنظيمِها إلى (مصلحة تنظيم) بِٱلهندسةِ وآلاتِها وٱلرياضةِ وأُصولِها وَٱلأشكالِ وَٱلرسوم وفُنُونِها، فجاءَ شاعرُنا هذا وفيهِ ٱلطِّبُّ لِمَا وصَفْنا؛ فهو ينظمُ شَعرهُ بِقريحةٍ بيانيَّةٍ هندسيَّة، أساسُها ٱلاتزانُ وٱلضبْط، وصوابُ ٱلحِسْبَةِ فيما يقدِّرُ لِلْمعنى، وإبداعُ ٱلشكلِ فيما يُنشيءُ مِنَ ٱللفظ، وألَّا يترُكَ ٱلبناءَ ٱلشعريَّ قائماً لِيقعَ إذْ يكونُ واهناً في أساسِهِ مِنَ ٱلصناعة، بلْ لِيثبتَ إذْ يكونُ أساسُهُ مِنَ ٱلصناعةِ في رسوخٍ وعلى قدْر.

وديوان «الملاحُ التائه» ٱلذي أخرَجهُ هذا ٱلشاعرُ لا ينزلُ بِصاحبِهِ من شعرِ ٱلعصرِ دون ٱلموْضِعِ ٱلذي أوْمَأْنا إليه؛ فما هو إلَّا أنْ تقرأَهُ وتعتبرَ ما فيهِ بشعرِ ٱلآخرين حتى تجدَ ٱلشاعرَ ٱلمهندسَ كأنَّهُ قادمٌ لِلْعصْرِ محمَّلاً بِذهنِهِ وعواطفِهِ وآلاتِهِ ومقاييسِهِ لِيُصْلِحَ ما فسد، ويُقيمَ ما تداعى، ويُرمِّمَ ما تخرَّب، ويهدِمَ ويبني.

* * *

ديوانُ ٱلشاعرِ ٱلحقِّ هو إثباتُ شخصيتِهِ ببراهينَ من روحِه، وهٰهنا في «الملاحُ التائه» روحٌ قويَّةٌ فلسفيَّةٌ بيانيَّة، تُؤتيكَ ٱلشعرَ ٱلجيِّدَ ٱلذي تقرؤُهُ بِٱلقلْبِ وَٱلعقْلِ وَٱلذوْق، وتراهُ كَفَاءَ أغراضِهِ ٱلتي ينظمُ فيها؛ فهو مُكْثِرٌ حين يكونُ ٱلإكثارُ شعراً، مُقِلٌّ حين يكونُ ٱلشعرُ هوَ ٱلإقلال؛ ثُمَّ هو على ذلك متينٌ رَصين، بارعُ ٱلخيال، واسعُ ٱلإحاطة، تراهُ كَٱلدائرة: يصعَدُ بِكَ محيطَها ويهبِطُ لا من أنَّهُ نازلٌ أو عالٍ، ولكنْ من أنَّهُ مُلْتفٌ مُنْدَمِج، موزونٌ مقدّر، وُضِعَ وضْعَهُ ذلك لِيطوِّحَ[1] بِك.

(١) يطوّح بك: يأخذك في كل اتجاه.

هو شعرٌ تعرفُ فيهِ فنيَّةَ ٱلحياة، وليسَ بِشاعرٍ مَنْ لا ينقلُ لَكَ عنِ ٱلحياةِ نقلاً فنيّاً شعريّاً؛ فترى ٱلشيءَ في ٱلطبيعةِ كأنَّهُ موجودٌ بِظاهرِه فقط، وتراهُ في ٱلشعرِ بِظاهرِهِ وباطنِهِ معاً؛ وليسَ بِشعرٍ ما إذا قرأْتَهُ، وَٱسترسَلْتَ إليهِ لم يكنْ عندكَ وجهاً من وجوهِ ٱلفهمِ وَٱلتصويرِ لِلْحياةِ وٱلطبيعةِ في نفسٍ ممتازةٍ مُدْرِكةٍ مصورة.

ولهذا فليسَ مِنَ ٱلشرْط عندي أنْ يكونَ عصرُ ٱلشاعرِ وبيئتُهُ في شعرهِ، وإنَّما ٱلشرطُ أنْ تكونَ هناك نفسُهُ ٱلشاعرةُ على طريقتِها في الفهمِ وَٱلتصوير، وأنت تُثبتُ هذه ٱلنفسَ بهذه ٱلطريقةِ أنَّ لها أنْ تقولَ كلمتَها ٱلجديدة، وأنَّها مُخَوَّلةٌ لَهُ ٱلحقَّ في أنْ تقولَها، إذْ هي لِلْعقولَ وَٱلأرواحِ أختُ ٱلكلمةِ ٱلقديمة: كلمةِ ٱلشريعةِ ٱلتي جاءَتْ بها ٱلنبُوَّةُ من قبل.

وليسَ في شعرِ على طه من عصرياتِنا غيرُ ٱلقليل، ولكنَّ ٱلعجيبَ أنَّهُ لا ينظمُ في هذا ٱلقليلِ إلَّا حينَ يخرجُ ٱلمعنى من عصرِهِ ويلتحقُ بِٱلتاريخ، كرثاءِ شوقي، وحافظ، وعدلي باشا، وفوزي ٱلمعلوف، وٱلطيارينِ دوس وحجاج، وٱلملكِ ٱلعظيم فيصل؛ فإنْ يَكُنْ هذا ٱلتدبيرُ عن قصدٍ وإرادةٍ فهو عجيب، وإنْ كانَ ٱتِّفاقاً ومصادَفةً فهو أعجب؛ على أنَّهُ في كلِّ ذلك إنَّما يرمي إلى تمجيدِ ٱلفنِّ وٱلبطولةِ في مظاهرِها، متكلِّمة، وسياسيَّة، ومُغامِرَة، ومالِكة.

أمَّا سائرُ أغراضِهِ فإنسانيَّةٌ عامة، تتغنَّى ٱلنفسُ في بعضِها، وتمرحُ في بعضِها، وتُصلِّي في بعضِها؛ وليسَ فيها طيْشٌ ولا فُجورٌ ولا زندقةٌ إلَّا. . . ظلالاً من ٱلحَيْرةِ أوِ ٱلشَّكّ، كتلك ٱلتي في قصيدةِ «اللَّهُ وَٱلشاعر»، وأظنُّهُ يُتابعُ فيها ٱلمعريّ؛ ولسْتُ أدري كم ينخدعُ ٱلناسُ بِٱلمعرِّي هذا، وهو في رأيي شاعرٌ عظيم، غيرَ أنَّ لَهُ بِضاعةً مِنَ ٱلتلفيقِ تعدِلُ ما تُخرجُهُ «لا نكشير» من بضائعِها إلى أسواقِ ٱلدنيا.

ومِمَّا يُعجبُني في شعرِ علي طه أنَّهُ في مناحي فلسفتِهِ وجهاتِ تفكيرِهِ يُوافِقُ رأييَ ٱلذي أراهُ دائماً، وهو أنّ ثورةَ ٱلروحِ ٱلإنسانيَّةِ ومعركتَها ٱلكبرى مَعَ ٱلوجود ـ ليستا في ظاهرِ ٱلثورةِ ولا ٱلعِراكِ مَعَ ٱللَّهِ كما صنعَ ٱلمعرّيُّ وأضرابُهُ في طيشِهِم وحماقتِهِم، ولكنَّهما في ٱلهدوءِ ٱلشعريِّ لِلروحِ ٱلمتأمِّلَة، ذلك ٱلهدوءِ ٱلذي يجعلُ ٱلطبيعةَ نفسَها تبتسِمُ بِكلامِ ٱلشاعرِ كما تبتسمُ بأزهارِها ونجومِها، ويجعلُ ٱلشاعرَ أداةً طبيعيَّةً متخذةً لِكشفِ ٱلحِكْمَةِ وتغطيتِها معاً؛ فإنَّ ٱلعجيبَ ٱلذي ليسَ أعجبَ منه في ٱلتدبيرِ ٱلإلهيِّ لِلنفوسِ ٱلحسَّاسة ـ أنَّ زخرفةَ ٱلشعرِ وما يجري مَجراهُ في

ٱلفنِّ إنَّما هيَ ضربٌ من زُخرفِ ٱلطبيعةِ حين تبتدِعُ ٱلشكلَ ٱلجميلَ لِتُتمِّمَ أغراضَها من ورائِهِ؛ ولو ثارَتِ ٱلأزهار ـ مثلاً ـ على ٱلوجودِ وخالقِهِ ثورةَ أولئك ٱلشعراءِ لَمَا صنعَتْ شيئاً غيرَ إفسادِ حِكمتِها هيَ وما يَتَّصِلُ بهذه ٱلحِكْمةِ مِنَ ٱلمصالحِ وَٱلمنافع، ولن تنتصرَ إلَّا بِبقائِها أزهاراً، فذلك حربُها وسِلْمُها معاً.

*   *   *

وأسلوبُ شاعرِنا أسلوبٌ جَزْل، أو إلى ٱلجزالة، تبدو ٱللغةُ فيهِ وعليها لونٌ خاصٌّ من ألوانِ ٱلنفسِ ٱلجميلةِ يزهو زهوَهُ فيكثرُ منه في ٱلنفسِ تأثيرُها وجمالُها، وهذه هي لغةُ ٱلشعرِ بخاصَّتِه؛ ولا بُدَّ أنْ نُنبِّهَ هنا إلى معنًى غريب، وذلك أنَّكَ تجِدُ بعضَ ٱلنظامينَ يُحسنونَ مِنَ ٱللغةِ وفنونِ ٱلأدب، فإذا نظمُوا وخلا نظمُهُم من روحِ ٱلشعر ـ ظهَرتِ ٱلألفاظُ في أوزانِهِم وكأنَّها فقدَتْ شيئاً من قِيمتِها، كأنَّ موضِعَها ثَمَّ هو ٱلذي أعلنَ إفلاسَه، إذْ أقامَهُ مقامَ ٱلذي يُريدُ أنْ يُعطيَ ثُمَّ هو إذا وقفَ لا يصنعُ شيئاً إلَّا أنْ يعتذِرَ بأنَّهُ لم يجدْ ما يُعطيه. . . فهذا كانَ رجلاً مِنَ ٱلناس، وكانَ في سِتْرٍ وعافية، فلمَّا وقفَ موقِفَهُ ٱنقلبَ مُدَلِّساً كاذباً مدَّعياً فٱختلفَتْ بهِ ٱلحالُ وهو هو لم يتغيَّر.

وما ٱلأسلوبُ ٱلبيانيُّ إلَّا وسيلةٌ فنيَّةٌ لِمضاعفةِ ٱلتعبير، فإنْ لم يكنْ هذا ما يُعطيهِ كانَ وسيلةً فنيَّةً أخرى لِمضاعفةِ ٱلخيبة؛ وهذا ما تُحِسُّهُ في كثيرٍ من شعرِ ٱلنظامينَ أوِ ٱلبديعيينَ في العصورِ ٱلميتة، وتُحسُّهُ في ٱلشعرِ ٱلميتِ ٱلذي لا يزالُ يُنشرُ بيننا.

وعلي طه إذا حرصَ على أسلوبِهِ وبالغَ في إتقانِهِ وٱستمرَّ بِجريهِ على طريقتِهِ ٱلجيِّدةِ مُتقدِّماً فيها، مُتعمِّقاً في أسرارِ ٱلألفاظِ وما وراءَ ٱلألفاظ، وهي تلك ٱلروعةُ ٱلبيانيَّة ٱلتي تكونُ وراءَ ٱلتعبيرِ وليسَ لها ٱسمٌ في ٱلتعبير، مُعْتبِراً ٱللغةَ ٱلشعريَّة ـ كما هيَ في ٱلحقيقة ـ تأليفاً موسيقياً لا تأليفاً لغوياً. . . فإنَّهُ ولا ريبَ سيجدُ من إسعافِ طبعِهِ ٱلقويّ، وعونِ فِكْرِهِ ٱلمشبوب، وإلهامِ قريحتِهِ ٱلمولِّدة ـ ما يجمعُ لَهُ ٱلنبوغَ من أطرافِه، بِحيثُ يُعدُّهُ ٱلوجودُ من كِبارِ مصوريه، وتتَّخذُهُ ٱلحياةُ من بُلغاءِ ٱلمعبِّرينَ عنها في ٱلعربية؛ ومن ثَمَّ تُنظمُهُ ٱلعربيَّةُ في سِمْطِ[1] جواهرِها ٱلتاريخيَّةِ ٱلثمينة، ويصلُهُ ٱلسلْكُ بِشوقي وحافظِ وٱلباروديِّ وصبري، إلى ٱلمتنبي وٱلبحتريِّ

(١) سمط: عقد.

وأبنِ ٱلروميّ وأبي تمّام، إلى ما وراءِ ذلك، إلى ٱلجوهرةِ ٱلكبرى المُسماةِ جبلِ ٱلنورِ ٱلبيانيّ، إلى ٱمرىء ٱلقيس.

وليس هذا ببعيدٍ على مَنْ يقولُ في صفةِ ٱلقلْب:

يـا قـلـبُ عِـنْـدَك أيُّ أسـرارِ	مـا زلْـنَ فـي نَـشْـرٍ وفـي طـيِّ
يـا ثـورةً مـشـبـوبـةَ ٱلـنَّـارِ	أقْـلَـقْـتَ جِـسْـمَ ٱلـكـائـنِ ٱلـحـيِّ
حَـمَّـلْـتَـهُ ٱلـعِـبْءَ ٱلـذي فَـرِقَـتْ	مِـنْـهُ ٱلـجِـبـالُ وَأشْـفَـقَـتْ[1] رَهَـبَـا
وَأثَـرْتَ مِـنْـهُ ٱلـرُّوحَ فـٱنـطَـلَـقَـتْ	تَحْسو[2] ٱلحميمَ[3] وتأكلُ ٱللَّهَبَا
وَعَـجِـبْـتُ مِـنْـكَ ومـنْ إبَـائِـكَ فـي	أسـرِ ٱلـجـمـالِ وربْـقَـةِ ٱلـحُـبِّ
وَتَـلَـفُّـتِ ٱلـمُـتَـكَـبِّـرِ ٱلـصَّـلْـفِ	عَـنْ ذِلَّـةِ ٱلـمَـقْـهُـورِ فـي ٱلـحَـرْبِ
وَوَهِـمْـتُ نـاراً ذاتَ إيـمـاضِ	فَـبَـسَـطْـتَ كَـفَّـكَ نَـحـوَهـا فَـزِعَـا
مَـرَّتْ بِـعَـيْـنِـكَ لـمـحةُ ٱلـمـاضـي	فَـوثـبْـتَ تُـمْـسِـكُ بـارقـاً لَـمَـعَـا
وَٱلأرضُ ضـاقَ فـضـاؤُهـا ٱلـرَّحْـبُ	وَخَـلَـتْ فَـلَا أهـلٌ وَلَا سَـكَـنُ
حَـالَ ٱلـهَـوَى وَتَـفَـرَّقَ ٱلـصَّـحْـبُ	وَبَـقِـيْـتَ وَحْـدَكَ أنـت وَٱلـزَّمَـنُ

ولو ذهبْنا نختارُ من هذا ٱلديوانِ لٱخترْنا أكثرَه، فقصائدُهُ ومقاطيعُهُ تتعاقَب، ولكنْ تعاقبَ ٱلشمسِ على أيامِها: تَظهرُ جديدةَ ٱلجمالِ في كلِّ صَباح، لأنَّ وراءَ ٱلصباحَ مادَّةَ ٱلفجر، وكذلك تأتي ٱلقصائدُ من نفسِ شاعرِها.

* * *

---

(١) أشفقت: خافت.

(٢) تحسو: تتجرّع وتشرب.

(٣) الحميم: الملتهب.

المقتطَفُ وٱلمتنبي

المقتطفُ شيخُ مجلّاتِنا؛ كلُّهُنَّ أولادُهُ وأحفادهُ؛ وهو كَٱلجَدِّ ٱلأكبر: زمنٌ يجتمع، وتاريخٌ يتراكم، وٱنفرادٌ لا يُلحق، وعِلْمٌ يزيدُ على ٱلعِلْم بِأنَّهُ في ٱلذاتِ ٱلتي تفرضُ إجلالَها فرضاً وتجبُ لها ٱلحرمةُ وجوباً ويتضاعفُ منها ٱلاستحقاقُ فيتضاعفُ لها ٱلحقّ.

وهلِ ٱلجَدُّ إلَّا أبوَّةٌ فيها أبوةٌ أخرى. وهلْ هو إلَّا عرشٌ حيٌّ درجاتُهُ ٱلجيلُ تحتَ ٱلجيلَ، وهلْ هو إلَّا ٱمتدادٌ مسافاتُهُ ٱلعصرُ فوقَ ٱلعصر؟

وَٱلمقتطَفُ يكبرُ ولا يهرَم، ويتقدَّمُ في ٱلزمنِ تقدُّمَ ٱلمخترعاتِ ماضيةً بِٱلنواميس إلى ٱلنواميس، مقيدةً بِٱلمبدإِ إلى ٱلغاية؛ وهو كَٱلعقلِ ٱلمنفردِ بِعبقريتِه: واجبُهُ ٱلأولُ أنْ يكونَ دائماً ٱلأول؛ فلقد أُنشيءَ هذا ٱلمقتطَفُ وما في ٱلمجلّاتِ ٱلعربيَّةِ ما يُغني عنه، ثُمَّ طوى في ٱلدهرِ سبعةً وثمانينَ مجلداً أقامَها سبعةً وثمانينَ دليلاً على أنْ ليسَ ما يُغني عنه؛ ثُمَّ أَسفَّتِ[1] ٱلدنيا حولَهُ بِأخلاقِها وطِباعِها، وتحوَّلتْ مجلاتٌ كثيرةٌ إلى مثلِ ٱلراقصاتِ وَٱلمغنيَّاتِ وَٱلمُمَثِّلات... وبقيَ هو على وفائِهِ لِمبدئِهِ ٱلعِلْميِّ وٱلسموِّ فيهِ وَٱلسموِّ به، كأنَّما أُخِذَ عليهِ في ٱلعِلْمِ وَٱلأدبِ مِيثاقٌ كميثاقِ ٱلنبيِّينَ في ٱلدينِ وَٱلفضيلة؛ فبينَ يديهِ ٱلواجبُ لا ٱلغرضُ، وهمُّهُ ٱلإبداعُ بِقوى ٱلعقلِ لا ٱلاحتيالُ بها، وهَديُهُ ٱلحقيقةُ ٱلثابتةُ في ٱلدنيا لا ٱلأحلامُ ٱلمتقلِّبةُ بهذه ٱلدنيا، وطريقُهُ في كلِّ ذلك طريقُ ٱلفيلسوف، من هدوءِ نفسِهِ لا من أحوالِ ٱلدهر، فهو ماضٍ على ٱليقين، نافذٌ إلى ٱلثقة، مُتنقِّلٌ في منزِلةٍ منزِلةٍ من يقينِهِ إلى ثقتهِ، ومن ثقتِهِ إلى يقينِه.

وقد بدأَ ٱلمقتطَفُ مجلّدَهُ ٱلثامنَ وٱلثمانينَ بِعددٍ ضخم أفردَهُ لِلْمتنبي. ولَئِنْ كانَتِ ٱلأنديةُ وَٱلمجلَّاتُ قد ٱحتفلَتْ بهذا ٱلشاعرِ ٱلعظيم، فَما أحسبُ إلَّا أنَّ روحَ ٱلشاعرِ ٱلعظيمِ قدِ ٱحتفلَتْ بهذا ٱلعددِ مِنَ ٱلمقتطَف.

---

(١) أسفت: انحطت.

ولسْتُ أَغلو إذا قلْتُ: إنَّ هذه ٱلروحَ ٱلمتكبِّرةَ قد أظهَرتْ كِبرياءَها مرَّةً أخرى، فَٱعتزلَتِ ٱلمشهورينَ مِنَ ٱلكتَّابِ وَٱلأدباء، ولزمَتْ صديقَنا ٱلمتواضعَ ٱلأستاذَ محمود شاكر مدةَ كتابتِهِ هذا ٱلبحثَ ٱلنفيسَ ٱلذي أخرَجهُ ٱلمقتطَفُ في زُهاءِ ستينَ ومائةِ صفحة، تدلُّهُ في تفكيرِه، وتُوحي إليهِ في ٱستنباطِهِ، وتُنبهُهُ في شعورِه، وتُبصِّرُهُ أشياءَ كانَتْ خافية، وكانَ ٱلصدقُ فيها، لِيردَّ بها على أشياءَ كانَتْ معروفة، وكانَ فيها ٱلكذب، ثُمَّ تُعينَهُ بكُلِّ ذلك على أنْ يكتبَ ٱلحياةَ التي جاءَتْ من تلك ٱلنفسِ ذاتِها، لا ٱلحياةِ ٱلتي جاءَتْ من نفوسِ أعدائِها وحُسَّادِها.

ولقد كانَ أولَ ما خطَرَ لي بعدَ أنْ مضيتُ في قراءةِ هذا ٱلعددِ ـ أنَّ ٱلمؤلِّفَ جاءَ بِما يصحُّ ٱلقولُ فيهِ إنَّه كَتبَ تاريخَ ٱلمتنبي ولم ينقلْه؛ ثُمَّ لم أكدْ أُمعِنُ في ٱلقراءةِ حتى خُيِّلَ إليَّ أنَّهُ قد وضَعَ لِشعرِ ٱلمتنبي بعدَ تفسيرِ ٱلشرّاحِ ٱلمُتقدِّمينَ وَٱلمُتأخِّرينَ تفسيراً جديداً مِنَ ٱلمتنبي نفسِه؛ وما ٱلكلمةُ ٱلجديدةُ في تاريخِ هذا ٱلشاعرِ ٱلغامضِ إلَّا ٱلكلمةُ التي نشرَها ٱلمقتطَفُ ٱليوم.

إنَّ هذا ٱلمتنبي لا يفرغُ ولا ينتهي، فإنَّ ٱلإعجابَ بِشعرِهِ لا ينتهي ولا يفرغُ وقد كانَ نفساً عظيمةً خلقَها ٱللَّهُ كما أراد، وخلقَ لها مادَّتَها ٱلعظيمةَ على غيرِ ما أرادتَ، فكأنَّما جعلَها بذلك زمناً يمتدُّ في ٱلزمن.

وكانَ ٱلرجلُ مطويّاً على سِرٍّ أُلقيَ ٱلغموضُ فيهِ من أولِ تاريخِه، وهو سِرُّ نفسِه، وسِرُّ شعرِه، وسِرُّ قوَّتِه؛ وبهذا ٱلسرِّ كانَ ٱلمتنبي كَٱلمَلِكِ ٱلمغصوبِ ٱلذي يرى ٱلتاجَ وَٱلسيفَ ينتظرانِ رأسَهُ جميعاً، فهو يتَّقي ٱلسيفَ بِٱلحذرِ وَٱلتلفُّفِ وٱلغموض، ويطلبُ ٱلتاجَ بِٱلكِتْمانِ وَٱلحِيلةِ وَٱلأمل.

ومن هذا ٱلسرِّ بدأَ كاتبُ ٱلمقتطَف، فجاءَ بحثُهُ يتحدَّرُ في نسقٍ عجيب، متسلسِلاً بِٱلتاريخِ كأنَّهُ وِلادةٌ ونموٌّ وشباب؛ وعرضَ بين ذلك شعرَ أبي ٱلطيِّبِ عرْضاً خُيِّلَ إليَّ أنَّ هذا ٱلشعرَ قد قيلَ مرةً أخرى من فم شاعرِهِ على حوادثِ نفسِهِ وأحوالِها؛ وبذلك ٱنكشفَ ٱلسرُّ ٱلذي كانَ مادَّةَ ٱلتهويلِ في ذلك ٱلشعرِ ٱلفخم، إذْ كانَتْ في واعيةِ ٱلرجلِ دولةٌ أضخمُ دولة، عجزَ عن خلقِها وإيجادِهَا فخلقَها شعراً أضخمَ شعر، وجاءَتْ مبالغاتُهُ كأنَّها أكاذيبُ آمالِهِ ٱلبعيدةِ متحققةً في صورةٍ من صورِ ٱلإمكانِ ٱللغويّ.

ومن أعجبِ ما كشفَهُ من أسرارِ ٱلمتنبي سِرُّ حبِّه، فقال: إنَّهُ كان يُحبُّ خَوْلَةَ

أختَ ٱلأميرِ سيفِ ٱلدولة، وكتبَ في ذلك خمسَ عَشَرَةَ صفحةً كبيرة، وكأنَّها لم تُرضِهِ فقالَ: إنَّهُ كانَ يُؤمِّلُ أنْ يكتبَ هذا ٱلفصلَ في خمسينَ وجهاً مِنَ ٱلمقتطَف؛ وهذا ٱلبابُ من غرائبِ هذا ٱلبحث، فليسَ من أحدٍ في ٱلدنيا ٱلمكتوبةِ (أي ٱلتاريخ) يعلمُ هذا ٱلسرَّ أو يظنُّه، وَٱلأدلةُ ٱلتي جاءَ بها ٱلمؤلِّفُ تَقِفُ ٱلباحثَ ٱلمدقِّقَ بينَ ٱلإثباتِ وَٱلنفي؛ ومتى لم يستطعِ ٱلمرءُ نفياً ولا إثباتاً في خبرٍ جديدٍ يكشفُهُ ٱلباحثُ ولم يهتدِ إليهِ غيرهُ، فهذا حسبُكَ إعجاباً يُذكر، وهذا حسبُهُ فوزاً يُعدّ.

ولَعَمْري لو كنْتُ أنا في مكانِ ٱلمتنبي من سيفِ ٱلدولة لقلْتُ إنَّ ٱلمؤلِّفَ قد صدق... فهناك موضِعٌ لا بُدَّ أنْ يبحثَ في ٱلقلبِ ٱلشاعرِ ٱلذي وَضَعتْ فيهِ ٱلدنيا حِكمتَها، وطَوَتْ فيهِ ٱلقوَّةُ سِرَّها، وبثَّ فيهِ ٱلجمالُ وحيَه؛ وأصغرُ هذه ٱلثلاثِ أكبرُ مِنَ ٱلملوكِ وَٱلممالك، ولكنَّ ٱلحبيبةَ أكبرُ منها كلِّها...

* * *

محمد

عملُ ٱلأستاذِ توفيقِ ٱلحكيم في تصنيفِ هذا ٱلكتابِ أشبهُ شيءٍ بعملِ «كريستوف كولمب» في ٱلكشفِ عن أمريكا وإظهارِها مِنَ ٱلدنيا لِلدنيا: لم يخلقْ وجودَها، ولكنَّهُ أوجدَها في ٱلتاريخِ ٱلبشري، وذهبَ إليها فقيلَ جاءَ بها إلى ٱلعالم، وكانَتْ معجزتُهُ أنَّهُ رآها بِٱلعينِ ٱلتي في عقلِه، ثُمَّ وضعَ بينَهُ وبينَها ٱلصبرَ وٱلمُعاناةَ وٱلحِذْقَ وَٱلعِلْمَ حتى ٱنتهى إليها حقيقةٌ ماثلة.

قرأَ ٱلأستاذُ كُتُبَ ٱلسيرةِ وما تناولَها من كتبِ ٱلتاريخِ وَٱلطبقاتِ وَٱلحديثِ وَٱلشمائل، بِقريحةٍ غيرِ قريحةِ ٱلمؤرِّخ، وفكرةٍ غيرِ فكرةِ ٱلفقيه، وطريقةٍ غيرِ طريقةِ ٱلمحدِّث، وخيالٍ غيرِ خيالِ ٱلقاصّ، وعقلٍ غيرِ عقل ٱلزندقة، وطبيعةٍ غيرِ طبيعةِ ٱلرأي، وقصْدٍ غيرِ قصدِ ٱلجدَل؛ فخلُصَ لَهُ ٱلفنُّ ٱلجميلُ ٱلذي فيها، إذْ قرأَها بِقريحتِهِ ٱلفنيَّةِ ٱلمشبوبَة، وأمرَّها على إحساسِهِ ٱلشاعرِ ٱلمتوثِّب، وَٱستلَّها[1] مِنَ ٱلتاريخِ بهذه ٱلقريحةِ وهذا ٱلإحساسِ كما هيَ في طبيعتِها ٱلساميةِ مُتَّجِهةً إلى غرضِها ٱلإلهيِّ مُحَقِّقةً عجائبَها ٱلروحانيَّةَ ٱلمُعجزة.

وقد أمدَّتْهُ ٱلسيرةُ بِكلِّ ما أراد، وتطاوعَتْ لَهُ على ما ٱشتهى، ولانَتْ في يدِهِ كما يلينُ ٱلذهبُ في يدِ صائغِه؛ فجاءَ بها من جوهرِها وطبيعتِها ليسَ لَهُ فيها خيالٌ ولا رأيٌ ولا تعبير، وجاءَتْ مع ذلك في تصنيفِهِ حافلةً بأبدع ٱلخيال، وأسمى ٱلرأي، وأبلغِ ٱلعِبارة؛ إذْ أدركَ بنظرتِهِ ٱلفنيَّةِ تلك ٱلأحوالَ ٱلنفسيَّةَ ٱلبليغة، فنظمَها على قانونِها في ٱلحياة، وجمعَ حوادثَها ٱلمدوَّنَةَ فصوَّرها في هيئةِ وقوعِها كما وقَعَت، وٱستخرجَ ٱلقِصَصَ ٱلمُرسَلَةَ فأدارَها حواراً كما جاءَتْ في ألسنةِ أهلِها؛ وبهذه ٱلطريقِ أعادَ ٱلتاريخَ حيّاً يتكلَّمُ وفيهِ ٱلفكرةُ وملائكتُها وشياطينُها، وكشفَ ذلك ٱلجمالَ ٱلروحانيَّ فكانَ هُوَ ٱلفنَّ، وجلا تلك ٱلنفوسَ ٱلعاليةَ فكانَتْ هيَ ٱلفلسفة، وأبقى على تلك ٱلبلاغةِ

---

(١) استهلها: ابتدأها.

فكانَتْ هيَ ٱلبيان. كانَتِ ٱلسيرةُ كَاللؤلؤةِ في ٱلصدفة، فٱستخرجَها فجعلَها ٱللؤلؤةَ وحدَها.

* * *

إنَّ هذا ٱلكتابَ يفرضُ نفسَهُ بهذه ٱلطريقةِ ٱلفنيَّة ٱلبديعة، فليسَ يُمكِنُ أنْ يُقالُ إنَّهُ لا ضرورةَ لِوجودِه؛ إذ هو ٱلضروريُّ مِنَ ٱلسيرةِ في زمنِنا هذا، ولا يُغْتَمَزُ فيهِ أنَّهُ تخريفٌ وتزويرٌ وتلفيق؛ إذْ ليسَ فيهِ حرفٌ من ذلك، ولا يُرَدُّ بأنَّهُ آراءٌ يُخطىءُ ٱلمُخطِىءُ منها ويُصيبُ ٱلمُصِيب؛ إذْ هو على نصِّ ٱلتاريخ كما حفظَتْهُ ٱلأسانيد، ولا يُرمى بِٱلغثاثةِ وَٱلركاكةِ وضعْفِ ٱلنسق؛ إذْ هو فصاحةُ ٱلعربِ ٱلفُصحاءِ ٱلخُلَّص كما رُويَتْ بِألفاظِها؛ فقد حصَّنَهُ ٱلمؤلِّفُ تحصيناً لا يُقتحمُ، وكانَ في عملِهِ مُخلِصاً أتَمَّ ٱلإخلاص، أميناً بأوفى ٱلأمانة، دقيقاً كلَّ ٱلدقَّة، حَذِراً بِغايةِ ٱلحذر.

ومن فوائدِ هذه ٱلطريقةِ أنَّها هيَّأَتِ ٱلسيرةَ لِلترجمةِ إلى ٱللغاتِ ٱلأخرى في شكلٍ من أحسنِ أشكالِها يُرغِمُ هذا ٱلزمنَ على أنْ يقرأَ بِٱلإعجابِ تلك ٱلحكايةَ ٱلمُنفرِدةَ في ٱلتاريخ ٱلإنسانيّ؛ كما أنَّها قرَّبَتْ وسهَّلتْ فجعلتِ ٱلسيرة، في نصِّها ٱلعربيِّ كتاباً مدرسيّاً بَليغاً بلاغةَ ٱلقلبِ وَٱللسان، مُربِّياً لِلروح، مُرهِفاً لِلذوق، مُصحِّحاً لِلمَلَكةِ ٱلبيانيَّة.

وحسبُ ٱلمؤلفِ أنْ يُقالَ بعدَ ٱليوم في تاريخ ٱلأدبِ ٱلعربيّ: إنَّ ٱبنَ هشام كانَ أولَ مَنْ هذَّبَ ٱلسيرةَ تهذيباً تاريخيّاً على نظمِ ٱلتاريخ، وأنَّ توفيقَ ٱلحكيمَ كانَ أولَ مَنْ هذبَها تهذيباً فنيّاً على نسقِ ٱلفنّ.

* * *

ديوانُ ٱلأعشاب

أبو ٱلوفاءِ شاعرٌ مِلْءُ نفسِه، مافي ذلك شَكّ، مذهبُهُ ٱلجمالُ في ٱلمعنى يُبدعُهُ كأنَّما يُزهِرُ بهِ، وَٱلجمالُ في ٱلصورةِ يُخرجُها من بيانِهِ كما تخرجُ ٱلغصونُ وٱلأوراقُ من شجرتِها، ولَهُ طبعٌ وفيهِ رِقَّة، وهو يجري مِنَ ٱلبيانِ على عِرْق، وسليقتُهُ تجعلُهُ ألزمَ لِعمودِ ٱلشعرِ وأقربَ إلى حقيقتِه، حتى إنَّهُ لَيُعدُّ أحدَ ٱلذين يعتصمُ ٱلشعرُ ٱلعربيُّ بهم، وهم قليلٌ في زمنِنا، فإنَّ ٱلشعرَ مُنحدِرٌ في هذا ٱلعصرِ إلى ٱلعاميَّةِ في نسقِهِ ومعانيه، كما ٱنحدرَ ٱلتمثيل، وكما ٱنحدَرَتْ أساليبُ ٱلكتابةِ في بعضِ ٱلصحفِ وٱلمجلات.

ولِلعاميَّةِ وجوهٌ كثيرةٌ تنقلِبُ فيها ٱلحياة، ومرجعُها إلى روحِ ٱلإباحةِ ٱلذي فشا بينَنا ونشأ عليهِ ٱلنشءُ في هذه ٱلمدنيَّةِ ٱلتي تعملُ في ٱلشرقِ غيرَ عملِها في ٱلغرب، فهيَ هناك رخصٌ وعزائم، وهيَ هنا تسمُّحٌ وترخُّص، في ظلٍّ ضعيفٍ مِنَ ٱلعزيمة؛ وإهمالُ ٱلبلاغةِ ٱلعربيةِ ٱلجميلةِ كما هيَ في قوانينِها ليسَ إلَّا مظهراً لِتلكَ ٱلروحِ تُقابلُهُ ٱلمظاهرُ ٱلأخرى، من إهمالِ ٱلخُلُق، وسقوطِ ٱلفضيلة، وتخنُّثِ ٱلرجولةِ، وزيغِ ٱلأنوثة، وفسادِ ٱلعقيدة، وٱضطرابِ ٱلسياسة، إلى ما يجري هذا ٱلمجرى مِمّا هو في بلاغةِ ٱلحياةِ ٱلمبيَّنةِ كٱلمرذولِ وٱلمطَّرِحِ وٱلسفسافِ في بلاغةِ ٱلكلامِ ٱلفصيح؛ كلُّ ذلك في مواضعِهِ، تحلُّلٌ مِنَ ٱلقيودِ وإباحةٌ وتسمحٌ وترخُّص، وكلُّ ذلك عاميَّةٌ بعضُها من بعض، وكلُّ ذلك لحنٌ في ٱلبلاغةِ وٱلخُلُقِ وٱلفضيلةِ وٱلرجولةِ وٱلأنوثةِ وٱلعقيدةِ وٱلسياسة.

وٱلشعرُ ٱليومَ أكثرُهُ (شعرُ ٱلنشر) في ٱلجرائد، على طبيعةِ ٱلجرائدِ لا على طبيعةِ ٱلشعر؛ وهذِهِ إباحةٌ صحافيَّةٌ غمرَتِ ٱلصحف، وأخضعَتْ أذواقَ كُتَّابِها لِقوانينِ ٱلتجارة، فإنَّهم لَينشرونَ بعضَ ٱلقصائدِ كما تُنشر (الإعلانات): لا يكونُ ٱلحكمُ في هذه ولا هذه لِبيانٍ أو تمييزٍ أو منفعة، بلْ على قدرِ ٱلثمنِ أو ما فيهِ معنى ٱلثمن!

ومن ماديةِ هذا ٱلعصرِ وطُغيانِ ٱلعاميَّة عليه، أنَّنا نرى في صدرِ بعضِ ٱلجرائدِ

أحياناً شعراً لا يكونَ في صِناعةِ ٱلشعرِ ولا في طبقاتِ ٱلنظم أضعفُ ولا أبردُ منه، ولا أدلُّ على فسادِ ٱلذوقِ ٱلشعريّ، ولكنّهُ على ذلك ٱلأصلِ ٱلذي أومأنا إليهِ يُعدُّ كلاماً صالحاً لِلنثر، وإنْ يكنْ صالحاً لِلشعر.

وهكذا أصبحَتِ ٱلعاميَّةُ في تمكُّنِها تجعلُ مِنَ ٱلغفلةِ حِذْقاً تجاريّاً، ومِنَ ٱلسقوطِ عُلُوّاً فلسفيّاً، ومِنَ ٱلركاكةِ بلاغةً صحفيَّة، ومتى تغيَّرَ معنى ٱلحِذْق، ودخلَتْهُ ٱلإباحة، ووقعَ فيهِ ٱلتأويل، وأُحيطَ بِٱلتمويهِ وٱلشبه ـ فٱلريبةُ حينئذٍ أختُ ٱلثقة، وٱلعجزُ بابٌ مِنَ ٱلاستطاعة، وٱلضعفُ معنًى مِنَ ٱلتمكين، وكلُّ ما لا يقومُ فيهِ عذرٌ صحيحٌ كانَ هو بِطبيعةِ ٱلتلفيقِ عذرَ نفسِه.

وأكثرُ ما تنشرُهُ ٱلصحفُ مِنَ ٱلشعرِ هو في رأيي صِناعةُ ٱحتطابٍ مِنَ ٱلكلام... وقد بطلَ ٱلتعبُ إلّا تعبَ ٱلتقشُّشِ وٱلحمل، فلم تعدْ هناك صِناعةٌ نفسيَّةٌ في وشي ٱلكلام، ولا طبعٌ موسيقيٌّ في نظمِ ٱللغة، ولا طريقةٌ فكريَّةٌ في سبكِ ٱلمعاني، وبهذه ٱلعاميَّةِ ٱلثقيلةِ أخذَ ٱلشعرُ يزولُ عن نهجِه، ويضلُّ عن سبيلِه، ووقعَ فيهِ ٱلتوعُّرُ ٱلسهل... وٱلاستكراهُ ٱلوحشيُّ في أيامِ ٱلجاهليَّة؛ فما دامَ ٱلكلامُ غريباً، وٱلنظمُ قَلِقاً، وٱلمَأْتى بعيداً، وٱلمعنى مستهلَكاً، وٱلنسجُ لا يستوي، وٱلطريقةُ لا تتشابَه ـ فذلك كلُّهُ مسخٌ وتشويهٌ في ٱلجملةِ وإنِ ٱختلفَتِ ٱلأسبابُ في ٱلتفصيل، وإذا كانَ ٱلمسخُ جاهليّاً بِٱلغريبِ مِنَ ٱلألفاظ، وٱلنافرِ مِنَ ٱللغات، وٱلوحشيِّ مِنَ ٱلمعاني؛ وكانَ عصريّاً بِٱلركيكِ مِنَ ٱلألفاظ، وٱلنازلِ مِنَ ٱلتعبير، وٱلهجينِ مِنَ ٱلأساليب، وٱلسخيفِ مِنَ ٱلمعاني؛ ثُمَّ بِٱلسقطِ وٱلخلْطِ وٱلاضطرابِ وٱلتعقيد ـ فهل بعضُ ذلك إلّا من بعضِه؟ وهلْ هو في ٱلشعرِ ٱلجميلِ إلّا كَسَلْخِ ٱلإنسانِ ٱلذي مسخَهُ ٱللّٰهُ فسلخَهُ من معانٍ كانَ بِها إنساناً، لِيضعَهُ في معانٍ يصيرُ بها قِرْداً أو خِنزيراً ليسَ عليه إلّا ظاهرُ ٱلشبه، وليسَ مَعَهُ إلّا بقيَّةُ ٱلأَصل؟

فٱلقِرديَّةُ ٱلشعريَّة، وٱلخنزيريَّةُ[1] ٱلشعريَّة، مُتحقِّقانِ في كثيرٍ مِنَ ٱلشعرِ ٱلذي يُنشرُ بينَنا؛ ولكنَّ أصحابَ هذا ٱلشعرِ لا يرونَهُما إلّا كمالاً في تطوّرِ ٱلفنِّ وٱلعِلْمِ وَٱلفلسفة؛ وأنت متى ذهبْتَ تحتجُّ لِزيغِ ٱلشعرِ من قِبلِ ٱلفلسفة، وتدفعُ عن ضعفِهِ بِحُجَّةِ ٱلعِلْم، وتعتلُّ لِتصحيحِ فسادِهِ بِٱلفنّ ـ فذلك عينُهُ هو دليلُنا نحن على أنَّ هذا ٱلشعرَ قِرديٌّ خنزيريّ، لم يستوِ في تركيبِه، ولم يأتِ على طبعِه، ولم يخرجْ في

---

(١) الخنزيرية: نسبة إلى الخنزير.

صورتِه؛ وما يكونُ ٱلدليلُ على ٱلشعرِ من رأيِ ناظمِهِ وٱفتتانِهِ بهِ ودِفاعِهِ عنه، ولكنْ من إحساسِ قارئِهِ وٱهتزازِهِ لَهُ وتأثُّرِهِ به.

* * *

وٱلشاعرُ أبو ٱلوفا جيّدُ ٱلطريقة، حسنُ ٱلسَّبك، يقول على فِكْرٍ وقريحة، ويرجعُ إلى طبعٍ وسلِيقَةٍ، ولكنَّ نفسَهُ قلِقةٌ في موضعِهِ ٱلشعريّ مِنَ ٱلحياة؛ وفي رأيي أنَّ ٱلشاعرَ لا يتمُّ بِأَدبِهِ ومواهبِهِ حتى يكونَ تمامُهُ بِمَوْضِعِ نفسِهِ ٱلشعريِّ ٱلذي تضعُهُ ٱلحياةُ فيه؛ وٱلكلامُ يطولُ في صِفةِ هذا ٱلموضِع، ولكنَّهُ في ٱلجملةِ كمنبتِ ٱلزهرة: لا تزكو زكاءَها ولا تبلغُ مبلغَها إلّا في ٱلمكانِ ٱلذي يَصِلُ عناصرَها بِعَناصِرِ ٱلحياةِ وافيةً تامَّة، فلا يقطعُها عن شيءٍ ولا يردُّ شيئاً عنها؛ إذْ هيَ بِما في تركيبِهَا وتهيئتِها إنَّما تَتِمُّ بِمَوْضِعِها ذاك لِتهيئتِهِ وتركيبِهِ، فإنْ كانَتِ ٱلزهرةُ على ما وصفْنَا، وإلّا فما بُدٌّ من مرضِ ٱللون، وهرمِ ٱلعِطْر، وهُزالِ ٱلنُّضرة، وسقمِ ٱلجمال.

ولولا أنَّ ٱلحِكْمةَ وقتِ ٱلأستاذَ أبا ٱلوفا قِسْطَهُ[1] مِنَ ٱلألم. ووهَبَتْهُ نَفْساً متألِّمَةً حصرَتْها في أسبابِ ألمِهَا حَصْراً لا مفرَّ منه ـ لَفقدَتْ زهرتُهُ عنصرَ تلوينِها، وَلَخرَجَ شعرُهُ نظماً حائلاً مضطرِباً منقطِعَ ٱلأسبابِ مِنَ ٱلوحيّ؛ غيرَ أنَّ جِهَةَ ٱلألمِ فيهِ هِيَ جِهةُ ٱلسماءِ إليه. ولو هو تكافأتْ[2] جهاتُهُ ٱلمعنويَّةُ ٱلأُخرى، وأُعطِيَتْ كلُّ جهةٍ حقَّها، وتخلَّصَتْ مِمَّا يُلابِسُها ـ لٱرتفعَ من مرتبةِ ٱلألمِ إلى مرتبةِ ٱلشعورِ بِٱلغامضِ وٱلمُبْهَم، ولكانَ عقلاً مِنَ ٱلعقولِ ٱلكبيرةِ ٱلمولِّدةِ ٱلتي يحيا فيها كلُّ شيءٍ حياةً شعريَّةً ذاتَ حِسّ.

ولكنْ ما دامَت ٱلحياةُ قد وُزِنَتْ لَهُ بِمِقْدار، وطُفِّفَتْ[3] مع ذلك وبُخِسَت[4]، فقد كانَ يحسُنُ بِهِ أنْ يقصُرَ شعرَهُ على أبوابِ ٱلزفرةِ وٱلدمعةِ وٱللَّهفة، لا يعدُوها، ولا يزاولُ مِنَ ٱلمعاني ٱلأخرى ما ضُعفَتْ أداتُهُ مَعَهُ أنْ تتصرَّف، أوِ ٱنقطعَتْ وسيلتُهُ إليهِ أنْ تبلغ؛ ويظهرُ لي أنَّ أبا ٱلوفاءِ يحذو على حذوِ إسماعيلَ باشا صبري، وهو شبيهٌ بِهِ في أنَّهُ لم تفتحْ لَهُ على ٱلكونِ إلّا نافذةٌ واحدة؛ غيرَ أنَّ صبري أقبلَ على نافذتِهِ ونظرَ ما وَسِعَهُ ٱلنظر، أمّا أبو ٱلوفا فيُحاولُ أنْ ينقُبَ في ٱلحائطِ لِيجعلَهُما نافذتين.

---

(١) قسطه: خطّه.

(٢) تكافأت: تساوت.

(٣) طفِّفت: أُخسرت في وزنها.

(٤) بُخست: أنقصت حقّها.

أما إنَّهُ ليسَ مِنَ ٱلشعر أنْ تنزلَ ٱلحَيرَةُ ٱلفلسفيَّةُ عن منزلتِها بينَ ٱليقينِ وٱلعقل، أوِ ٱلمشهودِ وٱلمحجوبِ، أوِ ٱلواقعِ وٱلسبب، أوِ ٱلرسم وٱلمعنى ـ فتنقلبُ حيرةً معاشيةً تَسِمُ ٱلأشكالَ وٱلمعاني بسمتِها ٱلماديةِ ٱلترابية، وتقعُ في ٱلشعر فتقحمُ بينَ شعرِ ٱلقلْبِ ٱلعاشق، وشعرِ ٱلفِكْرِ ٱلمتأمِّل ـ شعرَ ٱلمعدةِ ٱلجائعة، وتضعُ بينَ أشواقِ ٱلكوْنِ شوقَها هيَ إلى ٱلطعامِ وٱلثيابِ وٱلمال. . .

على أنَّهُ كانَ ٱلأمثلُ في ٱلتدبير، وٱلأقربُ إلى طريقةِ ٱلنفسِ ٱلشاعرةِ أنْ يصرفَ أبو الوفا هذا ٱلشعورَ ٱلماديَّ ٱلذي يتلذَّعُ[1] بهِ، فيحولَهُ فيجعلَهُ باباً من حكمةِ ٱلسخْرِ ٱلشعريِّ بِٱلدنيا وأهلِها وحوادثِها، كما صرَفَهُ ٱبنُ ٱلروميّ من قبلُ فأخطأَ في تحويلِه، فجعلَهُ مرَّةً باباً مِنَ ٱلمدحِ وٱلنفاق، ومرَّةً باباً مِنَ ٱلهجاءِ وٱلإقذاع.

ولو بذلَ ٱلشاعرُ أبو ٱلوفا مجهودَهُ في ذلك، وٱتَّهمَ ٱلدنيا ثُمَّ حاكَمَها، ونصَّ لها ٱلقانون، وأجلسَ ٱلقاضِي، وٱفتتحَ ٱلمجلس، ورفَعَها قضيَّةً قضية، ثُمَّ أخذَها حُكْماً حُكْماً، تارةً في نادرةٍ بعدَ نادرة، ومرَّةً في حِكمةٍ إلى حِكمة، وآونةً في سخريةٍ معَ سخرية ـ إذن لٱهتدى هذا ٱلمتألمُ ٱلرقيقُ إلى ٱلجانبِ ٱلآخرِ من سِرِّ ٱلموهبةِ ٱلتي في نفسِه، فأخرجَ مكنونَ هذه ٱلناحيةِ ٱلقويَّةِ منها، فكانَ ولا ريبَ شاعرَ وقتِهِ في هذا ٱلباب، وإمامَ عصرِهِ في هذه ٱلطريقة.

على أنَّ في صفحاتِ ديوانِهِ أشياءَ قليلةً تُومىء إلى هذه ٱلمَلَكَة، ولكنَّها مبثوثةٌ في تضاعيفِ شعرِه، وٱلوجهُ أنْ يكونَ وجهُهُ في تضاعيفِها؛ وإنَّهُ لَيأتي بِأسمى ٱلكلامِ وأبدعِه، حين يعمدُ إلى ذلك ٱلأصلِ ٱلذي نبَّهْنا إليه، فيصرفَ لهفةَ نفسِهِ إلى بعضِ وجوهِها ٱلشعريَّة، كقولِهِ في «حُلُمُ ٱلعذارى»، وهي من بدائِعهِ ومحاسنِ شعرِه:

هـا هُـمـا عـيـنـاكِ تُـغـريـنـي عـلـى شـتَّـى ٱلـظـنـونْ
فـيـهـمـا بـحـرٌ ومـوجٌ وسُـهـولٌ وحُـزونْ
ووضـوحٌ وغـمـوضٌ وٱضـطـرابٌ وسُـكُـونْ
ومـعـانٍ بـيِّـنـاتٌ ومـعـانٍ لا تـبـيـنْ
وتـهـاويـلُ فـنـونٍ مِـنْ رَشـادٍ وجُـنـونْ

---

(١) يتلذَّع: يتألَّم.

وأشِعَّاتٌ حيارى من مُنى أو من حَنِينْ
لَيْتَ شعري أيُّ سِرٍّ خَلْفَ هاتيكَ ٱلجُفونْ
آهِ إنَّ ٱلسِّرَّ أنبا عَيْنُهُ ذانِ ٱلطائرانْ
حينما ما لا على غصنيهِمَا يعْتَنِقانْ...

فهذه أبياتٌ في شعرِ ٱلجمالِ كاٱلمحرابِ ملؤُهُ عابدُه...

النجاحُ وكتابُ سرِّ ٱلنجاح

ما خلقَ ٱللَّهُ ذا عقلٍ من بني آدمَ إلَّا أودعَ في تركيبهِ شيئينِ كاْلمُقدِّمةِ وٱلنتيجة، وأعطاهُ بِهما ٱلقُدرةَ على ٱلوسيلةِ وٱلغاية، «لِيحيا من حيي عن بيِّنةٍ ويهلَكَ من هلكَ عن بيِّنة»، ففي تركيبِ ٱلإنسانِ قوَّةُ ٱلرغبةِ في ٱلنجاحِ وأنْ يتأتَّى إلى سِرِّهِ أو يبلغَ منه أو يُقاربَهُ، وفي هذا ٱلتركيبِ عينِه ما يهتكُ بِهِ هذا ٱلحِجابَ ويُفضي[1] منه إلى هذا ٱلسرِّ ويجمعُ بك عليه، وما أُنكرُ أنَّ ٱلنّجاحَ قَدَرٌ مِنَ ٱلأقدار، ولكنَّهُ قَدَرٌ ذو رائحةٍ قويَّةٍ خاصَّةٍ بِهِ يستروحُها مَنْ تحتَ ٱلسماءِ وهو لا يزالُ في ٱلسماءِ وبينَهُ وبينَ ٱلأرضِ أمدٌ ودهرٌ وأسبابٌ وأقدارٌ كثيرة؛ ولولا أنَّ هذه ٱلخاصيَّةَ فيهِ وفي ٱلإنسانِ منهُ لَمَا توفَّرَتْ رغبةٌ في عملٍ ولا صحَّ نشاطٌ في ٱلرغبةِ ولا توجَّهَ عزمٌ إلى ٱلنشاطِ ولا توثَّقَتْ[2] عُقْدةٌ على ٱلعزم.

غيرَ أنَّ في ٱلإنسانِ كذلك ما يُفسدُ هذه ٱلخاصيَّةَ أو يُضعِفُها أو يُعطِّلُها تعطيلاً، فإذا هي تَضِلُّ ولا تهدي وكانَتْ تهدي ولا تَضِلّ، وإذا هي زائغةٌ عنِ ٱلحقِّ ملتويةٌ عنِ ٱلقصدِ وكانَتْ هِيَ ٱلسبيلَ إلى ٱلحقِّ وهي ٱلدليلَ على ٱلقَصْد؛ وما ينالُ منها شيءٌ إلَّا واحدٌ من ثلاث: ٱلعجْز، وضعْفُ ٱلهِمَّة، وٱضطرابُ ٱلرأي.

فأمَّا ٱلعجْزُ فمنزلةٌ تجعلُ ٱلإنسانَ كٱلنباتِ يرتفِعُ عنِ ٱلأرضِ بِعُودِهِ ولكنَّهُ غائرٌ فيها بأصولِ حياتِهِ، وأمَّا ضعفُ ٱلهِمَّةِ فمنزلةُ ٱلحيوانِ ٱلذي لا هَمَّ لَهُ إلَّا أنْ يُوجَدَ كيفما وُجِدَ وحيثما جاءَ موضعُهُ مِنَ ٱلوجود، إذْ هو يُولدُ ويكْدحُ ويكِدُّ لِيكونَ لَحْماً وعَظْماً وصُوفاً ووبراً وشَعْراً وأثاثاً ومتاعاً، وكأنَّهُ ضرْبٌ آخرُ مِنَ ٱلنباتِ إلَّا أنَّهُ نوعٌ آخرُ مِنَ ٱلمنفعة.

وأمَّا ٱضطرابُ ٱلرأي فمنزِلةٌ بينَ المنزلتينِ ترجعُ إلى هذه مرَّةً وإلى هذه مرَّةً وتقعُ من كلتيهِمَا موقِعَها، وٱلعجزُ وضعفُ ٱلهِمَّةِ وٱضطرابُ ٱلرأْي في لغةِ ٱلعقلِ

(١) يُفضي: يُوصل، يُؤدّي.
(٢) توثقت: ارتبطت وقويت.

معانٍ ثلاثةٌ لِكلمةٍ واحدةٍ هِيَ ٱلخيبة، وما أسرارُ ٱلنجاحِ إلَّا الثلاثةُ ٱلتي تُقابِلُها وهيَ ٱلقوَّةُ وٱلعزيمةُ وٱلثبات.

ولكنَّ في هذا ٱلإنسانِ طفولةً وشباباً، وهما حالتانِ لا بُدَّ منهما، وهما مِنَ ٱلضعفِ وٱلنزقِ بِطبيعتِهما، وفيهما يتثاقلُ ٱلإنسانُ إلى أغراضِه، ويرتدُّ عن صِعابِها، وينخذلُ[1] دون غاياتِها؛ وليسَ يأتي للطفلِ أنْ يُدرِكَ ٱلرجلَ في معانيه، ولا للشابِّ أنْ يبلغَ ٱلحكيمَ في كمالِه؛ فكأنّ هذينِ ليسَ لهما أملٌ في أسبابِ ٱلنجاح، وكأنَّ كليهما لا يُحسِنُ أنْ يَطويَ فؤادَهُ على شيءٍ ولا أنْ يَجمعَ رأيَهُ على أمر، غيرَ أنَّ من حِكمةِ ٱللَّهِ ورحمتِه أنَّهُ أرصدَ من نواميسِهِ ٱلقويَّةِ لِضعفِ ٱلطفولةِ ونزقِ ٱلشبابِ ما هو سِنادٌ يمنع، وموئلٌ[2] يعصم[3]، وقوَّةٌ تُصلِح؛ وهو ناموسُ ٱلقُدوةِ ٱلذي يتمثَّلُ في ٱلأبِ وٱلأمِّ وٱلصاحبِ وٱلعشيرِ وٱلمُعَلِّم وٱلكِتاب؛ لِأَنَّ ٱللَّهَ جَلَّتْ قُدرتُهُ يَبُثُّ ٱلحياةَ كلَّها إنَّما هِيَ مُمارسَةٌ لِفضيلةِ ٱلإيمانِ بِهِ من حيثُ يَدري ٱلإنسانُ أو لا يدري.

و«كتابُ سرِّ ٱلنجاحِ» ٱلذي ترجمَهُ أستاذُنا ٱلعلامةُ ٱلدكتورُ يعقوبُ صروف في سنةِ ١٨٨٠، وظهرَتْ طبعتُهُ ٱلرابعةُ في هذه ٱلأيام، هو ـ وٱللَّهِ ـ في بابِ ٱلقُدوةِ ناموسٌ على حِدة، وما رأيْتُ كِتاباً تلاَءَمَ نسجُهُ وٱستوَتْ أجزاؤُهُ ووُضِعَ آخرُهُ على أولِهِ وٱنصبَّ كلُّهُ إلى ٱلغرضِ ٱلذي كُتِبَ فيهِ وجاءَ مَقْطَعاً واحداً في معناهُ وفائدتِه ـ كهذا ٱلكتابِ ٱلذي يُعَلِّمُ ٱلضعيفَ كيف يقوى، وٱلعاجزَ كيف يعتمِد، وٱلمضطرَب كيف يَثبُت، وٱلمحزونَ كيف يأمَل، وٱليائسَ كيف يثِق، وٱلمُنهزِم في ٱلحياةِ كيف يُقبل، وٱلساقطَ كيف ينتهض؛ ويُعلِّمُك مع ذلك كيف تُريحُ ٱلكدَّ بِٱلكدّ، وكيف تُسقطُ ٱلتعبَ بِٱلتعب، وكيف تمضي عزيمتُكَ وتعتقدُها وتضرِبُ كرةَ ٱلأرضِ بِقدميكَ وإنْ لم تكنْ مَلِكاً ولا قائداً ولا فاتحاً، وإنْ كُنْتَ من صميمِ ٱلسوقة، وإنْ كنْتَ من فقرِكَ وراءَ عتبةٍ واحدة؛ لا أقولُ: إنَّ هذا ٱلكتابَ عِلْم، فإنَّ هذا ٱلقولَ يسقطُ بِهِ دونَ منزلتِهِ ولا يعدو في وصفِهِ أنْ يجعلَهُ مجموعاً مِنَ ٱلورقِ ٱلصقيلِ على طبعٍ جيد، معَ أنَّهُ مجموعٌ مِنَ ٱلأرواحِ وٱلعزائمِ وأعصابِ ٱلقلوب؛ ولكنِّي أقولُ في وصفِهِ ٱلعِلْميِّ إنَّ ٱلمدارسَ تُخرِّجُ مِنَ ٱلكتبِ تلاميذ... وهذا ٱلكتابَ يُخرِّجُ مِنَ ٱلتلاميذِ رِجالاً أقوياءَ أشدَّاءَ معصوبينَ عصيبَ جذوعِ ٱلشجرِ ٱلعاتي، من قوَّةِ ٱلنفسِ

(١) ينخذل: يتراجع وينهزم.

(٢) موئل: ملجأ.

(٣) يعصم: يحمي ويمنع.

وصلابتِها وصِحَّةِ ٱلعزيمةِ ومضائِها، وتصميم ٱلرأْي ونفاذِه؛ ومِمَّا يُعطي من قوَّةِ ٱلصبرِ وٱلثباتِ ومُطاولةِ ٱلتعبِ إلى أبعدِ حدودِ ٱلطاقةِ ٱلإنسانيَّة.

وما تقرؤُهُ حقَّ قراءتِهِ وتستوفيهِ على وجهِهِ مِنَ ٱلتدبيرِ وٱلإمعانِ إلَّا خرجْتَ منه وقد وضعَ في نفسِكَ شيئاً أعظمَ من نفسِكَ كائناً مَنْ كُنْتَ وكيف كُنْتَ، فإنْ تكُنْ طفلاً خرجْتَ رجلاً، وإنْ كنْتُ رجلاً خرجْتَ حكيماً، وإنْ كنْتُ حكيماً ٱستحدث في نفسِك ما يجعلُكَ بٱلحِكْمةِ فوقَ ٱلدنيا وكنْتَ بها في ٱلدنيا.

قالَ ٱلأستاذ ٱلمُترجِمُ في مقدمته: «أشهدُ لِأبناءِ وطني أنَّني لم أنتفعْ بِكتابٍ قدرَ ما ٱنتفعْتُ بهذا ٱلكتاب». وهذه هيَ ٱلكلمةُ ٱلّتي لا يقولُ غيرَها مَنْ يقرأُ «سِرُّ ٱلنجاح»، ولا يُمكنُ أنْ يقولَ غيرَها؛ إذْ هو مبنيٌّ في وضعٍ من فائدةِ ٱلنفسِ وما يُرهِفُ حدَّها ويبتعِثُ مَلَكَاتِها ويستنهِضُ قُواها ويستنفِذُ وسائلَها على ما يُشبِهُ ٱلقواعدَ ٱلّتي لا تُؤدِّي إلَّا إلى نتيجةٍ واحدةٍ من أينَ ٱعتبرْتَها، كٱثنانِ وٱثنانِ أربعة، وثلاثةٍ وواحدٍ أربعة، وأربعةِ وحداتٍ أربعة، وهلمَّ جرًّا. . .

تلك شهادةُ ٱلمُترجِم، أمَّا أنا فأشهدُ لقد عرفْتُ منذُ زمنٍ طالباً في الأزهر، فلمَّا تعرّفَ إليَّ جعلَ يشكو ويتبرَّمُ[1] وينفضُ لي نفسَهُ ويقول: الأزهرُ وعلومُهُ وفنونُهُ ومسائلُهُ ومشاكلُه، وٱلمتونُ وما فيها، وٱلشروحُ وما إليها، وٱلحواشي وما يَرُدُّ ويعترضُ ويُجابُ بِهِ ويُقالُ فيه، وكلُّ كلمةٍ بِساعةٍ مِنَ ٱلعمر، وكلُّ سطرٍ بيوم، وكلُّ جزءٍ بِسنة، وتركْتُ ورائي كذا وكذا فدَّاناً وأقبلْتُ على كذا وكذا عِلْماً، فلا حصَدْتُ من هذه ولا من تلك! قلْت: وما يُمسكُكَ وٱلبابُ مفتوحٌ ولا يسألُكَ ٱلأزهرُ إلى أين ولا تسألُكَ ٱلدنيا إذا خرجْتَ إليها مِنْ أين؟ قال: وٱللَّهِ ما ربطني إلى هذه ٱلأعمدةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سنةً كاملةً على يأْسٍ ومَضَضٍ إلَّا كتابُ «سرُّ ٱلنجاح» وما أمضيْتُ نيّتي مرَّةً على وجهٍ من وجوهِ ٱلعيشِ إلَّا رأيْتُ هذا ٱلكتابَ قد ضربَ وجهَ هذهِ ٱلنيَّةِ فردَّهَا إلى هذا ٱلمكان وألقاها في هذا ٱلمستقرّ، وما همَمْتُ بِتركِ ٱلأزهرِ إلَّا ٱنتصَبَ في وجهي كلُّ ٱلأبطالِ ٱلذين قرأْتَ أخبارَهُم فيهِ وأمسكوني، لا من يدي ولا من رِجلي، ولكنْ مِنِ ٱعتقادي وإيماني وأملي!

قلْت: فَوٱللَّهِ لا يدعُكَ حتى تنجح، وما ربطَ ٱللَّهُ على قلبِكَ بِهذا ٱلكتابِ وثبَّتَ فؤادَكَ بِٱليقينِ ٱلذي فيه إلَّا وقد كتبَ لك ٱلخيرَ كلَّه.

---

(١) يتبرّم: يظهر الضجر والملل.

أبو تمَّام ٱلشاعرُ
تحقيقُ مدّةِ إقامتِه بِمِصْر

لم يَبقَ بُدٌّ من أنْ نبلغَ بِٱلكلامِ في هذا ٱلمعنى إلى مقطعِ ٱلحقِّ فيه، وأنْ ننفذَ بِتحقيقِهِ إلى خاصَّتِه، وننتهيَ من خاصَّتِهِ إلى بُرهانِه؛ فإنَّ علماءَ ٱلأدباءِ قديماً وحديثاً أَلقَوْا خبرَ أبي تمام كلاماً مُرْسَلاً يجري في ٱلروايةِ على طرقِها ٱلمختلِفة، لا على ٱلتاريخِ في وجهِهِ ٱلمتعيّن، ويُؤخَذُ على أنَّه خبرٌ كٱلأخبارِ إنْ صدقَ فقد صدقَ وإنْ كذب فهو على ما يجيء، إذْ لم يكنْ يَعنيهم مِنَ ٱلشاعرِ إلَّا شعرُه، يحملونه عنهُ أو يأخذونَهُ من رواتِهِ أو يجدونَهُ في ديوانِه؛ أمَّا أخبارُ ٱلشاعرِ فهيَ لا تتّصِلُ بِٱلكتابِ ولا بِٱلسُّنة، فتجتمِعُ لهم كما تجتمِعُ ويتناولونَها كما ٱتَّفَقَتْ بِما دخلَها مِنَ ٱلكذبِ وٱلتزيُّدِ وٱلتلفيق، وما يكونُ فيها مِمَّا يُظاهِرُ بَعْضُهُ بعضاً أو ينقضُ بعضُهُ على بعض؛ وٱلمُحققُ منهم مَنْ يروي ٱلصدْقَ وٱلكذِبَ معاً لِيخرجَ مِنَ ٱلتبعة، فلا بُدَّ مِنْ تبعةٍ في أحدِ ٱلنقيضين؛ وليبرأَ بِصِدقِ أحدِهما من كذِبِ أحدِهما كما صنعَ ٱبنُ خِلِّكانَ في سِياقِهِ خبرَ أبي تمَّام وهذا نصُّ عبارتِهِ:

كانَتْ وِلادةُ أبي تمَّام. . . بجاسم وهيَ قريةٌ بينَ دِمَشْقَ وطبرية، ونشأَ بِمِصْر، قيلَ: إنَّهُ كانَ يسقي ٱلماءَ بِٱلجرَّةِ في جامعِ مِصْر، وقيلَ كانَ يخدمُ حائكاً يعملُ عندَهُ بِدِمَشْقَ وكانَ أبوه خمَّاراً بها.

وٱلذين يعرفون طرقَ ٱلروايةِ ومصطلحاتِها يُدركون من هذه ٱلعبارةِ أنَّ ٱبنَ خِلِّكانَ ينتفي من أنْ تكونَ عليهِ تبعةُ أحدِ ٱلخبرين أو كليهما؛ فإنَّ ٱلروايةَ متى ٱفتتحَ ٱلخبرُ (بقيل أو يقال) فقد دلَّ على أنَّ هذا ٱلخبرَ غيرُ مقطوعٍ بهِ؛ إذ تُسمَّى هذه ٱلصيغةَ عندَهم صيغةَ ٱلتمريض، فهيَ لا تُفيدُ ٱلصحَّةَ ولا ٱلجزْمَ بِها؛ وظاهرٌ أنَّ أبا تمَّامٍ لا يُمكنُ أنْ يكونَ قد نشأَ بِمِصْرَ وبِدِمشقَ في وقتٍ معاً.

وٱبنُ خِلِّكانَ قد وَقفَ على ٱلكتابِ ٱلذي عملَهُ ٱلصولي في أخبارِ أبي تمَّامٍ ونقلَ عنه، وهو ٱلمرجعُ في هذا ٱلباب؛ فلا بُدَّ أنْ يكون هذا ٱلكتابُ قد خلا مِنَ

تحقيقِ هذه ٱلرواية، بلْ نحن نُرجِّحُ أنَّهُ قد خلا منها بتَّة، فلم يذكرْ أنَّ نشأةَ أبي تمَّام كانَتْ بِمِصْرٍ؛ لِأَنَّ صاحبَ ٱلأغاني أغفلَها ولم يُشرْ إليها بِحرف، مَعَ أنَّهُ ينقلُ عنِ ٱلصولي نفسِهِ ويقولُ في كتابِهِ (أخبرني ٱلصُّولي)، وكذلك أهملَها صاحبُ «مروجِ ٱلذهب»، وهو ينقلُ أيضاً عنِ ٱلصُّوليّ؛ وهذا يُثبتُ لنا أنَّ ٱلخبرَ لم يكنْ معروفاً يومئذٍ، وإلَّا هو ٱلتاريخُ عندَ أبي ٱلفرجِ وٱلمسعوديِّ إنْ لم يكنْ هو هذا؟

ولكنْ ذُكرَتِ ٱلروايةُ في كتاب الأنباري (طبقاتُ الأدباء)، وٱقتصرَ ناقلُها على أنَّ أبا تمَّام نشأَ بِمِصْر، وأنَّهُ كانَ يسقي ٱلماءَ بها، ولم يذكرْ روايةَ عملِهِ بِدمشق؛ وٱلأنباريُّ متأخرٌ توفي سنةَ ٥٧٧، فهو بعدَ موتِ أبي تمَّام بثلاثةِ قرونٍ ونصف، فلا قِيمةَ لِروايتِه، وشأنُهُ شأنُ غيرِهِ مِنَ ٱلناقلين؛ ونحن نرى أنَّ هذه ٱلروايةَ قد صُنِعَتْ في مِصْرَ نفسِها لِلغضِّ[1] من أبي تمَّام وٱلزرايةِ عليه، وبقِيَتْ مرويَّةً فيها ثُمَّ حُمِلَتْ كما تُحملُ كلُّ روايةٍ لِذاتِها لا لِتحقيقِها، سواءٌ أكانَتْ موجَّهةً على ٱلحقِّ أمْ معدولاً بها عنه؛ ولا أوضعَ في ٱلمهنةِ من سِقايةِ ٱلماءِ في ٱلجامع بِٱلجرة، ولَعَمْري ما ذُكِرَتِ (ٱلجرةُ) هنا عبثاً؛ وٱلغلوُّ في ٱلتحقيرِ هو بعينِهِ ٱلدليلُ على ٱلكذب، فهذهِ ٱلكلمةُ كأثرِ ٱلمجرمِ في جريمتِهِ. . .

وبعدُ، فإنَّا نُقرِّرُ أنَّ هذا ٱلشاعرَ ٱلعظيمَ لم ينشأْ بِمَصْر، وأنَّهُ وُلِدَ وتأدَّبَ في ٱلشام ثُمَّ قَدِمَ إلى مِصْرَ شاعراً ناشئاً يتكسَّبُ بِأدبِهِ كما قَدِمَ عليها غيرُهُ مِنَ ٱلأندلسِ وٱلمغربِ وٱلشام، وٱلعراق، وأنَّه لم يأتِ إلى مِصْرَ إلَّا في ولايةِ عبدِ ٱللَّهِ بْنِ طاهرٍ ٱلأديبِ ٱلشاعرِ ٱلقائدَ ٱلعظيم، وقد جُعِلَتْ لَهُ وِلايةُ مِصْرَ وٱلشام وٱلجزيرةِ في سنة ٢١٠ أو ٢١١ على خِلافٍ بينَ ٱلمؤرِّخين، وكانَتْ سِنُّ أبي تمَّام يومئذٍ بين ٢١ و٢٣ سنة؛ وقد كانَ ٱبْنُ طاهرٍ مغناطيساً لِلشعراءِ في كلِّ مكانٍ ينزلُه، حتى قالَ فيه بعضُهُم وعزمَ على ٱلهجرةِ إلى مِصْر:

يـقـولُ رِجَـالٌ إنَّ مِـصْـرَ بـعـيـدةٌ	ومـا بَـعُـدَتْ مـصـرُ وفـيـهـا ٱبْـنُ طاهـرِ
وأبـعـدُ مـن مِـصْـرَ رجـالٌ نـراهُـمُ	بِـحـضْـرتِـنـا مـعـروفُـهُـمْ غـيـرُ ظـاهـرِ
عنِ ٱلخيرِ موتى ما تُبالي أزُرتَهُم	عـلـى طـمـعٍ أم زُرْتَ أهـلَ ٱلـمـقـابـرِ

وقد قصدهُ أبو تمَّام إلى مِصْر، كما قصدَهُ بعدَ ذلك إلى خراسانَ في سنةِ ٢٢٠، وهيَ ٱلسنةُ ٱلتي وَضَعَ فيها أبو تمَّامٍ أو في ٱلتي تليها كتابَ «ٱلحماسة» كما حققْنَاهُ ولا محلَّ لِذكرِهِ هنا.

---

(١) للغضّ: للانتقاص.

ونحن نسوقُ أدلَّتَنا على صِحَّةِ ما ذهبْنَا إليهِ في نفي أنْ يكونَ أبو تمَّام قد نشأَ بِمِصْرَ أو جاءَنا طفلاً. أو تكونُ منها طبيعتُهُ في ٱلشعر، أو يكونُ لها أثرٌ في عبقريَّته:

١ ـ المُجمعُ عليهِ بِلا خِلافٍ أنَّ ٱلشاعرَ وُلِدَ في ٱلشام، وما دامَ كذا لقد قالَتِ ٱلطبيعةُ كلمتَها في أصلِ نبوغِهِ وعبقريتِهِ، فإنَّ ٱلأديبَ يُولَدُ ولا يُصنعُ كما يقولُ ٱلإنجليز؛ وكلُّ ٱلعلماءِ يعرفونه بٱلطائيِّ! ولا يطعنُ في نسبِهِ إلَّا مَنْ لا يُحقِّق، وهو نفسُهُ يُباهي بِطائيَّتِه، وذلك كٱلشرح على كلمةِ ٱلطبيعةِ في أسبابِ نبوغِهِ ٱلوراثيَّة؛ وقد تنقَّلَ ٱلرجلُ بينَ مِصْرَ وٱلشامِ وٱلعِراقِ وخُراسانَ وأرمينيا وغيرِها، فما بلدٌ أولى من بلدٍ بِأنْ يكونَ مثارَ عبقريتِهِ.

٢ ـ إنَّ ٱلشاعرَ إنَّما يتكسَّبُ من شعرِهِ يمدحُ مَنْ يهتزُّ لَهُ أو يُعطي عليه، ولم يمدحْ أبو تمَّام أحداً من أهلِ مِصْر؛ فإنْ كان مدحَ فيها عبدَ ٱللَّهِ بنَ طاهرٍ فإنَّما إليهِ قصدَ ولهُ جاءَ؛ وٱبنُ طاهرٍ ليسَ مِصْريًّا، وقد جاءَ إلى مِصْرَ ورجعَ منها قبلَ أنْ يحولَ عليهِ ٱلحوْل، فلو أنَّ نشأةَ هذا ٱلشاعرِ كانَتْ بِمِصْرَ وتأدبَهُ كانَ فيها لأصبْنا لَهُ مَدْحاً كثيراً في أعيانِها وعلمائِها؛ إذْ هو متى قالَ ٱلشعرَ لا يتكسَّبُ إلَّا منه؛ وفي ديوانِ ٱلشاعرِ هجاءٌ لٱبنِ ٱلجلودي نظمَهُ في مِصْر، ولكنَّ ٱبنَ ٱلجلودي ليسَ مِصْريًّا، بلْ هو قائدٌ من قوَّادِ ٱلمأمون، ولَّاهُ محاربةَ ٱلزطِّ سنة ٢٠٥، ثُمَّ أقدمَ بعد ذلك مصر، ثُمَّ وَلِيَ عليها في سنةِ ٢١٤؛ فكلُّ ٱلمِصْريَّةِ في شعر أبي تمَّام هيَ في هجائِهِ لِلشاعرِ ٱلمصريِّ يوسفَ ٱلسراجِ، ولعلَّها في بعضِ مقاطيعَ أخرى مِنَ ٱلغزلِ أوِ ٱلوصف.

٣ ـ ولدَ أبو تمَّام في سنةِ ١٨٨ أو ١٩٠، ومِنَ ٱلثابتِ أنَّه كانَ بِمِصْرَ في سنةِ ٢١٤، حينَ نظمَ قصيدَتَه ٱلداليةَ وٱلنونيَّةَ في رثاءِ عمير بْنِ ٱلوليد ـ وعميرٌ هذا ليس مِصْريًّا، بلْ هو مِن خُراسان، وكانَ بِمِصْرَ عاملاً لأبي إسحاقَ ٱلمعتصم ٱبنِ ٱلرشيد ـ فلو كانَ أبو تمَّام قد جاءَ إلى مِصْرَ طِفلاً كما يُقالُ لَكانَتْ مُدَّةُ قولِهِ ٱلشعرَ فيها لا تَقِلُّ عن عشرِ سنوَات، معَ أنَّ كلَّ ما نظمَهُ وهو فيها لا يبلغُ عشرَ قصائد؛ وهذا ديوانُهُ بين أيدينا وإليهِ وحدَهُ ٱلمرجِعُ في ٱلدلالةِ على صاحبِه.

٤ ـ روى ٱلمرزبانيُّ في «ٱلموشح» عنِ ٱلعباسِ بْنِ خالدٍ ٱلبرمكيِّ قال: أولَ ما نبغ (أي قال الشعر) أبو تمَّام الطائيُّ أتاني بِدِمشقَ يمدحُ محمدَ بْنَ ٱلجهم فكلمْتُهُ فيهِ فأذِنَ له؛ فدخلَ عليهِ وأنشَدَه، ثُمَّ خرجَ فأمرَ لَهُ بِدراهمَ يسيرة، ثُمَّ قال: إنْ عاشَ هذا ليخرجَنَّ شاعراً.

فهذا نصٌّ على أنَّ ٱلشاعرَ لم يكنْ يومئذٍ إلَّا في ٱبتداءِ ٱلشعر، ولم يكنْ قد خرجَ شاعراً بعْدُ وكانَ شعرُهُ مِنَ ٱلطبقةِ ٱلتي يُثابُ عليها (بدراهمَ يسيرة). وأبو تمَّام بعدَ ذلك هو نفسُهُ ٱلذي نثرَ عليهِ عبدُ ٱلله بْنَ طاهرٍ ألفَ دينار فترفَعَ أنْ يمسَّهَا وتركَ ٱلخَدَمَ ينتهبونها، وكانَ ذلك سبباً في تغيُّرِ ٱبنِ طاهرٍ عليه.

٥ ـ نقلَ ٱبنُ خِلِّكانَ في ترجمةِ ديكِ ٱلجنِّ ٱلشاعرِ ٱلحمصيِّ ٱلمشهور، عن عبدِ ٱللَّهِ بْنِ محمدِ بْنِ عبدِ ٱلملكِ ٱلزبيديّ قال: كنْتُ جالساً عندَ ديكِ ٱلجِنّ، «يعني بِحِمْص»، فدخلَ عليهِ حدثٌ فأنشدَهُ شِعْراً عملَه، فأخرجَ ديكُ ٱلجِنِّ من تحتِ مصلَّاهُ دُرْجاً كبيراً فيهِ كثيرٌ من شعرِهِ، فسلَّمَهُ إليهِ وقال: يا فتى تكسَّبْ بهذا وٱستعنِ بهِ على قولِك. فلمَّا خرجَ سألْتُهُ عنه فقال: هذا فتَى من أهلِ جاسم، يَذكرُ أنَّهُ من طيىء، يُكنى أبا تمَّام، وٱسمهُ حبيبُ بْنُ أوس، وفيهِ أدبٌ وذكاءٌ ولَهُ قريحةٌ وطبع. فهذا نصٌّ آخرُ على أنَّ أبا تمَّام كانَ يومئذٍ حَدَثا ـ أي غلاماً ـ وكانَ لا يزالُ يطلبُ ٱلأدب، وقد أعانَهُ أستاذُه بِنُسخٍ من قصائدِهِ يتخرَّجُ بِها ويحذو عليها؛ فهو قد نشأَ في ٱلشامِ وتأدَّبَ فيها.

٦ ـ نظمَ أبو تمَّام قصيدَتهُ ٱللاميَّةَ «أصب بحميا كأسها مقتل العذل» يصف تقتيرَ ٱلرزقِ عليهِ بِمِصْرَ وخيبةَ أملِهِ ٱلذي أملَهُ مِنَ ٱلمال، وفي هذه ٱلقصيدةِ يحنُّ إلى ٱلشامِ ويستسقي لها ويذكرُ أرضَ ٱلبقاعينِ وقرى ٱلجولانِ ٱلتي نشأَ فيها: ولا يحنُّ ٱلشاعرُ لِأَرضٍ إلَّا إذا كانَ فيها حبُّهُ أو شبابُهُ وأدبُه، أمَّا ٱلطفولةُ فمنسيةٌ بِآثارِها، إذ لا آثارَ لَها في ٱلنفسِ متى شبَّ ٱلمرءُ إلَّا بعيداً بعيداً، وإنَّما ٱلحنينُ لِمَا تتعلَّقَ بِهِ ٱلغريزةُ ٱلمميِّزة.

٧ ـ في هذه ٱلقصيدةِ يقولُ أبو تمَّام يُخاطِبُ أحبابَه:

عدَتْني عنكم مُكْرَهاً غُرْبَةُ ٱلنَّوى ... لَهَا وطَرٌ[1] في أنْ تمرَّ ولا تُحْلي

وٱلنوى في لغةِ ٱلشاعرِ هي رحيلُهُ لِلتكسُّبِ بِشعرِه؛ ولمَّا رجعَ عوفُ بْنُ مُحَلِّم ٱلشيبانيُّ إلى وطنِهِ بعدَ وفادتِهِ على عبدِ ٱللَّهِ بْنِ طاهرٍ في خُراسانَ؛ سُئلَ عن حالِهِ فقال: رجعْتُ من عندِ عبدِ ٱللَّهِ بِٱلغنى (وٱلراحةِ مِنَ ٱلنوى)؛ ويُؤيِّدُهُ قولُ أبي تمَّام في قصيدتِهِ تلك:

نَأيْتُ[2] فَلَا مالاً حَوَيْتُ ولم أقُمْ ... فأُمَتَّعَ، إذْ فُجِعْتُ بِٱلمالِ وٱلأهْلِ

---

(١) وطر: غاية ونيّة.

(٢) نأيت: بعدت.

يعني أنَّهُ ٱغتربَ مُكْرَهاً يطلبُ ٱلكَسْبَ لا غير، ولا كَسْبَ لِلشاعرِ إلَّا من شعرِهِ، فهو بنصِّ كلامِهِ عن نفسِهِ قدمَ إلى مِصْرَ شاعراً يتكسَّبُ ويتعرَّضُ لِلغِنى كما يصنعُ غيرُه.

٨ ـ في هذه ٱلقصيدةِ ٱللاميَّةِ يُقدِّمُ لنا أبو تمَّام ـ رحمهُ ٱللَّهُ ـ دليلاً يأكلُ ٱلأدلَّة، كأنَّما أُلهِمَ من وحي ٱلغيبِ أنَّنا سنحتاجُ إلى هذا ٱلدليلِ يوماً لِندفعَ بِهِ عنه؛ فهو يَحِنُّ إلى حبيبٍ لهُ في ٱلشام، ويقولُ: إنَّ غربةَ ٱلنوى ٱلتي وصفَها:

أَتَتْ بَعْدَ هَجْرِ ٱبْنِ حبيبٍ فحرَّكَتْ   صَبَابةَ ما أبقى ٱلصدودَ مِنَ ٱلوَصْلِ
أخمسةُ أحوالٍ مَضَتْ لمغيبِهِ؟   وشهرانِ بلْ يومانِ تُكْلٌ مِنَ ٱلثُّكلِ!

يعني أنَّه قالَ هذا ٱلشعرَ وقد مضى على إقامتِهِ في مِصْرَ خمسُ سنوات، وكانَ قد جاءَ مِنَ ٱلشام عاشِقاً ذلك ٱلعِشْقَ ٱلذي فيهِ (ٱلصدودَ وٱلوصل)، وٱلطفلُ لا يُحبُّ مثلَ هذا ٱلحُبِّ ولا يحِنُّ ذلك ٱلحنين؛ فإذا كانَ ٱلشاعرُ قَدِمَ إلى مِصْرَ في سنةِ ٢١٠، كما رجَّحْنَاه، وسنُّهُ بين ٢١ و٢٣ سنة، فيكونُ قد نظمَ هذه ٱلقصيدةَ في سنةِ ٢١٥، وعمرُهُ يومئذٍ بين ٢٦ و٢٨ سنة؛ فلو أنَّ أبا تمَّام جاءَ مِنَ ٱلشام طفلاً صغيراً فكيفَ لِلطفلِ أنْ يقولَ مثلَ هذا ٱلشعرِ بعدَ خمسِ سنوات؟ وما هجرُ ٱلحبيبِ «وصبابةُ ما أبقى ٱلصدودُ مِنَ ٱلوصل»؟

٩ ـ مدحَ شاعرُنا محمدَ بْنَ حسانٍ ٱلضبيَّ بِقصيدةٍ نونيَّةٍ يذكرُ فيها تنُقّلَهُ في ٱلبلادِ فقالَ فيها:

بٱلشَّام أهلي، وبغدادَ ٱلهوى، وأنا   بٱلرقمتين، وبٱلفُسْطاطِ[1] إخواني
وما أظنُّ ٱلنوى[2] ترضى بِما صنَعَتْ   حتى تُشافِهَ بي أقصى خراسانِ!

فأنت ترى أنَّهُ جعلَ أهلَهُ بٱلشام، وجعلَ أصدقاءَهُ بِمِصْر؛ فلو أنَّهُ كانَ قد نشأَ بِها لَجعلَ بها أهلَه؛ إذْ لا ينشأُ إلا مَعَ أبيهِ وأُمّه؛ وٱلبيتُ ٱلثاني دليلٌ منه هو على أنَّهُ لم ينزِلْ بِمِصْرَ مُقيماً ولا مُتوطِّناً، بلْ مُتنقِّلاً كما نزلَ بِغيرِها.

١٠ ـ تقولُ كُتبُ ٱلأدبِ في مدارسِ ٱلحكومة: إنَّ أبا تمَّام نُقِلَ إلى مِصْرَ صغيراً فنشأ بها (وقد بيَّنا فسادَ ذلك)، ثُمَّ خرجَ إلى مقرِّ ٱلخلافةِ فَمدحَ ٱلمعتصم؛ وهذا غيرُ صحيح؛ فإنَّ أبا تمَّامٍ خرجَ من مِصْرَ قبلَ أنْ يدخلَها ٱلمأمونُ في سنةِ

(١) الفسطاط: مصر القديمة.   (٢) النوى: البعد.

٢١٦، حين جاءَها وقتلَ بها عبدوساً ٱلفَهْرِيّ؛ فلو كانَ ٱلشاعرُ يومئذٍ لَمَدحَ ٱلمأمونَ وذكرَ هذه ٱلواقعة؛ وٱلمعتصمُ وليَ ٱلخلافةَ سنة ٢١٨، وديوانُ أبي تمَّام يُثبِتُ أنَّهُ في سنةِ ٢١٧، كانَ بِٱلعراق، وقد مدحَ ٱلمأمونَ بِقصيدتِهِ ٱلميميَّة، وذكرَ في مدحِهِ وقعةَ ٱلروم، وهذه كانَتْ في تلك ٱلسنة.

يُخلَصُ من كلِّ ما تقدَّمَ أنَّ أبا تمَّام وُلِدَ في ٱلشام وتأدَّبَ فيها، وقَدِمَ إلى مِصْرَ كبيراً يتكسَّبُ بِٱلشعر، فأقامَ بها بينَ خَمسِ سنينَ وستٍّ، ولم يجدْ لَهُ عيشاً بها بعدَ قتل عميرِ بْنِ ٱلوليدِ ٱلذي قُتلَ في سنةِ ٢١٤؛ فإنَّهُ كانَ يعيشُ في كنفِه، وقد صرَّحَ في قصيدتِهِ ٱلنونيَّةِ ٱلتي رثاهُ بها أنَّهُ يأمُلُ من بعدِهِ في ٱبنِه محمد.

فقدومُ ٱلشاعرِ إلى مِصْرَ كانَ في سنةِ ٢١٠ أو حواليها، وخروجُهُ منها كانَ في سنةِ ٢١٥ أو حواليها، وٱللَّهُ أعلم.

القديمُ وَٱلجديد

أقولُ لِلأستاذِ ٱلفاضلِ ٱلدكتور طه حسين «في رفقٍ ولين» وفي عجلةٍ أيضاً: إنِّي في هذه ٱلأيام ضنينٌ[1] بِما أملكُ من وقتي أشدَّ الضنّ، أحسبُ ٱلسماءَ تتفجَّرُ من يومي في ساعةٍ كَٱلفجَر، فلا يصرفُني عن تلك الساعةِ شيءٌ ولا يصرفُها عنِّي شيء؛ إذْ بين يدي كتابٌ في ٱلرسائلِ أعملُ فيهِ وَأستعينُ ٱللّهَ على ٱلفراغ منه في وقتٍ معيَّن، وقد أظلُّ أو كاد؛ فلا يرينَّ ٱلأستاذُ أنِّي أستطيرُ هذه ٱلمرةَ كَٱلطيرةِ ٱلأولى، فإنَّ جناحي في فضاءٍ آخر، وإنَّ هذا ٱلكتابَ ٱلذي أُعالجُهُ لا يُجشمني[2] عرقاً مِنَ ٱلقِرْبةِ كما قالوا قديماً، بلْ لعلَّهُ في ألمِهِ أشبهُ «بعمليَّة» تشريحٍ في ٱلقلْب، وستذهبُ ٱلدقائقُ ٱلتي أكتبُ فيها هذه ٱلكلمةَ مأسوفاً عليها، لأنَّها ذاهبةٌ بِصفحتينِ من كتابي.

وأمَّا بعدُ، فلا أرى مِنَ ٱلإنصافِ أنْ يعمدَ ٱلدكتورُ إلى جُمَلٍ يقتضبُهُنَّ[3] من مقالي في مجلةِ ٱلهلالِ ثُمَّ يهدفُها للردّ، وكانَ عسى أنْ يدفَعَ عنها شيءٌ مِمَّا قبلَها أو ما بعدها أو يشدُّ منها بعضَ جِهاتِها أو يأتي بِها في سِياقٍ يُبينُ عن معناها.

وزعمَ ٱلأستاذُ أنَّهُ لا يفهمُ من كلامي هذه ٱلجملةَ «وأنت تعلم أنَّ ٱلذوق، ٱلأدبيَّ في شيءٍ إنمَّا هو فهمُه، وأنَّ ٱلحكم على شيءٍ إنَّما هو أثرُ ٱلذوقِ فيه، وأنَّ ٱلنقدَ إنَّما هو ٱلذوقُ وَٱلفهمُ جميعاً...»، ثُمَّ دارَ بِهذه ٱلكلماتِ دورةَ ٱلعاصفةِ وجعلها مسألةً كمسألةِ ٱلدورِ وَٱلتسلسلِ ٱلمشهورة، بلْ جعلَها من قبيلِ «قصةٌ وقضية»... فتراه يقول: ذوقٌ هو ٱلفهم، وفهمٌ هو ٱلذوق، وفهمٌ ليسَ بِٱلذوق، وذوقٌ ليسَ بِٱلفهم، وهلُمَّ صاعداً ونازلا؛ وضربَ لنا مثلا بِٱلموسيقى فقال: «ما نظنُّ أنَّ ٱلذين يذوقونَ ٱلموسيقى ويُطربونَ لها يفهمونَها جميعاً». وأنا أفسرُ كلامي بهذا ٱلمثلِ نفسِه، أقتصرُ عليهِ ولا أعدوه.

---

(١) ضنين: بخيل.

(٢) يجشمني: يرهقني ويتعبني.

(٣) يقتضبهن: يقتطعهن.

نأتي ٱلآنَ بِأستاذٍ قد برعَ في ٱلموسيقى وخالطَتْ أعصابَهُ ولحمَهُ ودمَه، وندفعُ إليهِ قِطعةً ملحَّنةً ونقولُ لَه: اِسمعْ وٱفهمْ وٱحكمْ وٱنتقد؛ يسمعُها مرةً بعقلِهِ أو لِعقلِهِ يتبينُ ما يكونُ فيها صواباً وما يكونُ خطأً، ثُمَّ ما يعلو عنِ ٱلصوابِ مِنَ ٱلإجادةِ وَٱلإتقان، وما ينحطُّ عنِ ٱلخطأ مِنَ ٱلإساءةِ وَٱلتخليط؛ فهذا هو ٱلفهم.

ويسمعُها مرَّةً ثانيةً بِحِسِّهِ أو لِحِسِّهِ، فيرى أثرَ ما فهم، ويُديرُها في ذوقِهِ لِيعرفَ كيف موقعُها مِنَ ٱلغرَضِ ٱلذي وُضِعَتْ لَهُ، فإنَّها لم تُوضَعْ لِتكونَ أصواتاً، بلْ لِتخلُقَ مِنَ ٱلأصواتِ شيئاً؛ فهذا هو ٱلذوق، وهو كما تراهُ بعدَ ٱلفهْمِ، وناشىءٌ عنه. ومثلُ ٱلأستاذِ طه حسين لا يخفى عليهِ أنَّ مَنْ يقول: إنَّ ٱلذوقَ في شيءٍ إنَّما هو فهمُه، أو إنَّما هو عن فهمِه، أو إنَّما ينشأُ عن فهمِه، فَٱلعِبارةُ في بابِ ٱلمجازِ واحدةٌ لا تختلف.

ثُمَّ إنَّ أستاذَ ٱلموسيقى وقد سمعَ ٱلقطعةَ مرَّتين، أو مرَّةً كمرتينِ إنْ بلغَ أنْ يكونَ لَهُ في كلِّ أُذُنٍ واحدةٍ أُذنان، يستفتي ذَوْقَهُ ٱلفنيَّ ويَحكمُ لِلقطعةِ أم عليها؛ فهذا هو أثرُ ٱلذوق.

الآنَ قد حكمَ ٱلأستاذُ وٱنتقدَ وجزمَ بِرأْيه، فنُدِبَ لَهُ فلانٌ يقول: أخطأْتَ وأسأْتَ وجَهِلْتَ وغَفَلْت، أو تعصَّبْتَ وحططْتَ في هوى صاحبِ ٱللحن؛ فمِنْ أين جاءَ هذا ٱلخِلافُ وكيف وقعَ هذا ٱلقوْل؟ بلْ كيف ساغَ لِلثاني أنْ يُجهِّلَ ٱلأولَ ويرى غيرَ رأْيِهِ ويحكُمَ غيرَ حُكمِه، إلَّا إذا كانَ قد فهِمَ غيرَ فهمِهِ فأنشأَ لَهُ ٱلفهمُ ذَوْقاً وأحدثَ لَهُ ٱلذوقُ حُكْماً وجاءَتْ من هذه ٱلمقدماتِ تلك ٱلنتيجةُ ٱلتي نُسمِّيها ٱلنقد، وما هيَ في ٱلحقيقةِ إلَّا ٱلذوقُ وٱلفَهْمُ جميعاً. فٱلذين يَذُوقونَ ٱلموسيقى ويُطربون لَهَا ولا يفهمونها فقد فهموها على مِقدارِ ما ٱستقرَّ في نفوسِهِم من أساليبِ ٱلتطريبِ وما فيهم مِنَ ٱلمُطاوعةِ لِهذهِ ٱلعاطفة؛ أو لا تراهُم يقولونَ في أمثالِ هؤلاءِ: إنَّ لهم آذاناً موسيقية؟ فهذه الأُذُنُ هيَ ٱلفهمُ بعينِه، لِأنَّها حاسَّةٌ ٱجتمَعَتْ من مِرانٍ طويل، وقد تقومُ في بعضِ ٱلناسِ على جهلِهِ بِٱلموسيقى مَقامَ عِلْمٍ برأْسِه.

ويقولُ ٱلأستاذُ طه: إنَّهُ قد يقرأُ كلامي ويفهمُهُ ولا يذوقُه، ولكنَّ عدمَ ٱلذوقِ هنا هُوَ ٱلذوق؛ وليت شعري ما معنى قولِ ٱلمتنبي: «ومَنْ يَكُ ذا فمٍ مرٍ.....».

ولو كانَ ٱلأستاذُ وأمثالُهُ هم في هذا ٱلقِياسِ ٱلمترِ وَٱلكيلومتر، لَوَجَبَ ألَّا أجدَ مَنْ يذوقُ كلامي ويعجبُ بِهِ ويُغَالي فيهِ ويكونُ ذنباً من ذُنُوبي عندَ ٱللَّهِ بِإسرافِهِ في

ٱلمُغالاة، وأنا واجدٌ بِكُلِّ واحدٍ مِثْلِ ٱلأستاذِ طه عشرةً ومائةً من غيرِه، ولو خرج هو إلى ٱلعالَم لَرأى وسَمِع، وفيهم مَنْ هم أعلى منه كعباً وأمدّ عُنُقاً وأضخمُ هامةً وأبدع بديعاً وأبلغُ وأزكى وأعلمُ إلى عددٍ من هذه الواوات.

وعجِبْتُ للدكتورِ يريدُ أنْ لا يفهَم من عبارتي كما يقولُ إلّا أنَّ «الذوقَ هو نفسُ ٱلفهمِ، فَٱللفظانِ يدلّانِ على معنًى واحد، وإذن وإذن وإذن. . .».

فهلْ يرى إذا قلْتُ لَهُ: رأيْتُ ٱلقمرَ وفلانَةَ ليلْةَ كذا فكانَتْ إنَّما هيَ ٱلقمر ـ أنّي أقصدُ بِهِما معنًى واحداً فيقولُ لها: «وإذن» فليسا شيئينِ مختلفين وإنّما هو شيءٌ واحد، وإذن فكيفَ صارَ لها وجهٌ في ٱلسماءِ ووجهٌ في ٱلأرضِ وبقيَتْ مَعَ ذلك ٱمرأةً مِنَ ٱلإنس؛ وإذن فهذا كلامٌ لا يُفهم. . .

قالَ بعضُهُم إنَّ «لو» تفتحُ عملَ ٱلشيطان، يُريدُ أنّها أداةُ ٱلتمنّي، وَٱلمذهبُ ٱلجديدُ سيضم «إذن» إلى «لو»، ثُمَّ ما هي ٱلكلمةُ ٱلثالثةُ يا ترى؟

أنا ـ مَعَ إعجابي بٱلدكتورِ ٱلفاضل ـ أرى أنَّهُ مُسْتهترٌ بأشياء، وأنَّ من خُلُقِهِ أنْ ما لا يرضى عنه وما لا يفهمُهُ «ليسا شيئين مختلفين». فإذا لم يكنْ مِنَ ٱلفهم بُدٌّ قالَ: إنَّهُ لا يقتنع، فإذا ضايقْتَهُ وضيقْتَ عليهِ لم يبقَ إلّا ما يقولُ ٱلنحاةُ في «أيّ» ٱلتي حيرَهم إعرابُها وبناؤُها: أيْ كذا خُلِقَتْ. . .

وأنا وأمثالي إنّما نحرِصُ أشدَّ ٱلحِرْصِ على هذه ٱللغةِ لِأنّها أساسُ ٱلأُمَّةِ ٱلإسلاميّةِ فلا نرضى إلّا أنْ يكون هذا ٱلأساسُ ثابتاً متيناً لا يُزعزعُهُ شيءٌ ولا يثلمُهُ شيءٌ ولا يُضعِفُهُ شيء؛ وَٱلدكتورُ وأمثالُهُ لا يُبالون أنْ تكونَ هذه ٱلأُمَّةُ كبيوتِ أمريكا ٱلمتحركة. . .

لسْتُ أُنكِرُ ٱلتجديدِ، بلْ لعلَّ ٱلدكتورَ يذكرُ مُناقشتي إيّاهُ في (ٱلجريدة) وإصرارَهُ يومئذٍ أنْ ليسَ لِأحدٍ أنْ يُدخِلَ في ٱللغة كلمة، وأنَّ قولَ ٱلناسِ تنزُّهٌ ومُتنزهٌ ونُزهةٌ إلخ كلُّها مِنَ ٱلكلامِ ٱلعاميّ، وتعلُّقُهُ بنصِّ ٱبنِ سيدَهْ في ذلك، وٱستخراجي لَهُ نصَّ ٱبنِ قُتيبةَ وكلَاماً كثيراً مِنِ ٱستعمالِ ٱلعلماء، ثُمَّ قولَهُ أحسنْت، ولكنْ لو جِئْتَني بِٱللفظةِ في كلامِ ٱلمبردِ وَٱلجاحظِ وفلانٍ وفلانٍ ما ٱقتنعْت.

إنَّما أُنكِرُ شيئاً واحداً، وهو أنْ يُقالَ مذهبٌ قديمٌ ومذهبٌ جديد؛ فقد وسَّعَ ٱللّهُ على ٱلناسِ فيما عَلِموا وفيما جَهِلوا، ولكنَّ أصحابَنا يُريدون ألّا نكتبُ إلّا نمطاً بعينِهِ، ولا نذهبَ إلّا مذهباً بِعينِه؛ لِأنَّ كلَّ ذلك هُوَ ٱلجديد؛ فأيُّهُما خيرٌ لنا ولهم

وللذينَ سيُخرجونَ تاريخَهُم من قبورِنا: أنْ نعتدَّ ٱللغةَ وَٱلأدبَ كلَّ ما ٱجتمعَ من قديم وجديدٍ ونُحكِمَ هذه ٱللغة ونحفظها وندفعَ عنها ونجعلَ تجديدَها كتجددِ ٱلحسناءِ في أثوابِها وفي ألوانِها دونَ تشويهٍ ولا مسخ ولا مسِ ٱلجسم ٱلجميل، أمْ نقول: هذه ٱلشفةُ وهذا ٱلأنفُ وهذا ٱلموضِعُ ٱلممتلِىءُ ٱلخدِلُ وهذا ٱلموضِعُ ٱلهضيمُ ٱلناحِلُ وتعالَ يا دكتور هاتِ ٱلمِبْضعَ وَٱلمِشرطَ وَٱلمِقصَّ وَٱلمِنشارَ وَٱلإبرةَ وَٱلخيطَ وإذن. . . . . ؟

لقد أذكرُ أنّي رأيْتُ في بعضِ مقالاتِ ٱلأستاذِ طه حسين أو في بعضِ ما يُقرِّظُ[1] بِهِ ٱلكتبَ أنَّهُ قال: إنَّ ٱلقديمَ قد أثبتَ دائماً أنَّهُ أقوى وأمتنُ وأصحّ؛ فهلْ رحلَ عن هذا ٱلرأي أمْ ظَهرَ لَهُ في ٱلجديدِ ما هو أقوى وأمتنُ وأصحّ؟ ثُمَّ يا أيُّها ٱلملأُ أفتوني ما هو هذا ٱلجديد؟ أهو ذاك ٱلخيالُ ٱلشاردُ ٱلمجنون، أمْ تلك ٱلشهواتُ ٱلمتوثِّبةُ ٱلمتلهِّفة، أمْ ذلك ٱلأسلوبُ ٱلفجُّ ٱلمستوخِم، أم ٱلعاميَّةُ ٱلسقيمةُ ٱلملحونة؛ أمْ هو في ٱلحقيقةِ بينَ رغبةٍ في ٱلنبوغِ قبلَ أنْ تَتِمَّ ٱلأداةُ وتستحكمَ ٱلطريقة، كما هو شأنُ فريقٍ مِنَ ٱلكُتَّاب، فيختصرون ٱلطريقَ بكلمةٍ واحدةٍ هيَ ٱلمذهبُ ٱلجديدُ ـ وبين رغبةٍ في ٱلتعصُبِ لِلآدابِ ٱلأجنبيَّةِ كما هو شأنُ فريقٍ آخر ـ وبينَ رغبةٍ في ٱلحطِّ من قيمةِ بعضِ ٱلناسِ ورميهم بِٱلجهْلِ وَٱلسخْفِ وأنَّهُ لا قِيمةَ لِما يجيئونَ به، كلُّ ذلك في تعبيرٍ عِلْميٍّ يصِحُّ أنْ يكونَ نظريَّةً عِلْمِيَّة. . . وقبلَهُم قالَها ٱلعربُ في ٱلقرآنِ ٱلكريم: «لو نشاءُ لقلْنا مثلَ هذا، إنْ هذا إلَّا أساطيرُ ٱلأولين»! فقدْ شاءُوا فلم يقولوا؛ ولو أنَّ ٱلمذهبَ ٱلجديدَ فسَّرَ ٱلقرآنَ يوماً. . . لَقالَ في معنى أساطيرِ ٱلأولينَ إنَّهم أرادوا ٱلمذهبَ ٱلقديم. . .

ويقولُ ٱلدكتورُ طه: إنَّ هناكَ قوماً ينصرونَ ٱلمذهبَ ٱلجديدَ وليسَ لهم مِنَ ٱللغاتِ ٱلأجنبيَّةِ وآدابِها حظّ، وحظهُم مِنَ ٱللغةِ ٱلعربيةِ وآدابِها موفور؛ ثُمَّ طلبَ رأيي في هؤلاءِ وما أصلُ مذهبِهِمُ ٱلجديد؛ فأقول: إنِّي أعرفُ بعضَهُم، وأعرفُ أنَّ أدمغتَهُمْ لا يُشبِهُهَا شيءٌ إلَّا جلودُ بعضِ ٱلكتبِ ٱلتي ليسَ فيها إلَّا مَتْنٌ وشرحٌ وحاشية: جلْدٌ ملفوفٌ على ورق، وورقٌ ينطوي على قَواعدَ محفوظة، وهم أفقرُ ٱلناسِ إلى ٱلرأْي؛ وهذه عِلَّةُ حُبِّهم لِلأساليبِ ٱلجديدةِ ٱلقائمةِ على ٱلترجمةِ ونقلِ ٱلآراءِ مِنَ ٱلغربِ إلى ٱلشرق، وبِٱلمعنى ٱلصريحِ ٱلمكشوف: مِنَ ٱلأدمغةِ ٱلمَمْلوءَةِ

---

(١) يقرّظ: يثني ويمدح ما يراه جيّداً.

إلى ٱلأدمغةِ ٱلفارِغة، وفيهم بعضُ أذكياء، ولكنَّ ذكاءَهُم في حواسِّهِم، فإنْ لم يكُنْ هذا فَلْيقولوا هم لماذا؟

ولو أنَّكَ سألْتَ ٱلعنكبوت: ما هيَ ٱلظبيةُ ٱلحوراءُ ٱلعيناءُ ٱلتي تطمعينَ فيها وتنصبينَ لها كلَّ هذه ٱلأشراكِ وٱلحبائل؟ لَقالَتْ لك: مَهْلاً حتى تقعَ فتراها! فإذا وقَعَتْ رأيْتَها ثَمَّةَ ورأيْتَها ذبابة. . .

ولكن ماذا يقولُ ٱلدكتورُ في ٱلأستاذِ ٱلإمامِ ٱلكبيرِ ٱلشيخ محمد عبده؟ أكانَ يدعو إلى مذهبٍ جديدٍ في ٱللغةِ وٱلأدبِ ويفتتِنُ بِٱلرواياتِ ٱلغراميَّةِ وبِأُسلوبِ «إميل زولا» في روايتِهِ ٱلمعروفةِ وبمثلِ رواية (ألا جَرسُون).

إنْ كانَ ٱلناسُ عندَ ٱلدكتورِ من بعضِ ٱلحججِ فإنَّ الشيخَ وحدَهُ بِأُمَّةٍ كاملةٍ مِمَّنْ يعنيهِم.

وأختتمُ هذه ٱلكلمةَ بِٱلشكرِ لِلأستاذِ طه حسينَ وٱلثناءِ عليه، ثُمَّ إنِّي مسترسلٌ في عملي، وهذا عذري إليه.

* * *

المرأةُ وَٱلميراث

قرأتُ في «ٱلمقطم» كلمةَ ٱلكاتب ٱلمعروفِ سلامةَ موسى فيما يزعَمُهُ إجاباتٍ مختصرةً عنِ ٱعتراضاتٍ تهافَتَ[1] بِها رأيُهُ في ٱلدعوةِ إلى مُساواةِ ٱلمرأةِ بِٱلرجلِ في ٱلمِيراث، وهو ينصحُ لِمَنْ يُريدُ أَنْ يُناقشَهُ أَنْ يقرأَ نصَّ مُحاضرتِهِ في «ٱلسياسةِ ٱلأسبوعيَّة».

وقد رجَعتُ إلى نصِّ ٱلمُحاضرةِ فإذا ٱلكاتبُ هو هو في ضعفِ تفكيرِهِ وسُوءِ تقليدِهِ، يكادُ لا يُميّزُ بينَ ٱلرأيِ ٱلصحيحِ ٱلثابتِ في نفسِهِ لِأَنَّهُ قائمٌ على حِكمتِهِ ٱلباعثةِ عليه، وبينَ ٱلرأيِ ٱلمتغيِّرِ في كلِّ نفسٍ بِحسبِها لِأَنَّهُ قائمٌ على منزعٍ أو غفلةٍ أو مرضٍ في ٱلنفس.

ترى ٱلكاتبَ لا يدعو إِلَّا إلى تقليدِ أوربا، وتكادُ عِباراتُهُ في ذلك لا تُحصى ويقولُ: إنَّ «ٱلمُصْلِحَ ٱلمثمرَ عندَنا هو مُقلِّدٌ لِأوربا لا غشَّ في تقليده»، فليسَ إِلَّا أوربا وتقليدُها وإذا لم يكنْ في أوربا قرآنٌ ولا إِسلامٌ فالإصلاحُ ٱلمثمرُ عندَ ٱلكاتَبِ أَلّا يبقى من ذلك شيء. . .

«مُقلِّدُ أوربا لا غِشَّ في تقليدِهِ»، وما هو ٱلغِشُّ في ٱلتقليد؟ هو أنْ تستعملَ رأيَكَ وفكرَكَ فتَدعُ وتأخذُ على بيِّنةٍ في ٱلحالين، وأنْ تأبى أنْ تُحملَ على طبيعتِكَ ٱلشرقيَّةِ ما لا تَصلُحُ عليهِ ولا تقومُ بِه؛ وإذا ٱنقلَبَتْ أوربا شيوعيَّةً أو إباحيَّةً وجبَ أَلَّا نغشَّ في ٱلتقليد. . . وإذا كَانَتِ ٱلشمسُ لا تطلعُ ستةَ أشهرٍ في بعضِ جِهاتِ أوربا وتطلعُ في مِصْرَ كلَّ يومٍ وجبَ أنْ يكونَ ٱلمِصْريُّ أعمى ستةَ أشهر. . .

وَٱلظاهرُ أنَّ ٱلكَاتَبُ يقولُ بِٱلتقَيدِ لِأَنَّهُ طبيعيٌّ فيه. . . ورأيُهُ في ٱلميراثِ أنّما هو ترجمة. . . لِعمل مصطفى كمال؛ وإِنْ كانَ مصطفى كمال قد أصلحَ ٱلتركَ في سنواتٍ كما يقولون: فبرهانُ ٱلتاريخ لا يخضعُ لِلْمشنقةِ ولا لمحاكم ٱلاستقلالِ ولا يأتي إِلَّا في وقتِهِ ٱلذي سيأتي فيه، وسيرى ٱلناسُ يومئذٍ ما يكونُ وهْماً مِمَّا يكونُ حقيقة.

---

(١) تهافت: تهاوى ضعفاً.

ويردُ ٱلكاتبُ على رأي ٱلأستاذِ ٱلأخلاقيّ رئيس تحرير «المقطَّم» في خشيتِهِ أنْ يقتصِرَ ٱلأصلاحُ على ٱلقشورِ دونَ ٱللُّباب، فيقولُ: إنَّهُ «معتقدٌ أنَّ ٱلأُمَّةَ ٱلتي تُشرِّعُ في ٱتخاذِ ٱلمدنيَّة، ٱلحديثةِ يجبُ أنْ تبدأ بِٱلقشور... لِأنَّها أسهلُ عليها مِنَ ٱللُّبابِ بلْ هيَ لا تستطيعُ غيرَ ذلك». أكذلك بدأَتِ ٱليابان؟. وهلْ كلُّ ٱلطباعِ كطبيعةِ بعضِ ٱلناس، تستطيعُ أنْ تعتلِفَ[1] قشورَ ٱلمدنيَّة... وتنصرفَ إلى مداقِها وسفاسفِها؟

ولا ريبَ أنَّ حضرتَهُ لا يفهمُ ٱلدينَ ٱلإسلاميَّ لِأنَّهُ ليسَ من أهلِه، فهو يُقرُّنا على ذلك، وهو بذلك يُقرُّنا على أنَهُ مُتطَفِّلٌ في ٱقتراحِه؛ وإنَّ ٱلذي يقرأُ في مُحاضرتِهِ قولَه: «إنَّ ٱلطبقة ٱلغنيَّة في ٱلأُمَّةِ هيَ ٱلتي تُقرِّرُ ديانةَ ٱلأُمَّة...» يستيقنُ أنَّهُ لا يفهمُ ديناً مِنَ ٱلأديان، وأنَّهُ قصيرُ ٱلنظرِ في أمورِ ٱلاجتماعِ وأبوابِ ٱلسياسة؛ وأنَّ يمينَهُ وشِمالَهُ وأمامَهُ ووراءَهُ إنْ هيَ إلَّا جِهاتُ ٱلزمامِ ٱلذي ينقادُ فيه؛ فلا شخصيَّةَ له، وإنَّما يُتابعُ وينقادُ لِلآراءِ ٱلتي يُترجِمُ منها بِلا نقْدٍ ولا تمييز.

إنَّ مِيراثَ ٱلبنتِ في ٱلشريعةِ ٱلإسلاميَّةِ لم يُقْصَدْ لِذاتِه، بلْ هو مُرتَّبٌ على نِظامِ ٱلزواجِ فيها، وهو كعمليَّةِ ٱلطرحِ بعدَ عمليَّةِ ٱلجمعِ لإخراجِ نتيجةٍ صحيحةٍ مِنَ ٱلعملينِ معاً، فإذا وَجَبَ لِلْمرأةِ أنْ تأخذَ من ناحيةٍ وَجَبَ عليها أنْ تدعَ من ناحيةٍ تُقابلُها؛ وهذا ٱلدينُ يقومُ في أساسِهِ على تربيةٍ أخلاقيَّةٍ عاليةٍ ينشيءُ بها طِباعاً ويعدِلُ بها طِباعاً أخرى، كما بيَّناهُ في مقالِنا ٱلمنشورِ في «مقتطَف» هذا ٱلشهر - فهو يربأُ بِٱلرجلِ أنْ يطمعَ في مالِ ٱلمرأةِ أو يكونَ عالةً عليها؛ فمِنْ ثَمَّ أوجبَ عليهِ أنْ يمهرَها وأنْ يُنفقَ عليها وعلى أولادِها، وأنْ يدعَ لها رأيَها وعملَها في أموالِها، لا تُحَدُّ إرادتُها بِعملِهِ ولا بأطماعِهِ ولا بِأهوائِهِ؛ وكلُّ ذلك لا يُقصدُ منه إلَّا أنْ ينشأَ ٱلرجلُ عاملاً كاسِباً معتمِداً على نفسِهِ مشاركاً في محيطِهِ ٱلذي يعيشُ فيه، قويًّا في أمانتِه، منزَّهاً في مطامِعِه، متهيِّئاً لِمعالي ٱلأمور، فإنَّ ٱلأخلاقَ كما هو مقرَّرٌ يدعو بعضُها إلى بعض، ويُعينُ شيءٌ منها على شيءٍ يُماثلُهُ، ويدفعُ قويُّها ضعيفَها، ويأنفُ عاليها من سافلِها؛ وقد قُلْنا مِراراً إنَّهُ لا يجوزُ لِمُتكلِّمٍ أنْ يتكلَّمَ في حِكمةِ ٱلدينِ ٱلإسلاميِّ إلا إذا كانَ قويَّ ٱلخُلُق، فإنْ مَنْ لا يكونُ ٱلشيءُ في طبعِهِ لا يفهمُهُ إلَّا فهمَ جَدَلٍ لا فهمَ ٱقتناع.

لِلْمرأةِ حقٌّ واجبٌ في مالِ زوجِها، وليسَ لِلرجلِ مثلُ هذا ٱلحقِّ في مالِ

---

(١) تعتلف: تجعله علفاً تأكله.

زوجِهِ؛ وَٱلإسلامُ يحثُّ على ٱلزواج، بلْ يفرضُه؛ فهو بِهذا يُضيفُ إلى ٱلمرأةِ رجلاً ويُعطيها به حقًّا جديداً، فإنْ هيَ ساوَتْ أخاها في ٱلمِيراثِ معَ هذه ٱلمِيزةِ ٱلتي ٱنفردَتْ بها ٱنعدَمتِ ٱلمُساواةُ في ٱلحقيقة، فتزيدُ وينقص؛ إذْ لها حقُّ ٱلمِيراثِ وحقُّ ٱلنفقةِ وليسَ لَهُ إلَّا مثلُ حَقِّها في ٱلميراثِ إذا تساويا.

فإنْ قلْتَ كما يقولُ سلامةُ موسى: إنَّ في ٱلحقِّ أنْ تُنفِقَ ٱلمرأةُ على ٱلرجلِ وأنْ تدفَعَ لَهُ ٱلمهرَ ثُمَّ تُساويَهُ في ٱلمِيراث، قلْنا: إذا تقرَّرَ هذا وأصبحَ أصلاً يُعملُ عليهِ بطلَ زواجُ كلِّ ٱلفقيراتِ وهُنَّ سوادُ ٱلنِّسوة، إذْ لا يَملِكْنَ ما يمهُرْنَ بِهِ ولا ما يُنفِقْنَ منه؛ وهذا ما يتحاماهُ ٱلإسلامُ لِأَنَّ فيهِ فسادَ ٱلاجتماعِ وضَياعَ ٱلجِنسينِ جميعاً؛ وهو مُفْضٍ[1] بطبيعتِهِ ٱلقاهرةِ إلى جعلِ ٱلزواجِ لِلساعةِ ولِليوم ولِلوقتِ ٱلمحدود... ولِإيجادِ لُقطاءِ ٱلشوارع، بَدَلاً من أنْ يكونَ ٱلزواجُ لِلْعمرِ ولِلواجبِ ولِتربيةِ ٱلرجلِ على ٱحتمالِ ٱلمسؤوليَّةِ ٱلاجتماعيَّةِ بِإيجادِ ٱلأسرةِ وإنشائِها وَٱلقِيامِ عليها وَٱلسعيِ في مَصَالِحها.

من هنا وجبَ أنْ ينعكِسَ ٱلقِياسُ إذا أُريدَ أنْ تستقيمَ ٱلنتيجةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي هيَ في ٱلغايةِ لا من حقِّ ٱلرجلِ ولا من حَقِّ ٱلمرأةِ بلْ مِنْ حَقِّ ٱلأُمَّة؛ وما نِساءُ ٱلشوارعِ ونِساءُ ٱلمعاملِ في أوربا إلَّا من نتائجِ ذلك ٱلنظامِ ٱلذي جاءَ مقلوباً، فهُنَّ غلطاتُ ٱلبيوتِ ٱلمتخرِّبةِ وَٱلمسؤوليَّةِ ٱلمتهدِّمة، وهُنَّ ٱلواجباتُ ٱلتي ألقاها ٱلرجالُ عن أنفسِهِم فوقعَتْ حيثُ وقعَت!

وإذا ٱنزاحَتْ مسؤوليَّةُ ٱلمرأةِ عنِ ٱلرجل ٱنزاحَتْ عنه مسؤوليَّةُ ٱلنسْل، فأصبحَ لِنفسِهِ لا لِأُمَّتِه؛ ولو عمَّ هذا ٱلمَسْخُ ٱلاجتماعَ وَأسرعَ فيهِ ٱلهرمُ وأتى عليهِ ٱلضعف، وأصبحَتِ ٱلحكوماتُ هيَ ٱلتي تستولِدُ ٱلناسَ على ٱلطريقةِ ٱلتي تُستنتجُ بِها ٱلبهائم، وقد بدأَ بعضُ كُتَّابِ أُوربا يدعونَ حكوماتِهِم إلى هذا ٱلذي ٱبتلُوا بِهِ ولا يدرون سبَبَهُ وما سببُهُ إلَّا ما بيَّنا آنفاً.

ثُمَّ إنَّ هناكَ حكمةً سامية، وهيَ أَنَّ ٱلمرأةَ لا تدعُ نِصْفَ حَقِّها في ٱلمِيراثِ لِأخيها يفضلُها بِه ـ بعدَ ٱلأصلِ ٱلذي نَبَّهْنا إليهِ ـ إلَّا لِتُعينَ بهذا ٱلعمل في ٱلبِناءِ ٱلاجتماعيِّ؛ إذْ تتركُ ما تتركُهُ على أنَّهُ لِامرأةٍ أخرى، هيَ زوجُ أخيها؛ فتكونُ قد أعانَتْ أخَاها على ٱلقِيامِ بِواجبِهِ لِلأُمَّة، وأسدَتْ لِلأُمَّةِ عملاً آخرَ أسمى منه بتيسيرِ زواجِ ٱمرأةٍ مِنَ ٱلنساء.

---

(١) مفضٍ: مؤادٍ.

فأنت ترى أَنَّ مسألة ٱلمِيراثِ هذه متغلْغِلةٌ في مسائلَ كثيرةٍ لا منفردةٌ بِنفسها، وأنَّها أحكمُ ٱلحِكْمةِ إذا أُريدَ بِٱلرجلِ رجلَ أُمَّتِهِ وبِٱلمرأةِ ٱمرأةَ أُمَّتِها، فأمَّا إذا أُريدَ رجلُ نفسِهِ وٱمرأةُ نفسِها، وتقرَّرَ أنَّ ٱلاجتماعَ في نَفسِهِ حماقة، وأنَّ ٱلحكومةَ خُرافة، وأنَّ ٱلأُمَّةَ ضلالة، فحينئذٍ لا تنقلِبُ آيَةُ ٱلمِيراثِ وحدَها بلْ تنقلِبُ ٱلحقيقة.

ومِمَّا نعجبُ لَهُ أَنَّ سلامةَ موسى يتكلَّمُ في مُحاضرتِهِ كأنَّ كلَّ ٱلوالدينَ ذوو مالٍ وعَقار، فنِصفُ ٱلأُمَّةِ على هذا محرومٌ نصفَ حقِّهِ وكأنَّهُ لا يعرفُ أنَّ ٱلسوادَ ٱلأعظَمَ مِنَ ٱلناسِ لا يتركُ ما يُورَث، لا على ٱلربعِ ولا على ٱلنصف؛ وأنَّ كثيراً مِمَنْ يموتون عن مِيراثٍ لا يحيا مِيراثُهُم إلَّا أياماً من بعدِهِم، ثُمَّ يذهبُ في ٱلديون، إذْ لا تَركَة معَ دين، وكثيرون لا يُسمِنُ ميراثُهُم ولا يُغني، فلم تبقَ إلَّا فتاتٌ معيَّنةٌ من كلِّ أمةٍ لا يجوزُ أنْ تنقلِبَ من أجلِها تلك ٱلحِكْمةُ ٱلاجتماعيَّةُ ٱلتي هي من حظِّ ٱلأُمومةِ كلِّها لِقيامِ بعضِ ٱلأخلاقِ عليها كما بَسطْناه.

ومِمَّا تشمئزُ لَهُ ٱلنفوسُ ٱلكريمةُ قولُ ٱلمُترجِمِ في مُحاضرته: فلو كانَتِ ٱلفتياتُ يرِثْنَ مثلَ إخواتهنَّ ٱلذكور، لكانَ (في ثروتِهِنَّ) إغراءٌ لِلشبانِ على ٱلزواج...

إنَّ ٱلدينَ الإسلاميَّ لا يعرفُ مثلَ هذا ٱلإسفافِ[1] في ٱلخُلُقِ ولا يُقرُّه، بلْ هو يهدمُهُ هَدْماً ويُوجِبُ على كلِّ رجلٍ أنْ يحملَ قِسطَهُ[2] مِنَ ٱلمسؤوليَّةِ ما دامَ مُطيقاً إنْ كَرِهَ أو رَضِي، ولَعَمْرِي، إنَّ تلك ٱلكلمةَ وحدَها من كاتبِها لَهِيَ أدلُّ مِنِ ٱسمِ ٱلمحلِّ على بِضاعةِ ٱلمحل...

* * *

(١) الإسفاف: الإنحطاط.

(٢) قسطه: حظه.

كلمةٌ مؤمنةٌ
في ردِّ كلمةٍ كافرة

تلقيْتُ كتاباً هذه نسختُه:

أكتبُ إليك متعجِّلاً بعدَ أنْ قرأْت «كلمةً كافرة» في «كوكبِ ٱلشرقِ» الصادرِ مساءَ ٱلجمعةِ ٢٧ من أكتوبر؛ كتبَها متصدِّرٌ من نوعِ قولِهِم؛ حبذا ٱلإمارةُ ولو على ٱلحِجارة . . . وسمَّى نفسَهُ «السيد»، فإِنْ صدقَ فيما كتبَ صدقَ في هذه ٱلتسمية.

طَعَنَ ٱلقرآنَ وكفرَ بِفصاحتِه، وفضَّلَ على آيةٍ من كلام ٱللَّهِ جملةً من أوضاعِ ٱلعرب، فعقدَ فصلَهُ بِعنوان «ٱلعَثَرات» على ذلك ٱلتفضيلِ، كأَنَّ ٱلآيةَ عثرةٌ من عثراتِ ٱلكتابِ يُصحِّحُها ويقولُ فيها قولَهُ في غلطِ ٱلجرائدِ وَٱلناشئينَ في ٱلكتابة؛ وبرقعَ وجهَهَ وجَبُنَ أنْ يستعْلِن، فأعلنَ بزندقتِهِ أنَّهُ حديثٌ في ٱلضلالة.

غلى ٱلدمُ في رأسي حينَ رأيْتُ ٱلكاتبَ يلجُّ في تفضيلِ قولِ ٱلعربِ: «القتلُ أنفى لِلقتل» على قولِ ٱلله ـ تعالى ـ في كتابِهِ ٱلحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، فذكرْتُ هذه ٱلآيةَ ٱلقائلة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ وهذه الآية: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ ثُمَّ هَمَمْتُ بِٱلكتابةِ فٱعترضني ذكرُك، فألقيْتُ ٱلقلَمَ لِأتناولَهُ بعدَ ذلك وأكتبَ بِهِ إليك.

ففي عنقِكَ أمانةُ ٱلمسلمينَ جميعاً لتكتبَنَّ في ٱلرَّدِّ على هذه ٱلكلمةِ ٱلكافرةِ لِإظهارِ وجهِ ٱلإعجازِ في ٱلآيةِ ٱلكريمة، وأينَ يَكونُ موقعُ ٱلكلمةِ ٱلجاهليَّةِ منها؛ فإِنَّ هذه زندقةٌ إنْ تُركَتْ تأخذُ مأخذَها في ٱلناس؛ جعلَتِ ٱلبرَّ فاجراً، وزادَتِ ٱلفاجرَ فجوراً: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

وَٱعلمْ أنَّهُ لا عذرَ لك. أقولُها مخلصاً، يُمليها علي ٱلحقُّ ٱلذي أعلمُ إيمانَكَ بِه، وتفانيك في إقرارِهِ وَٱلمدافعةِ عنهُ وَٱلذودِ عن آياتهِ؛ ثُمَّ أعلمُ أنَّك مَلجأٌ يَعتصِمُ

بِهِ ٱلمؤمنون حين تُناوِشُهُم[1] ذئابُ ٱلزندقةِ ٱلأدبيةِ ٱلتي جعلَتْ همَّها أنْ تَلِغَ ولوغَها في ٱلبيانِ ٱلقرآنيّ.

ولسْتُ أزيدُك، فإنَّ موقفي هذا موقفُ ٱلمُطالبِ بِحقّهِ وحقِّ أصحابِهِ مِنَ ٱلمؤمنينَ وأذكرُ حديثَ رسولِ ٱللَّهِ ﷺ: «مَنْ سُئِلَ عِلْماً عَلِمَهُ فكتمَهُ جاءَ يومَ ٱلقِيامةِ مُلْجَماً[2] بِلِجامٍ من نار!» أو كما قال...

وٱلسلامُ عليكم ورحمةُ ٱلله.

م. م. ش

* * *

قرأتُ هذا ٱلكتابَ فَٱقشعرَّ جِسْمِي لِوعيدِ ٱلنبيِّ صلى ٱللَّهُ عليهِ وسلَّم، وجعلْتُ أُردِدُ ٱلحديثَ ٱلشريفَ أستكثِرُ منه وأملأُ نفسي بِمعانيه، وإنَّهُ لَيكثرُ في كلِّ مرَّة، فإذا هو أبلغُ تهكُّم بِٱلعلماءِ ٱلمتجاهلين، وَٱلجهلاءِ ٱلمُتعالمين؛ وإذا هو يُؤخَذُ من ظاهرِهِ أنَّ ٱلعالِمَ ٱلذي يكتمُ عِلْمَهُ ٱلنافعَ عنِ ٱلناسِ يجيءُ يومَ ٱلقِيامةِ مُلْجماً، ويُؤخذُ من باطنِهِ أنَّ ٱلجاهلَ ٱلذي يبثُّ جهلَهُ ٱلضارَّ في ٱلناسِ يجيءُ يومَ ٱلقيامةِ مُلْجماً مُبَرْذَعاً... أي: فهذا وهذا كلاهما من حميرِ جهنَّم!

وَٱلتمسْتُ عددَ «ٱلكوكب» الذي فيهِ ٱلمقالُ وقرأتُهُ، ولم أكُنْ أصَدِّقُ أنَّ في ٱلعالم أديباً مميَّزاً يضعُ نفسَهُ هذا ٱلموضِعَ مِنَ ٱلتصفحِ على كلامِ ٱللَّهِ وأساءَ ٱلأدبَ في وضعِ آيةٍ منه بينَ عثراتِ[3] ٱلكتاب، فضلاً عن أنْ يسموَ لتفضيلِ كلمةٍ من كلامِ ٱلعربِ على الآية، فضلاً عن أنْ يلجَّ في هذا ٱلتفضيل، فضلاً عن أنْ يتهوَّسَ[4] في هذه ٱللجاجة؛ ولكنَّ هذا قد كان، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بِٱلله!

ولَعَمْري وعمرِ أبيكِ ـ أيُّها ٱلقارىءُ ـ، لو أنَّ كاتباً ذهبَ فأكلَ فخلط فتضلَّعَ فنامَ فٱستثقلَ فحَلُمَ... أنَّهُ يتكلَّمُ في تفضيلِ كلمةِ ٱلعربِ على تلك ٱلآية، وٱجتهدَ جُهدَهُ وهو نائمٌ ذاهبُ ٱلوعي فلم يألُ تخريفاً وٱستطالة، وأخذَ عقلُهُ ٱلباطنُ يكنسُ دِماغَهُ ويُخرجُ منه (الزبالةَ ٱلعقليَّة) لِيلقيَهَا في طريقِ ٱلنسيانِ أو في طريقِ ٱلشيطان ـ لَمَا جاءَ في شأْوِهِ بأسخفَ ولا أبردَ من مقالةِ «السيد» فسواءٌ أوقعَ هذا ٱلتفضيلُ من جهةِ ٱلهذيانِ وَٱلتخريفِ كما فعلَ كاتِبُ ٱلنوم، أمْ وقعَ من جِهةِ ٱلخلْطِ وَٱلخبْطِ ما فعلَ كاتبُ ٱلكوكب ـ فهذا من هذا، طِباقُ سخافةٍ بِسخافة...

---

(1) تناوشهم: تناقشهم وتجادلهم وتصاولهم.
(2) ملجماً: مربوطاً بلجمام في رأسه كالدابة.
(3) عثرات: أخطاء.
(4) يتهوّس: يتجنن.

نعمْ إنَّ مقالةَ «ٱلكوكب» أفضلُ من مقالةِ ٱلكاتبِ ٱلحالِم. . . ولكنَّ قليلَ ٱلزيت في ٱلزجاجةِ ٱلتي أُهديَتْ لِجُحا لا يُعَدُّ زيتاً ما دامَ هذا ٱلقليلُ يطفُو على ملءِ ٱلزجاجةِ من. . . مِنَ ٱلبول!

ولقد تنبأَ ٱلقاضي ٱلباقلانيُّ قبلَ مئاتِ ٱلسنينَ بِمقالةِ ٱلكوكبِ هذه فأسفلَها ٱلردَّ بِقولِه:

«فإنِ ٱشتبَهَ على مُتأدِّبٍ أو مُتشاعرٍ أو ناشيءٍ أو مُرمَّدٍ فصاحةُ ٱلقرآنِ وموقِعُ بَلاغتِهِ وعجيبُ بَراعتِهِ فما عليك منه، إنَّما يُخبِرُ عن نفسِه، ويدلُّ على عجزِه، ويُبينُ عن جهلِه، ويُصرِّحُ بِسخافةِ فهمِهِ وركاكةِ عقلِه» ما علينا. . .

يقول كاتبُ ٱلكوكبِ بِٱلنَّص:

قالَتِ ٱلعربُ قديماً في معنى ٱلقصاص: (القتلُ أنفي للقتل)، ثُمَّ أقبلَ ٱلقرآنُ ٱلكريمُ على آثارِ ٱلعرب (هكذا) فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقد مضتْ سُنَّةُ ٱلعلماءِ من أساطينِ ٱلبيانِ أنْ يعقدوا ٱلمُوازنةَ بينَ مقالةِ ٱلعربِ هذه وبينَ ٱلآيةِ ٱلحكيمةِ أيتُهما أشبهُ بِٱلفصاحةِ (هكذا)، ثُمَّ يَخلُصون منها إلى تقديم ٱلآيةِ وٱلبيانِ ٱلقرآني. . . ثُمَّ قال: من رأي كاتبِ هذه ٱلكلمةِ تقديمُ ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ على الآيةِ ٱلغرّاء، (اللهم غفراً) على ثلجِ ٱلصدْرِ بإعجازِ ٱلقرآنِ (كلمة لِلوقاية مِنَ ٱلنيابة. . . وإلَّا فماذا بقيَ مِنَ ٱلإعجازِ وقد عجزَتِ ٱلآية؟ زِهْ زِهْ يا رجل. . .).

ثُمَّ قال: إنَّ فيما تُقَدَّمُ بِهِ ٱلكلمةُ ٱلعربيَّةُ على ٱلآيةِ ٱلحكيمةِ (اللهمَّ غفراً) مزايا ثلاثاً: أُولى هذه ٱلمزايا الثلاث، هذا الإيجازُ ٱلساحرُ فيها؛ ذلك أنَّ: «القتلُ أنفى للقتل» ثلاثُ كلمات لا أكثر، أمَّا الآيةُ فإنَّها سبعُ كلماتٍ (كذا) وعلى تلك فهيَ أقدمُ عَهْداً وأسبقُ مِيلاداً من آيةِ ٱلتنزيل (تأمَّلْ) حاشا كلامَ ٱللَّهِ ٱلقديم، وَٱلإيجازُ مِيزةٌ أيةُ ميزة؛ ٱلميزةُ ٱلثانيةُ لِلْكلمةِ ٱلاستقلالُ ٱلكتابيُّ وفقْدُ ٱلتعاقدِ بينها وبين شيءٍ آخرَ سابقٍ عليها، حتى إنَّ ٱلمُتمثِّلَ بِها ٱلمستشهدَ يبتدىءُ بها حديثاً مستَتِمًّا ويختتِمُهُ في غيرِ مزيدٍ ولا فضل، فلا يتوقَّفُ ولا يستعينُ بِغيرِها، أمَّا ٱلآيةُ فإنَّها منسوقةٌ معَ ما قبلَها بِٱلواو، فهيَ متعاقِدَةٌ مترابِطةٌ معَه، لا يتمثَّلُ بها ٱلمتمثِّلُ حتى يستعينَ بِشيءٍ سِواها، وليسَ ٱلذي يعتمدُ على غيرِهِ فلا يستقلُّ كَٱلذي يعتمدُ على نفسِهِ فيستقلّ؛ ٱلميزةُ ٱلثالثةُ أنَّ ٱلكلمةَ ليسَتْ مُتَّصِلةً في آخرِتِها بفضلٍ مِنَ ٱلقولِ تُغني عنه، على حينِ تتَّصِلُ الآيةُ بما تُغني عنَهُ مِنَ

ٱلقول. ويُعتدُ كَٱلفصلِ وهو كلمتا ﴿يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وإنْ كانَ لا زيادةَ في ٱلقرآنِ ولا فضول.

ثُمَّ قال: إنَّ مدرساً جاءَهُ بِٱلفصلِ ٱلذي عقدَهُ ٱلإمامُ ٱلسيوطيُّ في كتابِهِ «الإتقان» لِتفضيلِ ٱلآيةِ على ٱلكلمةِ وفيهِ قرابةُ خمسةٍ وعشرينَ حُجَّة؛ قال: إنَّها ٱنحطتْ بعدَ أنْ رماها بِنظرِهِ ٱلعالي إلى إربع: «أما الباقياتُ فَمِنْ نسج ٱلانتحالِ وَٱلتزيُّد»، قال: وأولاها أنَّ الآيَةَ أوجزُ لفظاً، والكاتبُ يرى الآية: «سبعَ كلماتٍ في تحديد ودِقَّة»، قال: إذاً لقد بطلَتْ حُجَّةُ ٱلإيجازِ في ٱلآية» (اللهم غفراً)، قال: وٱلثانية: «أنّ في ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ تكراراً لِكلمةِ ٱلقتلِ سَلِمَتِ ٱلآيةُ منه»، وردَّ ٱلكاتبُ أنَّ هذا ٱلتكرار: «يتحلّل طلاوةً ويقطرَ رِقَّة، (قال): وهذا فمي فيهِ طعمُ ٱلعسل»، (قلْنا: وعليهِ ٱلذبابَ يا سيدَنا...)، وَٱلثالثةُ أنَّ في ٱلآيةِ ذكراً لِلقِصاصِ بلفظِهِ على حين لا تذكرُ ٱلكلمةُ إلَّا ٱلقتلَ وحدَه، وليس كلُّ قتلٍ قِصاصاً؛ ودفعَ ٱلكاتبُ هذا بِأَنَّ ٱلكلمةَ ٱنطوَتْ على قتلينِ أحدُهما ينفي صاحبَه، فذاك هو ٱلقِصاص؛ قال: «إذن فَٱلكلمةُ وَٱلآيةُ في قصدِ ٱلقِصاصِ يلتقيانِ فرسي رِهان»؛ وَٱلرابعةُ أنَّ ٱلقِصاصَ في ٱلآيةِ أعمُّ يشملُ ٱلقتلَ وغيرَه. وأقَرَّ ٱلكاتبُ أنَّ لِلآيةِ فضلاً على ٱلكلمةِ من هذه ٱلناحية، ولكنَّ ٱلكلمةَ حِكمةٌ لا شريعة، وهيَ من قضاءِ ٱلجاهليَّة، فليسَ عليها أنْ تُبيِّنَ ما لم يعرفْهُ ٱلعربُ ولم يُخلَقْ بعد، قال: «إذن فليسَتِ ٱلكلمةُ مُقصِّرةً عن بيان، متبلدةً عن إحسان».

* * *

هذا كلُّ مقالِهِ بِحروفِهِ بعدَ تخليصِهِ مِنَ ٱلركاكةِ وَٱلحَشْوِ وما لا طائلَ تحته، ونحن نستغفرُ ٱللَّهَ ونستعينُهُ ونقولُ قولَنا، ولكنَّا نُقدِّمُ بين يدي ذلكَ مسألة، فمِنْ أين لِلكاتب أنَّ كلمةَ: «القتلُ أنفى لِلقتل» مِمَّا صَحَّتْ نسبتُهُ إلى عربِ ٱلجاهليَّة، وكيف لهُ أنْ يُثبِتَ إسنادَها إليهم وأنْ يُوَثِّقَ هذا ٱلإسنادَ حتى يستقيمَ قولُه: إنَّ ٱلقرآنَ أقبلَ على آثار ٱلعرب؟...

أنا أُقرِّرُ أنَّ هذه ٱلكلمةَ مولَّدةٌ وُضِعَتْ بعدَ نزولِ ٱلقرآنِ ٱلكريم وأُخِذَتْ مِنَ الآية، وَٱلتوليدُ بَيِّنٌ فيها، وأثرُ ٱلصنعةِ ظاهرٌ عليها؛ فعلى ٱلكاتبِ أنْ يدفعَ هذا بِما يُثبِتُ أنَّها مِمَّا صَحَّ نقلُهُ عنِ ٱلجاهليَّة؛ ولقد جاءَ أبو تمامٍ بابدعَ وأبلغَ من هذه ٱلكلمةِ في قولِهِ:

وأخافَكُم كي تُغْمِدوا أسيافَكُمْ ... إنَّ ٱلدَّمَ ٱلمُغْبَرَّ يَحْرُسُهُ ٱلدَّمُ

(الدمَ يحرُسُهُ ٱلدم)، هذه هيَ ٱلصناعةُ وهذه هيَ ٱلبلاغةُ لا تلك، ومعَ هذا فكلمةُ ٱلشاعرِ مولَّدةٌ مِنَ ٱلآية، يدلُّ عليها ٱلبيتُ كُلُّهُ؛ وكأنَّ أبا تمَّام لم يكنْ سمعَ قولَهم: «القتلُ أنفى لِلقتل»، وأنا مستيقِنٌ أنَّ ٱلكلمةَ لم تكنْ وُضِعَتْ إلى يومئذٍ.

ولو أنَّ مُتَمَثِّلاً أرادَ أنْ يتمثَّلَ بِقولِ أبي تَمَّام فَٱنتزعَ منه هذا ٱلمثلَ «الدمُ يحرسُهُ ٱلدم»، أيكونُ حتماً مِنَ ٱلحتم أنَ يُقال لَهُ: كلا يا هذا فإنَّ ٱلبيتَ سبعُ كلماتٍ فلا يصحُّ ٱنتزاعُ ٱلمثلِ منه ولا بُدَّ من قِراءةِ ٱلبيتِ بِمصراعيهِ كما يقولُ كاتبُ ٱلكوكبِ في ٱلآيةِ الكريمةِ لِيزعمَ أنَّها لا تُقابلُ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ في ٱلإيجاز؟

إنَّ ٱلذي في معاني ٱلآيةِ ٱلقرآنيَّةِ مِمَّا ينظرُ إلى معنى قولِهم: «ٱلقتلُ أنفى للقتلِ» كلمتانِ ليسَ غير، وهما «القِصاص، حياة»؛ وَٱلمُقاتلةُ في ٱلمعاني ٱلمتماثلةِ إنَّما تكونُ بِٱلألفاظِ ٱلتي تُؤدِّي هذه ٱلمعاني دونَ ما تعلَّقَتْ بِهِ أو تعلَّقَ بها مِمَّا يَصِلُ ٱلمعنى بِغيرِهِ أو يَصِلُ غيرَهُ به؛ إذِ ٱلمُوازنةُ بين مَعنيينِ لا تكونُ إلَّا في صِناعةِ تركيبِهما، ويُخَيَّلُ إليَّ أنَّ ٱلكاتبَ يُريدُ أنْ يقولَ إنَّ باقي ٱلآيةِ ٱلكريمةِ لَغْوٌ وحَشْو، فهو حَميلةٌ على ٱلكلمتين: ٱلقصاصُ حياةٌ، يُريدُ أنْ يقولَها، ولكنَّهُ غصَّ بها، وإلَّا فلِماذا يلجُّ في أنَّهُ لا بُدَّ في ٱلتمثل، أي لا بُدَّ في المقابلة، من رَدِّ ٱلآيةِ بِألفاظِها جميعاً؟

فإذا قيل: إنَّهُ لا يجوزُ أنْ يتغَّيرَ ٱلإعرابُ في الآية، ويجبُ أنْ يكونَ ٱلمثلُ منتزَعاً منها على ٱلتلاوة، قلْنا: فإنَّ ما يُقابلُ ٱلكلمةَ منها حينئذٍ هو هذا. «في ٱلقِصاصِ حياة»، وجملتُها آثنا عَشَر حرفاً، مَعَ أنَّ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ أربعةَ عَشَرَ؛ فَالإيجازُ عندَ المقابلةِ هو في ٱلآيةِ دونَ ٱلكلمة.

وأما قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، لو كانَ ٱلكاتبُ من أُولي الألبابِ لَفهِمَها وعرفَ موقِعَها وحِكمتَها، وأنَّ إعجازَ ٱلآيةِ لا يَتِمُّ إلَّا بها، إذ أُريدَ أنْ تكونَ معجزةً زمنيَّةً كما سنُشيرُ إليه، ولكنْ أنَّى لَهُ وهو مِنَ ٱلفنِّ ٱلبيانيِّ على هذا ٱلبعدِ ٱلسحيق، لا يعلمُ أنَّ آياتِ ٱلقرآنِ ٱلكريم كَالزمنِ في نسقِها: ما فيهِ من شيءٍ يُظهرُهُ إلَّا ومن وارئِهِ سرٌّ يُحققُه.

ثُمَّ إنَّ ٱلإيجازَ في ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ ليسَ مِنَ «ٱلإيجاز ٱلساحر» كما يصفُهُ ٱلكاتب، بلْ هو عندَنا مِنَ ٱلإيجازِ ٱلساقط؛ وليسَ من قبيلِ إيجازِ ٱلآيةِ ٱلكريمةِ ولا يتعلَّقُ بِهِ فضلاً عن أنْ يُشبهَه، إذْ لا بُدّ في فَهْم صيغةِ ٱلتفضيلِ من تقدير ٱلمُفضَّلِ عليه، فيكونُ ٱلمعنى «القتلُ أكثرُ نفياً للقتل من كذا»، فما هو هذا «الكذا» أيُّها ٱلكاتبُ ٱلمتعثِّر؟

أليسَ تصوُّرُ معنى ٱلعبارةِ وإحضارُهُ في ٱلذهبِ قد أسقطَها ونزلَ بِها إلى ٱلكلامِ ٱلسوقيِّ ٱلمُبتذلِ وأوقعَ فيها ٱلاختلال؟ وهلْ كانَتْ إلَّا صِناعةً شعريَّةً خياليَّةً مُلفقةً كما أومأْنا إلى ذلك آنفا، حتى إذا أجريْتَها على منهجِها مِنَ ٱلعربيَّةِ رأيْتَها في طريقةِ هذا ٱلكلامِ ٱلعربيِّ ٱلأمر يكانيِّ كقولِ ٱلقائل: «الفرحُ أعظمُ مِن ٱلترح»، «الحياةُ هيَ ٱلتي تُعطَى لِلحياة». . . ؟

بهذا ٱلردِّ ٱلموجزِ بطلَتِ ٱلمِيزاتُ ٱلثلاثُ ٱلتي زعمَها ٱلكاتبُ لِتِلكَ ٱلكلمة، وإنَّ ٱلكلمةَ نفسَها لَتبرأُ إلى ٱللَّهِ من أنْ تكونَ لها على الآيةِ مِيزةٌ واحدةٌ فضلاً عن ثلاثة.

ولْنفرضْ «فرضاً» أنَّ ٱلكلمةَ وثيقةُ ٱلإسنادِ إلى عربِ ٱلجاهليَّةِ وأنَّها من بيانِهِم، فما ٱلذي فيها؟

١ ـ إِنَّها تُشبهُ قولَ مَنْ يقولُ لك: إنْ قتلْتَ خصمَك لم يقتُلك. وهلْ هذا إِلَّا هذا؟ وهلْ هو إِلَّا بلاغةٌ مِنَ ٱلهذيان؟

٢ ـ يخرجُ لِشأنِهِ إِلَّا مُقرِّراً في نفسِهِ أنَّهُ إمَّا قاتلٌ أو مقتول، ولذلك تكرَّرَ فيها ٱلقتلُ على طرفيها، فهو من أشنعِ ٱلتكرارِ وأفظعِهِ.

٣ ـ إنَّ فيها ٱلجهْلَ وَٱلظلْمَ وٱلهمجيَّة، إذْ كانَ من شأنِ ٱلعربِ ألَّا تُسَلِّمَ ٱلقبيلةُ ٱلعزيزةُ قاتلاً منها، بلْ تحمِيهُ وتمنعُهُ، فتنقلبُ ٱلقبيلةُ كلُّها قاتلةً بهذه ٱلعصبيَّة؛ فمِنْ ثَمَّ لا ينفي عارَ ٱلقتلِ عن قبيلةِ ٱلمقتولِ إِلَّا ٱلحربُ وٱلاستئصالُ قتْلاً قتْلاً وأكلُ ٱلحياةِ لِلْحياة، فهذا من معاني ٱلكلمة: أي ٱلقتلُ أنفى لِعارِ ٱلقتل، فلا قِصاصَ ولا قضاءَ كما يزعمُ ٱلكاتب.

٤ ـ إنَّ ٱلقتلَ في هذه ٱلكلمةِ لا يُمكنُ أنْ يُخصَّصَ بِمعنى ٱلقِصاصِ إِلَّا إذا خصصَتْهُ ٱلآيةُ فيجيءُ مُقْترِناً بِها، فهو مُفتقِرٌ إليها في هذا ٱلمعنى، وهِيَ تُلبسُهُ ٱلإنسانيَّةَ كما ترى، ولن يَدخلَهُ ٱلعقلُ إِلَّا من معانيها؛ وهذا وحدَهُ إعجازٌ في الآيةِ وعجزٌ مِنَ ٱلكلمة.

* * *

وقبلَ أنْ نُبيِّنَ وجوهَ ٱلإعجازِ في الآيةِ ٱلكريمةِ ونستخرجَ أسرارَها، نقولُ لهذا ٱلطفيليِّ: إنَّه ليسَ كلُّ مَن ٱستطاعَ أنْ يُطيِّر في الجو ورقَةً في قصبةٍ في خيطٍ ـ جازَ لَهُ أنْ يقولَ في تفضيل ورقتِهِ على مِنطادِ زبلين، وأنَّ فيما تتقدَّمُ بِهِ على ٱلمِنطادِ ٱلكريمِ مِيزاتٍ ثلاثاً: ٱلذيل، وٱلورقُ ٱلملوَّنُ، وٱلخيط. . .

يقولُ ٱللَّهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

١ ـ بدأَ الآيةَ بقولِهِ (ولكم)، وهذا قيدٌ يجعلُ هذه الآيةَ خاصَّةً بالإنسانيَّةِ ٱلمؤمنةِ ٱلتي تطلُبُ كمالَها في ٱلإيمان، وتلتمِسُ في كمالِها نِظامَ ٱلنفس، وتُقرِّرُ نِظامَ ٱلنفسِ بِنظامِ ٱلحياة؛ فإذا لم يكنْ هذا مُتَحقِّقاً في ٱلناسِ فلا حياةَ في ٱلقِصاص، بلْ تصلحُ حينئذٍ كلمةُ ٱلهمجيَّة: القتلُ أنفى لِلقتل، أي ٱقتلوا أعداءَكم ولا تدعوا منهم أحداً، فهذا هو ٱلذي يُبقيكُم أحياءً وينفي عنكُمُ ٱلقتل؛ فٱلآيةُ ٱلكريمةُ بِدلالةِ كلمتِها ٱلأولى موجَّهةٌ إلى ٱلإنسانيَّةِ ٱلعالية، لِتوجِّهَ هذه ٱلإنسانيَّةَ في بعضِ معانيها إلى حقيقةٍ من حقائقِ ٱلحياة.

٢ ـ قال: ﴿فِي ٱلْقِصَاصِ﴾ ولم يقلْ في ٱلقتل، فقيَّدَهُ بهذه ٱلصيغةِ ٱلتي تدلُّ على أنَّهُ جزاءٌ ومؤاخذة، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ منهُ ٱلمبادأةُ بِٱلعُدوان، ولا أنْ يكونَ منه ما يخرجُ عن قدْرِ ٱلمُجازاةِ قلَّ أو كَثُر.

٣ ـ تُفيدُ هذه ٱلكلمةُ «القِصاص» بصيغتِها (صيغةِ المُفاعلَة) ما يُشعِرُ بِوجوبِ ٱلتحقيقِ وتمكينِ ٱلقاتلِ مِنَ ٱلمُنازعةِ وٱلدفاع، وألَّا يكونَ قِصاصٌ إلَّا بٱستحقاقٍ وعدل؛ ولذا لم يأتِ بِٱلكلمةِ مِنِ ٱقتصَّ معَ أنَّها أكثرُ ٱستعمالاً، لِأَنَّ ٱلاقتصاصَ شريعةُ ٱلفرْد، وٱلقِصاصَ شريعةُ ٱلمجتمع.

٤ ـ من إعجاز لفظةِ ٱلقِصاصِ هذه أنّ ٱللَّهَ ـ تعالى ـ سَمَّى بها قتْلَ ٱلقاتل، فلم يُسمِّهِ قتلاً كما فعلَتِ ٱلكلمةُ ٱلعربيَّة، لِأنّ أحدَ ٱلقتلينِ هو جريمةٌ وٱعتداء، فنزَّهَ ـ سبحانه ـ ٱلعدْلَ ٱلشرعيَّ حتى عن شَبَهِهِ بِلفظِ ٱلجريمةِ؛ وهذا منتهى ٱلسمُوِّ ٱلأدبيِّ في ٱلتعبير.

٥ ـ ومن إعجازِ هذه ٱللفظةِ أنَّها بٱختيارِها دونَ كلمةِ ٱلقتل تُشيرُ إلى أنَّهُ سيأتي في عصورِ ٱلإنسانيَّة ٱلعالِمةِ ٱلمتحضِّرةِ عصرٌ لا يرى فيهِ قتلَ ٱلقاتلِ بِجنايتِهِ إلَّا شرًّا من قتلِ ٱلمقتول؛ لِأنَّ ٱلمقتولَ يهلكُ بِأسبابٍ كثيرةٍ مختلِفة، على حينِ أنَّ أخذَ ٱلقاتل لِقتلِهِ ليسَ فيهِ إلَّا نيَّةُ قتلِه؛ فعبّرتِ ٱلآيةُ بِٱللغةِ ٱلتي تُلائِمُ هذا ٱلعصرَ ٱلقانونيِّ الفَلسفيّ، وجاءَتْ بِٱلكلمةِ ٱلتي لن تجِدَ في هذه ٱللغةِ ما يُجزِىءُ عنها في ٱلاتِّساعِ لِكُلِّ ما يُرَادُ بِها من فلسَفةِ ٱلعقوبة.

٦ ـ ومن إعجازِ ٱللفظةِ أنها كذلك تحمِلُ كلَّ ضروبِ ٱلقِصاصِ [illegible] ٱلقتلِ فما دونَه، وعجيبٌ أنّ تكونَ بِهذا ٱلإطلاقِ مع تقييدِها بِٱلقيودِ ٱلتي مرَّتْ بك، فهيَ

بذلك لُغةُ شريعةٍ إلٰهيةٍ على ٱلحقيقة، في حين أَنَّ كلمةَ ٱلقتلِ في ٱلمثلِ ٱلعربيِّ تنطِقُ في صراحةٍ أنَّها لغةُ ٱلغريزةِ ٱلبشريَّةِ بأقبحِ معانيها؛ ولذلك كانَ تكرارُها في ٱلمثلِ كَتكرارِ ٱلغلطة؛ فالآيةُ بلفظةِ (ٱلقِصاص) تضعُكَ أمامَ ٱلألوهيَّةِ بِعدْلِها وكمالِها، وٱلمثلُ بِلفظةِ (ٱلقتل) يضعُكَ أمامَ ٱلبشريَّةِ بنقصِها وظُلْمِها.

٧ ـ ولا تنسَ أنَّ ٱلتعبيرَ بِٱلقصاصِ تعبيرٌ يدعُ ٱلإنسانيَّةَ محلَّها إذا هيَ تخلَّصَتْ من وحشيتِها ٱلأولى وجاهليَّتِها ٱلقديمة، فيشملُ ٱلقِصاصُ أخذَ ٱلدِّيةِ وَٱلعفوَ وغيرَهما؛ أمَّا ٱلمثلُ فليسَ فيهِ إلَّا حالةٌ واحدةٌ بِعينِها كأنَّهُ وحشٌ ليسَ من طَبعِهِ إلَّا أنْ يفترس.

٨ ـ جاءَتْ لفظةُ ٱلقِصاصِ مُعرَّفةً بأداةِ التعريف، لِتدُلَّ على أنَّهُ مقيَّدٌ بِقيودِهِ ٱلكثيرة؛ إذْ هو في ٱلحقيقةِ قوَّةٌ من قُوى ٱلتدميرِ ٱلإنسانيَّةِ فلا تصلُحُ ٱلإنسانيَّةُ بِغيرِ تقييدِها.

٩ ـ جاءَتْ كلمةُ (حياة) منوّنة، لِتدلَّ على أنَّ هٰهنا ليسَتْ حياةً بعينِها مُقيَّدةً بِٱصطلاحٍ معيَّن؛ فقد يكونُ في ٱلقِصاصِ حياةٌ ٱجتماعيَّة، وقد يكونُ فيهِ حياةٌ سياسيَّة، وقد تكونُ ٱلحياةُ أدبيَّة، وقد تعظمُ في بعضِ ٱلأَحوالِ عنْ أنْ تكونَ حياة.

١٠ ـ إنَّ لفظَ (حياة) هو في حقيقتهِ ٱلفلسفيَّةِ أعمُّ مِنَ ٱلتعبيرِ (بنفي ٱلقتل)، لِأنَّ نفيَ ٱلقتلِ إنَّما هو حياةٌ واحدة، أي تركُ ٱلروحِ في ٱلجسم، فلا يحتملُ شيئاً مِنَ ٱلمعاني ٱلسامية، وليسَ فيهِ غيرُ هذا ٱلمعنى ٱلطبيعيِّ ٱلساذج؛ وتعبيرُ ٱلكلمةِ ٱلعربيَّةِ عن ٱلحياةِ (بنفي ٱلقتل) تعبيرٌ غليظٌ عاميٌّ يدلُّ على جَهْلٍ مُطْبِقٍ لا محلَّ فيهِ لِعِلْمٍ ولا تفكير، كَٱلذي يقولُ لك: إنَّ ٱلحرارةَ هيَ نفيُ ٱلبُرودة.

١١ ـ جعْلُ نتيجةِ ٱلقتلِ حياةً تعبيرٌ من أعجبِ ما في ٱلشعرِ يسمو إلى ٱلغايةِ مِنَ ٱلخيال، ولكنّ أعجبَ ما فيهِ أنَّهُ ليسَ خيالاً، بلْ يتحوَّلُ إلى تعبيرٍ عِلْمِيٍّ يسمو إلى ٱلغايةِ مِنَ ٱلدقَّة، كأنَّهُ يقولُ بِلِسانِ ٱلعِلْم: في نوعٍ من سَلْبِ ٱلحياةِ نوعٌ من إيجابِ ٱلحياة.

١٢ ـ فإذا تأمَّلْتَ ما تقدَّمَ أنعمْتَ فيهِ تحقَّقْتَ أنَّ ٱلآيَةَ ٱلكريمةَ لا يَتِمُّ إعجازُها إلَّا بِما تَمَّتْ بِهِ من قولِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فهذا نِداءٌ عجيبٌ يسجدُ لَهُ مَنْ يفهمُه، إذْ هو موجَّهٌ لِلعربِ في ظاهرِهِ على قدرِ ما بلغوا من معاني ٱللّب[1]، ولكنَّهُ في

(١) اللب: العقل والقلب.

حقيقتِهِ موجَّهٌ لإقامةِ ٱلبُرهانِ على طائفةٍ من فلاسفةِ ٱلقانونِ وٱلاجتماع، هم هؤلاءِ ٱلذين يَرَوْن إجرامَ ٱلمُجرمِ شذوذاً في ٱلتركيبِ ٱلعصبيّ، أو وِراثةً محتومَة، أو حالةً نفسيَّةً قاهِرة، إلى ما يجري هذا ٱلمجرى؛ فمِنْ ثُمَّ يَرَوْنَ أنْ لا عِقابَ على جريمة، لِأنَّ ٱلمُجرمَ عندَهم مريضٌ لَهُ حكمُ ٱلمرضى؛ وهذه فلسفةٌ تحملُها ٱلأَدمغةُ وٱلكتب، وهيَ تُحوِّلُ ٱلقلبَ إلى مصلحةِ ٱلفرْدِ وتصرِفُهُ عن مصلحةِ ٱلمجتمع، فنَبَّهَهُمُ ٱللَّهُ إلى ألبابِهِم دون عقولِهِم، كأنَّهُ يُقرِّرُ لهم أنَّ حقيقةَ ٱلعِلْم ليسَتْ بٱلعقلِ وَٱلرأْي، بلْ هيَ قبلَ ذلك بِٱللبِّ وَٱلبصيرة، وفلسفةُ ٱللبِّ هذه هيَ آخِرُ ما ٱنتهَتْ إليه فلسفةُ ٱلدنيا.

١٣ ـ وَٱنتهَتِ ٱلآيةُ بِقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وهيَ كلمةٌ من لغةِ كلِّ زمن، ومعناها في زمنِنا نحن: يا أولي الألباب، إنَّهُ برهانُ ٱلحياةِ في حِكمةِ ٱلقِصاصِ تسوقُهُ لكم، لعلَّكُمْ تتَّقون على ٱلحياةِ ٱلاجتماعيَّةِ عاقبةَ خِلافِه، فٱجعلوا وُجهَتكُم إلى وِقايةِ ٱلمجتمعِ لا إلى وقايةِ ٱلفرْد.

* * *

وبعدُ، فإذا كانَ في الآيةِ ٱلكريمة ـ على ما رأيْتَ ـ ثلاثةَ عَشَرَ وجهاً من وجوهِ ٱلبيانِ ٱلمعجزِ، فمعنى ذلك من ناحيةٍ أخرى أنَّها أسقطَتِ ٱلكلمةَ ٱلعربيَّةَ ثلاثَ عَشْرَةَ مرَّة.

* * *

القتل أنفى للقتل

ليست مترجمة

بعدَ أن نَشرْتُ مقالَة (الكلمةُ المؤمنة) في (البلاغ)، كتبَ ٱلأديبُ ٱلفلسطينيُّ ٱلأستاذُ إسعافُ ٱلنشاشيبي: إنَّ هذه ٱلكلمةَ مترجمةٌ عنِ ٱلفارسيَّة، وقد نقلَها الثعالبيُّ في كتابِهِ (ٱلإيجازُ وَٱلإعجاز)، فنشرنا في «البلاغ» هذا التعليق:

* * *

قالَ ٱلأستاذُ ٱلكبيرُ محمد إسعاف النشاشيبي في كلمتِهِ لِلْبلاغ إنَّ عبارةَ «القتلُ أنفى للقتل»، ليست بِعربيَّةٍ ولا مولَّدة، بلْ هي مترجمة؛ أي فهي مطموسة ٱلوجهِ من كونِها أعجميَّةً وقعَ ٱلخطأُ في نقلِها إلى ٱلعربيَّة، فكانَتْ غلطةً من جهتين.

وإنَّه لَيسُرني أنْ تكونَ فوقَ ذلك زنجيَّةً نُقِلَتْ إلى ٱلمالطيَّة، ثُمَّ تُرجِمَتْ إلى ٱلعربيَّة، فتكونُ غلطةً من أربعِ جِهات، لا من جِهتينِ فقط... ولكنَّ هذه ٱلكلمةَ لم يُشْرْ إلى أَصلِها غيرُ (ٱلثعالبيّ)، وهو مع ذلك لم يقطعْ فيها برأْيٍ، بلْ أشارَ إلى ترجمتِها في صِيغةٍ من صِيغِ ٱلتمريضِ ٱلمعروفةِ عند ٱلرواةِ فقال: «يُحكى أنَّ فيما تُرجمَ عن أزدشير...» و(يحكى) هذه ليسَتْ نصًّا في بابِ ٱلرواية، وقد يكونُ هذا الإمامُ ٱتّقى ٱللَّهَ فٱبتعَدَ بِٱلكلمةِ وَطوّحَ بها إلى ما وراءِ بلادِ ٱلعرب، أو تكونُ ٱلكلمةُ أُلقِيتْ إليهِ على أنّها مُشْتبَهٌ في نِسبتِها؛ ولو كانَتِ ٱلعِبارةُ مترجمةً لتناقلَها ٱلأئمةُ مُعزوّةً إلى قائلِها أو لُغتِها ٱلتي قِيلَتْ فيها.

ولقد ذكرَها ٱلعسكريُّ في كتابِهِ (الصناعتين) على أنَّها (من قولِهِم)، أي ٱلعربِ أوِ ٱلمولَّدين؛ ونقلَها ٱلرازيُّ في تفسيرِه، فقال: إنّ لِلعربِ في هذا ٱلمعنى كلماتٍ منها «قتلُ ٱلبعض إحياءٌ لِلجميع»، وأحسنُها «القتل أنفى لِلقتل»؛ وكذلك جاءَ بِها ٱبنُ ٱلأثيرِ في كتاب «المثلُ السائر» ولم يَعْزُها؛ وقال مُفَسِّرُ ٱلأندلسِ أبو حيَّانَ في تفسيره: إنَّها تُروى بروايةٍ أخرى وهي: «القتلُ أوقى للقتل»، وكلُّ ذلك صريحٌ في أنَّ خبرَ ٱلترجمةِ قدِ ٱنفردَ بِهِ ٱلثعالبيّ.

ولا يقومُ ٱلدليلُ على ترجمتِها إلَّا بظهورِ أصلِها ٱلفارسيّ، فإنْ كانَ عِلْمُ ذلك عندَ أحدٍ فَلْيتفضلْ بِهِ مشكوراً مأْجوراً.

(تنبيه): نشرْنا هذه ٱلكلمةَ ومَضَتْ بعدَها سنواتٌ ولم يقفْ أحدٌ على أنَّ لِلعبارةِ أصلاً فارسيًّا، فلم يبقَ عندَنا رَيبٌ[1] أنَّها من صنيع بعضِ ٱلزنادقةِ وقد ولَّدَها مِنَ ٱلآيةِ ٱلكريمةِ ليُجريَها في مَجرى ٱلمُعارضة[2]؛ وقد كتبَ ٱلأستاذُ ٱلكبيرُ عبدَ ٱلقادرِ حمزة صاحبُ جريدةِ (البلاغ) أنَّ تلك ٱلعِبارةَ حِكْمةٌ مِصْرِيَّةٌ قديمة؛ ولا نمنعُ أَنْ يكونَ هذا، فإنَّ بعضَ ٱلحِكَم مِمَّا تَتَوَارَدُ عليهِ ٱلعقولُ ٱلإنسانيَّةُ ٱلنابغة؛ إذْ كانَتِ ٱلطبيعةُ ٱلبشريَّةُ كأنَّها تُمْليه؛ غيرَ أنّ ٱلعِبارةَ ليسَتْ في كلام ٱلجاهليَّةِ ٱلقديمةِ ولا ٱلحديثة، وألفاظُ ٱلمصريَّةِ غيرُ ألفاظِ ٱلعربيَّة، فلم يبقَ إلَّا تواردُ ٱلخواطر، وَٱللَّهُ أعلم.

---

(١) ريب: شكّ.

(٢) المعارضة: المقارنة.

القتل أنفى لِلقتل

ليسَتْ جاهلية

وبعدَ كلمتِنا تلك عنِ ٱلترجمةِ نشرَ أديبٌ في ٱلبلاغِ أنَّ ٱلكلمةَ جاهليَّة، فتعقبْناهُ بهذا ٱلتعليق:

* * *

أثبَتَ ٱلأستاذُ عبدُ ٱلعزيزِ ٱلأزهريُّ فيما نشَرهُ في «البلاغ» أنَّ هذه ٱلكلمةَ عربيَّةٌ في دعواه، وَٱحتجَّ لذلك بِحُجَج، أقواها زعمُه: «أنها وردَتْ بين ثنايا عهدِ ٱلقضاءِ ٱلذي بعثَ بِهِ سيدُنا عمرُ إلى أبي موسى ٱلأشعري؛ ولا ندري أين وجدَ ٱلكاتبُ كلمة: «القتل»، فضلاً عن: «القتلُ أنفى للقتل» ـ في ذلك ٱلعهدِ ٱلمشهورِ ٱلمحفوظ، وقد رواهُ ٱلجاحظُ في «البيان والتبيين»، وجاءَ بِهِ ٱلمبرِّدُ في «الكامل»؛ ونقلَهُ ٱبنُ قتيبةَ في «عيونُ الأخبار». وأورَدهُ ٱبنُ عبدِ ربه في «العقدُ الفريد»، وساقَهُ ٱلقاضي ٱلباقلانيُّ في «الإعجاز»؛ وفي كلِّ هذه ٱلرواياتِ ٱلموثَّقةِ لم تأتِ ٱلكلمةُ في قولِ عمر، بلْ لا محلَّ لها في سِياقِه، وإنَّما جاءَ قولُه: «فإنْ أحضرَ بيِّنَةَ أخذْتَ لَهُ بِحقِّهِ وإلَّا وجَّهْتَ عليهِ ٱلقضاء، فإنَّ ذلك أنفى لِلشَّكِّ».

أمَّا سائرُ حُججُ الكاتبِ فلا وزَن لها في بابِ ٱلروايةِ ٱلتاريخيَّةِ وقد أصبحَ عاليها سافِلَها كما رأيْت.

وٱلذي أنا واثقٌ منه أنَّ ٱلكلمةَ لم تُعرفْ في ٱلعربيةِ إلى أواخرِ ٱلقرنِ ٱلثالثِ مِنَ ٱلهجرة، وهذا ٱلإمامُ ٱلجاحظُ يقولُ في موضع من كتابه (البيانُ والتبيِّين)، في شرح قولِ علي ـ كرَّم ٱللهُ وجهَه ـ: «بقية ٱلسيفِ أنْمَى عدداً وأكثرُ ولداً»، ما نصّه: «ووجدَ ٱلناسُ ذلك بِالعيانِ للذي صارَ إليهِ ولدُهُ من نهكِ ٱلسيفِ وكثرةِ ٱلذرءِ وكرم ٱلنجل؛ قالَ ٱللَّهُ ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وقال بعضُ الحُكماء: «قتل البعضِ إحياءٌ لِلجميع».

ولم يزدِ ٱلجاحظُ على هذا، ولو كانَتِ ٱلكلمةُ معروفَةً يومئذٍ لَمَا فاتَتْهُ كما هو

صنيعُهُ في كتبِهِ، خُصوصاً وهي أوجزُ وأعذبُ مِمَّا نسبَهُ لِبعضِ ٱلْحُكماء؛ وهذه ٱلعِبارةُ ٱلأخيرةُ (قتلُ البعض. . .) هي ٱلَّتي زعمَ ٱلرازيُّ في تفسيرِهِ أنَّها لِلعرب. . . فلا عِبرَةَ في هذا ٱلبابِ بِكلامِ ٱلمُفسرينَ ولا ٱلمُتأخرين من علماءِ ٱلبلاغة، وإنّما ٱلشأنُ لِلتحقيقِ ٱلتاريخيِّ.

ونصَّ ٱلجاحظُ في كتاب «حججُ النبوَّة» على أنَّ قوْماً منهم ٱبنُ أبي ٱلعوجاء، وإسحاقُ بْنُ ٱلوت، وَٱلنعمانُ بْنُ ٱلمنذر: «أشباهُهُم مِنَ ٱلأرجاسِ ٱلذين ٱستبدَلوا بٱلعزِّ ذُلّا، وبٱلإيمانِ كُفراً، وبٱلسعادةِ شِقوة، وبِٱلحُجَّةِ شُبهة، كانوا يصنعونَ ٱلآثار، ويُولِّدون ٱلأخبار، ويبثُّونها في الأمصار، ويطعنونَ بِها على ٱلقرآن»؛ فهذا عندَنا من ذاك.

وإنْ لم ينهضِ ٱلدليلُ القاطعُ على أنَّ ٱلكلمةَ مترجمةٌ عنِ ٱلفارسيَّة بِظهورِ أصلِها في تلك ٱللغةِ ورجوعِهِ إلى ما قبلَ ٱلإسلام، فهي ولا ريبَ مِمَّا وُضِعَ على طريقةِ ٱبنِ ٱلراوندي ٱلزنديقِ ٱلمُلْحِدِ ٱلذي كانَ في منتصفِ ٱلقرنِ ٱلثالثِ وألَّفَ في ٱلطعْنِ على هذه ٱلطريقة: «إنَّا نجدُ في كلامِ ٱلعرب شيئاً أبلغَ من ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾».

وهؤلاءِ ٱلمتطرِّفون على ٱلقرآنِ ٱلكريم إنَّما يُريدون بما يصنعونَهُ من مثلِ هذه ٱلكلمةِ أنْ يُوجِدوا لِلعامةِ وأشباهِهِم مِنَ ٱلأحداثِ وٱلأغرارِ وأهلِ ٱلزيغِ وَٱلضعفاءِ في ٱلعِلْم ـ سبيلاً إلى ٱلقوْلِ في نقضِ ٱلإعجاز، ومَسَاغاً إلى ٱلتهمةِ، في أنَّ ٱلقرآنَ تنزيل؛ وٱلخطأُ في مثلِ هذا يتجاوزُ معنى ٱلخطأ في ٱلبيانِ إلى معنى ٱلكفْرِ في ٱلدين، وذلك ما يرمون إليه؛ وهذه بِعينِها هيَ طريقةُ المبشِّرينَ ٱليوم، فكأنَّ إبليسَ من عهدِ أولئكَ ٱلزنادقةِ إلى عهدِ ٱلمُبشرينَ لم يستطعْ إنْ يتغَيْر، ولا أنْ يكون. . . أن يكونَ مُجَدِّداً. . .

* * *

فهرس المحتويات